

تَسْوِيرُ السُّورِ الْقُرْآنِيَّةِ

٢٠

مُفَصِّلَاتُ تَفْسِيرٍ

بَصَائِرُ الْمَعْرِفَةِ الْقُرْآنِيَّةِ

٣٣

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

مَوْضُوعُهَا الْكُفَى

الْقُرْآنُ نَبِيٌّ الْإِتْبَاعُ وَالتَّذَكُّرُ وَالْإِنذَارُ وَالتَّبَصُّرُ

الْقُرْآنُ يُبَصِّرُ بِالْمَعْرِفَةِ الْعُلْيَا لِلْمَرَحِلِ لِلتَّارِيخَةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَيَحْذَرُ الْمَلَأَ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِي تَأْسِيسِ دَارِ الْفَاسِقِينَ، وَبَقِيَ مِنَ الْفَسَادِ وَالْأَنفَاضِ لِإِسْرَائِيلِيَّةِ الْمُسَيَّسَةِ لِأَسْتِلَاحِ مِنَ الْأَنْوَارِ الْإِلَهِيَّةِ

الْكِتَابُ السَّالِفُ

تَفْسِيرُهُ وَبَصَائِرُ الْآيَاتِ (٩٣-٥٩)

أَهْمُ الدُّوَرَاتِ الْحَضَارِيَّةِ الْعِظَمَى وَالْعَهْدُ الْبَارِيخِي الْفَاضِلَةُ
الَّتِي قَادَتْ الْإِسْتَانِيَّةَ قَبْلَ الْعَهْدِ الْإِسْرَائِيلِيِّ فِي التَّارِيخِ الْقَدِيمِ



الْإِسْتِئَاذُ الدُّكْتُورُ
عَبْدُ الْمَنَّةَانِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَجِيذِيِّ

كلية الشريعة / جامعة قطر



المُفَصَّلُ فِي تَفْسِيرِ

سُورَةِ الْأَعْرَافِ

تَسْوِيرُ السُّورَةِ الْقُرْآنِيَّةِ

٢٠

بَصَائِرُ الْمَعْرِفَةِ الْقُرْآنِيَّةِ

٣٣

الْبُفْصَلُ فِي نَفْسَيْهِ

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

عَمُودُ السُّورَةِ (مَوْضُوعُهَا الْكُلِّيُّ)

الْقُرْآنُ بَيْنَ الْإِتْبَاعِ وَالتَّذَكُّرِ وَالْإِنْذَارِ وَالتَّبَصُّرِ

الْقُرْآنُ يُبَصِّرُ بِالْمَعْرِفَةِ الْعُلْيَا لِلْمَرَّحِلِ لِلتَّارِيخَةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَيَحْذَرُ الْمَلَأَ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِي تَأْسِيسِ دَارِ الْفَاسِقِينَ، وَيَقِي مِنَ الْفَسَادِ وَالْإِنْفَاضِ لِإِسْرَائِيلِيَّةِ الْمُؤَسَّسَةِ لِإِنْسِلَاحٍ مِنَ الْأَنْوَارِ إِلَى الْإِلَهِيَّةِ

الْكِتَابُ الْإِلَهِيُّ

تَفْسِيرُهُ وَبَصَائِرُ الْآيَاتِ (٩٣-٥٩)

أَهْمُ الدُّوَرَاتِ الْحَضَارِيَّةِ الْعَظْمَى وَالْعُمُودِ التَّارِيخِيَّةِ الْفَاعِلَةِ
الَّتِي قَادَتْ الْإِنْسَانِيَّةَ قَبْلَ الْعَهْدِ الْإِسْرَائِيلِيِّ فِي التَّارِيخِ الْقَدِيمِ

الْأُسْتَاذُ الذَّكِيُّ

عَبْدُ اللَّهِ السَّلَامُ قَبْلَ الْحَجْدِيِّ

كلية الشريعة / جامعة قطر

المفصل في تفسير

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

الكتاب الرابع

أ.د/ عبد السلام بن مقبل المجيدي
أستاذ الدراسات القرآنية / كلية الشريعة / جامعة قطر

خضع هذا الكتاب للتحكيم العلمي

راجعه
القسم العلمي بمؤسسة
بصائر المعرفة القرآنية

وحدة البحوث والدراسات
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية / جامعة قطر

يمكن لمن يحب أن يعيد طباعة هذا الكتاب بشرط
ألا يتصرف في مضمونه، ويحبذ إعلام المؤلف

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية : ٢٠٢٦/١٢٣

الترقيم الدولي ISBN : ٩٧٨٩٩٢٧٢٠٦٠٣٠



طبعت بمطابع الراية

الطبعة الأولى

١٤٤٧ هـ - ٢٠٢٦ م



مُقَدِّمَة

بين يدي الدورات الحضارية العظمى قبل العهد الإسرائيلي

الحمد لله الذي نورَ بآياته بصائر الأنام، وجعلَ قصصَ أنبيائه سُرْجًا تبيدُ غياهبَ الظلام، وتكشفُ سننَ التدافع بين الحقِّ وأهلِ الباطل وعُبادِ الأوهام، ليكونَ في ذلك ذكرى لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمعَ وهو شهيدٌ على مرِّ الأيام، والصلاة والسلامُ على مَنْ خُتِمَتْ به الشرائعُ العظام، محمدٍ الهادي إلى دارِ السلام، وعلى آله وصحبه الكرام، ومَنْ تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين. **أما بعد:** إليك -أيها المبارك- الكتاب الرابع ضمن سلسلة "مُفَصَّلُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ وبصائرُها"، وهو يختصُّ بتناول المحور الثالث من محاور السورة الستة، مغطياً الآيات العظمى من [٥٩] إلى [٩٣]. وبعد تدبُّرٍ بالبصائر المنيرة، والأفكار الفعالة التي تضيئها آفاق هذه السورة وجدت أن أنسب عنوانٍ لهذا المحور هو: **"أهمُّ الدورات الحضارية العظمى والعهود التاريخية الفاصلة التي قادت الإنسانية قبل العهد الإسرائيلي في التاريخ القديم"**.

ابتداءً من الآية التي بصرتنا بالدعوة المنقذة للبشرية التي أرسل الله ﷻ بها نوحًا عليه السلام، وضمَّنها الإشفاق القلق، وحب الخير العبق: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوْمُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنَِّّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ووصولاً إلى آية العاطفة الملتبها الصادقة التي وصف الله ﷻ بها شعيباً عليه السلام، فقال: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَتَقَوْمُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣].

علاقة الكتاب بما سبقه، والبناء الهندسي المثير لسورة الأعراف:

لا يمكن فهم عمق هذا المحور التاريخي إلا بربطه بالبنيان الهندسي المحكم لسورة الأعراف كما عُرضت في الأجزاء السابقة:

فقد تناول الكتاب الأول: "الأسس الثمانية لاختيار عمود سورة الأعراف" ومقدمة السورة التي تناولت تفسير الآيات [٩-١]، وتضمنت وصف القرآن بأنه كتاب الإنذار العالمي ودرع الحماية للإنسانية من الأخطار الواقعة والمتوقعة.

ثم جاء الكتاب الثاني ليشرح "المحور الأول في البناء الهندسي للسورة" الذي تناول تفسير الآيات [٥٣-١٠] كاشفًا عن البداية والنهاية للرحلة الإنسانية وتفاصيل معركتها الوجودية ضد العدو الإبليسي.

وأعقبه الكتاب الثالث الذي يفصل "المحور الثاني" وتناول تفسير الآيات [٥٨-٥٤]، وجاء ليرسي المعالم العامة التي تُعرّف بالله ﷻ وتُوجِبُ اتِّباعَهُ بعد أن عَرَفَ الإنسانُ رحلته التاريخية السابقة واللاحقة، وتشوِّفُ إلى التعرف إلى من يدبر أمر هذه الرحلة، ويدبر نظام الكون. فانظر-أيّدك الله- براعة الترتيب القرآني؛ وإحكام هذا التسوير الفرقاني، فبعد أن عرّفنا السورة في محورها الأول بـ (الإنسانية وحقيقة وجودها)، وعرّفنا في محورها الثاني بـ (ربِّ الإنسانية وخالقها)، هنا يأتي هذا الكتاب الرابع لـ (المحور الثالث) ليجسّد العلاقة العملية بين الطرفين؛ وهي علاقة "اتباع الوحي" وتوالي القيادات المصلحة التي أنقذت الذرية الآدمية من الغواية الإبليسية لتربطها بخالقها العظيم.

موضوعات الكتاب ومنهجه:

يستعرض هذا الكتاب السرد القرآني المبتكر لخمس دورات حضارية كبرى، مثّلت عهدًا فاصلة في التاريخ القديم، مقدمًا التفسير الإسلامي لحركة التاريخ، وكاشفًا عن سنن الله ﷻ في التداول، والصراع بين "القيادات النبوية المفلحة" و"الملأ المستكبرين".

وفصّل الكتاب هذه الدورات على النحو الآتي:

الدورة الأولى (عهد نوح عليه السلام): بوصفه القيادة الأولى التي واجهت فساد الفكر (الشرك) والتمييز الطبقي العنصري، مؤسسًا لأركان الدعوة الثلاثة: عبادة الله، وتوحيده، والإعداد للآخرة.

الدورة الثانية (عهد عاد وهود عليه السلام): حيث المواجهة مع الاغترار بالقوة الجسمية والمادية، وكيف واجه النبيُّ تُهَمَّ السفاهة والكذب بالثبات والحجة البالغة.

الدورة الثالثة (عهد ثمود وصالح عليه السلام): وتبرز فيها معالجة الفساد الحضاري والتقسيم الطبقي، مع تفصيل الآية المعجزة (الناقة) والجرائم الرباعية للملأ المستكبرين (استضعاف المؤمنين، وعقر الناقة، والعتو، والسخرية).

الدورة الرابعة (عهد قوم لوط عليه السلام): وهي مواجهة مع أخطر أنواع الفساد الأخلاقي الذي يهدّد الفطرة البشرية، مقدمًا العلاج القرآني الشامل للانحرافات الشاذة.

الدورة الخامسة (عهد مدين وشعيب عليه السلام): وفيها مواجهة للإفساد في الأرض، والقرصنة الدولية، وتكامل فيها الإصلاحات الاقتصادية والإدارية والحقوقية، لمواجهة تطفيف الموازين والفساد المالي.

يا لعظمة هذه البصائر العظيمة القويمة الجسيمة الكريمة التي تشرق من كل كلمة تتلوها في هذه الآيات. إنها تجذبك بقوتها، وحنانها، وجمالها، ورسمها لمعالم التاريخ والحياة، وهنا تشعر بإشعاع البيان الإلهي المشرق: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

يخلص هذا الكتاب إلى تقديم رؤية متكاملة لسنن النصر والتمكين للمؤمنين، وسنن الهلاك للمكذابين، مبرزاً كيف أن هذه القصص ليست مجرد سرد تاريخي، بل هي "بصائر" حية تكشف تفاصيل المعركة المستمرة بين معسكر المبطلين وجند الله المفلحين، وتزود السائرين في طريق الإصلاح بزداد الصبر الإيجابي وأنوار اليقين، وتردد مع أعظم قيادات العالم الصادقين: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا أَفَتَحَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

فأقبل -أيها القارئ الكريم- على هذه الصفحات بقلبٍ مُحِبٍّ وشغفٍ متوقِّدٍ، لتنهّل من معينها القرآني الصافي، وترشّف من رحيق بصائرها ما يُزَكِّي النفس، ويُنير الدرب، ولترى مطارق السنن الربانية لا تترك حضارة عاتية عاصية قاسية إلا قالت في أواخر مهلتها الحضارية: ﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤].

اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ هَذِهِ الْبَصَائِرَ الْمُبَارَكَةَ، اللَّهُمَّ يَسِّرْ لِي إِيْتِمَامَ تَفْسِيرِ كِتَابِكَ عَلَى أَحْسَنِ وَجْهِ، وَأَجْمَلِهِ، وَأَكْمَلِهِ، وَأَحَبِّهِ إِلَيْكَ وَأَرْضَاهُ عِنْدَكَ، وَأَكْثَرِهِ تَأْثِيرًا فِي نُفُوسِ الْخَلْقِ، وَأَعْظَمِهِ بَيَانًا لِإِعْجَازِ آيَاتِكَ، وَاجْعَلْ ذَلِكَ عَلَى نَحْوِ لَمْ أُسَبِّقْ إِلَيْهِ، وَأَنْشُرُهُ بِصَائِرِ الْعَالَمِينَ، وَاجْعَلْنِي بِذَلِكَ مِنَ الْمُخْلِصِينَ الشَّاكِرِينَ، وَأَلْقِ الْقَبُولَ لَهُ فِي الْعَالَمِينَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَاجْعَلْهُ مِمَّا يُبَاهِي بِهِ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ.

وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ، وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ وَبَارَكَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

s1435y@gmail.com

١١ رجب ١٤٤٧ هـ

٣١ ديسمبر ٢٠٢٥ م

الخريطة الكلية لسورة الأعراف

الموضوع الكلي

القرآن بين الشاع والتذكير والإنذار والتبشير

القرآن يُصَوِّرُ لِمَعْرِفَةِ الْعَالَمِ لِلْحَلِّ الْمُنَاسِبَةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَيُخَطِّرُ الْمَلَأَ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِي تَأْسِيسِ دَارِ الْغَايَتَيْنِ، وَيَقِي مِنَ الْفَسَادِ وَالْإِفْطَارِ الْإِسْرَافِيَّةِ الْمُسْتَكْبِرِينَ الْإِلَهِيَّةِ

- 1 **المقدمة:** القرآن كتاب الإنذار العالمي من الأخطار الواقعة والمُتَوَقَّعة [الأعراف: ٩١-٩٠]
 - 2 **المحور الأول** البداية والنهاية للرحلة الإنسانية الكبرى في مسيرة الحياتين [الأعراف: ١٠-٥٣]
 - 3 **المحور الثاني** المعالم العامة التي تعرّف بالله عز وجل، وتقتضي ضرورة اتباع المُتَرَلِّ من رب العالمين [الأعراف: ٥٤-٥٨]
 - 4 **المحور الثالث** أهمّ الدّورات الحضاريّة العظمى والعهود التاريخيّة الفاصلة التي فادت الإنسانية قبل العهد الإسرائيلي في التاريخ القديم [الأعراف: ٥٩-٩٣]
 - 5 **المحور الرابع** السّنن الاجتماعية الكونية العامة التي تحكم تاريخ الذّرية الأدمية أمام دعوات الإصلاح النبوية، وخطوات القدر التي تتعامل مع حركة البشر [الأعراف: ٩٤-١٠٢]
 - 6 **المحور الخامس** العهد السادس من عهود الذرية الأدمية، ويمثل التاريخ الوسيط: العهد الإسرائيلي [الأعراف: ١٠٣-١٧١] وانقسم إلى ثلاثة فصول كبرى:
- فصل [1] ظهور موسى عليه السلام، وعودة الإيمان بالله عز وجل، وبداية الاتبعات الإسرائيلي
 - فصل [2] عهد المواجهة ونهاية التّاريخ الفرعوني [الأعراف: ١٢٧-١٣٧]
 - فصل [3] عهد التّمكين الإسرائيلي: أهم مظاهر نقض الإسرائيليين للعهد الإلهي [الأعراف: ١٣٨-١٧١]
- 7 **المحور السادس** العهد الإنسانيّ الحديث والأخير، ويظهر الله عز وجل فيه آيات القرآن التي جاء بها النبي الخاتم ﷺ لتمثّل للعالم مفاتيح فهم الحياة، وتقديم للبشرية دوافع الاهتمام [الأعراف: ١٧٢-١٩٨]
 - 8 **الخاتمة** آداب التّعامل مع الكتاب الذي يحمي الإنسانية من الأخطار الظاهرة والخبّية [الأعراف: ١٩٩-٢٠٦]

أدب عبد الله الرحمن الرحيم



عمود سورة الأعراف (موضوعها الكلي) الذي دارت حوله محاور السورة

القرآن بين الإتيان والتذكير والإنذار والتبصير

القرآن يُصِرُّ بِالْمَعْرِفَةِ الْعَالِيَةِ لِلْمَرْحَلِ النَّارِ نَجْةَ الْبَشَرِيَّةِ، وَيُجَلِّدُ الْمَعَادَ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِي تَأْسِيسِ دَارِ الْفَاسِقِينَ، وَيُبْقِي مِنَ الْفَسَادِ وَالْإِنْفَاضِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ الْمُسْتَسَدَّةِ لِلْإِنْفَاضِ مِنَ الْأَنْوَارِ إِلَى الْيَمِينَةِ



المحور الثالث



أَهْمُ الدُّوَرَاتِ الْخَصَائِصِ الْعَظِيمِ
وَالْعُمُودِ التَّارِيخِيَةِ الْفَاضِلَةِ
الَّتِي قَادَرْنَا أَنْ نَسْتَبْرِقَ بِهَا الْعَهْدَ
الْإِسْرَائِيلِيَّ فِي التَّارِيخِ الْقَدِيمِ

[الأعراف ٥٩-٩٣]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

مِفْصَلُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (٤)

المحور الثالث

أهمُّ الدورات الحضارية العظمى والعهود التاريخية الفاصلة التي قادت

الإنسانية قبل العهد الإسرائيلي في التاريخ القديم [الأعراف: ٩٣-٥٩]

يُشْعِرُكَ السِّياقُ القرآني المبارك أنه ينقلك نقلةً جديدةً إلى محور جديد، فبعد أن عرّفنا المحور الأول ببداية الإنسانية ونهايتها عندما تستقر في الدار الآخرة، وحدّثنا المحور الثاني عن معالم التعريف بالله ﷻ كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، يفصل لنا هذا المحور قصصاً قرآنيّاً، مبتدئاً بقصة نوح ﷺ.

وهذا كلّهُ يجعلنا نتساءل عن المناسبة والاتصال بين ما سبق وما سيأتي؟

المناسبة والاتصال:

أدهشنا هذه السُورة بالمعرفة القرآنيّة العظيمة التي تقدّمها لنا:

(١) فكانت مقدّمها تتمحور حول: القرآن الكريم باعتباره كتاب الإنذار العالمي من المخاطر الواقعة والمتوقّعة، واستغرقت المقدّمة الآيات: [٩-١].

(٢) ثم جاء المحور الأول وبصّرنا بأمر، أهمها:

(أ) بصّرنا بمسيرة الحياة، ففي هذا المحور نجد البداية والنهاية، الماضي والحاضر والمستقبل للرحلة الإنسانية في الحياتين، منذ ما قبل خلق الإنسان إلى أن يستقرّ أصحاب الجنة في الجنة، وأصحاب النار في النار، وختم هذا المحور ببيان أن القرآن هو الهدى والرحمة في تلك الرحلة، وذلك في الآيات: [١٠-٥٣].

(ب) وتضمّن هذا المحور تفاصيل المعركة الأولى للإنسانية ضدّ أسوأ أعدائها، وهو إبليس، وذكر الله ﷻ لنا الهدايات القانونيّة والتربويّة التي أمدّ الله ﷻ بها الدُّيَّةَ الأدميّة لتنجح في مواجهة القبيل الإبليسي.

(ج) كما تضمّن المحور وصفاً تفصيليّاً للمصير الذي ينتظر القوى المستكبرة التي توالي القبيل الإبليسي.

(د) وكذلك تضمن وصفاً تفصيلياً لمصير المؤمنين الثابتين، والنعيم الخالد الذي سَيرُهُ المؤمنون ويُنعَمُونَ به في الآخرة.

والخلاصة أنه حدّثنا عن الماضي ودروس آدم ﷺ فيه، وعن المستقبل وحوادثه، وماذا سيحدث في الآخرة..

(٣) شوّقنا ذلك المحور إلى أن نتعرّف أكثر إلى الذي له وَحْدَهُ الحُكْمُ الفصلُ في الدار الآخرة، ألا وهو الله ﷻ ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وعلى إثر ذلك جاء المحور الثاني مُبيّناً بعض أهمّ المعالم التي تُعرِّفنا بالله ﷻ، وقد وجدنا أنها اثنا عشر معلّماً، وذلك في خمس آيات هي: [٥٨-٥٤].

والآن ماذا نلاحظ من الترابط بين المحورين السابقين؟

الجواب:

- المحور الأول التعريف بالإنسانية وحياتها الدنيا والآخرة.

- المحور الثاني التعريف برَبِّ الإنسانية، وهو الذي أوجد حياتها الأولى والأخرى.

ومن جهة أخرى:

- نرى أن المحور الأول يتضمّن معرفة الدافع الأول لاتباع القرآن، وهو الدافع الذي يتعلّق بماضينا وحاضرنا ومستقبلنا لننتصر على القبيل الإيليسي.

- والمحور الثاني يخبرنا بالدافع الثاني، وهو معرفة الله، وطلب ولايته ﷻ، فهو الذي له الخلق والأمر. فيظهر بذلك أن علاقة المحور الثاني بالأول: علاقة الإنسانية بخالقها ﷻ.

وهذه العلاقة إنما هي اتباع القرآن وكلّ وحي نزل من الله ﷻ؛ لأن الله ﷻ بدأ هذه السُورة بقوله ﷻ: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣].

وهنا يأتي الجزء الثاني الكبير لهذه السُورة، وهو القسم التاريخي لعهود الإنسانية، ويبدأ المحور الثالث بالحديث عن موكب القيادات المفلحة التي أنقذت الدُّريّة الأدميّة من القبيل الإيليسي؛ لترجع إلى الله ﷻ وتُواليه، فهو الذي له الخلق والأمر.

التناسق المعرفي والتكامل الرسالي بين محاور سورة الأعراف: علاقات المحور الثالث بما قبله:

التناسق المعرفي والتكامل الرسالي بين محاور سورة الأعراف: علاقات المحور الثالث بما قبله



وقد تسأل: ما العلاقة بين هذا المحور وما سبقه من مقدمة السورة والمحورين الأول والثاني؟

الجواب: يمكن تلخيص العلاقة بين هذا المحور والمحورين السابقين في الآتي:

العلاقة الأولى: التعريف بالنفس وخالقها: طريق الإيمان: جاءت المقيدة: [الأعراف: ٩-١]، والمحور الأول: [الأعراف: ١٠-٥٣]، والمحور الثاني: [الأعراف: ٥٤-٥٨]؛ لتقنع البشرية بضرورة اتباع ما أنزل الله ﷻ بتعريفهم بأنفسهم وبربهم ﷻ.

لقد كانت آيات بينات تملأ فِكْرُنَا بالمعرفة بما نراه وبما يغيب عنا وما نحن قادمون عليه، وهذا المحور يبين لنا أهم الأعمال التي قامت بها البشرية في عهودها الأولى، بعد أن مكها الله، وأرسل إليها رسلاً ينقذونها من عبث الشياطين بها.

العلاقة الثانية: القرى والحضارات التي أهلكها الله ﷻ: لفت نظرنا في المقيدة هذه الآية الكبيرة العظيمة: ﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤]. وقد قررنا أن القرى جمع قرية، وتعني المصر الجامع أو المدينة الكبرى التي تحوي مجموعة مدن، فهي بمعنى الحضارات، وسميت بذلك من: قَرْيَ الماء، أي: جمعه في مكان^(١)، وقد فصلت لنا الآيات القادمة في السورة كيف هلك الحضارات الكبرى في التاريخ.

بصيرة: يعرض لنا القرآن الكريم أهم الحضارات البشرية القريبة من البيئة التي نزل فيها القرآن المجيد، وكيف جاءتها القيادات النبوية المصلحة لها، وكيف أهلكها الله ﷻ عندما عنت عن اتباع ما أنزل إليها من ربها ﷻ.

العلاقة الثالثة: جهود الأنبياء في الإصلاح ومحاربة الفساد: يخبرنا هذا الجزء من السورة: كيف قامت القيادات النبوية المصلحة:

بإنقاذ بني آدم من الوقوع في ولاية القبيل الإبليسي، ومن الإفساد في الأرض. وهنا نرى التناسب واضحاً جداً، إذ حدثنا الله ﷻ عن نفسه، فعرفنا بعظمته ومجده، وأمرنا بأن ندعوه ﷻ، وهناك قال لنا بصورة مفاجئة: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]،

(١) لسان العرب (١٥/١٧٧-١٧٨)، الكليات لأبي البقاء الكفوي (ص: ١١٧٠).

وهنا يخبرنا كيف بدأت البشرية بالإفساد في الأرض بعد إصلاحها، وكيف جاءت القيادات النبوية لتستنقذهم من ذلك.

العلاقة الرابعة: تفصيل مجيء الرسل: نلاحظ أن الله ﷻ يُبَيِّنُ لِلذُّرِّيَّةِ الْآدَمِيَّةِ فِي هَذَا الْمَحْوَرِ الْجَانِبَ التَّطْبِيقِيَّ لِمَا أَخْبَرَهُمْ عَنْهُ فِي النَّدَاءِ الرَّابِعِ عِنْدَ قَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿يَبْنِيْ اٰدَمَ اِمًا يَّاتِيَنَّكُمْ رُّسُلٌ مِّنْكُمْ يَقْضُوْنَ عَلَيْكُمْ اٰيَاتِيْ فَمَنْ اُتِيَ فَمِنْ اُتِيَ وَاصْلَحْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ ۝ وَالَّذِيْنَ كَذَبُوْا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوْا عَنْهَا اُولٰٓئِكَ اَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خٰلِدُوْنَ﴾ [الأعراف: ٣٥، ٣٦]، وهنا يفصّل الله ﷻ لنا كيف جاء الرسل ﷺ يقضون علينا آياته ﷻ، وانقسمت الذُّرِّيَّةُ الْآدَمِيَّةُ إِلَى فَرِيقَيْنِ: فَرِيقِ التَّقْوَى وَالْإِصْلَاحِ، وَفَرِيقِ التَّكْذِيبِ وَالِاسْتِكْبَارِ.

العلاقة الخامسة: تفصيل الأجل: فإن الله ﷻ قَرَّرَ لَنَا قَانُونًا صَارِمًا حَاسِمًا، فَقَالَ ﷻ: ﴿وَلِكُلِّ اُمَّةٍ اَجَلٌ ۚ فَاِذَا جَآءَ اَجْلُهُمْ لَا يَسْتَاخِرُوْنَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُوْنَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، وهنا يفصّل الله ﷻ لنا كيف حَقَّقَ هَذَا الْقَانُونُ عَلَى مَدَارِ التَّارِيخِ بِتَطْبِيقِهِ عَلَى مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْحَضَارَاتِ، وَهُمْ: قَوْمُ نُوحٍ ﷺ، وَقَوْمُ هُودٍ ﷺ، وَقَوْمُ صَالِحٍ ﷺ، وَقَوْمُ لُوطٍ ﷺ، وَقَوْمُ شُعَيْبٍ ﷺ، وَفِرْعَوْنَ وَمَنْ مَعَهُ، وَبَنُو إِسْرَائِيلَ عِنْدَمَا اتَّخَذُوا الْعَجَلَ، وَبَنُو إِسْرَائِيلَ عِنْدَمَا طَالَبُوا مُوسَى ﷺ بِرُؤْيَا اللَّهِ ﷻ تَعْنَتًا وَاسْتِكْبَارًا، وَبَنُو إِسْرَائِيلَ عِنْدَمَا كَانُوا فِي الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرَ، فَفِي كُلِّ هَذِهِ الْمَفَاصِلِ التَّارِيخِيَّةِ حَدَثَ إِهْلَاكٌ لِلْحَضَارَاتِ وَالْقُرَى الَّتِي كَانَتْ سَائِدَةً فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ عِنْدَمَا حَضَرَ أَجْلُهَا.

العلاقة السادسة: استجابة الطَّيِّبِ وَامْتِنَاعُ الْخَبِيثِ: فمن المناسبة الجميلة التي تبين لنا الإحكام في السُّورَةِ الْقُرْآنِيَّةِ أَنَّ اللَّهَ ﷻ ذَكَرَ الْقَانُونَ الْعَامَ فِي اسْتِجَابَةِ الْبَشَرِ لِلْمَاءِ النَّافِعِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الْبَلَدَ الطَّيِّبَ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ طَيِّبًا، وَالْخَبِيثَ يَخْرُجُ نَكْدًا، وَهَذَا يُفَصِّلُ ظُهُورَ الْأَصْنَافِ الطَّيِّبَةِ الْمُبْتَهِجَةِ عِنْدَمَا سَمِعَتْ رِسَالَاتَ اللَّهِ ﷻ الَّتِي بَلَّغَهَا الْأَنْبِيَاءُ ﷺ، وَظُهُورَ الْأَصْنَافِ الْخَبِيثَةِ النُّكْدَةِ الَّتِي عَنَتَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا ﷻ فِي التَّارِيخِ الْإِنْسَانِي.

العلاقة السابعة: المثاني القرآنية: تكامل وتمايز: نرى في هذه السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ أَنْمُودَجًا لِلْمَثَانِي الْقُرْآنِيَّةِ مَعَ الْفُرُوقِ الدَّقِيقَةِ.

وَالْمَثَانِي: هِيَ الْأُمُورُ الَّتِي تُتَنَّى أَوْ تَكَزَّرُ، وَلَكِنْ التَّكَرُّارُ لَا يَعْنِي تَكَرُّارَ الْأَلْفَاظِ وَلَا تَكَرُّارَ الْمَعَانِي ذَاتَهَا، بَلْ يَعْنِي: ذَكَرَ تَفَاصِيلَ جَدِيدَةٍ لِلْقِصَّةِ أَوْ لِلْمَوْضُوعِ مُرْتَبِطَةً بِتَفَاصِيلَ ذُكِّرَتْ فِي سُورٍ أُخْرَى.

وحتى نستخرج الفروق الدقيقة بين المثاني القرآنية فإنه يجب علينا أن نتدبر جيداً، وندقق بصورة عميقة حتى نستنبط تلك التفاصيل التي تميز كل موضع، ونستخرج منها هدايات جديدة لا نجدها في الموضع الآخر، وبذلك تتشابه القصص والمعاني التربوية، وتتمايز في الوقت ذاته لتخبر البشرية بالرصيد الثقافي والخُلقي الضخم.

وتظهر المثاني في العلاقة بين هذا المحور الذي يكمننا عن خمسة من أعظم الأنبياء ﷺ من جهة، والمحور الأول الذي حدثنا عن الإنسانية وديناها وأخراها، والمحور الثاني الذي حدثنا عن الله ﷻ من جهة أخرى، فنقول:

الحياة تتكون من: الإنسان والزمان، وهذا حدثنا الله ﷻ عنه في المحور الأول.
ولا بد من معرفة خالق الإنسان والزمان، وهذا حدثنا الله ﷻ عنه في المحور الثاني.
وهنا تأتي فكرة ثانية تُفصّل قصة الإنسان والزمان، وهذا ما يحدثنا عنه المحور الثالث.

بصيرة: ملخص الترابط بين محاور سورة الأعراف الثلاثة الأولى: الحياة تتكون من الإنسان والزمان، وهذا حدثنا الله ﷻ عنه في المحور الأول، ولا بد من معرفة خالق الإنسان والزمان، وهذا حدثنا الله ﷻ عنه في المحور الثاني، وهنا يأتي تفصيل قصة الإنسان والزمان، وهذا ما يحدثنا عنه المحور الثالث.

الفوائد الكبرى للقصص القرآنية المذكورة في سورة الأعراف

الفائدة الثانية

إظهار تفاصيل دقيقة تكشف عن
المعركة بين القيادات المصلحة وبين عدو
الإنسانية الأول.

الفائدة الأولى

الدلالة على صدق نبينا محمد ﷺ.

الفائدة الرابعة

إظهار سنن الله ﷻ في تداول الأيام،
وتقلبات الدهر

الفائدة الثالثة

ذهاب الحرج من صدر الداعية المصلح،
وقيامه بوظيفتي الإنذار والتذكير.

الفائدة السادسة

تقديم التفسير الإسلامي للتاريخ
الإنساني منذ آدم عليه السلام إلى العصر
الحديث.

الفائدة الخامسة

تقديم منهجية التعامل مع الآفاق
والعوالم.

الفوائد الكبرى للقصص القرآنية المذكورة في سورة الأعراف:

تتلخص فوائد القصص المذكورة في سورة الأعراف بالآتي:

الفائدة الأولى: هذه القصص بتفاصيلها التاريخية تدل على صدق نبينا محمد ﷺ؛ لأن بعض تفاصيلها مصدقة لما عند المتقدمين:

أي: نجد بعض تفاصيلها في التوراة والإنجيل المعاصرين، وبعضها تصحح ما حَرَفَهُ المحرِّفون من أهل الكتاب، وبعضها لم تُذكر عندهم لكن السياق والبراهين الدلالية والتاريخية تدل على صدقها. وهذا يجتمع عدد من البراهين الدالة على نبوته ﷺ، منها:

- الدليل التشريعي الذي يبين عظمة شريعة الإسلام.

- الدليل الغيبي الإنساني في تاريخ البشرية، إذ فصل الله ﷻ لنا التاريخ الحقيقي وليس المزيف.

- الدليل الغيبي الأخروي.

- الدليل المادي الذي يظهر في آيات الله ﷻ الكونية حينما حدثنا عن دورة الحياة.

وكل ذلك مع أنه ﷻ كان أُمِّيًّا، وما طالع كتابًا، ولا تتلمذ على أستاذٍ، فإذا ذَكَرَ هَذِهِ الْقَصَصَ عَلَى الْوَجْهِ الْمَصِيبِ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا خَطَأٍ، دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ إِنَّمَا عَرَفَهَا ﷻ بِالْوَحْيِ مِنَ اللَّهِ ﷻ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ نُبُوءَتِهِ ﷻ^(١).

الفائدة الثانية: إظهار تفاصيل دقيقة عن المعركة بين القيادات المصلحة وبين عدو الإنسانية الأول: القبل الإبليسي:

هذه التفاصيل تدفعنا دفعًا لتطبيق ما أمرنا الله ﷻ به في أول السورة، وهو قوله ﷻ: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

(١) تفسير الرازي (٢٩٣/١٤).

الفائدة الثالثة: ذهاب الحرج من صدر الداعية المصلح، وقيامه بوظيفتي الإنذار والتذكير:

يمنحنا الله ﷻ ما نستعين به على لذة الشعور بقوله ﷻ في مقدمة السورة: ﴿كَتَبْنَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِئَنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ۲].

فالقصاص تمنح التفكير في أحوال العالم، والتفكير يثبت الله ﷻ به أفندتنا كما يثبت أفئدة دعاة الخيرية القرآنية من بني آدم ﷺ، وفي مقدمتهم سيد الخلق محمد ﷺ، وهنا ندرك لماذا قال ﷻ في نهاية قصص هذه السورة: ﴿فَأَقْصَصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ۱۷۶].

في القصص القرآني نسير آمنين مع موكب الإيمان، وهو موكب ظهرت أعلامه، وهو ينقذ البشرية من الخطة الإبليسية، ومن قبيل إبليس الذين يقودونه إلى جهنم، بينما يرفع المباركون المنقذون من المؤمنين رايات الهدى المنقذة، ويضيئون للنور لتبصر طريقها نحو البركات في الدنيا، والسعادة في الجنة، وهنا ترى مشهد الصراع العميق بين فريق الهدى وفريق الضلالة على طول الطريق.

في قصص الأنبياء ﷺ يعلم الإنسان أن الدعوات مهما أصابها من أذى فإنها لا تهزم، كما قال الصالحون:

تالله ما الدعوات تُهْزَمُ بالأذى	أبدًا وفي التاريخ بُرَّ يميني
ضَعُ في يَدَيَّ القَيْدَ، أَلْهَبْ أَضْلُعِي	بِالسَّوْطِ، ضَعُ عُنُقِي عَلَى
لَنْ تَسْتَطِيعَ حِصَارَ فِكْرِي سَاعَةً	”أَوْ نَزَعُ إِيْمَانِي وَنُورَ يَقِينِي!
فالنُّورُ في قَلْبِي وَقَلْبِي في يَدَيَّ	رَبِّي، وَرَبِّي نَاصِرِي وَمُعِينِي!
سَأَعِيشُ مُعْتَصِمًا بِحَبْلِ عَقِيدَتِي	وَأَمُوتُ مُبْتَسِمًا لِخِيَا دِينِي!

الفائدة الرابعة: السرد التاريخي المبتكر في هذا الجزء الكبير من السُّورَةِ يُظهِرُ لِلنَّبِيِّ ﷺ والقيادات المصلحة سنن الله ﷻ في تداول الأيام، وتقلبات الدهر، إذ نرى أن كل نبي وجد عواصف هوجاء من الإيذاء النفسي والبدني من جهةٍ واحدة هي قومه.

عندما نزلت على نبيِّنا محمد ﷺ هذه الآيات وقرأها على أصحابه، إذ به يُبَيِّنُ نَفْسَهُ وَأَصْحَابَهُ لأنواع من الإيذاء، وستجد دعوته كلَّ تلك الأنواع من الإيذاء؛ للطبيعة العالمية التي اتَّسَمَتْ بها دعوته، فدعوته ﷺ عالمية.

فما وُجِدَ عند الأقوام الماضية من الإيذاء لأنبيائهم وأتباعهم، كأقوام: نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى ﷺ، ستقابل أمة محمد ﷺ أمثاله من الأذى، بل وأعظم، وهكذا تَهَيَّأُ الْأُمَّةُ لِلصَّبْرِ والتَحُلُّلِ في سبيل هذا الدين، والنظر في كيفية الخروج من مآزق هذه الفتن. وهنا يتعلم المصلحون والصالحون والمكذبون المستكبرون أن التاريخ يعيد نفسه، فلا يوجد أي نقص في النبوة إن واجهها الجاهلون والمستكبرون بالتكذيب.

هنا يعلم العالم أن الدعوات الصالحة المصلحة ستواجه المؤامرات الماكرة المؤذية المدمرة، فتلك سُنَّةٌ مستمرة تُعَبِّرُ عن طبيعة القبيل الإبليسي وأوليائه من الإنس... إنها سُنَّةٌ (١) معهودة يقوم بها المستكبرون المكذبون.

الفائدة الخامسة: هذا القسم يقدم للطبيعة الإنسانية كيفية التعامل مع الآفاق والعوالم:

فالإنسان مزدوج الطبيعة يتألف من أبعد عنصرين تؤلف بينهما قدرة الله وقدره، عنصر الطين الذي نشأ منه، وعنصر النفخة من روح الله التي جعلت من هذا الطين إنساناً.. إن هذا الكائن ليمضي في تاريخه مع عوامل متشابهة كل التشابك، معقدة كل التعقيد، يمضي بطبيعته هذه يتعامل مع تلك الآفاق والعوالم التي أسلفنا -في قصة آدم- الحديث عنها، يتعامل مع الحقيقة الإلهية؛ مشيئتها وقدرها، وقدرتها، وجبروتها ورحمتها وفضلها...

(١) السُّنَّةُ: العادة الغالبة. يُنْظَرُ المعجم الوسيط (٤٩٦/١).

ويتعامل مع الملائكة والأعلى وملائكته، ومع إبليس وقبيله، ومع هذا الكون المشهود ونواميسه وسنن الله فيه. كما يتعامل مع الكائنات الحية على هذه الأرض، ومع بني جنسه، مستكشفًا هذه الآفاق والعوالم بطبيعته الخاصة، وبناءً على استعداداته المتوافقة والمتعارضة معها.

الفائدة السادسة: هذا القسم يقدم التفسير الإسلامي للتاريخ الإنساني منذ آدم عليه السلام إلى العصر الحديث، فهو التفسير الأصدق:

فسر البعض التاريخ الإنساني تفسيرًا "اقتصاديًا" و"سياسيًا" و"بيولوجيًا" و"روحيًا" و"نفسيًا" و"عنصريًا".

والبعض الآخر جعل نشأة الإنسان عبارةً عن تطورات حتى زعم أن بين الإنسان والقرد نسبًا حميمًا، وبدا يتفاخر بذلك، ثم انطلق أيضًا بعنصرية بغیضة لينظر إلى بقية البشرية على أساس العنصرية اللونية، فالجنس الأبيض متفوق عنده على غيره؛ لأنه يمثل التطور الأعلى للإنسانية، ويكذب فيزعم أن أول إنسان خرج من أفريقيا، وكل هذا عبارة عن أكاذيب ومحض افتراءات؛ وظلمات بعضها فوق بعض.

بينما لاحظنا في سورة الأعراف أن الله ﷻ بدأ الإنسانية من إنسان مكتمل هو آدم عليه السلام، وميزه وكرمه وأسجد له ملائكته، ثم انقسم التاريخ الإنساني إلى قديم، ووسيط، وحديث، ويفصلها هذا القسم الكبير من السورة.

عهود الإصلاح في تاريخ البشرية:



سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ

مِفْصَلَاتُ تَسْمِينِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (٤)

ذكرت سورة الأعراف مشاهد تاريخية لعهد خمسة فاصلة، وقسمت تاريخ الذرية الأدمية إلى هذه الخمسة العهود الكبرى:

العهد الأول: عهد بزوغ الحضارة الإنسانية: فقد ذكر الله ﷻ تهيئة الأرض لتمكين فيها الذرية الأدمية، وذكر بداية الوجود الإنساني بخلق آدم ﷺ، والمعركة الأولى بين الشيطان وبين الذرية الأدمية.

العهد الثاني: العهد القديم للذرية الأدمية: وفيه ذكر الله ﷻ أبرز خمس حضارات وجدت في هذا العهد، وهي: حضارة قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب ﷺ. **العهد الثالث: عهد بقية الأمم:** والتي جاءت إما معاصرة للحضارات الخمس الكبرى، أو جاءت بعدها، وقد ذكرها الله ﷻ هنا ذكرًا إجماليًا.

العهد الرابع: العهد الأوسط:

ذكر الله ﷻ فيه الحضارة الفرعونية، والتاريخ الإسرائيلي، وكيف واجه موسى ﷺ إفساد الفراعنة والإسرائيليين معًا.

العهد الخامس الأخير: العهد الجديد:

تذكر المعرفة القرآنية عهد خاتم الأنبياء ﷺ، ووراثة الصالحين.

الدورات الحضارية العظمى التي تتكرر في التاريخ:

والآن دعنا ندخل باطمئنان إلى المحور الثالث العظيم، ونستمتع بتفاصيله، فما الأقسام التي انقسم إليها هذا المحور؟

الجواب:

ينقسم هذا المحور إلى خمسة عهود زمنية مرت بها البشرية، وهذه العهود حددت لنا أبرز الأحداث الإنسانية في التاريخ البشري، وحددت أبرز ما ينبغي أن تعرفه ذرية آدم ﷺ، حتى تعرف ماضيها، وتستطيع أن تتعامل مع واقعها، وأن تُعيدَ لمستقبلها الديني والأخروي معًا.

ولا يحدثنا الله ﷻ عن قصة من هذه القصص في سورة الأعراف إلا ونرى تكرارها في الواقع، بل نرى ما هو أبشع منها وأسوأ، فبصّرنا السورة بقصة نوح ﷺ، وعبادة قومه للأوثان؛ إذ جاء الشيطان، فذكّرهم بأن الصالحين والأولياء منهم قد مضوا وماتوا، وهم يستحقون الذكر لصالحهم، فوسوس إليهم أن يقيموا أوثانًا تذكّرهم بهم، ثم ما لبثوا أن عبدوها ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، فعالج نوح ﷺ هذا الخلل العظيم ﴿فَقَالَ يَبْنَؤُا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وعالج موضوعًا ثانيًا نشأ فيهم مع قربهم من بداية ظهور البشرية، وهو النزعة العنصرية؛ لأنهم قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ

﴿الْأَزْدُلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، وقالوا: ﴿وَمَا نَرْفُكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لِشِعْرِوَ بَقِيَّةَ النَّاسِ بِأَنَّهُمْ أَعْلَى مَكَانًا وَنَسَبًا مِنْ غَيْرِهِمْ.﴾

ومثل ما وقع في حضارة قوم نوح عليه السلام يقع اليوم، فالوثنية تتجدد وتزداد في هذا الزمان من الشرق إلى الغرب كما ترى، بل لم تعد وثنيةً تتعلّق بالأصنام، وإنما أقيمت كنائس خاصّة لعبادة الشيطان وتحت الحماية، وكذلك العنصرية تزداد شراسة في الوقت الحاضر، فهل تصدق أن دولة تسبي نفسها عظمى جعلت لنفسها الحق في أن تغزو (لاهاي)^(١) إن أرادت ما تسعى (محكمة العدل الدولية) إصدار تحقيق في ارتكاب جنود تلك الدولة جرائم، مع أن جرائمهم تملأ الأرض؟! وهل تصدّق أن خمس دول في العالم^(٢) تتحكم بعنصرية شديدة بما يحلو لها أن تتحكم به من مُقدّرات العالم وأمنه؟! وسرّبت العنصرية حتى في ديار المسلمين، ولسان الحال يغني عن كل مقال.

فما عالجه نوح عليه السلام في حضارة قومه يتكرر في أيامنا. ثم جاءت الدورة الحضارية التي بعدها، ومثلتها قصة حضارة عاد، وهي حضارة اشتركت مع حضارة قوم نوح -عليه الصلاة والسلام وعلى أنبياء الله أجمعين- في معالجة قضية عبادة غير الله عز وجل، فبدأ هود عليه السلام رسالته بقوله: ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥].

لكن، بماذا انفردت حضارة قوم هود عن غيرها من حضارات الأمم السابقة؟ انفردت هذه الحضارة بالشعور بالكبر والعلو الحضاري، حيث كان عندهم المصانع والمباني العظيمة، فعالج هود عليه السلام هذا الكبر الحضاري، والنزوع لادّعاء القوة المطلقة والقُطبية العالمية، والانفراد بها، فقال: ﴿أَتَّبِعُونَ بِكُلِّ رِيحٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٧٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٢٩]، وقال لهم: ﴿وَرَأَدَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩]، حتى أنهم من شدة البسطة في الخلق ﴿قَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

وتتكرر هذه الدورة الحضارية بغرور أكبر هذه الأيام، فبعض الناس في زماننا يقولون: إذا كان الإسلام هو الحق، فلماذا نرى تقدّمًا حضاريًا كبيرًا عند غير المسلمين في الشرق أو في الغرب؟

(١) عاصمة هولندا، وهي مقر محكمة العدل الدولية وهي الجهاز الوحيد من أجهزة الأمم المتحدة الذي لا يتخذ من نيويورك مقرًا له.
(٢) هي الدول دائمة العضوية في مجلس الأمن، والتي لها حق النقض ضد أي قرار يتخذه المجلس وهي: (أمريكا، وبريطانيا، وفرنسا، وروسيا، والصين).

إنها الفتنة الحضارية، ونحن أمام هذا الغرور الحضاري نضع سؤالين نستلهمهما من قصة حضارة عاد:

السؤال الأول: من قال: إن الإسلام يحكم البلدان التي معظم شعوبها من المسلمين حتى نقرّر أن الإسلام فشل في إيجاد تقدّم حضاريّ في دياره؟ أما ترون الحرب الضروس المسلطة على دين الإسلام، وعلى كل من التزم به؟ ونستطيع أن نقرّر ببسر أن أكثر الشعوب التي يصيبها الاضطهاد في العالم هي الشعوب التي تستقيم على الإسلام.

فسقط هذا السؤال، ونحن قد رأينا أن الإسلام عندما حكم في العهد النبوي، وفي عهد الخلفاء الراشدين، وحتى لما حكم في معظم جوانب الحياة في العهد الأموي رأينا تفوّقاً حضاريّاً هائلاً، وتقدّمًا كبيرًا للمسلمين، وببصرنا بهذا السؤال قول هود عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ [الأعراف: ٦٨]، أي لتعتنقوها وتطيقوها في جميع مجالات الحياة، وتجِدُوا ثمارها في الفلاح الدنيوي والأخروي، ولذا قال عليه السلام: ﴿فَاذْكُرُواْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

السؤال الثاني: ما علاقة الحق بالقوة؟ إذا كانت دولة ما قوية فهذا لا يعني أنها على حق، فالقوة يمنحها الله ﷻ بعض الناس وفق سننٍ محدّدة اختبارًا لهم، فإذا أن ينصروا بها الحق، وإما أن ينصروا بها الباطل، وانظر: إصرار كثيرٍ ممن اشتراهم الكيان الغاصب كيف يرون قتل الأطفال والنساء مشروعًا لتغذية باطلهم مغترين بالقوة التي منحهم الله ﷻ إيّاها، بل يدعو بعضهم دون تردد إلى إسقاط القنابل النووية على أهل فلسطين، ونقلت قناة NBC في برنامج Meet the Press عن السيناتور الأمريكي (ليندزي غراهام): أن -هذه الدولة المسخ- "سيكون لها ما يبرر تسوية قطاع غزة بالأرض باستخدام سلاح نووي، وذلك ببساطة لأن الولايات المتحدة فعلت ذلك في (هيروشيما وناغازاكي)"^(١).

انظر غرور القوة، وحضارة القوة التي ظهرت في قوم عاد، فهي تذكرنا بمن يربط بين حضارة اليابان المتقدمة دنيويًا وبين الحق، وبين حضارة الولايات المتحدة وبين الحق، ونذكره بأن حضارة عاد كانت حضارة متقدمة جدًّا، ولم يكن يعني هذا أنهم على حق، فتقدم الإنسان في الحضارة

(١) مدينتان يابانيتان، في أغسطس ١٩٤٥م ألقت عليهما الولايات المتحدة الأمريكية أول قنبلتين نوويتين، صُنِعَتَا بقصد التدمير والقتل، وكان هذا الهجوم هو الوحيد الذي استخدم فيه أسلحة نووية في الحرب.

يخضع لسنن مثل سُنَّة: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥]، مع أن أصحاب الحضارة لا يعرفون هذه الآية لكنهم طبقوا ما فيها، فاستحقوا الثمار، كالزَّارِع الذي يزرع ليجني ثمره، هل تتوقف زراعته وجني ثمرته على الذي يعتنقه؟! الجواب: لا، لكن السؤال: ماذا يفعل عندما يجني الثمر، ويُدرُّ مَالاً منها: هل ينصر بها الحق، ويبطل الباطل أم العكس؟ وهل الذي بنى المباني الضخمة، وأنشأ الجزر الصناعية، وأسَّس المصانع والشركات العملاقة يتَّبِع الحق؟ فتكون قوته ناصرة للعدل، أم يغتر كما اغتر كفار حضارة عاد.

نعود لتذكرك هذه الحركة العظيمة التاريخية في سورة الأعراف:

فالدورة الحضارية الأولى كانت متعلقة بقوم نوح عليه السلام.

والدورة الحضارية الثانية تعقّلت بحضارة عاد قوم هود -عليه وعلى أنبياء الله الصلاة والسلام-. والدورة الحضارية الثالثة تعلّقت بأمة ثمود ونبهم صالح -عليه وعلى أنبياء الله أفضل الصلاة والسلام-، ونجد في البداية الشيء المشترك مع الأنبياء السابقين، هو الدعوة إلى توحيد الله تعالى وعبادته وحده ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٣]، لكنَّ هناك شيئاً مميزاً يتعلق بحضارة ثمود، وهو أنهم وصلوا في التقدم العمراني إلى شيءٍ مدهشٍ حتى أنهم كما قال عنهم نبهم عليه السلام: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢] أي: حال كونهم آمنين أو حال كونهم طالبين للأمن، وكذلك قال لهم: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩]، وفيها قراءتان: ﴿فَرِهِينَ﴾ و﴿فَرِهِينَ﴾^(١) ولها معنيان: إما من الترف والترفيه، وإما من الجدق، وذكر البخاري^(٢) هذا المعنى الثاني.

وما زالت بعض آثار مدنها موجودة في محافظة العلا (مدينة تقع في الشمال الغربي للمملكة العربية السعودية)، وأنا أظن أن البتراء التي في الأردن كانت عبارة عن امتداد لدولتهم، وأن دولتهم امتدت من بلاد الشام إلى ثمود في أرض حضرموت، وفي الوسط كانت العاصمة الكبرى التي تُدعى الآن مدائن صالح في العلا، وفي اليمن توجد إلى الآن الكتابات الثمودية، فاتصفوا بهذا التقدم

(١) قرأ الكوفيون وابن عامر بألف، وقرأ الباقر بحذف الألف. النشر في القراءات العشر (٢/ ٣٣٦).

(٢) البخاري (٦/ ١١١).

العُمُراني المذهل، كالتقدم الصيني في إقامة مختلف المشاريع المدهشة التي تأسّر الناظرين، فهل هذا بالضرورة يدل على أنهم على حق؟

لا! فالله ﷻ أرسل إليهم رسوله ﷺ ليبتليهم هل يستجيبون للحق مع ما أعطاهم من القوة أم يستجيبون للمسرفين؟ ولذلك قال لهم صالح ﷺ: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٩].

ولاحظنا في حضارة ثمود التقسيم العنصري الذي كان في عهد نوح ﷺ، فهناك المملأ المستكبرون وهناك الذين استضعفوا، وهذه الدورة الحضارية تتكرر في زماننا، فما أكثر ما يباهي الناس في العالم بأكبر بُرج، وأعظم مصنع، وأكبر مطار، وأكبر بناء، وأجمل مساحة خضراء، وأطول جسر تحت الماء، وأعظم نفق تحت الجبال، فهذا توسيع لما كانت عليه الدورة الحضارية الثمودية.

والتقدم العُمُراني شيء جميل يشعر الإنسان معه بمتعة الحياة، ولكن السؤال: هل أصحابه على حق أو على باطل؟! وهل يصنعون هذا التقدم من استكبار المملأ المجرمين، وأخذهم لخيرات المستضعفين الطيبين أم هو حلالٌ خالص؟

فما أكثر الدول التي عُمِّرَت من دولٍ دُمِّرَت! وواقع الحياة أن ثمود سابقًا ومن هو على شاكلتهم لاحقًا يحتاجون إلى نداء الحق، ليستمعوا داعي الله، وينظموا حياتهم وفق مناجاه وآياته وكتابه. فهذه الدورة الحضارية المتعلقة بأمة صالح ﷺ التي هي أمة ثمود.

ثم انتقلنا في التاريخ القديم إلى الدورة الحضارية الرابعة المتعلقة بقوم لوط ﷺ، إذ عالج فيها نبهم ﷺ شهوةً من أغرب الشهوات التي عصفت بالإنسانية؛ لأنها لم تكن من قبل في العالمين، وهي شهوة الشذوذ والفاحشة ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠].

وهذه الآيات في سورة الأعراف امتدت من (٨٠-٨٤)، فهي خمس آيات ذكر الله ﷻ فيها فتنة من أعظم الفتن التي يستدرج الشيطان بها بالناس، ويحقق لهم الذي أراد تحقيقه عندما أغوى آدم وزوجه ن، قال الله تعالى عن ذلك: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٧]، وهدف الشيطان نزع الحياء، فصارت قلّة الحياء من أعظم أهدافه؛ لأن الإنسان إذا قلّ حياؤه أمام الناس وهم ينظرون إليه انعدم حياؤه أمام رب الناس، وضعفت مراقبته للرقيب سبحانه، وإذا قلّ حياؤه في إظهار العورة، فهذا يعني أنه لا يمكن أن يؤمن على شيء، لا على دين ولا على دنيا.

وأذكر أن طبيباً كان يعمل مديراً لواحد من أكبر من المستشفيات في صنعاء أيام الاستقرار والعز في اليمن، وكان حريصاً على أن يرى الأطباء يصلون إذا حانت صلاة الظهر إلا المناوبين فليهم وقت آخر، لكنه كان يلاحظ أحد الأطباء الشيوعيين من بقايا الماركسية الحمراء يُظهر الاستهانة بالصلاة، وهو طبيب نساء وولادة، وعندما يسأله مديره: لماذا لا تصلي؟ فيجيب: صلوا أنتم. صلوا لأنفسكم، فالصلاة بين الإنسان وربّه فيجيبه مديره: أنت مجنون، إذا كنا أمامك وما تؤدي الأمانة التي بينك وبين ربك، كيف يمكن أن نأتمنك على النساء اللاتي يأتين إليك، وقرر منعه من مزاوله مهنته. إن الشهوة تُسكِر النفس، ويكون الإنسان فيها منزوع الحياء، فلا يستحي من آبائه الأولين الذين لم يفعلوها، ولا من الموجودين.

وهي شهوة جسدية يدمن عليها الجسد إدمانه على المخدرات، وبعض الناس يغالط، فيقول: ما المشكلة؟ هذا موافق، وذاك موافق، وهما يجدان لنتهما بذلك: الذكر مع الذكر، وزاد عليها في العصر الحاضر السحاقيات، وهذه الحجة هي ذاتها التي ردها قوم لوط عليه السلام حين قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩].

من أجل ذلك مرّت بنا الآيات في سورة الأعراف، فلم يذكر فيها لوط عليه السلام قضية التوحيد، وهو الوحيد الذي انفردت قصته بعدم ذكر واضح للقول الذي يردده الأنبياء: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، لماذا؟ لأن من أدمن هذه الفاحشة وتطبع عليها سيأتها سواء كان موجّهاً أو مشرّكاً، فلا يهّمه إلا شهوته فقط.

والملاحظ اليوم أن كثيراً من الكنائس صارت تعقد للذكّران على بعضهم، وتعقد للنساء مع بعضهن، فالفاحشيون لا يرفضون أن يكونوا مسيحيين لكن بشرط أن تخضع المسيحية لهم فتبلي شهواتهم، بخلاف النصارى الذين صارت بعض الكنائس تتبني زواج الفاحشين، حتى وصل الأمر إلى أن (البُوب) النصراني المعاصر أعلى رأس في الكاثوليكية يعطي تلميحات بتسامحه في موضوع الشذوذ، وكذلك يريدون من الإسلام أن يلي شهواتهم، ولم يجدوا أحداً في الإسلام يفعل ذلك إلا من انسلخ من دينه، وتأثر بدعاة الفحش والانحلال من عملاء المخابرات والمنظمات التي في الدول الأجنبية، وهنا ندرك بصورة عجيبة جداً لماذا قال لوط عليه السلام لقومه مباشرة: ﴿أَتَأْتُونَ

الْفَحِشَةَ﴾ [الأعراف: ٨٠] ولم يقل: اعبدوا الله مالكم من إله غيره ولا تأتوا الفاحشة؟

الجواب:

لأن سَكْرَةَ هذه الشهوة مُسَيِّطِرَةٌ مُسْتَحْوَذَةٌ، وأصحابها لا يهتمهم شرك ولا إسلام، بل يهتمهم أن تكون الفاحشة مباحة قانونيًا، سواءً كان ذلك تحت شعار الإسلام، أو شعار الشرك، أو شعار الشيطان.

وبعضهم يأتي بهذه الشهية العظيمة، فيقول: هؤلاء يحب بعضهم بعضًا، فلماذا تكرهون أنتم إشاعة الحب؟!

نقول: الحب الحقيقي قامت عليه السَّمَوَات والأرض، لكنه الحب الحقيقي وليس الحب الشيطاني، ونسألهم، فنقول لهم: صار الإدمان على المخدرات ينتشر بصورة واسعة، وينال تأييدًا ضخماً في وسائل الإعلام حتى تصوّر هذه الوسائل أبطال الأفلام، وهم يتناولون هذه المخدرات إما سرّاً وإما علناً على أكبر المستويات، فالمدمن يحب المخدرات القاتلة، لأنه يظن فيها متعته وراحته، فهل نسمح له بذلك؟

فلماذا نمنعه من المخدرات، ولا نمنعه من الفاحشة التي هي ضد الكرامة الإنسانية، وضد الوجود الإنساني، ونهايتها وعاقبتها الفناء لوجود الإنسان، فإذا اكتفى الذكور بالذكور والنساء بالنساء ماذا سيكون بعد ذلك؟

وهناك شُبَّةٌ أخرى لا تقلُّ خطورة عن الأولى وهي أن من يفعل هذه الفاحشة يفعلها برضاه، وليس مجبراً عليها وهو حرٌّ بما يفعل بنفسه ولا يضر الناس من حوله، فهي حرية شخصية؟

لا شك أن من يقول هذا الكلام كاذب ومخادع، فهو يكذب أنه راضي عن ما يفعله بنفسه رضاً تاماً، وإنما هو في حقيقة الأمر يجد نفسه في طريق إجباري قد سلكه بدافع الشهوة التي أسكرت عقله وسلبت إرادته، ودمرت استقلاليتها، فصار عبداً لشهوته، أسيراً لرغباته، لا يستطيع فكاًكاً، ولا تراجعاً، وهو مخادع بدعواه أنه لا يضر إلا نفسه؛ لأنه يدمر المجتمع من حوله بنشر الفاحشة فيه، ونقل الأمراض المستعصية القاتلة التي لا تكون إلا في من يمارس تلك الفاحشة، وأيضاً نجد أن هؤلاء المدمنون على هذه الفواحش قتله ومجرمون ومغتصبون وهذه كلها لوازم لفعل تلك الفاحشة المقيته.

وهم عندما شعروا بهذه المشكلة بحثوا عن تعويض ذلك بإشاعة الزنى، ثم يأخذون أبناء الزنى من اللقطاء ويتبنونهم، وفي الوقت نفسه يحاربون الزواج الشرعي، وانظر الآن في عدد من الدول الغربية كم يُسرق من الأولاد؟ ثم انظر حرصهم على خطف الأطفال بعد أن يشيعوا الحروب في بلدان أهليهم، وما خبر خطف أطفال سوريا، وفلسطين ببيعد.

هناك نعلم مقدار عبث هذه الفاحشة وتدميرها لعقول الناس، ولذلك فهمنا لماذا الله ﷻ كرر علينا أساليب متعددة لجواب قوم لوط عليه السلام عندما قال الله ﷻ: ﴿قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٢]، وفي هذه الأيام يقولون: أخرجوهم وخذوا أطفالهم، وإن لم يسلموا الأطفال اسجنوهم وخذوا أطفالهم.

ويصل خطف الأطفال إلى مراحل لا تصدق، فقد تناقلت وسائل الإعلام أن شيشانيًا هاجر إلى بلاد غربية من أجل أن يجد لقمة العيش، فلما استقر به المقام استقدم أهله وأولاده، فبدأت بعض الجهات تتحرش به لتأخذ أبناءه، وحدث ذلك، ولكنه لم يتركهم، فما زال يتابع في المحاكم حتى استرد أبناءه، ولكنه بقي تحت المراقبة، ولشعوره بهذه المصيبة العظيمة بقي كامنًا لمدة سنة يخطط للعودة إلى بلاده، فانتقل إلى بولندا في طريق عودته إلى روسيا باعتبار أن الشيشان جزء من روسيا، وروسيا ما زالت تحافظ على هذه الفطرة في بقاء التكوين الطبيعي للأسرة، ولما وصل بولندا شعر بأنه إذا سافر عبر المطار ربما يكون أسماء أولاده ضمن منع السفر في الاتحاد الأوروبي، فخطط وفق طريقة هوليودية لأن يمشي برفء من بولندا إلى روسيا، ووضع البدائل، فمشى بالسيارة، وعلم زوجته وأولاده كيف يتصرفون إذا حصلت أي مستجدات، فلما وقف أمام مكتب جوازات الحدود لاحظ أن معاملة الجوازات تأخرت على غير المعتاد، فعلم أن هناك شيئًا، فحرك سيارته واخترق الحاجز والشرطة البولندية تتابعه، وعندما أوشك أن يصل إلى النقطة التي ينتقل فيها إلى الدولة الأخرى، أوقف السيارة مستعرضًا لها فأغلق الطريق، حتى لا تتمكن السيارات الأخرى من التقدم، وطلب من أولاده أن يخرجوا ويسرعوا نحو نقطة الحدود المقابلة، فتمكنوا من ذلك، وضحي هو بنفسه فقبض عليه، نسأل الله أن يفرج عنه.

انظر مطاردة الفطرة، والانسحاق وراء إتيان الفاحشة.

فهذه الدورة الحضارية الرابعة التي فصلَ الله ﷻ لنا شأنها في سورة الأعراف، وهي التي كَلَّمْتَنَا عن حضارة إشاعة الفاحشة.

وتأتي بعدها دورة أخرى خطيرة، حيث يقص الله ﷻ علينا ابتداءً من الآية (٨٥) قصة حضارة مدين ﴿وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥]، ويحدثنا عن قوة هذه الدولة وأثرها الضخم على المستوى العالمي في الأمور الاقتصادية، فقال الله ﷻ فيها: ﴿وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وعندما توقع هذا التقنين الذهبي العظيم ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الأعراف: ٨٥]، على الواقع، عجب من عظمة القرآن الذي يقصُّ علينا ما يقع هذه الأيام كأنه نزل اليوم، فالذي يعمل على التنمية الاقتصادية ينبغي أن يوفي الكيل والميزان، فكيف يفعل ذلك، وهو الذي قطع الطرق، ودَمَّرَ بلدانًا بأكملها لينهب ثرواتها؟!

لماذا قلنا بأن حضارة مدين مؤثرة على المستوى العالمي؟

لأن شعيبًا عليه السلام قال: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: ٨٦]، فهم كانوا يقطعون الطرق الدولية، ويعملون قطاع طرق كما أشار إليه الطبري (١)، فكانوا يحاصرون المارين عبر الطرق والملاحة الدولية، فقال لهم شعيب عليه السلام: ﴿يَتَقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الأعراف: ٨٥]، فهو يتكلم عن البُعد الاقتصادي، ونحن نعلم أن الدول الآن تخنق غيرها خنقًا لأجل سرقة ثرواتها، ويكفي أن تتحكم بالقرار الدولي خمس دول تعيث في الأرض فسادًا، فرأينا الشمال الذي يتكون من أوروبا يمتص دماء الأفارقة وخيراتهم.

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٢/٥٥٦).

بصيرة: هذه الدورات الحضارية الخمس في سورة الأعراف ليست للتسلية القصصية أو لتعيش التاريخ، بل هي نماذج تتكرر في واقعنا المعاصر بصور أشد وأعمق، فيها نحن نشهد عبادة الأوثان تتكرر وتزداد زُبُرًا وتوحُّشًا، والعنصرية التي تكلم عنها نوح وصالح ٥ تتكرر، ونرى انتشار التفاخر بالقوة والبطش الذي ذكره هود ٦، وإشاعة الفاحشة في هذه الأيام أعظم بكثير مما ورد في قصة لوط ٧، والعبث الاقتصادي الذي شاع في حضارة مدين ينتشر على أوسع نطاق، ووفق مؤسسات دولية.

وهنا تشعر ببصائر القرآن تَفْتَحُ لبني الإنسان القلوب والعقول والأذهان عسى أن نتمكن من معالجة واقعنا.

ويأتي الآن تفصيل هذه العهود وفق ما جاء في هذه السورة المباركة:

المحور الثالث

أهمُّ الدَّوراتِ الحضاريَّةِ العُظمى التي قادت الإنسانية قبل
العهد الإسرائيلي في التاريخ القديم [الأعراف: ٥٩-٩٣]

الدورة الثانية: حضارة دولة عاد

القيادة الثانية للذرية الأدمية (هود
عليه السلام) في مواجهة الفساد في الأرض
[الأعراف: ٦٥-٧٢]

الدورة الأولى: حضارة دولة قوم نوح

القيادة الأولى للذرية الأدمية (نوح عليه السلام)
في مواجهة فساد الفكر بالشرك في
الأرض والتميز العنصري [الأعراف: ٥٩-٦٤]

الدورة الرابعة: حضارة دولة قوم لوط

القيادة الرابعة للذرية الأدمية (لوط
عليه السلام) في مواجهة الفساد الخلقي الذي
يدمر البشريَّة بالشهوات الشاذة
المحرمة [الأعراف: ٨٠-٨٤]

الدورة الثالثة: حضارة دولة ثمود

القيادة الثالثة للذرية الأدمية (صالح
عليه السلام) في مواجهة الفساد في الأرض
[الأعراف: ٧٣-٧٩]

الدورة الخامسة: حضارة دولة مدين

القيادة الخامسة للذرية الأدمية
(شعيب عليه السلام) في مواجهة الفساد
الاقتصادي والأخلاقي [الأعراف: ٨٥-٩٣]



الدورة الأولى: حضارة دولة قوم نوح

(نوح عليه السلام) في مواجهة فساد الفكر بالشرك في الأرض والتميز العنصري [الأعراف: ٥٩-٦٤]

مشهد (١) مشهد الإنقاذ الإلهي لقوم نوح عليه السلام من فسادهم ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ [الأعراف: ٥٩]

مشهد (٢) مشهد الإفصاح عن اسم أول رسول بعثه الله ﷺ إلى الأرض ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: ٥٩]

مشهد (٣) مشهد البلاغ التعليمي الإعلامي ﴿فَقَالَ...﴾ [الأعراف: ٥٩]

مشهد (٤) مشهد الحكمة في الدعوة، والجمع بين التلطف والصرحة الكاملة في التبليغ ﴿يَقَوْمُ﴾ [الأعراف: ٥٩]

مشهد (٥) لخّص نوح عليه السلام دعوته في ثلاثة أركان:

الركن الثالث

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]
الإعداد للحياة الأخروية الغائبة القادمة

الركن الثاني

﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾
توحيد الله ﷻ في هذه العبادة

الركن الأول

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾
عبادة الله ﷻ

مشهد (٦) مشهد الرد السليبي العنيف للملأ المستكبرين ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: ٦٠]

مشهد (٧) الملأ يهتمون نوحاً عليه السلام بالضلال ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠]

مشهد (٨) جواب نوح عليه السلام على هذا الاتهام الباطل بإظهار حقيقة الدعوة والداعية: ﴿قَالَ يَتَقَوْمَ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ...﴾ [الأعراف: ٦١-٦٣]

مشهد (٩) الإصرار على التكذيب ﴿كَذَّبُوهُ﴾ [الأعراف: ٦٤]

مشهد (١٠) ختام القصة، ونهاية مشاهد التدافع بين نوح عليه السلام والملأ الكافرين: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ...﴾ [الأعراف: ٦٤]

الدورة الأولى: حضارة دولة قوم نوح

وفيها مثل نوح عليه السلام القيادة الأولى للذرية الآدمية؛ إذ واجه فساد الفكر الذي

تمثل بالشرك في الأرض، وإفساد الحياة بالتمييز العنصري [الأعراف: ٥٩-٦٤]

من الذي قاد الذرية الآدمية في مواجهة الإفساد في الأرض بعد آدم عليه السلام؟

إنه نوح عليه السلام، فجاءت هذه الآيات تكلمنا عن نوح عليه السلام. فأيات هذا العهد ست آيات، وهي كما قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ٥٩ قَالَ أَلَمْأَلَا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٦٠ قَالَ يَتَقَوْمُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ٦١ أَبْلِغْكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمْ مِّنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٦٢ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٦٣ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ٦٤﴾ [الأعراف: ٥٩-٦٤].

وتقص علينا هذه الآيات من سورة الأعراف الأحداث التي وقعت بين نوح عليه السلام وقومه، فتعال نفصل ذلك تفصيلاً نرى فيه الإعجاز القرآني المدهش في معالجة الحياة، ونشاهد كيف تكون النفوس الإنسانية عندما تجتمع على الباطل.

وقد ذكر الله ﷻ هذه القصة في عشرة مشاهد:

المشهد الأول: مشهد الإنقاذ الإلهي لقوم نوح عليه السلام من فسادهم

ويُبَصِّرنا بذلك قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾، ومشهد الإرسال هنا يذكّرنا بإرسال الله الرياح بين يدي رحمته في الآية (٥٧)، وكما أرسل الرياح بين يدي رحمته فكذلك أرسل رسله بين يدي رحمته في الأمور الفكرية والقلبية والعقلية لتنظم حياة الإنسان، ولتنقذ البشرية من الإفساد في الأرض. وأول ما يطراً على التدبر: ما معنى اللام و﴿قَدْ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾؟ وهل أضافنا شيئاً في معنى الكلام؟ وما الذي بصّرنا بأن الله ﷻ أرسل نوحاً عليه السلام لإنقاذ البشرية؟

الجواب: لم يقل الله ﷻ: "أرسلنا نوحًا"، بل قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾، واللام تشير إلى قسمٍ محذوف، والتقدير: بِنَا أَقْسَمْنَا لَقَدْ أَرْسَلْنَا نوحًا، أو بعزتنا، واللام واقعة في جواب القسم، والقسم يُبَصِّرُنَا بالتأكيد على حدوث الشيء، ويدل على أمر خفي يفهم من السياق، والسياق هنا لا مبرر فيه لأن يُقَسِّمَ رَبُّ الْعِزَّةِ جَلَّ مَجْدُهُ إِلَّا لِيُبَصِّرُنَا بِأَمْرِ نَجْهَلُهُ وَدَلَّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُ، فقد وجدنا أن الله ﷻ يذكر أنه رحيم بعباده، فأنزل عليهم الكتب كما قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢].

وكذلك ذكر ﷻ أن رحمته قريب من المحسنين، وأخبرنا عن إرسال الرياح بشرًا بين يدي رحمته، فصار القسم وكلمة: ﴿قَدْ﴾ لتأكيد أن رحمته ﷻ اقتضت أن يرسل نوحًا ﷺ لينقذ البشرية من الإفساد في الأرض الذي أشار إليه في الآية (٥٦)، و﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق يؤكد وقوع المقسم عليه، ونصَّ على ذلك الأخضري رحمه الله بقوله:

بِقَسَمٍ، (قَدْ)، (إِنَّ)، لَامِ الْإِبْتِدَاءِ وَنُونِي التَّوَكُّيدِ، وَاسْمِ الْكِدِّ^(١)

ف(قَدْ) تدخل على الجملة الفعلية لتفيد معاني، منها: التَّحْقِيقُ، فهي تفيد توقع السامع لحدوث أمرٍ معين بصورة مؤكدة، ولذا كثر في الكلام اقترانُ جُمْلَةٍ جَوَابِ الْقَسَمِ بِ(قَدْ)؛ لِأَنَّ الْقَسَمَ يَبَيِّنُ نَفْسَ السَّامِعِ لِتَوْقَعِ خَبَرٍ مُهِمٍّ فَيُؤْتِي، بِ(قَدْ) لِأَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى تَحْقِيقِ أَمْرٍ مُتَوَقَّعٍ^(٢).

وقيل في إرسال نوح ﷺ: إنه أرسل وهو ابن خمسين سنة، ولا يوجد عندنا دليل على تحديد عُمره عند ابتداء إرساله، ولا شك أنه أرسل عندما بلغ رشده وبلغ السن التي يناسب أن يكون فيها رسولًا من الله ﷻ دون أن يَقْدِرَ أَحَدٌ على التشكيك في عقله أو خُلُقِهِ.

وقيل كان ﷺ نَجَّارًا، ولا دليل على ذلك، ويحتمل أن تعلم صناعة الفلك كان معجزة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا﴾ [المؤمنون: ٢٧]، ويحتمل أن أصل الإلهام كان معجزة، ولكن الخبرة كانت بشرية كما في قصة آدم وحواء عليهما السلام عندما طفقا يخصفان

(١) متنُ الجوهر المكنون في صَدَفِ الثلاثة الفنون (المعاني والبيان والبديع)، عبد الرحمن الأخضري، (ص: ٣).

(٢) التحرير والتنوير (٨-ب/١٨٨).

عليهما من ورق الجنة، لكنه لما صنع الفلك علمنا أن عنده هذه القدرة الجِرفية الفدّة ليصنع الفلك في زمنٍ مبكرٍ من تاريخ الإنسانية بتلك الصورة التي بها نجت من أمواج كالجبال. وزعموا أن اسمه: نوح بْن مَلِك بْن مَثُوشَلَح بْن أَخْنُوخ وهو إدريس عليه السلام، لكننا نؤكد أنه لا يوجد دليل على هذا النسب، بل إنا في ريب شديد منه؛ لأنه لا مستند لهم فيه إلا التوراة المحرّفة. ومن أشد ما يجعلك تشك في ذلك النسب أن أصحاب التوراة المحرّفة بنوا كتابتهم فيها على أساس عنصرى، أي على أساس تعظيم بني إسرائيل، وكأن الوجود خُلق لأجلهم، فمن يراجع سفر التكوين من التوراة المعاصرة يجد تلك القصة المكذوبة حول شرب نوح الخمر، ولَعْنِه حفيده كنعان ظلماً وهو لم يكن موجوداً بل ربما لم يكن مولوداً، وبناءً على ذلك قسّموا التاريخ زمنياً بصورة مشكوك فيها.

ونحن يكفيننا أن نعلم أن نوحاً عليه السلام هو أول رسول بُعث إلى الأرض^(١)، وأنه عليه السلام من أولي العزم من الرسل^(٢)، وأنه عليه السلام بقي ألف سنة إلا خمسين عاماً في تبليغ رسالته.

قد تسأل: لماذا أرسل الله ﷻ نبياً جديداً إلى الدُّرّةِ الأدميّة مع أن والدهم آدم عليه السلام ينبغي أن يكون قد أوصاهم بالإسلام، وأنشأهم عليه، ونهاهم عن الفساد في الأرض خصوصاً فساد الشرك وفساد الظلم للإنسان وللبيئة؟

الجواب: أرسل الله ﷻ إلى البشريّة الرسل ليوضح رحمته العظيمة بخلقه، فقد شهدنا أن آدم عليه السلام وذريته من بعده تتغير طبائعهم، إلا أن آدم عليه السلام لم يغير من وصية الله ﷻ شيئاً في حياته بعد نزوله إلى الأرض، أما بنوه فقد غيّر أحدهم وصيته في حياته حينما قتل أخاه، فكيف بعد موته؟! فالإنسان كائن متغير الطباع بحسب استعداداته الأساسية، فقد شهدنا تكريم الله ﷻ له في الملائكة الأعلى، وإسجاد الملائكة له، وعلمنا أن البارئ العظيم ﷻ أعلن عنه قبل ميلاده عليه السلام، وشهدنا أن الله ﷻ أعلن أنه سيجعله في الأرض خليفةً، وهذا تكريم عظيم له، ولكننا شهدنا ضعفه أمام مغريات الشجرة بعد ذلك، وكيف قاده عدوه إلى المعصية، وشهدنا مهبطه إلى الأرض، وتعامله مع

(١) ينظر: تفسير القرطبي (٧/٢٣٣).

(٢) أخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس قال: "أولو العزم من الرسل: النَّبِيُّ ﷺ ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى". الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي (١٣/٣٤٥). وقيل: هُم جَمِيعُ الرُّسُل، كما في أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٤/١٠٦).

عناصرها ونواميسها الكونية، فإذا كان آدم عليه السلام قد نسي واستطاع إبليس أن يخترق حصنه، فكيف لا يخترق حصن ذريته؟

والنبي ﷺ يوضح هذه الطبيعة، فيقول: «فَجَحَدَ آدَمُ وَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنَسِيَ آدَمُ وَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ»^(١). لكن الفارق أن آدم عليه السلام أصلح الأمر عاجلاً عندما تاب، وأما الذُرِّيَّةُ فتتقاذفها أمواج طبيعتها، فأحياناً تستجيب لأهوائها، وأحياناً تجاهد الظلمات الموجودة في أنفسها.

ولذلك غيّر جمعٌ من نشطاء الفساد وأصحاب الأهواء من ذرية آدم عليه السلام دينه ووصيته، وأسسوا للشرك في الأرض وللعنصرية مع أنهم من أبٍ واحد لا يبتعد كثيراً عن زمهم.

إذاً مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﷻ أن يرسل الرسل ﷺ لِيُقَوِّمُوا هذه البشريَّة التي اعوج سيرها، وانحرفت مسيرتها، فأدم عليه السلام هبط إلى الأرض مؤمناً تائباً، لكن ذريته انحرفت عن هدى ربها، فلم يتركها الله دون إنقاذ بل أرسل لها من يدلها على سبيل الرشاد، ولم يتركها في التيه وحدها.

وبعد أن أدركنا المعاني التصويرية الثرية التي اكتنزتها اللام و﴿قَدْ﴾، فما المشهد الذي نبصره فيما بعد ذلك في قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾؟

المشهد الثاني: مشهد الإفصاح عن اسم أول رسول بعثه الله ﷻ إلى الأرض، فقال ﷻ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: ٥٩]، فحدد الرسول، وحدد المرسل إليهم.

لَمْ يَكُنْ لِقَوْمِ نوح عليه السلام اسْمٌ خاصٌّ مِنْ أَسْمَاءِ الْأُمَمِ يُعْرَفُونَ بِهِ، مثل قبيلة عاد الذين أرسل الله ﷻ إليهم هوداً عليه السلام، وكان لهم اسم معروف، والظاهر أن سبب ذلك أن قوم نوح عليه السلام مثلوا بداية انتشار الذُرِّيَّةِ الْأَدَمِيَّةِ، فهم ينسبون إلى آدم عليه السلام، فأضافهم الله ﷻ إلى نوح عليه السلام للتعريف بهم.

ومما يدل على أن نوحاً عليه السلام كان أول الرسل إلى الأرض بعد آدم عليه السلام حديث أنسٍ رضي الله عنه أن النبي ﷺ لما ذكر الشفاعة يوم القيامة ذكر أن الناس -وفي رواية: الْمُؤْمِنِينَ- يقولون: «اِئْتُوا نُوحًا أَوَّلَ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ»^(٢).

(١) الترمذي (٣٠٧٦)، وقال: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَقَدْ رَوَى مِنْ غَيْرِ وَجْهٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ"، وحسنه الألباني كما في تخریج مشکاة المصابيح (١١٨).

(٢) البخاري (٧٤٤٠)، مسلم (٣٢٢-١٩٣).

ويظهر لنا من هذا الوصف أن قومه كانوا أقوياء وذوي كثرة في مكانهم، واتضح لنا ذلك من قوله في الحديث: «إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ»، فكأن بعثته عمّت الساكنين في الأرض قبل انتشارهم.

وهذا التحديد بقوله ﷺ: ﴿إِلَى قَوْمِهِ﴾: يجعل الحجة عليهم أعظم؛ لأنهم قومه الذين يعرفونه كما أنه يعرفهم، فيكون ذلك أدعى في التأثير عليهم.

ومن فوائد تحديد المرسل إليهم أن يجتهد الرسول في تبليغهم، فلا يشتت نفسه، فيذهب إلى هؤلاء أو إلى هؤلاء، بل يركّز على قومه، وينظر كيف يصلح حياتهم، ويقوم اعوجاجهم، ويعيدهم إلى رشدهم، ولم يكن ليكذب وقد عاش بينهم قبل الرسالة.

الفرق بين الإرسال والبعث:

هنا يقول ربنا ﷺ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾، بينما ورد في مواضع أخرى ذكر كلمة: ﴿بَعَثْنَا﴾، مثل قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطُّغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. فما الفرق بين الإرسال والبعث؟

هذا سؤال رائع يَحْتُنُّ على أن نحث عن الفروق الدقيقة بين الكلمات المتقاربة في القرآن الكريم. يذكر أبو هلال العسكري رحمه الله الفرق بين البعث والإرسال بما خلاصته:

أولاً: في البعث: يجوز أن يُبْعَثَ الرجل إلى آخر لحاجة تخص المبعوث دون المبعوث إليه، كَالصَّبِيِّ تبعثه إلى المكتب ليتعلم، فَتَقُولُ: بعثته وَلَا تَقُولُ: أَرْسَلْتُهُ.

وأما الإرسال: فيتعلق بالمرسل والمرسل إليه؛ لِأَنَّ الإِرْسَالَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِرِسَالَةٍ وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهَا، وَلَا بد من تبليغ هذه الرسالة؛ لأنه "إنما يستعمل الإرسال حيث يستعمل الرسول" (١).

ثانياً: دعني أضيف شيئاً يوضح لك: لماذا استُعملَ الْفِعْلَانِ: (أرسل وبعث) في القرآن الكريم؟ فالإرسال يدل على وجود رسالة محددة لا بد من تبليغها وإسماعها، والبعث يدل على أن الذي بعث -وهو الله تعالى ذِكْرُهُ- أخرج الحياة بهذا البعث من سكون الظلام والظلم إلى حركة الحياة الحقة، وهذا البعث يشمل المبعوث والمبعوث إليه، فحقيقة البعث الإثارة لشيء كما يُبعث الميت

(١) معجم الفروق اللغوية بترتيب وزيادة (ص: ١٠٣).

من قبره^(١)، فكلمة (بعث) تدل على تغير في المبعوث والمبعوث إليه، حيث ينعم الله ﷻ عليهم بأن يجعلهم يشعرون بجمال الحياة ووجودها بسبب هذه البعثة.

ثالثاً: الإرسال يدل على مصدر الرسالة، فمصدرها المرسل، وليس الرسول، وما فيها يرجع إلى المرسل لا إلى الرسول.

وقد يستعمل كل منهما بمعنى الآخر^(٢).

إذاً فما مناسبة اختيار لفظ: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ في سورة الأعراف دون لفظ: ﴿بَعَثْنَا﴾؟

الجواب: لقد ناسب ذكر الإرسال في سورة الأعراف لوجهين:

الأول: إن الله ﷻ ذكر أول الرسل الذين وجب على أهل الأرض أن يتبعوهم، وقد بين الله ﷻ في أول هذه السورة أنه يجب على البشر اتباع ما أنزل إليهم من ربهم ﷻ، فقال: ﴿كَتَبْنَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِيُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ٥٦﴾ أَتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ٥٧﴾ [الأعراف: ٥٦، ٥٧].

والإتياع يقتضي مُبَلَّغاً بالذي يجب أن نتبعه، فناسب لفظ الرسالة، ويزيدنا بياناً لهذا أن الله ﷻ وصف مَن بَعَثَهُمْ وَمَن بُعِثَ إِلَيْهِمْ في أول السورة بما يتعلق بالإرسال إذ قال: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

الآخر: بين لنا ربنا ﷻ أنه هو الذي أرسل الرياح التي تسوق السحاب، فالماء النازل من السحاب مرسل منه، وعبر عن ذلك كله بالإرسال، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ٥٨﴾ [الأعراف: ٥٧]، فعبر عن إحياء الأرض بالماء بالإرسال، وكذلك بين أنه ﷻ مصدر إرسال الرسل لإحياء القلوب والعقول، وإعادة الإنسانية إلى فطرتها.

(١) مقاييس اللغة (١/ ٢٦٦). الكليات (ص: ٢٤٤).

(٢) شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم (١/ ٥٧٣)، الكليات (ص: ٢٤٤)، المغرب في ترتيب المعرب (ص: ٤٦).

وفي اللغة كلمة قريبة من البعث والإرسال وهي الإنفاذ، فتقول: أنفذتُ زيدًا إلى عمرو، وهذا التعبير يقتضي مجرد الإمضاء، ولا يَفْتَضِي أَنَّكَ حَمَلْتَهُ رِسَالَةً إِلَيْهِ أَوْ خَبَرًا وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ^(١)، ولم يستخدم بهذا المعنى في القرآن.

فإن قلت: ما المشهد الذي تشير إليه كلمة: ﴿فَقَالَ﴾ في قوله ﷺ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ﴾؟

الجواب:

المشهد الثالث: مشهد البلاغ التعليمي الإعلامي؛ فمهمة قادة القسط في الأرض أن يقوموا بالتبليغ الإعلامي لأقوامهم، لا أن يتركوا البلاغ، وينعزلوا عن الناس.

وَبَصِّرْنَا بِذَلِكَ قَوْلَهُ ﷺ: ﴿فَقَالَ﴾، فلم يسكت نبيُّ الله نوحٌ ﷺ أو يتردد أو يقلق. الفاء عطفت القول على الإرسال، فهي تخبرنا أنه لم ينتظر وقتًا حتى ينفذ ما كلف به ﷺ لأداء رسالته.

والمقول الذي ذكره نوح ﷺ هنا هو كلمات الحق التي ينبغي أن تصل العالم، والقول من أعظم أنواع الجهاد؛ لأنه يوصل الخير إلى الناس، ويدفع المظلمات التي ينشرها المجرمون والدُّبَاب الإلكتروني ^(٢) في أنحاء الأرض.

وَيَرْبِّئَنَا اللَّهُ ﷻ عَلَى نشر القول الحسن في الأرض: ﴿وَقُلْ لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣]، ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وَرَبَّنَا النبي ﷺ على ذلك، فقال لمعاذ بن جبل ﷺ: لما بعثه عَلَى الْيَمَنِ: «إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلُ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ...» ^(٣).

(١) انظر: الفروق اللغوية للعسكري (ص: ٢٨٩).

(٢) مصطلح حديث في عالم الإعلام الرقمي، يقصد به الحسابات الوهمية على مواقع التواصل الاجتماعي الموجهة من قبل مبرمجين مختصين لشن حملات إعلامية ممنهجة ضد أشخاص أو كيانات أو دول. ينظر: "الدباب الإلكتروني". جمهرة. محجري موقع جمهرة. مؤرشف من الأصل في: ٢٠١٩/١٢/١٥ م.

(٣) البخاري (١٤٥٨)، مسلم (١٩).

وجعل النَّبِيُّ ﷺ القول أحد وسائل الجهاد، فقال: «جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ»^(١).

بصيرة: لا بد من الحركة الإعلامية لتغيير الواقع، فالكلمة الصادقة ينبغي أن تقال بكل الوسائل التي يمكن أن نصل إليها، سواء كانت الوسيلة أن نتخاطب مع الناس مباشرة، أو عبر الإذاعة، والتلفزيون، والفضائيات، والإنترنت، والمؤتمرات، واللقاءات، والحضور في المؤسسات الدولية والمحلية، كل ذلك من أجل توضيح الحق الذي ينبغي أن يعرفوه؛ لئلا يضلوا، وينبغي أن يكون كلام المصلح واضحاً يُفَرِّقُ به بين الحق والباطل دون أن ينسى الحكمة فيه وفي غايته.

قال المنذر بن سعيد:

مَقَالٌ كَحَدِّ السَّيْفِ وَسَطَ الْمَخَافِلِ فَرَقْتُ بِهِ مَا بَيْنَ حَقٍّ وَبَاطِلٍ
بِقَلْبٍ ذِكِّي تَرْتَعِي جَمْرَاتُهُ كَبَارِقِ رَعْدٍ عِنْدِ رَعَشِ الْأَنَامِلِ
فَمَا دَحَضَتْ رِجْلِي وَلَا زَلَّ مَقُولِي وَلَا طَاشَ عَقْلِي يَوْمَ تِلْكَ الزَّلَازِلِ
وَقَدْ حَدَقْتُ نَحْوِي عُيُونُ إِخَالِهَا كَمِثْلِ سِهَامٍ أُثْبِتَتْ فِي الْمَقَاتِلِ^(٢)

هكذا نشعر ببراء القرآن الكريم بالمعاني التي تمدنا بها كل كلمة من الكلمات، فما المشهد الذي يقدمه لنا قوله ﷺ: ﴿يَقُومُ﴾ في قوله ﷺ: ﴿يَقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾؟
الجواب:

(١) المستدرک (٢٤٢٧)، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وصححه الألباني كما في صحيح سنن أبي داود: رقم: (٢٥٠٤).

(٢) يُنْظَرُ: مطمع الأنفس، لأبي نصر القيسي (ت ٥٢٨هـ) (ص: ٢٢٤)، نفح الطيب، للتلسماني (ت ١٠٤١هـ) (٣٢٧/١).

المشهد الرابع: مشهد الحكمة في الدعوة، فينبغي أن نجتمع بين التلطف والصراحة الكاملة في التبليغ، وبيصّرنا بذلك قول نوح عليه السلام: ﴿يَقُومُوا﴾.

ستقول: كيف فهمنا أن كلمة ﴿يَقُومُوا﴾ تجمع حناناً وصراحةً في الوقت نفسه؟

الجواب: هذا اللفظ يدل على الحنان، ويُشعر السامع بالقرب والقلق الأخوي، فكأنه قال: يا إخوتاه، أنا ممن يقوم معكم، وتقومون معه، فهذا مدلول كلمة (قوم)، والأصل أنه يشمل الرجال والنساء إلا أنه خُصِّصَ بالرجال عُرفاً.

بصيرة: الدعوة إلى الله تعالى لا تعني أن يكون الإنسان متجهماً، ولا متبرئاً بصورة كاملة ممن أمامه في كل لحظة، وإنما ينبغي له أن يتقرب إليهم بالطف أسلوب.

وهنا قد يطرأ سؤال، فيقول إبراهيم عليه السلام تبرأ من قومه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ؟﴾

والجواب: نعم، حصلت هذه البراءة بعد أن حصل الانفصال الكامل بين الطرفين، وأما في البداية فقد كان إبراهيم عليه السلام يتقرب إليهم بشتى أنواع التلطف، ويتفنن في أساليب ذلك.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتلطف في دعوة قومه وإنذارهم، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ: يَا قَوْمُ، إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بَعِثَنِي -يعني الجيش الذي سيغزوكم- وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ- أي: النذير المحب لقومه حتى كاد من شدة حرصه ألا يلبس ثيابه حرصاً على قومه- فَالْجَاءَ. فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَأَذَلُّجُوا، فَأَنْطَلَقُوا عَلَى مُهْلِكِهِمْ -أي: استمعوا لإنذاره فساروا بالليل-، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، فَأَصْبَحُوا مَكَائِهِمْ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ، فَأَهْلَكَهُمْ، وَاجْتَاكَهُمْ. فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ»^(١).

(١) البخاري (٧٢٨٣).

فكلمة ﴿يَقُومُ﴾ تُظهر شدة حرصك على من تخاطبهم؛ لأنك تُشعرهم بالانتماء إليهم على وجهٍ ما، وتبين لهم أنك لا تقوم إلا بهم، ولا يقومون إلا بك.

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: "لقد جلست أنا وأخي مجلسًا ما أحب أن لي به حُمْرَ النَّعَمِ، أقبلت أنا وأخي، وإذا مشيخة من صحابة رسول الله ﷺ جلوس عند باب من أبوابه، فكرهنا أن نفرّق بينهم، فجلسنا حَجَرَةً – أي ناحية- إذ ذكروا آية من القرآن، فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول الله ﷺ مغضبًا، قد احمرَّ وجهه، يرميهم بالتراب، ويقول: «مَهْلًا يَا قَوْمَ، هَذَا أَهْلِكْتُ الْأُمَّمَ مِنْ قَبْلِكُمْ، بِاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، وَضَرَبِهِمُ الْكُتُبَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ يَكْذِبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، بَلْ يَصْدَقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَزِدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ»^(١).

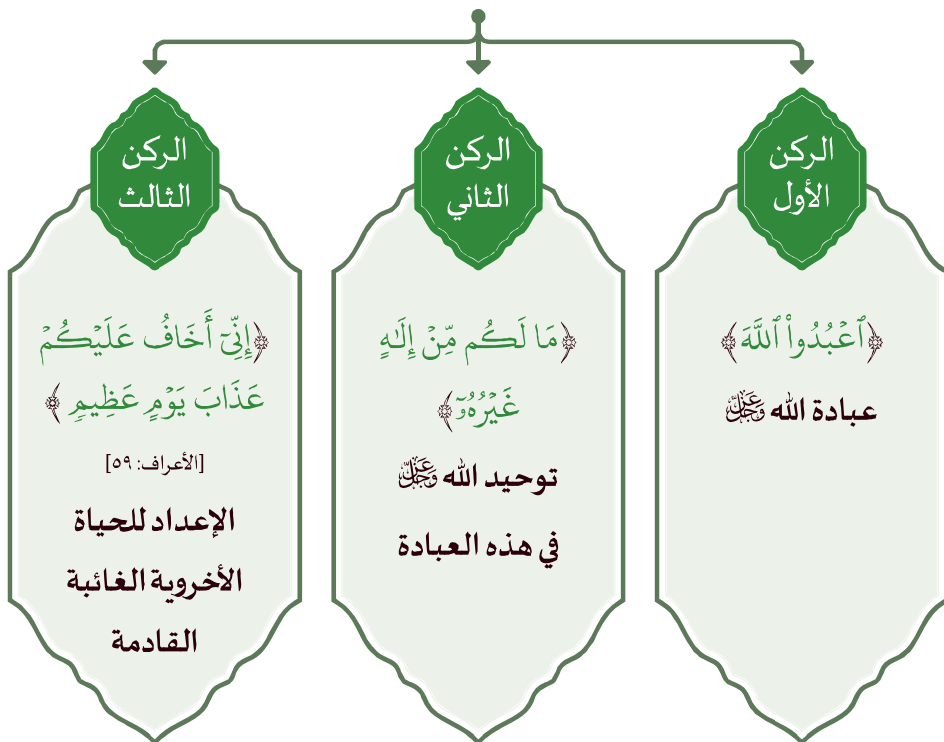
ثم لَخَّصَ نوحٌ عليه السلام دعوته، فقال: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ .
فلماذا بدأ بهذا؟ وهل كانوا يعبدون غير الله ﷻ؟ وما المعنى الذي أراد نوح عليه السلام إيصاله لهم؟
الجواب: هذه الكلمات تلخص لنا المشهد الآتي:

(١) أحمد (٦٧٠٢)، وقال محققو المسند: صحيح وهذا إسناد حسن، وصححه الألباني كما في تخريج أحاديث شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٢١٨).

المشهد الخامس: أركان دعوة نوح عليه السلام:

المشهد الخامس

أركان دعوة نوح عليه السلام [الأعراف: ٥٩]



لَخَّصْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ دَعْوَتَهُ فِي ثَلَاثَةِ أَرْكَانٍ:

الركن الأول: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ عبادة الله عَزَّ وَجَلَّ.

الركن الثاني: توحيد الله عَزَّ وَجَلَّ في هذه العبادة ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، أي: اعبدوا الله عَزَّ وَجَلَّ، واجعلوا هذه العبادة خالصةً له، فوجِّدوه فيها، ولا تشركوا معه غيره، سواء أكان ملكًا مقرَّبًا أم نبيًّا مرسلًا، فكيف تشركون معه أصنامًا أو أوثانًا؟

الركن الثالث: الإعداد للحياة الأخروية الغائبة القادمة، إذ حذَّره نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ من المخاطر المتوقعة في المستقبل الدنيوي والأبدي في الآخرة عندما لا ينفذون الركنين الأول والثاني، فيتلاعبون بالنظام الذي يصلح الأرض في الدنيا، ويبصِّرنا بذلك قول نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وحتى تتضح هذه المعاني أكثر فلا بد من بسط الكلام عن هذه الأركان الثلاثة:

الركن الأول: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، فهاتان كلمتان:

الأولى: ﴿اعْبُدُوا﴾، والعبادة تذليل النفس للمعبود على وجه الخوف منه، والتعظيم والمحبة له، اشتُقَّتْ من تعبيد الطريق، وهو تذليلها لتصلح للسير السهل المطمئن فيها، وكذلك تعبيد النفس لربها بتذليلها لتسير على النظام الذي وضعه لها.

الثانية: ﴿اللَّهُ﴾ اسمٌ عَلِمَ لرب العالمين، لا يشاركه فيه مخلوق، ويمكن أن يقال: هو مشتق من ﴿إِلَهِ﴾، ثم أضيف إليه الألف واللام، فأصبح بعد الإدغام والتفخيم ﴿اللَّهُ﴾، وبذلك يكون معنى: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾: إثباتًا لتوحيد الألوهية لله جل مجده، وتعالى شأنه.

الركن الثاني: توحيد الله عَزَّ وَجَلَّ في هذه العبادة ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾:

فهذه خمس كلمات:

﴿مَا﴾: أداة نفي لما بعدها.

﴿لَكُمْ﴾: اللام للاختصاص، لا يمكن أن تختصوا بإله غير الله عَزَّ وَجَلَّ.

﴿مَنْ﴾: حرف جر أُتي به لزيادة عموم النفي، فلو قال: (ما لكم إله غيره) لاحتمل أن يكون هذا العموم أقل في الاستغراق، لكن نوحًا ﷺ أراد نفي الإلهية أو أي صفة من صفاتها عن كل ما عدا الله ﷻ.

﴿إِلَهٍ﴾: مِنْ أَلِهَ بمعنى عَبَدَ أو تَحَيَّرَ لشدة تعلقه بمألوهه أي: بمعبوده.

﴿غَيْرُهُ﴾: استثناء، فنفي في الكلمات السابقة أن يكون هناك إله يستحق أن يكون إلهاً إلا الله ﷻ. وملخص الركنين الأول والثاني أن نوحًا ﷺ دعاهم إلى أن يملؤوا حاضريهم في الدنيا بعبادة الله ﷻ، ولا حظ أن هذه الدعوة أخذت صيغة الأمر، لا لأنه يمكنه أن يجبرهم على ذلك، بل لشدة الحرص والإلحاح على أن يفعلوا ذلك، ولظهور أعظم الغباء والغفلة والكبر لو لم يفعلوا، وخذ مثالاً على ذلك بقول الأستاذ لتلميذه الذي عنده امتحان: (ذاكر) بصيغة الأمر مع أنه لا يملك أن يُجبره. التوحيد أساس النجاة: تأمل في دعوة نوح ﷺ:

الآن عد معي -وقفك الله- إلى هذين الركنين: في قوله ﷻ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، هل قال لهم نوح ﷺ: اعمروا الأرض؟ هل قال لهم: حققوا الحرية؟ هل قال لهم: ابنوا الحضارة، وشيدوا العمارة؟

الجواب: لم يقل لهم ذلك، بل ركز على مسألة واحدة، وهي: عبادة الله ﷻ، وعدم الشرك في هذه العبادة، وعمارة الأرض، وتحقيق الحرية، وتشيد الحضارة تكون بناءً على ذلك، وليس منفصلة عنه، وتفصيل ذلك في الآتي:

أولاً: الاستخلاف في الأرض مطلوب، وهو تكليف وتشريف للإنسان، لكنه لا يمكن أن يتحقق إلا وفق: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، فإذا رأينا من عَمَرِ الأرض، وربما أحقَّ بعض الحقوق، وربما سعى في نصرة المظلوم أحياناً، ولكنه أبى إلا أن يشرك بالله ﷻ، فالآية تبصّرنا أن عمله كرماد اشتدت به الريح، كما في قوله ﷻ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَاةُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨]. فكيف نرجو له جنة أو مغفرة، وهو قد أخل بأعظم الحقوق التي تبني عليها الحضارة أو يقام عليها العدل، وأعظم الحقوق: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

بهذا نرد على من يزعم أنه يكفي (ستيفن هوكنج) أن يتكلم بحقٍ عن قضية فلسطين لنطلب له المغفرة، بينما هو لم يدر جزئاً من حياته في محاربة ربه ﷻ، فهو يتشكك ويشكك في وجود خالق لهذا الكون، وكذلك لا يكفي أن يوجد صحفي أو مناضل يدافع عن هذا الحق أو ذلك، أو يتكلم عن هذا الظالم أو ذاك لنرجو له الجنة والمغفرة، بينما تراه لا يأبه بأعظم الحقوق عليه، وهو حق الله ﷻ الذي خلقه وصوّره وشقّ سمعه وبصره، وأعطاه اللسان الذي به يتكلم، والعقل الذي به يفكر... وهكذا.

أقول هذا بألم عظيم؛ لأن بعض المثقفين المحسوبين على المسلمين صاروا يشكّكون فيما هو معلوم من الدين بالضرورة، ويقولون: أما يكفيكم أن فلاناً أو فلانة كان يرسل التقارير الصحفية عن قضية فلسطين؟ ونحن نقول: قضية فلسطين من أعظم القضايا الإنسانية التي ينبغي أن ينصرها المسلم وغير المسلم، لكن هذا لا يعني أن ننسى بصائر القرآن، فانظر بما بدأ نوح عليه السلام دعوته لقومه وكل الأنبياء ﷺ بعده.

وهؤلاء الذين أطلقوا أنفسهم: المثقفين أو المفكرين، أو ممن تتلمذ على أيديهم ممن تلقوا أفكاراً من مراكز الدراسات الاستراتيجية السياسية والثقافية.. إلى آخر المسميات، وقد نشرت مؤسسات إعلامية تروج لهذا التوجه الثقافي والفكري، حتى كتب بعضهم: (أن يكون المثقف بدلاً عن الفقيه في الإمامة والخطابة في المسجد، والمفكر بدلاً عن المفتي في الأحكام الشرعية).

وهؤلاء لو من الله عليهم وتواضعوا وطلبوا العلم الشرعي، وأحاطوا علماً بمراد الله ورسوله، لما استهواهم ما يقوم به الغربيون من غير المسلمين. ولو تثقفوا على السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي لعلموا أن مشركي قريش كانوا أكثر حماساً وإنصافاً من الأوروبيين غير المسلمين المناصرين لغزّة اليوم. **ثانياً:** إن قوله ﷻ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]. تتضمن معنى: إقامة العدل، وتشديد العمران، والعمل على تيسير الحياة، وحفظ كرامة الإنسان، والأخذ بأسباب القوة، ولكن ذلك كله لا يمكن أن يتحقق إلا بـ ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وإلا تحول الذين يعمرّون الأرض إلى سباع يأكلون أموال غيرهم ليعمرّوا حياتهم، كما ترى في الدول الكبرى التي تعيث في الأرض فساداً، وسترى تحوّلهم إلى بهائم بل إلى وحوش، أما يكفي أن تسمع في هذه الأيام أن

قتل الأجنّة في بطون الأمهات يدل على تحقق حرية الاختيار، ويشير إلى حرية النساء فيما يفعلن، ويبنى عليه نجاح الانتخابات في بعض الدول؟!

وكلام نوح عليه السلام يلخص النظام الذي ينبغي أن تسير الدُّرّة الأدميّة عليه في الدنيا.. إنه نظام العبادة التي يوحّد العبد فيها ربّه ﷻ.

ثالثاً: قوله ﷻ: ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]. يبصّرنا بالركن الثاني الذي دعا إليه نوح عليه السلام، وهو أن لا يشرك العابد مع الله ﷻ إلهاً غيره، ولكن هل لهذه العبارة معنى آخر يضاف إلى هذا المعنى؟

الجواب: نعم، فإن هذه الصياغة العجيبة لهذه الكلمات النورانية: ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ تتضمن معنى ثالثاً، وهو البرهان العقلي للركنين السابقين، فعندما بصّرنا الله ﷻ في قوله: ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]. ربما سأل سائل لا يؤمن بالله ﷻ: ما الدليل على أن الله ﷻ هو الذي يجب أن يُعبد؟ وهو الذي يجب أن يوحّد في هذه العبادة؟ ربما قال أحدهم عن نفسه: إنه يعبد ذاته، وربما قال آخر: إنه يعبد وداً وسواهاً ويغوثاً ويعوقاً ونسراً، وهي أصنام كان يعبدها قوم نوح عليه السلام؟

فإن قلنا؛ لأن الله ﷻ قال لنا ذلك، سيرد علينا: هو لا يؤمن بالله، فنقول له: قد ذكر الله ﷻ لك الدليل، وهو في قوله ﷻ: ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

فهذه الكلمات نستدل بها على الملحد وأمثاله لا لأنها قرآن، وإنما نستدل بمضمونها العقلي؛ إذ معناها: لا يمكن أن يكون لكم إله غيره تعبدونه بحق، لا ذواتكم لأنها محتاجة إلى غيرها، فكيف تُعبد! ولا غيركم من المخلوقين أيّاً كانوا؛ لأنهم مخلوقون، فلم يبق لكم إلا أن تعبدوا الله الذي لا إله غيره ﷻ.

فقوله ﷻ: ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾: يعني أنه ليس لكم إله يستحق العبادة غيره.

وانظر لقوة التعبير هنا:

أثبت الله ﷻ الجارَّ والمجرور في قوله ﷻ: ﴿مَا لَكُمْ﴾، ثم أغرق في النفي فقال ﷻ: ﴿مَنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، وكان يمكن أن يحذف هذين الأمرين فيقول: (ما إله غيره)، فلما ذكرهما في كلماته ﷻ دلَّ ذلك على نزع صفة الإلهية عن كل من يدعيها إلا الله جلَّ ذِكْرُهُ.

وقوله ﷻ: ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ كقولك: ما لك سوى هذا الأمر مهما فعلت؛ إذ لا يُتصوَّر قضاء أمر إلا بذلك.

"قَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: مَا عِنْدَنَا مِنْ طَعَامٍ أَوْ أَكُلٍ" (بِضْمَتَيْنِ) أَفَادَ أَنَّهُ لَا يَوْجِدُ شَيْءَ يُطْعَمُ أَوْ يُؤْكَلُ" (١)، فلو قال أحدهم: بلى، عندنا خشب، فهل يكون كلامه عقلياً؟ ولو قال آخر: بلى، عندنا أرانك، فهل يكون كلامه عقلياً؟

وكذلك قوله ﷻ: ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، أي: لا يمكن أن يوصف بالإلهية إلا هو لأن كل ما عداه مخلوق، ونحن نتكلم عن الإلهية.

التوحيد من أعظم قوانين الوجود:

إن قوله ﷻ: ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ يلخص قانوناً من أعظم قوانين الوجود، فما هذا القانون وما معنى هذا التركيب الفخم؟

الجواب: أعظم قوانين الوجود هو أن نوحّد الله ﷻ في ألوهيته، فلا نشرك معه غيره، قال الواحدي رحمه الله: "في الكلام حذف، وهو خبر ﴿مَا﴾ لِأَنَّكَ إِذَا جَعَلْتَ ﴿غَيْرُهُ﴾ صِفَةً لِقَوْلِهِ: ﴿إِلَهٍ﴾ لَمْ يَبْقَ لِهَذَا الْمَنَفِيِّ خَبَرٌ، وَالْكَلَامُ لَا يَسْتَقِيلُ بِالصِّفَةِ وَالْمَوْصُوفِ، لِأَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: زَيْدٌ الْعَاقِلُ وَسَكَتَ، لَمْ يُفِدْ مَا لَمْ تَذْكُرْ خَبَرَهُ. وَيَكُونُ التَّقْدِيرُ: (مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ فِي الْوُجُودِ)" (٢)، أي: مالكم من إله غيره يستحق العبادة، (وما لكم من إله غيره) يجوز لكم عقلاً أن تتجهوا إليه، فإذا اتجهتم إلى الشمس أو القمر أو إلى هُبَلٍ أَوْ إِلَى اللَّاتِ وَالْعُزَّى أَوْ إِلَى الْبَقَرِ أَوْ الْبَشَرِ فَأَنْتُمْ مَخْطُؤُونَ خَطَأً عَظِيماً؛ إذ لا يتصور أحدٌ من الناحية العقلية أن يتجه إلى مخلوق: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَعَيْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّن ظَهِيرٍ﴾ (٣) وَلَا تَنْفَعُ

(١) تفسير المنار (٤٣٦/٨).

(٢) تفسير الرازي (١٤/ ٢٩٤).

الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٢-٢٣﴾ [سبا: ٢٢-٢٣].

فنفي الأعظم أولاً: وهو أنهم يملكون شيئاً مستقلاً هو عبارة عن ذرة في السموات والأرض، فهل يملكون؟! لا، غاية أمرهم أن عندهم ملكاً ناقصاً هو ما يحصلون عليه في حياتهم، وقد ينزع منهم ثم ينزع بالكلية مع موتهم.

ونفي ثانياً: أن يكون لهم شرك فيهما، فهل لهم شرك في السموات والأرض؟ فإذا كان ليس لهم ملك مستقل، ولا شراكة، فربما هو -جَلَّ مَجْدُهُ- يحتاج منهم ظهيراً أي: نصيراً.

وهذا منفي أيضاً في المرتبة الثالثة.

ورابعاً: ربما زعم أحدهم أن له القدرة على الشفاعة عند الله ﷻ، شفاعاً لا يردها الله ﷻ، فنفي الله ﷻ ذلك، وإنما أثبت الشفاعة بإذنه ﷻ لمن رضي له وأراد كرامته، لا لأنه لا يمكنه أن يرد الشفاعة.

ولكنك تستطيع أن تسأل: ما القيمة البيانية في إضممار الخبر في الآية السابقة؟

والجواب هو: أنه أضمم الخبر ليذهب التفكير عندك كل مذهب، ويتسع التصور لكل اتجاه يستطيعه عقلك لتُقَدِّرَ المحذوف بما يناسب فخامة هذه الحقيقة، حقيقة الوحدانية؛ فيمكن أن يكون التقدير ما ذكره: أي: ما لكم من إله غيره في الوجود، أي: ما لكم من إله يستحق أن يُعْبَدَ غيره جَلَّ فِي غُلَاةٍ، ويمكن أن يكون التقدير: ما لكم أيها الناس من إله حقيقي تسمونه إلهاً دون كذب غير الله ﷻ، وهكذا.

وذهب الرازي رحمه الله إلى عدم وجود إضممار، وقال: "لَمْ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: دَخَلَ حَرْفُ النَّفْيِ عَلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ، وَعَلَى هَذِهِ الْمَاهِيَةِ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى أَنَّهُ لَا تَحَقُّقَ لِحَقِيقَةِ الْإِلَهِيَّةِ إِلَّا فِي حَقِّ اللَّهِ ﷻ؟ وإذا حَمَلْنَا الْكَلَامَ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى اسْتَعْنَيْنَا عَنِ الْإِضْمَارِ الَّذِي ذَكَرُوهُ"، ورد على الاعتراضات الواردة في ذلك^(١).

(١) تفسير الرازي (١٤/٢٩٥).

وأرى الخُطْبَ بين الرايين يسيرًا؛ فعندما تنظر إلى الكلام البليغ لنوحٍ عليه السلام، وترى أنه دعا قومه ربما ملّت مع الرازي رحمه الله حيث وجد أن نوحًا عليه السلام دعا قومه إلى ثلاثة أركان:

الأول: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ الثاني: ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ الثالث: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ولكن الرازي رحمه الله يزعم هنا أن نوحًا عليه السلام دعاهم إلى هذه الدعاوى الثلاث، ولم يذكُر على صِحَّةٍ واحدٍ منها دليلًا ولا حُجَّةً^(١).

ولكنك تراني قد سلكت في فهم الآية سبيلًا آخر، فزعمتُ أن نوحًا عليه السلام دعا قومه إلى الإيمان بهذه الأركان الثلاثة.

وضمّن الله ﷻ في كلام نوحٍ عليه السلام على الركن الثاني الدليل على صحة كلامه تضييًّا بليغًا، فقال ﷻ: ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾، ولم يقل: (ولا تشركوا به)؛ إذ كلامه هنا أبلغ بكثير، فقد دخل في قوله ﷻ: ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ أمران معًا:

الأول: النهي عن الشرك وبيان سبب النهي عن الشرك.

الآخر: الدليل على وجوب توحيد الله ﷻ في عبادته، والحدُّ من عقوبته عندما لا ينفذ أمره ﷻ.

وخلاصة ذلك: لا يتصور عاقل أن يكون له إله غير الله ﷻ؛ والسبب أن الله ﷻ ربُّ العالمين كما بيّن الأنبياء ﷺ جميعًا، ونقلَ الله ﷻ لنا كلام بعضهم في آياتٍ أخرى.

فهذا يبيّن الوجه الذي لأجله يجب أن يُعبد الله ﷻ، وكلام نوحٍ عليه السلام هنا يجمع أمرين معًا: اختصاص الله ﷻ بأن يُعبد، وسبب هذا الاختصاص، في دمجٍ مدهش.

فهو يجب أن يُعبد وحده؛ لأنه لا إله غيره، فكيف يُشرك به، أو يُعبد غيره؟!

وكلام نوحٍ عليه السلام فيه تذكيرٌ بفطرتهم في الاتجاه إلى الله ﷻ، وتذكيرٌ بواقعهم الذي يدل كلُّ جزء فيه على أن الإله الحق هو الله ﷻ ربُّ العالمين.

الآن دعني أخبرك:

(١) المرجع السابق نفسه.

لا تعجب من هذه الإطالة في تفسير هذه الكلمات النورانية ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، فهذه الكلمات هي الرسالة التي يكررها جميع الرسل بأحرفها، وهي من أعظم الكلمات القرآنية جمالاً وعظمة وقوةً وبلاغةً، وإني لأعجب من علماء البلاغة القرآنية كيف يصدفون عنها إلى غيرها؟!
فهي تعبر عن هدف الإرسال، وعن برهان الرسالة أي: الدليل على صدق هذه الرسالة، وهذا الركن يتعلق بالحياة الدنيوية الحاضرة، وبالنظام الذي ينبغي أن نقيم عليه هذه الحياة.

وهنا نسال: ما القراءات الواردة في قوله: ﴿غَيْرُهُ﴾؟

الجواب: فيها قراءتان متواترتان، الأولى: قراءة (أبي جعفر والكسائي): ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، بخفض ﴿غَيْرُهُ﴾ على النعت لـ ﴿إِلَهٍ﴾، ولأن كلمة ﴿إِلَهٍ﴾ مجرورة في الظاهر، فكذلك صفتها، والخبر على هذه القراءة: ﴿لَكُمْ﴾، أو هو مُضْمَرٌ، والتقدير: ما لكم في الوجود أو العالم، ونحو ذلك، ولا بد من هذا الإضمار؛ لأن الصفة والموصوف لا يستقل بهما كلام.
القراءة الثانية: قرأ الجمهور: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، برفع ﴿غَيْرُهُ﴾ على أنها بدل لمحل كلمة ﴿إِلَهٍ﴾^(١)، وهذه الكلمة مرفوعة في الأصل، ولكن الله ﷻ عندما أراد أن نفهم العموم الكامل في النفي أتى بكلمة ﴿مِنْ﴾، فجرت كلمة ﴿إِلَهٍ﴾، والتقدير: ما لكم إله غيره، فموضعها رفع، وتقدير الكلام: "ما لكم إله غير الله".

فإن قلت: ما ديانة قوم نوح في ذلك الوقت؟ هل كانوا مشركين أم ملحدين؟

الجواب: يظهر من قوله ﷻ: ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩] أن قوم نوح ﷻ كانوا فرقة:

(١) انظر: النشر في القراءات العشر (٢/ ٣٠٤).

الفرقة الأولى: كانت تنكر عبادة الله ﷻ بالكلية، فكانوا ملحدين دهرين لا يعبدون الله ﷻ ولا يعبدون آلهة أخرى بل يعبدون أنفسهم، والظاهر أن هذه فرقة قليلة العدد؛ إذ لم يكن الإلحاد المصمت فاشيًا، واستظهر الرازي رحمه الله أن فرعون كان دهرياً^(١)، ولا يظهر لي هذا، وستأتي مناقشته في ذلك في موضعه من هذه السورة.

الفرقة الثانية: الذين كانوا يشركون في عبادتهم مع الله ﷻ غيره.

الفرقة الثالثة: الذين يعبدون الأصنام من دون الله ﷻ.

وربما تسأل: ما الذي بصّرنا بهذه الفرق في كلام نوح عليه السلام؟

الجواب: يستفاد هذا من قوله ﷻ: ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [الأعراف: ٥٩].

فعندما قال ذلك، فإن الحالات العقلية المتاحة ثلاث:

إما أنهم لا يعبدون إلهاً أصلاً، فهو عليه السلام يقول لهم: ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾، فهو يخبرهم بوجود أن يعبدوا إلهاً اسمه: الله جلّ مجده.

وإما أنهم يعبدون أحداً مع الله ﷻ، فهو يأمرهم أن يُفردوه وحده ﷻ بالعبادة.

وإما أنهم يعبدون إلهاً غيره، دون أن ينكروا وجود الله ﷻ، فهو عليه السلام يأمرهم أن يعبدوا الله ﷻ وحده دون غيره.

فهاتان الفرقتان هم الأكثر في قومه، وذلك لأن قوم نوح عليه السلام قالوا له: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَكًا﴾ [المؤمنون: ٢٤]، فهذا يدل على اعترافهم بوجود الله ﷻ.

وظاهر سورة نوح عليه السلام أن قومه كانوا يعبدون أصناماً، إذ قال الله ﷻ: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، ولا ينفي ذلك أن يكون بعضهم ملحدين دهرين.

وخاطب نوح عليه السلام جميع أولئك، فقال لهم: ﴿يَقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.

(١) تفسير الرازي (١٤ / ٣٤١).

فخاطب الفرقة الأولى الملحدة، فعرفهم بضرورة أن يعبدوا الله ﷻ، ﴿يَقُومُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾، ويكون قوله لهم: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ليحترسوا أن يظنوا أن هناك إلهاً آخر، وليعبدوا الله ﷻ وحده. وخاطب الفرقة الثانية والثالثة، فقال لهم ﷺ: ﴿يَقُومُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾، فيكون قوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ تَعْلِيلًا لِلْإِقْبَالِ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ ﷻ، أي اتجهوا بالعبادة لله ﷻ، ولا تتجهوا بالعبادة لأوثانكم؛ لأنه هو الإله وحده ﷻ لا أوثانكم^(١).

ويبين ابن عباسٍ ﷺ كيف بدأ انحراف الفرقتين الثانية والثالثة حيث كان في قدامهم رجال من الصالحين، فلما ماتوا تلاعب الشيطان بأفكارهم وقذف في نفوسهم أن ينصبوا لهم أصنامًا للذكرى، ثم صارت الذكرى عبادة.. يقول ابن عباس عن ذلك: "صَارَتِ الْأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ، أَمَا وَدَّ: كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ، وَأَمَا سُوَاغُ: كَانَتْ لِهَيْذَلٍ، وَأَمَا يَعُوثُ: فَكَانَتْ لِمُرَادٍ ثُمَّ لَبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجُرْفِ عِنْدَ سَبَا، وَأَمَا يَعُوثُ: فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَا نَسْرُ: فَكَانَتْ لِحِمَيْرٍ، لِأَلِ ذِي الْكَلَاعِ، أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ. فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ: أَنْ أَنْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا^(٢) وَسَمُّوْهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ"^(٣).

الركن الثالث: الإعداد للحياة الآخوية القادمة، إذ حذرهم نوح ﷺ من المخاطر المتوقعة في المستقبل الدنيوي والأبدي في الآخرة عندما لا ينفذون الركنين الأول والثاني، فيتلاعبون بالنظام الذي يصلح الأرض في الدنيا، ويبصّرنا بذلك قول نوح ﷺ: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩].

ثم قال نوح ﷺ: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]، فلماذا ركّز نوح ﷺ على هذا المعنى دون غيره؟

(١) التحرير والتنوير (٨/ ١٨٩).

(٢) الأنصاب: هي حجارة تنصب، تصب عليها دماء الذبائح وتعبد، الواحد: نُصْبٌ. أساس البلاغة (٢/ ٢٧٣).

(٣) البخاري (٤٦٣٦).

الجواب: هذا هو الركن الثالث الذي دعا إليه نوح عليه السلام: وهو الإيمان بالغيب، ومن أعظم المغيبات اليوم الآخر، فنوح عليه السلام يحذر قومه من مخاطر العذاب المتوقع في المستقبل الدنيوي، والأبدي في الآخرة، وهذا العذاب يحل عندما لا نعبد الله تعالى كما أمر، ونتلاعب بالنظام الذي يصلح الأرض في الدنيا، وببصرنا بذلك قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩].

فهذه ست كلمات:

الكلمة الأولى: ﴿إِنِّي﴾: استعمل (إنَّ) الدالة على التأكيد، والياء ليذكر نفسه.

الكلمة الثانية: ﴿أَخَافُ﴾: الخوف كلمة تعكس صفة نفسية، فيها يحدث خواء وفراغ في الصدر يسبب ألماً وهمّاً من وقوع شيء مزعج، وقد يكون شيئاً مرعباً، وبعضهم قيد الخوف بحدوث شيء في المستقبل، وقد يصحب الخوف تعظيماً لمن يُخاف منه، فيسعى الخشية، وقد يكون عامّاً، فيدل على قلق الخائف على نفسه أو على غيره من حدوث ذلك الأمر المرعب.

ولكن ما معنى الخوف في: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؟

الجواب: للخوف معنيان^(١):

المعنى الأول: الجَزْمُ والْيَقِينُ بوقوع العذاب على الظالمين المكذبين المستكبرين في يوم لا ريب فيه، فيقتضي ذلك أن يحس الخائف بعاطفة تتحرك في صدره، هذه العاطفة من القلق تسمى خوفاً.

المعنى الآخر: التوقع والترقب لوقوع العذاب في المستقبل، وهذا يعني أنه يجب الحذر منه كما قال الله تعالى في الملائكة عليهم السلام: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ﴾ [النحل: ٥٠]، أي: يَحْذَرُونَ الْمَعَاصِيَ خَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ الذي يترتب عليها.

وهذان المعنيان سبقت الإشارة إليهما في قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ [النساء: ٣٥]، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَمْرَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوراً أَوْ إِعْرَاضاً﴾ [النساء: ١٢٨]، فالخوف يحتمل أن يراد به الخوف الحادث بسبب العلم الواقع، فيدل على اليقين.

ويحتمل أن يراد به الخوف الحادث بسبب الأمر المتوقع، فيدل على الظن والشك.

(١) انظر: الباب في علوم الكتاب (٩/ ١٧٨).

وهنا يأتي الجواب على سؤال يطرحه بعض المستهزئين المكثرين من الفسق، فيقتربون حفلات المعاصي، ويثيرون الشهوات بين الشباب والشابات، ثم يقولون: لم نر عقوبات نزلت من السماء، ولا وقع علينا خسف من الأرض، وهكذا يسخرون.

ونوح عليه السلام يخبرنا بقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: أن العذاب إما أن يكون واقعاً أي: قريباً جداً، أو يكون متوقعاً أي: يأتي في المستقبل.

الكلمة الثالثة: ﴿عَلَيْكُمْ﴾: (على) حرف جر، و"الكاف" ضمير يُظهر لنا أن نوحاً عليه السلام يخاطب قومه بصورة مباشرة، و"الميم" تصور لنا أنه يخاطب قومه بصورة جماعية، ولكن هذه الكلمة لها موقع عجيب ينبغي أن نتنبه له، وننظر ماذا سيصور لنا هذا الموقع!

نلاحظ أن نوحاً عليه السلام أظهر قوة عاطفته تجاه قومه عندما قَدَّمَ كلمة: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ على غيرها، فكيف ذلك؟

هذا من الترتيب العجيب الذي يبين مقدار البلاغة القرآنية، ويعكس ما قاله نوح عليه السلام لقومه بلسانه.

لفعل الخوف حالان:

الأول: أنه يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ إِلَى الشَّيْءِ الْمَخُوفِ مِنْهُ إذا كان الخوف على النفس، كما قال ابن آدم المتقي: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨]، وأمر الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم أن يقول ذلك حينما راوده قومه ليعصي ربه تعالى بترك التبليغ أو بالمداهنة، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٥، الزمر: ١٣]، فذكر المخوف منه، وهو العذاب، وكما قال عمرو بن كلثوم:

وَأَنَا النَّازِلُونَ بِكُلِّ ثَغْرٍ
يَخَافُ النَّازِلُونَ بِهِ الْمُتُونَا^(١)

(١) من معلقة عمرو بن كلثوم، كما في جمهرة أشعار العرب (ص: ٢٩٥).

الآخر: يَتَعَدَّى فعل الخوف إلى مَفْعُولٍ ثانٍ بِحَرْفٍ (على) إذا كَانَ الخَوْفُ على شخص آخر كأن تقول: أخاف العدو عليك إن نزلت بساحته وحيداً، أو تقول: أخاف الفشل عليك إن لم تذاكر، أو إن لم تحتط في تجارتك، ومن ذلك قول الأخوص:

فَإِذَا تَزُولُ تَزُولُ عَنْ مُتَحَمِّطٍ تُخْشَى بَوَادِرُهُ عَلَى الْأَقْرَانِ^(١)

والأصل: أن المفعول الأول الذي تعدى له فعل (خاف) بنفسه مقدم، ثم يأتي ما تعدى له (على)، وتوضيح ذلك أنه في أول الأمر كأنَّ نوحاً ﷺ أخبر قومه أنه يخاف عذاب يوم عظيم، فلما أخبرهم بذلك ورد على إخباره السؤال: تخاف هذا العذاب على من؟ على نفسك أم على قومك؟ فاجبر أنه يخافه على قومه، وكان حق التركيب أن يكون كالآتي: إني أخاف عذاب يوم عظيم عليكم، لكنه قال ﷺ: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾، فقدم كلمة: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ على ذكر العذاب المخوف منه، وذلك يصور لنا حرارة عاطفته على قومه الكفار، وشفقته عليهم، ولذلك كان التركيب كما ذكر الله ﷻ: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

ومثل ذلك قول الله تعالى على لسان النبي ﷺ وهو يخاطب العالم في سورة هود ﷻ: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣].

الكلمة الرابعة: ﴿عَذَابَ﴾: سبق أن بيَّنا أن العذاب: يعني سلب عذوبة الحياة، فهو حمل الإنسان على أن يعذب، أي: أن تزال منه عذوبة الحياة، فيجوع ويسهر، ويضرب، ويتلوى من الألم الجسدي، ويذوق الأوجاع النفسية المهيمنة، فتتوجع قواه الجسدية، وتتجرع الغصص النفسية حتى يتمنى الموت ولا يجده، فيقال: عَذَّبْتُهُ أَي: أزلت عَذْبَ حَيَاتِهِ، على بناء مَرَضْتُهُ أَي: عالجه حتى أزلت مرضه^(٢).

الكلمة الخامسة: ﴿يَوْمٍ﴾: إما أن يراد به زمن محدّد بعينه، وهو يوم القيامة، وجاء نكرة؛ لأنه يكلمهم عن شيء مستقبلي غامض لا يُعلم متى وقوعه، وإما أن يراد به يومٌ لا يعلم متى يكون، ولكنه سيأتي إن عصى المخاطبون ربهم ﷻ.

(١) ديوان الأخوص لعبد الله الأنصاري (ص: ٢٠٣)، والمتخبط: المتكبر الغضبان.

(٢) المفردات في غريب ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، (ص: ٣٢٧).

الكلمة السادسة: ﴿عَظِيمٍ﴾: هذه الكلمة مشتقة من (عَظُم) إذا كبر في هيئته أو واقعه أو مقداره أو فعله أو حالته أو في كل ذلك، وهي صفة للكلمة: ﴿يَوْمٍ﴾ «يعني: عذاب يوم القيامة، ووصفه تعالى بـ"العِظَم": لِعِظَمِ هَوْلِهِ، وفظاعة شأنه»^(١).

وعندما ترجع للكلمات الست ترى الأفنان الوارفة، والحنان الدافئ، والتلطف الندي في هذه الكلمات المنذرة: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ فنوح عليه السلام يبين لهم شدة حرصه عليهم، ويخبرنا أنه سلك أفضل الأساليب، وتكلم بالطف الكلمات التي تظهر شفقه على قومه، وأنه في دعوته لهم إلى الله ﷻ ليس بناقمٍ عليهم، ولا منتقمٍ منهم، ولا مستهزئٍ بهم، وظهر هذا الحرص منه ابتداءً من كلمة: ﴿يَقُومُ﴾؛ ثم لم يكتف بذلك ليعبر عن استمرار إشفاقه عليهم، فاستعمل الفعل المضارع: ﴿أَخَافُ﴾، والفعل المضارع يدل على الحال والاستقبال، ثم لم تقف عاطفته عند ذلك حتى أخبر عن المخاطر المنتظرة التي تبرر خوفه، وأعظم هذه المخاطر العذاب، ولكنه ليس عذاباً معتاداً، بل هو عذاب يوم عظيم، فليس عذاب يوم من الأيام المعتادة، بل هو يوم عظيم يؤسس للحياة الباقية.. إنه يوم الساعة.

رباعية النجاة: تحليل البيان الأول لنوح عليه السلام:

ما القضايا التي لخصها نوح عليه السلام في بيانه الأول الذي خاطب به قومه إذ قال: ﴿يَقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]؟

الجواب: أشرق كلام نوح عليه السلام عن أربع قضايا:

القضية الأولى: التَّكْلِيفُ أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ ﷻ.

القضية الثانية: التَّوْحِيدُ؛ فالله ﷻ كلفهم أن لا يشركوا معه غيره.

القضية الثالثة: النُّبُوَّةُ، إذ أرسل الله ﷻ لهم رسولاً ليبليهم هذا الكلام.

القضية الرابعة: المَعَادُ في اليوم الآخر؛ لأنه تكلم عن عذاب يوم عظيم.

(١) تفسير الطبري (١١ / ٢٨٥).

يطير بك التعبير القرآني لتتدبر الفرق بين كلام نوح عليه السلام في هذه الآية وفي سورتي هود عليه السلام والمؤمنون، فتسأل:

لماذا قال نوح عليه السلام في بداية دعوته في هذه السورة: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وفي سورة هود عليه السلام قال عليه السلام: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٦]، وقال عليه السلام في (المؤمنون): ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣]؟

الجواب: نجد في هذا الاختلاف معاني رائعة عظيمة، ومن الحسن جداً أننا رأينا الترتيب المصحفي يحدثنا عن الأقوال المتعددة التي صدرت عن نوح عليه السلام، وهو يجتهد في دعوة قومه إلى الخير الدنيوي والأخروي، وتختلف عباراته من سورة إلى سورة حسب مراده في تبليغ معنى من المعاني التي يريد إيصالها لهم، وينوع عباراته بما يقنعهم بالصدق الذي يهتف به:

فحذرهم كما جاء في سورة الأعراف من عذاب يوم عظيم، فكلمة: ﴿عَظِيمٍ﴾ لا يصح إلا أن تكون وصفاً لليوم، لأنها مجرورة تابعة لكلمة ﴿يوم﴾، ووصف اليوم بالعظمة لبيان اختلافه عن أيامنا. ثم حذرهم من عذاب أليم كما جاء في سورة هود عليه السلام فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٦]، فكلمة: ﴿أَلِيمٍ﴾ مجرورة صفة لليوم، ويصح ذلك؛ فإن الله تعالى وصف ذلك اليوم بالعظمة في مكان آخر هو قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۖ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين: ٤-٥].

وكذلك وصفه تعالى بأنه يوم عبوس قمطير، فقال ناقلاً كلام الصالحين: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠].

وبذلك صح وصف اليوم بالعظمة في شأنه، وبالألم في نوع هذا الشأن. وقد ذكر الله تعالى لهذا اليوم صفاتٍ مقاربة لهذه الصفة، فقال تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ أَحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الْنَافُورِ ۖ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۖ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٨-١٠].

كل ذلك يدل على أن نوحًا **الْعَلِيْمُ** في سورتي الأعراف وهود **الْعَلِيْمُ** يخوفهم من شدة ذلك اليوم حجمًا، فوصفه بالعظمة، ونوعًا فوصفه بالألم، حتى إن الخلائق يقعون في ذلك اليوم في كربٍ عظيم، فعن أبي أُمَامَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «تَدْنُو الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَدَرِ مِيلٍ، وَيَزَادُ فِي حَرِّهَا كَذَا وَكَذَا، يَغْلِي مِنْهَا الْهَوَامُ كَمَا يَغْلِي الْفُدُورُ، يَعْرِقُونَ فِيهَا عَلَى قَدَرِ خَطَايَاهُمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ إِلَى كَعْبِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ إِلَى سَاقِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ إِلَى وَسْطِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ»^(١).

وعن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» **[المطففين: ٦]**. ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ **[المعارج: ٤]**. في الرشح إلى أنصاف أذانهم^(٢).

بصيرة: العذاب ليس عظيمًا في كلفيته فقط، بل هو أليمٌ في أثره كذلك، فكلمة: ﴿عَظِيمٍ﴾ تدل على الحجم والفخامة، و﴿أَلِيمٍ﴾ تدل على العظمة أين تكون، هل تكون العظمة في الألم أم في السعادة؟ في الحنان أم في الجفاء؟ هل تكون العظمة في الشعور بالخوف والقلق أم في الشعور بالأمان؟
فكلمة: ﴿عَظِيمٍ﴾ في الأعراف لا تبين لنا هذا العِظَمَ فيم هو، لكنها في سورة هود بينت لنا في أي جهة تكون هذه العظمة، وهي جهة الألم.

لاحظ الترتيب في سورة الأعراف: ﴿عَظِيمٍ﴾، وفي سورة هود ﴿أَلِيمٍ﴾، فهو يوم ﴿عَظِيمٍ﴾ ولكن في جهة الألم، وبناء على ذلك جاء التعبير في سورة المؤمنون بقوله ﷻ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.
إذاً إذا كان اليوم عظيمًا أليماً، فماذا يعني هذا؟
الجواب: أن تتقوه بأن تعملوا ما ينجيكم فيه، يعني: بعد أن عرفت أن ذلك اليوم: ﴿عَظِيمٍ﴾، وأليم، أفلا تبحثون عن التقوى التي تحميكم منه؟.

(١) أحمد (٢٢٢٤٠) والطبراني في الكبير (١٨٨/٨)، رقم (٧٧٧٩)، وقال البيهقي: (٣٣٥/١٠): "رجال أحمد رجال الصحيح غير القاسم بن عبد الرحمن، وقد وثقه غير واحد"، وقال محققو المسند: إسناده قوي من أجل الحسن بن سوار.

(٢) أحمد (٥٩١٢)، والترمذي (٢٤٢٢)، وقال: "حسن صحيح"، وصححه محققو المسند.

وهكذا نكون قد جمعنا بين الثلاثة المواضع في السور الثلاث.

ما البصيرة العظيمة التي نلمحها في قول نوح عليه السلام: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؟

الجواب: يفيد أن على المصلح أن يتعامل مع المدعويين بعاطفة صادقة تحب لهم الخير، وتكره لهم الشر، فلم يقل: أنتم تستحقون كذا وكذا، ولم يقل: يجب أن تخافوا، وإنما عبر عن خوفه عليهم بمحبة وشفقة، وجعل ما سيصيبهم من كوارث كأنها ستصيبه، فترى هنا تجلي العاطفة النبوية الصادقة، والنصح المحب لهم، فهو خائف عليهم، حريص على سلامتهم، يشعرهم أن أي ألم ينزل بهم كأنه نزل به، وهو يخاف أن يحلّ بهم عذاب ذلك اليوم كما يخاف أن يقع عليه.

وننتقل إلى الآية: ﴿٦٠﴾، وهي قوله عليه السلام: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنِكَ فِي صَلَاحٍ مُبِينٍ﴾

[الأعراف: ٦٠]، فما المشهد الذي نقلتنا إليه هذه الآية بعد المشاهد التي رأيناها في الآية السابقة؟ وما المناسبة والاتصال بين هذه الآية وما سبقها؟

المشهد السادس: مشهد الرد السلبي العنيف:! فنرى قوى الملأ المستكبرة وهي تتعاون في

الرد السلبي العنيف على نوح عليه السلام: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾، [الأعراف: ٦٠].

المناسبة والاتصال بين هذه الآية وما سبقها:

في المشهد السابق رأينا نوحاً عليه السلام وهو يقوم بوظيفة البلاغ على أحسن الوجوه، فدعاهم إلى الأركان الثلاثة التي لخصتها الآية السابقة تلخيصاً عظيماً، وكان المتوقع منهم أمام صدق كلامه، وحرارة عاطفته أن يصدّقوه ويبادروا إلى الإيمان به، وأمّا غير المتوقع منهم فهو هذا الرد السلبي العنيف، وهنا كأنّ المستمع تلهف لمعرفة الموقف الذي اختاره قومه بعد ذلك، فسأل: ماذا كان جوابهم؟

ولندع التصوير القرآني ينقلنا إلى الاستماع إلى تلك الأجوبة لنشاهد ردود أفعالهم أمام تلك الدعوة الصادقة، ونرى الموقف الذي اتخذوه إزاء ذلك، فقال الله تعالى حاكياً عنهم: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ

إِنَّا لَنَرْنِكَ فِي صَلَاحٍ مُبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠].

هنا تشهد قوى الملأ المستكبرة من قومه وهم يبادرون بالرد العنيف حال كونهم متعاونين فيما

بينهم على ذلك، ويدل على هذا التعاون أن الله تعالى جمعهم في الرد، ولم يقل: قال واحد منهم.

وتعاونهم في الرد عليه يفيدهم في شيئين:

الأول: في تشتيت انتباه من حوله عن عظمة رسالته التي تنقذهم مما هم فيه.

الثاني: في تزييف الحقائق في وعي الجماهير الذين مالوا إلى تصديق رسولهم نوح عليه السلام.

وتدبر قوله عليه السلام في الآية: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾، فلم يقل: (وقال)، فعدم وجود حرف العطف يصور لنا السرعة المبالغتة في ردهم على نبيهم عليه السلام، إنها تخبرنا أنهم ردوا بمجرد الانفعال دون روية أو تفكير أو بحث في صحة ما قال، أو تقدير لقوله، أو اختبار له: هل هو صحيح حكيم منطقي أم لا...؟!

إن هذه النقلة القرآنية إلى ردة فعلهم تشعرك بغفلتهم غفلة مصحوبة بالاستكبار.

فلم ينظروا في قوله، بل بادروا إلى الرد دون تنقيب أو بحث أو مناقشة.

ومَنْ هم هؤلاء الذين بادروا بالرد؟ إنهم الملأ من قومه.

وسيقال: ما الدليل على أنهم تعاونوا في الرد على نوح عليه السلام؟

الجواب: يوجد دليان يصوران ذلك:

فأولهما أن الله عليه السلام جمع كلامهم، فقال: ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾، ونتصور ذلك بأن يتكلم أحدهم ويؤيده

الآخرون، ويشيدون بكلامه، أو أنهم يتكلمون في وقت واحد نظراً لتوافق رأيهم وطباعهم.

والدليل الآخر على تعاونهم، فهو وصفهم بأنهم ﴿الْمَلَأُ﴾.

وهنا يثور سؤال وهو: لماذا سَمَّى الله عليه السلام هذه القوى الجريئة: ﴿الْمَلَأُ﴾؟ نراهم يتجرؤون على

أنبياء الله عليه السلام!، فلماذا وصفوا بهذا الوصف؟

الجواب: كلمة: ﴿الْمَلَأُ﴾^(١) تصور لنا نقاط القوة التي اتسمت بها هذه القوى النافذة: إذ تدل على

معانٍ عدة، منها معنيان كبيران يصفان هذه القوى:

الأول: الملأ هم: أشرف القوم، وسراتهم ووجوههم، ورؤسائهم، ومقدموهم الذين يرجع إلى

قؤولهم، (وهم العلية) الذين يملؤون صدور المجالس، وتمتلئ القلوب من هيبتهم، والأبصار من رؤيتهم، وتتوجه العيون في المحافل إليهم^(٢).

(١) الملأ: سُمُوا بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ مِلَاءٌ بِمَا يُحْتَاج إِلَيْهِ". أساس البلاغة (٢/٢٢٣-٢٢٤).

(٢) تفسير الرازي (١٤/٢٩٦).

وَفِي الْحَدِيثِ: «هَلْ تَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟»^(١) يُرِيدُ الْمَلَانِكَةُ الْمُقَرَّبِينَ ﷺ، وَهُوَ مَا دَلَّ عَلَى الْمُسَاوَةِ وَالْكَمَالِ فِي الشَّيْءِ، فَالْمَلَأُ: الْأَسْمُ لِلْمَقْدَارِ الَّذِي يُمَلَأُ، وَسُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ مُسَاوٍ لِيُوعَاثِهِ فِي قَدْرِهِ^(٢)، وَمِنْ ذَلِكَ: امْتِلَاءُ الْعَيُونِ عِنْدَ رُؤْيَا الْمُؤَثِّرِينَ، أَيْ: انْجِدَابُهَا لِمُشَاهَدَتِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ يَكُونُونَ أَغْنِيَاءَ أَوْ أَقْوِيَاءَ أَوْ فَصَحَاءَ أَوْ بُلَغَاءَ، أَوْ يَتَسَمُّونَ بِأَيِّ صِفَةٍ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي تَجْذِبُ الْآخِرِينَ، وَيَدْعُونَ ذَلِكَ تَضْلِيلًا "الْكَارِيزْمَا" فِي الْإِعْلَامِ الْيَوْمِ.

وَامْتِلَاءُ الْعَيْنِ يَكُونُ عِنْدَ رُؤْيَا قِيَادَاتِ الْمَجْتَمَعَاتِ، وَسَبَبُ سَيْطَرَتِهِمْ عَلَى الْآخِرِينَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ: التَّرْوُسُ الْمُبَاشِرُ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الْمَالُ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الْجَمَالُ، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ الْفَصَاحَةُ وَزَخْرَفَةُ الْأَقْوَالِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ كَثْرَةُ الْأَتْبَاعِ مِنَ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ قُوَّةُ مَعِينَةٍ اتَّسَمَوْا بِهَا فِي جَانِبٍ مُحَدَّدٍ.

وَيَرَى الطَّبْرِي ﷺ أَنَّ مَقْتَضَى اللُّغَةِ أَنْ يَكُونَ "الْمَلَأُ" هُمُ "الْجَمَاعَةُ مِنَ الرِّجَالِ، لَا امْرَأَةً فِيهِمْ"^(٣). وَكَذَلِكَ قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ ﷺ: "الْمَلَأُ الْأَشْرَافُ وَالسَّادَةُ. وَقِيلَ: الرِّجَالُ لَيْسَ مَعَهُمْ نِسَاءٌ"^(٤). وَالَّذِي يَظْهَرُ لِي أَنَّ الْمَرْأَةَ لَا تُسْتَثْنَى مِنْهُمْ، بَلْ تَدْخُلُ فِيهِمْ، كَمَا تَرَى فِي الْمَلَأِ حَوْلَ مَلِكَةٍ سَبَأُ فِي سُورَةِ النَّمْلِ، وَلَكِنْ يَغْلِبُ الرِّجَالُ فِي هَذَا الْوَصْفِ، فَهُمْ وَجُوهُ الْقَوْمِ وَرُؤَسَاؤُهُمْ وَأَشْرَافُهُمْ"^(٥). **الْآخَرُ:** الْجَمَاعَةُ الَّذِينَ يَكُونُ أَمْرُهُمْ وَاجِدًا، فَيَتَحَدَّثُونَ فِي تَوَجُّهَاتِهِمْ وَأَرَائِهِمْ، وَاشْتَقَّ هَذَا الْمَعْنَى مِنْ مَلَأَهُ عَلَى الْأَمْرِ كَمَنْعَهُ أَيْ: سَاعَدَهُ وَشَايَعَهُ وَأَعَانَهُ وَقَوَّاهُ، كَمَا لَأَهُ عَلَيْهِ مُمْلَأَةً، وَتَمَالَّوْا عَلَيْهِ أَيْ: اجْتَمَعُوا"^(٦).

(١) الترمذي (٣٢٣٣)، وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه، وصححه الألباني لغيره. صحيح الترغيب والترهيب (٤٠٨).

(٢) مقاييس اللغة (٥/٣٤٦).

(٣) تفسير الطبري (١٢/٤٩٩).

(٤) الكشف (٢/١١٣).

(٥) وصحح هذا المعنى العسكري في الفروق (ص: ٢٨٠)، إذ قال أن المَلَأَ: "الأشرف الذين يملؤون العيون جمالاً والقلوب هيبة، وَقَالَ بَعْضُهُمْ:

الْمَلَأُ الْجَمَاعَةُ مِنَ الرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ، وَالْأَوَّلُ الصَّحِيحُ".

(٦) لسان العرب (١/١٥٩).

ومنه قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما قتل نفرًا خمسة أو سبعة برجل واحد قتلوه قَتْلُ غَيْلَةٍ^(١):
"لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلهم جميعًا"^(٢)، أي: تظاهروا وتعاونوا واجتمعوا^(٣).

فالمَلَأُ يُمَالِئُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فيتعاونون، ويتوافقون، ولذا قال الراغب رضي الله عنه: "المَلَأُ: جماعة يجتمعون على رأي، فيملؤون العيون رواءً ومنظرًا، والنفوس بهاءً وجلالًا"^(٤)، وبذلك يستطيعون قيادة الناس، ويتمكنون من توجيه الجماهير، والسيطرة على المواقف المختلفة.
وكيف يتفقدون في آرائهم؟

إما أن يكون ذلك بالتشاور فيما بينهم، ولذا قال مرتضى الزبيدي رحمته الله: "وأصل المَلَأُ: التَّشَاوُرُ، يُقَالُ: مَا كَانَ هَذَا الْأَمْرُ عَنْ مَلَأٍ مِّنَّا أَيَّ: تَشَاوُرٍ واجتماعٍ".
وإما عن تأييد ومظاهرة مباشرة عندما يسمعون ما يوافق أهواءهم، فالمَلَأُ هم "الْقَوْمُ ذَوُو الشَّارَةِ، وَالتَّجَمُّعُ لِلْإِدَارَةِ"^(٥).

وقال الزمخشري رحمته الله: "وما كان هذا الأمر عن مَلَأٍ مِّنَّا أَيَّ: ممالأة ومشاورة"^(٦).
ولهذه القوة القيادية للمَلَأِ أثرٌ بعيد وعميقٌ في المجتمع حسب اتجاههم سواءً أكانت خيرًا أم شرًّا، وأنت ترى في هؤلاء المَلَأِ عندما أجابوا نوحًا عليه السلام بادرُوا لإجابته، فهل تشاوروا وتواصوا؟، أم انبعث أحدهم أو بعضهم للرد عجلًا فبادر الآخرون يؤيدونه ويعضدونه ويظهرون رأيه؟
كل ذلك محتمل، بل تجد الأحداث تنبئك أن كل ذلك كان حاصلاً.

(١) قال أبو عبيد: «قوله: (غَيْلَةٌ) هُوَ أَنْ يَغْتَالَ الْإِنْسَانُ فَيُخْدَعُ بِالسَّيِّئِ حَتَّى يَصِيرَ إِلَى مَوْضِعٍ يَسْتَخْفِي لَهُ». غريب الحديث، لأبي عبيد (٣/٣٠١).

(٢) الأثر رواه سعيد بن المسيب. يُنظر: السنن الكبرى للبيهقي: (١٥٩٧٣). قال الألباني: "ورجاله رجال الشيخين، لكن سعيد بن المسيب في سماعه من عمر خلاف، لكن له طريق أخرى، فقال البخاري في "صحيحه" (٣٢١/٤): وقال لي ابن بشار: حدثنا يحيى عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر: "أن غلاما قتل غيلة، فقال عمر: لو اشترك فيها أهل صنعاء لقتلهم". قال الحافظ في "الفتح" (٢٠٠/١٢): "وهذا الأثر موصول إلى عمر بأصح إسناد". إرواء الغليل (٧/٢٦٠).

(٣) الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي (ص: ٢٣٧).

(٤) مفردات القرآن للراغب (ص: ٧٧٦).

(٥) ينظر: تاج العروس (١/٤٣٥، ٤٣٦).

(٦) أساس البلاغة (٢/٢٢٤).

وملاً نوحٍ عليه السلام منحهم الله تعالى قوى مادية ومعنوية يعتمدون عليها في تكوين نفوذهم، لكنهم لم يستعملوها في إرشاد بقية الناس، بل استخدموها في الإغواء والانحراف استكباراً عن سماع القسط من رجل آخر جاءهم رسولاً من ربهم عزّ ثناؤه.

لكن: لماذا حُصَّ المَلَأُ بأنهم: ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾؟

الجواب: لأن الخطاب كان لهم، ولأن ردهم عليه هذا الرد القبيح يكون أشد وجعاً، وأكثر تأثيراً في صد الناس عنه، فالذين ردوا عليه هم قومه الذين يعرفون صدقه عليه السلام كما حدث مع نبينا عليه السلام، وفي ذلك مواساة عظيمة لنبينا عليه السلام، ولكل مصلح في الأرض عندما يتلى بأمثال هؤلاء، فقد كان أعدى أعداء النبي عليه السلام المَلَأُ من قريش، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: بَيْنَا النَّبِيُّ عليه السلام سَاجِدٌ وَحَوْلَهُ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ جَاءَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ بِسَلَى جَزُورٍ -وهو الغشاء الذي يكون فيه جنين الهيمه- فَقَذَفَهُ عَلَى ظَهْرِ النَّبِيِّ عليه السلام، فَلَمْ يَرْفَعْ رَأْسَهُ، فَجَاءَتْ فَاطِمَةُ عليها السلام فَأَخَذَتْهُ مِنْ ظَهْرِهِ، وَدَعَتْ عَلَى مَنْ صَنَعَ، فَقَالَ النَّبِيُّ عليه السلام: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ أَبَا جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ وَعُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَشَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلْفٍ أَوْ أُبَيُّ بْنُ خَلْفٍ»، فَارْتَابَهُمْ قَتَلُوا يَوْمَ بَدْرٍ، فَأَلْقَوْا فِي بئرٍ غَيْرِ أُمَيَّةَ، أَوْ أُبَيٍّ تَقَطَّعَتْ أَوْصَالُهُ فَلَمْ يُلْقَ فِي الْبئرِ ^(١).

ونتساءل: لماذا لم يصفهم ربنا تعالى بالكفر إذ قال: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾، بينما وصف مَلَأُ قَوْم هود عليه السلام بالكفر في القصة التي بعد هذه القصة، فقال عليه السلام: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: ٦٦]؟

الجواب: إن وصف الله تعالى قوم نوح عليه السلام بقوله عليه السلام: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ دون وصفهم بالكفر دليل على أن الذين ردوا على نوح عليه السلام هم جميع المَلَأُ، أما في قصة هود عليه السلام فإن الله تعالى وصفهم بالكفر، وهذه صفة تأسيسية لها مفهوم مخالفة، فهي تبصرنا بأنه كان مِنَ الْمَلَأِ مَنْ هُوَ كَافِرٌ وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ مُؤْمِنٌ، والذين تهجموا على نبيهم هود عليه السلام ليسوا إلا المَلَأُ الكافرين، أما المَلَأُ المسلمون فقد تابعوه.

(١) البخاري (٣٠١٤).

فالتقييد في قصة هود عليه السلام يدخل في باب "الاحتباس"^(١)؛ ليعلم منه أن من المملأ من كانوا مؤمنين، أما مملأ قوم نوح عليه السلام فبين الله سبحانه لنا في هذا الموضع أنهم كانوا كفاراً جميعاً، فما احتيج إلى تقييدهم بالكفر، وهذا يبصرنا أيضاً بأن الرد المذكور في هذه السورة كان من أوائل ردود قومه عليه عليه السلام.

وهذا ما قرره الرازي رحمه الله في قوله: "وَالْفَرْقُ أَنَّهُ كَانَ فِي أَشْرَافِ قَوْمِ هُودٍ مَنْ آمَنَ بِهِ، مِنْهُمْ مَرْثَدُ بْنُ سَعْدٍ أَسْلَمَ، وَكَانَ يَكْتُمُ إِيْمَانَهُ؛ فَأَرِيدَتِ التَّفْرِقَةُ بِالْوَصْفِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي أَشْرَافِ قَوْمِ نُوحٍ مُؤْمِنٌ"^(٢).

وهذا التفريق عندي أولى مما ذكره البقاعي رحمه الله؛ إذ قال عن عدم وصف مملأ قوم نوح عليه السلام بالكفر هنا: "لِأَنَّ ذَلِكَ أَدْخَلَ فِي التَّسْلِيَةِ؛ لِأَنَّهَا أَوَّلُ سُورَةٍ قَصَّ فِيهَا مَثَلٌ هَذَا فِي تَرْيِيبِ الْكِتَابِ..."^(٣)؛ فما قاله لا يجيب عن المقارنة مع قوم هود عليه السلام، ومن بعدهم الذين وصفهم بالكفر أو بالاستكبار.

ولكننا قد نسأل: هل بعد ذلك أسلم من المملأ أحد؟

والجواب: يظهر أنه أسلم بعضهم، والدليل على ذلك ما سيأتي في سورة هود عليه السلام من وصف المملأ الذين ردوا على نوح عليه السلام بالكفر، فبصرنا ذلك أن الرد الذي في سورتي الأعراف وهود عليه السلام ليس على سبيل التكرار، وإنما يبين لنا موقفين:

الأول: موقفاً كان المملأ كلهم فيه يردون على نوح عليه السلام، وبصرتنا بذلك سورة الأعراف.

والثاني: موقفاً أسلم فيه بعض المملأ، وبصرتنا به سورة هود عليه السلام.

فكلما هم كافٍ في الدلالة على كفرهم، ومما يؤيد هذا التقرير لنا أن المملأ من قوم نوح عليه السلام كانوا يعيشون تقنياً فظلياً للطبقية والعبودية، حتى جعلوا من علامات عدم صحة نبوة نوح عليه السلام أنهم رأوا أن أتباعه من المستضعفين الموصوفين عندهم بالأراذل، فقالوا -وبئس القول قولهم-: ﴿قَالُوا أُنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، وقالوا: ﴿وَمَا تَرْكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧]، وهذا القدر المقر من الاستكبار والعنصرية جعل أهم أهداف نوح عليه السلام أن يزيل هذه الطبقة المجرمة في التعامل مع الناس.

(١) الاحتباس: "أن يؤتى في كلام يومهم خلاف المقصود بما يدفع ذلك الوهم. يُنظر: الإيضاح في علوم البلاغة (٢٠٨/٣).

(٢) تفسير الرازي (٣٠٠ / ١٤).

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٤٢٨ / ٧).

لكن ربما تتساءل: لماذا وصف ملا قوم نوح عليه السلام بالكفر في سورة هود عليه السلام فقال عليه السلام: ﴿فَقَالَ أَلَمَلَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَكُوا إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧]، ولم يصفهم بذلك هنا؟

الجواب: يظهر لي أن كل سورة تكمل الأخرى في إيراد الصورة الكاملة للقصة الحقيقية التي وقعت، فذكرت لنا سورة الأعراف الملاء قبل أن يُسلم أحد منهم حيث قالوا لنوح عليه السلام: ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠]، وذكرت سورة هود عليه السلام الواقع بعد أن أسلم قلة من الملاء بعد أن سمعوا كلام نوح عليه السلام، وحين انبعث الكفار من الملاء متباهين، فقالوا: ﴿مَا تَرَكُوا إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَكُوا إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادْيِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

والسؤال هنا: لماذا قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمَلَا مِنْ قَوْمِهِ﴾، فذكر الله تعالى ردة فعل (الملاء) فقط، ولم يخبرنا تعالى عن موقف غيرهم؟

الجواب: عندما أخبرنا الله تعالى بردة فعل الملاء أفهمنا المواقف الأخرى بصورة غير مباشرة أي: بالمفهوم لا بالمنطوق.. كيف ذلك؟

ذلك أن الله تعالى نقل لنا قصة الحياة البشرية المتكررة عندما تأتي القيادات المصلحة، وفي مقدمتهم الأنبياء عليهم السلام لإصلاح الأرض.

وبذلك رأينا أن البشرية تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: قوى الملاء المتنفذة، وهم الذين يقومون فوراً برفض كل اتجاه يدعو إلى إعادة إصلاح الأرض بالسير على المنهج الذي جاء من عند الله تعالى.

القسم الثاني: قلة من الناس أثرت فيهم حكمة الأنبياء وجمال دعوتهم، ورأوا البينات فيها، فتابعوهم ولم يبالوا بمخالفة قوى الملاء المتنفذة.

القسم الثالث: الكثرة المحتارة بين دعوة الأنبياء عليهم السلام، وبين الخوف من الملاء، وهم المتفرجون، وهؤلاء يكفي أن يُظهر الملاء قوتهم وإرهابهم وطغيانهم ليُظهروا موافقتهم لهم دون مبالاة بصدق الأنبياء عليهم السلام.

ويذكرك موقفهم هذا بفرعون وملئه عندما جُمع السحرة لمِيقَاتِ يَوْمِ مَعْلُومٍ.. فما الذي حدث؟

طلبوا من الناس الاجتماع لا ليتابعوا الحق وإنما لهم خيارٌ واحد فحسب:

متابعة فرعون مطلقاً، وليست متابعة الغالب في المباراة مع السحرة، ولذا كان الإعلان المجرم:

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشعراء: ٣٩-٤٠].

ثم قال المملأ من قوم نوحٍ لنوحٍ عليه السلام: ﴿إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾ [الأعراف: ٦٠]، فماذا تعني هذه التهمة الكبيرة التي وجوها؟ ولماذا اختاروها دون غيرها من التهم؟

ويأتي الجواب في المشهد الآتي:

المشهد السابع: وجه المملأ للقيادات الخيرية أول التهم المعتادة وهي: الاتهام بالوقوع في الضلال:

والضلال يعني أنك تائهٌ في عقلك، وهالكٌ في معيشتك، وعندما وجوها ذلك لنوحٍ عليه السلام أرادوا أن يشيعوا هذه التهمة حتى يمنعوا الناس من الاستماع له، ويبصروا بذلك قول المملأ-فيما حكاه الله ﷻ عنهم: ﴿إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾ [الأعراف: ٦٠].

فمقابل تأكيد نوحٍ عليه السلام على حرصه على هداية قومه، وشفقته عليهم يأتي تأكيد قوى المملأ المفسدة على اتهامه بالضلال المبين، ونلاحظ أنهم عبروا عن هجومهم عليه بتعبيرات تعكس قَدْرَ الحقد عليه وعلى دعوته، والتواطؤ على صد الناس عن الاستماع له، والتفكير في حديثه، فماذا قالوا؟

الجواب: ما قالوه يتضمن الكلمات الآتية:

الكلمة الأولى: ﴿إِنَّا﴾ حرف تأكيد (إِنَّ) يتلوهُ ضمير (نا) أصلها: (إننا)، فأدغمت النون في النون، فأصبحت ﴿إِنَّا﴾، فأكدوا على رأي يصدر منهم.. مِنْ مَنْ؟

من قوى المملأ، وهذا يعني: أنهم يقولون ضمناً لعامة الناس: يكفي رأينا فيه، وهذا تأكيد تضليلي منهم يظهرون فيه حرصهم... ولكن على ماذا؟

على تصحيح الأخطاء المزعومة عند نوحٍ عليه السلام، وحماية البشرية من شرها، ولم يكتفوا بذلك، فقد طوى هذا الضمير (نا) مواقف متعددة، فهو ضمير جمع.

فهل تكلموا في الوقت نفسه؟

يعطيك القرآن المجال لتصور المسألة:

فضمير الجمع إما أن يصور لنا هؤلاء القوم وهم يتكلمون في موقف واحد بصورة مشتركة، فانفتحت ألفاظهم لشدة رغبتهم في الرد على نوح عليه السلام حتى يكاد بعضهم أن ينازع الآخر في الرد على نوح عليه السلام مع اشتراكهم في الأفكار الهجومية.

كما يحتمل موقفهم التوافق دون اتفاق، أي: عدم التواطؤ في الرد، أي: ردّ هذا وذاك والثالث وغيرهم في وقتٍ واحد دون تأمرٍ بينهم.

ويحتمل أنهم لم يردّوا من فورهم، بل تأمر بعضهم مع بعض ثم اتفقوا على هذا الرد؛ إذ كل ذلك يحتمله الضمير.

وتشاهد في هذه الكلمة: ﴿إِنَّا﴾ صورة الإدارة في المواقف بينهم كأن أحدهم يتكلم والآخرين يصدقونه، فانظر كيف اختزل الضمير كل تلك المشاهد.

الكلمة الثانية: ﴿لَتَرَنَّكَ﴾ وهي مكونة من (نرى) التي تدل على رؤية جسم مادي محسوس في الأصل، ومن المفعول (الكاف) أي: نراك أنت، ونقصدك بالحديث دون غيرك، فهي تدل على تحديد المخاطب وهو نوح عليه السلام لا على الحصر.

إذا فهذه الكلمة تصور لنا أنهم لم يكتفوا بالتأكيد على حرصهم بمؤكّد واحد شاهدناه في الحرف (إِنَّ)، بل نجدهم يتعدون ذلك إلى تشديد التأكيد على هذا الحرص بحرف اللام في قولهم: ﴿لَتَرَنَّكَ﴾، وهذه اللام تسمى لام الابتداء أو لام التوكيد أو اللام المُرْخَلَّة، حيث تختص (إِنَّ) المكسورة بدخول هذه اللام على اسمها، ثم تزحلق لتدخل على الخبر، فتفيد التوكيد، وبين لنا هذا التعبير الموجز أنهم يشعرون بأن هذا الضلال يسيطر على نوح عليه السلام.

ولكن من أين استفدنا ذلك؟

الجواب: استفدناه من الجملة الفعلية، التي فعلها مضارع في قول الله تعالى حكاية عن هؤلاء المستكبرين: ﴿لَتَرَنَّكَ﴾، فأتوا بفعل اليقين، وهو (نرى) ليبينوا أنه لا يداخلهم شك في التأكد من ضلال نوح عليه السلام.

فهم لم يقولوا: رأينا فيك كذا، وإنما عبروا عن ذلك بالرؤية.

والرؤية في قوله ﷺ: ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ﴾: يحتمل من رُؤية البصر، ويحتمل من رؤية القلب، وهو أظهر^(١)، وذكر الزمخشري رحمه الله أنها رؤية القلب^(٢)، وأكد على ذلك الرازي رحمه الله فقال: "هذه الرؤية لا بد وأن تكون بمعنى الاعتقاد والظن دون المشاهدة والرؤية"^(٣).

الكلمة الثالثة: ﴿فِي﴾: هذه الكلمة تُصور أنهم زَيَّفوا قرارهم الكاذب، فلم يقولوا: إنا لنراك ضالاً، ولم يقولوا: إنا لنراك على ضلال، بل قالوا: ﴿فِي ضَلَالٍ﴾، فالحرف ﴿فِي﴾ يدل على أنهم زادوا في الكذب، فقرروا أنه ليس مجرد ضال، وإنما تحيط به الضلالة إحاطة الظرف بالمظروف، فالضلال يحيط بك يا نوح من الجهات جميعها: من الأمام والخلف ومن فوق ومن تحت وعن اليمين والشمال، فلا تستطيع أن تخرج منه، ومهما حدثت من شيء فلا ينبغي أن يُسمع لك. فاستعمال الضلال مجاز مرسل^(٤)، وفائدته المبالغة في وصف نوح ﷺ بالضلال وإيغاله فيه، حتى كأنه مستقر في ظلماته لا يتزحزح عنها، وزادوا في المبالغة فأكدوا ذلك بأن صَدَّرُوا الجملة بـ"إِنَّ"، وفي خبرها اللام^(٥). لماذا؟ كل ذلك ليصدوا الناس عن الاستجابة له ومتابعته.

فانظر كيف حوى هذا التعبير مقدار حرصهم على أن يبعدوا الناس عن نوح ﷺ. عندما زعموا أن الضلال مستولٍ عليه من كل جانب، ويحيط به من كل جهة، فلا يملك الخروج منه ليرى الهدى والحق حسب اعتقادهم، فانظر إلى حالتهم تلك: ﴿لَقَدْ ابْتَغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلِ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ [التوبة: ٤٨]، وهو أمرٌ يتكرر مع الأنبياء ﷺ وسائر القيادات الداعية إلى الحق والقسط في الأرض.

الكلمة الرابعة: ﴿ضَلَّيْ﴾:

ولكن ماذا يعنون بكلمة ﴿ضَلَّيْ﴾؟

(١) تفسير الثعالبي المسي الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٤٢/٣).

(٢) تفسير الزمخشري (١١٣/٢).

(٣) تفسير الرازي (١٢٢/١٤).

(٤) المجاز المرسل: هو مجاز لغوي علاقته غير المشابهة؛ وسعي مرسلًا: لأن الإرسال هو الإطلاق، فهو مطلق في علاقاته، ليس له علاقة معينة كما هو الشأن في الاستعارة. البلاغة فنونها وأفنانها: علم البيان والبديع (ص: ١٥٣).

(٥) ينظر: إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين بن أحمد مصطفى درويش: (٣٧٦/٣).

الجواب: الضلال^(١): كلمة تدل على تيه الفكر بأن يضطرب رأيه في معرفة الصواب، ويحتار عقله في تحديد المكان الصحيح، كما تدل على ضياع الروح وهلاك الجسد بعد ذلك، فيقال: فلان ضل في الصحراء أي: أنه تاه فلم يعرف وجهته، ولم يستطع أن يصل إلى هدفه، وضل يدور في دوائر مغلقة وهو لا يشعر نتيجة لعدم استهدائه بمعالم الهداية والرشاد، والنتيجة سيموت عطشاً، أو تأكله دواب الصحراء، أو يقع في مهلكة يخسر فيها دنياه وآخره، فهم يقصدون أن الضال يعيش في تيه يؤدي به إلى هلاك، وإذا لم يجد معالم الاهتداء فلا يستطيع أن يقرر قراراً فيه حق أو صواب.

الكلمة الخامسة: ﴿مُبِينٍ﴾ اسم فاعل من "أَبَانَ" بمعنى: اتضح.

وهذه الكلمة تؤدي دوراً خطيراً جداً في المحاورة، فما هذا الدور؟

الجواب: ﴿مُبِينٍ﴾: صفة لـ ﴿ضَلَّالٍ﴾، والمعنى: في ذهاب عن طريق الصواب وتلف وجهالة بما تسلك بينة واضحة^(٢).

واستخدموا كلمة: ﴿مُبِينٍ﴾ لزيادة إرهابه وإرهاب السامعين من أن كلام الملائ لا يحتاج إلى نقاش، فلو قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي ضَلَالٍ﴾ واكتفوا لربما سأل نوح عليه السلام، ولربما سأل غيره من الحاضرين: ما الدليل على أنه في ضلال؟

فبادروا قبل أن يسأل أحد هذا السؤال، فقالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠]، كأنهم يقولون: ﴿إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي ضَلَالٍ﴾، ولا تتجراً أنت ولا يتجراً أحد أن يسألنا: ما الدليل على ذلك؛ لأن ضلالك مبين واضح بنفسه لا يحتاج إلى إثبات.

فأوهموا الجماهير أن ضلاله المزعوم مسألة واضحة لا تحتاج إلى نقاش، كأنهم يقولون: لا داعي لأن نفكر في كلام نوح عليه السلام، ولا داعي لأن تفكروا أنتم فيه كذلك، فضلاً عن مبين أي: بدهي لشدة وضوحه، وهكذا يمنعون العوام والأتباع وحتى من عنده استقلالية من أن يفكر في كلام نوح عليه السلام ليزنه بمعيار العقل الصحيح.

(١) ينظر: تاج العروس (٢٩/٣٤٣-٣٥٦).

(٢) البحر المحيط في التفسير (٨٢/٥).

انظر إلى هذا الخبث والدناءة في كلامهم، وكيف يمنعون غيرهم من أن يفكروا، أو يتساءلوا: هل حقًا هو في ضلال أم لا؟

ولكن: لماذا اتهموه باستيلاء الضلال عليه، وإحاطته به من كل جانب؟

الجواب: لأنه دعاهم إلى أربع قضايا ظهرت لنا من قوله **الْعَلِيَّةُ**: ﴿يَقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ٥٩﴾ [الأعراف: ٥٩]، وهي:

الأولى: التَّكْلِيفُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ ﷻ، ﴿اعْبُدُوا﴾، ولا تكون العبادة إلا بالإيمان بالمعبود.

الثانية: التَّوْحِيدُ فِي الْعِبَادَةِ: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.

الثالثة: النُّبُوَّةُ؛ لأنه هو المبلغ عن الله ﷻ، ولا يكون مبلغًا أولًا عن الله ﷻ إلا إذا كان نبيًا، أما المبلغ الثاني ومن بعده فهم تابعون للنبي المرسل.

الرابعة: المَعَادُ الذي يكون فيه الجزاء: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ٥٩﴾^(١).

بصيرة: انظروكم حوت هذه الكلمات المعجزات من مشاهد متعددة، وصور متتابعة،

وتحليل للنفسيات المختلفة، حقًا إنه كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ

فَصَلَّتْهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٥٢﴾ [الأعراف: ٥٢].

وقد تسأل: ما تفاصيل الضلال المبين الذي قصده قومه **الْعَلِيَّةُ؟**

الجواب: بيّن الله ﷻ تفاصيل الضلال المبين في رأي قوى الملأ المستكبرة من قوم نوح **الْعَلِيَّةُ**، وذلك في سورة هود **الْعَلِيَّةُ**، إذ أخبر أنهم قالوا له: ﴿مَا نَزَّلَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَزَّلَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ٦٧﴾ [هود: ٦٧].

فإن قلت: ما الحكمة من ذكر تفاصيل ما زعموه من ضلال نوح **الْعَلِيَّةُ في سورة هود **الْعَلِيَّةُ** دون ذكرها في هذه السورة؟**

(١) يُنظر: تفسير الرازي، (١٤/١٢٢).

الجواب: إن تدبر ما ورد من الآيات البيّنات في قصة نوح عليه السلام في سورتي الأعراف وهود عليهما السلام ينبئك بعظمة البيان القرآني، ويفتح لك آفاقاً واسعة للوصول إلى معرفة جواب هذا السؤال، ومن ذلك: **أولاً:** بدأت قوى الملام بتشويه دعوة نوح عليه السلام إجمالاً؛ ليكون تمهيداً وتوطئة للتشويه المفصل بعد ذلك لكي يسهل إقناع الناس بكل افتراءاتهم على نوح عليه السلام، فلا يستجيب له أحد منهم، وهذا هو مقتضى المكر والكيد من قوى الملام المستكبرة.

وعادةً عندما يريد أحد أن يغلب خصمه أو يقوّمه، فالمنطق السليم يقتضي أن تقول لمن تظن أنه أخطأ: أنت مخطئ إجمالاً تهيئة للإقرار بها والتخلص منها، وقد يبدأ هو في التساؤل في نفسه: أخطأت؟ لماذا؟ وكيف؟ وفيم أخطأت؟ ثم قد تُفصّل له أنت تلك الأخطاء إن صح أن هناك أخطاء، فتقول له: أخطأت في كذا وأخطأت في كذا... وهكذا.

وقد جاءت السورتان حسب ترتيبهما في المصحف على هذا المنوال، فجاء في سورة الأعراف الإجمال وجاء التفصيل في سورة هود عليه السلام، وبقية السور الأخرى التي ذكرت هذه القصة؛ وذلك لبيان وشرح خطوات المكر والكيد الذي واجهت به قوى الملام المستكبرة نبيّ الله نوحاً عليه السلام في رميهم له بالضلال، ومحاولة إقناع الناس بذلك حتى لا يتقبلوا دعوته عليه السلام.

والغرض من هذا البيان الإجمالي والتفصيلي حتى يستفيد من ذلك الداعي والمدعو في مواجهة كيد ومكر ومؤامرات قوى الشر لهم؛ لأن تلك سنة جارية لا محيص عنها.

ثانياً: قد يتهم الجبان أو المخطئ غيره بالخطأ، ولا يتجرأ على بيان هذا الخطأ لعلمه أنه لا يعلم أنه ارتكب خطأً، فيقول لخصمه: أخطأت، فيسأله: ما وجه الخطأ؟ فيسكت، ويكتفي بالإجمال لعلمه أنه لا يوجد خطأ، وإنما يفترى عليه افتراءً.

ثالثاً: عندما يظهر للآخرين أنه لا يوجد خطأ ولا ضلال، يبدأ المفترى بنسج الأكاذيب التفصيلية من أجل ترسيخ هذا الضلال المزعوم في عقول الناس، وهذا ما لاحظناه من ترتيب السورتين، فهم لم يملكوا الشجاعة الكافية ليرزوا تفاصيل الضلال الذي نسبوه إليه؛ لأن العاقل عندما يسمع ما اعترضوا به عليه، ويفكر فيه سينكره، وسيقول: أين الضلال؟ لا يوجد ضلال، فهو دعا إلى عبادة الله تعالى، فأين الضلال هنا، كيف لا يُعبد رب العالمين وهو حذر من عذاب يوم عظيم؟، فكيف لا يحذر الإنسان العاقل من ذلك اليوم؟، فأين الضلال؟

لذا فقد اكتفوا بالتشنيع العام عليه في أول الأمر بين أوساط الناس حتى يروا أثر ذلك، فلما اطمأنوا أن نفوس الجمهور قد تشربت الدعاية الكاذبة التي أثاروها حوله صرّحوا بعد ذلك بتفاصيل هذا الضلال التي هي أيضاً عبارة عن اختلاق أكاذيب بحجج واهية، كما تبين السُّور الأخرى، لأنَّ ما أقيم على باطل فهو باطل.

وقد ذكر الله ﷻ عنهم في ذلك أَنَّهُمْ قالوا:

(١) ﴿مَا نَرٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾: أي فكيف تزعم أنك نبي مع أنك بشر؛ فأروا أن من الضلال أن يكون الرسول بشراً، فماذا يريدونه أن يكون، مع أن المنطق يفترض ذلك، فإن النبي لو كان ملكاً لقالوا ما هذا الذي يفعله هذا الملك؟ فنحن بشر لا نستطيع فعل ذلك. تصوّر كيف جعلوا عين الصواب خطأ؟! فهل يكون النبي إلا بشراً؟ فإذا لم يكن بشراً، فكيف يمكن أن يبلغهم الرسالة من ربه ﷻ؟!

(٢) ﴿وَمَا نَرٰكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ﴾: فأخبروا أن من الضلال أن يكون أتباعه ضعفاء الناس وفقراءهم ومن هم أقل مكانة اجتماعية بين الناس، وعبروا عن عنصريتهم وعنجهيتهم فدعّوهم بالأراذل، مع أن ذلك يشير إلى عدالة القضية التي يدعو إليها نوح ﷺ؛ لأنه يذكرهم بأن الجميع يرجعون إلى آدم ﷺ، بينما هم يرون أنفسهم جنساً مختلفاً عن بقية البشر. وهذه مزية أيضاً لدعوة نوح ﷺ: أن يتبعه الضعفاء، يعني: أنهم لا يخافون من الملأ، وأنهم ما اتبعوه إلا للحق الذي راوه.

(٣) ﴿وَمَا نَرٰكَ لَكُمُ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾: فأخبروا أن من الضلال الذي اهتموا به نوحاً ﷺ عدم وجود مال أو جاه أو قوة يفضل بها عليهم، وهل وجود المال أو القوة علامة أو دليل على الحق؟ الحق إنما هو في المبادئ التي دعا إليها ﷺ؟ وهل سلامة الفكر وصحة الدعوة تستلزم وجود مال زائد على الآخرين؟!

(٤) ﴿بَلْ نَحْنُكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧]: وهنا أخبروا عن ظن لا عن علم، فلم يردوا على شيء من القضايا التي ذكرها نوح ﷺ بشيء منطقي أو حكيم يقبله الإنسان.

بصيرة: إن سورتي الأعراف وهود عليهما السلام تتكاملان في صورة متسقة، وتظهران بصورة رائعة ومشاهد متتابعة معالم الرسالة الإلهية، كما أن تنوع المشاهد لردود قوى الملام المستكبرة بين السورتين يصور العبث المنظم الذي اتبعه هؤلاء الملام في رد الدعوة الإصلاحية التي جاء بها نوح عليه السلام.

واتهام نوح عليه السلام بالضلال يعبر عن حال القوى الفاجرة التي ترى القوى الصالحة دائماً في ضلال، كما قال عليه السلام: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ۝﴾ [المطففين: ۳۲]، وكما حكي الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَيَسْئَلُونَ هَذَا إِنْكُ فَدِيمٌ ۝﴾ [الأحقاف: ۱۱].

ثم قال الله تعالى حاكياً عنه عليه السلام: ﴿قَالَ يَقُومُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝ أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِمَّنِ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝﴾ [الأعراف: ۶۱-۶۳].
هذه الآيات ذكرت لنا ردّاً قوياً، بل مجموعة ردود قوية، قالها نوح عليه السلام في الجواب عن اتهامات الملام بأنه عليه السلام في ضلال مبين.

فكيف يمكننا فهم معاني الكلمات في هذه الردود؟

المشهد الثامن

جواب نوح ﷺ على اتهامهم الباطل له بأنه في ضلال بإظهار حقيقة الدعوة والداعية



المشهد الثامن: جواب نوح عليه السلام على اتهامهم الباطل له بأنه في ضلال بإظهار حقيقة الدعوة والداعية، ويصرنا بالإجابة النوحية الرائعة على افتراءات الملائكة قول الله تعالى: ﴿قَالَ يَقُومُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأعراف: ٦١-٦٣].

ظهر لنا في رد نوح عليه السلام على اتهام قومه له تسع حقائق تعليمية، تنير دروبنا في كيفية إدارة الحوار مع الآخرين، وتبين مفهوم الدعوة إلى الله تعالى، وأثر الإعلام الدعوي في دحض الشبهات والرد على المخالف، وهي على النحو الآتي:

الحقيقة الأولى: يجب أن نبادر إلى نفي التهمة، ولا نسكت عنها، فقد وجدنا نوحاً عليه السلام يرد على التُّهم الموجهة له من قومه؛ إذ قال الله تعالى حاكياً عنه ذلك الرد: ﴿قَالَ يَقُومُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾﴾ [الأعراف: ٦١].

فجواب نوح عليه السلام يصرنا ببُعْدِ دعويِّ عظيم، وهو أنه لا ينبغي للدعاة أن يسكتوا على اتهام غيرهم لهم، ولا يجوز لهم أن يكونوا في ركن قصيٍّ لا يهتمون بمحاورة غيرهم، فنوح عليه السلام لم يسكت على ذلك الهجوم من هؤلاء الملائكة المستكبرين، بل انتقل بنا المشهد إليه، وهو يرد عليهم ويحاورهم، ويبين لهم حقيقة أمره.

وهذا يعني القيام بكل الأساليب المشروعة الحكيمة الممكنة التي تعتني بأساليب الحوار والرد على المخالف، وتبين الحقائق ودحض الشبهات، مثل: إنشاء القنوات الإعلامية، والمؤسسات التعليمية، والمراكز التربوية والدعوية، التي تنير حياة الناس بالرد على الأكاذيب المنظمة التي يشوه بها الملائكة المستكبرون الدعوة إلى الله تعالى ورجالها الصادقين.

بصيرة: الحوار من أجمل أساليب الدعوة، فهو أسلوبٌ دعويٌّ تعليميٌّ تبليغيٌّ أقوى من مجرد الإلقاء، ويستجيب للحوار غالباً أصحاب القلوب المفتوحة غير المتعصبة.

ولكن لماذا بدأ نوحٌ عليه السلام رده على القوى المستكبرة بقوله: ﴿يَقُومُ﴾ مجدداً؟ ما دلالات هذا النداء؟

الجواب: هنا تأتي:

الحقيقة الثانية: التلطف والحكمة في الرد على المخالف، وترك الانفعال والغضب في غير

موضعه:

وتظهر هذه الحقيقة في الأسلوب الذي سلكه نوح عليه السلام في دعوته لقومه وطريقة حوارهم معهم، فقد نادى نوح عليه السلام قومه، والنداء يُشعر بالاهتمام، ولم يجعل خطابه محصوراً في قوى الملأ التي تولت الرد عليه، لم يقل: يا أيها الملأ، بل قال: يا قوم؛ ليدخل فيهم الملأ وغيرهم، وما ذاك إلا ليتمكن من إيصال الخير لعموم الناس.

والنداء بالقومية يدل على تلاففه معهم، فقال: ﴿يَقُومُ﴾ ولم يتبرأ منهم في هذا الموضع، ولم يجعل نفسه في زاوية مقابلة لهم، ولم يقل: أنا في جهة وأنتم في جهة، بل الحكمة تقتضي أن ينسب نفسه إليهم، وأن يبين أنه جزء منهم، وأنه يخاف أن يصيبهم شيء من السوء لا يرضاه الذي ينتسب إلى قومه، بل صبر على صلفهم وسوء جدلهم، واستعطفهم في بداية كلامه بقوله: ﴿يَقُومُ﴾؛ ببيان أنه منهم، فضمن قوميتهم النسبية عاطفة خاصة تجعل الذي يستمعه لا ينفر منه.

وبعض الناس يقعون في الأخطاء، ويرتبون عليها ظلماتٍ بعضها فوق بعض، فلا يفرق الإنسان بين الولاء للإيمان وأهله والبراء من الشرك وأهله، وبين التلطف في الدعوة وإظهار العاطفة المشفقة في دعوة غير المسلم، في حين نرى نوحاً عليه السلام ينسب نفسه إلى قومه، فيقول: ﴿يَقُومُ﴾، لم يقل: (يا كفرة)، بل أتى بهذا اللفظ الخاص المشعر بالعاطفة والانتماء إليهم، ولم يرد في القرآن الكريم الخطاب للكفار بالكفر إلا في موضعين اثنين، الموضع الأول: ﴿قُلْ يَتَّخِذُهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]، والخطاب هنا للمفاصلة التامة، وليس للدعوة، والموضع الثاني: لإظهار تميز المسلمين عن الكافرين

في الآخرة: ﴿يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾ [التحريم: ٧].

بعضہم یقول: لماذا نسئهم غیر مسلمین؟ ولماذا لا نسئهم کفاراً؟

الجواب: ینبغی أن ننظر إلى آیات القرآن الکریم التي عالجت هذا الموضوع، فلا ننظر إلى بعضها ونترك بعضها، فالأنبياء عند الدعوة یخاطبون أقوامهم بالطف العبارات في مواطن، وينسبون أنفسهم إليه، ولكنهم عند المفاصلة النهائية یخاطبونهم بالفاظ فيها حزم المفاصلة، والرسول صلی الله علیه وسلم لم یناد قومه في الصفا بصفة الشریک، فینبغی أن نخاطب الناس بما یلیق بالمقام، ومقام الدعوة مقام التلطف، فعندما تخاطب أحداً، فتقول له: یا أخی أو یا صاحبی، فما المشكلة في ذلك؟

وكان بعض الناس یؤجج هذا المسلك بالانتقاد، ویقولون: أهذا أخوک؟! وما المشكلة في أن یخاطب بذلك غیر المسلم عند النظر إلى النسبة إلى أبیهم آدم ﷺ، وقد قال الله ﷻ عن المسلم الذي خاطب الکافر: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ [الکہف: ۳۷].

وقد تسأل: في قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِي إِنَّا لَتَرَكْنَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأعراف: ۶۰] اتهمت قوى الملاء نوحاً ﷺ بالضلال، فكيف ظهرت قوة كلمات نوح ﷺ في وجه هذا الاتهام؟

الجواب: مع تلطف نوح ﷺ في خطابه لقومه إلا أنه ینبغی أن نلاحظ قوة دفاعه ﷺ وسرعة بديهته أمام هجوم الملاء المستکبرین، فهو قال: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾، ولم یرد عليهم بنفي ما قالوه... وما الذي قالوه؟ لقد قالوا: ﴿إِنَّا لَتَرَكْنَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأعراف: ۶۰]، فذكروا كلمة: ﴿ضَلَالٍ﴾ وقبلها الحرف: ﴿فِي﴾، بينما رد عليهم بقوله: ﴿يَقُومُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾، فلم یقل: لست في ضلال، ولكنه أتى بالباء، وكلمة ضلالة.

وقد تسأل: وما الفرق بين قولهم: ﴿إِنَّا لَتَرَكْنَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأعراف: ۶۰]، وقوله: ﴿يَقُومُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾؟ وأین تظهر قوة دفاعه هنا؟
الجواب: هنا تأتي:

الحقیقة الثالثة: الرد بما یفید المقصود، ویحقق الهدف بطريقة ذكية في الدفاع:

فهم جعلوا الضلال محیطاً به عندما قالوا: ﴿فِي ضَلَالٍ﴾، فأتوا بالحرف ﴿فِي﴾ لیدللوا على إحاطة الضلال به زماناً ومكاناً كأنه منغمس فيه، ونراه رد عليهم بذكاء مدهش، فلم یقل: أنا لست في ضلال،

وإنما أتى بحرف الباء: ﴿لَيْسَ بِ﴾؛ ليخبرهم أن الضلال ليس ملتصقاً به مجرد التصاق فكيف يمكن أن يحيط به كما ادعوا؟ فبالغ في النفي كما بالغوا في الإثبات.

فالباء بذلك تُناقِضُ مَعْنَى الطَّرْفِيَّةِ المحيطة في قَوْلِهِمْ: ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ [الأعراف: ۶۰].

ثم تأمل قوله: ﴿لَيْسَ بِ ضَلَالَةٍ﴾ فقد قال: ﴿ضَلَالَةٌ﴾، ولم يقل: (ضلال) كما قالوا، بل نفى وجود ضلالة واحدة، فكيف يتصور أن يكون في ضلال كامل؟! وهذا فرقٌ ثانٍ بين اللفظين.

ولكنِّي لا أميل إلى ما قاله ابن عاشور رحمته من أن الفرق هو التفنن المحض^(١)، بل أميل إلى ما قرّره الزمخشري، وتبعه فيه الفخر الرازي، وابن الأثير وصححه التفتازاني رحمته^(٢)، وهو أنه نفى الضلالة؛ التي تدل على واحدة الضلال؛ لأنه إذا نفى الواحدة من الضلال حسب السياق فقد نفى الضلال كله، ولم يقل ذلك تفنناً لمجرد التنوع، بل اختار لفظة محددة تخفي وراءها معنىً بديعاً، فنفى عن نفسه الضلالة؛ وذلك لأن الضلالة أخصُّ من الضلال، فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسه، كأنه قال: (ليس بي شيء من الضلال)، كما لو قيل لك: ألك تمر؟ فقلت: مالي تمر، فقلوه: ﴿لَيْسَ بِ ضَلَالَةٍ﴾: أبلغ في عُمُومِ السَّلْبِ^(٣).

وهناك فرق آخر يبين لك تفوق نوح عليه السلام في الحوار مع قومه والقدرة في الرد عليهم، فهم قَذَفُوهُ بِضَلَالٍ مُقَيَّدٍ بأنه (مبين)، فلم يرد عليهم على المستوى ذاته، فلم يقل: (ليس بي ضلال مبين).. لم يذكر هذا القيد، بل نفى الضلال المطلق الذي هو الأعمُّ لينتفي الأخص والأقل^(٤).

بصيرة: وفق الله عجل نوحاً عليه السلام في حوارهِ، فسلك الأسلوب الهادئ الأمثل؛ فقد قال

عليه السلام: ﴿لَيْسَ بِ ضَلَالَةٍ﴾، ولم يقل: أنتم مجموعة من الأفاكين الفُسَّاق الذين لا

يفهمون.

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/١٩٢).

(٢) ينظر: الكشاف (٢/١١٣)، تفسير الرازي (١٤/٢٩٦)، المثل السائر في أدب الكاتب (٢/١٦٨).

(٣) تفسير الرازي (١٤/٢٩٦).

(٤) ينظر: نظم الدرر تحقيق عبد الرزاق غالب (٣/٤٨-٤٩).

وهذا ذكرني بحلم عمر بن عبد العزيز عليه السلام؛ فقد ذكر المؤرخون أنه "لَمَّا وَلِيَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عليه السلام بِدَائِقِ خَرَجَ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَمَعَهُ حَرَسِيٌّ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَمَرَّ فِي الظُّلْمَةِ بِرَجُلٍ نَائِمٍ فَعَثَرَ بِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَمْجُنُونُ أَنْتَ؟ قَالَ: لَا. فَهَمَّ بِهِ الْحَرَسِيُّ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ عليه السلام: مَهْ إِنَّمَا سَأَلَنِي أَمْجُنُونُ أَنْتَ؟ فَقُلْتُ: لَا" ^(١).

وكذلك نوح عليه السلام لم يأخذ الأمر من باب العناد، أو من باب الرد الأبشع، بل تعامل معه بهدوء شديد عسى أن يستجلب عقولهم وقلوبهم إلى دعوته.

ففي قول نوح عليه السلام: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦١] إعلان عن مهمته ووظيفته في قومه عليه السلام، فكيف كان أثر إعلان هذه العبارة على الملأ من قومه؟

لاحظ ترتيب البصائر في هذه الكلمات القرآنية، فقد أخذنا من قوله: ﴿قَالَ﴾ الحقيقة الأولى، وأخذنا من قوله: ﴿يَقُولُ﴾ الحقيقة الثانية، وأخذنا من قوله: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ الحقيقة الثالثة، والآن تأتي:

الحقيقة الرابعة: إثبات المهمة المميزة لنوح عليه السلام، وهي أنه رسول مبلغ عن رب العالمين، فيجب أن يؤدي أمانة الرسالة كما أمر، حيث سمعنا نوحًا عليه السلام يقول لقومه: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ^(٢)، فنفي التهمة عن نفسه، ووصف نفسه بعد ذلك بأشرف الصفات وأفضلها، وهي: أنه رسول من رب العالمين.

ويتبين هذا الوصف بشرح ثلاث كلمات، وهي:

الكلمة الأولى: ﴿وَلَكِنِّي﴾: الواو تربط ما بعدها بما قبلها، فما قبلها نفي للضلال، وما بعدها إثبات للحق، وكلمة: (لكن) استدراك على قولهم: (إنه في ضلال)، فيقول لهم: الأمر ليس كذلك.

الكلمة الثانية: ﴿رَسُولٌ﴾ لم يقل: إنه بشر، ولم يقل: إنه ملك، بل أخبر أنه رسول، وبما أنه بشر فهو رسول من البشر يبلغ عن رب البشر، والرسالة تعني أنه مبلغ لم يأت بالأمر من عنده، وتعني أنه يجب أن يؤدي أمانة الرسالة.

(١) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٧٩)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (٤٥/ ٢٠٦).

وهنا فليثر عقلك التدبري لتسأل: كيف وقع قوله: ﴿وَلَا يَكْفِي رَسُولٌ﴾ استدراكاً للانتفاء عن الضلالة؟ فالاستدراك صورته هنا أن يقال: ليس بي ضلالة ولكني من المهتدين؟

الجواب: نعم، الأصل في مقابلة قوله: ﴿لَيْسَ بِي ضَالَّةً﴾ أن يقول: بل أنا من المهتدين، لكنه ترك ذلك ليقول: ﴿وَلَا يَكْفِي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١)، ستشعر بجمال التركيب اللغوي هنا عندما تراه نفى تطرق الضلالة إليه، وحينها يفكر المستمع له: إذا كنت بريئاً من الضلال فماذا تكون؟ ما حقيقتك؟

فتأتي أداة الاستدراك: (لَكِنَّ) لتفيد الجملة التي بعدها معنى آخر يُغَايِرُ معنى الجملة الواقعة قبلها، بصورة أقوى، فيكون هذا الاستدراك لِرَفْعِ مَا تَوَهَّمُوهُ مِنْ أَنَّهُ فِي ضَلَالٍ حَيْثُ خَالَفَ دِيْنَهُمْ، أَي: هُوَ فِي حَالِ رِسَالَةٍ عَنِ اللَّهِ ﷻ، مَعَ مَا تَقْتَضِي الرِّسَالَةُ مِنَ التَّبْلِيغِ وَالنَّصْحِ وَالْإِخْبَارِ بِمَا لَا يَعْلَمُونَهُ، وذلك ما حسبوه ضلالاً^(١).

فالاستدراك يبين عادةً أحد أضداد الجملة التي قبله، مثل قوله ﷻ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٥٧) [البقرة: ٥٧]، ومثل قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ١٠٢]، ولكن نوحاً ﷻ استدرك مخبراً لهم عما هو أعظم من ضد الضلالة، فما أعظم من الهداية؟ أن يأمر الله ﷻ عبداً من عباده بأداء رسالة معينة، فهذه أعظم درجات الهداية على الإطلاق، فلم يقل: ليس بي ضلالة ولكنني مهتدٍ، بل أخبر أنه رسول من رب العالمين، وأنه ناصح أمين، وهذا يعني أنه في أعظم الحالات التي تكون ضد الضلال المبين، ف ضد الضلال المبين الهداية الواضحة، وأعظم الهدايات على الإطلاق أن يكون العبد رسولاً من الله رب العالمين، فذلك يعني أنه مهتدٍ للصراط المستقيم لا بنفسه بل باختيارٍ مَنْ يَعْلَمُ الْهُدَى وَالضَّلَالَةَ عِلْماً لَا يُمْكِنُ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ الْبَشَرُ، فصار الاستدراك موجزاً لكل هذه المعاني التي تعزز ثقته في رسالته، وتعزز ثقة السامعين المحايدين في حقيقته الرسالية.

الكلمة الثالثة: ﴿مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾: إثبات لمصدر الرسالة، فهو ليس رسولاً من ملك من الملوك في الأرض، وليس رسولاً من جهة أسرية، ولا قبلية، بل من الله ﷻ.

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٨-ب/١٩٢).

وهنا ستسأل: ولماذا لم يذكر اسم الله ﷻ مباشرة بل وصف الله ﷻ بأنه ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؟

الجواب: حتى يقطع عليهم أي اعتراض عليه، فإذا قالوا: نحن لا نقبل رسالة واحد من العالمين ولو كان أعظم ملوك الأرض، يرد عليهم فيقول: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الذي لا يمكن أن تردوا عليه ما يأمركم به؛ لأنه ربكم وأنتم خلقه.

فذكر أنه رسول، وبين أهمية رسالته، فهو ليس رسول من جهات الأرض، بل من رب العالمين، فذكر الصفة التي لا يمكنهم أن يقارنوها بأحد من الخلق، فماذا يمكنهم أن يقولوا أمام قوله: ﴿مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أي من الرب الذي خلق كل هذه العوالم وأنشأها.

فربما تفكر أيضًا، فصفاة الله ﷻ كثيرة، ونوح ﷺ اختار وصف ﴿رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ليكون ملاصقًا لوصفه بالرسالة، فقال: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فلماذا اختار هذا الوصف دون غيره في إخباره عن ربه ﷻ؟

الجواب: اختار هذا الوصف دون سواه ليبرهن على دعواه بأنه رسول، فضمن كلامه الدليل على ضرورة هذه الرسالة، وأن رب العالمين لا بد أن يربي عباده في عقولهم وقلوبهم وأحوالهم كما ربى أجسامهم، فهو لا يترك العالمين سدى دون أن يبين لهم كيف يديرون حياتهم، وكيف يمكن لهم أن يجدوا التربية الحقيقية التي تعينهم على تحقيق السعادة.

فأنت ترى أن الوالدین عندما يحنون على ابنهما، يطعمانه، ويسقيانه، ويحرصان على تعليمه أشرف العلوم ليفهم الحياة، فما تتوقع ﴿مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾؟

وكلمة (رب) تعني: السيد المطاع، والمملك، والمرتب، والمصلح للأشياء والأخلاق حالًا فحالة، فكما أحسن إليهم في خلقهم أفلا يحسن إليهم في هدايتهم إلى معرفة هذا الكون؟!

وهناك سبب آخر لوصف المرسل لنوح ﷺ بأنه رب العالمين ﷻ. وهو تَفْخِيمُ المرسل، وتعظيم المرسل الذي هو رب العالمين جل في علاه، فالإنسان إذا جاءه رسول من غي فإنه يهتم بهذه الرسالة، وإذا جاءه رسول من رئيس شركة مرموقة فإنه يهتم بهذه الرسالة ويعظم فحواها، وإذا جاءه من وزير فإنه يعظمها، وإذا جاءه من أمير؛ فإنه يكون أشد تعظيمًا واهتمامًا، وفي هذه الأيام ترى من

حاز على جائزة نوبل فلم يملك نفسه من الفرحه حتى كأنه دخل الجنة مع أنها قد تكون رشوة رخيصة على أفعاله!

إذاً، إذا جاءت الرسائل من هذه الفئات فإن الإنسان يهتم نتيجة لظنه فخامة الجهة التي جاءت منها الرسالة، وطاعة لأوامره، فمن ذا يمكن أن يماثل رب العالمين تعالى جده؟!

فإن قلت: يبصرنا قول نوح عليه السلام: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بأن نوحاً عليه السلام مدح نفسه بأعظم صفات المدح، فكيف نجتمع بين ذلك وبين قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُرُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩]، وقوله: ﴿فَلَا تَزْكُرُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢]؟

الجواب: مدح النفس هنا وصف لواقع، ولا بد منه، فماذا يقول لهم؟
أنا لست رسولاً، أنا واحد مثلكم؟

لا بد أن يخبرهم بأن هناك مزية اتسم بها، والله تعالى هو الذي اختاره لها، وهي أنه رسول من رب العالمين، كما أن الطبيب يعالجك، فإن اعترضت، وقلت له: أنت بأي صفة تعالجني؟ فيقول: لأنني طبيب، فيبرز لك البطاقة، وهنا أبرز نوح عليه السلام بطاقته، وبَيَّن حقيقة إعلامية وتعليمية ضرورية، ومدح النفس قد يجب على الإنسان في موطن، وقد يستحب في موطن أخرى، ولا بد من المدح لبيان أكاذيب الإعلام المجرم الذي يبثه أهل الضلال.

فمدح الإنسان نفسه ليس مذموماً على الإطلاق، ولا هو ممدوح على الإطلاق، وإنما فيه تفصيل.

بصيرة: من المواطن التي لا بد أن يمدح الإنسان فيها نفسه: عندما يريد الإصلاح في الأرض، فيبين للناس مؤهلاته لذلك، كما فعل يوسف عليه السلام، فإنه قال: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

﴿حَفِيظٌ﴾ أي: مؤتمن في القيام على المسائل المالية وخزائن الأرض التي تجمع وزارة الاقتصاد ووزارة المالية والوزارات الإيرادية.

﴿عَلِيمٌ﴾ أي: خبير فعندي كفاءة في كيفية إدارتها على أحسن الوجوه.

ثم قال نوح عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَتِي رَبِّي﴾ [الأعراف: ٦٢] فلماذا ذكر هذا الوصف مع أنه داخل في قوله: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ﴾ فالرسول مهمته تبليغ الرسالة، فنحن نوقن أن نوحاً عليه السلام أعاد هذا المفهوم لا لتطويل الكلام فحسب، بل لفائدة محددة ووظيفة قيمة، فما هي؟

يأتي الجواب في الحقيقة الآتية:

الحقيقة الخامسة: بيّن أنه يجب أن يبلغ رسالات ربه، ويبصرنا بذلك قوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَتِي رَبِّي﴾ [الأعراف: ٦٢].

تكونت هذه الحقيقة من ثلاث كلمات:

الكلمة الأولى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾:

التَّبْلِيغُ وَالْإِنْبَاطُ: جَعَلَ الشَّيْءَ بِالْعَا، أَي وَاصِلًا إِلَى الْمَكَانِ الْمَقْصُودِ^(١)، كما تقول: أنا أبلغ ذلك المكان يعني: أصل إليه، ومنه قول موسى عليه السلام: ﴿لَا أَبْرُحُ حَتَّى أُبْلَغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ [الكهف: ٦٠]، فقوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ يعني: أوصل إليكم، وهذا يقتضي استخدام جميع وسائل التبليغ، مثل قنوات الإيصال

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/١٩٣).

الإعلامية، سواء كانت مواقع تواصل اجتماعي، أو قنوات فضائية، ومثل التربية، والتعليم... فكل هذه أدوات للتبليغ، ومثل مخالطة التائبين، فإنك لا يمكن أن تبليغ وأنت في بيتك.

وفي هذه الكلمة قراءتان:

الأولى: قَرَأَ أَبُو عَمْرٍو ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ بِالتَّخْفِيفِ، والثانية: ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وهي قراءة الباقيين^(١).

فأما قراءة التشديد، فَمِنْ "بَلَّغَ"، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧]، وأما قراءة التخفيف فَمِنْ "أَبْلَغَ"، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ﴾ [هود: ٥٧]، وفي معنى القراءتين وجهان:

أحدها: أنهما لغتان، كل واحدة منهما مثل الأخرى في مجيء التنزيل بهما، و"بَلَّغَ وَأَبْلَغَ" منقولان من التعدي إلى فعل واحد إلى التعدي إلى مفعولين^(٢).

الثاني: أن قراءة الجمهور ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ بِالتَّشْدِيدِ، فيها معنى التكرار، أي: مرةً بعد مرة، فإذا كان الإبلاغ رسالةً واحدةً قلت: أَبْلَغُ فلاناً عني، وعليه قراءة أبي عمرو بالتخفيف، قاله ابن خالويه^(٣).

بصيرة: يظهر أن الإبلاغ يعني الإيصال المحض، أي: أُوصِلَ إليكم رسالات ربي، وعليه قراءة التخفيف، أما التبليغ فيعني الاجتهاد والتدرج في هذا التبليغ عن طريق التربية المتدرجة الدؤوبة، وعليه قراءة التشديد.

الكلمة الثانية: ﴿رِسَالَتٍ﴾ جمع رسالة، وهي الأشياء التي أُمِرَ الرسول بإيصالها إلى المرسل إليهم، وقد تكون أقوالاً، وقد تكون أفعالاً، وقد تكون أشياء مادية.

وقد تسأل: لماذا جمع رسالات في قوله: ﴿رِسَالَتِ رَبِّي﴾؟

(١) النشر في القراءات العشر، لابن الجزري، (٢/٢٧٠).

(٢) يُنظر: معاني القراءات، للأزهري، (١/٤١٠)، الحجة للقراء السبعة، للفراسي، (٤/٤١).

(٣) إعراب القراءات السبع وعللها (١/١٩١).

الجواب: الجمع هنا يجمع لنا صورًا متعددة، نستطيع فهم هذا السبب منها، ومن تلك الصور:

الصورة الأولى: أنه يبلغ الرسالات التي أوحاها ربه ﷻ إليه في الأوقات المتعددة المتطاولة، فتبليغه لشيء من الرسالة في وقتٍ محدد رسالة مستقلة، فعندما يبلغهم في الصباح يبلغهم رسالة، وعندما يبلغهم في المساء فهذه رسالة أخرى، وهكذا.

الصورة الثانية: أنه يبلغ ما ينبغي أن ينظموا عليه حياتهم في المجالات المتعددة: ففي مجال الزواج هذه رسالة، وفي مجال العبادة الشعائرية نجد رسالة، وفي مجال الاقتصاد نجد أيضًا رسالة أخرى، إن بلغهم ما يتعلق بصلاة الظهر فهذه رسالة، وما يتعلق بصلاة العصر فهذه رسالة أخرى، إن كلمهم عن التوحيد فهذه رسالة، وإن كلمهم عن علاقة الإنسان بأسرته فهذه رسالة، وإن كلمهم عن علاقته بمجتمعه، فهذه رسالة، وإن كلمهم عن الاقتصاد وضوابطه الشرعية فهذه رسالة، وبذا نعلم أن ما يبلغه الرسول لقومه عدة رسالات، وليس رسالة واحدة. وهكذا تتعدد الرسالات التي يجب أن يبلغها الدعاة.

إن كلمهم عن المجالات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والتكاليف المختلفة من الأوامر والنواهي والمواعظ والزواجر والبشائر والندائر، وشرح مقادير الثواب والعقاب في الآخرة^(١)، فكل واحدة من هذه تسعى رسالة.

الصورة الثالثة: الكتاب الذي ينزله الله ﷻ على أنبيائه يحتوي على رسائل متعددة، فكل سورة من القرآن الكريم يمكن أن تجعلها رسالة مستقلة، وصحف جده إدریس عليه السلام - إن صح أنه جدّه - مكونة من ثلاثين صحيفة، وصحف شيث عليه السلام وهو ابن آدم عليه السلام فيما يذكرون تتكون من خمسين صحيفة^(٢).

الصورة الرابعة: المجالات التي أفسدوا فيها وملؤوها بالكفر كثيرة، فهو يبلغهم كيف يصلحون ما أفسدوه من الأرض والفطرة البشريّة، فصار كل مجال يخبرهم عن إصلاحه يمثل رسالة مستقلة. وعند هذا القدر الرائع من الإبصار والبصائر لا شك أنك تشعر بالمتعة؛ لأن نوحا عليه السلام هنا ذكر الرسالات بالجمع، فيمكنك أن تنظر إلى أفراد ما يبلغه كل رسول على أنه رسالة بذاته، وتنظر إلى

(١) ينظر: تفسير الرازي (١٤/٢٩٧).

(٢) ينظر: البحر المحيط في التفسير (٥/٨٣).

مجموع ما يبلغه الرسول على أنه رسالة واحدة، فالإفراد لأن كل ما يبلغه الرسول من الله ﷻ، والذي يريد السعادة يأخذه كله، والجمع ليعين الأنواع المختلفة التي تحويها الرسالة.

الكلمة الثالثة: ﴿رَبِّي﴾: هنا حدد لهم المرسل لهم، فوصفه ﷻ في الآية السابقة بـ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ووصفه هنا بقوله: ﴿رَبِّي﴾ ليؤكد لهم أنه أول العالمين الذين يعتزون برب العالمين الحق جل مجده. ولا بد أن تسأل: لماذا قال لهم أولاً: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ثم عاد، فقال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي﴾ [الأعراف: ٦٢]، ولم يقل: أبلغكم رسالاته؟

الجواب:

هنا تشرق أسارير وجهك وأنت تتدبر كلام ربك، فقد وصف نوح ﷺ ربّه تعالى مجده بأنه رب العالمين أولاً؛ ليثبت لهم منطقية الرسالة، وأن الذي ينفعها أو الذي يتكاسل عنها مجنون غبي، ثم أراد ﷺ أن يبين التكليف الثقيل الذي حمّله ربّه ﷻ فقال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي﴾، فنسب نفسه إليه؛ لبيان التكليف، من جهة، ولإظهار الاعتزاز بالله تعالى والاعتماد عليه، من جهة ثانية، ولبيان أنه سيؤديها بأمانة كما أمره ربه ﷻ، من جهة ثالثة.

وهذا الأسلوب يسميه العلماء: الإظهار في موضع الإضمار، وله موقع عظيم وفائدة جزلة، وهو تعظيم حال الأمر المظهر والعناية بحقه^(١).

وإنما فعل نوح ﷺ ذلك في خطابه مع قومه ليحقق هدفين رئيسين، هما:

(١) ليخبرهم أنه ليس رسولاً صامتاً يراقب، بل رسول يوصل إليكم رسالات ربكم، ويجتهد في ذلك المرة بعد المرة، وبالوسائل المتعددة.

(٢) ليرد على إيدئهم واتهامهم له بالضلال، ويخبرهم أن ذلك لن يثنيه عن تبليغ رسالات الله ﷻ، ونوح ﷻ وجد إيداء من قومه وصداً وهجوماً، فكأنه يقول لهم: المسألة ليست بيدي ولا بيدكم،

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (٢/ ٧٩).

فكونكم تؤذونني وتردونني لا يعني أنني سأترك الرسائل التي أمرني الله ﷻ بأن أبلغكم إياها، وقول نوح عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رَّبِّي﴾ صفة إيضاحية لكلمة: ﴿رَسُولٌ﴾، وهي تقديم لنا معنى ثميناً هو الإصرار على أداء الرسالة، وتبليغ محتواها للخلق، فمهما وقفتما يا أيها الملأ في مواجهتي فلن يفيدكم إذاؤكم لي، لن تنجحوا في إيقافني عن أداء رسالة ربي.

صبر نوح عليه السلام في تبليغ الرسالة:

ما دلالة طول مدة تبليغ نوح عليه السلام قومه؟ وأخذه بأكثر من وسيلة في هذا البلاغ؟

الجواب: لقد حدث نوح عليه السلام عن نفسه مبيناً أنه سلك كل سبل التبليغ، لكأنه يرفع تقريراً إلى ربه ﷻ عن معاناته في تبليغ الرسالة تبليغاً عجيماً امتد قرونًا متطاولة الزمان، وسلك فيه أساليب متنوعة في التبليغ، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۖ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ۖ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْصِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ وَأُصْغَوْا لِيَبْأَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا ۖ وَاسْتَكْبَرُوا ۖ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۖ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۖ﴾ [نوح: ٥-٩].

ويروي مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ رحمه الله بعض تفصيل ذلك، فيقول: "كَانَ مِنْ حَدِيثِ نُوْحٍ عليه السلام وَحَدِيثِ قَوْمِهِ مِمَّا يَذْكُرُ أَهْلُ الْعِلْمِ أَنَّهُ كَانَ حَلِيمًا صَبُورًا، لَمْ يَلْقَ نَبِيٌّ مِنْ قَوْمِهِ مِنَ الْبَلَاءِ أَكْثَرَ مِمَّا لَقِيَ إِلَّا نَبِيَّ قُتِلَ، وَكَانَ يَدْعُوهُمْ كَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ: لَيْلًا وَنَهَارًا، سِرًّا وَجِهَارًا بِالنَّصِيحَةِ لَهُمْ، فَلَمْ يَزِدْهُمْ ذَلِكَ مِنْهُ إِلَّا فِرَارًا، حَتَّىٰ إِنَّهُ لَيُكَلِّمُ الرَّجُلَ مِنْهُمْ فَيَلْفُ رَأْسَهُ بِثَوْبِهِ، وَيَجْعَلُ أَصَابِعَهُ فِي أُذُنَيْهِ لِنَلَا يَسْمَعَ شَيْئًا مِنْ قَوْلِهِ"^(١). ونحن نذكر بعض الآثار الواردة التي تشهد الآيات لها في الجملة، أما الآثار التي لا يوجد ما يشهد لأصلها سواء أكانت إسرائيلية أم لا فلا نلقي لها أذنًا دون دليل، كقصّة دخول إبليس السفينة، وغير ذلك.

وقد كان نبينا ﷺ مثل نوح عليه السلام في الحرص على تبليغ الرسالة الإلهية على خير وجه، فعن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال يوم عرفات في آخر خطبته أمام أكبر جمعٍ اجتمع له في مقامٍ واحد ذلك الوقت: «وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟». قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ، وَأَدَّيْتَ، وَنَصَحْتَ. فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَابَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيُنْكِحُهَا إِلَى النَّاسِ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ». ثَلَاثَ مَرَّاتٍ^(٢).

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١٥٠٦/٥).

(٢) مسلم (١٢١٨-١٢٤٧).

وكان النبي ﷺ يذكر لهم أنه قام بالبلاغ في مشاهد مختلفة، ويستشهدهم على ذلك، فقد قال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ رَّسُولُ اللَّهِ، فَأَذْكُرْكُمْ بِاللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي قَصَرْتُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ تَبْلِيغِ رِسَالَاتِ رَبِّي لَمَّا أَخْبَرْتُمُونِي»، فقال الناس: نشهد أنك نَشَهِدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ رِسَالَاتِ رَبِّكَ، وَنَصَحْتَ لِأُمَّتِكَ، وَقَضَيْتَ الَّذِي عَلَيْكَ^(١).

وعن المغيرة بن شعبه رضي الله عنه قال: إن أول يوم عرفت فيه رسول الله ﷺ أنني كنت أمشي مع أبي جهل بمكة، فلقينا رسول الله ﷺ فقال له: «يا أبا الحكم، هلمَّ إلى الله وإلى رسوله وإلى كتابه، أدعوك إلى الله».

فقال: يا محمد، ما أنت بمُنْتَهٍ عن سبِّ آلِهتنا؟ هل تريد إلا أن نشهد أن قد بَلَغْتَ؟ فنحن نشهد أن قد بلغت.

فانصرف عنه رسول الله ﷺ، فأقبل عليَّ فقال: والله إني لأعلم أن ما يقول حق، ولكن بني قُصَيٍّ قالوا: فينا الحجابة. فقلنا: نعم. ثم قالوا: فينا القرى. فقلنا: نعم. ثم قالوا: فينا الندوة. فقلنا: نعم. ثم قالوا: فينا السقاية. فقلنا: نعم، ثم أطعموا وأطعمنا، حتى إذا تحاكَتِ الرُّكَبُ قالوا: منا نبيٌّ، والله لا أفعل^(٢).

ثم قال نوح عليه السلام: ﴿وَأَنْصَحْ لَكُمْ﴾، فما الذي يبصرنا به؟

الجواب: يبصرنا ذلك بالحقيقة الآتية:

الحقيقة السادسة: القيام بالنصيحة التي لا تسمى كذلك إلا أن تنبع عن حب الخير

للمنصوحين ﴿وَأَنْصَحْ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٢].

فما معنى ﴿أَنْصَحْ﴾؟

الجواب: كلمة ﴿أَنْصَحْ﴾ من (نَصَحَ)^(٣)، وهي كلمة تدل على الصفاء التام، والصنعة المتقنة، ومما

يبين جمال هذه الكلمة:

(١) أحمد (٢٠١٧٨)، ابن خزيمة (١٣٩٧)، وقال محققو المسند: "إسناده ضعيف؛ لجهالة ثعلبة، ولبعضه شواهد"، وضعفه الألباني في

التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٢٨٤٥).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة، (٢٥٥/٧)، وحسنه (الصوياني) في الصحيح من أحاديث السيرة النبوية (ص: ٦٥).

(٣) مقاييس اللغة (٤٣٥/٥)، المفردات في غريب القرآن (ص ٨٠٨)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٢٢٠٧/٤).

(١) أن النصح هو الملاءمة بين الشئتين، والإصلاح لهما، والفاعل لذلك يسمى النصيح، ويدعى الخياط بالناصح؛ لأنه يلائم بين الخيوط والرُقْع المتعددة ليصنع منها شيئاً ملبوساً مبهجاً، والنصاح: الخيطُ يُخَاطُ بِهِ، وَالْجَمْعُ نَصَاحَاتٌ، ولاحظ أن الخياط يكون في غاية الحذر ليصنع مما يخطه الشيء الذي لا ينتقد في جماله، وليكون في عمله في غاية الإتقان، وكذلك ينبغي أن يكون الناصح.

(٢) النصيحة تقتضي الإتيان بالشيء الصافي الجميل الذي لا يخالطه ما يشينه، مشتقة من ناصح العسل، وهو ما ذِيُهُ وهو (العسل) الأبيض الرقيق، كَأَنَّهُ الْخَالِصُ الَّذِي لَا يَتَخَلَّلُهُ مَا يَشُوْبُهُ. وبذلك فلما قال لهم نوح عليه السلام: ﴿وَأَنْصَحْ﴾ كأنه يقول لهم: أنا حريص على الإصلاح لأحوالكم لتكون على خير منظر، وأجمل مخبر، وأقدم لكم ألد ما يمكن أن يقدمه إنسان لآخر وأصفاه، كما يُقَدِّم المحبُّ ناصحَ العسل هدية لمن يحبهم.

قال الأصمعي رحمته الله: النَّاصِحُ: الْخَالِصُ مِنَ الْغِلِّ، وَكُلُّ شَيْءٍ خَلَصَ فَقَدْ نَصَحَ، فَمَعْنَى أَنْصَحْ هُنَا: أَخْلِصْ النِّيَّةَ لَكُمْ عَنْ شَوَائِبِ الْفَسَادِ ^(١). وَالْمَعْنَى: أَنِّي أَبْلَغُ إِلَيْكُمْ تَكْلِيفَ اللَّهِ تعالى، ثُمَّ أُرْشِدُكُمْ إِلَى الْأَصُوبِ الْأَصْلَحِ، وَأَدْعُوكُمْ إِلَى مَا دَعَانِي، وَأَحِبُّ إِلَيْكُمْ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي ^(٢).

بصيرة: النصح هو الإرشاد إلى الفعل أو القول المتقن الذي يحقق أجمل المصالح وأقواها، مع خلوص النية من شوائب المكروه؛ ولذلك وصف الأنبياء عليهم السلام أنفسهم بأنهم ناصحون.

النصح أسلوب ناجح للإقناع:

فهمنا: لماذا اختار نوح عليه السلام هذا الوصف لنفسه ﴿وَأَنْصَحْ﴾، ولكن هل من مناسبة أقوى لإيراده في هذه السورة؟

الجواب: ناسب إيراد هذا الوصف في هذه السورة المباركة بصورة بديعة، وذلك لأن أول من زعم أنه ناصح للبشر إبليس؛ إذ تقمص هذا الدور العظيم كذباً، وحكى الله تعالى عنه ذلك فقال:

(١) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٢٤٧).

(٢) تفسير الرازي (١٤/ ٢٩٧).

﴿وَقَاسَمُهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]، فكان أسوأ الكاذبين في ادعائه، وفي المقابل يؤكد الأنبياء لأقوامهم نصحتهم لهم، فيقول نوح عليه السلام هنا: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِيسَالَ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢]، ولقد ذكر نوح عليه السلام هذا الوصف لنفسه عندما مرت الدهور والأعوام المتتابة، وقومه يأبون إلا الكفر، فقال: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، وهو بهذا الوصف الذي يكرر ذكره كأنه عليه السلام يقول لهم: أنا أقوم معكم بأجمل ما يقوم به إنسان مع قومه كما يفعل الخياط وكما يهدي المهدي ناصح العسل، فكيف لا تقبلون؟! وقد قال صالح بن عبد القدوس:

فَلَقَدْ نَصَحْتُكَ إِنْ قَبِلْتَ نَصِيحَتِي
وَالنُّصْحُ أَعْلَى مَا يُبَاعُ وَيُوْهَبُ^(١)

وتتابع الأنبياء والمصلحون على وصف أنفسهم بذلك، فقال هود عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِيسَالَ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]
وقال صالح عليه السلام: ﴿وَقَالَ يَقُومُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَهَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩]، وقال شعيب عليه السلام: ﴿يَقُومُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِيسَالَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣].

والنبي ﷺ أشاع هذا المفهوم في أمته حتى جعله الدين كله، فقال: «الدين النصيحة»^(٢)، فالنصيحة أجمل ما يفعله أو يقوله إنسان لغيره، ولذا إن كانت بأسلوب خشن لا تسمى نصيحة في حقيقتها؛ لأن طبيعة النصح أن يكون مثل العسل الذي خلص من كل شوب، فالتدب به أخذه. وغالبًا تجد الذين يمكرون يتقمصون ثياب النصح ليصدقهم الآخرون، كما فعل إبليس، وكما فعل إخوة يوسف عليه السلام لخداع أبيهم، فزعموا أنهم سيتصفون به في التعامل مع أخيمهم ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ﴾ [يوسف: ١١].

(١) البيت لصالح بن عبد القدوس كما في ديوانه (ص: ١٢٧)، وينسب لعلي بن أبي طالب عليه السلام عنه كما في الديوان المنسوب إليه (ص: ٢٣) بلفظ (أرخص) بدلًا من (أعلى).

(٢) مسلم (٩٥-٥٥).

واستعملته أخت موسى عليه السلام في طمأننة آل فرعون عندما عرضت رعاية موسى عليه السلام، فقالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُونَ﴾ [الفصص: ١٢]، كما استعمل هذا الوصف صاحب موسى الذي عرف بالتآمر الفرعوني حول موسى عليه السلام، فجاء إليه وقال له: ﴿يَمُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِلَىٰ لَكَ مِنَ النَّصْحِينَ﴾ [الفصص: ٢٠]، والتوبة التي يقبلها الله ﷻ هي التي وصفها بقوله: ﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨] فهي الخالصة المصلحة لما حدث في السابق من الذنوب.

وبذا نفهم أن قول نوح عليه السلام: ﴿وَأَنْصَحْ﴾ كلمة جميلة تعبر عن قوة عاطفة نوح عليه السلام، وحسن أسلوبه في التعامل مع قومه.

بصيرة: إن الاتصاف بالنصح الصادق من أعظم وسائل الإصلاح، وهو من دلائل الصدق والإخلاص، وتقبل المخاطب أو المستمع عمومًا للنصح من أعظم أسباب السلامة والنجاة من خسارة الدنيا والآخرة.

وهنا نسأل: لماذا ذكر اللام في قوله: ﴿وَأَنْصَحْ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٢]، فلم يرد: وأنصحكم؟

الجواب: كان يمكن أن يرد: (وأنصحكم) يكفي، فيقال نصحته؛ كما قال النابغة:

نصحت بني عوف، فلم يتقبلوا وصاتي؛ ولم تنجح لديهم وسائلي^(١)

لكن ورد ذكر اللام في خطاب نوح عليه السلام ليحقق عددًا من الأهداف، ومن أهمها أن يخصص قومه بالنصيحة، ويزيد في تحببه إليهم، فعلماء اللغة يقولون: اللام تزداد لتقوية المعنى^(٢).

فأظهرت اللام حرصه العظيم على مصلحتهم، وأن الله ﷻ خصصه بأن يكون رسولاً لهم.

(١) ديوان النابغة الذبياني (ص: ١٤٣).

(٢) انظر: ارتشاف الضرب من لسان العرب لأبي حيان الأندلسي (١٧٠٩/٤)، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب (ص: ٢٨٦).

و"العرب لا تكاد تقول نصحتك وإن كان جائزًا، ولكن تقول نصحت لك" ^(١)، وفي زيادة اللام مبالغة ودلالة على إمحاض النصيحة، وأنها وقعت خالصة للمنصوح له مقصودًا بها جانبه لا غير، فرب نصيحة ينتفع بها الناصح فيقصد النفعين جميعًا، ولا نصيحة أمحض من نصيحة الله تعالى ورسوله ﷺ ^(٢).

الفرق بين البلاغ والنصح:

عد بنا إلى قوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٢] ما الفرق بين تبليغ الرسالة،

والنصيحة؟

الجواب: الفرقُ بينَ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ وَبَيِّنِ النَّصِيحَةِ هو أَنَّ تَبْلِيغَ الرِّسَالَةِ مَعْنَاهُ: أَنْ يُوَصَّلَ إِلَيْهِمْ مَا أَمَرَهُ اللهُ ﷻ أَنْ يُوَصِّلَهُ بِكُلِّ أَسْلُوبٍ مُمْكِنٍ.

أما النصيحة فنبصر فيها حرصه عليهم، ومحبتة لهم لأنه يريد إصلاح أحوالهم ليظهروا على أحسن الوجوه، وتقتضي أن يعكف على تطبيق ما يبلغه في واقعهم، ومتابعتهم ومراقبتهم لأجل أن يصلوا إلى أفضل الأحوال، وَيَسْعَى في تقرير ذلك بالترغيب والترهيب^(٣).

والأصل في النصيحة أن تكون بلين وحسن أسلوب؛ لأن الذي يُهدي ناصحَ العسل لصاحبه لا يصبه عليه، ولا يرمي به، بل يقدمه في أحسن أسلوب، وبذا نفهم معنى كلام الشافعي رحمته الله حينما قال:

تَعَمَّدَنِي بِنَصِيحِكَ فِي انْفِرَادٍ وَجَنَّبَنِي النَّصِيحَةَ فِي الْجَمَاعَةِ

فَإِنَّ النَّصْحَ بَيْنَ النَّاسِ نَوْعٌ مِّنَ التَّوْبِخِ لَا أَرْضَى اسْتِمَاعُهُ

وَإِنْ خَالَفتني وَعَصَيْتَ قَوْلِي فَلَا تَجْزَعْ إِذَا لَمْ تُعْطَ طَاعَهُ^(٤)

(١) كتاب في لغات القرآن للفراء (ص: ٦٩).

(٢) تفسير الكشاف (١١٥/٢).

(۳) انظر: تفسير الرازي (۱۴/۲۹۷).

(٤) ديوان الإمام الشافعي (ص: ١٥).

بصيرة: معنى هاتين الحقيقتين: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأُنصَحُ لَكُمْ﴾: أي أوصلي إليكم النظام الإلهي في كل مجالات حياتكم، وأرشدكم إلى أصوب الأفعال في فهمه وتنفيذه على أكمل الوجوه وأجملها وأكثرها رفقا ورحمة.

ثم قال نوح عليه السلام: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. فما الذي أضافته هذه الكلمات في التعريف برسالة نوح عليه السلام، والرد على الملامن قومه؟
الجواب متضمن في الحقيقة السابعة :

الحقيقة السابعة: وجود شيء فضل الله تعالى به الأنبياء على غيرهم، وهو العلم الذي لا يمكن للبشر أن يصلوا إليه، لأن الله تعالى هو الذي يعلمهم، ويصرنا بذلك قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

فأخبرهم عن مزية لا يمكن لهم أن يحصلوها بأنفسهم، ولا باجتهادهم، ولا بذكائهم، ولا بتفوق أعوانهم وأتباعهم، ولا بتأملهم، ولا بملاحظاتهم، ولا بدراستهم: وهي أنه يعلم شيئا من الله تعالى لا يعلمونه.

الكلمة الأولى: ﴿وَأَعْلَمُ﴾: فهذا فعل مضارع يدل على استمرار علمه لأشياء لا يمكنهم أن يعلموها.
الكلمة الثانية: ﴿مِنْ﴾: أي: ابتدائية أي: جاءني هذا العلم من الله تعالى ابتداءً باصطفائه لي، فظهر من ذلك أنه يتصف بامتياز حقيقي.

الكلمة الثالثة: ﴿اللَّهُ﴾ أي: مصدر علمي الله تعالى، وليس الخبرة، والتجربة، ولا الدراسة، ولا الذكاء، ولذا نطالب أكابر الملحدِين الذين يُظهرون الذكاء بأن يتبعوا الأنبياء عليهم السلام لا لعبقرية الأنبياء عليهم السلام وإن كانت عبقرية الأنبياء عليهم السلام تفوق كل عبقریات غيرهم من الخلق- بل للميزة التي اختصوا بها دون غيرهم، وهي أنهم هم الذين جاؤوا بخبرٍ من رب العالمين.

الكلمة الرابعة: ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: أي: أعلم من الله تعالى الأخبار التي لا تعلمونها مهما حاولتم.

فالامتياز الذي يتصف به نوح والأنبياء ﷺ هبة من الله ﷻ لا باختيار النبي ورغبته، ولا باختيار قومه ورغبتهم، فهو اصطفاء خالص، إنه ليس امتيازًا كسبيًا اجتهدائيًا، وبما أن لنوح ﷺ هذا الامتياز فستكون له العصمة والاتصال المباشر بالوحي، ويرث الدعاة إلى الله ﷻ الإخبار عن الأنبياء ﷺ، ولكنهم لا يكونون معصومين مثل الأنبياء ﷺ، لأنهم يبلغون ما وصلهم من الأنبياء ﷺ دون وحي ولا اتصال مباشر بالملائكة.

وهذا العلم النبوي الذي أخبر نوح ﷺ أنه يمتلكه ولا يملكه المخاطبون فيه وجوه كثيرة، منها:

الأول: العلم الجازم بالمآلات المهلكة في الدنيا لمن يصر على الظلم، ولا يستجيب لداعي الحق.

الثاني: العلم الجازم بالعقوبات الأخروية المؤلمة لمن يعرض عن سماع الرسالات الإلهية.

الثالث: العلم بما أراد الله ﷻ من البشرية أن يسيروا عليه في نظام حياتهم، وطرائق تفكيرهم.

الرابع: العلم بالدقائق التي ربما تضرهم وهم يظنون أنها تنفعهم مثل: الربا، والخمر، والميسر، والخزير، وتغيير الفطرة البشرية.

وكل ذلك يبينه الأنبياء ﷺ بالتبليغ، وربما ينزل مع أحدهم كتاب يحوي ذلك كله كما في الكتب الأربعة.

وعندما نطبق هذا في قصة إبراهيم ﷺ نجده واضحًا في مخاطبته لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٣].

ثم قال نوح ﷺ: ﴿أَوْعَجِبْتُكُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣]. فما الذي اكتنزه هذا السؤال من المعاني القوية في حوار نوح ﷺ مع قومه؟

الجواب متضمن في الحقيقة الآتية:

الحقيقة الثامنة: وجود رسالة إلهية يُكَلِّفُ رجلًا بتبليغها قضية منطقية عقلانية لا تحتاج أن تتعجبوا منها، ويبصرنا بذلك قوله: ﴿أَوْعَجِبْتُكُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣].

ونوضح هذا المعنى بهذه الكلمات:

الكلمة [٢-١]: ﴿أَوْعَجِبْتُكُمْ﴾:

فالهزمة للسؤال، دخلت على الواو، وهذه الواو عاطفة تربط ما قبلها بما بعدها، وتدلنا فتحة الواو (أَوْ) على أنهما كلمتان، فالهزمة كلمة، وواو العطف كلمة، بخلاف (أَوْ) الساكنة الواو، فإنها كلمة واحدة.

الكلمة [٣]: ﴿عَجِبْتُمْ﴾:

لماذا اختارنوح عليه السلام كلمة: ﴿عَجِبْتُمْ﴾ لينتصر في معركته الحوارية مع الملأ من قومه؟

الجواب: هذه الكلمة مشتقة من (عَجِبَ عَجَبًا)^(١)، وهي كلمة تدل على استعظام المتكلم لأمر؛ لخفائه أو لأنه لم يُعهد مثله، أو لتنزيله منزلة الخفي الدقيق عليه أو على سامعيه.

وهذا التعريف أوضح في ظني وأجمع من قول الراغب رحمه الله: "والتَّعَجُّبُ: حالةٌ تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء، ولهذا قال بعض الحكماء: العَجَبُ ما لا يُعرف سببه، ولهذا قيل: لا يصحُّ على الله ﷻ التَّعَجُّبُ؛ إذ هو عَلَامُ الغيوب، لا تخفى عليه خافية"^(٢).

فكلام الراغب رحمه الله ليس في محله وذلك لأن قراءة ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢] بضم التاء ثابتة، فهي قراءة حمزة والكسائي وخلف^(٣)، كما أن هذه الصفة وردت في السنة، وأنها ليست كصفة البشر، وأن المقصود بها أحد أمرين:

أحدهما: استعظام الشيء مع علمه سبحانه وتعالى به، والله سبحانه يعظّم ما هو عظيم، إما لعظمته سببه، أو لعظمته، فإنه وصف بعض الخير بأنه عظيم، ووصف بعض الشر بأنه عظيم.

والآخر: عجب استحسان كما في سياق بعض الأحاديث.

ودعنا نبين المعنى في هذا الموضع، ونتصور جماله، ونترك هذه التفاصيل إلى موضعها من سورة الصافات إن شاء الله ﷻ.

وإذا سألت: ما أصل معنى كلمة: عَجِبَ؟

أجيبك: لعل أصل هذه الكلمة جاءت من عَجِبَ الذنب، فلشدة صغره مع قوة عمله يُسَعَى عَجَبًا، فهو عبارة عن بذرة صغيرة غير مرئية بالعين المجردة في آخر العمود الفقري للإنسان، وهو مِنْ كُلِّ

(١) المفردات في غريب القرآن (ص: ٥٤٧).

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) "طيبة النشر" في القراءات العشر (ص ٩٣).

دَابَّةٍ مَا ضُمَّتْ عَلَيْهِ الْوُرُكَانِ مِنْ أَصْلِ الدَّنْبِ الْمَغْرُورِ فِي مُؤَخَّرِ الْعَجْزِ، ومنه ينبت الإنسان، ويتركب جسده، وكذلك يكون الأمر يوم القيامة، وهو لا يفنى بل يبقى الله ﷻ بذرة إلى يوم يبعثون فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الدَّنْبِ، وَمِنْهُ يُرْكَبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

إذا: (عجب) كلمة تدل على استعظام المتكلم لأمر؛ لخفائه أو لأنه لم يُعهد مثله، أو لتنزيل المتعجب له بتلك المنزلة، فيتصوره المتعجب دقيقاً غريباً، أو يُصَوِّره للآخرين كذلك بنسبة العجب إليه، فيقول مثلاً: أَتَعَجَّبُ كيف يمكن للمرأة أن تحمل طفلاً تسعة أشهر في بطنها، وتصبر على ذلك، مع أنك قد تحمل طفلك ساعتين فوق كتفك ثم تتركه!

والسبب واضح: وهو المقدرة الجبلية التي اختص الله ﷻ بها المرأة دون الرجل، إضافة إلى العاطفة التي وضعها الله ﷻ في الأم، ولذا يحاولون نزع هذه العاطفة باسم حرية الاختيار، وتشجيع المرأة على قتل طفلها بالطريقة التي يسمونها "الإجهاض".

الكلمة: [٤]: ﴿أَنْ﴾ كلمة تفسر معنى ما قبلها، كأنه قال: أوعجبتهم؟ فسأله سائل: من أي شيء نعجب؟ فقال: ﴿أَنْ﴾ فهذه الكلمة تمهد لتفسير موضوع التعجب.

الكلمة: [٥]: ﴿جَاءَكُمْ﴾ كلمة "جاء" يعني: وصل قادماً من مكان قريب أو بعيد، معنوي أو حقيقي، فالرسول قد يكون بين الناس، ويأتيه الوحي، فيبلغهم، فيقولون: جاءنا رسول، فقال: كذا وكذا، وهو لم يأت من مكان آخر بالضرورة، ولكنه قال لهم شيئاً سمعه من الوحي ولم يسمعه، فيقولون: جاء، فهذا مجيء معنوي، ودخلت كلمة (جاء) على الكاف التي هي في محل نصب مفعول به، فهو جاء قومه ولم يجرِ لآخرين، والميم للجمع.

الكلمة: [٦]: ﴿ذَكَرْ﴾ الذكر هنا فاعل المجيء، وهو مصدر بمعنى التذكير أو الإخبار عن شيء بإشهاره، وهو من المصطلحات القرآنية المدهشة، فهو يختصر كثيراً من المعاني وسائلاً من التأويلات والعبارات والمباني:

(١) صحيح البخاري (٤٩٣٥).

المعنى الأول: قَالَ الْحَسَنُ رحمته: "إِنَّهُ الْوَحْيُ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ"^(١)، وَسُيِّ ذِكْرًا؛ لِأَنَّهُ يَقْتَضِي التَّذْكَيرَ الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ لِيَذْكُرَهُمْ بِهِ، وَلِأَن هَذَا الذِّكْرَ يَبْنِي لَهُمْ مَجْدًا فِي الْأُمَمِ يَذْكُرُونَ بِهِ. وَيَلْزَمُ مِنْ مَعْيِ الذِّكْرِ الْوَحْيِ، فَقَدْ يَأْتِي بِهِ مَلَكٌ لِرَسُولٍ مِنَ الْبَشَرِ كَمَا بَيَّنَّ اللَّهُ تعالى.
المعنى الثاني: أَنْ يَكُونَ كِتَابًا نَزَلَ عَلَيْهِ.

وَالصَّحِيحُ أَنْ كُلَّ مَا جَاءَ بِهِ الكتاب ذِكْرٌ، أَي: تَذْكَيرٌ لَهُمْ، وَتَشْرِيفٌ لِحَيَاتِهِمْ، وَمَجْدٌ لِأَشْخَاصِهِمْ.
الكلمتان [٧-٨]: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾: تَحْدِيدٌ لِلجِهَةِ الَّتِي أَرْسَلَتْ الذِّكْرَ وَمَصْدَرَهُ، فَكَأَنَّ قَائِلًا يَقُولُ: مَنْ الَّذِي أَرْسَلَ هَذَا الذِّكْرَ؟ هَلْ هُوَ التَّاجِرُ فَلَان، أَمْ الْمَخَابِرَاتُ الدَّاخِلِيَّةُ أَمْ الْخَارِجِيَّةُ أَمْ الْجِنُّ...؟
فكلمة ﴿مِّن﴾: ابْتِدَائِيَّةٌ تَوْضِيحٌ لَنَا أَنَّ مَصْدَرَ الذِّكْرِ هُوَ رَبِّكُمْ، أَي: رَبَّنَا تعالى، فَاخْتَارَ وَصَفَ اللَّهِ تعالى بِالرَّبُوبِيَّةِ لِيَبِينَ لَنَا قَضِيَّةَ مَنْطِقِيَّةَ عَقْلَانِيَّةٍ، وَهِيَ أَنَّ رَبَّنَا تعالى الَّذِي رَبَّنَا صُورُنَا وَأَجْسَادُنَا هُوَ الَّذِي يَرِيدُ أَنْ يُرَبِّيَ عَقُولَنَا وَقُلُوبَنَا وَأَفْعَالَنَا بِالرَّسَالَةِ الَّتِي أَرْسَلَ بِهَا رَجُلًا مِنَّا.
وَقَدَّمَ كَلِمَةً: ﴿ذَكَرَ﴾ عَلَى كَلِمَةٍ: ﴿رَجُلٌ﴾ لِيَلْفِتْ نَظْرَهُمْ إِلَى أَنَّهُمْ يَجِبُ أَنْ يَفْكُرُوا بِالذِّكْرِ نَفْسَهُ قَبْلَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى مَنْ جَاءَ بِالذِّكْرِ؟
الكلمتان [٩-١٠]: ﴿عَلَى رَجُلٍ﴾:

لَا تَنْقُضِي عَجَائِبَ الْقُرْآنِ فِي بَيَانِهِ، فَلَنَنْتَقِلَ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ فَلِمَاذَا تَعَدَّى الْفِعْلُ (جاء) بِحَرْفِ الْجَرِّ (على)؟
الجواب: اعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْحَرْفَ يَفِيدُ أَرْبَعَةَ مَعَانِي:
المعنى الأول: أَنْ تَكُونَ (على) بِمَعْنَى: مَعَ كَمَا قَالَ الْفَرَاءُ^(٢)، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ مَصَاحِبٌ لِلرَّجُلِ الَّذِي جَاءَكُمْ.

المعنى الثاني: أَنْ تَكُونَ كَمَا قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ رحمته: عَلَى لِسَانِ رَجُلٍ مِّنْكُمْ كَمَا قَالَ: ﴿رَبَّنَا وَعَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٩٤]، أَي: عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِكَ^(٣).

(١) تفسير الرازي (٢٩٨/١٤).

(٢) ينظر: معاني القرآن، (٣٨٣/١).

(٣) غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ١٦٩)، وتفسير الرازي (٢٩٨/١٤).

المعنى الثالث: ضَمَّنَ قوله: ﴿جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ مَعْنَى نَزَلَ: أَي نَزَلَ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ، وَهَذَا مُخْتَارُ ابْنِ عَطِيَّةَ (١).

المعنى الرابع: حددت لنا كلمة (على) الجهة التي جاء منها الوحي، وأنها أعلى من الجهة التي وصلها الوحي؛ لأن على للاستعلاء، فكأن الوحي جاء من جهة عليا إلى هذا الرجل المختار للتبليغ (٢). وهذه المعاني كلها صحيحة.

وكلمة ﴿رجل﴾: توضح أن النبي المختار ينبغي أن يكون رجلاً؛ لأنه أقدر على تبليغ الرسالة.

الكلمة [١١]: ﴿مِّنكُمْ﴾ تُبَيِّنُنا هذه الصيغة المكونة من ثلاث كلمات بجنس الرجل المختار للنبوة، فيكون من قومه، ويكون من البشر لا من الملائكة ولا من الجن، فإذا كان من قومه كان ذلك ادعى لأن يستجيبوا له؛ لأنهم يعرفون تاريخه، ويعرفون أنه لم يكذب من قبل، بخلاف ما لو جاء رجل من خارج قومه، فإنهم سيحاربونه ويعادونه لعدم معرفتهم به.

فكأن نوحاً عليه السلام يقول لهم: أأصابكم حالة انفعالية نفسية عند رؤية مسألة واضحة؟ ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣].

التعجب إنما يكون في المسألة الغامضة أو غير المعتادة، فلماذا تتعجبون في مسألة منطقية عقلانية معتادة، وهي أن يأتي ذكر من الله ﷻ على رجل منكم؟ تعجبكم هذا غير حكيم ولا منطقي، فينبغي أن تداووا عقولكم.

بصيرة: من المنطق الحكيم أن الله ﷻ الذي خلق الخلق لا بد أن يرهم في حياتهم وعقولهم على أحسن هداية، كما رباهم في أجسادهم على أحسن صورة، وحتى يحدث ذلك فلا بد أن يرسل رسولاً من عنده يبين لهم أوامرهم، كما أن ملك كل بلاد وحاكم كل منطقة يرسل من يبلغ عنه نظام حكمه، والله ﷻ المثل الأعلى.

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/١٩٦).

وحتى يكون الرسول مبيئاً لا بد أن يكون رجلاً ليخاطب الناس، فهو جزء منهم لا أن يكون ملكاً، فإنهم قد يعترضون لو كان ملكاً لأسباب كثيرة، وهذه المعاني كلها عبرت عنها هذه الآية: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣].

فالقضايا المنطقية الحكيمة لا يتعجب منها، فلا يتعجب من أن يكون عند الإنسان يدان، ولا يتعجب من أن يتكلم الإنسان؛ لأن طبيعة خلقه كذلك، وكذلك لا يتعجب من أن يأتي ذكر من ربنا على رجل منا، فلماذا جعلتم ذلك غير منطقي، فتعجبتم منه؟ فينبغي أن تداووا مرضكم حتى تروا الشيء الصحيح صحيحاً والشيء الخاطئ خاطئاً.

وهذا يقودنا إلى القضايا التي تسلط عليها التعجب، والعطف في أول الكلمة: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ﴾: فعندما ننظر إلى همزة السؤال، وإلى الواو، وإلى كلمة (عجبتم) يكون المعنى: أكذبتم وعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم، وهو أمر لا يدعو للعجب بل ينبغي لكم أن تؤمنوا وتذعنوا؟ فدخلت همزة السؤال على واو العطف لينكر نوح عليه السلام عليهم التعجب من مسألة واضحة، فالعقل والمنطق يقتضي وجود النبوة، وأن يكون النبي رجلاً من البشر، لذا رد نوح عليه السلام على من زعم من قومه أنه في ضلال وعلى نفهم لنبوته بهذا السؤال الإنكاري، فقال: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [٦٣].

وانظر كيف يقنعهم بحكمة أن يختار الله تعالى رجلاً ليكون نبياً:

لماذا اختار السؤال الإنكاري فقال: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾؟ وبصيغة أخرى: لماذا لم يختار الأسلوب الخبري، فيقول: لا عجب في أن يجيء الذكر على رجل منكم؟

الجواب: لأن أسلوب السؤال أقوى، فقولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠] كان مُقَدِّمَةً لِيذكرنا تفاصيل الضلال الذي أحاط بنوح عليه السلام، ومنها كأنهم قالوا: كيف تدعي النبوة وأنت رجل منا؟

وهذا وضح الله ﷻ في آيات أخرى كما فصل في سورة المؤمنون: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

فقابلهم بالسؤال الإنكاري، والسؤال ألطف من الإنكار المباشر، وكونه إنكارياً أدعى لأن يحرك بعض المخاطبين عقولهم، ويراجعوا موقفهم، ويثير أنفسهم ليبحثوا عن إجابات فيروا أن ما قالوه كان خطأ عقلاً وعرفاً، وليكونوا أكثر إدراكاً وفهماً، ومحاولة لتحليل الأحداث كما ينبغي أن تحلل لا كما تعاند نفوسهم.

وهناك جملة أخرى: فقد جمع في رده عليهم بين الخبر الذي فيه النفي المباشر، فقال: ﴿يَقُولُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الاعراف: ٦١]، وبين السؤال، فقال: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ [الاعراف: ٦٣]، وذلك من القدرة التي آتاها الله ﷻ نوحاً ﷺ على إدارة الحوار والتأثير على المخاطبين بأقوى السبل التي تجعلهم يميلون نحو أحسن تغيير.

بصيرة: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ هذه الكلمات المباركات تؤكد عدم المنطقية والعقلانية في نفي النبوة.

القضايا التي أثارت تعجب قوم نوح ﷺ:

ما القضايا التي تعجّب منها قوم نوح ﷺ، فأنكر عليهم نوح ﷺ هذا التعجب، فقال: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ؟﴾

الجواب: إن هذا السؤال الاستنكاري متصل بثلاث قضايا، وهي:

الأولى: مجيء الذكر إلى الناس من ربهم.

الثانية: مجيء الذكر إلى واحدٍ يصير نبياً.

الثالثة: أن يكون النبي رجلاً من البشر من قومه.

هل تصدق أن هذه الكلمات المعدودات خبأت هذا الكثر المكثف من المعاني؟!

مدهش جداً هذا البيان القرآني الذي حوى هذا الكم المكثف من القضايا التي يعالجها في هذه الكلمات الموجزة.

وهذا الرد عليهم يدل على التفصيل الذي افتروه في مخاطبته، وينبئنا بأنهم فئات عدة تحمل قناعات مختلفة، وقد أثارت هذه الفئات ضد نوح عليه السلام مجموعة من الاعتراضات ليشوشوا عقول العامة:

الاعتراض الأول: بعضهم أنكر وجود الله ﷻ بالكلية، ولم يتخذ إلهًا، بل أله هواه، وعبد نفسه.. كيف عرفنا ذلك؟

ذكرنا سابقاً أن قوله: ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يحتمل أن يكون خاطب من أنكر وجود الله ﷻ أصلاً واكتفى بأن يعبد هواه، فيكون قوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ صفة توضيحية، أي: اعبدوا الله ﷻ فهو الإله الواحد الحق:

نَدْعُو جَهَارًا: لَا إِلَهَ سِوَى الَّذِي صَنَعَ الْوُجُودَ وَقَدَّرَ الْأُقْدَارَ^(١)

الاعتراض الثاني: بعضهم أنكر وجود الله ﷻ، وعبد آلهة أخرى دونه.. كيف عرفنا ذلك؟ يتبين لنا هذا المعنى أيضاً من قوله: ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ إذ يحتمل معنى ثانياً وهو أن يكون خاطب من أنكر وجود الله ﷻ أصلاً، واكتفى بعبادة أصنام دونه، فيكون قوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ صفة توضيحية، أي: اعبدوا الله ﷻ؛ فهو الإله الواحد الحق، وليس الأصنام التي اتخذتموها آلهة دونه.

الاعتراض الثالث: بعضهم أثبت وجود الله ﷻ، ولكنه مال إلى عبادة الأصنام دونه؛ لأن الله ﷻ ترك الخلق - في زعمهم -.. كيف عرفنا وجود هذه الفرقة؟

يبصرنا بذلك أيضاً قوله: ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ إذ يحتمل معنى ثالثاً وهو أن يكون خاطب من أثبت وجود الله ﷻ، واكتفى بعبادة أصنام دونه، فيكون قوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ صفة تأسيسية، أي: اعبدوا الله ﷻ؛ فهو الإله الواحد الحق، وليس الأصنام التي اتخذتموها آلهة دونه.

(١) البيت لمحمد إقبال. ينظر: محمد إقبال شاعر وفيلسوف الإسلام (ص: ١٦٢).

الاعتراض الرابع من فرقة أخرى: أثبتت وجود الله ﷻ، وأنه مستحق للعبادة، ولكن العبادة له لا تتحقق إلا بإشراك أصنامهم معه في العبادة.. كيف عرفنا وجود هذه الفرقة؟
بصّرنا بهذه الفرقة قوله: ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾؛ إذ يحتمل معنى رابعاً وهو أن يكون خاطب من أقر بوجود الله ﷻ، ولكنه أصر على أن طريق عبادته لا تتحقق إلا بعبادة الأصنام، فيكون قوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ صفة تأسيسية، أي: اعبدوا الله ﷻ؛ فهو الإله الواحد الحق، وليس الأصنام التي اتخذتموها آلهة دونه.

والفرقة الثالثة والرابعة هم الذين قالوا: ﴿لَا تَذَرْنِ الْهَتَكُمْ وَلَا تَذَرْنَ وَدًّا وَلَا سُوعَاً وَلَا يَعُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

الاعتراض الخامس: فئة منهم أنكروا أن يكون الله ﷻ أرسل رسولاً، وهم الذين تعجبوا من ذلك.
الاعتراض السادس: فئة منهم لم يمانعوا أن يرسل الله ﷻ رسولاً لكنهم تعجبوا أن يكون هذا الرسول رجلاً.

الاعتراض السابع: فئة منهم لم يمانعوا أن يرسل الله ﷻ رسولاً لكنهم تعجبوا أن يكون هذا الرسول رجلاً منهم.

هم كانوا يستنكرون أن تأتي الرسالة على بشرٍ أولاً، ويتعجبون أن تكون الرسالة -إن جاءت على بشر- أن تكون على رجل منهم، ويشيعون هذه الدعوى بينهم، فقد حكى الله ﷻ عنهم أنهم قالوا عن نوحٍ عليه السلام: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَكًا مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [٢٤] إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ [٢٥] [المؤمنون: ٢٤، ٢٥].

وهذه الدعوى يكثر ورودها على ألسنة الأقوام عندما يحاربون الأنبياء، فقد قال قوم نوحٍ عليه السلام وقوم هودٍ عليه السلام وقوم صالحٍ عليه السلام وغيرهم عنهم: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقال فرعون وقومه عن موسى عليه السلام: ﴿أَنْتُمْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدُونَ﴾ [١٧] [المؤمنون: ٤٧]، وقال قوم هودٍ عليه السلام: ﴿وَلَيْنِ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ [٢١] [المؤمنون: ٣٤].

وقال قوم النبي ﷺ ذلك عنه: ﴿أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۖ﴾ [الأنعام: ٩٤]، ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ﴾ [الفرقان: ٢١].

ولماذا ينكرون نوح ﷺ تعجبهم من أن يختار الله ﷻ رجلاً لتبليغ رسالته؟

الجواب:

أولاً: لأن العجيب المخالف للمنطق هو ألا يجيئهم ذكر من ربهم ﷻ على رجل منهم، فكيف يخلق الله ﷻ هذا الخلق ثم يتركه دون إرشاد أو بيان لحقيقة وجوده؟ وأنت إذا صنعت شيئاً تافهاً ثم لم تبين حكمة الصنع لشعرت بالحمق والضياع، ولا تُهمت بذلك.. إلهك الحق الذي أوجدك من العدم، وغذاً بالنعيم، وأكرمك بأن حبأك بكل تفصيل دقيق في خلقك الظاهر والباطن.. أفتظنه يصنع لك كل ذلك ثم يترك في تيهٍ دون أن يرشدك إلى سبب وجودك وإلى قصة الحياة حولك..! فما العجب في أن يأتيك منه ذكر يذكرك بسِرِّ وجودك: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؟! هل يترك الأب ابنه بغير إرشاد وتوجيه؟ بل يحفظه بتوجيهه وإرشاده. أفليس الله ﷻ أولى من الأب أن يحفظك بذكرٍ يوجهك ويرشدك للأمر الصالح لحياتك؟ فأين العجب من هذا.. بل هذا أمرٌ منطقي، بل غير المنطقي ألا يجيئك من الله ﷻ ذكرٌ يخبرك بسِرِّ وجودك، وألا تجيئك رسالة من الله ترشدك في حياتك وتبصرك بآخرتك؛ ولذلك قال نوح ﷺ: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ﴾، أي: أنتم مجانين حتى تتعجبوا؟ ثم قال: ﴿أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾.

ثانياً: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾؟

ولما كانت طبيعتكم أضعف من أن تكلم رب العالمين ومن أن تكلم الملائكة، ولأن الكلام المباشر لا يتناسب مع طبيعة الابتلاء بحرية الاختيار التي عندهم، كان لا بد أن يرسل ﷻ لكم رسولاً بهذا الذكر الذي يهديكم به.

ولكن ما طبيعة هذا الرسول؟ هل يكون ملكاً أم بشراً؟

يبين لهم نوح ﷺ أنه لا بد أن يأتي هذا الذكر من ربكم على رجل منكم، فهذه قضية عقلية منطقية سليمة.. لماذا؟

لأنَّ قوله عليه السلام: ﴿مِنْكُمْ﴾: عندما ننظر إليها نجد أنها تعني: من البشر ومن القوم الذين تعرفونهم.

فهل تتوقعون أن يأتي الذكر على غير بشري لينذركم...، كأن يأتي الذكر على جني أو ملك؟
فالجني لن تصدقوا له، والملك ستشكون فيه، ولا تملكون رؤيته، ولذا من الحكمة العقلية أن يأتي
الذكر على صاحب لكم تعرفونه، وتوقنون بصدقه.

فلماذا تتعجبون من ذلك؟

ولذا قال: ﴿ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾، ولماذا رجل من البشر، وليس ملكاً؟
حتى تستطيع تصديقه والفهم عنه، والافتداء به في أعماله.

ستقول: ولماذا لا يكون ملكاً؟

لأنه لو كان ملكاً لما مشى في الأرض مطمئناً أن يؤدي رسالته؛ إذ ربما يتخذ إليها.. أولم تر أن بعض
الأنبياء اتخذهم أقوامهم آلهة مع أنهم بشر، مثل عيسى عليه السلام؟! وتخيل أنه جاءهم ملك فإنهم
سيعبدونه وسيظنون أنه هو الإله، فإذا كانوا قد عبدوا البشر لأنه أتى ببعض المعجزات، فكيف إذا
جاءهم ملك؟!

إذا فمن الحكمة ومن العقل ألا يكون الرسول ملكاً، فلماذا تتعجبون أن يأتي الذكر على رجل
منكم؟

وأما ثالثاً: فإن ظهرت المنطقية في أن يجيئكم ذكر من ربكم، وأن يكون هذا الذكر على رجل منكم
أي: من البشر، فهل تعجبون أن يكون هذا الرجل منكم أي: من عشيرتكم التي تعرفونها، ورجالكم
الذين خبرتم صدقهم وأمانتهم؟

وقرّر الرازي رحمه الله هذا المعنى؛ إذ رأى أن قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ أي: تَعْرِفُونَ نَسَبَهُ، تعرفون حياته،
تعرفون خلقه، فهو منكم نَسَبًا وَذَلِكَ لِأَنَّ كَوْنَهُ مِنْهُمْ يُزِيلُ التَّعَجُّبَ لِأَنَّ الْمَرْءَ بِمَنْ هُوَ مِنْ جَنْسِهِ
أَعْرِفُ، وَبِطَهَارَةِ أَحْوَالِهِ أَعْلَمُ وَبِمَا يَقْتَضِي السُّكُونُ إِلَيْهِ أَبْصَرَ^(١).

(١) تفسير الرازي (١٤/٢٩٨).

كلمة ﴿مِّنْكُمْ﴾: يحتمل أن يراد بها من البشر، ويحتمل أن يراد بها من العشيرة والقراية وأهل الدار، والأصل إعمال المعنيين أي: رجل منكم من البشر، و﴿مِّنْكُمْ﴾ أي: من قرابتكم ممن تعرفونهم.

هذه المعاني كلها بصرنا بها قول نوح عليه السلام: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ..﴾ التي تسلطت على تلك القضايا كلها..، فانظر إلى الجهد الذي بذله نوح عليه السلام ليقنع قومه بصدق رسالته، وانظر كيف أوجزها الله تعالى في القرآن الكريم في هذه الكلمات المعدودات.

الآن: ألا تعجب من هذا الكم المتدفق من المعاني التي أفادها هذا التعبير البليغ: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنَّ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣].

لقد أظهر نوح عليه السلام تفكيرهم المريض، وأخبرهم أن مجيء ذكر من ربه على رجل منهم هو القضية العقلية المنطقية الحكيمة والمنطقية الممكن تحققها، وهي كذلك دليل على وجود إله، وعلى كون هذا الإله واحداً، وهي دليل أيضاً على أن هذا الإله رب العالمين يربهم في سائر أحوالهم وحياتهم.

وينظر ابن عاشور رحمه الله بإعجاب إلى هذه الكلمات الجوامع في رد نوح عليه السلام على المبطلين، فما جعلوه مُوجِبَ اسْتِيعَادٍ وَاسْتِحَالَةٍ هو مُوجِبُ الْقَبُولِ وَالْإِيمَانِ، فانظر إلى جوامع الكلم في إبطال دَعْوَى الْخَصْمِ وَالْإِسْتِدْلَالِ لِصِدْقِ دَعْوَى الْمُجَادِلِ، وهو يَتَنَزَّلُ مَنَزَلَةً سَنَدِ الْمَنَعِ فِي عِلْمِ الْجَدَلِ ^(١).

في قول نوح عليه السلام لقومه: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنَّ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ^(٣٦) يخبر نوح عليه السلام أن ذكراً من ربه تعالى جاءه، ثم يفصل ثلاثة أهداف لمجيء هذا الذِّكْر، فما هي؟

الجواب: يأتي تفصيل هذه الأهداف في الحقيقة الآتية:

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/١٩٦).

الحقيقة التاسعة: يُقنع نوح ﷺ قومه برسالته بذكر أعظم أهداف هذه الرسالة، وهي ثلاثة وردت في قوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٣٢).

قال الرازي رحمه الله: "وَهَذَا التَّرْتِيبُ فِي غَايَةِ الْحُسْنِ" (١)، فما وجه حسن هذا الترتيب؟ وكيف صور لنا هذا الترتيب المعنوي لهذه الجمل أن نوحاً ﷺ نبي مرسل من ربه؟

الجواب: لأن هذا الترتيب بهذه الكلمات أمرٌ مدهش في قوة بيانه، وعظمة فصاحته، وشدة الإقناع به، فأما الكلمات فهي من غرر جوامع الكلم، وبيان ذلك ما يأتي:

ذكر نوح ﷺ لقومه أن الضلالة لا يمكنها الالتصاق به فقال: ﴿يَقُومُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾، وبذلك تيقناً أنه لا تتطرق له المعاييب والمثالب والردائل، وهنا تتساءل: فما طبيعة دعوته وكلامه؟ فيخبرك بأنه رسول فيقول ﷺ: ﴿وَلَا كَيْفِي رَسُولٌ﴾، ولكنك ستقول: الرسل كثر ترسلهم جهات وأشخاص متعددون، وهنا يحدد لك مَنْ مُرْسَلُهُ الذي لا يمكن أن يشابهه أحد، فيقول: ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦٦).

فإذا عُلِمَ أنه رسول ثار سؤال جديد: ما طبيعة هذه الرسالة؟ وما عمل نوح ﷺ فيها؟ فيجيبك قبل أن تسأل وبعد أن تسأل: ﴿أَبْلِغْكُمْ رِسَالَتِي رَبِّي﴾، فلم آت لبناء مجدٍ شخصي ولا لأغراض ذاتية، ولا لجمع المال، وإنما لأبلغكم رسالات ربي.

بعد ذلك انظر إلى الترتيب:

هنا يأتي السؤال عن دوره البشري بجوار تبليغ الرسالة، ماذا سيفعل؟ وهل سيبلغ الرسالة؟ لكن هل سيكتفي بذلك ولن يتحرك تحركاً يجعل رسالته تصل كما ينبغي؟ فيجيبك نوح ﷺ، ويخبرك عن بلوغه أشد درجات الحرص البشري في إيصال قومه إلى أحسن حال، فيقول: ﴿وَأَنْصَحْ لَكُمْ﴾. وهنا يثور السؤال مجدداً عن الامتياز الذي يمتلكه نوح ﷺ دون سواه من قومه ليستمع الناس له، فيجيب على ذلك فيقول: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦٦)، وهذا بعض التفصيل الذي

(١) تفسير الرازي (١٤/٢٩٨).

نجدّه في قوله **الْعَلِيمُ**: ﴿رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾، هو رسول من رب العالمين، ومعنى ذلك أنه سيعلم من الله **عَلَمًا** ما لا يعلم غيره.

وهنا يثور سؤال آخر: وهل يمكن أن يكون الرسول بشرًا لا ملكًا؟ فيخبرهم أن المنطق يقتضي أن يكون الرسول رجلًا من البشر من قومه لا ملكًا، وأن غير المنطقي هو عكس ذلك، فيقول باستنكار: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾.

ثم أخبرهم عن أهم أهداف الرسالة إليهم، وأهم ثمار الاستماع إليها الاستجابة لها، وهي هذه الثلاثة: ﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٦٣).

الهدف الأول: ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ أي: ستكتسبون التحذير المبكر من أن تقعوا في أي مخاطر ممكنة أو متوقعة.

والإنذار: هو التنبيه المشفق والتحذير الشديد من خطر واقع أو متوقع، أي: إشفاق المنذر ومحبته واهتمامه بمصلحة المنذرين؛ لأنه لو لم يُنذِرهم أحد لوقعوا في هلكة أو هاوية أو نكبة أو مصيبة.

فهل هذه مصلحة للمنذر أم للمنذر؟

هذه مصلحة واضحة للمنذر، ويجب عليه أن يشكر من ينذره.

الهدف الثاني: ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾: فبعد أن أنذركم ستخذون الوقاية اللازمة لتحملوا أنفسكم من هذه الأخطار التي أنذركم منها، فالثمرة الثانية مترتبة على الأولى، أي: على الإنذار.

الهدف الثالث: نزول الرحمة عليكم: فهي هدف وثمره في نفس الوقت، وقد جاءت في موضعها مرتبةً على التقوى، إذ يستحق المتقي للمخاطر الدنيوية والأخروية أن ينال الحماية الإلهية التي تنزل له بالرحمة: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٦٣).

بصيرة: يَبْنُ نُوحٌ ﷺ الهدف من بعثة الرسول فَقَالَ: ﴿لِيُنْذِرَكُمْ﴾،

ثم حَدَّدَ الهدف من الإنذار، فقال: ﴿وَلِيَتَّقُوا﴾،

ثم وضع الهدف من التقوى، فَقَالَ: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ٣١.

وهذه الأهداف العظيمة تسهم في حماية البشرية من الشرور، وجلب الخيرات وتنميتها في الدنيا، والفوز بالرحمة في الآخرة، فكشف بذلك عن ضلال الملام من قومه حين اعترضوا على نبوته.

وهنا نعود للآية لنجد السؤال الإنكاري مسلطاً أيضاً على هذه المسألة في اختصارٍ مدهش، وإيجازٍ بديع: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾، فما وجه الإيجاز البديع في هذا الموضع؟

الجواب: كَأَنَّ نوحاً ﷺ يسألهم مستنكراً تعجبهم قائلاً لهم:

أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم، وهو ربكم الذي خلقكم فكيف يترككم دون ذكرٍ يرشدكم ويكون دليلاً لوجودكم؟ كيف يترككم دون أن يرسل إليكم من يهديكم إلى الحق، ومن يرشدكم إلى ممارسات الحياة النافعة والمفيدة لكم؟ أم عجبتم أن يجيء بهذا الذِّكر الذي من ربكم رجلٌ؟ أم عجبتم أن يكون هذا الرجل الذي جاء بالذِّكر من ربكم منكم أي: من البشر؟ أم عجبتم أن يكون هذا الرجل الذي جاء بالذِّكر منكم أي: من قبيلتكم وجنسكم؟ أليس هذا ادعى لأن تعرفوا صدقه وكذبه؟

أم عجبتم أن يهتم هذا الرجل الذي جاء من ربكم بأن يفيديكم هذه الفوائد الثلاث: أن ينذركم، وهناك تعلمون الأخطار المتوقعة، وتتعلمون كيف تتقونها، وإذا فعلتم ذلك دفعها الله ﷻ عنكم، ولعلكم ترحمون.

فبَيَّنَّ الجزء الأول من الآية مصدر الرسالة، وضرورتها: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾. وبَيَّنَّ الجزء الثاني طبيعة الرسول: ﴿عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾.

وبين الجزء الثالث ثلاثة أهدافٍ للرسالة: ﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١٣).
ثم قال الله ﷻ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ (الأعراف: ٦٤)، هنا نصل إلى الموقف النهائي والحاسم الذي اتخذه قوم نوح ﷺ من نوح ﷺ ودعوته وهو التكذيب، وهنا يأتي المشهد التاسع:
المشهد التاسع: الإصرار على التكذيب ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ (الأعراف: ٦٤)، ويصيرنا هذا المشهد الذي اختصر (٩٥٠) سنةً من دعوة نوح ﷺ أنه يجب أن يتوقع المصلحون عدم استجابة المستكبرين مهما بذلوا من جهود:

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: الفاء لإظهار الاتصال بين ما بعدها وما قبلها، والتقدير: كانت نتيجة جهود نوح ﷺ في إقناعهم بالإسلام والإيمان وترك الكفر والعصيان أن أصروا على تكذيبه، ولم يلتفتوا لحواره وحكمته وترغيبه، ولأنهم كذبوه من قبل، فيكون المراد هنا: استمروا على تكذيبه.
ويرونا موقع الفاء في قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ (الأعراف: ٦٤)، فنوح ﷺ لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، ولكن الله ﷻ قَدَّمَ للنتيجة النهائية لهذه المدة المتطاولة بالفاء التي تدل عادةً على التعقيب مع المباشرة وليس مع التراخي.

فما الحكمة من التعبير بالفاء، دون (ثم)؟

الجواب: الحكمة واضحة وهي: أن صدهم للحق وتكذيبهم لنوح ما كان بعد تراخٍ في الزمن وتفكيرهم فيما يدعوههم إليه وانتظار وتمهل بل كان موقفهم حاسماً وتكذيبهم فورياً دون انتظار أو تفكير، وهذا يؤكد شدة عنادهم وتكذيبهم، وعزمهم البالغ في الصد عن الحق.
وذكر قصة نوح عليه السلام بهذا الاختصار مع طول مدته يمكن أن يبصرنا بأن [٩٥٠] سنة مجرد ملح بصر. ذلك يعني ضرورة صبر الدعاة المصلحين على تكذيب قومهم وإيذاء الفاسقين، فقد قيل:
لَأَسْتَسْهِلَنَّ الصَّغْبَ أَوْ أُذْرِكَ الْمُنَى فَمَا انْقَادَتِ الْأَمَالُ إِلَّا لِصَابِرٍ^(١)

(١) البيت بلا نسبة. ينظر: أوضح المسالك (١٧٢/٤)، وشرح ابن عقيل (٣٤٦/٢)، وشرح قطر الندى (ص: ٦٩).

وقوله: (كَذَّبُوهُ)؛ أي: كذبه المملأ الكافرون الذين كان يحاورهم، وتكذيب المملأ يدفع أكثر أتباعهم وجمهور من يحضرهم إلى أن يكونوا مثلهم.

فَنُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بذل جهوداً كبيرة لزمان طويل يريد إصلاح الأرض بعد إفسادها، وبعد تسعمائة وخمسين سنة من الصبر والمصابرة في دعوة قومه كانت النتيجة التكذيب.

فليحذر الأتباع من أن ينقادوا لكبرائهم انقياداً أعمى، فقد جعل الله ﷻ لهم إرادة مستقلة، ويحذّر النبي ﷺ التابع من الانقياد الأعمى لقوى المملأ المتنفذة، فيقول: «وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ»، وذكر أولهم: «الضَّعِيفُ الَّذِي لَا زَبْرَ لَهُ»^(١)، الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لَا يَلْتَعُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا»^(٢).

وإذا كان قوم نوح كذبوه، فإن النفس تشتاق لمعرفة ما الذي حدث بعد التكذيب، فما الذي حدث؟

الجواب يأتي المشهد العاشر والأخير:

المشهد العاشر: ختام القصة، ونهاية مشاهد التدافع بين نوح عليه السلام والمملأ الكافرين من قومه: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤].

هذه الآية التي تذكر نهاية قصة نوح حوت ثلاثة أقباس، وتبصّرنا بنتيجتين، وسبب للنتيجة الثانية:

النتيجة الأولى: نجاة نوح عليه السلام ومن معه: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ [الأعراف: ٦٤]:

الكلمة [١]: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾:

الفاء في قوله: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾ تبصّرنا بأن إنجاء المصلحين مسألة وقتية قادمة لا محالة مهما بدا في الظاهر غير ذلك، ولكن هذا الإنجاء قد لا يتم لجميعهم؛ لأن الله ﷻ قرر أن أحوال الدنيا متغيرة،

(١) أي: لا عقل له يزره ويمنعه مما لا ينبغي، وقيل: هو الذي لا مال له فيتبع غيره مقابل المال.

(٢) مسلم (٦٣-٢٨٦٥).

فقال: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

فإن قلت: ما الحكمة في أن الله ﷻ اختار كلمة (أنجيناه) للتعبير عن حال نوح عليه السلام هنا دون غيرها من الكلمات؟

الجواب: لأنها الكلمة الأعظم التي تصور الواقع، فالإنجاء يتضمن دلالتين:
الأولى: أنه مأخوذ من النجوة، وهي المكان المرتفع، وذلك دال على ارتفاع حال الناجين.
الثانية: أنه يدل على فعل خفي وراء المكان المرتفع، ولذا يقال: ذهب فلان إلى نجوة من الأرض ليقضي أمراً سرّياً، فصورت هذه الكلمة خفاء فعل الله ﷻ في تخلص نوح عليه السلام ومن معه أمام أعين الناظرين حتى يحسب المستكبرون أنهم على الأرض قادرين، وعلى العالمين مسيطرون، وبالمصلحين متحكمون، تراهم في غفلتهم يسرحون ويمرحون ويقهقهون، وينتشون بما يصنعون، ويضحكون مما يفعلونه بالمؤمنين، ولا يزالون كذلك حتى يباغتهم القدر من حيث لا يشعرون، والله ﷻ يقول: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢].

وكما قال المعري^(١):

والبدرُ يكملُ، والمحاق ^(٢) مألُه	وكذا الأهلَةُ عَقْبُهَا الإبدارُ
إِزْمُ ذَرَاكَ، وَإِنْ لَقِيتَ خَصَاصَةً	فَاللَّيْثُ يَسْتُرُ حَالَهُ الإخدارُ
لم تَدْرِ نَاقَةُ صَالِحٍ، لَمَّا غَدَت	أَنَّ الرَّوَّاحَ يُحَمُّ فِيهِ قُدَارُ ^(٣)
هذي الشخوصُ، من الثُّرابِ، كَوَائِنُ	فالمرءُ، لولا أن يُحَسَّ، جِدَارُ

(١) هو: أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري (ت ٤٢٦ هـ): أحد أفراد الدهر، كان لغوياً ضريباً يُقارن بآبن سيده، وله تصانيف ضخمة، انقسم الناس فيه فرقتين: فممنهم من كَفَرَه لما ورد في ظاهر أشعاره من الزندقة، ومنهم من دافع عنه بوجود ما يدل على التوحيد الصريح والاعتقاد الصحيح في شعره. البلغة في تراجم أهل النحو واللغة (ص ٧٥-٧٧).

(٢) "المُحَاق": ثلاث ليالٍ من آخر الشهر، سميت بذلك لامحاق القمر فيها أو الشهر، ويتحول البدر الجميل فيها إلى هلال رقيق ضعيف أي: كذلك تتغير أحوال الحياة. ينظر: أدب الكتاب لابن قتيبة (ص: ١٨).

(٣) أي: قُدَار الذي عقر هذه الناقة لم تعلم به تلك الناقة، وهم لما عقروها كانوا يقهقهون، ولم يعلموا أن العذاب يوشك أن ينزل عليهم.

وَتَضُنُّ بِالشَّيْءِ الْقَلِيلِ، وَكُلُّ مَا تُعْطِي وَتَمْلِكُ، مَا لَهُ مَقْدَارٌ
وَيَقُولُ دَارِي، مَنْ يَقُولُ، وَأَعْبُدِي مَهْ! فَالْعَبِيدُ، لِرَبِّنَا، وَالْدَّارُ
يَا إِنْسَ! كَمْ يَرُدُّ، الْحَيَاةَ، مَعَاشِرُ وَيَكُونُ، مَنْ تَلْفٍ، لَهُمْ إِصْدَارُ
أَتَرُومُ مِنْ زَمَنِ وَفَاءٍ مُرْضِيًا إِنَّ الزَّمَانَ، كَأَهْلِهِ، غَدَارُ
تَقِفُونَ، وَالْفُلُكُ الْمُسَخَّرُ دَائِرُ وَتُقَدِّرُونَ، فَتَضْحَكُ الْأَقْدَارُ^(١)

الكلمة [٣-٢]: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾:

أي: والذين كانوا معه معية على الدين، ومصاحبة على الإيمان واليقين، فقد علمنا أن زوجته، وولداً من أولاده لم يكونا معه، فالمعية المقصودة هنا: المعية الإيمانية.

بصيرة: هاتان الكلمتان تطمئنان المصلحين بأن الإنجاء ليس خاصاً بالأنبياء، وبقيادات الأتقياء بل يشمل من محبوبهم، ومن كان معهم، ولم يقل: والمؤمنين معه، وإنما قال: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ ليشمل الإنجاء مَنْ صعدوا السفينة مع نوح عليه السلام من الحيوانات من كل زوجين اثنين. وتذكر بعض الروايات غير المؤكدة أن مجموع البشر المؤمنين بنوح عليه السلام كانوا ثلاثة عشر نفساً، فعن ابن إسحاق رحمه الله: "نوح، وبنوه الثلاثة سَامٌ وحامٌ ويافث، وأزواجهم، وستة أناسي ممن آمن به^(٢)، وقد قيل: هم بضعة وثمانون نفساً، ولكن لا يوجد عندنا ما يدل على صحة هذا التحديد^(٣)."

الكلمة: [٥-٤]: ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ أي: في السفينة المفلكة، وسميت بذلك؛ لأنها تفلكت عند صنعائها على هيئة بيضبة، والتفلك هو الاستدارة على هيئة من الهيئات الدائرية.

(١) الأبيات للمعري كما في "اللزوميات" له (٣٢٦/١).

(٢) تفسير الطبري (٥٠٢/١٢).

(٣) وقيل غير ذلك، قال محمد صديق خان: والصواب من القول في ذلك أن يقال كما قال تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (هود: ٤٠)، ولم يحد عدداً بمقدار، فلا ينبغي أن يجاوز في ذلك حد الله تعالى إذ لم يرد ذلك في كتاب ولا خبر صحيح عن رسول الله ﷺ. فتح البيان في مقاصد القرآن (١٨٢/٦).

وأصله من الدَّوْرَان، فكل مستدير فلك، ومنه: "فَلَكُ السَّمَاءِ"؛ لدوران النُّجُوم فيه، و"فَلَكُهُ الْمَغْزَلُ"...، وَسُمِّيَتِ السَّفِينَةُ فُلْكَاً لِأَنَّهَا تدور بالماء أسهل دور^(١).

وهنا يأتي سؤال: ما فائدة ذكر آلة النجاة في قوله جل ذكره: ﴿فِي الْفُلِّ﴾؟

الجواب: تحبوك هاتان الكلمتان ﴿فِي الْفُلِّ﴾ بأربع بصائر جلييلة:

أولها: أن الجار والمجرور ﴿فِي الْفُلِّ﴾ يتعلقان بكلمة ﴿مَعَهُ﴾، كأنه قيل: أنجيناها والذين استقروا معه في الفلك أو صحبوه في الفلك، ليكون التركيز في هذا التقدير على من صحبوه في الفلك، فلم يتخلفوا عنه.

وثانيها: يجوز أن تتعلق كلمة ﴿فِي الْفُلِّ﴾ بفعل الإنجاء، أي: أنجيناها في السفينة من الطوفان. **وثالثها:** إن هاتين الكلمتين من أهم ما تسمعه أذنك في الآية ﴿فِي الْفُلِّ﴾؛ فإن الفلك هي السفينة التي أمر الله ﷻ نوحاً عليه السلام أن يصنعها، فقال له: ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلَّ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا﴾ [هود: ٣٧]، وانظر كيف أمّن الله ﷻ له الحماية حال صناعتها؛ فإن المفسدين في الأرض كان يمكن ألا يكتفوا بالاستهزاء بصناعتها في مكانٍ ليس فيه بحر، كان يمكنهم أن يحطموها، ومهشموا كل جزء فيها في كل يوم يقوم فيه نوحٌ عليه السلام بالعمل حتى لا يتمكن نوح من صناعتها، ولكن الله ﷻ حمى نوحاً عليه السلام وفُلكه من أن يحدث لهم ذلك.

بل كان يمكن للمفسدين وهم الأكثر أن يمنعوهم من عملها وتشيدها وبنائها، لكن الله ﷻ أمّن له الحماية الغيبية ليصنعها، فقال: ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلَّ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا﴾، فبصّرنا كلمة: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ على حمايته وحماية فلكه أثناء صناعتها، وبصّرنا كلمة ﴿وَحْيُنَا﴾ على رعايته وتعليمه كيفية الصناعة.

ورابعها: بصيرة قرآنية عالية للمصلحين في الأرض ألا يتركوا بذلك الأسباب مهما كانت الموجة التي يواجهونها من الإرهاب، وأن يؤمنوا بالغيب القادم، فنوحٌ عليه السلام ومن معه لم يعرفوا متى يحدث

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٤/٤٥٢، ٤٥٣).

العذاب للقوى المفسدة، ولم يعرفوا هل تُبقي لهم هذه القوى أعمالهم صالحة أم يحطمونها، لكنهم مضوا فيما أمرهم ربهم، ولقد صدقهم الله ﷻ وعده.

بصيرة: ﴿فِي الْفُلْكِ﴾: تبصّرنا بأن المصلحين لا بد أن يكون لهم دور في حدوث النجاة؛ لأن الله ﷻ لما أنجاهم، لم يرفعهم إلى السماء، ولا جعلهم طيورًا، بل كان لهم دور بارز في عملية النجاة حينما صنعوا السفينة، واستمروا إلى اللحظة الأخيرة يعملون لإعداد وسيلة النجاة، وبعض الناس يقول: ندسحب من واقع الحياة، والله سبحانه وتعالى سيفرجها.

بصيرة: لا بد من مدافعة الباطل بالوسائل الممكنة والمتاحة، وبعد ذلك تأتي البركة الإلهية، وينزل العون الإلهي.

كانت تلك النتيجة الأولى، فما النتيجة الثانية التي أظهرها الله ﷻ في قوله: ﴿وَأَعْرِفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف: ٦٤]؟

الجواب:

النتيجة الثانية: هلاك المكذبين: قال الله ﷻ: ﴿وَأَعْرِفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أهلك الله ﷻ المفسدين بعدله وقدرته:

ندرك هذه النتيجة في ضوء هذه الكلمات الربانية:

الكلمة: [١]: ﴿وَأَعْرِفْنَا﴾:

الواو تصل النتيجة الثانية بالأولى، والسياق يدل على أن الأمرين وقعا معًا، ففي الوقت الذي أنجى الله ﷻ فيه نوحًا عليه السلام ومن معه، أغرق الذين كذبوا بآياته، وكلمة (أغرق) تصور لنا أن الله ﷻ غمرهم حتى هلكوا، و(نا) الدالة على العظمة تظهر عظمة القدرة الإلهية؛ إذ أرسل الله ﷻ عليهم الماء من الأرض والسماء، فصار أعظم أماكن أمانهم أعظم مواضع هلكتهم كما وضحت ذلك سورة القمر، فقال الله ﷻ: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۖ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۗ﴾ [القمر: ١١-١٢].

وتبصّرنا كلمة ﴿وَأَعْرِفْنَا﴾ بأن عقوبة هؤلاء المجرمين لم تكن بصورة معتادة، فلم يذهبوا إلى البحر وهناك أغرقوا حال كونهم فيه ساجدين، أو على الفلك سائرين، بل جاءهم البحر إلى مكانهم، فأخذهم وابتلعهم وهم ينظرون.

والإغراق هنا يكون فيه شيء من التعذيب أكثر من الإغراق المعتاد في البحر؛ فإن الإغراق المعتاد في البحر بضع لحظات ويموت الإنسان، أما هنا فإن موته يكون تدريجيًا حيث تلعب بهم الأمواج التي جاءت إليهم وهم آمنون: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢] حتى أفنتهم. فنجاة الصالحين استلزم فيها أن يصنعوا ما يقدرون عليه من صنع الفلك، والصعود فيه، وغرق المكذبين جاءهم وهم أشد ما يكونون أمتًا من الغرق.

الكلمات: [٢-٤]: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾:

فحدد الله ﷻ الذين أغرقهم عقوبة، وهم الذين كذبوا، وقد سبق أن قررت أن الأصل أن يقال: كَذَّبَ آياتنا لكن الباء تتكرر كثيرًا في الدخول على مثل هذا التركيب: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، والباء هنا تبصّرنا بأنهم بدلًا من أن يؤمنوا بآيات الله ﷻ، كذبوا بها أي: جعلوها أداة للتكذيب، وهذا تعبير بليغ.

فانظر كيف جعل آل فرعون الآيات التسع التي سلطها الله ﷻ عليهم دليلًا على أن موسى عليه السلام ساحر، ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرِ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٩]. وكذلك انظر إلى ملحدي عصرنا واستكبارهم، فأيات الله ﷻ في الآفاق وفي الأنفس لا تنحصر، لكنهم يصرون على إنكار وجود الله ﷻ، ف(ريتشارد داوكينز) يؤلف كتابه: "صانع الساعات الأعمى" عام ١٩٨٦م لينكر وجود إله مدبر وراء الخلق، ويزيد استكبارًا في كتابه: "وهم الإله" عام ٢٠٠٦م. و(ستيفن هوكنج) يفرّ من سؤال: مَنْ خلق الخلق إلى غباء مستكبر يزعم فيه أن القوانين تخلق الخلق.

فانظر كيف استخدموا آيات الله في الآفاق وفي الأنفس ضد أبرز ما يمكن استنباطه منها، وهو أنها تدل على الله ﷻ.

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهُ أَمْ كَيْفَ يَجْعَدُهُ الْجَاهِدُ؟!

ولله في كل تحريك وتسكينه أبداً شاهد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد^(١)

وهنا ستسأل: لماذا ختم الله ﷻ وصف هؤلاء المكذبين بقول: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤]؟

والجواب يظهر بتدبر وتأمل هذه الكلمات:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤]:

ختم الله ﷻ الآية بوصف المكذبين بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ ليبين للعالم عدله المطلق، فأخبر أنه أغرق المفسدين لسببين من أسباب الإفساد:

التكذيب بآيات الله ﷻ، والإصرار على العى أمام البينات التي جاءتهم من ربهم: ﴿وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾.

الكلمات: [٦-٥]: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ (إن) حرف تأكيد يؤكد حقيقة هؤلاء المغرقين، و﴿كَانُوا﴾ فعل ماضٍ يدل على رسوخهم في العى.

الكلمات: [٨-٧]: ﴿قَوْمًا عَمِينَ﴾ أي عموا عن الحق، ﴿عَمِينَ﴾ جمع مذكر سالم لـ"عَم"، وهو صفة على وزن فَعِلٍ مثلُ أَشْرٍ، مشتقة من (عَمِيَ) ^(١) يَعْمَى عَمًى، والعى عدم الرؤية بطبقة ساترة كثيفة مغطية، ومن ذلك العَمَى يقال في افتقاد البصر والبصيرة، لكن لا يقال إلا إذا ذهب البصر من العينين كليهما، ويقال في الأول: أَعْمَى، وفي الثاني: أَعْمَى وَعَمٍ، وعلى الأول قوله: ﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ [عبس: ٢]، ولم يعد افتقاد البصر في جنب افتقاد البصيرة عَمًى حتى قال الله ﷻ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

(١) الأبيات لأبي العتاهية، انظر ديوانه (١٢٢)، وذكرها الأصبهاني في محاضرات الأدباء (٣٩٨/٣) منسوبة للبيد.

(٢) مقاييس اللغة (٤/١٣٣)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٥٨٨)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/١٥١٩).

وَيُقَالُ: رَجُلٌ عَمٍ فِي الْبَصِيرَةِ، وَأَعْمَى فِي الْبَصَرِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ^ط فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤]، قَالَ زُهَيْرٌ:

وَأَعْلَمَ مَا فِي الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ وَلَكِنِّي عَنْ عِلْمِ مَا فِي عَدِ عَمِي^(١)

والفرق بين العمي والعمي: أن العمي يدل على عمى ثابت، والعمي على عمى حادث^(٢).

وكان المعنى: ﴿وَأَعْرِفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾، ولماذا كذبوا مع أنهم كانوا يبصرون؟ لأنهم كانوا عمي القلوب، قد عموا عن الرُّبِّيِّ الرَّاجِحِ النَّافِعِ، وعماهم كان ثَابِتًا رَاسِخًا، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحِ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]^(٣).

وَلَمَّا افْتَتِحَتِ الْقِصَّةُ بِنَسْبَتِهِمْ لَهُ إِلَى الضَّلَالِ بَاطِلًا، وهو ناشئٌ عَنْ عَمَى الْبَصِيرَةِ أَوِ الْبَصَرِ، نَاسَبَ أَنْ يُقَلَّبَ الْأَمْرُ عَلَيْهِمْ عَلَى وَجْهِ الْحَقِّ، فَقَالَ مُؤَكِّدًا لِإِنْكَارِهِمْ ذَلِكَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ أَي: لَمَّا جَبَلْتُهُمْ مِنَ الْعِوَجِ، ﴿قَوْمًا عَمِينَ﴾ أَي: مَطْبُوعِينَ فِي عَمَى الْقَلْبِ^(٤).

وتعجب ابن عاشور رحمته من حسن هذه الخاتمة الرفيعة في قصة نوح عليه السلام، إذ وصف الله تعالى

المكذِبِينَ بهذا الوصف ﴿عَمِينَ﴾، فقال:

«لأنَّ الله تعالى خَلَقَ الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، وَخَلَقَ لَهُ الْجِسَّ الظَّاهِرَ وَالْجِسَّ الْبَاطِنَ، فَاِنتَفَعَ بِاسْتِعْمَالِ بَعْضِ قَوَاهِ الْجِسِّيَّةِ فِي إِدْرَاكِ أَوَائِلِ الْعُلُومِ، وَلَكِنَّهُ اسْتَعْمَلَ بَعْضَ ذَلِكَ فِيَمَا جَلَبَ إِلَيْهِ الضُّرَّ وَالضَّلَالَ»^(٥)، فالله تعالى أعطاه الفؤاد ليفكر، وبدلاً من أن يفكر بالحق ويبحث عنه فكَّرَ في كيفية الابتعاد عن الحق وفكَّرَ كيف يصدُّ عنه، وكذلك بدلاً من أن يفكر في خالق الكون وكيف يطيعه، فكَّرَ في إنكار خالق الكون، وهذا من أعظم درجات الإنكار والجحود التي لا يكاد الإنسان أن يتصورها، فإن الطفل الذي ربَّاه والداه إذا كبر ف قيل له: من ربَّاك؟ فأنكر أن يكون لوالديه دور في تربيته تقززت منه النفس، فكيف ينكر مَنْ خلقه، وخلق له والديه؟!

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى (ص: ٥).

(٢) تفسير الزمخشري (١١٥/٢).

(٣) تفسير الرازي (٢٩٩/١٤).

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٤٣٢/٧).

(٥) التحرير والتنوير (٨-ب/١٩٩).

بين (الإنجاء والإغراق) فوائد وبصائر:

وهنا نسأل: عندما قال الله ﷻ: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف: ٦٤] لماذا قدم الإخبار بالإنجاء على الإخبار بالإغراق، مع أن مقتضى مقام العبرة تقديم الإخبار بإغراق المنكرين؟

الجواب:

يفترض أن يقال بحسب علمنا القاصر: أغرقنا الذين كذبوا بآيتنا، وأنجيننا؛ لأنه عندما جاء الغرق حصلت النجاة للمؤمنين، لكن الله ﷻ ذكر النجاة أولاً، لماذا؟

لأن الإنجاء للمؤمنين أعظم من الإهلاك للظالمين؛ إذ تملأ المؤمنين المسرات، وتحف بهم الأفراح، وهم يرون المجرمين قد تقلبت عليهم دولتهم، فإذا حدثت النجاة وبدأ المؤمنون يرون ما يحدث للظالمين عند ذلك يشعر المؤمنون بالسعادة والفرح بسبب النجاة، ثم يرون الظالمين في الغرق فيغضبون؛ لأن صدورهم شفيت من هؤلاء الذين كانوا يحادون الله ﷻ، ويعذبونهم ويسخرون منهم، وإنك لترى الظالمين حينها وهم يتميزون من الغيظ الشديد عندما يرون المؤمنين في عزة النجاة وهم في ذل التعذيب والغرق، ويصور لنا ذلك ابن عباسي رحمه الله في قصة قتل أبي جهل، فيقول: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: "فَأَذْرَكْتُهُ بِأَخْرِ رَمَقٍ، فَعَرَفْتُهُ، فَوَضَعْتُ رِجْلِي عَلَى عُنُقِهِ، قَالَ: وَقَدْ كَانَ ضَبَّتْ^(١) بِي مَرَّةً بِمَكَّةَ، فَأَذَانِي وَلَكَزَنِي، ثُمَّ قُلْتُ: هَلْ أَخْرَاكَ اللَّهُ يَا عَدُوَّ اللَّهِ؟ قَالَ: وَبِمَا أَخْرَانِي أَعْمَدُ مِنْ رَجُلٍ قَتَلْتُمُوهُ، أَخْبَرَنِي لِمَنِ الدَّبْرَةُ الْيَوْمَ؟ قَالَ: قُلْتُ: لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ^(٢)."

وقال أيضاً عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "انْتَهَيْتُ إِلَى أَبِي جَهْلٍ يَوْمَ بَدْرٍ وَقَدْ ضُرِبَتْ رِجْلُهُ، وَهُوَ صَرِيعٌ، وَهُوَ يَذُبُّ النَّاسَ عَنْهُ بِسَيْفٍ لَهُ، فَقُلْتُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَخْرَاكَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، فَقَالَ: هَلْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ قَتَلَهُ قَوْمُهُ؟

قَالَ رضي الله عنه: "فَجَعَلْتُ أَتَنَاوَلُهُ بِسَيْفٍ لِي غَيْرِ طَائِلٍ، فَأَصَبْتُ يَدَهُ، فَتَدَرَّ سَيْفُهُ، فَأَخَذْتُهُ فَضَرَبْتُهُ بِهِ، حَتَّى قَتَلْتُهُ، قَالَ: ثُمَّ خَرَجْتُ حَتَّى أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، كَأَنَّمَا أَقْلُ مِنَ الْأَرْضِ، فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: "اللَّهُ الَّذِي لَا

(١) ضببت الشيء وضبت عليه إذا قبض عليه وجبته. أساس البلاغة (١/ ٥٧٣).

(٢) معرفة الصحابة لأبي نعيم (١٧/ ١٥٧).

إِلَهَ إِلَّا هُوَ؟"، فَرَدَّدَهَا ثَلَاثًا، قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، قَالَ: فَحَرَجَ يَمْشِي مَعِي، حَتَّى قَامَ عَلَيْهِ، فَقَالَ ﷺ: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَخْرَاكَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، هَذَا كَانَ فِرْعَوْنُ هَذِهِ الْأُمَّةِ"^(١).

وعن محمد بن إسحاق: وزعم رجال من بني مخزوم أن ابن مسعود رضي الله عنه، كان يقول: "قال لي أبو جهل: لقد ارتقيت يا رُوَيْعِي الغنم مرتقى صعباً!"^(٢).

ولكنك تلاحظ أمراً مدهشاً في التعبير، فقد قال الله ﷻ: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، ثم قال: ﴿وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، فأضمر أولاً حين قال: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، ثم أظهر موضع الإضمار فقال: ﴿وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، فما الحكمة؟

الجواب: أرى أن الله ﷻ يقص لك القصص الحق بدقة مدهشة: فقد أبان لنا أن الملائكة المستكبرين هم الذين كذبوه، وبقي كثير من الجماهير والأتباع مترددين يريدون تصديقه، ويخافون من المستكبرين فيظهرون تكذيبه، ثم يطلب منهم المستكبرون الصدق على تكذيبه، فينفذون لهم ذلك حتى طبع على قلوبهم. فعمَّ الطوفان جميع المكذبين من الملائكة وغيرهم، فقلوه: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: الملائكة وتبعهم الأتباع، ثم قال: ﴿وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: الملائكة والأتباع، وبذلك اتضح لنا لماذا عبر بالضمير؛ لأن الضمير عائد إلى الملائكة، وأما قوله: ﴿وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، فدخل فيه الملائكة وغير الملائكة.

الآن بجرك علم الاتصال القرآني إلى المقارنة بين المثاني القرآنية في هذا الموضوع:

عندما نقارن بين هذه الآية: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف: ٦٤] وبين آية سورة يونس عليه السلام في وصف النتيجة نفسها: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَتَبَايَسَ وَالْمَن مَّعَهُ فِي الْفُلِّ وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَفَاءَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [يونس: ٧٣]، نرى تماثلاً تاماً مع اختلاف يسير، فلماذا هذا الاختلاف اليسير؟

(١) أحمد (٤٢٤٦)، وقال الهيثبي في مجمع الزوائد (٧٩/٦): «وَهُوَ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي عُبَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ وَلَمْ يَسْمَعْ مِنْهُ، وَتَبَعَهُ رِجَالُ أَحْمَدَ رِجَالُ الصَّحِيحِ»، وقال محققو المسند: إسناده ضعيف لانقطاعه، وأصل القصة في الصحيحين.

(٢) معرفة الصحابة لأبي نعيم (١٥٨/١٧).

الجواب: يظن الناظر أن هناك تماثلاً تاماً بين آيتي سورة الأعراف وسورة يونس **التَّائِيَّة**، لكننا نجد بعض الاختلاف، فلكمة: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ مشتركة، ولكن في سورة الأعراف: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾، وفي سورة يونس **التَّائِيَّة**: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ﴾، وبالمقارنة بين الفعلين: فقد عدَّى الفعل (نجى) هنا بهمزة التعدية: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾، وعدّاه في سورة يونس **التَّائِيَّة** بالتضعيف: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ﴾، وقد ذكر السيوطي رحمته في "جمع الجوامع في النحو" أن الهمزة والتضعيف والباء تتعاقب في معنى التعدية، فهي مترادفة، وشرح ذلك في "همع الهوامع"، فأخبر أنه لا يفهم منه تكرار ولا مبالغة ولا مصاحبة^(١)، ومال المحقق الكبير أبو زكريا يحيى الشاوي المتوفى سنة ١٠٩٦هـ صاحب كتاب "المحاكمات بين أبي حيان وابن عطية والزمخشري" إلى أن التضعيف يفيد المبالغة مع التعدية، والهمزة تفيد التعدية^(٢).

وبهذا التقرير يمكننا القول إن الله **عَزَّ وَجَلَّ** ذكر في الأعراف أنه الذي أنجى نوحاً **عليه السلام** ومن معه، وذكر في سورة يونس **التَّائِيَّة** أنه نجّاهم على سبيل المبالغة؛ إذ كانت السفينة كالملعوب بها تجري في موج كالجبال، وربما نلمح التدرج في التضعيف كما ترى في (علّم) بينما تلمح في الهمزة المرّة كما في (أعلّم).

ما السُّنة التي تظهرها هذه النهاية للقصة؟

الجواب: تظهر سنة الله **عَزَّ وَجَلَّ** القائمة التي لا تتبدل في نصره للمصلحين، وإهلاكه للمجرمين في الوقت الذي يريده، بعد [٩٥٠] عامًا وليس في الوقت الذي نريده نحن، إذ لا بد من ذكر هذه السنة وبهذا التقدير، فلا يقال: لماذا لم ينج المصلحون؟ لماذا لم يهلك الظالمون؟ لا بد من أن ينصر الله **عَزَّ وَجَلَّ** الصالحين، ولا بد من أن يهلك المجرمين، ولكن عندما يأتي الأجل والحين، كما قال جل ذكره: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ۝٥١ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۝٥٢﴾ [غافر: ٥١، ٥٢].

(١) همع الهوامع في شرح جمع الجوامع (١٢/٣).

(٢) ذكر الشاوي ذلك عند قوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُكَ﴾ [الأنعام: ٦٨] عند ذكر القراءتين، إذ نقل عن ابن عطية أن معنى القراءتين واحد، إلا أن التشديد أكثر مبالغة، ونقل تعقيب أبي حيان عليه بقوله: "وليس كما ذكر، لا فرق بين تضعيف التعدية والهمزة"، ثم قال الشاوي معقبًا: "والذي تقرر أن التضعيف يفيد المبالغة ولم يقولوا في (أكرم) أنه يفيد المبالغة". ينظر: المحرر الوجيز (٣٠٤/٢)، البحر المحيط في التفسير (٥٤٦/٤)، المحاكمات بين أبي حيان وابن عطية والزمخشري (٢٩٤/١).

ولكن الإهلاك للمجرمين لا يتحقق سريعاً.. ليس كما نشتهي ونتعجل... فانظر لنوح عليه السلام كيف لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً.

ولقد هلك قوم نوح عليه السلام وهم يتقلبون في البلاد، فأظهروا قوتهم، ورأوا أن يبيدهم مقاليد الأرض، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ رضي الله عنه: "أَنَّ أَهْلَ السَّهْلِ كَانَ قَدْ ضَاقَ بِهِمْ وَأَهْلُ الْجَبَلِ، حَتَّى مَا يَقْدِرُ أَهْلُ السَّهْلِ أَنْ يَرْتَقُوا إِلَى الْجَبَلِ، وَلَا أَهْلُ الْجَبَلِ أَنْ يَنْزِلُوا إِلَى أَهْلِ السَّهْلِ، فِي زَمَانِ نُوحٍ عليه السلام"^(١). أي: كثرت أعدادهم وصاروا من أعظم الأمم.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ رضي الله عنه: "مَا عَذَّبَ اللَّهُ قَوْمَ نُوحٍ عليه السلام إِلَّا وَالْأَرْضُ مَلَأَى بِهِمْ، وَلَيْسَ بُقْعَةٌ مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا وَلَهَا مَالِكٌ وَحَايِرٌ"^(٢).

وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ رضي الله عنه: بَلَغَنِي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: "أَنَّهُ نَجَا مَعَ نُوحٍ عليه السلام فِي السَّفِينَةِ ثَمَانُونَ رَجُلًا، أَحَدُهُمْ "جُرْهُم"، وَكَانَ لِسَانُهُ عَرَبِيًّا"^(٣).

قصة نوح عليه السلام بين هيمنة القرآن وتحريف التوراة المعاصرة:

كيف ظهر القرآن الكريم: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] في قصة

نوح عليه السلام ؟

الجواب: نجد فرقاً كبيراً في قصة نوح عليه السلام بين القرآن الكريم والتوراة المعاصرة المحرفة، فالقرآن المجيد يقص الحق الذي تقوم عليه السماء والأرض، بينما نرى التوراة المعاصرة تقص تفاصيل حكاية تبعد المرء عن فهم معنى الألوهية، لاحظ القرآن المجيد عندما يقص علينا قصة نوح عليه السلام وبقية الأنبياء لا بد أن يبدأ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ويخبرهم بمعنى الرسالة إلى البشرية، ومعنى العبرة في ذلك.

فأنت تجد التوراة تكرر أن نوحاً عليه السلام وَلَدَ: سَامًا، وَحَامًا، وَيَافَثَ، بينما لا يذكر القرآن الكريم هذا البعد التفصيلي العائلي، بل يذكر رسالة نوح، وهنا تفاجئك التوراة بعدم الإشارة إلى أي جهد فعله نوح عليه السلام لإصلاح البشرية، بل تكتفي بذكر صلاحه مع الله تعالى.

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١٥٠٦/٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٤٣٣/٣).

(٣) المرجع السابق نفسه.

ففي سفر التكوين ٦:

١١ وَفَسَدَتِ الْأَرْضُ أَمَامَ اللَّهِ، وَامْتَلَأَتِ الْأَرْضُ ظُلْمًا.

١٢ وَرَأَى اللَّهُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ قَدْ فَسَدَتْ، إِذْ كَانَ كُلُّ بَشَرٍ قَدْ أَفْسَدَ طَرِيقَهُ عَلَى الْأَرْضِ.

١٣ فَقَالَ اللَّهُ لِنُوحٍ: «نَهَايَهُ كُلِّ بَشَرٍ قَدْ أَتَتْ أَمَامِي، لِأَنَّ الْأَرْضَ ائْتَلَأَتْ ظُلْمًا مِنْهُمْ. فَهِيَ أَنَا مُهْلِكُهُمْ مَعَ الْأَرْضِ».

إذا التوراة لم تذكر جهود نوح عليه السلام في دعوة قومه، بعكس القرآن الكريم، فقد امتلأ بذكر جهود نوح عليه السلام في تذكيرهم بالإيمان، وعظمة الله تعالى وتوقيره جل مجده.

وهنا تذكر التوراة تفاصيل الفلك، حيث يخاطب نوح عليه السلام، فيقال له:

١٤ اصْنَعْ لِنَفْسِكَ فُلْكَاً مِنْ خَشَبِ جَفْرٍ. تَجْعَلُ الْفُلْكَ مَسَاكِينَ، وَتَطْلِيهِ مِنْ دَاخِلٍ وَمِنْ خَارِجٍ بِالْقَارِ.

١٥ وَهَكَذَا تَصْنَعُهُ: ثَلَاثَ مِئَةِ ذِرَاعٍ يَكُونُ طُولُ الْفُلْكَ، وَخَمْسِينَ ذِرَاعًا عَرْضُهُ، وَثَلَاثِينَ ذِرَاعًا ارْتِفَاعُهُ.

١٦ وَتَصْنَعُ كَوًّا لِلْفُلْكَ، وَتُكَمِّلُهُ إِلَى حَدِّ ذِرَاعٍ مِنْ فَوْقٍ. وَتَضَعُ بَابَ الْفُلْكَ فِي جَانِبِهِ. مَسَاكِينَ سُفْلِيَّةً وَمُتَوَسِّطَةً وَعُلْوِيَّةً تَجْعَلُهُ.

وهكذا في تفصيل يحتاجه النجار، هذا لا يوجد في القرآن الكريم هذا التفصيل لكن نعلم أن الله تعالى أمر نوحا عليه السلام بأن يصنع فلكا، وقلنا: بأن هذا يدل على بذل الأسباب، وقلنا: بأن هذه التفاصيل الدقيقة لا نرى أنه يوجد لها داع في مجال الهداية.

ولكننا لا نجد في القرآن الكريم سوى وصف السفينة بالفلك، وفي سورة القمر وصفها الله بأنها ﴿ذَاتِ الْوُجْهِ﴾ أَي: مِنَ الْخَشَبِ، ﴿وَدُسْرِ﴾ [القمر: ١٣]: أَي: مَسَامِيرَ تَرْبُطُ بَعْضَ الْخَشَبِ بِبَعْضٍ^(١)، ولم يزد لأن الهدف الأساسي هدف تربوي عقلي إيماني.

ألا يأخذك العجب عندما تسمع هذه التفاصيل، ولا تجد مثل قوله تعالى: ﴿يَقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ [الأعراف: ٥٩].

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٤٧٨/٧).

أي: كيف اهتم في التوراة على ما تُصنع منه الفلك ولم يركز على مبدأ وحدانية الله ﷻ، ولم يذكر جهود نوح عليه السلام في كيفية تعليم قومه وحدانية الله ﷻ أو الرسالة الصحيحة. وترى أن التوراة لم تذكر المؤمنين ممن نجا مع نوح عليه السلام كما ذكرهم القرآن الكريم، بل ذكرت أن الطوفان سيملك كل الأرض، وأما القرآن الكريم فذكر إغراق الظالمين، ولا يوجد عندنا دليل واضح على عموم الطوفان للأرض جميعها.

فاسمع إلى سفر التكوين: ٦

١٧ فَهَآ أَنَا آتٍ بِطُوفَانٍ الْمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ لِأَهْلِكَ كُلِّ جَسَدٍ فِيهِ رُوحٌ حَيَاةٍ مِنْ تَحْتِ السَّمَاءِ. كُلُّ مَا فِي الْأَرْضِ يَمُوتُ.

١٨ وَلَكِنْ أَقِيمْ عَهْدِي مَعَكَ، فَتَدْخُلُ الْفُلُكَ أَنْتَ وَبَنُوكَ وَامْرَأَتُكَ وَنِسَاءُ بَنِيكَ مَعَكَ.
١٩ وَمِنْ كُلِّ حَيٍّ مِنْ كُلِّ ذِي جَسَدٍ اثْنَيْنِ مِنْ كُلِّ تَدْخُلُ إِلَى الْفُلِكِ لاسْتَبْقَائِهَا مَعَكَ. تَكُونُ ذَكَرًا وَأُنْثَى.
ومن الغريب ذكر امرأته ضمن الناجين، فإن إشارة القرآن الكريم تبصّرنا أنها كانت من الخائنين، ولا تعلمنا بمصيرها، والمتوقع أنها كانت مثل الابن الكافر الذي عصى أباه، فهل هلكت مع الهالكين؟ هذا الذي يظهر، وإن كان ليس صريحًا، وقد صرح الله ﷻ في القرآن الكريم بهلاك امرأة لوط، ولكن التوراة هنا تشير إلى نجاة امرأة نوح عليه السلام دون ذكر كفرها، وهذا مما صححه القرآن الكريم مهيّمًا على البيان التوراتي الذي يظهر أن التحريف طرأ عليه.

إذا اتضحت الآن العلاقة بين الكتاب المحرف - ما يسمى بالتوراة المعاصرة - وبين القرآن الكريم في ذكر تفاصيل هذه القصة، وذكر تفاصيل هذه القصة يدل على أن محمدًا ﷺ ما استقى قصصًا من بني إسرائيل، لأنه ذكر تفاصيل كثيرة لا توجد عندهم، وخالفهم في أشياء كثيرة ذكروها هم. هذا يدل على أنه تنزيل من عزيز حميد.

وانظر لفرق آخر عجيب: هذه الخاتمة القرآنية العظيمة التي توضح سنة إلهية مستمرة:

﴿وَأَعْرِفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤].

نجد بدلًا منها في (سفر التكوين) تركيزًا شديدًا على لعنة كنعان الذي سيجيء من نسل حام بن نوح، لأنهم زعموا في التوراة المعاصرة أن نوحًا عليه السلام شرب الخمر وسكر حتى بدت عورته، ورآه ابنه حام، فأخبر أخويه، فرجع أخواه إلى الخلف وسترا أباهما، بينما لم يفعل ذلك الثالث.

واسمع لهذه الأباطيل في سفر التكوين:٩

٢٤ فَلَمَّا اسْتَبَقَظَ نُوحٌ مِنْ خَمْرِهِ، عَلِمَ مَا فَعَلَ بِهِ ابْنُهُ الصَّغِيرُ.

٢٥ فَقَالَ: «مَلْعُونٌ كَنْعَانُ! عَبْدُ الْعَبِيدِ يَكُونُ لِاخْوَتِهِ».

ونحن ننزه الأنبياء عن ذلك، فكنعان غير موجود، والموجودون ثلاثة: حام، سام، ويافت، وأحد هؤلاء الثلاثة هو الذي مات كما يزعمون لما نظر إلى عورة أبيه، فلماذا يلعن أبوه ابن ابنه الذي هو كنعان، وهنا فقط تشعر بأن الصهاينة المعاصرين حاولوا أن يجعلوا التوراة تعبيرًا عن حقيقتهم العنصرية.

٢٦ وَقَالَ: «مُبَارَكُ الرَّبِّ إِلَهُ سَامٍ. وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ.

وكل ذلك ليستبيحوا الجرائم التي يصنعونها في فلسطين، ثم يكرر فيقول:

٢٧ لِيَفْتَحِ اللَّهُ لِيَاْفَتْ فَيَسْكُنَ فِي مَسَاكِينِ سَامٍ، وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ».

فهذه المرة الثالثة يكرر فيها أن كنعان عبدٌ لإخوته.

فصارت التوراة المعاصرة عندها عقدة يمكن أن تسميها عقدة: كنعان الذي لا ذنب له مما حصل له إن كان حصل ذلك من نوح عليه السلام. وتصور ذلك! لم تظهر معصية بدرت من حام، فهو أخبر عما رأى، والمعصية كانت ممن سكر، وحاشا لنوح عليه السلام أن يعصي ربه جل جلاله، وهو من الأنبياء أولي العزم، فما علاقة كنعان بذلك كله؟!

والعجيب أن التوراة المعاصرة تذكر أنه ولد لحام أربعة: كُوشٌ وَمِصْرَايِيمُ وَقُوطٌ وَكَنْعَانُ.

فلعن نوح عليه السلام كنعان فقط وحده على ذنب لم يقترفه، فما هذه التخريفات والتحريفات؟!

بينما تجد القرآن الكريم يبين البر والصلاح الذي كان عليه نوح عليه السلام، ثم ترى التركيز على أن الظالمين يستحقون ما حدث لهم: ﴿وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤].

ثم ينقلنا الله جل جلاله إلى قصة جديدة من قصص الأنبياء العظماء، وهي قصة هود عليه السلام، فيقول:

﴿وَالِىَ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥ -

١٧٢]، فلماذا ينقلنا الله جل جلاله إلى هذه القصة وفق هذا الترتيب؟



الجواب: لاحظنا أن الله ﷻ بدأ قصة نوح عليه السلام دون واو، فقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وهنا بدأ قصة هود عليه السلام بالواو، وهذا يعني: أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين القصتين، وعند التأمل نجد أن قصة عاد تمثل العهد البشري الثاني ضمن العهود القديمة للإنسانية.

الدورة الثانية: حضارة دولة عاد

القيادة الثانية للذرية الأدمية (هود عليه السلام) في مواجهة الإفساد في الأرض [الأعراف: ٦٥-٧٢]



الدورة الثانية: حضارة دولة عاد

وفيها مثل هود عليه السلام القيادة الثانية للذرية الادمية في مواجهة الفساد في الارض

[الأعراف: ٦٥-٧٢]

آيات العهد: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقُومُوا لِعِبَادَةِ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَقُومُوا لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أَبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً ۖ فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانْتَضِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف: ٦٥-٧٢].

وقد تسأل: ما المشاهد التي تبصرنا به آيات هذا العهد؟

الجواب: في هذا العهد تبصرنا الآيات بثمانية مشاهد:

المشهد الأول: أرسل الله ﷻ القيادة الثانية لإصلاح الأرض، وتمثلت في هود عليه السلام الذي أرسله الله ﷻ إلى أمة كانت تجمعهم تسمية معروفة هي: "عاد"، وبيصّرنا بذلك قوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥]

هذه الكلمات الأربع توضح لنا: المرسل، وهو الله ﷻ، والمرسل إليه، وهم أمة عاد، والمرسل، وهو نبي الله هود عليه السلام، فلنبصر الحياة من بصائرنا:

الكلمة: [١]: ﴿وَإِلَىٰ﴾: الواو تظهر لنا الاتصال القرآني بين هذا العهد والعهد الذي قبله، وبيصّرنا ذلك بأن هذا العهد يمثل أهم المفاصل التاريخية في حياة البشرية بعد عهد نوح عليه السلام، فإن قلت: لم يمثل ذكر عهد عادٍ إعجازاً قرآنياً متميزاً؟

الجواب: لأن أهل الكتاب يُعرضون كلَّ الإعراض عن ذكر هذا العهد، ولا يوردونه، وبعضهم يشكك فيه.

"وانفرد القرآن الكريم بذكر عاد، ونبيهم هود عليه السلام، فجاء ذكرهم في كثير من سور القرآن الكريم، بل إن هناك سورةً كاملةً تسمى سورة "هود"، كما أن هناك في القرآن الكريم ما يشير إلى أن هناك عادًا الأولى، وعادًا الثانية"^(١).

ربما تتساءل: ما الذي يدلنا على أن أهل الكتاب يعرفون عهد عادٍ وعهد ثمود، ولكنهم يعرضون عن ذكر ذلك صَفْحًا^(٢)، والنبي ﷺ هو الذي أظهر هذين العهدين بما أنزل الله عليه من هذه الآيات وأمثالها؟

الجواب: ذكر الله ﷻ ما يشير إلى معرفة المصريين وبني إسرائيل لعهد عاد وثمود، فقد قال الله ﷻ عن الذي يكتنم إيمانه من آل فرعون: ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ۖ مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ۖ﴾ [غافر: ٣٠، ٣١].

وهذا يبصِّرنا بأن المصريين كانوا يعرفون هذين العهدين: عهد عاد، وعهد ثمود. وكذلك وجدنا موسى عليه السلام يذكر هذين العهدين، فقد قال الله ﷻ عن موسى عليه السلام: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩].
فالواو في قوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾: تظهر العطف، إما عطف القصة على القصة، وإما عطف المفرد على المفرد^(٣)، أي: على قوله: ﴿نُوحًا﴾، وكلمة: ﴿إِلَى﴾، فهي تصور لنا جهة وصول الإرسال، أي: لقد أرسلنا نوحًا إلى قومه، وأرسلنا إلى عادٍ أخاهم هودًا، فتكون الواو نائبة عَنِ الْعَامِلِ وَهُوَ ﴿أَرْسَلْنَا﴾، فنصب "هودًا"، لأنه معطوف على "نوح" ﷺ.

(١) دراسات في تاريخ العرب القديم (ص: ١٤٥-١٤٦).

(٢) قال الجوهري: "وقد صَرِّبَتْ عَنْهُ صَفْحًا، إِذَا عَرَضَتْ عَنْهُ وَتَرَكْتَهُ". الصحاح (١/ ٣٨٣).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (٨-ب/ ٢٠٠).

بصيرة: الواو في قوله: ﴿وَالِى عَادٍ﴾: تحدّثنا كيف تمضي عجلة التاريخ، وتتعاقب الأجيال، وتصحبهم رحمت الله ﷻ، فيرسل إليهم رسولاً لإنقاذهم من الفساد الذي يعيشون فيه.

ونلاحظ هنا أن الله ﷻ قدم ذكر المرسل إليهم على الرسول مع أنه أشرف منهم في حاله وقُربه من ربه -تعالى جدّه- فقال: ﴿وَالِى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ بينما لم نرد ذلك في قصة نوح ﷺ حيث جاءت على الترتيب الطبيعي والنحوي: فقدم ذكر الرسول على المرسل إليهم، فقال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: ٥٩]، فما الحكمة من هذا الاختلاف في التعبير عنهما؟

الجواب:

أولاً: يحتمل أن الاختلاف في الحكاية عنهما كان بسبب أن نوحًا ﷺ كان أول رسول إلى الأرض بعد آدم ﷺ، كما أنه من أولى العزم، فله محله العالي بين الرسل، واستحق الذكر أولاً، والاهتمام مُنصَّبٌ عليه أكثر من الشأن المتعلق بقومه، ولأنه عاش في قومه زمناً طويلاً مدهشاً، فلبث فيهم ألفَ سنة إلا خمسين عاماً مجتهداً صابراً، كما أن نجاته وقعت بأسبابٍ طُلب منه عملها؛ إذ أمره الله ﷻ أن يصنع الفلك ففعل، وأما هود ﷺ فقد كان من الاجتهاد بالمحل الأسى لكن مدة بقائه لم تصل إلى مدة بقاء نوح ﷺ، ثم هو مضى على سُنّة نبيّ قبله بخلاف نوح ﷺ.

ثانياً: في قصة هود ﷺ قدّم حرف الجر ومجروره: ﴿وَالِى عَادٍ﴾ عَلَى الْمُفْعُولِ الْأَصْلِيِّ، وهو ﴿هُودًا﴾ ﷻ ليناسب ذلك الإيجاز بالإضمار في الوقت ذاته، فهذه علة لفظية، وهناك علة معنوية هي التركيز على القبيلة المرسل إليها، وهم عاد، فعاد كان لهم شأنٌ أعلى من قوم نوح ﷺ في جبروتهم وطغيانهم ومناحي الحضارة عندهم، فكانوا أصحاب قوة جسدية لم تعرف لغيرهم، وأصحاب بناء وتقدّم مدنيّ لم يُسَبِّقوا إليه، فقد قال لهم هود ﷺ: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٣٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴿١٣٩﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الشعراء: ١٢٨ - ١٣٠]، فكان الاهتمام مُنصَّباً على ذكرهم.

الكلمة: [٢]: ﴿عَادٍ﴾ اسم أمة عظيمة من الأمم القديمة في تاريخ الإنسانية القديم، وكانت هذه الأمة من ذراري نوح عليه السلام والذين نجوا معه في السفينة، فأبأؤهم كانوا على الإسلام يعبدون الله تعالى وحده ما لهم من إله غيره، فطال عليهم الأمد، وتفرقوا في الأرض، ولعب الشيطان بهم، وقادهم بواسطة شهواتهم -مثل شهوة الملك وشهوات المتاع- وفق الهوى لا وفق شريعة الله تعالى، ومع تعاقب الزمان، وصبر الشيطان على إضلالهم وعدم حذرهم وقعوا في الشرك، وصار الشرك نظاماً متبعاً يظنونه الدين الذي نُقل عنهم منذ آدم عليه السلام، فالاحتجاج بالتقاليد وما كان عليه الآباء لا يكون دليلاً قاطعاً حتى نتأكد ما الذي كان عليه الآباء على الحقيقة: أهو هدى أم ضلال؟

وكانت أمة عاد أمة عظيمة مِنَ الْعَرَبِ الْعَارِيَةِ الْبَائِدَةِ، وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ كَانُوا عَشَرَ قَبَائِلَ، وَقِيلَ: ثَلَاثَ عَشْرَةَ قَبِيلَةً، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَادِ بْنِ عُوصٍ، وَعُوصٌ هُوَ ابْنُ إِرَمَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ^(١). وكل هذا لا يوجد دليل حقيقي عليه، وأنا به متشكك، فإن تغيير عقائد الأجيال يحتاج إلى ما هو أكثر من ذلك كأن تمر أربعة أجيال على الأقل ليحصل التغيير.

وذكر الربيع بن خثيم رحمه الله كثرة عاد وعظمة ملكها، فقال: "كَانَتْ عَادٌ مَا بَيْنَ الْيَمَنِ إِلَى الشَّامِ مِثْلَ الذَّرِّ"^(٢)، وكانت مملكتهم ذات حضارة قوية من نواحٍ متعددة، فامتدت على عرض جنوب الجزيرة العربية من اليمن إلى عُمان، ومن اليمن إلى الشام، وكانت ذات جنات وأنهار كما قال الله تعالى عنها حاكياً كلام هود عليه السلام لقومه: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾ [الشعراء: ١٣٢ - ١٣٤].

الكلمة: [٣]: ﴿أَخَاهُمْ﴾: التقدير: وأرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً، فالنصب بسبب العطف على منصوب كلمة: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ في قصة نوح عليه السلام، وهذه الكلمة ثرية بمعانيها وبصائرها، فما أصل معناها؟

(١) ينظر: سيرة ابن هشام (٩/١)، التيجان في ملوك جمير (ص: ٣٣٨)، المعارف لابن قتيبة (٢٨/١).

(٢) الزهد لأحمد بن حنبل (١٩٢٦)، تفسير ابن أبي حاتم (٢٧٩٢/٨).

الجواب: أخ^(١) أصلها أَخَوٌ، وهو: المرتبط بآخر في الولادة من الطرفين، أو من أحدهما أو من الرضاع.

وهذا الارتباط العميق صار مرتكزاً وعلّة لوصف كلّ من ارتبط بغيره بوصف الأخوة؛ مثل الأصدقاء والأصحاب المرتبطين بأخوة في الدين أو العمل أو الأهداف كما في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]، أي: في الدين، وقوله: ﴿إِنَّ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ﴾ [الإسراء: ٢٧]، أي: في العمل المشين، وقوله: ﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ [ق: ١٣] أي: في المكان والوطن؛ لأن لوطاً عليه السلام جاءهم من العراق فيما يظهر.

ورأى الدكتور جبل رحمه الله أن الكلمة مشتقة من الأخيَّة -كهديّة- وتُمدُّ هَمْزُهَا (الأخيَّة)، وكفَرِحَة (الأخيَّة)، وهي أن يُدْفَنَ طَرَفَا قطعة من الحبل في الأرض وفيه عُصَيَّةٌ أو حُجَيْرٌ، ويَظْهَرُ منه عُرْوَةٌ تشد إليه الدابة، تستعمل في الرمل بديلاً للأوتاد التي لا تثبت فيه، ومن ذلك جاء الرباط بين الأخ وأخيه^(٢).

ويظهر لي أن الرباط بين الأخ وأخيه هو الأصل، وأن تسمية الأشياء قيست عليها بعد ذلك، فالأخوان مرتبطان بخروج كلّ منهما من نَفْسِ الصلب أو البطن التي خرج منها الآخر أو منهما معاً. ويستعار لفظ "أخ" في كلّ مشارك لغيره في القبيلة، أو في الدِّين، أو في صنعة، أو في معاملة أو في مودّة، أو في الوطن، وفي غير ذلك من المناسبات، ومن ذلك ما رواه زياد بن الحارث الصَّدَائِي رحمه الله قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أُؤَدِّنَ في صلاة الفجر، فأَدَنْتُ، فأَرَادَ بلالٌ أن يُقِيمَ، فقال رسول الله ﷺ: «إن أخوا صُدَاءٍ قد أدَّن، ومن أدَّن فهو يُقِيم»^(٣).

(١) مقاييس اللغة (١٠/ ١)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٦٨)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٥١٧/١).

(٢) المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، د.محمد حسن جبل، ص ٥١٧.

(٣) الترمذي (١٩٩)، وضعفه الألباني كما في ضعيف الجامع الصغير: (١٣٧٧)، وقوله: (أخا صداء) أي: الذي هو من قبيلة صُدَاء، وهو حيٌّ من اليَمَن، سماه "أخاً": لكونه منهم، تقول العرب: يا أخا بني تميم يريدون يا واحداً منهم. ينظر: فيض القدير، للمناوي، (٤١٨/٢)، ومنه قول فُريط بن أنيف العنبري كما في شرح ديوان الحماسة، للتبريزي (ص: ٥):

لَا يَسْأَلُونَ أَحَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ *** فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانَا

البصائر الدعوية المستنبطة من معنى كلمة: ﴿أَخَاهُمْ﴾:

بعد أن عرفنا أصل معنى: (أخ) فما البصائر الدعوية العظيمة التي تمدنا بها هذه الكلمة بناءً على أصل معناها؟

الجواب:

بصيرة ١: ﴿أَخَاهُمْ﴾ أي: ابن قبيلتهم ومجتمعهم، فتبصّرنا بأنه ينبغي أن نركز الجهود الدعوية ليكون المصلح واحداً من المجتمع الذي يُراد إصلاحه:

فلا نركز على هجرة واحدٍ غريب من خارج المجتمع الذي يراد إصلاحه، بل يكون المهاجر مساعداً لابن البلد، فلكلمة: ﴿أَخَاهُمْ﴾ تبصّرنا بأنه كان منهم نسباً، ومكاناً، وهذا يعينه على إثبات مصداقيته، وعلى إحداث التأثير في قومه، ويعلمنا الله ﷻ هذه الاستراتيجية المهمة في تغيير المجتمعات إلى الخير، فيقول: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، لاحظ كلمة ﴿قَوْمَهُمْ﴾، وقوله: ﴿إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾.

ولكن وأسفاه! الذي طبق هذه الاستراتيجية أكبر مجرمي العصور كلها، وهم الدول التي احتلت غيرها، وخاصة البلدان المسلمة، فأنشؤوا أجيالاً قيادية في بلدان المسلمين تتبعهم، وتسهر على مصالحهم، وتمتص خيرات بلدان المسلمين لصالح المحتلين دون أن يكلف ذلك المحتل عناء الاحتلال العسكري المباشر.

فيجب أن يعمل الصالحون على إيجاد دعاة من القوم أنفسهم الذين يريدون أن يصل إليهم النور والخير، وأحياناً قد تتخلف هذه الفكرة عند الحاجة كما في قصة لوط عليه السلام: فالذي يظهر أنه لم يكن من أصل القوم الذين أرسل إليهم، وإن وصف بأنه أخ لهم.

بصيرة ٢: كلمة: ﴿أَخَاهُمْ﴾ تبصّرنا بأنه واحدٌ منهم، فيكون أكثر تأثيراً عليهم من غيره: فهو ينتهي إليهم في الأرض والنسب، صَحِبَهُمْ وَعَرَفَهُمْ، وَصَحَّبُوهُ وَعَرَفُوهُ، فكان ذلك أدعى لأن يدرك كيف يخاطبهم، ويؤثر عليهم، وكان ذلك أحرى أن يتبعوه، فهم يعرفون أنه ليس بكاذب ولا متقول؛ فقد

عاشروه وعایشوه، وفيه ذلك لأداء رسالته على الوجه الأكمل؛ إذ هو يعرف القوم، ويعلم واقعهم، وتفصيل حياتهم، ولغتهم.

الكلمة: [٤]: ﴿هُودًا﴾: حددت هذه الكلمة الرسول العظيم الذي أرسله الله ﷺ إلى أمة عاد. وقد زعموا أنه هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح^(١)، وعندي نظر في سلسلة الأنساب؛ لأنها ليست ثابتة في نصوص مقبولة، بل يأخذونها من التوراة المعاصرة وفيها خبط كثير، وأنت تلحظ هنا أنهم نسبوا هودًا عليه السلام، فلم يجعلوه يمر بعاد، مع أن قول ربنا: ﴿أَخَاهُمْ﴾ يرجح أن يكون نسبه راجعًا إلى عاد، كما أنه يحتمل عندي أن الأنساب كانت أطول من ذلك، ويحتمل صحة شيء مما قالوه لطول أعمار المتقدمين.

وقد نقلت بعض الروايات التي لا تستبين صحتها هنا: أن أبا هود عليه السلام كان أول من تكلم بالعربية، وذكروا أنه ولد ليهود عليه السلام أربعة: قحطان أبو اليمن، ومفحط، وقاحط، وقالغ، فهو أبو مضر^(٢)، ولكننا نعلم أمورًا متيقنة عن عاد وهود عليه السلام دلنا عليها القرآن فلا نشغل بالنسب.

وصف الله ﷻ هودًا عليه السلام بأنه أخ لعاد، وهو مسلم، وهم بين كافر ومؤمن، فما الذي يفيدنا هذا الوصف ليهود عليه السلام؟

الجواب: يفيدنا هذا الوصف بصيرة مهمة من بصائر الدعوة إلى الله تعالى، وهي:

بصيرة ٣: كلمة: ﴿أَخَاهُمْ﴾ تبصّرنا - إلى جانب البصيرتين السابقتين - بأن الأخوة الإيمانية لا تلغي الروابط الإنسانية إلغاء كاملاً، بل تصلحها وتحكمها وتقويها وتوجهها، وتنادي بني الإنسانية لإقامة حقوقها.

فهود عليه السلام لم يكن أخاهم في الدين، بل كان أخًا لهم في النسب والأرض، فكان من جنسهم البشري كما قال الرازي رحمه الله: "لا من جنس الملائكة، فكفى هذا القدر في تسمية هذه الأخوة، والمعنى: إننا بعثنا إلى عادٍ واحدًا من جنسهم، وهو البشر؛ ليكون الفهم والأنس بكلامه وأفعاله أكمل، وما بعثنا إليهم شخصًا من غير جنسهم مثل ملكٍ أو جني"^(٣).

(١) ينظر: المعارف لابن قتيبة (٢٨/١).

(٢) تاريخ ابن عساکر (٨١/٧٤)، وعزاه أيضًا في الدر المنثور (٤٨٤/٣) إلى إسحاق بن بشر.

(٣) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٩٩/١٤).

هذا كله يجعلنا نحاول على توثيق هذا النوع من علاقات الأخوة أعني الأخوة الإنسانية، ولو كان الطرف الآخر مشركاً؛ لهدف واضح هو الجذب إلى الهداية، أو التقليل من الغواية، فلا تضرب كتاب الله ﷻ بعضه ببعض، فمن الخطأ أن يُستدل بهذه الآية على إلغاء الأخوة الإيمانية التي ذكرها الله ﷻ في سورة الحجرات وغيرها، ومن الخطأ العكس، أي: أن يستدل بالأخوة الإيمانية على إلغاء الأخوة الإنسانية.

ونتساءل فنقول: آيات سورة الممتحنة قال فيها إبراهيم عليه السلام: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [الممتحنة: ٤]. يظهر منها أنها ألغت الأخوة الإنسانية، فما الجواب؟

الجواب: من الخطأ البين أن تضرب بهذه الآية الآيات التي فيها إثبات إخوة الأنبياء لأقوامهم كما في هذه السورة سورة الأعراف، وغيرها، فكتاب الله ﷻ يصدق بعضه بعضاً، ومن الغلو الشنيع أن ننظر إلى آية ونترك آيات أو آية أخرى.

ولذلك فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أهدى لأخ له بمكة مشرك هدية، وصلته من النبي ﷺ^(١)، فهذا إعمال للأخوة الإنسانية، والروابط الرحمية، وفرق بين هذا وبين البراءة من الشرك والمشركين التي لها مواضعها الخاصة ضمن خطاب الدعوة إلى الله ﷻ، ولذلك فإن إبراهيم عليه السلام لم يمنعه شرك أبيه من أن يناديه: ﴿يَتَّابِتْ﴾ في أربعة مواضع في القرآن الكريم، وهي: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّابِتْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُعْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۚ يَتَّابِتْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۚ يَتَّابِتْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ۚ يَتَّابِتْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ۝﴾ [مريم: ٤٢-٤٥]. وقد أمر الله ﷻ المسلم أن يصحب والديه بالإحسان ولو كانا مشركين، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ

(١) عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: رَأَى عُمَرُ فَحَلَّةً عَلَى رَجُلٍ ثُبَاعٍ فَقَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: ابْتَغِ هَذِهِ الْحَلَّةَ تَلْبَسُهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَإِذَا جَاءَكَ الْوَفْدُ فَقَالَ: «إِنَّمَا يَلْبَسُ هَذَا (هَذِهِ) مَنْ لَا خَلْقَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ»، فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهَا بِحُلَّةٍ، فَأَرْسَلَ إِلَى عُمَرَ فَ مِنْهَا بِحَلَّةٍ، فَقَالَ عُمَرُ: كَيْفَ تَلْبَسُهَا وَقَدْ قُلْتُ فِيهَا مَا قُلْتُ؟ فَقَالَ: «إِنِّي لَمْ أَكْسُكُمَا لِتَلْبَسُهَا تَبِيعُهَا أَوْ تَكْسُوَهَا»، فَأَرْسَلَ بِهَا عُمَرُ فَ إِلَى أَخٍ لَهُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ. البخاري (٢٦١٩).

حُسْنًا وَإِنْ جَهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِيَّيَّكَ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ [العنكبوت: ٨].

كان المشهد الأول في العهد الثاني من عهود البشرية (عهد هود عليه السلام) متعلقًا بالمرسل والمرسل إليه والمرسل، فما المشهد الثاني لهذا العهد؟
الجواب:

المشهد الثاني: أركان الإصلاح التي جاء بها هود عليه السلام ثلاثة أركان، لخصها قول الله ﷻ: ﴿قَالَ يَقَوْمُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

الركن الأول: ﴿قَالَ يَقَوْمُ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾: الدعوة إلى عبادة الله ﷻ، وكلمة: ﴿قَالَ﴾ تبصّرنا بضرورة الحركة والدعوة، وعدم اعتزال الناس، واستخدام جميع وسائل البلاغ مثل: الإعلام والتعليم والثقافة.

الركن الثاني: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾: فكانه قال: اعبدوا الله ﷻ، وعبادته لا تستقيم إلا أن توحدوه في هذه العبادة، وذكرنا في قصة نوح عليه السلام أن هذه الكلمات النبّرات مثلت ركنًا دعا إليه نوح عليه السلام، وبرهانًا على الركن الأول في الوقت نفسه، وذلك في إيجاز عجيب مدهش ظهر في هذه الكلمات، فليراجع هناك للأهمية.

الركن الثالث: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿١٥﴾: اتقاء المصير الخاسر عند الاختيار الخاطئ، وأعظم مواطن المصير الخاسر ما سيكون في الآخرة.

ماذا تلاحظ في هذه الأركان الثلاثة؟

الجواب: هذه الأركان هي أسس الإصلاح الكلية ذاتها التي دعا إليها نوح عليه السلام من قبل، وكذلك الأنبياء من بعد، فالمرسل واحد وهو الله ﷻ، فلا بد أن تتشابه دعوتهم في أسسها الكلية، كما قال الله ﷻ: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِيْنُهُمْ وَاحِدٌ»^(١)، فقولُه: (إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ) تشبيهه فخم ضخم؛ يُظهر أن الولد الذي يتسبب في ولادته زوج بواحدة، يبقى أخًا لولد تسبب في ولادته نفس الزوج ولكن من زوجة أخرى، فمتى جاء الولد الآخر صار أخًا للأول، ولو بعد عشرين سنة أو أكثر، حتى لو جاء بعد موت أخيه الأول، وكذلك الأنبياء في ثبوت أخوتهم، وثبات ما يدعون إليه من أسس التوحيد، فالشرائع التي جاؤوا بها قد تختلف في بعض الجزئيات، إلا أن أصولها واحدة لا تختلف، ومن أعظم هذه الأصول أن يعبدوا الله وحده لا شريك له.

وقد سبق تفسير هذين الركنين الأولين في قصة نوح عليه السلام كلمةً كلمةً، ودعنا ننظر فيما لم يسبق الكلام عنه:

فمما يلفت نظرنا: اختلاف أسلوب الحكاية بين نوح، وهود عليه السلام، إذ قال الله ﷻ عن هود عليه السلام: ﴿وَالِىْ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمُ﴾، وقال عن نوح عليه السلام: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَقَوْمُ﴾، فحذف الفاء العاطفة من قوله ﴿قَالَ يَقَوْمُ﴾ ولم يقل: (فقال) كما في قصة نوح عليه السلام، فلماذا؟
الجواب: ذهب الزمخشري رحمته الله إلى أن الحكاية عن هود عليه السلام جاءت على تقدير سؤال سائل كأنه سمع الله ﷻ يقول: ﴿وَالِىْ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ فسأل: فما قال لهم هود عليه السلام؟ فجاء الجواب: قال يا قوم اعبدوا الله ﷻ، بينما قصة نوح عليه السلام جاءت لبيان الحكاية، وليس بناء على سؤال سائل^(٢).
وهذا جواب صحيح فيما يظهر، واختلاف الأسلوب تفنن في محله يؤدي أغراضاً لفظية ومعنوية كما ذهب إليه ابن عاشور رحمته الله^(٣) على تفصيلٍ عندي فيما رآه، وذهب الرازي وتبعه الشعراوي رحمته الله^(٤) إلى أن الفاء تفيد التعقيب والمواظبة وسرعة الرد، حيث رأينا في قصة نوح عليه السلام إلحاحه على دعوة قومه مع اللبث الطويل.

(١) البخاري (٣٤٤٣).

(٢) انظر: الكشف (١١٦/٢).

(٣) التحرير والتنوير (٨-ب/٢٠١).

(٤) ينظر: تفسير الرازي (١٤/٢٩٩)، تفسير الشعراوي (٧/٤٢٠٦-٤٢٠٧).

وأرى أن هذه العلة غير ظاهرة، فكل نبي يلح على قومه، ويبلغ رسالة ربه حريصاً عليهم بعد أن تصل إليه، فلا فرق بين الرسل هنا.

إذاً قوله: ﴿فَقَالَ﴾ في قصة نوح عليه السلام ترتيب لإرسال الرسالة أي: ﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾، فكان في تفصيل ما حدث له أن قال... أما هنا: ﴿وَالِإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أراد أن يبين مشاهد القصة كأن أحداً سألته ماذا حدث لهود عليه السلام بعد أن أرسله الله ﷻ، فجاء الجواب: ﴿قَالَ يَقَوْمُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.

ولاحظنا أن هوداً عليه السلام ركّز على أهم أسس الإصلاح البشري، وهو أن يعبدوا الله ﷻ، فربما سأل سائل: ما دليل استحقاق الله ﷻ لأن يؤخذ في عبادته؟ وما صلة ذلك بالإصلاح في الأرض؟ فيجيء الجواب: ذكر هود عليه السلام دليل استحقاق الله ﷻ لأن يُعبد، وأن يؤخذ في هذه العبادة، فقال: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، فذكر برهانين على استحقاق الله ﷻ لأن يؤخذ في العبادة:

الأول: أنه لا يوجد إله حقيقي يستحق وصف الإلهية إلا هو، وذلك يقتضي أن نقارن بين الذين يُدعون آلهة وبين الله ﷻ، لنجد أن الله ﷻ ربهم ورب العالمين، فلا يوجد من يستحق أن يكون إلهاً على الحقيقة سواه.

الثاني: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أن يتقوا المخاطر المستقبلية، ومن أخطر هذه المخاطر العقوبة التي ينالها من لم يعبد الله ﷻ أو من أشرك معه في عبادته، وهذه العقوبة غالباً أخروية؛ لأن الدنيا دار ابتلاء لا دار جزاء.

فهم قد غيروا الأمر البديهي العقلي الأول في الأرض، وهو عبادة الله الذي خلق السموات والأرض، وهذا سيجرهم ليغيروا كل القوانين التي قامت عليها الأرض، وبذلك يكونون مُعرّضين لمخاطر الظلم والإفساد، فكيف لا يتقونها بالعودة إلى عبادة الله ﷻ؟

ويكونون مُعرّضين لمخاطر الغضب الإلهي لقوم اتخذوا الشياطين أولياء وعادوا رب الأرض والسماء، فكيف لا يتقون غضب الله ﷻ؟

فشمّل قوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٥٩) الأمرين معاً: أن يتقوا الأضرار والمفاسد التي تسببها أهواؤهم عندما لا يعبدون ربهم ﷻ، وأن يتقوا العقوبة يوم القيامة على ارتكاب أعظم ظلم في الأرض، وهو الشرك.

التنوع في العرض الدعوي:

وربما تتساءل: لماذا كان ختم هذه الآية في سورة هود ﷻ مختلفاً حيث قال: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠]؟

الجواب: هذه تنمة قالها هود ﷻ في الموقف نفسه أو في موقف آخر، فيخبرهم أنهم عندما لم يعبدوا الله ﷻ، أو عبدوه مع آلهة أخرى يكونون قد وضعوا أنفسهم في دائرة الاتهام بالافتراء؛ أي: بخلق أفكار وتزيينها على أنها حق، وهي أبطل الباطل، وأكذب الكذب، وهل إنكار عبادة الله ﷻ، أو الشرك به إلا كذلك؟!

وزاد في سورة هود ﷻ مفهوماً آخر يؤكد لهم فيه صدقه في دعوتهم، فقال: ﴿يَقَوْمُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١].

فأخبرهم أنه لم يبلغ هذه الرسالة العظيمة العزيزة طلباً لمال أو رغبة فيه، فهو يطلب أجره من الذي فطره ﷻ، وهذا ادعى لأن يفكروا في هذه الرسالة، وفي قبولها، ولذا ختم خطابه بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٥١).

وتنوع كلامه الذي أوردته السور المتعددة يصور لنا أنه وقف مواقف مختلفة معهم يذكرهم ويحاورهم، ويبلغهم، كما يقول رشيد رضا ﷻ: "قَالَ هَذَا وَذَلِكَ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، أَوْ فِي وَقْتٍ بَعْدَ وَقْتٍ، وَمِنْ سُنَّةِ الْقُرْآنِ فِي الْقَصَصِ الْمَكْرَرَةِ أَنْ يَذْكَرَ فِي كُلِّ مِنْهَا مَا لَمْ يَذْكَرْ فِي الْأُخْرَى؛ لِتَنْوِيعِ الْقَوَائِدِ، وَدَفْعِ الْمَلَلِ عَنِ الْقَارِئِ، وَقَدْ اقْتَبَسَ ذَلِكَ الْبُخَارِيُّ ﷺ فِي أَحَادِيثِ جَامِعِهِ الصَّحِيحِ الْمَكْرَرَةِ فَتَحَرَّى فِي كُلِّ بَابٍ أَنْ يَنْفَرِدَ بِقَائِدَةٍ" (١).

(١) «تفسير المنار» (٤٤٢/٨).

وهنا ندسأل: ما الفرق بين قوله في قِصَّةِ نُوحٍ ﷺ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقوله في قِصَّةِ هُودٍ ﷺ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿٦٥﴾؟

الجواب: يرى الرازي رحمه الله أنه لم يظهر في العالم قَبْلَ نُوحٍ ﷺ مِثْلُ تِلْكَ الْوَاقِعَةِ الْعَظِيمَةِ وَهِيَ الطُّوفَانُ الْعَظِيمُ، فَلَا جَرَمَ أَخْبَرَ نُوحٌ ﷺ عَنْ تِلْكَ الْوَاقِعَةِ فَقَالَ: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿٥٩﴾، وَأَمَّا وَاقِعَةُ هُودٍ ﷺ فَقَدْ كَانَتْ مَسْبُوقَةً بِوَاقِعَةِ نُوحٍ ﷺ، وَكَانَ عِنْدَ النَّاسِ عِلْمٌ بِتِلْكَ الْوَاقِعَةِ قَرِيبًا، فَلَا جَرَمَ اكْتَفَى هُودٌ ﷺ بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ وَالْمَعْنَى: تَعْرِفُونَ أَنَّ قَوْمَ نُوحٍ ﷺ لَمَّا لَمْ يَتَّقُوا اللَّهَ ﷻ وَلَمْ يُطِيعُوهُ نَزَلَ بِهِمْ ذَلِكَ الْعَذَابُ الَّذِي اشْتَهَرَ خَبَرُهُ فِي الدُّنْيَا، فَكَانَ قَوْلُهُ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ إشارَةً إِلَى التَّخَوُّفِ بِتِلْكَ الْوَاقِعَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ الْمَشْهُورَةِ فِي الدُّنْيَا^(١).

ويظهر لي أن قول هُودٍ ﷺ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ يشمل الخوف عليهم من عذاب يوم عظيم، وهو الذي ذكره نوحٌ ﷺ لقومه هنا، ويشمل أن يتقوا غضب الله ﷻ، ويشمل أن يتصفوا بما تقتضيه التقوى من الإخبات والإنابة، وعندما تتأمل في قصص الأنبياء ﷺ تجدهم يذكرون في الغالب أسس الدعوة ذاتها، لكننا نجد البصائر القرآنية تذكر أن بعضهم قال أساسًا في سورة، وذكر أخوه النبي مثله في سورة أخرى، فقد وجدنا نوحًا ﷺ يذكر ما ذكره هُودٌ ﷺ من حيث قومه على التقوى فيما تنقله لنا سورة المؤمنون، فيقول: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ [المؤمنون: ٢٣].

ووجدنا هُودًا ﷺ مِثْلًا يُذَكِّرُ قومه بما ذكَّره به نوحٌ ﷺ من الخوف عليهم من عذاب يوم عظيم في سورة الشعراء في قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٣٥]. وهكذا تصور لنا الآيات في السور المتعددة مواقفهم في تذكير أقوامهم بالأسس نفسها، وينفرد كلٌّ منهم بمعالجة أمر اختص به قومه عن غيرهم من الأقوام.

لكن الذي يدفعنا لزيادة التدبر، وفتح آفاق العقول نحو الشعور أكثر بالميزة القرآنية أن نحاول البحث عن سر إيراد هذا الأساس على لسان هذا النبي في هذه السورة، ووروده في سورة أخرى على

(١) تفسير الرازي (١٤/ ٣٠٠).

لسان نبي آخر، وحينها نحاول البحث عن علاقة السُّورَةِ بما ذكره الله ﷻ فيها على لسان مَنْ ذكره فيها، فليس ذلك لمجرد التفتن كما يميل إليه من قد يستريح عقله بمثل هذا الرأي، ولَعَمْرَ الحق: إن معرفة ذلك لهو الفضل المبين. اللهم افتح لنا فيه أعظم الفتح يا أرحم الراحمين.

رأينا في الآية السابقة مشهد هود عليه السلام وهو يبلغ قومه أهم أسس الإصلاح في الأرض، فيقول لهم: ﴿قَالَ يَقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥]، لكننا نفاجأ بالرد السريع للملأ في هذه الآية، إذ يقول الله ﷻ: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]، فما المشهد الذي تقدمه لنا هذه الآية؟ ولماذا هذا الرد السريع؟

الجواب: هنا يظهر:

المشهد الثالث: مشهد هجوم قوى الملأ المستكبرين، وبما أن الآية التي تُحدِّثنا عنهم جاءت بعد الآية التي ذكر فيها هود عليه السلام أُسُسَ دعوته، فإن ذلك يبصِّرنا بأنهم ردوا عليه ردًّا سريعًا، حتى يقطعوه فيما أراد الكلام عنه، وعندها يسارعون إلى المدافعة الفورية للمصلحين ليقطعوا عليهم الطريق، وليمنعوه من التأثير فيهم وفي غيرهم، فيوجهون حربًا إعلامية قدرة ضده، ويبصِّرنا بذلك قوله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: ٦٦].

لاحظ أن الله ﷻ يقص علينا كيف انبعثت قوى الملأ المستكبرة مباشرة ترد عليه، ولذا قال: ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ دون حرف عطف، ليصور لنا هذا أن الرد كان مباشرًا، قطعوا به كلام النبي هود عليه السلام، ولم يُمكنوا الناس من الاستماع إلى تفاصيل دعوته، وجاء ردهم السريع دون تفكير أو تدبر لصحة قوله عليه السلام، وأخبرنا الله تعالى بأن استكبار الملأ دفعهم ليبادروا بالرد، ثم خصص الملأ بوصفين:

الوصف الأول: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فقيد الملأ الذين ردوا عليه بالكفر بخلاف ما ذكره لنا في قصة نوح عليه السلام في هذه السُّورَةِ، فإنه قال: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠]. كأنه ينبئنا أن الملأ في قوم هود عليه السلام انقسموا إلى قسمين:

فمنهم مَنْ حَكَّم عقله، فإما سكت متفكرًا، وإما نابذ العناد، وتبع الحق المبين، وآمن.

ومنهم من كفر، وهم الذين تولوا الرد.

وعند المقارنة بين قصتي نوح وهود عليه السلام نجد أنَّ الله تعالى ذكر الملائ في قوم نوح عليه السلام بقوله عَلَّامًا: ﴿قَالَ أَلَمَّا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠]، من دون أن يصفهم بالكفر بينما ذكرهم في قوم هود عليه السلام بقوله عَلَّامًا: ﴿قَالَ أَلَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: ٦٦]، فوصفهم بالكفر، لماذا؟

الجواب: ذكرنا هذا الفرق في قصة نوح عليه السلام ونعيد التذكير به هنا:

(١) وَصَفُ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يمكن أن يكون وصفًا تأسيسيًّا أي: أن مفهوم المخالفة له معتبر، ومعنى ذلك أن من الملائ من قوم هود عليه السلام من قد آمن به، ومنهم من كفر، وهم من رد عليه، فوصفهم بـ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يدخل في باب الاحتراس؛ ليعلم منه أن من الملائ من كانوا مؤمنين، أمَّا ملاء قوم نوح عليه السلام فقد كانوا كفارًا جميعًا في الوقت الذي ردوا عليه ذلك الرد.

وأما في سورة هود عليه السلام، فقد ذكر الله عَلَّامًا عن قوم نوح عليه السلام ما ذكره عن قوم هود عليه السلام من أن من الملائ من كان كافرًا، فرد على نوح عليه السلام، ومعنى ذلك أن منهم من أسلم، فلم يرد: ﴿فَقَالَ أَلَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرُّكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧].

فسورة الأعراف نقلت لنا مشهدًا كان فيه كل الملائ من قوم نوح عليه السلام كفارًا، أما سورة هود عليه السلام فنقلت لنا مشهدًا آخر انقسم فيه الملائ من قوم نوح عليه السلام إلى كفار ومسلمين.

بصيرة: نجد في القصص القرآني أن كل سورة تنقل لنا مشهدًا جرى؛ إما في الوقت نفسه، أو في أوقات أخرى، وينبغي أن نتنبه لهذه الدقائق؛ لأنها تبصِّرنا بأنه لا تكرار بين السُّور.

(٢) وإما أن يكون هذا الوصف: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وصفًا إيضاحيًّا أي: أن جميع الملائ من قوم هود عليه السلام كانوا كفارًا، وجاء وصفهم بذلك لزيادة التوضيح، والظاهر الأول.

الوصف الثاني: ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾.

فإن قلت: ما المشاعر التي تثيرها فيك نسبة هؤلاء المملأ إلى قومه في قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ

كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: ٦٦]؟

الجواب في الوصف الثاني وصف الله ﷻ هؤلاء المملأ بقوله: ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾، وهذه النسبة تبصّرنا

بمواقف مختلفة، منها:

الموقف الأول: يصور لنا الأذى الذي أصابه؛ إذ كان الرد السيء من قومه لا من غيرهم، فالرد من قوم الإنسان يكون أشد إيلامًا؛ لأنهم ذوو قرباه نسبًا وجوارًا، ويتسبب في أن يزيد في نفور الناس منه، ويُصعّب موقفه أمام الآخرين عندما يدعوهم إلى الحق المبين.

الموقف الثاني: يصور لنا وصفهم بأنهم: ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾ بأن الله ﷻ يربي الداعية إلى الخير على الصبر والرفق بالناس، فسنة الأنبياء أن يعاديهم كبراء أقوامهم، فكيف بما يجدونه من غيرهم، فإذا عاداهم كبراء قومهم فصبروا عليهم، فمن باب أولى ينبغي أن يصبروا على الغبراء المعادين.

ثم بيّن الله ﷻ لنا ماذا قال المملأ الذين كفروا ليهود النخيلة، فقال: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]، فما هذه التهم التي وجهها هؤلاء ليهود النخيلة؟ وهل هي تهم حقيقية أم مفتعلة؟

الجواب: هنا يأتي:

المشهد الرابع: توجّه قوى الملائم التهم المعتادة إلى نبى الله هود السليمة، الذي يمثلى أعظم المصلحين، ويبصّرنا بذلك قولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦].

فالتهم الجاهزة التي توجّهها وسائل إعلام قوى الملائم المستكبرة هي التهم ذاتها التي تقولها قوى الاستكبار في كل زمان ومكان للمصلحين، وينشرونها أمام الناس ليمنعوهم من التأثير بدعوة الخير، وترجع هذه التهم إلى تهمتين لخصتهما هذه الآية:

التهمة الأولى: الاتهام بالسفاهة: حيث قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾.

التهمة الثانية: بأنهم يظنون أنه ينتهي إلى فئة الكاذبين: حيث قالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾.

ونسأل: قد نقلت لنا الآية محاولة تصوير هذه التهم بصورة يحاول فيها الملائم أن يحاصروا هوداً السليمة، وأن يمنعوها عنه كل تأثير من البداية، فكيف ذلك؟
الجواب: نلاحظ أنهم حاولوا محاصرة هود السليمة بقوة العبارات التي وصف القرآن فيها كلامهم:
التهمة الأولى: الاتهام بالسفاهة: حيث قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾:

الكلمة: [١]: ﴿إِنَّا﴾ أكدوا الاتهام بحرف التوكيد (إن)، وأصل الكلام: (إن) المشددة، و(نا) الدالة على الفاعلين، فاكتمى بالنون المشددة الأولى، وأبقى من الضمير الألف.

الكلمة: [٢]: ﴿لَنَرَنَّكَ﴾ زادوا كلامهم تأكيداً باللام في قولهم: ﴿لَنَرَنَّكَ﴾، وكلمة (نَرَاكَ) يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ مِنْ رُؤْيَا الْعَيْنِ أي نراك بأعيننا واضحاً جسديك ومنطقك، ويحتمل أن تكون مِنْ رُؤْيَا الْقَلْبِ^(١) أي: نعلم علماً يقينياً بقلوبنا كما نراك بأعيننا.

فهذه الكلمة تصورهم وهم يجزمون بأنهم يرونه واقعاً في السفاهة دون تردد.

الكلمة: [٣]: ﴿فِي﴾:

(١) البحر المحيط في التفسير (٨٦/٥).

وهذه الكلمة تصورههم وهم يتهمون النبي هود عليه السلام بأن السفاهة تحاصره، فهو لا ينفك عنها ولا يستطيع أن يخرج منها، فقالوا: ﴿فِي سَفَاهَةٍ﴾، فلم يقولوا: إنا لنراك سفيهاً بل في سفاهة، فتصور الكلمات كيف أن السفاهة تعبر عن ظرف محيط به، وهو داخل هذا الظرف لا يستطيع أن ينفك منه، ولا أن يخرج من بطشها.

قال الزمخشري رحمته الله: "وجعلت السفاهة ظرفاً على طريق المجاز: أرادوا أنه متمكن فيها غير منفك عنها" ^(١).

الكلمة: [٤]: ﴿سَفَاهَةٍ﴾: الاسم المجرور، وهو ﴿سَفَاهَةٍ﴾.

فما معنى السفاهة؟ وماذا يعني اتهام هود عليه السلام بها؟

الجواب:

السفاهة: من سفه، بكسر الفاء متعد، وسفه بضمها قاصر، ومصدر المتعدي: سَفَاهًا، والقاصر: سَفَهًا ^(٢)، والسَفَهُ: ضِدُّ الْجَلْمِ، يُقَالُ ثُوبٌ سَفِيءٌ، أَي رَدِيءُ النَّسْجِ، وَيُقَالُ: تَسَفَّهَتِ الرِّيحُ، إِذَا مَالَتْ، ومنه قيل: زمام سفیه كثير الاضطراب ^(٣).

وقال ربيع بن أبي الحقيق النضري:

وَأَنْصَتَ السَّامِعُ لِلْقَائِلِ	إِنَّا إِذَا مَالَتْ دَوَاعِي الْهَوَى
نَقْضِي بِحُكْمٍ عَادِلٍ فَاصلِ	وَاعْتَلَجَ الْقَوْمُ بِالْبَابِهِمْ
نَلْظُ دُونَ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ	لَا نَجْعَلُ الْبَاطِلَ حَقًّا وَلَا
فَنَحْمِلُ الدَّهْرَ مَعَ الْخَامِلِ ^(٤)	نَخَافُ أَنْ تَسْفَهَ أَحْلَامُنَا

وَالْعَرَبُ تُطْلِقُ السَّفَاهَةَ عَلَى أَقْنِ الرَّأْيِ وَضَعْفِهِ، وَتُطْلِقُهَا عَلَى سُوءِ التَّدْبِيرِ لِلْمَالِ ^(٥).

(١) الكشف (١١٦/٢).

(٢) الكليات (ص: ٥١٠).

(٣) المفردات في غريب القرآن ت كيلاني (ص: ٢٣٤).

(٤) الأبيات له، كما في نسب قريش للزبير (ص: ٤٣)، والبيان والتبيين للجاحظ (١٨٤/١).

(٥) التحرير والتنوير (٢٨٧/١).

بصيرة: السفه خِفةً في العقل، وسَخَافَة في التفكير، واضطراب في الرأي مدمر لإدارة الأمور، وسرعة النفس في العبث في وقتها ومقدراتها وثرواتها.

فاتهموا نبي الله هوذا **الْكَيْدُ** بالسفه، وذكروا بأنهم يوقنون أنه واقع في السفاهة، ويقصدون بهذه التهمة أن يشككوه في نفسه، ويشككوا من حوله، وكأنهم يقولون لهم: كيف تستمعون لمن هذه صفته أي: لخفيف العقل، وسخيف التفكير! وهكذا يدمرون القدوة الصالحة، ويكسرون المحبة التي في نفوس الناس له، ويجعلون الناس ينصرفون عن الاستماع له، فيبحثون عن أبشع الصفات، ويلقبون الأنبياء وأتباعهم بها.

وكلمة سفه فيه تجمع الصفات السيئة بدرجاتها المتفاوتة، فيمكنهم أن يقولوا عن الصالحين: إنهم سفهاء بمعنى أنهم دراويش لا يفهمون كيف يديرون الأمور، ويمكن أن يقولوا: إنهم سفهاء بمعنى أنهم مخربون ومجرمون يهدرون أموال البلد، وعندما ترجع إلى معنى سفه في اللغة تجدها محتملة لذلك حسب سياقها.

هذه التهمة تعني: أن هؤلاء الأنبياء **عليهم السلام** وكذلك من يأتي بعدهم من المصلحين لا يدركون الواقع، ولا يعرفون المتغيرات، ولا يفهمون في حقيقة الحياة، فكأن الملاء عندما يرون أنفسهم يعبدون مع الله آلهة أخرى يرون أنفسهم حكماء، وعندما يسمعون النبي **عليه السلام** يدعوهم إلى عبادة الله وحده يرون دعوته سفاهة، ويزعمون أنه لما هجر دين قومه إلى دين آخر فذلك سفاهة! عندما يرون أنفسهم يشتغلون بالشهوات المحرمة واللهو المحرم، ويرون النبي **عليه السلام** يدعوهم إلى المباح من ذلك فحسب يجعلون دعوته سفاهة!

وكلمة: **﴿سَفَاهَةٌ﴾** نكرة لا معرفة، وذلك لتعظيمها، أي: ليصوروا أنه في سفاهة عظيمة، أو لإيهامها أي: في سفاهة أي سفاهة كانت لكنها تظل سفاهة.

فالكبر والغفلة يسيطران على كبار القوم... جعلهم ذلك يستنكرون أن يدعوهم واحد من قومهم إلى الهدى، ورأوا أن في دعوته سفاهة وحماقة، وتجاوزاً للحد، وسوء تقدير للمقام! فانطلقوا يتهمون بنبيهم **عليه السلام** بالسفاهة والكذب جميعاً في غير تخرج ولا حياء.

وهكذا يقول سفهاء الملائكة للمصلحين في كل زمان، فيقلبون الطاولة عليهم، ويقولون للمصلحين: أنتم سفهاء تريدون أن تجلبوا الدمار على أقوامكم بدعواتكم التي تزعمون فيها الإصلاح.

"وَإِذَا ثَبَّتَتْ لَهُمُ السَّفَاهَةَ انْتَفَى عَنْهُمْ الْجُلْمُ لَا مَحَالَةَ؛ لِأَنَّهُمَا ضِدَّانِ فِي صِفَاتِ الْعُقُولِ" (١)، فإذا انطلت هذه التهمة على عقول الناس وصدقوها فيهم... فكيف يستجيبون لدعوات المصلحين؟!

هكذا ظهرت لنا البصائر القرآنية في قول الله ﷻ عن الكفار من ملا قوم هود عليه السلام: ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ

فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الاعراف: ٦٦]، فما حقيقة التهمة الثانية التي وجهها هؤلاء الملائكة لهود عليه السلام؟

الجواب:

التهمة الثانية: بأنهم يظنون أنه ينتمي إلى فئة الكاذبين: حيث قالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ

الْكَاذِبِينَ﴾ (٢).

وتفهم هذه التهمة في ضوء بصائر هذه الكلمات:

الكلمة: [١]: ﴿وَإِنَّا﴾: الواو تربط هذه التهمة بالتهمة السابقة لتجعلهما تهمتين، وهي تصور لنا رشقهم الإعلامي لهود عليه السلام، فهم يُنبِعون التهمة التهمة، ليوقعوه في حيرة، ويجعلوا من يستمع إليه يزداد حيرة أو نفورا، وليريكوه في كيفية مناقشتهم والرد عليهم.

فالذي يناقشك ويذكر لك تهمتين أو ثلاثا أو أربعاً كأنه لا يريد مناقشتك في الحقيقة، بل يريد من كثرة التهم أن يعي بصرك وعينك؛ لأنك ستترتبك عندما تحاول الرد عليه، فهل سترد على التهمة الأولى أم الثانية، وليحققوا بتعدد التهم هدفاً آخر هو تشتيت ذهن المستمعين، فيوهمونهم أن هوداً على باطل.

وكلمة (إن) المشددة تؤكد وصفهم لهم، والألف من "نا" الدالة على الفاعلين، والأصل: "وإننا"، فأدغمت الكلمتان في بعضهما وأصبحت: "وإنّا".

الكلمة: [٢]: ﴿لَنَظُنُّكَ﴾: الظن أقل من اليقين، فهو غلبة العلم، أي: ويغلب على رأينا أنك من الكاذبين.

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٨٨).

الكلمة: [٣]: ﴿مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: تنتهي لفئة محددة هي فئة الكاذبين، ولم يقولوا: أنت تكذب بل جعلوه ينتهي للكاذبين، ومعنى ذلك أنه معتاد على الكذب، فهو لم يكذب مرة واحدة فحسب. وذلك يعني: أنه لا وزن لما يقوله النبي أو المصلح، فكلام النبي ﷺ بناءً على هذه التهمة لا يستحق التفكير فيه؛ لأنه ينتهي إلى فئة الكاذبين بزعمهم.

فيكون معنى قولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾؛ أي: في دعوة الرسالة عن الله تعالى، أكدوا ظنهم الأليم، كما أكدوا ما قبله من تسفيهم الباطل، وهو يتضمن تكذيب كل رسول؛ إذ عبّروا عن أصحاب هذه الدّغوى بالكاذبين وجعلوه واحداً منهم، والظن هنا على معناه، فلو قالوا: إنهم يعلمون ذلك لكانوا كاذبين على أنفسهم فيما يحكمون من اعتقادهم^(١).

فانظر كيف حاول الملاء أن يحاصروا هوذا ﷺ، ويثبتوا عليه تهمتين هو بريء منهما كل البراءة. **الفرق بين التّهْمَتَيْنِ الموجهَتَيْنِ ليهود النّبي ﷺ:**

ولكننا نسأل: لماذا فرقوا بين التّهْمَتَيْنِ، فقالوا عن الأولى: ﴿لَنَرُكَ﴾، وعن الثانية: ﴿لَنَظُنُّكَ﴾؟
الجواب: انظر كيف فرقوا بين طريقة طرح التّهْمَتَيْنِ ليوهموا الجماهير المستمعة أنهم مُحَقِّقُونَ، محايدون عادلون، فقد اعتبروا أن وقوعه في السفاهة أمر متيقن لا جدال معه، فقالوا: ﴿لَنَرُكَ﴾، والرؤية من أفعال اليقين، أي: لنعلم عنك علماً مُتَيَقِّناً حَتَّى كَأَنَّهُ مُحَسُّوسٌ^(٢) أنك في سفاهة، بينما جعلوا التهمة الثانية وهي: نسبته إلى الكذب قائمة على الظن الذي يدل على أنهم يرجحون كذبه على صدقه، ولكن لا يتيقنون أنه ينتهي إلى الكاذبين، فقالوا: ﴿لَنَظُنُّكَ﴾، ولماذا احترزوا فجعلوا كذبه مجرد ظن؟

ربما لأنهم يعرفونه ويعرفون أنه لا يكذب، فالأنبياء لا يُجَرَّب عليهم الكذب في حياتهم، ويعرفون أن بقية قومه يعلمون صدقه، فقد عاش بينهم، وهو منهم، وربما لأن بعضهم أظهر إسلامه، واتهامه بالكذب المتيقن بعد ذلك سيكون مجازفة بمصداقيتهم أمام قومهم، واتهام الرسل بالكذب يكون

(١) تفسير المنار (٤٤٢/٨).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٤٣٥).

مقترناً بالظن في جواب المأ من أقوامهم لهم كما في جواب قوم نوح عليه السلام في سورة هود عليه السلام مثل هذا، وهو قوله: ﴿بَلْ نَطْنُكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

إذاً: هذا نوع من المراوغة والاحتيال من قبل المأ، فيحاولون أن يبينوا أنهم موضوعيون، وأنهم محايدون، فهم لا يتيقنون بنسبة هود عليه السلام أو نسبة نوح عليه السلام من قبل إلى الكذب، وإنما يظنون ظناً راجحاً، وهكذا يتلاعبون بعقول الناس.

ونتساءل: من الكاذبون الذين زعم قوم هود عليه السلام أنه ينتهي إليهم حين قالوا: ﴿وَأَنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾؟

الجواب: إليك بصيرة أخرى يمدنا بها هذا التعبير القرآني عن موقف كفار عاد: ﴿وَأَنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]... إنهم يُكذِّبون جميع الرسل والمصلحين.

ما أردنا موقف المأ الذين كفروا من قوم عاد! لم يكتفوا بأن يكذبوا هوداً عليه السلام حتى امتد تكذيبهم ليشمل كل داعٍ مصلح يدعو إلى ما يدعو إليه هود عليه السلام، ولذا قالوا: ﴿وَأَنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [٦٦] فقد جعلوا هوداً عليه السلام ينتهي إلى مجموعة الكاذبين أي الذين يكونون مثله، وهم يقصدون بذلك ربما رسلاً سمعوا بهم، أو جرى ذكرهم في التاريخ، والرسل يماثل بعضهم بعضاً في دعوات إصلاح الأوضاع والتغيير نحو الأحسن، أو يقصدون أن أتباعه أيضاً من الكاذبين، أو يقصدون أنه ينتهي لفئة الكاذبين أيًا كانوا.

وهكذا يتم التلاعب الإعلامي بموقف المصلحين، ويحاصرهم المستكبرون، فيضعضون موقفهم أمام الجماهير.

وتجد هنا شيئاً من التشابه بين أقوال قوم هود عليه السلام وأقوال قوم نوح عليه السلام في الصد عن سبيل الله ﷻ، وتكذيب الرسل لأنهم متحدون في الضلالات، مجتمعون في صفات الغفلة والاستكبار كما قال تعالى: ﴿تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]، فكأنهم توارثوا ذلك كما قال تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣].

أسوأ ما في التهم التي يوجهها المأ لهود عليه السلام أنها صادرة عن مركز قوة، فهم المأ، وقد قال أبو الفتح البُستِّي رحمه الله: "عادات السادات سادات العادات... يا جَهِل مَنْ كان على السلطان مُدِيلاً، ولالإخوان

مُذِلًّا^(١)، فهم يفرضون أكاذيبهم بحكم قوتهم وسطوتهم، ويحاولون إبعاد الناس عن الصالحين بحكم سلطانهم، ثم يفترون عليهم مثل هذه الأكاذيب.

وكل أكاذيبهم تنطلق من حبههم لدنياهم، وغفلتهم عن أن يتقوا عذاب يوم عظيم، ولقد كان ابن الجوزي رحمه الله ناصحاً حين قال:

«يَا رَضِيعَ الْهَوَى وَقَدْ أَنْ فَطَامَهُ، يَا طَالِبَ الدُّنْيَا وَقَدْ حَانَ حِمَامُهُ، أَلِلدُّنْيَا خُلِقَتْ أَمْ بِجَمْعِهَا أُمِرْتُ؟!»

أَخِي إِنَّمَا الدُّنْيَا مَجَلَّةُ فُرْقَةٍ وَدَارُ غُرُورٍ أَذَنْتُ بِفِرَاقِي
تَزُوذُ أَخِي مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسْكُنَ النَّرَى وَتَلْتَفَّ سَائِقُ لِلْمَمَاتِ بِسَاقٍ^(٢)

ثم ينقلنا القرآن الكريم إلى رد هود عليه السلام على هذه التهم المفتراة حيث يقول الله تعالى: ﴿قَالَ يَتْلُو لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ...﴾ [الأعراف: ٦٧-٦٩]، فما مضامين رده عليهم؟
الجواب مضمن في المشهد الآتي:

(١) الإعجاز والإيجاز للتعالي (ص: ١١٧)، تاريخ الإسلام للذهبي (٣٣/٩).

(٢) التبصرة لابن الجوزي (٤٨/١).

المشهد الخامس

دفاع هود ﷺ ضد اتهامات الملأ المستكبرين [الأعراف: ٦٧-٦٩]



مِفْصَلُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (٤)

عَبْدُ الْمَنَّا مِقْبَلُ الْمُحَمَّدِي

المشهد الخامس: دفاع هود عليه السلام ضد اتهامات الملاء، وفي هذا المشهد نرى سلوك

المصلحين لأفضل الطرق في الدفاع عن موقفهم أمام الاتهامات الظالمة:

آيات هذا المشهد: ﴿قَالَ يَاقَوْمُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أَبْلَغُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَأَذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف: ٦٧-٦٩].

كيف تعامل هود عليه السلام مع التهم الموجهة له من قومه؟

دافع هود عليه السلام عن نفسه وعن دعوته، وفي هذه المدافعة دحض الشبهة وبيّن لهم حقائق دعوته لإصلاح الأرض، فذكر ثمانى حقائق للرد على تلك التهم ومواجهتها، وهي:

الحقيقة الأولى: الرد التبليغي الحكيم على الاتهامات الباطلة، وعدم السكوت، وبيصرنا

بذلك قول الله ﷻ: ﴿قَالَ﴾:

فلم يسكت ولم يعتزل، بل تكلم وأطنب في الكلام بعد أن منحهم فرصة ليقولوا ما شاؤوا في اتهاماتهم له، حتى إذا فرغوا من كلامهم تكلم، وكأنه سكت فلم يقاطعهم وهم يتكلمون ليلتزموا المعاملة بالمثل، فلا يقاطعونه عندما يرد عليهم، فقال الله ﷻ عنه: ﴿قَالَ﴾، فقول الله ﷻ: ﴿قَالَ﴾ يدل على ضرورة الرد على السفاهات الإعلامية للملاء إن كان الرد سيُسهم في بيان الحقيقة وتقوية موقف الداعية المصلح، والآية تبصّرنا بأن يُحدث الرد دون مقاطعة حتى يحصل التأثير على الطرف الآخر، وليس المقصود بالرد مجرد الصياح ورفع الصوت.

ولم تأت الواو العاطفة ليظهر أن هذا الذي يقوله هود عليه السلام كلام مستأنف يرد فيه على التهم السابقة.

الحقيقة الثانية: الجمع بين التلطف والقوة في الرد، ويصرنا بذلك قوله: ﴿قَالَ يَقُومُ لَيْسَ

بِ سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٧].

فلَمَّا قالوا لَهُ: ﴿إِنَّا لَنَرُكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ رد عليهم، ولكن هذا الرد تلمس فيه التلطف، إذ قال لهم: ﴿يَقُومُ﴾ أي: يا أيها الناس الذي أنتسب إليهم، وأقوم بهم وأقعد، ويقومون بي، وتتحرك جميعاً في أرضٍ مشتركة، أنا لا أتبوأ من النسبة إليكم، بل أبغي مصالحكم القومية ﴿يَقُومُ﴾.

وهنا يأتي سؤال: عندما اتهموا هوداً عليه السلام بأن السفاهة تحيط به فقالوا: ﴿إِنَّا لَنَرُكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ فرد عليهم، وقال لهم عليه السلام: ﴿يَقُومُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةً﴾، فلم يقل على طريقتهم: لست في سفاهة، فكيف ترى في أسلوبه عليه السلام في الرد على قومه هنا؟

الجواب: هذا الرد تلمس فيه الحكمة والقوة؛ إذ قال لهم هود عليه السلام: ﴿لَيْسَ بِي سَفَاهَةً﴾، فهو لَمْ يُقَابِلْ سَفَاهَتَهُمْ بِالسَّفَاهَةِ أو بالغضب، بَلْ قَابَلَهُ بِالْحِلْمِ وَالْإِعْضَاءِ، وَلَمْ يَزِدْ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ بِي سَفَاهَةً﴾^(١).

فتفى عن نفسه السفاهة في بساطة وصدق، فلم يتبرأ منهم هنا، ولم يقل لهم: بل أنتم السفهاء، لم ينتقم منهم، ولا قابل ردَّهم الجافي الغليظ السفيف بالغضب، فكأنه يطبق قول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۖ﴾ [الفرقان: ٧٢]، وهذا كله ينبئك بأن الحكمة الدعوية تقتضي أن يكون الأصل في الحوار التلطف، ولكن قد يُلجأ إلى غيره في مواضعه المناسبة.

قال الزمخشري رحمه الله: "وفي إجابة الأنبياء ﷺ مَنْ نَسَبَهُمْ إِلَى الضَّلَالِ وَالسَّفَاهَةِ، بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحِلْمِ وَالْإِعْضَاءِ وترك المقابلة بما قالوا لهم مع علمهم بأنَّ خصوصهم أضلُّ الناس وأسفُّهم، أدبٌ حسن وخلق عظيم، وحكاية الله ﷻ ذلك تعليمٌ لعباده كيف يخاطبون السفهاء، وكيف يغضون عنهم ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم"^(٢).

(١) تفسير الرازي (٣٠١/١٤).

(٢) الكشف (١١٧-١١٦/٢).

بصيرة: هوذا **التَّيْلِفَةُ** نفى السفاهة بالطف أسلوب؛ إذ قال: ﴿لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾، فأتى بالباء التي تدل على الإلصاق ليدل على أن السفاهة لا يمكن أن تتطرق إليه فكيف تحيط به؟!

ففي هذا الرد تلطف ظاهر، فلم يصحبه العنف، ولو صحبه العنف لخسرتي الحوار؛ لأن الناس سيتهمون بالانفعال وعدم الاتزان والحكمة.

ونسأل: رأينا أنه رد على اتهمته بالسفاهة ولم يرد على اتهمته بالكذب، فلماذا فعل ذلك؟
الجواب: نلاحظ أنه رد على اتهمته بالسفاهة، ولم يرد على اتهمته بالكذب، فجاء التعبير القرآني يصور حالهم تصويرًا فائقًا، إذ قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾، فرد عليهم هذه التهمة بهدوء، وحكى الله ﷻ لنا رده بأجمل أسلوب، فقال: ﴿لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾، ولم يرد على اتهمته بالكذب؛ لأنهم ساقوا هذه التهمة على سبيل الظن دون تحقيق، فكأنهم ردوا على أنفسهم عندما قالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ﴾، فيكفي بأن يبين حقيقة أنه رسول من رب العالمين، وهذا يرد على اتهمته له بالكذب، فيما أنه رسول من رب العالمين، فلا يمكن أن يكذب.

ونسأل أيضًا: رأينا هوذا **التَّيْلِفَةُ** يبين حقيقة جديدة عن طبيعته وطبيعة دعوته، فيقول: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ أَبْلُغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي﴾ [الأعراف: ٦٧-٦٨]، فماذا يريد أن يوصل لقومه هنا؟

الجواب: هنا تأتي:

الحقيقة الثالثة: سبب الدعوة الإصلاحية ليهود عليهم السلام أنه رسول من رب العالمين، فلم يأت مصلحاً من عند نفسه، وهذا يعني أن يجتهد في تبليغ رسالات ربه، ويبصرنا بذلك قوله: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي﴾ [الأعراف: ٦٧-٦٨].

فيئن أنه رسول، وقدّم ذكر مُرْسِلِهِ ﷻ على ذكر واجب الرسالة، فقال: ﴿مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾: لأن الحكمة والمنطق يقتضيان أن يذكر مَنْ أَرْسَلَهُ، ثم يبين ماذا يجب عليه بالنسبة لهذه الرسالة، فذكر من أَرْسَلَهُ، فقال: ﴿مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

واختار هذا الوصف لله ﷻ لأنه وصف يدل على البرهان والرحمة ووحداية الاختيار:

أما أنه يدل على البرهان فأعني بذلك أَنَّ وَصَفَ اللَّهِ ﷻ بأنه رب العالمين ينبئك بالدليل القطعي على أن الله ﷻ هو الإله الحق الواحد، فهو رب العالمين، وليس رباً لجزء محدد في العالم، فليس هو رب مصر ولا العراق ولا أمريكا ولا الصين فحسب، بل هو رب العالمين، إذًا فحالُه لا يمكن أن يقاس به بعض مخلوقاته التي يعيدها بعض الناس مع الله أو من دونه.

وأما أن هذا الوصف (رب العالمين) يدل على الرحمة التربوية العامة للعالمين، فهو رب العالمين أي: مربهم المحسن إليهم بنعمه المتعددة، وفي مقدمتها: الإيجاد، والإعداد، والإمداد، والإرشاد، والإسعاد. **وأما** أن هذا الوصف (رب العالمين) يدل على وحداية الاختيار فلأن رب العالمين أَعْلَمُ حَيْثُ يُجْعَلُ رِسَالَتُهُ من العالمين الذين خلقهم، ولا يمكن لواحد من العالمين أن يعترض على اختيار رب العالمين، ولا يمكن حتى للمختار منهم ليكون رسولاً أن يعترض ويمتنع عن التبليغ، ورب العالمين لن يختار للرسالة إِلَّا أَهْلَ الْحَصَافَةِ بِرُجْحَانِ الْعَقْلِ وَسَعَةِ الْجِلْمِ وَكَمَالِ الصِّدْقِ، وَإِلَّا لَفَاتَ مَا يَقْصِدُ بِهَا مِنَ الْحِكْمَةِ، وَلَمْ تَقُمْ بِهَا لِلَّهِ الْحُجَّةُ^(١).

(١) تفسير المنار (٨/ ٤٤٢).

بصيرة: (رب العالمين) يدل على الرحمة التربوية العامة للعالمين، فهروب العالمين أي: مربيهم المحسن إليهم بِنِعْمِهِ المتعددة.
ويدل على وحدانية الاختيار قرب العالمين أَعْلَمَ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ من العالمين الذين خلقهم، ولا يمكن لواحد منهم أن يعترض على اختياره.

ثم ذكر لهم هود عليه السلام واجب الرسول الذي يَحْرُمُ عليه التقصير في تأديته، فقال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَتَ رَبِّي﴾ وقوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ من التبليغ، والتبليغ إيصال البلاغ إلى من يستحقه بكل أسلوب ممكن، والبلاغ ما يُتَبَلِّغُ به من مرحلة إلى مرحلة، والمراد هنا النظام الذي حكم الله ﷻ أن يتبلغ به البشر في مرحلة الحياة الدنيا إلى مرحلة الحياة الأخرى، وأخبر أن هذا النظام الذي يحتوي عليه التبليغ عبارة عن ﴿رِسَالَتِ﴾، فذكرها مجموعةً، والجمع لبيان تعدد أوامر الله ﷻ ونواهيه، أي لبيان تعدد الجوانب المختلفة التي يضمنها النظام الذي ينبغي للبشر أن يسلكوه في الجوانب الفكرية والنفسية والاجتماعية والسياسية والفردية والاقتصادية والجماعية، ثم تابع كلمات ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَتَ رَبِّي﴾ فمصدر الرسالات هو الله ربي جلّ في علاه وليس من عندي أنا، وهذا العبد المنيب تجده يعترز بربه، ويبين قوة الرسالة التي أمر بتبليغها، فيقول: ﴿رِسَالَتِ رَبِّي﴾ فمصدرُ الرسالات التي يبلغها هود عليه السلام ربه ﷻ، وهروب العالمين.

ثم قال هود عليه السلام: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]، فما مضامين رده عليه السلام عليهم؟ وعلام يدل؟

الجواب: هنا تأتي:

الحقيقة الرابعة: قد عُرف بينهم بنصحه وأمانته، وهو مستمر في هذه الصفات، ويصبرنا بذلك قوله: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨].

الكلمة: [١]: ﴿وَأَنَا﴾ يحدد نفسه بالابتداء بها، ويخبرهم أنه الذي يحرص عليهم، وليس له من يحركه.

الكلمة: [٢]: ﴿لَكُمْ﴾ هنا يخبرهم عن شفقتهم في تبليغ الرسالة، فقدم الجار والمجرور في قوله: ﴿لَكُمْ﴾ فقال: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾، ولم يقل: (وأنا ناصح أمين لكم)، وما قدم الجار والمجرور إلا ليبين حرصه على مصالحهم، فهو لهم لا عليهم.

الكلمة: [٣]: ﴿نَاصِحٌ﴾ يبصّرهم أنه يقوم على منافعهم، فالنصح يدل على تقديم خالص المنفعة بأحسن أسلوب، فكلمة (نَصَحَ)^(١) أظهرنا جمالها في قصة نوح عليه السلام، والنصح يعكس محبة وعاطفة قوية يصورها قول الشاعر:

إِنِّي نَصَحْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِنَصِيحَتِي وَنَهَيْتُ فَاتَّبِعْ قَوْلَ مَنْ يَنْهَاكَ
وَبَدَّلْتُ قَوْلِي نَاصِحًا لَكَ يَا فَتَى فَعَسَاكَ تَقْبَلُ مَا أَقُولُ عَسَاكَ^(٢)

الكلمة: [٤]: ﴿أَمِينٌ﴾ لم يكتف بوصف نفسه بالناصح حتى وصف نفسه بالأمانة في النصح، فقال: ﴿نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾، والأمانة مشتقة من الأمن، فهي صفة في الإنسان تبعثه على إسباغ الأمن على غيره بحفظ حقوقهم، والقيام عليها، وهي من أعظم أخلاق المسلمين، وكان النبي ﷺ يكرر على أمته وجوب التزامها، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ما خطبنا نبي الله ﷺ إلا قال: «لا إيمانَ لمن لا أمانةَ له، ولا دينَ لمن لا عهدَ له»^(٣).

ولماذا يجمع هود عليه السلام بين النصيحة والأمانة، فيقول: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]؟

الجواب: يجمع هود عليه السلام هنا بين النصح والأمانة لثلاثة معانٍ:

الأول: لأن النصيحة تعني أن يجمع بين ما يعلمه من معلومات تتعلق بالعقيدة الصحيحة، ويقدمها لهم في أجمل صورة كما يقدم الخياط الثوب في أجمل هيئة، والأمانة تعني ألا يكون في هذه المعلومات أشياء مُزَيَّنة في الخارج مسمومة من الداخل، فهو أمين فيما يقدمه لهم لينفعهم في الدنيا والآخرة.

(١) مقاييس اللغة (٥/ ٤٣٥)، المفردات في غريب القرآن (ص ٨٠٨)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٤/ ٢٢٠٧).

(٢) ذكرت دون ذكر قائلها في: مجموعة رسائل التوجيهات الإسلامية لإصلاح الفرد والمجتمع (١/ ٤١٠).

(٣) أحمد (١٢٣٨٣)، وصححه ابن حبان (٤١٤٢)، وحسنه البغوي في شرح السنة (١/ ٧٥).

الثاني: النصيحة تعني أن يقدم لهم الفكر الصافي كما أن العسل الصافي يسمى الناصح، والأمانة تدل على التزامه بما أمر رب العالمين، فهو يبلغه لهم دون أن يزيد عليه أو ينقص، أي: أنا لكم ناصح فيما أدعوكم إليه، أمينٌ على ما أقول لكم لا أكذب فيه.

الثالث: ثَمَّة معنى ثالث يلوح في هذا التعبير كأنه يقول: عُرِفْتُ فيما بينكم بالنصح والأمانة، فما حقي أن أتهم، لماذا تتهمونني إذا؟ ف"الأمين هو الثقة، وهو فعيلٌ من آمنَ يَأْمَنُ أَمْنًا، فهو آمِنٌ وأمينٌ بِمَعْنَى واحدٍ"^(١).

بصيرة: هذا التعبير الجميل: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾^(٢) كأنه يخاطب فيه قلوبهم ليتركوا العناد والشقاق والمخاصمة، وينتهبوا إلى شدة شفقة هود عليه السلام عليهم، ومحبته لمصالحهم ومنافعهم.

فَلَلَهُ دَرْ قَوْمٍ فَهَمُّوا حَقِيقَةَ الْوُجُودِ، وَتَأَمَّلُوا الْهَدَفَ مِنْ حَيَاتِهِمْ وَالْمَقْصُودَ، وَاشْتَغَلُّوا بِأَعْظَمِ مَصَالِحِهِمْ فِي طَاعَةِ الْمُعْبُودِ، وَانْتَبَهُوا وَالْخَلْقُ رُقُودُ، يَصُقُّونَ الْأَقْدَامَ وَيُنَاجُونَ الْمَلِكَ الْعَلَامَ^(٣).

بَلِيَّ الْحَدِيدِ وَمَسَّنَا الْقَرْحُ	فَمَتَى تَفِيْقُ أَخِي مَتَى تَصْحُو
وَالْوَعَاتُ كَمْ انْقَضَتْ	وَامْتَدَّ لَيْلٌ مَا لَهُ صَبْحُ
وَبَغَى وَحُوشٌ لَيْسَ يَرْدَعُهُمْ	خُلِقَ وَلَا دَيْنٌ وَلَا نَصْحُ
أَلْفَاظُهُمْ مَطْلِيَّةٌ عَسَلًا	وَقُلُوبُهُمْ بِسُومِهَا رَشْحُ
وَالْوَحْشُ وَحْشٌ دِينُهُ فَمُهُ	وَالْغَدْرُ لَا يَمَحُوهُ مَنْ يَمَحُو
وصحا الترابُ أخِي ولم تَصْحُ	وَيَلِيْ عَلَيْكَ أَيْنَعُ النَّوْحُ ^(٣)

(١) تفسير الرازي (٣٠١/١٤). ويُنظر: لسان العرب (٢١/١٣).

(٢) التبصرة لابن الجوزي (٢٨/٢).

(٣) الأبيات للشاعر الدكتور عبد الرحمن بارود. ينظر: الأعمال الشعرية الكاملة (ص: ١٠٠).

وقد تسأل: ما الفرق بين التعبيرين اللذين صدرا عن نوح وهود عليهما السلام في هذا الموضوع، فنوح عليه السلام قال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رَّبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٦) وأما هود عليه السلام فقال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ (٦٨)؟

الجواب: نوح عليه السلام قال: ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ بصيغة الفعل المضارع، ليبين أنه يتعاهدهم بالنصح ساعة بعد ساعة، ووقتاً إثر وقت، فقد بذل جهداً عظيماً، وعبر عن ذلك في غير هذا الموضع فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءً إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعَهُمْ فِي عَادَتِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩)﴾ [نوح: ٥-٩].

وأما هود عليه السلام فقال: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ (٦٨) على هيئة اسم الفاعل، والاسم يدل على ثباته على هذا الوصف الذي وصف به نفسه، واستمراره عليه فنوح عليه السلام ركز على ما يفعله في كل وقت، وأيضاً بين حركته وأنه لا يبالي أن يذهب هنا أو يذهب هناك، وهذا ما يفيد الفعل من الحدوث والتجدد والتكرار.

أما هود عليه السلام فركز على وصفه الذي لا يستطيع أن ينفك عنه، وبين ثباته على ذلك وتخييره لاختيار الوقت المناسب ليبين هذا النصح، وهذا ما يفيد الاسم من الاستمرارية والثبات والدوام، وكل من الموقفين مطلوب بحسب الأقوام الذين يعيش فيهم الداعية، وبحسب تقلب حالهم وأوضاعهم، وهذا الجمع أفضل من ادعاء محمد رشيد رضا رحمته الله أن صيغة هود عليه السلام التي تعني الثبات الدائم أقوى من تعبير نوح عليه السلام (١).

والذي يظهر لي أن القضايا المشتركة بين الأنبياء عليهم السلام لا بد أن يذكر الله تعالى أهمها كلما ذكر نبياً منهم، فيذكر عن نبي شيئاً، ويذكر عن نبي شيئاً آخر على سبيل الاحتباك (٢)، فيذكرها عند نبي، ويذكر مقابلها اللفظي أو المعنوي عند نبي آخر، وذلك كله لتعلم أن هذا النبي ذكر الموضوع الذي

(١) تفسير المنار (٨/ ٤٤٣).

(٢) الاحتباك: هو أن يجتمع في الكلام متقابلان، ويُحذف من كل واحد منهما مقابله، لدلالة الآخر عليه. ينظر: التعريفات (ص: ١٢).

ذكره الآخر، ولكن الإيجاز يقتضي ذكر شيء عند هذا النبي، وذكر مقابله المعنوي أو اللفظي عند الآخر.

وهنا ذكر الله ﷻ أن نوحًا عليه السلام كان يجدد لهم النصح، لذا قال عنه: ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾، ولا يعني هذا عدم ثبات النصح عنده، وأنه صفة دائمة يعبر عنها الفعل المضارع الذي يدل على التجدد، كما وصف هود عليه السلام نفسه بأنه: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [٦٨] ليدل على رسوخ النصح في كلامه ورسالته، ولا يعني هذا عدم تجدد فعله ذلك.

ثم قال هود عليه السلام: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٩].

فما الحقيقة الجديدة التي يريد أن يبينها هود عليه السلام لقومه هنا؟

الجواب:

الحقيقة الخامسة: وجود رسالة إلهية يكلف بها رجل هي قضية حكيمة منطقية عادلة، فلماذا تستنكرونها؟ بل على البشر الإيمان بهذا الرجل الذي اختاره الله ﷻ ليكون نبيًا، فذلك ما تقتضيه الحكمة: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٩].

هذه الكلمة المنيرة ﴿أَوْعَجِبْتُمْ﴾ بِمَ تَذَكَّرْنَا؟

الجواب: تذكرنا بكلام نوح عليه السلام مع قومه، فهي العبارات ذاتها التي قالها نوح عليه السلام، وذكرها الله ﷻ في قوله: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣].

بصيرة: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾: هذه الكلمات التي تكررت تظهر بوضوح بالغ تماثل القضايا النبوية الرئيسة، والتقارب الكبير بين الأنبياء ﷺ في وسائل الإقناع.

وهذا التماثل يذكرنا بأن الله ﷻ يعلمنا أن نناقش بأسلوب ذاته من ينكر نبوة النبي الخاتم ﷺ، إذ يقول الله ﷻ عنه: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٢٠].

فانظر كيف يستنكر الله تعالى من عجب هؤلاء الناس عندما يرسل إليهم ذكراً منه على رجل منهم، وينكرون أكثر القضايا عقلانية وحكمة ومنطقية!!

يا للعجب!! يجيئهم ذكر من ربه نزل على رجل منهم ليعاملهم بأعلى درجات الإشفاق والمحبة، فينذرهم الأخطار التي تنتظرهم لو أصروا على اتباع أهوائهم، ونبذ كلمات ربه ﷻ، وهم يقابلون ذلك كله بالعجب، فكان عجبهم هذا جديراً بالاستنكار من الله تعالى.

انظر كيف تَخَاطَبَ معهم حتى يقنعهم بمنطقية هذه القضية وعدالتها وأهميتها ليظهروا لأنفسهم أنهم يُعْمِلُونَ عقولهم.

بصيرة: يُدَكِّرُهُوُذُ الْعَلَمَةِ قومه أن النبوة قضية عقلية منطقية واضحة، يجب على كل عاقل أن يؤمن بها، وإنكارها يدل على خلل في التفكير، ويقنعهم بذلك بأسلوب عقلي واضح جميل.

وقد خضنا في بحار هذه الكلمات المباركة عندما تدارسنا قصة نوح ﷺ في هذه السُورَةِ طويلاً، فِيرْجِعْ إليها، وخلاصةً ما تذاكرناه ما يأتي:

الكلمتان: [٢-١]: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ﴾ فالهمزة للسؤال، دخلت على الواو، وهذه الواو عاطفة تربط ما قبلها بما بعدها.

الكلمة: [٣]: ﴿عَجِبْتُمْ﴾ كلمة تدل على استعظام المتكلم لأمرٍ لخفائه أو لأنه لم يُعهد مثله، أو لتنزيله منزلة الخفي الدقيق عليه أو على سامعيه.

الكلمات: [١١-٤]: ﴿أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾.

أي: أيعتريكم العجب المستنكر أن أكون رسولاً من ربكم إليكم؟

فهل تعجبون من أن يُنزل ربكم الذي خلقكم وحياً يذكركم به، ويشرّفكم به؛ لتتعلموا كيف تعيشون أكرم حياة في هذا الكون؟!
أم هل تعجبون من أن يُنزل الله ﷻ هذا الوحي على رجل منكم تعرفونه، وترونه، فلا يكون ملكاً لا ترونه، ولا جَنِيّاً تخافونه؟!
أليس نزول الذكر على رجل منكم هو عين العقل والحكمة والمنطق؟
أم هل أصابتكم حالة انفعالية نفسية عند رؤية مسألة بهذا الوضوح؟

بصيرة: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾: التَّعَجُّبُ إنما يكون في المسألة الغامضة أو غير المعتادة، فلماذا تتعجبون في مسألة منطقية عقلانية معتادة، وهي أن يأتي ذكرٌ من ربكم الذي خلقكم وهو ملككم ومربيكم، ويكون هذا الذكر على رجل منكم؟!

تَعْجِبُكُمْ هنا غير حكيمٍ ولا منطقي، فينبغي أن تُداووا عقولكم حتى تروا الشيء الصحيح صحيحاً والشيء الخاطئ خاطئاً.

لماذا عدل عن الإنكار المباشر إلى السؤال الإنكاري في قوله ﷻ: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾؟

فعندما ننظر إلى همزة السؤال، وإلى الواو، وإلى كلمة: (عجبتُم) يكون المعنى: كأنه قيل: أكذبتموني وعجبتُم أنْ جاءكم ذكرٌ من ربكم على رجل منكم، وهو أمرٌ لا يدعو للعجب بل ينبغي لكم أن تؤمنوا وتذعنوا.

فقابلهم بالسؤال الإنكاري، والسؤال ألطف من الإنكار المباشر، وكونه إنكارياً أدعى لأن يحرك بعض المخاطبين عقولهم، ويراجعوا موقفهم، ويثير أنفسهم ليبحثوا عن إجابات فيروا أن ما قالوه كان خطأً عقلاً وعرفاً، وليكونوا أكثر إدراكاً وفهماً، ومحاولة لتحليل الأحداث كما ينبغي أن تحلل لا كما تعاند نفوسهم.

فالواو عاطفة كأنه قال لهم: ﴿يَقُومُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾، ولا عجب في وضوح دليل العناية الإلهية بكم إذ اختار رجلاً منكم ليكون رسولاً يبلغكم، فكيف تعجبون أنتم؟! إلا أن يكون عندكم خلل في عقولكم، فما هذا الذي يصدر منكم في مقابل ذلك؟! أعجبتكم أن يكلائكم الله ﷻ بعنايته فيُنزل ذِكْراً على رجل منكم لينذركم؟!!

أهمية النبوة لتحقيق الإنذار المبين والنصح الأمين للبشرية:

رأينا أن هوداً عليه السلام اختصر الكلام اختصاراً مثيراً حينما قال: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٩]، فقد ضَمَّن كلامه هذا حشداً مكثفاً مقنعاً بضرورة النبوة في الحياة البشرية، وبضرورة الإيمان بها، وتعال نحلل الكلام من منظوره ليتضح لنا ذلك، فكأنه يقول لهم:

أما أولاً: فينبغي أن تقتنعوا بضرورة وجود الوحي والنبوة، ولذا قال لهم: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾:

عندما نحلل كلامه كأنه عليه السلام يقول: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، ينبغي أن تقتنعوا بضرورة وجود الوحي والنبوة، والتحليل الرفيع الغالي لهذا الكلام العالي أنه يقول لهم: أنتم ترون مقدار العناية الإلهية بأجسامكم، وتشاهدون دقة العناية الإلهية وعظمتها في البيئة التي حولكم، إذا الله ﷻ خلقكم في أحسن تقويم، والله ﷻ خلق لكم البيئة التي تعيشون فيها، فهل من المعقول ألا يهدي عقولكم لما يريد منكم؟! فهل هناك عجب في أن يكمل عنايته بكم، فيُنزل ذِكْراً منه إليكم؟! كيف لا، وهو ربكم الذي ربى أجسامكم أفلا يربّي عقولكم وأفهامكم؟!!

وما الحكمة من استعمال كلمة ﴿ذِكْرٌ﴾ في التعبير عن الوحي دون غيرها من الكلمات؟

الجواب: كلمة ﴿ذِكْرٌ﴾ تبصرنا بدلالات لا نجدها في غيرها، فهي تصوّر لنا الوحي الذي يجيء من ربنا ﷻ ويجعلنا مذكورين عنده، ومذكورين في الحياة كلها.

الذِّكْر الذي يجيئنا منه يذكرنا كيف نتحرك في هذه الحياة، ويذكرنا بما غرسه الله ﷻ في فطرتنا يوم أخذ علينا العهد ونحن ذرية في ظهر أبينا آدم عليه السلام، يذكرنا كيف ننظم تشريعاتنا وقوانيننا من

أجل أن نسعد. فكأنه يقول: ما العجب في أن يأتيكم ذكر من ربكم؟! ما المشكلة في ذلك حتى تتعجبوا ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؟!

ثانيًا: وبعد أن أقنعهم هود عليه السلام بضرورة وجود الوحي والنبوة في الحياة الإنسانية انتقل ليقنعهم بضرورة أن يكون هذا الوحي الذي يجيء من ربنا على يد رسول منه، فهم في الدنيا يعلمون أن مَلِكًا بلد من البلدان لا يليق أن يكلم كل إنسان من ساكني بلده على حدة، بل يرسل رسله ليلغوهم ما الذي يريده منهم، وما الذي ينفعهم، وما السياسات التي ينبغي أن يتبعوها لتنمو حياتهم وتستقر، فلا بد من رسول مباشر أو عبر وسائل الإعلام، ولله المثل الأعلى، فكذا لا بد من رسول يأتي بالذِّكر الذي أراد الله تعالى أن يبلغه عباده.

ثالثًا: أقنعهم بضرورة أن يكون الرسول الذي جاءهم بهذا الذكر رجل منهم، فقال لهم: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٩]

صور محتملة لمجيء الرسل لإقامة الحجة على الناس أجمعين:

إذا كانت العناية الإلهية تقتضي من الناحية المنطقية أن يجيئكم ذكر من ربكم، لإنذاركم من الأخطار الواقعة أو المتوقعة في الدنيا والآخرة فإنَّ هناك ثلاثة احتمالات واردة:

الاحتمال الأول: أن تطلبوا منه أن يكلم كل واحدٍ منكم بصورة مباشرة، فهل تجدون ذلك مقبولًا في القياس البشري؟! أي أنتم لا تقبلون في القياس البشري أن يكلم المَلِك كل واحد من شعبه؟ إذا كيف تقبلون في منطقكم أن يكلم الله تعالى كل واحد منكم؟! والمشركون المتكبرون يطلبون هذا المطلب ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ [البقرة: ١٨٨]، وهود

عليه السلام بهذا الكلام يبين لهم أن هناك ثلاثة احتمالات سيحاصروهم بها.

فهل تظنون أنه يجب أن يكلم الله تعالى كل واحدٍ منكم بصورة مباشرة؟ فهذا الاحتمال الأول، وهو غير مقبول في عالم البشر، فكيف يطبقونه على خالق القوى والقُدَر؟!

ثم كيف يكلمكم بصورة مباشرة وهو الله تعالى وأنتم مخلوقون ضعفاء وهو الله المَلِك الأعلى؟!

إن مجرد الإصرار على هذا الطلب يدل على أنكم لا تُقدرون الله حق قدره، وأنكم استكبرتم.

ثم كيف يكلمكم بصورة مباشرة ويتحقق بذلك الاختبار لإعمال أذهانكم في المسائل الغيبية هل ستؤمنون أو لا؟!

وقد يقول قائل: وما المانع أن يكلم كل واحد منا حتى نؤمن به؟

فنقول: قد كلم إبليس ربه ﷺ، وكان يرى الغيب بالنسبة لنا شهادة أي حاضرًا بالنسبة له، فهل نفعه ذلك؟ لا، بل استكبر، وقد ذكر الله ﷻ قصته في هذه السورة، فالإيمان لا يتوقف على أن يرى الإنسان ربه ﷻ بالمشاهدة، بل على كسر الكبر في قلبه.

الاحتمال الثاني: أن يرسل الله ﷻ لكم رسولًا من غير جنسكم كأن يرسل لكم ملكًا.. فكيف يمكنكم أن تصدقوه اعتمادًا على القناعة العقلية وأنتم لا تعرفونه؟! ستقولون: هذا مخلوق مختلف عنا، وربما تعبدونه كما يعبد كثير من البشر كثيرًا من الحيوانات الموجودة والخيالية كالتَّيَّين، فلو جاء الملك فإما أن تروه عظيمًا أو كبيرًا أو قويًّا فتعبدونه، وإذا كان الناس يعبدون الدُّب والنمر والأسد والفأر، تخيل: يعبدون الفأر! لمجرد اختلاف الجنس، بل زعموا أن الطاقة وما يسمونه (الشاكرا)^(١) تنبعث من هذه الحيوانات التي هي مُسخرة لخدمة الإنسان في الأصل، فكيف سيفعلون لو رأوا الملائكة؟

يعبدون الشمس ويعبدون القمر فكيف إذا جاءهم ملك؟، سيتحول الأمر من أن يعبدوا الله ﷻ إلى أن يعبدوا الذي جاءهم منه ويتصورون أنه إله.

وإذا كان بعضهم قد عبد عيسى عليه السلام، فكيف سيفعلون مع الملك الذي نفخ في مريم الروح لتلد عيسى عليه السلام؟! وإذا كانوا قد عبدوا أم عيسى عليها السلام، فكيف سيفعلون مع الملك الذي كلمها وقال لها: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩]؟!

نصل من هذا إلى أنه ليس من المنطقي أن يأتي نبي من غير جنسكم، بل إنكم تنسجون الأساطير حول الملائكة والشياطين، فكيف يمكنكم التمييز بينهما؟!

فيحتمل إذا جاء الملك أن تقولوا: هذا ليس ملكًا بل هو شيطان، وقد انتشرت عبادة الشيطان وادعاء القوة العظيمة له... اسمع فقط لما يشاهده الأطفال والكبار في الأفلام العادية أو أفلام الرسوم المتحركة..

فأن يكون الرسول من غير جنسكم أمر غير معقول ولا حكيم ولا منطقي.

(١) هي مفهوم شهير في الثقافة الهندية القديمة (الهندوسية)، وتشير إلى مراكز الطاقة السبعة في جسم الإنسان، التي تتحكم بحالته النفسية والجسدية، ويطلق عليها (مراكز القوة).

الاحتمال الثالث والأخير: أن يرسل إليكم بشراً رجلاً منكم، فكلمة ﴿مِّنْكُمْ﴾ توضح أنه بشر من قومكم المعروفين عندكم، وقد عايشتموه فعرفتكم صدقه وعقله وأمانته، وهذا الاحتمال هو الاحتمال الحكيم المنطقي والمقبول.

وهنا ندرك المعاني الحكيمة المنطقية المذهلة لهذه الكلمات المتتابعة: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٩]. تخيل كل هذا التحليل لأجل كلمة: ﴿رَجُلٍ مِّنْكُمْ﴾ كيف تكون بمثابة إقناع لهم بأن رسالته من الله ﷻ أمر حكيم منطقي طبيعي ينبغي أن تصدقوا به وتتعاملوا معه.

وكلمة: ﴿مِّنْكُمْ﴾ تدل على أمرين معاً: أن يكون الرسول بشراً، وأن يكون من قوم المرسل إليهم ليعرفوا أمانته وصدقه قبل أن يؤمر بالرسالة.

وهنا بصيرة ثالثة لكلمة: ﴿مِّنْكُمْ﴾ وهي: أن يظهر لهم أن عزَّه عَزَّهُمْ وأن شَرَفَهُ شَرَفَهُمْ، وأنه يريد أن يرفعهم إلى المحل الأعلى والمكان الأسنى، وأنهم ينبغي أن يفتخروا بأن الرسول الذي جاء من الله ﷻ كان منهم، وهم يعلمون هذا لكنهم يكابرون، وقد أخبرنا الله ﷻ عن قريش أنهم يفرحون لو كان الرسول منهم، لكنهم يستكبرون، فيشتربون أن يكون الرسول فلاناً، فقال الله ﷻ عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِثِيِّينَ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

بذا صورت لنا الآية كيف سلك هودٌ ﷺ السبيل الصحيح ليقنعهم بضرورة وجود النبوة، هذا أولاً، وثانياً: بضرورة أن يكون النبي رجلاً، وثالثاً: بضرورة أن يكون رجلاً منهم، وبدا لنا ذلك في قوله تعالى: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٩]، ثم قال بعدها: ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ فما الإضافة الجديدة التي أضافها هذه الكلمة في طريقة إقناع هود ﷻ لقومه برسالته؟

تصور لنا الآية كيف أقنعهم هود ﷻ بصورة بارعة بضرورة النبوات في حياة البشر. والآن يقنعهم بأهمية محتوى الرسالة الإلهية، فعندما يأتيهم رجل منهم رسولاً من عند الله ﷻ، فبماذا سيأتي إليهم؟ وما المتوقع أن يبلغهم؟

المتوقع: أنه سيأتي إليهم من أجل أن يبلغهم ما يحمهم من الأخطار الواقعة والمتوقعة التي ربما سبها بعضهم وربما جاءت من خارجهم، وهذا الذي قاله هود عليه السلام في هذه الكلمة المباركة: ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾، وهذا يجعلك تجمع بين هذه الآية وأول السورة في قوله ﴿كَتَبُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ لماذا؟ ﴿لِيُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، فذكر الإنذار في أول الآية، ونحن قلنا بأن هذه السورة مبناها على جعل القرآن كتاب الإنذار من الأخطار الواقعة والمتوقعة.

فكلمة: ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾: تلخص لنا فحوى هذا الذكر الذي جاءهم من ربهم بواسطة رسول منهم يعرفونه.. إن أهم محتويات هذا الذكر الإنذار من الأخطار الواقعة أو المتوقعة إن انحرفت البشرية عن اتباع ما أنزل إليها، والإنذار يدل على العلم بالماضي والحاضر والمستقبل.

هذه الكلمة بصرتنا بأفكار كثيرة، فكيف ينذر إنذاراً حقيقياً، وهو لا يعرف الماضي؟! وكيف ينذر إنذاراً حقيقياً وهو لا يعرف الحاضر ولا المستقبل؟! ومن الذي يُعَرِّفه بذلك كله؟ إنه الله ﷻ الذي يعلم الغيب والشهادة، وأحاط بكل شيء علماً.

والإنذار يدل على إشفاق المنذر على المنذر، فهو يخاف عليه من أن يقع في المهالك الحاضرة والمستقبلية.

واكتفى هود عليه السلام هنا بذكر الهدف الأول الأكبر لمجيئه إليهم بالذكر الذي أنزله الله ﷻ عليه، وهو: ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ أي ليحذركم تحذيراً مبكراً من أن تحل بكم أخطار واقعة أو متوقعة. والإنذار: هو التنبيه المشفق والتحذير الشديد من خطر واقع أو متوقع. فهل هذه مصلحة للمنذر أم للمنذر؟

بصيرة: هناك منفعة واضحة للمنذر في المقام الأول، ويجب عليه أن يشكر من ينذره: إذ الإنذار: يعني إشفاق المنذر ومحبته ورعايته ورحمته بالمنذر: لأنه لو لم يُنذره أحد لوقع في هلكة، أو هاوية، أو نكبة، أو مصيبة.

ولما بين لهم هود عليه السلام ضرورة وجود النبوة أولاً، وضرورة أن يكون النبي رجلاً منهم ثانياً، وأن أهم محتويات الرسالة الإلهية ينبغي أن يتعلق بالإنذار من المخاطر المتوقعة والواقعية، يواجهنا قول

هود عليه السلام لقومه بعد ذلك: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩]، فما دور هذه الكلمات في إقناعهم؟

الجواب: هنا تأتي حقيقة جديدة من الحقائق التي يبينها هود عليه السلام لقومه، وهي: الحقيقة السادسة: السيطرة على الإدارة في الأرض ابتلاء وليس مجرد عطاء، فكل أمة أعطاها الله ﷻ القوة في زمنٍ من الأزمان ليتليها؛ لا لأنها حصلت على ذلك لجنسها، فأمة هود عليه السلام جاءت مستخلفة بعد قوم نوح عليه السلام: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾، فاستخلفكم بعدهم، كما سيستخلف قوماً بعدكم، فاستغلوا الفرصة في بناء الخير لأنفسكم:

وهذا المعنى جعله الله ﷻ محوراً كلياً يتكرر بصور مختلفة في القرآن المجيد، كما في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ [٣٣] إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٤﴾ [الأنعام: ١٣٣-١٣٤].

فهو عليه السلام ينتقل بهم إلى إقناعهم بتحريك عقولهم في البعد التاريخي، فيخبرهم عن تاريخ قريب رأوه أو رآه بعضهم، وسمع عنه بعضهم الآخر، وقد علموا بعض تفاصيله ليعتبروا به، كأنه أمرهم بضرورة الاتباع والاستسلام لما يقتضيه العقل، وحذرهم من العناد، فكأنه قال لهم: فآمنوا واحذروا من عدم الاتباع واذكروا إن جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح عليه السلام، فقد عرفتم ما حل بهم، فلا يصيبكم ما أصابهم.

فطلب منهم التذكر، وقال: ﴿وَاذْكُرُوا﴾ أي: لا تُغفلوا التاريخ، فهو من أعظم الوسائل التي تعرف بها السنن الحاضرة والمستقبلية، ويبنى عليها مصير الدول والأمم، فالغفلة عنه تسبب الاضطراب في اتخاذ القرارات والأفكار، ثم فصل لهم التاريخ الذي ينبغي أن يتذكروه ولا ينسوه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾، ف«إذ» مفعول به ينطوي على ظرف الزمان والمكان، أي: اذكروا

حال أن الله ﷻ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﷺ، والخُلَفَاءُ: جَمْعُ خَلِيفَةٍ، وَهُوَ الَّذِي يَخْلُفُ غَيْرَهُ فيما كان يسير فيه الذي سبقه^(١).

فهل تغفلون عما كان منهم، وما حدث لهم، أو ما تخافون أن يحل بكم ما حل بهم؟ وخصص قوم نوح ﷺ لقرب زمانهم، واشتهار أمرهم، قال ابن الوردي:

كُتِبَ الموتُ على الخلقِ فكم
فلَّ مِنْ جَمْعٍ وأفنى مِنْ ذُوْلٍ
أَيَنْ نمرودُ وكنعانُ وَمَنْ
مَلَكَ الأمرِ ووَلَّى وعزْلُ
أَيَنْ مَنْ سادوا وشادوا وبنوا
هَلَكَ الكلُّ ولم تغني القُلُلُ
أَيَنْ أربابُ الحِجَا أهلُ الثُّهى
أَيَنْ أهلُ العلمِ والقومُ الأولُ
سيعيدُ اللهُ كلاً منهم
وسيجزي فاعلاً ما قد فعل^(٢)

والتذكير بالتاريخ له أثره الكبير في رجوع العقل إلى الصواب، واتخاذ القرار اللائق المناسب:

اقرأ التاريخَ إذ فيه العبر
ضاع قومٌ ليس يدرون الخبر
فلا تحتقرِ عالماً أنتَ فيه
ولا تجحدِ الآخرَ المنتظرَ
وخذْ لك زادين: من سيرة
ومن عملٍ صالحٍ يُدخِرُ^(٣)

والآية تحتمل أنه ذكر قوم نوح ﷺ لأن ملك عاد اتسع ليشمل ديارهم وممالكهم وأموالهم أي: من اليمن إلى العراق وما يتصل بها مِنَ المنافع والمصالح.

ثم انتقل إلى وسيلة إقناعية جديدة، فذكرهم بنعمة أوتوها لم يؤتها مَنْ قبلهم، وهي نعمة عظمة الأجساد، فقال: ﴿وَرَأَدَكُمُ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩] فلماذا ذكرهم بهذه النعمة؟ يأتي الجواب في الحقيقة الآتية:

(١) يُنظر: التحرير والتنوير، (٨/٢٠٥).

(٢) ينظر: نفع الأزهار في منتخبات الأشعار (ص: ٥٢).

(٣) البيتان الأخيران لأحمد شوقي، كما في الشوقيات (ص: ٨٥١)، ديوان أحمد شوقي (ص: ٢٣٤).

الحقيقة السابعة: انتقل بهم إلى وسيلة إقناعية منطقية جديدة تجعلهم يسلّمون بصحة ما أخبرهم به، حيث ذكرهم بنعمة أوتوها لم يؤتوها من قبلهم، وهذه النعمة توجب الشكر لمسديها ﷺ، وهي نعمة عظمة الأجساد التي لم يخلق مثلها في البلاد فقال: ﴿وَرَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصُطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩]:

ينبغي أن نلتفت إلى أن الخلق يأتي بمعنى المصدر، وبمعنى المفعول به: فالخلق بمعنى المصدر: الإيجاد في تقدير مستقيم، والخلق بمعنى المفعول: هو الشيء أو الشخص الذي تم إيجاده في تقدير مستقيم. ولا بد أن يكون جسمًا، وقد يكون معنى عظيمًا صدقًا أو كذبًا. ﴿وَرَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصُطَةً﴾ أي: في الجسد الذي خُلق، أي: في طبيعة خلقكم، إذا الجسد وطبيعة الخلق، والبسطة بالسين والصاد: الْوَفْرَةُ وَالسَّعَةُ والغنى في أمرٍ مِنَ الْأُمُورِ. فالمراد هنا أن الله ﷻ زاد في خلقهم في أربع جهات:

الجهة الأولى: في أجسامكم طولًا وعِظْمًا على أجسام قوم نوح عليه السلام، وفي قُواكم على قُواهم حتى قيل: كان أقصرهم ستين ذراعًا، وأطولهم مائة ذراع، وربما كان هذا من المبالغات، ولا يوجد عندنا دليل صحيح على ذلك، لكننا نعلم أن الله ﷻ زادهم في الخلق بسطة، وإن كان الناس يتكلمون عن العماليق، ولكن التعبير القرآني يدل على تميز عاد عما قبلها وما بعدها في القوى والأجساد.

الجهة الثانية: ﴿وَرَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصُطَةً﴾ رأى الرازي رحمه الله أن ذلك في كُونِهِمْ مِنْ قَبِيلَةٍ وَاحِدَةٍ مُتَشَارِكِينَ فِي الْقُوَّةِ وَالشَّدَّةِ وَالْجَلَادَةِ، وَكُونِ بَعْضِهِمْ مُحِبًّا لِلْبَاقِينَ نَاصِرًا لَهُمْ، وَزَوَالِ الْعَدَاوَةِ وَالْخُصُومَةِ مِنْ بَيْنِهِمْ^(١)، لأن قوة الإِتْلَافِ أيضًا قوة، فهي من زيادة الخلق بسطة.

الجهة الثالثة: بسطة في العقول، رأى ابن عاشور رحمه الله أن من البسطة التي أوتوها في خلقهم: الذكاء الكبير حتى اشتهر عند العرب نسبةُ الْعُقُولِ الرَّاجِحَةِ إِلَى عَادٍ، وَنِسْبَةُ كَمَالِ قُوَى الْأَجْسَامِ إِلَيْهِمْ، قَالَ النَّابِغَةُ:

(١) تفسير الرازي (١٤/ ٣٠١).

أَحْلَامُ عَادٍ وَأَجْسَامُ مُطَهَّرَةٌ مِنْ الْمَعَقَّةِ وَالْأَفَاتِ وَالْإِثْمِ^(١)

وَقَالَ وَذَلِكَ بِنِثْمِ الْمَازَنِ:

وَأَحْلَامُ عَادٍ لَا يَخَافُ جَلِيسُهُمْ وَلَوْ نَطَقَ الْعَوَارُ غَرِبَ لِسَانُ^(٢)

ماذا نفيد من هذين البيتين؟

أن العرب تناقلت تميز أحلام عاد وذكاءهم حتى صار يضرب بها المثل.

الجهة الرابعة: بسطة في الناس أي: قدرة على السيطرة عليهم، ولأجل ذلك أقاموا حضارة عظيمة وصفها الله ﷻ بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۖ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۖ الَّتِي لَمْ يُخَلِّقْ مِثْلَهَا فِي الْبَلَدِ ۖ﴾ [الفجر: ٦-٨]؛ وَذَلِكَ لِيُشَدَّ بِأَسْبِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ^(٣)، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ۖ﴾ [فصلت: ١٥].

ثم ختم حوار به بقوله: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۖ﴾ [الأعراف: ٦٩]، فما معنى هذه

الكلمة: ﴿آلَاءَ﴾؟ ولماذا ختم مرافقته بهذا الختم؟

يأتي الجواب في الحقيقة الآتية:

الحقيقة الثامنة: ختم هود عليه السلام حوار الإقناعي بختم مشيرٍ، فقال لهم: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۖ﴾ [الأعراف: ٦٩]، فحثهم فيه على تذكر عجائب صنع الله ﷻ نعمًا ونقما حتى يسهم ذلك التذكر في تحقيق الفلاح لهم في كل قرار يتخذونه:

﴿فَاذْكُرُوا﴾ أي: حركوا عقولكم، واملؤوا قلوبكم وعواطفكم بتذكر أمر عظيم؛ إذا تذكرتموه حقاً

التذكر أسهم ذلك في أن تحققوا الانتصار والفوز ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۖ﴾، ما هذا الذي يجب أن

يتذكروه؟

(١) ديوان النابغة الذبياني (ص: ٨١)، ونفع الطيب من غصن الاندلس الرطيب (٤/ ٥٣٢).

(٢) الحماسة البصرية (١/ ١٥٣)، التحرير والتنوير (٨-ب/ ٢٠٦).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٣٣).

قال: ﴿ءَالَاءَ﴾، فما معنى هذه الكلمة؟

الجواب: وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم (٣٤) مرة: مرتين في سورة الأعراف الآيتين: (٦٩، ٧٤)، ومرة واحدة في سورة النجم الآية: (٥٥)، والمواضع الباقية في سورة الرحمن. وأجمع أهل اللغة وعامة المفسرين على أن معناها: النعم^(١)، فهي جمعٌ لكلمة: (إِلِيٍّ)، بالكسر، (وَأَلُوٍّ) بالفتح، كذَلُّوْا ودَلَّاءُ، (وَأَلِيٍّ)، بالياء، و(أَلَا)، كَرَحًا وأَرْحَاءَ، (وَأَلِيٍّ)، بالكسر، كِمَعَى وأَمْعَاءَ، وعلى الأخيرة تكتب بالياء^(٢).

قال ابنُ عَبَّاسٍ رحمته الله: ﴿ءَالَاءَ اللَّهِ﴾ أي: نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ^(٣)، وينقل العلامة المحقق د/ محمد أجمل أيوب الإصلاحي في تحقيقه لكتاب مفردات القرآن لنابغة الهند عبد الحميد الفراهي الهندي (ت ١٣٤٩ هـ) أن الإمام رحمته الله يرى أن القرآن وكلام العرب يبيان هذا المعنى أي: أن تكون آلاء بمعنى نِعَم فقط، والظاهر عنده أن الآلاء هي: "الفعال العجيبة، فيدخل فيها النعم العظيمة، والنعم الجسيمة، والتحويلات الغريبة، والتغيرات العجيبة، ولما كان غالب فعال الله تعالى الرحمة ظنوا أن الآلاء هي النعم"^(٤).

وكلامه صحيح؛ فإن السلف رحمته الله ورحمهم يغلب على تفسيرهم أن يفسروا المفردة بمقارنها أو جزئها أو نتیجتها لا بحقیقة معناها، والسلف إذا سئلوا أجابوا حسب السؤال.

وقال في موضع آخر: "ولما كانت الرحمة من أغلب شؤون الرب سبحانه غلب استعمال هذا اللفظ في معنى النعم، ولكن العربي الثَّخُّ هو الأول -أي: الفعال العجيبة- وبه نزل القرآن"^(٥).

فكلمة الآلاء بمعنى الفعال العظيمة أو الفعال العجيبة تشمل في أصل معناها عجائب لطف الله تعالى وبطشه وقدرته، والنعمة ليست إلا وجهًا واحدًا من وجوه معناها، وقد غلب هذا الوجه على الكلمة فيما بعد؛ لأن غالب أفعال الله تعالى من الرحمة والنعمة، واستدل الفراهي رحمته الله على ما ذهب إليه بالقرآن الكريم وكلام العرب^(٦).

(١) ينظر: تفسير الطبري (٥٥٥/٢٢)، مفردات القرآن للفراهي (ص: ١٢٦).

(٢) ينظر: تاج العروس (٩٧/٣٧، ٩٨).

(٣) تفسير الرازي (٣٠٢/١٤).

(٤) مفردات القرآن للفراهي (ص: ١٢٦): نقلاً عن تعليقاته التفسيرية: (ص: ٤٣٤).

(٥) مفردات القرآن للفراهي (ص: ١٢٦): نقلاً عن تعليقاته التفسيرية: (ص: ٤٣٤).

(٦) مفردات القرآن للفراهي (ص: ٦٩).

وإذا تأملت في القرآن وجدت هذا صحيحًا؛ فقد جاء قوله تعالى في سورة النجم: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ۝ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأَوَّلَى ۝﴾ [النجم: ٥٥، ٥٦]. بعد ذكر إهلاك الأ أقوام، وفي سورة الرحمن جاءت الآية الكريمة: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ عند وصف يوم القيامة وعذاب جهنم في الآيات: (٣٣ - ٤٥) آخرها قوله تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ۝ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ۝ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝﴾ [الرحمن: ٤٣ - ٤٥]، وقد أشكل هذا الموضوع على المفسرين فتعسفوا في تأويله بأن ذكّر جهنم والإنذار من العذاب من النعم؛ لكونه زاجرًا عن الشرك والمعاصي.

وقد فطن بعض أهل التفسير قديمًا إلى أن هذه الكلمة ليست في الأصل بمعنى النعمة، فقال ابن زيد: "الآلاء: القدرة"^(١).

ولكن الغريب أن الطبري رحمه الله أورد هذا القول ضمن الروايات التي احتج بها على معنى النعم، ثم التزم تفسيرها بالنعم في جميع المواضع إلا واحدًا، وهو بعد قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ۝﴾ [الرحمن: ٣٧]، فقال في تفسيرها: "يقول تعالى ذكره: فبأي قدرة ربكما معشر الجن والإنس على ما أخبركم بأنه فاعل بكم تكذيبان"^(٢)؟

وواضح هنا أن الطبري رحمه الله لاحظ أن معنى النعم لا يستقيم في هذه الآية، ففسرها بالقدرة. وقد تساءل العلامة الرازي رحمه الله مرة بعد أخرى في تفسير الآية حينما جاءت بعد ذكر عجائب خلق الله وقدرته، ثم أجاب من وجوه، منها: "أن الآية مذكورة لبيان القدرة لا لبيان النعمة"^(٣)، أي: مثل: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ۝﴾ [الرحمن: ٤٣]، وقال في موضع آخر: "وفي الجواب

(١) تفسير الطبري (٢٢/٢٣).

(٢) تفسير الطبري (٢٣/٥١).

(٣) تفسير الرازي (٢٩/٣٤٩).

قولان... الثاني أن نقول: هذه بيان عجائب الله تعالى لا بيان النعم^(١)، فسبق الرازي (ت ٦٠٦ هـ) الإمام الفراهي (ت ١٣٤٩ هـ) في تقرير المعنى الصحيح للكلمة: ﴿ءَالَاءٌ﴾^(٢).

واستشهد الفراهي بثمانية شواهد على هذا المعنى، منها:

قول طرفة بن العبد يمدح الحارث بن همام بن مرة رئيس بني بكر:

كاملٍ، يحملُ آلاءَ الفتى نبيه، سيّد ساداتٍ، خِصَم^(٣)

وفي ديوان الخنساء قولها:

فبكي أخاك لآلائه إذا المجد ضيَّعه السَّائِسُونَ^(٤)

"لآلائه: أي: لعجائب أفعاله لغنائه وبلائه ومجده".

وقال فضالة بن زيد العدواني وهو من المعمرين:

وفي الفقرِ ذلٌّ للرِّقابِ وقَلَمًا رأيتُ فقيرًا غيرَ نكسٍ مُدَمِّمٍ

يُلامُ وإن كان الصَّوابُ بكفه ويُحَمِّدُ آلاءَ البَخِيلِ المُدْرَهَمِ

"أي: يحمدون صفات البخيل وفِعَاله"^(٥).

ومنها قول الحماسي:

إذا ما امرؤُ أُنْثَى بآلاءِ مَيِّتٍ فلا يُبعدُ الله الوليدَ بنَ أَدْهَمَا

فَمَا كان مِفْرَاحًا إذا الخَيْرُ مَسَّهُ ولا كان مَتَانًا إذا هُوَ أَنْعَمَا^(٦)

(١) المرجع السابق (٣٥٢/٢٩).

(٢) مفردات القرآن للفراهي (ص: ١٢٩).

(٣) ديوان طرفة بن العبد (ص: ٦٠).

(٤) البيت من قصيدة لها في أنيس الجلساء شرح ديوان الخنساء: (ص: ٢٤٣).

(٥) مفردات القرآن للفراهي (ص: ١٣٢): نقلاً عن الحماسة البصرية: (٨٢/٢)، وفيه بلفظ (طالما) بدلاً من (قلما).

(٦) مفردات القرآن للفراهي (ص: ١٣٢): والبيتان في حماسة أبي تمام (٤٥٢/١)، وسعي الشاعر في إحدى نسخها: تميم بن بدر، ووهما بغير

نسبة في ديوان الحماسة (٣٨٣/١).

يقول الفراهي رحمه الله: "فسر ما أراد من الآلاء بذكر أنه لم يكن مفراحا إذا مسه الخير، ولا منانا إذا أنعم"^(١).

بذا قرر الرازي ومن بعده الفراهي رحمه الله وجه الصواب في معنى هذه الكلمة، وحسبك أن تعلم أن المعجم الكبير الذي أصدر مجمع اللغة العربية بالقاهرة الجزء الأول منه سنة ١٩٧٠ م "بعد جهود ربع قرن" لم يزد في تفسيرها على معنى النعمة^(٢)، وهذا نوع من التقصير.

يأمرهم بأن يذكروا آلاء الله ﷻ، هل يعني ذلك أنهم ينبغي أن يذكروا الشمس والقمر، وأن يذكروا أجسامهم وقلوبهم وعقولهم وما يجري من النعم في حياتهم...؟

وبمعنى آخر: هل يعني أمره لهم بأن يذكروا آلاء الله ﷻ أن يعددوا نعم الله ﷻ فقط؟

الجواب: الآلاء تهدي إلى فاعلها وخالقها ومالكها، وهو الله ﷻ، والهداية إلى الخالق تقتضي شكره على نعمه، واتقاءه في أن يُحل بمن يعاديه ما أحل بأعدائه السابقين، فعندما نذكر آلاء الله نذكرها لأجل أن نتذكر بها من أوجدها، فيحل على الكافر نِقْمُهُ، وينزل على المؤمن محبته ورحمته ونِعَمَهُ؛ إذ تدور آلاء الله ﷻ بين العدل والإحسان والرحمة.

فإن قلت: ما الأمر الذي لا بد منه في فهم معنى قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُواْ آَلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؟

فلا بُدَّ في الآية من إضمارٍ فُهِم من السياق أي: اذكروا آلاء الله ﷻ، فهي تدلکم على نعمته وقوته وخبرته وعلمه وقدرته، فتنتلقون منها إلى معرفة مولها ﷻ، وحينها تعملون بما يليق بهذه الآلاء شكرا لله ﷻ وإظهارا للصالحات في أوساط الناس، فأمرهم بأن يذكروا آلاء الله ﷻ؛ لِأَنَّ النَّفْسَ جبلت على النسيان، فإذا نسي الناس النعم كفروا المنعم، والنعم من الآلاء، وإذا نسي الناس القُدُرات نسوا المقتدر، والقُدُرات من الآلاء.

فالتَّقْدِيرُ: واذْكُرُواْ آَلَاءَ اللَّهِ ﷻ واعْمَلُواْ بما تقتضيه: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٣).

(١) مفردات القرآن للفراهي (ص: ٤٠).

(٢) معجم اللغة العربية المعاصرة (١/ ١١٥).

فهم "لم يأخذوا على الله عهدًا أن تتوقف سُنته التي لا تتبدل، والتي تجري وفق الناموس المرسوم بقدر معلوم"^(١).

بصيرة: ذِكْرُ الْأَلَاءِ يوجب أن نشكر ما ينتهي إلى النعم منها، ونحذر ما يقتضي النقم منها، وإذا حدث ذلك تحقق الفلاح في الدنيا والآخرة.

وقد تتساءل متدبرًا: لماذا ختم هود عليه السلام مرافعته العظيمة بهذه الحقيقة؟

الجواب: "في ذكرهم آلاء الله ذكُرُ المنعم عليهم المستحق لإفراده بالعبادة ونبذ ما سواه، وقيل: (اذكروا) هنا بمعنى: اشكروا"^(٢).

وهنا يقيم هود عليه السلام عليهم دليلًا عامًّا جديدًا يبرهن لهم فيه حياة الله ﷻ ومجده وإلهيته التي يجب ألا تصرف لغيره إذ أخبرهم أن ليس للأصنام شيءٌ مِنَ النِّعَمِ عَلَى الْخَلْقِ لِأَنَّهَا جَمَادَاتٌ، وَالْجَمَادُ لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَى شَيْءٍ أَصْلًا، وَظَاهِرٌ أَنَّ الْعِبَادَةَ نِهَايَةُ التَّعْظِيمِ، وَنِهَايَةُ التَّعْظِيمِ لَا تَلِيْقُ إِلَّا بِمَنْ يَصْدُرُ عَنْهُ نِهَايَةُ الْقَدْرِ وَالْإِنْعَامِ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ ﷻ، وَأَنْ لَا يَعْبُدُوا شَيْئًا مِنَ الْأَصْنَامِ، وَمَقْصُودُ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ ذِكْرِ أَقْسَامِ إِنْعَامِهِ عَلَى الْعَبِيدِ^(٣).

ثم قال الله ﷻ: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا...﴾ [الأعراف: ٧٠] أمام الكلمات القوية المقنعة والعمل الإعلامي والدعوي الذي قام به هود عليه السلام يرد عليه المملأ الذين كفروا من قومه ردًّا عنيفًا متعصبًا، فما سبب ردهم هذا؟

الجواب مضمن في المشهد الآتي:

(١) الكلام المنير للعبد البصير (ص: ٦).

(٢) البحر المحيط في التفسير (٨٨/٥).

(٣) تفسير الرازي (٣٠٢/١٤).

المشهد السادس

مشهد التعصب والخرافة والجهل [الأعراف: ٧٠]



عَبَدُوا آلَ إِبْرٰهٖمَ الْكَافِرِينَ

مفصل تفسير سورة الأعراف (٤)

المشهد السادس: مشهد التعصب والخرافة والجهل:

آية المشهد: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

إذ يتوارى عباد الشهوات خلف التعصب للخرافة والجهل وعنادهم واستكبارهم وتعصبهم لخرافاتهم وجهلهم، فيلجؤون إلى الاستفزاز المجنون لأصحاب الحق، وإلى التشويه والمراوغة أمام النور.

فهذه الآية المباركة بصرتنا بثلاثة أقباس، تمثل ثلاث حملات مضادة لهود عليه السلام:

الحملة المضادة الأولى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ [الأعراف: ٧٠]:

الكلمة: [١]: ﴿قَالُوا﴾: فهم لا يسكتون أمام الحق، فقوى الملام لم تهدأ ولم تسكت ولم تسلم لمطالبات العقل، بل قاموا بالرد المباشر عليه، وكلمة: ﴿قَالُوا﴾ تصور حركة إعلامية نشطة بحسب الوسائل المتاحة لهم، فتصور لنا هذه الكلمة أنهم تكلموا مع هود عليه السلام أثناء حوارهم معهم، وتصور أيضاً أنهم تكلموا بما يشبه ذلك في منندياتهم، وبيوتهم، واجتماعاتهم، وتكرار كلامهم محاولة منهم لإيقاف تأثير هود عليه السلام على الناس.

الكلمة: [٢]: ﴿أَجِئْتَنَا﴾: الهمزة للسؤال الإنكاري التوبيخي، فهم ينكرون على هود عليه السلام ويوبخونه على أنه جاءهم بالدعوة إلى عبادة الله وحده.

لكن قد تسأل: ما معنى المجيء في قوله: ﴿أَجِئْتَنَا﴾؟ هل كان بعيداً أو في مكانٍ آخر ثم جاءهم؟ كيف صور التعبير القرآني في قوله: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ مقداراً كبيراً من استهزائهم؟

الجواب: هذه الكلمة المدهشة تعبر عن عدد من الصور:

الصورة الأولى: أنهم يشيرون إلى أن هوداً عليه السلام ربما كان يعتزل سفاهاتهم في مكان بعيدٍ عن قومه يتحنت فيه، كما كان يفعل رسول الله ﷺ بجزاء يتحنت أي: يتعبد بعيداً عن عبادة قومه للأصنام قبل أن يبعث فلما أوجي إليه جاء قومه يدعوه^(١).

(١) عن عائشة رضي الله عنها، كما في صحيح مسلم (٢٥٢-١٦٠).

وكلمة: ﴿جِئْتَنَا﴾: تصور لنا حالهم البائس وهم عاكفون على الشرك، وكأن هودًا عليه السلام جاء من مكان آخر ليوقظهم من تلك الغفلة مع أنه من قومهم، ولم يأت من مكان آخر، لكن الكلمة توضح أن المعرفة التي جاء بها لا توجد عندهم، وهم بذلك يعترفون أنه جاءهم بشيء يصحح أوضاعهم السقيمة، فلماذا لا يقبلون؟

فمثلاً: إذا جاء طبيب إلى المريض، وأخبره أنه مريض ويحتاج إلى علاج، وأتى بكلام مقنع يثبت صحة قوله، فهل ينكر عليه المريض لمجرد أنه لم يعتد أن يسمع مثل ذلك من المرضى الذين بجواره؟! **الصورة الثانية:** أنهم أرادوا بهذا التعبير الاستهزاء، لأنهم كانوا يعتقدون أن الله تعالى لا يرسل إلا الملائكة، فكأنهم قالوا: أجيئنا من السماء كما يعيى الملك، فهم لا يريدون حقيقة المجيء، ولكن التعريض بذلك والقصد كأنه جاء من مكان بعيد، كما يقال: ذهب يشتمني وهو بجواره، ولا يراد حقيقة الذهاب، كأنهم قالوا: أقصدتنا لنعبد الله وحده وتعرضت لنا بتكليف ذلك؟^(١).

الصورة الثالثة: كلمة (جاء) هنا تدل على مقدار اهتمامه بتصحيح فكرهم المنحرف، واجتهاده في سبيل ذلك، كيف؟ معنى ذلك أنه كان يذهب إلى بيوتهم وإلى نواديهم يجيئهم هنا، ويجيئهم هناك، ولذلك يقولون: أجيئنا، والنبى ﷺ كان يفعل ذلك حتى أن أبا جهل يقول له: هَلْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ نَشْهَدَ أَنْ قَدْ بَلَّغْتَ، فَتَحْنُ نَشْهَدُ أَنْ قَدْ بَلَّغْتَ^(٢)، ومع ذلك النبى ﷺ كان يجيئهم.

والعرب تستعمل أفعال الحركة في غير مكانها لتدل على مقدار الاجتهاد، كَقَوْلِ الْعَرَبِ: ذَهَبَ يَفْعَلُ، وَفِي الْقُرْآنِ: ﴿يَتَأَيَّهَا أَلْمَدِّيْرُ ۝ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝﴾ [المدثر: ١، ٢]، مع أنه كان يمكن أن ينذر وهو جالس، ولكن كلمة: ﴿قُمْ﴾ تدل على الحركة والاجتهاد، وَقَالَ حِكَايَةُ عَنْ فِرْعَوْنَ: ﴿ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى ۝ فَحَشَرَ فَنَادَى ۝﴾ [النازعات: ٢٢، ٢٣]. وَفِرْعَوْنُ لَمْ يُقَارِقْ مَجْلِسَ مُلْكِهِ وَإِنَّمَا أُرِيدَ أَنَّهُ أَعْرَضَ وَاهْتَمَّ لِأَجْلِ أَنْ يَضَادَ رِسَالَةَ مُوسَى عليه السلام، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُمْ: ذَهَبَ يَفْعَلُ كَذَا^(٣).

إذا كلمة هود عليه السلام تدل على مقدار اجتهاده في التعرض لهم هنا وهناك حتى كانوا يضيقون به ذرعاً ويقولون: أجيئنا.

(١) الكشاف (١١٧/٢).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٣٥٨٢٩)، وحسنه الصوباني في الصحيح من أحاديث السيرة النبوية (ص: ٥٦)..

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (٨-ب/ ٢٠٨).

الكلمتان: [٤-٣]: ﴿لَتَعْبُدَ اللَّهَ﴾:

اللام للتعليل، وهم هنا يمدحون هودًا عليه السلام من حيث يريدون ذمّه، فيثبتون أنه جاء لسبب واحد واضح، وهو أن يعبدوا الله وحده، والسؤال الذي نطرحه عليهم: ما المشكلة عندما فعل ذلك؟ ما الخلل في أن يدعوهم ليعبدوا ﴿اللَّهَ﴾ وحده، وهم يعرفون اسم ﴿اللَّهَ﴾ بدليل أنهم أثبتوا هذه التسمية، وعندما تجمع بين إثباتهم لاسم الله ﷻ، ووصف هود عليه السلام لربه بأنه رب العالمين، تعلم أن دعوة هود عليه السلام لهم ليعبدوا الله ﷻ رب العالمين دعوة حكيمة منطقية عقلانية يجب أن يقبلوها إلا أن يثبتوا أن هناك شريكًا حقيقيًا لرب العالمين، ولا يستطيعون ذلك... فلماذا ينكرون عليه إذا؟!

الكلمة: [٥]: ﴿وَحَدَّهُ﴾: هذه الكلمة حالٌ من اسم الجلالة، وهو اسمٌ مَصْدَرٌ أَوْحَدَهُ: إِذَا اعْتَقَدَهُ وَاحِدًا، والتقدير: نعبده حال كوننا موحّدين له، أي: أنهم "استبعدوا توحيد الله مع اعترافهم بربوبيته" (١).

لقد استنكروا أن يدعوهم إلى توحيد الله ﷻ في عبادته؛ "لأنما كان يدعوهم إلى أمر منكر لا يطيقون الاستماع إليه، ولا يصبرون على النظر فيه".

هكذا يصور المجرمون الحق المبين على أنه محلّ تهمة، وهذا ما فعله الوثنيون العرب حينما دعاهم النبي ﷺ إلى التوحيد: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكُفَرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ أَجْعَلْ الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٤، ٥].

الحملة المضادة الثانية: ﴿وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾:

وتوضيح هذه الصيغة المركبة للآية في الآتي:

الكلمة: [١]: ﴿وَنَذَرَ﴾ الواو تصور الصلة القوية لهذه الجملة بالتي قبلها؛ لأنهم أرادوا أن يستدركوا بسرعة ما قالوه في الجملة السابقة، فالذي قالوا يؤيد هودًا عليه السلام من حيث لم يكونوا يحتسبون، وكلمة: (نذر) تعني: نترك تركًا فيه إهمال كامل لما كان عليه آبائهم من عبادة الأوثان.

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (ص: ٥٠٧).

كلمة: ﴿وَنَذَرُ﴾ هنا أقوى من: (نترك)؛ لأنها تعني تركاً خاصاً أي: اتركوهم تركاً يستلزم عدم المبالاة بحالهم من جهة؛ لما تشعرون به من الحق عندكم، ويستلزم الاهتمام بإفهامهم أو الرد عليهم من جهة، وهو مشتق من: وذر يذر، والوَذْرَةُ: القطعة الصغيرة من اللحم لا عظم فيها، وليس لها طول فليست شرائح، فالوذر: الترك الذي فيه مفارقة للشيء وانفصال، أو تخلٍ عنه مع أنه يفترض الاتصال به، والاهتمام بحاله^(١).

الكلمتان: [٣-٢]: ﴿مَا كَانَ﴾ أي: الذي كان يعبد آباؤنا، وكلمة: ﴿كَانَ﴾ تدل على اعتكاف آبائهم وأجدادهم على هذه العبادة الشريكية، وتبصرنا بتأصل عبادة آبائهم للأصنام منذ القدم.

الكلمتان: [٥-٤]: ﴿يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ وصيغة الفعل المضارع: ﴿يَعْبُدُ﴾ لاستحضار حال الآباء وهم يقومون بهذه العبادة، وذلك التصوير لهم يستدر عطف المستمع، فهم يشعرون بأجدادهم يقومون بهذه العبادات، ويحاولون أن يستلهموا من هذا الشعور بالانتماء إلى الآباء، وعدم مفارقتهم فيما كانوا يفعلون، فيرون الآباء كانوا كذلك، وما كانوا كذلك إلا لأنهم رأوا من قبلهم كذلك إلى آدم عليه السلام، وهنا تختلط العاطفة المحبة للآباء بتغطية العقل، ويربح إبليس المعركة، فقد صودرت العقول مقابل عاطفة الانتماء للآباء في غير مكانها.

ماذا تعني كلمة: ﴿آبَاؤُنَا﴾، وما مصداقية تمسكهم بما كان عليه آبائهم؟

الجواب: كلمة: ﴿آبَاؤُنَا﴾ تعني آباءهم الأقربين والأبعدين من أجدادهم، وهم هنا يكذبون؛ لأن آدم عليه السلام كان أباهم الأول، ولم يكن مشرّكاً، وكذلك نوح عليه السلام من بعده، فالشرك حادث في بعض آبائهم المتأخرين، فلماذا يتعصبون للمتأخر من آبائهم الذي غيّر طريقة آبائهم المتقدمين؟ فهم هنا يتناقضون مع أنفسهم؛ لأنهم اختاروا آباءهم المتأخرين ليقلدوهم، وتركوا المتقدمين من آبائهم ممن كان مؤمناً موحداً.

هذا قبسٌ فيه إطناب وتفصيل لزيادة إيضاح معنى كلمة: ﴿وَحَدُّهُ﴾، فهم لما قالوا كلمة: ﴿وَحَدُّهُ﴾ لم يكونوا يحتاجوا إلى هذه الجملة: ﴿وَنَذَرُ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾، لكنهم أتوا بها ليثيروا تعصبهم لآبائهم، ويحركوا مكان العنصرية لأنفسهم، سنقول: كيف ذلك؟

(١) انظر: تاج العروس (١٤/٣٥٤-٣٥٧).

الجواب: لما قالوا في البداية: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾:

رفضوا مبدأ توحيد الله في العبادة، ولكن عبادة الله وحده هو الأمر المنطقي الذي يجب عليهم أن يفعلوه، فقد جاءهم هود عليه السلام بحجة لا يستطيعون أمامها إلا أن يسلموا، وهو أن الله جل جلاله رب العالمين، فكانت كلمات هود عليه السلام دامغة لكل باطل عندهم، فهتوا، فكيف يردون على من يقول لهم: اعبدوا رب العالمين جل جلاله، وهم يعبدون أصنامًا هي مخلوقات في العالمين؟!

وهذا يبصّرنا بأن الكلام الذي قاله هود عليه السلام في حوارهم كان مقنعًا مثيرًا لهم. فعبادتهم لآلهة متعددة في غاية الغرابة والعجب، وتستحق أن ينكرها العقلاء، فماذا فعلوا أمام حجته الدامغة، وكيف عللوا عبادتهم لآلهة متعددة؟!

بدلاً من أن يناقشوه بصورة عقلية لينجلي لهم الحق، ويثبتوا أنه ينبغي لهم ألا يشركوا مع الله غيره، وأن يعبدوا الله وحده، بدلاً من ذلك جرّوه إلى مربع جديد في الكلام، وهو أن عبادة الله وحده لا تصلح لأن آباءهم كانوا يفعلون ذلك، لماذا فعلوا ذلك؟ لماذا لم يردوا عليه؟

لأنهم لم يستطيعوا الصمود أمام حججه، وبيناته العقلية المقنعة، فماذا فعلوا؟!

لقد قالوا: ﴿وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾.

كانهم اكتشفوا أنهم نصروا هودًا عليه السلام من حيث لا يشعرون؛ لأن عبادة الله جل جلاله الذي وصفه هود عليه السلام بأنه رب العالمين قضية عقلية منطقية، فكانهم قالوا له بلسان حاله: عندك حق، وهنا خافوا أن يفهم ذلك فأضافوا هذه العبارة التي تحرك العاطفة الخاطئة، وهي عبارة ﴿وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾.

بصيرة: ﴿وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ هذه الجملة التي أضافوها تثير التعصب،

فينسى السامع الكلمة السابقة: ﴿لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾، وتبدأ فكرة العنصرية

والاعتماد على عبادة التقاليد تستحوذ عليه.

أرادوا تخفيف عبثهم وسفاهتهم، فاستدلوا على صحة عبادتهم لآلهة متعددة بالتقليد،

ويصف المفسر المخبت منظرهم وهم يلجؤون إلى التقليد بدلاً من التفكير الرشيد، فيرى فيهم: مشهداً بئساً "لاستعباد الواقع المألوف للقلوب والعقول، هذا الاستعباد الذي يسلب الإنسان خصائص الإنسان الأصيلة: حرية التدبر والنظر، وحرية التفكير والاعتقاد، ويدعه عبداً للعادة والتقليد، وعبداً للعرف والمألوف، وعبداً لما تفرضه عليه أهواؤه وأهواء العبيد من أمثاله، ويغلق عليه كل باب للمعرفة وكل نافذة للنور".

ماذا فعلوا، وقد خسروا معركتهم؟

لقد خوّفوا الجماهير من ترك تقاليد الأسلاف وعاداتهم، اعتمدوا على العصبية العنصرية وليس على هدايات العقول، فخوفوا من حولهم بأن الكلام الجديد يخالف العادات والتقاليد، ويعني ذوبان الهوية الثقافية السائدة لصالح شيء جديد وافد!

هكذا يفعل المعاندون السفهاء، هكذا يصنع ضعفاء العقول البلداء.

والاحتجاج بالآباء في فهم الحياة غير الصحيح، فإن الإنسان إذا قال: اخترعوا السيارة للمشى فهل يقولون: لا. نحن رأينا آباءنا يمشون على الحُر، سنبقى نتخذها وسيلة المواصلات دون غيرها، فهل يقبل هذا أحد؟

لا يقبلون هذا في دنياهم كيف يقبلون هذا فيما يتعلق بمستقبلهم بالآخرة؟!

وتخويف الناس من ترك تقاليد آبائهم وعاداتهم يؤثر تأثيراً عظيماً في إظهار العصبية المقيتة، هنا تصادر العقول بسبب التعصب، وهنا يذهب الاختيار الحق، والقرار الصواب بسبب العنصرية، وقد رأينا مثل ذلك يتكرر في الأمم؛ فلَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلَ بْنَ هِشَامٍ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنَ الْمُغِيرَةِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي طَالِبٍ: «يَا عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ». فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟

انظر تأثير البطانة السيئة، فلم يناقشوه في صحة: "لا إله إلا الله"؛ لأنهم يعلمون أنهم سيخسرون كما قال قوم هود عليه السلام: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾، فلو وقفوا هنا لعلموا أنهم خسروا الموقف، فعبادة الله وحده قضية عقلية حكيمة، لكنهم ذكروا ما يثير العاطفة ويلغي العقل، وهو التعصب للآباء، فذكروهم بمِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَلِيَهْمُ ذِكْرُوا إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهو من أجداده الكبار، وهم

يعرفون سيرته، ولكن إصرارهم على الباطل جعلهم يذكرون أبًا من الآباء المتأخرين الذين تغير في عهدهم الدين الحق، فركزوا عليه.

فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ، وَيَعُودَانِ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ -أي ليثيرا عاطفته، فينسى نور لا إله إلا الله بسبب ظلمات التعصب للآباء، حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ^(١).

الحملة المضادة الثالثة: بصورها قول الله ﷻ واصفًا ما قالوه بعد ذلك: ﴿فَأْتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ

كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

الكلمة: [١]: ﴿فَأْتَيْنَا﴾ الفاء تصور صلة هذه الجملة بما قبلها، فهي فاء التفرع التي تقرر النتيجة بناءً على حوارهم السابق، والمعنى: إن كنت تزعم أنك نبي وأن ما تقوله حق، فيكفي أن تأتينا بالعذاب، ولعلمهم استعملوا كلمة: ﴿فَأْتَيْنَا﴾ لأنها تصور استعدادهم لأي شيء يمكن أن يصيبهم، فلم يستخدموا الكلمة العامة: فجئنا، بل كلمة: (أتى) التي هي من التأتى.

الكلمتان: [٢-٣]: ﴿بِمَا تَعِدُنَا﴾ الباء للملاصقة، و(ما) اسم موصول أي بالذي تعدنا به، وكلمة: ﴿تَعِدُنَا﴾ من الوعد: لأنه وعدهم بالعذاب الأليم إن لم يؤمنوا كما في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ الْثُذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١].

فخوفهم من عذاب يوم عظيم يحل بهم إما في الدنيا وإما في الدنيا والآخرة، وكذلك خوفهم من عواقب عدم عبادتهم الله سبحانه وتعالى، فقد قال ﷻ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [١٥] ﴿فَقُولُهُ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾﴾ يشعرهم بالتهديد والتخويف بالوعيد، وفي سورة الشعراء خوفهم من عذاب يوم عظيم في الدنيا والآخرة فقال لهم: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

﴿[الشعراء: ١٣٥].﴾

(١) البخاري (١٣٦٠).

فهم طلبوا منه أن يحقق هذا الوعد تحدياً له، واستعملوا الوعد بمعنى الوعيد؛ لأن الوعد يشمل أمرين: أن يُعَذَّبَ الكافرون، وينتصر المؤمنون، فلذلك سموه وعداً.

الكلمات: [٤-٧]: ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ۝٧﴾؛ أي: نشك في صدقك، فإن كنت ممن ينتمون إلى الصادقين، فأتنا بهذا الوعد الذي تكلمت عنه، وكلمة: ﴿إِنْ﴾ تظهر تشكُّكهم وتشكيكهم في صدقه.

نرى هنا أن قوى الملام المستكبرة تريد أن تظهر بمظهر المنتصر في المعركة الجدلية مع هود عليه السلام، فتحدوه، وقالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ۝٧﴾، فماذا يعني هذا التحدي الذي أبرزوه له؟

الجواب: هذه العبارة القرآنية: توحى بمنطق التحدي والعتو والاستكبار الذي كان يتصف بها هؤلاء الأقوام الذين خاطبوا بها أنبياءهم المرسلين، وقد حكاها الله ﷻ في أربعة مواضع في القرآن الكريم عن ثلاثة من الأقوام الأشداء العتاة، وهم:

الموضع الأول: قوم نوح عليه السلام، وهم من قبل عاد وثمود: ﴿قَالُوا يَنْتُوْحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ۝٦١﴾ [هود: ٣٢].

الموضع الثاني: عاد قوم هود عليه السلام في موضعين: قوله تعالى حاكياً عنهم: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ۝٧٠﴾ [الأعراف: ٧٠]، وقوله تعالى حاكياً عنهم أيضاً: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ۝٢٢﴾ [الأحقاف: ٢٢].

الموضع الثالث: ثمود قوم صالح عليه السلام؛ قال الله تعالى عنهم: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحْ أَعْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِيْنَ ۝٧٧﴾ [الأعراف: ٧٧].

فقوم هود عليه السلام لما رأوا أنفسهم منهزمين، وأظهروا ضعفهم بالتمسك بالتقليد لا بما تفيدته العقول أرادوا أن يحافظوا على ماء وجوههم أمام الجماهير التي تشهد معركة الجدل مع هود عليه السلام.

والذي يشك في مسألة يترتب عليها عذاب أو هلاك ينبغي أن يحتاط خوفاً من وقوع ذلك الهلاك لا أن يطالب بوقوع الهلاك، ولكنهم أصروا على التشغيب مثل الطفل الغبي المتعصب للعبة ولهوه

عندما يأمره أبوه أن يذكر دروسه، فيقول: لا داعي لذلك، فيخوفه أبوه بالسوب والفسل في الحياة، فيقول له: إن كنت صادقاً فليأت الرسوب، وليأت الفسل... هذا تشغيب طفولي، فكيف يرد هؤلاء على نبهم بهذا التشغيب الطفولي، ويطالبون بوقوع بدليل واحد على صدقه، وهذا الدليل يتضمن هلاكهم؟!

وبناءً على هذا الطلب يحاولون أن يبرروا لشركهم، وكأنهم يقولون: إن دعوتك لعبادة الله وحده ليست حقاً؛ لأنك لم تأتنا بالعذاب، والسؤال: فماذا ينفعهم أن يأتيهم بالعذاب؟ هل يستطيعون وهم يهلكون أن يغيروا قرارهم من الشرك إلى الإيمان بالله الواحد ﷻ، وقد خرجت أرواحهم؟ ويتصور محمد رشيد رضا ﷻ أنهم بهذا التعبير يقولون: «وَتَرَكْ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا مَعَهُ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَالشُّفَعَاءِ، فَتَحَقَّرَهُمْ وَنَمَتَهُمْ بِرَمِيهِمْ بِالْكَفْرِ، وَنَحَقَّرَ أَوْلِيَاءَنَا وَشُفَعَاءَنَا عِنْدَ اللَّهِ بِتَرْكِ التَّوَجُّهِ إِلَيْهِمْ عِنْدَ التَّوَجُّهِ إِلَيْهِ وَهُمْ الْوَسِيلَةُ، وَهُوَ الْمُقْصُودُ بِالدُّعَاءِ وَالِاسْتِغَاثَةِ بِهِمْ وَالتَّعْظِيمِ لَصُورِهِمْ وَتَمَثُّلِهِمْ وَقُبُورِهِمْ وَالتَّنْذِيرِ لَهُمْ وَذَنْحِ الْقَرَابِينَ عَنْهُمْ؟ وَهَلْ يَقْبَلُ اللَّهُ عِبَادَتَنَا مَعَ ذُنُوبِنَا إِلَّا بِهِمْ وَلِأَجْلِهِمْ؟ اسْتَنْكَرُوا التَّوْحِيدَ، وَاحْتَجُّوا عَلَيْهِ بِمَا أَبْطَلَهُ الشَّرْعُ وَالْعَقْلُ مِنَ التَّقْلِيدِ، وَاسْتَعْجَلُوا الْوَعِيدَ قَالُوا: ﴿فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٧٠)»^(١).

فحقيقة كلامهم الشهادة للنبي هود ﷺ بقوة موقفه، وأنه ليس عندهم إلا التعصب والجهل والخرافة، والتشغيب الطفولي، ومن أجل ذلك جاءت الآية: (٧١) توضح رد هود ﷻ. وأصروا على هذا الطلب لأنهم زعموا أمام الناس أن هوداً من الكاذبين إذ قالوا له من قبل: ﴿وَأَنَّا لَنُنْظُرُكَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ ﷻ.

فما رأيك بهذا الطلب؟ هل يطلب عاقل مثل هذا الطلب؟ أن يقول: إن كنت على حق فأنا أسأل الله ﷻ أن يعذبني، ولماذا لا يقول: إن كنت على حق فأسأل الله ﷻ أن يهديني للحق الذي أنت فيه، لكنهم يقولون: أسأل الله أن يعذبني، ونعوذ بالله من عذاب الله، وإن جاءهم الهلاك فما الذي سيفيدهم إذن؟ سيقبون في العقوبة والعذاب المستمر.

(١) تفسير المنار (٨/ ٤٤٣).

هذا الطلب يشبه طلب الفتى الصغير المخطئ المعاند المصر على خطئه العاق لأبيه... فبدلاً من أن يدع عناده يقول لأبيه: أين العذاب أو الفشل الذي تخوفني منه، انت به إن كنت من الصادقين، دعني آخذه ما عندي مانع، إذًا عقول هؤلاء الشيوخ قادة قوم عاد الذين آتاهم الله سبحانه وتعالى في الخلق بصطة مثل هذا الطفل الصغير الذي يقول لأبيه معانداً له: اعمل الذي تريد، تريد أن تضربني؟ اضربني، تريد أن أرسب في الدراسة؟ لا بأس سأرسب.

وكم تتعجب من خفة عقل من يقول ذلك، وتشعر بنوعٍ من الألم على هذا الطفل عندما يقول هذا؛ لأنه لا يعرف مصلحته، هؤلاء صغروا أنفسهم حتى صاروا أسوأ بكثير من هذا الصنف من الأطفال؛ لأن الذي يطلبه هذا الطفل هو أن يقع عليه فشل سنة من السنوات، وهؤلاء يطلبون العذاب المستمر أن يقع عليهم، وهم يريدون بذلك أن يُظهروا للجمهور بأنهم لا يصدقون أن هناك عذاباً سيحل، أو نعمة ستزل، فَأَلْمَزُوا فِي قَوْلِهِمْ: ﴿فَأَتَيْنَا لِلتَّعْجِيزِ، أَي: كأنهم يتفاخرون، وكأن ذلك لن يقع، فأحضّر لنا هذا العذاب، وأحضّره ليصيبنا ليظهر صدقك أمام الناس.

فانظر لتفاهة تفكيرهم وردّهم! بدلاً من أن يُقروا بالصدق في كلامه الواقع الحالي الذي يسمعون، طلبوا أمراً غيبياً هو العذاب المتوقع، وجعلوا حلول العذاب عليهم علامة على صدقه، فإن عذبوا وفنوا فما الذي أفادوه من صدقه إذن؟

من الذي يطلب هذا الطلب غير المعقول؟

المهزوم المبطل أمام صاحب الحقيقة البينة.. غالباً يلجأ المهزوم إلى هذه المشاغبة الطفولية، كَمَا قَالَ الْكُفَّارُ مِنْ قُرَيْشٍ: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢].

لقد استعجل المعاندون المتكبرون العذاب فراراً من اعتناق الحق المبين، والاعتراف بتفاهة فكرهم حينما جعلوا أنفسهم عبيداً للأحجار، فقالوا لنبيهم الناصح الأمين: ﴿فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾! كأنهم يقولون للناس بعد ذلك:

ها نحن نشرك في العبادة، فلا يأتينا العذاب. مثل هؤلاء الذين يعصون هذه الأيام، ويرتكبون أكبر الكبائر، يقولون: ما رأينا السماء انشقت، ولا تساقطت علينا الحجارة من الأعلى، ولا خسفت بنا الأرض، كأنهم يقولون: اتنا فعلاً إذا كان الإسلام حقاً ونحن نرتكب ما يسميها هود عليه السلام منكرات فلا

يأتينا العذاب، فإما أن الله عَزَّوَجَلَّ غير موجود، وإما أن يكون راضياً عن أفعالنا وهود يكذب علينا وعليه، لذا قالوا: ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾؛ لإظهاره بمظهر العاجز عَنِ الْإِثْيَانِ بِالْعَذَابِ فِي الوقت الذي طلبوه، وَجَوَابُ الشَّرْطِ مَحْذُوفٌ دَلَّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُ تَقْدِيرُهُ: أَتَيْتَ بِهِ وَإِلَّا فَلَسْتَ بِصَادِقٍ^(١).

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ بعد الحملة المتعصبة التي أصر عليها قوم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ...﴾ [الأعراف: ٧١]، ما المشهد الذي تصوره لنا هذه الآية؟
الجواب: هنا يأتي المشهد الآتي:

(١) التحرير والتنوير، (٨-ب/ ٢٠٩).

المشهد السابع

الإدارة الحكيمة للمرحلة الباقية [الأعراف: ٧١]



المشهد السابع: الإدارة الحكيمة للمرحلة الباقية:

آية المشهد: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَدِّلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأعراف: ٧١].
فقد رد عليه السلام ردًا عقليًا متزنًا على استفزاز الباطل المجنون، فجعل رده في ثلاثة اتجاهات مشتركة مقابل الحملات الثلاث التي ظهرت في كلامهم في الآية السابقة:

فانظر لقوة رده عليه السلام، وعظمة معالجته للموقف، فأمام حملاتهم الثلاث رد عليهم بثلاثة إنذارات: فرد على قولهم: ﴿أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ [الأعراف: ٧٠] بقوله: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ [الأعراف: ٧١].

ورد على قولهم: ﴿وَنَذَرُ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠] بقوله: ﴿أَتُجَدِّلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [الأعراف: ٧١].
ورد على قولهم: ﴿فَأَتَيْنَا بِمَا كُنتُمْ مِنَ الْصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠] بقوله: ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١]، ولنفصل ذلك:

الإنذار الأول: لغة، إذ انتقل من لغته الهادئة السابقة إلى لغة شديدة موقظة: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾:

المعنى التفصيلي: نأخذه من تفسير الكلمات القرآنية الآتية:

الكلمة: [١]: ﴿قَدْ﴾: كلمة يقصد بها تحقيق ما بعدها حسب هذا السياق، وهي هنا تفيد التحقق أي: تحقق المعنى، وهو وقوع الرجس والغضب عليهم من الله تعالى، وأصبح حقيقة مُسَلَّمة لا تقبل النقاش ولا الجدل، ولا المراجعة. أي: حل بكم وتحتم عليكم^(١).

الكلمة: [٢]: ﴿وَقَعَ﴾:

(١) البحر المحيط في التفسير (٨٩/٥).

وَالْأَظْهَرُ أَنَّ: ﴿وَقَعَ﴾: مَعْنَاهَا حَقٌّ وَثَبَتَ، مِنْ قَوْلِهِمْ لِلْأَمْرِ الْمَحَقَّقِ: هَذَا وَاقِعٌ، وَقَوْلِهِمْ لِلْأَمْرِ الْمَكْذُوبِ: هَذَا غَيْرُ وَاقِعٍ، فَلَمَعْنَى حَقٌّ وَقَدِرٌ^(١).

وَالْوُقُوعُ: ثَبُوتُ الشَّيْءِ وَسُقُوطُهُ. يُقَالُ: وَقَعَ الطَّائِرُ وَقُوعًا، وَأَكْثَرُ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ لَفْظِ «وَقَعَ» جَاءَ فِي الْعَذَابِ وَالشَّدَائِدِ^(٢).

الكلمتان: [٣، ٤]: ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور، و(على) من العلو كما أَنَّ ﴿وَقَعَ﴾ تفيد الوقوع من أعلى إلى أسفل، وهما يفيدان نزول هذا العذاب من فوقهم، وهو كذلك كيفما فسرته به كلمتا: ﴿رَجَسٌ وَغَضَبٌ﴾، و(كُم) ضمير دالٌّ على الجمع للمخاطبين، وهم قومه المملأ المستكبرون ومن وافقهم من قومه، ويدل على استحقاق هؤلاء جميعًا الرجس والغضب. قال الزمخشري رحمه الله: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: حق عليكم ووجب، أو قد نزل عليكم، جعل المتوقع الذي لا بدَّ من نزوله بمنزلة الواقع^(٣).

الكلمة: [٥، ٦]: ﴿مَنْ رَزَقَكُمْ﴾: متعلق بـ﴿وَقَعَ﴾، يفيد اعترافهم بالربوبية وإن كانوا منكبين للألوهية. والمعنى: "أي: الذي غرَّكم به تواتر إحسانه عليكم وطول إملائه لكم"^(٤).

الكلمة [٧]: ﴿رَجَسٌ﴾^(٥):

الرجس كلمة تدلُّ على أمر قذرٍ مستقبحٍ مُنْتَنِ مدمرٍ في جُرمه ورائحته، ويطلق على اختلاطٍ لأمرٍ قذرٍ بغيره من قدرٍ آخرٍ أو لاختلاطه بشيءٍ غيرٍ قدرٍ مع غلبة القدر. فيُقَالُ: هُمْ فِي مَرْجُوسَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ، أَيْ اخْتِلَاطٍ.

والمرجاس بالكسر: حَجَرٌ يُشَدُّ فِي طَرْفِ الْحَبْلِ ثُمَّ يُدَلَّى فِي جَوْفِ الْبَيْرِ فْتُمَخَّضُ الْحَمَاءُ: (هي طين أسود منتن يكون في جوف البئر) حتى تثور، ثم يُسْتَقَى ذَلِكَ الْمَاءُ (يعني يُخْرَجُ) فتنقَى البئر (بذلك).

ولذا قال الراغب رحمه الله: الرَّجْسُ: الشَّيْءُ الْقَذِرُ، وَالرَّجْسُ يُكُونُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَوْجِهٍ:

(١) التحرير والتنوير، (٨-ب/ ٢٠٩).

(٢) مفردات القرآن. للراغب (ص: ٨٨٠).

(٣) الكشاف (٢/ ١١٧).

(٤) نظم الدرر (٣/ ٥٥).

(٥) تاج العروس (١٦/ ١١٣-١١٦)، لسان العرب (٦/ ٩٤-٩٦).

إِذَا مِنْ حَيْثُ الطَّبْع، وَإِذَا مِنْ جِهَةِ الْعَقْلِ، وَإِذَا مِنْ جِهَةِ الشَّرْع، وَإِذَا مِنْ كُلِّ ذَلِكَ كَالْمِيتَةِ، فَإِنَّ الْمِيتَةَ تُعَافُ طَبْعًا وَعَقْلًا وَشَرْعًا، وَالرَّجْسُ مِنْ جِهَةِ الشَّرْع: الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ، وَقِيلَ: إِنَّ ذَلِكَ رَجَسٌ مِنْ جِهَةِ الْعَقْلِ، وَعَلَى ذَلِكَ نَبَّهَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّمَهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ بِالْعَقْلِ يَعْلَمُ أَنَّ الْخَمْرَ وَالْمَيْسِرَ لَيْسَا صَالِحِينَ لِلْحَيَاةِ الطَّبِيعِيَّةِ الْبَشَرِيَّةِ الصَّحِيحَةِ، فَكُلُّ مَا يُوْفِي إِثْمَهُ عَلَى نَفْعِهِ فَالْعَقْلُ يَقْتَضِي تَجَنُّبَهُ، وَجَعَلَ الْكَافِرِينَ رَجَسًا مِنْ حَيْثُ إِنَّ الشَّرْكَ أَفْبَحُ الْأَشْيَاءِ فِي الْعَقْلِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٠٠]^(١).

وبذا يظهر أَنَّ الرَّجْسَ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ يعني العذاب العقلي؛ لِأَنَّ أَفْكَارَهُمْ ضَلَّتْ ضَلَالًا رَدِيئًا، وَصَارَتْ كَالْأَشْيَاءِ الْقَذَرَةِ الْمَحْسُوسَةِ، مِنْ الْارْتِجَاسِ وَهُوَ الْاضْطِرَابُ فِي التَّفَكِيرِ، فَيَدْخُلُ فِيهِ نَجَاسَاتُ الْعُقُولِ وَالْأَعْمَالِ مِنَ الْأَفْكَارِ الْبَاطِلَةِ، وَالْمَعْتَقَدَاتِ الرَدِيئَةِ، وَالْأَفْعَالِ الْمَذْمُومَةِ، وَيَرَى الْقَقَالَ ﷺ رَأْيًا سَدِيدًا: أَنَّ الرَّجْسَ هُوَ الْإِزْدِيَادُ فِي الْكُفْرِ بِالرَّيْنِ عَلَى الْقُلُوبِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]؛ أَي: قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ رَيْنٌ عَلَى قُلُوبِكُمْ عُقُوبَةً مِنْهُ لَكُمْ بِالْإِزْدِلَالِ؛ لِإِلْفِكُمْ الْكُفْرَ، وَتَمَادِيَكُمْ فِي الْغَيِّ^(٢).

بصيرة: الرجس الفكري والعقلي يسبب الرجز الذي يعني العذاب المادي،

كما قال تعالى: ﴿عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ﴾ [سبأ: ٥، الجاثية: ١١].

وهنا أشير إلى رأيين غير دقيقين في معنى الرجس:

الأول: نقل الطبري أن أبا عمرو بن العلاء ﷺ يرى: أن "الرجز" و"الرجس" بمعنى واحد، وأنها مقلوبة، قلبت السين زايًا، كما قال الراجز:

أَلَا لِحَى اللَّهِ بَنِي السَّعْلَاتِ

(١) مفردات الراغب الأصفهاني، (ص: ١٨٨).

(٢) تفسير الرازي (٣٠٣/١٤).

عَمَرَوْا بَنَ يَرْبُوعٍ لِنَامِ النَّاتِ
لَيْسُوا بِأَعْقَافٍ وَلَا أَكْيَاسٍ^(١).

يريد "الناس"، و"أكياس"، فقلبت السين تاء^(٢).

ولا يظهر لي صحة ذلك، فليس الرجز بالزاي هو الرجز بالسين.

والرأي الثاني: أن الرجز معناه: السخط، روى ذلك الطبري رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنه^(٣)، ولكن هذا تفسير بالمقارب؛ إذ لو كان هذا المعنى صحيحاً لكانت الآية: قد وقع عليكم من ربكم سخط وغضب.

الكلمة [٨]: ﴿وَعَصَبٌ﴾^(٤).

الغضب: صفة تجمع بين قوة وشدة وغلظة وحزم، ولذا قال ابن فارس رحمه الله: "أصل صحيح يدلُّ عَلَى شِدَّةٍ وَقُوَّةٍ"، وكأنها اشتقت من كلمة الْعَصْبَةِ، وهي الصَّخْرَةُ الصُّلْبَةُ. قَالُوا: وَمِنْهُ اشْتَقَّ الْعَصَبُ؛ لِأَنَّهُ اشْتَدَّ السُّخْطُ. يُقَالُ: غَضِبَ يَغْضِبُ غَضَبًا، وَهُوَ غَضْبَانٌ وَغَضُوبٌ.

فالغضب شدة في الحكم، وغلظة وحزم، وكلها تقابل الرحمة التي هي الصفة الغالبة السابقة من صفات الله ﷻ لكن أفعال هؤلاء استحقت أن يحل عليهم الغضب بدلاً من الرحمة.

فليس الغضب كما عرفه الراغب رحمه الله بقوله: "الْعَصَبُ: ثوران دم القلب إرادة الانتقام، ولذلك قال ﷺ: «اتَّقُوا الْعَصَبَ فَإِنَّهُ جَمْرَةٌ تَوْقِدُ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، أَلَمْ تَرَوْا إِلَى انْتِفَاحِ أَوْدَاجِهِ وَحُمَرَةِ عَيْنَيْهِ»^(٥)، وإذا وصف الله تعالى به فالمراد به الانتقام دون غيره"^(٦).

ألا ترى أن هذا التعريف قاصر قصوراً بيتاً؛ فإن الغضب قد يكون بسبب أمرٍ لا يوجب الانتقام بل التأديب كفعل الولد الخطأ يكرره أمام أبويه يوجب غضبهما، والتأديب غير الانتقام، والغضب

(١) الرجز لعَلْبَاء بن أرقم، كما في نوادر أبي زيد (ص: ٣٤٤)، والحيوان (ص: ٤٢٣) مع اختلاف في بعض الألفاظ.

(٢) تفسير الطبري (١٢/٥٢٢-٥٢٣).

(٣) المرجع السابق: (١٢/٥٢٢).

(٤) مقاييس اللغة (٤/٤٢٨)، المفردات (ص: ٦٠٨)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/١٥٨٨).

(٥) أحمد (١١٥٨٧)، الترمذي (٢١٩١) في حديث طويل، ولفظه: «وَأَنَّ الْعَصَبَ جَمْرَةٌ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، أَمَا رَأَيْتُمْ إِلَى حُمَرَةِ عَيْنَيْهِ وَانْتِفَاحِ أَوْدَاجِهِ»، وقال الترمذي: "هذا حديث حسن"، وقال الشيخ حسن ابن حيدر في نزهة الألباب (٤/٢٣٦٦): "انفرد على بن زيد من بين قرنائه بهذا وهو ضعيف... ثم وجدت في الأوسط للطبراني أن على بن زيد قد توبع إذ تابعه عطاء بن ميسرة الخراساني وقد ضعف بالتدليس وكثرة الإرسال إلا أنه صرح بالتحديث هنا فالتحسين قائم".

(٦) مفردات القرآن للراغب (ص: ٦٠٨)، والدر المصون في علوم الكتاب المكنون (١/٧٦).

عاطفة، وقد لا يصحبها ثوران دم القلب، وأما ما ذكره النبي ﷺ من انتفاخ الأوداج وحمرة العين فإشارة إلى آثار الغضب في المخلوق، وغضب الله ﷻ من صفاته الفعلية، لكنه ليس كغضب البشر؛ فإن الله ﷻ ليس كمثله شيء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأما قول القائل: "الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام"، فليس بصحيح في حَقِّنا؛ بل الغضب قد يكون لدفع المنافي قبل وجوده، فلا يكون هناك انتقام أصلاً، وأيضاً: فغليان دم القلب يقارنه الغضب، ليس أن مجرد الغضب هو غليان دم القلب، كما أن الحياء يقارن حمرة الوجه، والوجل يقارن صفرة الوجه، لا أنه هو»^(١).

ويرى ابن عاشور رحمه الله أن غَضَبَ اللَّهِ تقديره: الإِبْعَادُ وَالْعُقُوبَةُ وَالتَّحْقِيرُ، وَهِيَ آثَارُ الْغَضَبِ فِي الْحَوَادِثِ^(٢)، وهذا ليس الغضب بل هو آثار الغضب كما قرر رحمه الله.

وَبِذَا يَكُونُ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ [الأعراف: ٧١]:

قد نزل بكم شيئان عظيمان جاءكم من ربكم في موقعهما الصواب الذي ينبغي أن يكونا، وهما:

الأول: رجس باختلاط عقولكم وأفكاركم فلم تميزوا بين الصحيح والخطأ، والحق والباطل، حتى اعتقدتم الأمر القدر شيئاً نقيّاً صافياً، وطننتم الباطل أمراً حقاً.

والثاني: غضب أي: شدة في الحكم، وغلظة وحزم، بدلاً من الرحمة التي هي الصفة الغالبة السابقة من صفات الله ﷻ، وهذه الشدة الغضبية تستحقونها بسبب أفعالكم.

بصيرة: يظهر لنا جليّاً: لماذا أحرَّ الله ﷻ الغضب، فجعله بعد الرجس: فالرجس يصور قذارة عقولهم، وخبث نفوسهم مع أن الله ﷻ فطرها على أطيّب الطيب. والغضب يوضح أن الله ﷻ لم يعافهم من هذا الخبث، بل زادهم رجساً إلى رجسهم.

(١) مجموع الفتاوى (١١٩/٦).

(٢) التحرير والتنوير (٨-ب/٢١٠).

وقدّم كلمة: ﴿عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ عَلَى فَاعِلِ الْفِعْلِ: ﴿وَقَعَ﴾ ليظهر الاهتمام بِتَعْجِيلِ ذِكْرِ الْمُغْضُوبِ وَالْغَاضِبِ، إِيْقَاطًا لِبَصَائِرِهِمْ لَعَلَّهُمْ يُبَادِرُونَ بِالتَّوْبَةِ^(١)

هذه الجملة بهذه الهيئة تدل على حالات كان فيها هود عليه السلام:

الحالة الأولى: أن يكون دعا عليهم بنزول الرجس والغضب، وهذا واضح، وقد يفعل الداعية ذلك عندما يُظهر المجرمون أشد درجات الصد عن دعوته لهم إلى الخير.

الحالة الثانية: أن يكون أخبر عنهم أنهم حق عليهم ووجب أن يكون قد نزل عليهم رجس وغضب حتى منعهم هذا الرجس والغضب من أن يرجعوا إلى الحق بسبب هذه الأفعال والكلمات الخبيثة التي يواجهون بها الحق، وهذه الكلمة الشديدة أراد بها إيقاظهم ليتراجعوا عن مواقفهم.

الحالة الثالثة: أن يكون أخبرهم أنه يتوقع أنه سينزل عليهم رجس وغضب يدمرانهم، فجعل المتوقع الذي لا بد من نزوله في حكم الواقع فقال: ﴿قَدْ وَقَعَ﴾، ونحوه قولك لمن طلب إليك بعض المطالب: قد كان ذلك، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: ١]؛ أي: القيامة أو العذاب بِمَعْنَى: سَيَأْتِي أَمْرُ اللَّهِ جل جلاله.^(٢)

تغيير أسلوب الخطاب بما يقتضيه الحال:

نلاحظ أن هودًا عليه السلام غَيَّرَ فِي أَسْلُوبِهِ، فَقَدْ بَدَأَ بِأَسْلُوبٍ لَطِيفٍ هَادِيٍّ فَقَالَ: ﴿يَقُومُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣) أَبْلَغُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ^(٤) [الأعراف: ٦٧-٦٨]، ولكنه هنا انتقل إلى أسلوب شديد، فدعا عليهم بالرجس والغضب أو أخبر أنهم قد وقعوا في ذلك، فلماذا غَيَّرَ هود عليه السلام أسلوبه، فانتقل إلى هذا الخطاب الشديد بعد ذاك الخطاب اللطيف اللين؟

ففي البداية كان يقول: ﴿لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٥) فهذا كلام عقلي هادئ مقنع، أما هنا فإِذَا فَيَرَدُ عليه السلام عَلَى تَعْصِيهِمُ الْأَعْمَى بِرَدِّ مَزْلَزِلٍ، لِمَاذَا عَدَلَ إِلَى ذَلِكَ؟ لَأَنَّ الْقَوْمَ صَادَرُوا عَقُولَهُمْ.

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/ ٢١٠).

(٢) تفسير الرازي (١٤/ ٣٠٣).

هل تصدق أنهم أبعدوا التفكير الحقيقي جانبًا؟!

هل تصدق أنهم كانوا يتكلمون بعقل حينما جعلوا الحقيقة المنطقية أمرًا مستنكرًا فقالوا:

﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾؟!

ماذا يعني قولهم هذا؟

يعني: أنهم يعرفون الله ﷻ، ويؤمنون به، لكنهم يصرون على أن يشركوا معه غيره في العبادة، وهذا يدل على أنهم لا ينكرون الله ﷻ، وإنما استنكروا من هود عليه السلام التوحيد، ويستنكرون من هود عليه السلام أن يطالبهم بأن يعبدوا الله ﷻ ما لهم من إله غيره.

لا بأس: يمكن أن نعبد مع الله ﷻ غيره إذا وجد دليل مقنع فأين دليلكم؟

لم يجدوا دليلًا ماديًا واحدًا في أدلة الآفاق، ولم يجدوا دليلًا ماديًا واحدًا في براهين الأنفس، ولم يجدوا دليلًا ماديًا واحدًا في تفكير العقول، ولم يجدوا دليلًا واحدًا في أن الله ﷻ أمرهم بذلك.

فماذا فعلوا؟ لقد هربوا إلى التقليد المحض لفعل الآباء، فقالوا: ﴿وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾،

وهل تقليد الآباء فيما لا دليل عليه يكون دليلًا أمام الحقائق، والبراهين الساطعة؟!

ولما عجزوا عن نصره مذهبهم الداحض، ورأيهم السفه، لجأوا إلى ما يفعله أجهل الجهلاء، فقالوا

ما يثير الشفقة والرثاء، لقد قالوا: ﴿فَأْتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

تصوّر طالبًا يخوفه أستاذه من أنه إن لم يذاكر فسيكون الفشل حليفه آخر العام، ثم سيكون السقوط في الحياة حليفه في بقية عمره إن لم يجتهد في إتقان واجباته، وبدلاً من أن يستمع هذا الطالب العنيد للنصح سخر من أستاذه، وغرّه شبابه، وقال: أتحداك، هات الفشل إن كنت صادقاً! كيف تنظر لمثل هذا التفكير؟!

وأمام هذه الأفعال الطائشة والأفكار السفهية كان لا بد ليهود عليه السلام أن يغير من أسلوبه في التخاطب معهم، فانتقل من النبرة الهادئة الحانية إلى الأسلوب المزلزل الغاضب عساهم يستيقظون، فقال لهم: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾.

فالحكمة وضع الشيء في موضعه، ففي موضع اللين ينبغي أن يظهر اللين، وفي موضع الشدة ينبغي إظهار الشدة كما قال المتنبي:

وَمَا قَتَلَ الْأَحْرَارَ كَالْعَفْوِ عَنْهُمْ وَمَنْ لَكَ بِالْحُرِّ الَّذِي يَحْفَظُ الْيَدَا
إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتُهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا
وَوَضَعَ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعُلَى مُضِرٌّ كَوَضَعَ السَّيْفُ فِي مَوْضِعِ النَّدَى
وَقَيَّدْتُ نَفْسِي فِي ذِرَاكَ مُحَبَّةً وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قَيِّدًا تَقَيَّدَا^(١)

وقد «قيل: استعمال الحليم مع اللئيم، أضر من استعمال الجهل مع الكريم»^(٢).

الإنذار الثاني: إيقاظ للعقل: فمقابل قوله: ﴿وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ قال لهم: ﴿أَتُجَدِّلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾، فالتقليد للآباء ليس صواباً دائماً، وإلا لما تطوّر بنو الإنسان، فكيف تقلدون آباءكم في شيء وضح فيه الضلال، وهو أنكم اتخذتم آلهة ليس لها من الألوهية إلا أنكم سميتوها آلهة أنتم وآباؤكم، وإلا فهي ليست كذلك، بل الإله الحق جَلَّ جَلَّالُهُ من بيده مقاليد كل شيء، وهو رب العالمين:

كيف عبر هود عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذه الكلمات عن استنكاره للرد الذي أجابه به قومه؟

الجواب نجده في التحليل الآتي:

الكلمة: [١]: ﴿أَتُجَدِّلُونَنِي﴾ الهمزة تصور هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو ينكر عليهم إنكاراً توبيخياً، فتفيد الهمزة أن ما بعدها واقع، وأن فاعل ما بعدها ملوم، فكأنه يقول لهم: أوبخكم توبيخاً شديداً على ما تفعلون، فأنتم تجادلوني في شيء لا ينبغي أن تجادلوني فيه،

فالهمزة تعبر عن استنكاره الشديد، فينكر عليهم بضاوّة طريقة تفكيرهم، فهل بلغ سفه العقول بهم أنهم يعرفون الله جَلَّ جَلَّالُهُ، واستحقاقه للألوهية، ثم يصرون مع ذلك على جعل شركاء معه في ألوهيته دون دليل واضح إلا أنهم سموها آلهة هم وآباؤهم وسمعوا آباءهم ينادونها آلهة؟

(١) ديوان المتنبي (ص: ٣٧٢-٣٧٣).

(٢) درر الحكم لأبي منصور الثعالبي (ص ٢٧).

و"الجدل" من جَدَلَ الحبلَ إذا لَفَّه وأحكم ذلك اللف، وهذا يعني أنهم يناقشونه بانغلاقٍ شديد دون أن يكون لهم قلب مفتوح أو عقل مفتوح، يفكرون في صحة قولهم أو بطلانه.

الكلمات: [٦-٢]: ﴿فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ﴾:

لاحظ كيف أشرك بينهم وبين آبائهم في التواطؤ على تغيير الأسماء لتفخيم الأصنام، فقال: ﴿سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ﴾، فبعض آبائهم وضعوا تلك الأسماء لتلك الأصنام، ثم جاء آخرون من الأجيال، فقلدوا الآباء في هذه التسميات بدلاً من أن ينكروها.

الحقائق لا تختلف بتغيير أسمائها:

يصور لنا قول هود عليه السلام: ﴿أَتُجَدِّلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ﴾ أن عبادة الأصنام لم تكن موجودة في القديم، وأن التسميات الجديدة أحياناً تحاول قلب الحقائق، فكيف ذلك؟ لقد أنبأنا قول هود عليه السلام: ﴿أَتُجَدِّلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ﴾ بأن عاداً يحتمل أنها كانت تعبد نوعين من الآلهة المكذوبة:

النوع الأول: أصنام أضفت عليها ألقاباً فخمة توهم أنها آلهة كما سعى الوثنيون العرب: العزَّى من العزيز، واللات من الإله، فهي أصنام من حجارة اخترعوا لها أسماء مفخمة ليضلوا بها غيرهم، فيظن السامع عندما يسمع هذه الأسماء المفخمة بأن هناك حقيقة وراء هذه الأسماء وهي لا حقيقة لها، فهي مجرد حجارة، وقد ذكر المؤرخون من أسماء أصنام أمة عادٍ ثلاثة: (صَمُودٌ)، و(صُدَاءُ)، و(الْهَبَاءُ)^(١).

النوع الثاني: أسماء لذوات غير موجودة بأن جعلوا لها أساطير أو مواضع أو اخترعوا لها تماثيل لإظهار أنها موجودة، وهي مجرد خيالات، كما اخترع الإغريق إلهاً للحرب سمَّوه (أريس)، واخترعوا إلهاً للرعْد سمَّوه (زوس)، وكل ذلك لا وجود له^(٢)، كما يحدث هذه الأيام في أفلام الخيال العلمي.

أي: جدالكم لو كان في شيء صحيح لقبْلته لكنه في شيء واضح في أنه خطأ، وهو أنكم عمدتم إلى أصنام من حجارة، فسميتموها آلهة أنتم وأباؤكم، فهل تسميتكم للشيء بغير اسمه يجعله حقيقة

(١) مروج الذهب (١/٢٢٧).

(٢) انظر: الفصل الثاني: سجل الآلهة من كتاب قصة الحضارة (٦/٣٢١-٣٤٠).

في الاسم الجديد؟! فإذا سميتم الحجر رجلاً: هل يصير رجلاً؟! فمن باب أولى عندما تسمون الحجر أو المخلوق إلهاً هل يصير إلهاً؟! وإذا كان الإنسان أعلى منها يتكلم ويسمع ويبصر وهي لا تتكلم ولا تسمع ولا تبصر، ولا تسمون الإنسان إلهاً، فكيف تقبلون أن تكون هي آله؟!

بصيرة: يلجأ الشيطان وحزبه إلى تغيير المسميات لتثبيت الباطل عند الناس، فجاء هؤلاء وبعض آبائهم إلى حجارة أو رمل فصنعوا منها أصناماً، ثم سموها هذه الأصنام الهة، فهل تغيير تسمية الحجر يغيّر من حقيقته؟!

لقد سمو حجارة موجودة، وخيالات مفقودة بأسماء فخمة ثم زعموا أنها آلهة، فهل هذا دليل على أنها كذلك؟

وقد ذكر النبي ﷺ أن أناساً سيغيرون أسماء الأشياء حتى يتلاعبون بعقول الناس، فقال: «إِنَّ أَنْاسًا مِنْ أُمَّتِي يَشْرِبُونَ الْخَمْرَ، يُسَمُّونَهَا بَغِيرَ اسْمِهَا»^(١).

وعَنْ مَالِكِ بْنِ أَبِي مَرْيَمَ، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَبِيعَةَ الْجُرَيْثِيِّ فَتَذَاكَرْنَا الطَّلَاءَ فِي خِلَافَةِ الضَّحَّاكِ بْنِ قَيْسٍ، فَإِنَّا لَكَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ عَلَيْنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ غَنَمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَحَدَّثَنَا: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَيْشَرَبَنَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ يُسَمُّونَهَا بَغِيرَ اسْمِهَا»، وَالَّذِي حَدَّثَنِي أَصْدَقُ مِنِّي وَمِنْكَ، وَالَّذِي حَدَّثَ بِهِ أَصْدَقُ مِنْهُ وَمِنِّْي وَمِنْكَ. فَقَالَ: وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَقَدْ سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ سَمِعَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، فَزَدَدَهُ عَلَيْهِ ثَلَاثًا فَقَالَ الضَّحَّاكُ: أَفَ لَه مِنْ شَرَابِ آخِرِ الدَّهْرِ»^(٢).

(١) أحمد (١٨٠٧٣)، وقال محققو المسند: "إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين"، قال الألباني: "وهذا إسناده صحيح رجاله كلهم ثقات رجال الستة"، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها: رقم: [٤١٤]، (١/٧٧٤)، وكان الطلاء اسم لنوع من الخمر، فلما اختلف الاسم اختلفت الآراء فيه.

(٢) أحمد (٢٢٩٠٠)، وقال محققو المسند: "المرفوع منه صحيح لغيره، وهذا إسناده ضعيف لجهالة مالك بن أبي مريم". وصحح إسناده الألباني في الصحيحة (٤١٤)، وذكر أن جهالة اسم الصحابي لا تضر، كما في المصطلح تقرر.

والمقصود أن تسمية الشيء بغير اسمه لا يغير حقيقته، فالآن يسمون الربا فوائد، ويسمون التحالف على البغي والإثم والعدوان صداقات وتحالفات دولية، وربما سموها شرعية دولية، ويسمون قتل الأجنة في بطون أمهاتهم: حرية اختيار، ويسمون مرض الشهوات المحرمة: حُبًّا.

فإن قلت: ما القانون الإلهي الكبير الذي صدع به هود عليه السلام؟ وما معناه؟

الجواب:

الكلمات: [٧-١٢]: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾: "السلطان" من التسلط، فهو الحجة الواضحة المتسلطة على من طلبها أو أرادها، ولوضوحها لا يستطيع المرء الفرار منها، وعندها يسلم لها المخالف، سُمِّيَتْ سُلْطَانًا لِأَنَّهَا تَسَلَّطُ عَلَى نَفْسِ الْمُعَارِضِ وَتُقْنِعُهُ^(١).

فكان هود عليه السلام يقول: لا يمكنكم أن تزعموا أن هذه الأصنام تستحق مرتبة الألوهية؛ لأنها أدنى منكم شأنًا، فكيف تجعلونها أرفع منكم، فلم يبق إلا أن يكون هناك حجة قوية عندكم، أو دليل واضح قاطع على أن الله ﷻ هو الذي أمركم بأن تجعلوها آلهة، ولكننا لا نجد قطعًا أن الله ﷻ نزل بذلك دليلًا محتملًا فضلًا عن دليل قاطع، فما نزل الله بها من سلطان.

والمعنى: "ما جعل الله لكم في عبادتكم إياها من حجة تحتجئون بها، ولا معذرة تعتذرون بها، لأن العبادة إنما هي لمن ضرّ ونفع، وأثاب على الطاعة وعاقب على المعصية، ورزق ومنع. فأما الجماد من الحجارة والحديد والنحاس، فإنه لا نفع فيه ولا ضرر، إلا أن تتخذ منه آلهة، ولا حجة لعابد عبده من دون الله في عبادته إياه، لأن الله ﷻ لم يأذن بذلك فيعتذر من عبده بأنه يعبدته اتباعًا منه أمر الله في عبادته إياه. ولا هو إذ كان الله ﷻ لم يأذن في عبادته مما يرجى نفعه، أو يخاف ضرره، في عاجل أو آجل، فيُعبد رجاء نفعه، أو دفع ضرره"^(٢).

"إن ما تعبدون مع الله ﷻ ليس شيئًا ذا حقيقة! إنها مجرد أسماء أطلقتموها أنتم وآباؤكم من عند أنفسكم لم يشرعها الله ﷻ ولم يأذن بها، فما لها إذن من سلطان ولا لكم عليها من برهان".

(١) التحرير والتنوير، (٨-ب/٢١٣).

(٢) تفسير الطبري (١٢/٥٢٣).

وهذا القانون الإلهي الكبير: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهِ مِنْ سُلْطَنٍ﴾ يذكرك بالحقيقة التي يحاول أتباع الباطل تغطيتها: لا بد في مسائل العبادات من دليل واضح أنزله الله ﷻ ليكون ذلك الفعل عبادة صحيحة.

فهل أنزل الله ﷻ بذلك سلطاناً أي: دليلاً، فقال لهم ﷻ: اعبدوا هذه الآلهة معي؟! لا يحتاج إلى هذا السؤال لأن جوابه واضح، وهو: لم ينزل الله ﷻ علينا دليلاً يدل على ذلك. ستقول: كيف أظهر هود ﷻ الدليل القاطع على بطلان عبادة الأصنام، وضعف عقول من يفعل ذلك؟

الجواب: هذا التعبير القرآني المشرق يضم حجة مبهرة قاطعة على بطلان عبادة الأوثان، بل على بطلان عبادة أي شيء غير الله ﷻ، إنها حجة بالغة كما هو إيقاظ مدهش، كيف ذلك؟ عندما قال له قومه: ﴿أَجِئْتُكُمْ لَتَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ يغلب على ظن السامع لهم أنهم كانوا يعرفون الله ﷻ، لكنهم يصرون على ألا يعبدوه وحده، بل يصرون على إشراك آلهة أخرى معه في العبادة، وهنا كأن هوداً ﷻ سألهم: ما الدليل على أن هذه الأوثان التي تعبدونها مع الله ﷻ حق حتى تستحق أن تكون آلهة تعبد؟ هل هي بقوة الله ﷻ أو قدرته أو بعظمته، فتشركونها معه؟ ربما أجابوا: لا.

ربما سألهم: هل سماها الله ﷻ لكم آلهة حتى تعبدوها بناءً على أمر الله ﷻ؟ فإن كانوا صادقين سيقولون: لا. فربما سألهم ثالثة: هل أنزل الله ﷻ بها سلطاناً أي: حجة قاهرة واضحة قاطعة بوجي لا تشكون فيه إما بواسطة رسول أو كتاب تلقيتموه عن نبي أو عن آدم ﷻ؟ سيجيبون: لا! لم ينزل الله ﷻ بها من سلطان.

حينها يمكن أن يسألهم: فما الدليل على استحقاتها لهذه المرتبة العالية؟ ربما أجابوا: إنهم آباؤنا الذين جعلوا لها هذه المرتبة، فهم سموها آلهة، ونحن نقلدهم في ذلك.

وهنا يأتيهم الجواب الصاعق الموقظ: هل أنتم مجانين لا تملكون عقولاً؟ كيف تعتمدون إلى مخلوقات لا يمكن أن تكون أنداداً لله ﷻ، فتسمونها آلهة؟! ولأنكم وأباءكم سميتوها آلهة هل يمكن أن تصبح حقاً مماثلة لله ﷻ؟!

وكان هوداً عليه السلام أنشأ حواراً كبيراً معهم ليحررهم من هذا التفكير المجنون الغريب الذي سيطر عليهم.

هذا الحوار المفترض هو الذي تراه يلوح بمعانيه في قول هود عليه السلام: ﴿فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾.

ربما تسأل: لماذا عبر عن نزول الحجة عليهم من الله ﷻ بصيغة التنزيل، فقال: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾؟

الجواب: ذهب بعض المحققين إلى أن صيغة التنزيل ﴿نَزَّلَ﴾ تدل على النزول المتجدد، وذلك يعني التفريق، بخلاف الإنزال الذي يقتضي النزول الجملي؛ فإن كان هذا الفرق صحيحاً؛ فإن هوداً عليه السلام يخبرهم أن الله ﷻ لم يترك عباده، بل ينزل عليهم الهدى في كل وقت، فقال هود عليه السلام: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾، ونرى هوداً عليه السلام يؤكد لهم هذه المعلومة، فيعمم في نفي أن تكون عندهم أدنى حجة في تسميتهم للأصنام آلهة، حيث أدخل كلمة ﴿مِنْ﴾ في النفي، وهذا التعبير: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ الذي جمع فيه هود عليه السلام بين هذه الكلمات ﴿نَزَّلَ﴾، ﴿مِنْ﴾، ﴿سُلْطَانٍ﴾ استوقف البقاعي رحمه الله، فجعله يشعر بأنه يصور الأمر تصويراً بليغاً؛ إذ أتى بصيغة التنزيل؛ لِأَنَّ التَّفْعِيلَ يَأْتِي بِمَعْنَى الْفِعْلِ الْمُجَدَّدِ، وَمَعْنَى الْفِعْلِ بِالتَّدرِجِ، فَقَصَدَ النَّفْيَ بِكُلِّ اعْتِبَارٍ، سَوَاءً كَانَ تَجْدِيداً أَوْ تَدْرِجاً؛ لِأَنَّهُ فِي سِيَاقِ الْمُجَادَلَةِ، وَفِي سُورَةٍ مَقْصُودُهَا إِندَارُ مَنْ أَعْرَضَ عَمَّا دَعَا إِلَيْهِ هَذَا الْكِتَابُ النَّازِلُ بِالتَّدرِجِ^(١).

ثم ختم هود عليه السلام كلامه بقوله: ﴿فَأَنْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ﴾ ﴿٧١﴾ فما معنى هذا الختم؟

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٤٤١).

الجواب: هذا هو:

الإنذار الثالث: حذرهم من الأخطار المستقبلية إن استمروا على هذا الضلال، وأخبرهم بثقته المطلقة في تحقق هذا المستقبل، فقال: ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ﴾ ٧٠، وذلك في مقابل قولهم: ﴿قَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ٧١ [الأعراف: ٧٠]:

الكلمة: [١]: ﴿فَانتَظِرُوا﴾: (القاء) للوصول إلى النتيجة المتفرعة عن كل ما سبق، فكأنه قال: بما أنكم تصرون على المجادلة في مسائل واضحة، وتصرون على عبادة الأصنام، وتطلبون نزول العذاب بكم، وتصرون على غلق قلوبكم وعقولكم أمام المناقشات الصادقة إذا ﴿فَانتَظِرُوا﴾ أي: اجعلوا عيونكم ناظرة للوقت الذي حدده الله ﷻ في نزول العقاب بكم.

وهذا الأمر: ﴿فَانتَظِرُوا﴾ يُقصد به معنيان:

الأول: الإنذار لهم من تبعات الاختيار الذي اختاروه، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠].

الثاني: إظهار السلام وعدم إجبارهم على اختيار الإسلام؛ فكأنه قال لهم: لن أهاجمكم، ولن أقاتلكم، بل ستكون بيننا سنة التبرص، فتريصوا بنا وتبرص بكم حتى يأتي الله ﷻ بأمره، وهذا يبصرنا بألا يستعجل الإنسان نصر الله ﷻ؛ لأن نصر الله ﷻ محكوم بسنن وهو بأجل مسعى عنده -جل في علاه-، فإذا لا بد أن يتعبد بعبادة الانتظار.

الكلمات: [٢-٥]: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ﴾ ٧١ فأكد لهم أنه كذلك سيكون معهم من المنتظرين لما سيحكم الله ﷻ به في قابل الأيام بين الفريقين؛ إما الهلاك لأحدهما، وإما الهداية للفريق الكافر أو لبعضه.

هذا الإنباء لهم يواجه به قولهم السفيه: ﴿قَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ٧١، فكأنه يقول لهم: إن وقوع الدمار أو الهلاك بسبب ظلمكم لا يعود إلي، بل هو بيد الله ﷻ، أما الحق فقد ظهر لكم من محاورتنا، وأما العذاب فيأتي به الله ﷻ في الوقت الذي يشاؤه، وأنا منتظر لنزول نصر الله ﷻ على المؤمنين، والهلاك على المجرمين: ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ﴾ ٧١ فالمفعول

به للفعل: ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ محذوف، تقديره: فانتظروا وعد الله ﷻ الذي ينجي به المؤمنين ويعاقب به المستكبرين الغافلين الظالمين.

ولكن لماذا قال ﷻ بعد ذلك: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾؟

فلم يقل: (فإني)، وإنما أتى بها استئنافية بيانية، فهذه الكلمات استئناف بياني؛ لَأَنَّ تَهْدِيدَهُ إِيَّاهُمْ يُثِيرُ سُؤَالَ فِي نُفُوسِهِمْ أَنْ يَقُولُوا: إِذَا كُنَّا نَنْتَظِرُ الْعَذَابَ فَمَاذَا يَكُونُ حَالُكَ؟^(١).

فَبَيَّنَ أَنَّهُ يَنْتَظِرُ مَعَهُمْ، وَهَذَا يَحْمِلُ عِدَّةَ آدَابٍ:

الأدب الأول: مَقَامُ أَدَبٍ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى، فما على الرسول إلا البلاغ، وأما نزول العذاب، وتدمير الأمم المجرمة فمسألة ترجع إلى تقدير العزيز العليم الرحيم كَقَوْلِ شُعَيْبٍ ﷻ: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامِنُوا بِالَّذِي أَرْسَلْتُ بِهِءَ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾

﴿[الأعراف: ٨٧].﴾

وكقوله تعالى تَلْقِيئًا لَّرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِءَ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِءَ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ﴾ ﴿[الأنعام: ٥٧].﴾

الأدب الثاني: من معاني ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ ﴿٧١﴾ أن يذل الإنسان لربه ﷻ، وألا يستعجل نصره، فهوذ ﷻ بهذه الكلمات يعبر عن الكم الهائل من اليقين بأنه على حق، وينذرهم إنذاراً شديداً بأن الوقت الذي يحذرهم منه قادم.

"إنه على يقين من هزال الباطل وضعفه وخفة وزنه مهما انتفش ومهما استطال. كما أنه على يقين من سلطان الحق الذي معه وقوته بما فيه من سلطان الله ﷻ".

وكأنه يقول:

وَعَدًا يَجِيبُ لَنَا الْمَجِيبُ دَعَاءَنَا وَدُمُوعَنَا وَصَلَاتَنَا وَرَجَاءَنَا
وَعَدًا نَرَى مِنْ يَمَكُرُونَ بِدِينِنَا يَسْتَنْجِدُونَ مِنَ اللَّهِيبِ بِغَيْثِنَا

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/٢١٣).

وَعِدًّا سَنُضَحِّكُ مَلَأَ كُلَّ قَلْبُونَا فِي دَارِ خَلِيدٍ زُنَيْتٍ بِحَبِيبِنَا^(١)

ثم قال الله ﷻ: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٧٢). هذه آخر آية في قصة هود عليه السلام في سورة الأعراف.

فما المشهد الذي تصوره لنا؟

الجواب: هو:

المشهد الثامن: النهاية المحتومة للفريقين، فريق المؤمنين وفريق الكافرين:

آية المشهد: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٧٢).

في هذا المشهد نتيجتان هما:

النتيجة الأولى: إنجاء الله تعالى لهود عليه السلام والذين معه: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾: ونوضح ذلك وفق بصائر الكلمات المباركة الآتية:

الكلمة: [١]: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾ الفاء تصور التعقيب على القصة، ولحلول النتيجة المحتومة جاء التعبير بالفاء لتدل على أن النهاية القادمة كأنها وقعت مباشرة بعد ذلك الحوار، فهل الأمر كذلك؟ لا! بل غالبًا ما تطول المدة بين إنذار النبي لقومه وبين وقوع الهلاك لهم، ولكن الفاء تذكر أنه مهما طالبت المدة فكانها لحظات محدودة فلا تستبطنها.

والفاء تصور لك هنا أيضًا منظر الإنجاء للقيادة النبوية لهود عليه السلام والذين معه، وانظر تفخيم ذلك الإنجاء؛ إذ لم يقل ﷻ: (فأنجيئهم)، وإنما قال: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾ فنسب الفعل إلى نفسه ﷻ ب(نا) الدالة على التعظيم والتمجيد، ولاحظ أن التعبير بالإنجاء يدل على التخليص اللطيف لهم وسط العذاب الذي حلَّ على قومه، فهو من النجوى وهي الكلام الخفي، وترى فيه ارتفاعهم على قومه،

(١) الأبيات لإبراهيم عزت. يُنظر: الشيخ إبراهيم عزت، حياته وشعره (ص ٩١).

من النجوة وهي المكان المرتفع، والخفاء والارتفاع يدل على أنه كان إنجاءً لطيفاً سريعاً سُلَّ المؤمنون به مِنْ ذَلِكَ الْعَذَابِ كَسَلِ الشَّعْرَةِ مِنَ الْعَجِينِ^(١).

الكلمتان: [٣-٢]: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾: الواو أشركت بين هود عليه السلام والمؤمنين معه في حصول النجاة، وأخبر عنهم بالمعية مكتفياً بذلك ليصور المؤمنين يتحركون معه عند مفارقة ديار قومهم وقت أن أصابهم الريح الصرصر التي دمرت الكافرين.

الكلمتان: [٥-٤]: ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾:

لماذا ذكر الرحمة هنا؟ لماذا قال: ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾؟

الجواب: الباء في قوله: ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ تعني: الإلصاق والاستعانة والمصاحبة والسببية، كل هذه المعاني تنطبق على الباء هنا، فنجاتهم كانت بسبب رحمة الله ﷻ التي لاصقت كل لحظة من لحظاتهم في ذلك الموقف، ولقد استعانوا بها فصاحبهم، وترى أن الله ﷻ نكّر كلمة: (رحمة) ليعظمها، ثم زاد في بيان عظيم منته عليهم حينما ذكر نفسه بنا الدالة على العظمة فقال: ﴿مِنَّا﴾.

وقد ذكر أن قبر نبي الله هود عليه السلام بقي معروفاً، فعن أبي الطفيل عامر بن واثلة، قال: سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام يقول لرجل من حضرموت: «هل رأيت كتيباً أحمر تخالطه مدرة حمراء، ذا أراكِ وسِدْر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت، هل رأيته؟» قال: نعم يا أمير المؤمنين! والله إنك لتنتعه نعت رجلٍ قد رآه! قال: «لا! ولكني قد حُتّت عنه». فقال الحضرمي: وما شأنه يا أمير المؤمنين؟ قال: «فيه قبرُ هود صلوات الله عليه»^(٢).

النتيجة الثانية: إهلاك المكذبين من قوم عاد: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(٣):

لماذا وصف الله ﷻ الدمار الذي حل على الظالمين بقوله: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(٣)؟ لماذا التعبير عن إهلاك "عاد" بقطع الدابر؟

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/٤٤٢).

(٢) تفسير الطبري (١٢/٥٠٧)، وأخرجه الحاكم في المستدرک (٦/٤١٠)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف: لجهالة محمد بن عبد الله بن أبي سعيد الخُزاعي".

الجواب: هذا التعبير يقدم أجمل التصوير لما حدث، فبين أن إهلاك الذين ظلموا من قوم عاد كان على سبيل المعجزة التي لا يقدر عليها الملوك ولا الجيوش العسكرية، ولا يقدر عليها الذين يخوضون المعارك، حيث حدث لأمة عاد من الهلاك والدمار شيء لا يمكن أن يحدثه البشر، فقد أخذوا جميعًا واستوصلوا عن آخرهم على خلاف إهلاك البشر بعضهم لبعض.

فإن الإنسان إذا أراد أن ينتقم من عدوه فإنه لا يصل إلى درجة الاستقصاء في الطلب في الغالب، بل قد يفوته أواخر العساكر، أو لا يتمكن من إهلاك عدوه وأمة عدوه بصورة كاملة، وإنما ينزل عليه الهزيمة، أما قوله: ﴿وَقَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيَاتِنًا﴾، فمقطع الدابر يعني: الاستئصال، أي: أهلكنا جميع المكذبين دون استثناء، ولذا قال الله ﷻ: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، فالدابر آخر الشيء، فإذا كان الدابر قد قطع فكيف القابل أي: الأول؟!

وقد بين الله ﷻ كيفية إهلاكهم تفصيلًا، فقال: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۖ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ نَّخْلٍ خَاوِيَةٍ ۖ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِّنْ بَاقِيَةٍ ۖ﴾ [الحاقة: ٦-٨]. لَمَّا تَمَرَّدُوا وَعَتَوْا أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ ﷻ بِرِيحٍ عَاتِيَةٍ، فَكَانَتْ تَحْمِلُ الرَّجُلَ مِنْهُمْ فَتَرْفَعُهُ فِي الْهَوَاءِ ثُمَّ تُنْكِسُهُ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ، فَتُلْغُ رَأْسَهُ حَتَّى تُبَيِّنَهُ مِنْ بَيْنِ جُثَّتَيْهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ نَّخْلٍ خَاوِيَةٍ ۖ﴾ (١).

وأما في هذه السورة فلم يفصل كيفية هلاكهم، بل عبر عن ذلك بقوله: ﴿وَقَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيَاتِنًا﴾.

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٣٥).

بصيرة: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ هذا التعبير المزلزل يحدث ضجةً مرعبةً عند سماعه؛ إذ يدل على مقدار العقوبة التي تحل بالظالمين، فالقطع يدل على الإجهاز الكامل، والتعبير به يشعر سامعه بالرعب الحقيقي، والقطع لم يقتصر على بعض المكذبين، بل كان القطع لدابرهم أي: لهم جميعاً، فلم يبق منهم دابر أي: أحد متأخر.

ويظهر أن هذا بيان لما ذكره بعض المؤرخين من أن نفرًا من كفار أمة عاد ذهبوا إلى الحرم، يطلبون إلى الله ﷻ أن يغيثهم؛ إذ انقطع عنهم المطر، فلما خرجوا من الحرم جاءت العقوبة فأخذتهم لتلحقهم بقومهم، لكن الآية تدل على أن العقوبة عمّت، وقصة ذهاب بعضهم إلى الحرم لا يوجد عندنا ما يثبتها ولا ما ينفيها، وسيأتي الكلام عنها في نهاية القصة.

فإن قلت: بين الله ﷻ أنهم جمعوا بين التكذيب بالآيات، وعدم الإيمان، فقال: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾، ولكن لماذا الجمع بينهما مع أن التكذيب بالآيات يدل على عدم الإيمان؟

الجواب: لأن قولهم السابق: ﴿أَجِئْتَنَا لَتَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَدَّرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ يُشعرنا بأنهم كانوا يؤمنون بالله ﷻ لكنهم يشركون معه غيره، وقد أخبر الله ﷻ عن هذا الصنف، فقال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

فأخبر الله ﷻ أنهم كانوا يراوغون، فيزعمون الإيمان بالله ﷻ لكنهم يصرون على الشرك؛ لأنهم وجدوا آباءهم كذلك، وهنا يبين الله ﷻ أن هذا النوع من الإيمان ليس إيماناً حقيقياً، فالإيمان والشرك متضادان.

وتفيدنا هذه الجملة: ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ معنى آخر هو التعريض بمن آمن منهم كمرثد بن سعد، ومن نجا مع هود عليه السلام، كأنه قال: وقطعنا دابر الذين كذبوا منهم ولم يكونوا مثل من آمن منهم، ليخبرنا بذلك أن الهلاك حصّ المكذبين، ونجى الله ﷻ المؤمنين.

ورأى الرازي رحمه الله أن الله ﷻ عَلِمَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ لَوْ بَقُوا لَمْ يُؤْمِنُوا أَيْضًا، وَلَوْ عَلِمَ تَعَالَى أَنَّهُمْ سَيُؤْمِنُونَ لِأَبْقَاهُمْ ^(١).

أي: قَطَعْنَا دَابِرَهُمْ وَهُمْ مُسْتَجِفُّونَ لِدَلِكْ؛ لِأَنَّهُمْ غَيْرُ قَابِلِينَ لِلْإِيمَانِ لِمَا فِيهِمْ مِنْ شِدَّةِ الْعِنَادِ وَلُزُومِ الْإِلْحَادِ، فَالْمَعْنَى: وَمَا كَانَ الْإِيمَانُ مِنْ صِفَتِهِمْ، أَي: مَا آمَنُوا فِي الْمَاضِي وَلَا يُؤْمِنُونَ فِي الْآتِي ^(٢).

قصة عاد بين البيان القرآني المعجز والروايات التاريخية:

وهكذا طويت صفحة أخرى من صحائف المكذبين. وتحقق النذير مرة أخرى بعد إذ لم ينفع التذكير، فهل نجد وصفًا تاريخيًا تفصيليًا لما حدث لعاد قوم هود ﷺ؟

الجواب: وجدنا عن ابن إسحاق رحمه الله تفصيلًا لما حدث ^(٣)، وبعض هذا التفصيل يخالف ما ورد في القرآن، وبعضه لا يوجد ما يثبت به ولا ما ينفيه، فقد قال:

"كانت منازل عاد وجماعتهم، حين بعث الله ﷻ فيهم هودًا ﷺ، الأحقاف. قال: و"الأحقاف": الرمل، فيما بين عُمان إلى حضرموت، فاليمن كله، وكانوا مع ذلك قد فشوا في الأرض كلها، وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله ﷻ، وكانوا أصحاب أوثانٍ يعبدونها من دون الله ﷻ: صنم يقال له: "صُداء"، وصنم يقال له: "صَمُود"، وصنم يقال له: "الهباء". فبعث الله ﷻ إليهم هودًا ﷺ، وهو من أوسطهم نسبًا، وأفضلهم موضعًا، فأمرهم أن يوحّدوا الله ﷻ، ولا يجعلوا معه إلها غيره، وأن يكفّوا عن ظلم الناس، ولم يأمرهم فيما يذكر -والله أعلم- بغير ذلك، فأبوا عليه وكذبوه. وقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِمَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]!. وأتبعه منهم ناسٌ، وهم يسيرٌ مكتتمون بإيمانهم، وكان ممن آمن به وصدّقه رجلٌ من عاد يقال له: "مرثد بن سعد بن عُفَيْرٍ"، وكان يكتُم إيمانه. فلما عتوا على الله ﷻ وكذبوا نبيهم، وأكثروا في الأرض الفساد، وتجبروا وبنوا بكل ريع آية عبثًا بغير نفع، كلمهم هود ﷺ، فقال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ ﴿١٣١﴾﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣١]، ﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا

(١) تفسير الرازي (١٤/ ٣٠٤).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٤٤٣).

(٣) أورد هذه الرواية عن ابن إسحاق الإمام الطبري ينظر: تفسير الطبري (١٢/ ٥٠٧).

نَحْنُ بِتَارِكِ آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَزَّكَ بِبَعْضِ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴿٥٤﴾
[هود: ٥٣-٥٤]، أي: ما هذا الذي جئنا به إلا جنون أصابك به بعض آلهتنا هذه التي تعيب، ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴿٥٦﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٧﴾
[هود: ٥٤-٥٦].

ويكمل ابن إسحاق رحمه الله الوصف، فيقول: "فلما فعلوا ذلك أمسك الله ﷻ عنهم المطر من السماء ثلاث سنين، فيما يزعمون، حتى جهدهم ذلك، وكان الناس في ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء أو جهد، فطلبوا إلى الله ﷻ الفرج منه، كانت طلبتهم إلى الله عند بيته الحرام بمكة، مسلمهم ومشركهم، فيجتمع بمكة ناس كثير شتى مختلفة أديانهم، وكلهم معظم لمكة، يعرف حرمتها ومكانها من الله" (١).

علام يدل كلام ابن إسحاق رحمه الله؟

الجواب: يدل على أن البيت الحرام بني قبل إبراهيم عليه السلام، وإنما جدد إبراهيم عليه السلام قواعده، وأعاد بناءه بعد أن كان منطمساً، قال ابن إسحاق رحمه الله: "وكان البيت في ذلك الزمان معروفاً مكانه، والحرم قائم فيما يذكرون، وأهل مكة يومئذ العماليق، وإنما سموا "العماليق"؛ لأن أباهم: "عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح"، وكان سيد العماليق إذ ذاك بمكة، فيما يزعمون رجلاً يقال له معاوية بن بكر، وكان أبوه حياً في ذلك الزمان، ولكنه كان قد كبر، وكان ابنه يرأس قومه، وكان السؤدد والشرف من العماليق، فيما يزعمون، في أهل ذلك البيت، وكانت أم معاوية بن بكر، كلبدة ابنة الخيبري، رجل من عادٍ، فلما قحط المطر عن عاد وجهدوا، قالوا: جهزوا منكم وفداً إلى مكة فليستسقوا لكم، فإنكم قد هلكتم! فبعثوا مجموعة فيهم: قَيْلَ بْنَ عَزْرِ وَلَقِيمَ بْنَ هَزَالِ بْنِ هَزِيلَ، وَعُتَيْلَ بْنَ صَدِّ بْنِ عاد الأكبر، وَمَرْثَدَ بْنَ سَعْدِ بْنِ غَفِيرٍ، وكان مسلماً يكتن إسلامه، وجُلْهُمَةَ بْنَ الْخَيْبَرِيِّ، خال معاوية بن بكر أخو أمه. ثم بعثوا لقمان بن عاد بن فلان بن فلان بن صُدِّ بْنِ عاد الأكبر. فانطلق كل رجل

(١) أورد هذه الرواية عن ابن إسحاق الإمام الطبري ينظر: تفسير الطبري (٥٠٨/١٢).

من هؤلاء القوم معه رهط من قومه، حتى بلغ عدّة وفدهم سبعين رجلاً، فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر، وهو بظاهر مكة خارجاً من الحرم، فأنزلهم وأكرمهم وكانوا أحواله وصهره".

فماذا كانت حالة سفراء الغفلة؟ هل أدوا رسالتهم في نجدة قومهم؟ هل قاموا بما يأمله منهم شعبيهم؟

قال: "فلما نزل وفد عاد على معاوية بن بكر، أقاموا عنده شهراً يشربون الخمر، وتغنيهم الجرادتان - وهما مغنيتان قينتان لمعاوية بن بكر -. وكان مسيرهم شهراً، ومقامهم شهراً. فلما رأى معاوية بن بكر طول مقامهم، وقد بعثهم قومهم يتعوذون بهم من البلاء الذي أصابهم، شقّ ذلك عليه، فقال: هلك أحوالي وأصهاري! وهؤلاء مقيمون عندي، وهم ضيفي نازلون عليّ! والله ما أدري كيف أصنع بهم؟ أستحي أن أمرهم بالخروج إلى ما بعثوا له، فيظنوا أنه ضيق مني بمقامهم عندي، وقد هلك من وراءهم من قومهم جهداً وعطشاً!! أو كما قال. فشكا ذلك من أمرهم إلى قينتيه الجرادتين، فقالتا: قل شعراً نغنيهم به، لا يدرون من قاله، لعل ذلك أن يحركهم! فقال معاوية بن بكر، حين أشارتا عليه بذلك:

لَعَلَّ اللَّهَ يُصْهِحُنَا غَمَامًا	أَلَا يَا قَيْلَ، وَيَحَكَ! قُمْ فَهَيِّنْ
قَدْ امْسُوا لَا يُبَيِّنُونَ الْكَلَامَا	فَيَسْقِي أَرْضَ عَادٍ، إِنَّ عَادًا
بِهِ الشَّيْخَ الْكَبِيرَ وَلَا الْغُلَامَا	مِنَ الْعَطَشِ الشَّدِيدِ، فَلَيْسَ نَرْجُو
فَقَدْ أَمْسَتْ نِسَاؤُهُمْ عِيَامِي ^(١)	وَقَدْ كَانَتْ نِسَاؤُهُمْ بِخَيْرٍ
وَلَا تَخْشَى لِعَادِي سِهَامَا	وَأَنَّ الْوَحْشَ تَأْتِيهِمْ جَهَارًا
نَهَارَكُمْ وَلَيْلَكُمْ التَّمَامَا	وَأَنْتُمْ هَا هُنَا فِيمَا اسْتَهَيْتُمْ
وَلَا لُقُوا التَّحِيَّةَ وَالسَّلَامَا	فَقَبِّحْ وَفْدَكُمْ مِنْ وَفْدِ قَوْمٍ

(١) "أعام القوم": هلكت إبلهم، فلم يجدوا لبناً. و"العيمة": شدة شهوة اللبن. و"عام القوم": قلّ لبنهم من القحط، "رجل عَيَّمان، وامرأة عَيَّي أَيْئى"، والجمع "عيام" و"عيامى"، والأيم من النساء التي لا زوج لها بكراً كانت أو ثيباً ومن الرجال الذي لا امرأة له. لسان العرب (٤٣٣/١٢).



فلما قال معاوية ذلك الشعر، غنّتهم به الجرادتان. فلما سمع القوم ما غنّنا به، قال بعضهم لبعض: يا قوم، إنما بعثكم قومكم يتعوّذون بكم من هذا البلاء الذي نزل بهم، وقد أبطأتم عليهم! فادخلوا هذا الحرم واستسقوا لقومكم!

وهل تراهم إذا ذهبوا إلى الحرم ودعوا الله يجيب الله دعاءهم وهم قد كفروا بآيات الله، وكذبوا رسوله هودًا عليه السلام؟!

قال لهم مرثد بن سعد بن عفير: إنكم والله لا تُسقون بدعائكم، ولكن إن أطعتم نبيكم، وأنبتم إليه، سُقيتم! فأظهر إسلامه عند ذلك، فقال لهم جُلُهمة بن الخيريّ، خال معاوية بن بكر، حين سمع قوله، وعرف أنه قد اتبع دين هود عليه السلام وأمن به:

أَبَا سَعْدٍ فَإِنَّكَ مِنْ قَبِيلٍ ذَوِي كَرَمٍ وَأُمْلُكَ مِنْ تَمُودٍ
فَإِنَّا لَنْ نَطِيعَكَ مَا بَقِينَا وَلَسْنَا فَاعِلِينَ لِمَا تُرِيدُ
أَتَأْمُرُنَا لِنَتْرُكَ دِينَ رَفِدٍ وَرَمَلٍ وَآلِ صُدٍّ وَالْعُبُودِ^(١)
وَنَتْرُكَ دِينَ آبَاءِ كِرَامٍ ذَوِي رَأْيٍ وَنَتَّبِعَ دِينَ هُودٍ؟

ثم قالوا لمعاوية بن بكر وأبيه بكر: احبسنا عنّا مرثد بن سعد، فلا يقدم معنا مكة، فإنه قد اتبع دين هود عليه السلام، وترك ديننا! ثم خرجوا إلى مكة يستسقون بها لعاد، فلما ولّوا إلى مكة خرج مرثد بن سعد من منزل معاوية بن بكر حتى أدركهم بها، قبل أن يدعوا الله تعالى بشيء مما خرجوا له.

فلما انتهى إليهم، قام يدعو الله تعالى بمكة، وبها وفد عاد قد اجتمعوا يدعون، يقول: "اللهم أعطني سُؤلي وحدي، ولا تُدخلي في شيء مما يدعوك به وفد عاد!" وكان قيلُ بن عَزْرٍ رأس وفد عادٍ.

وهكذا مضى ابن إسحاق عليه السلام يحكي عن هذا وكيف اعترضت السحابة السوداء ديار عاد، فظنوا أنها مطر ووفدهم الذي أرسلوه لمكة قد نجح في استغاثة الله تعالى، وقال وفد عاد: "اللهم أعط قِيلاً ما سألَكَ، واجعل سؤلنا مع سؤله!" وكان قد تخلف عن وفد عاد حين دعا لقمان بن عاد، وكان سيّد

(١) كذا في تفسير الطبري (٥١١/١٢) بتحقيق العلامة شاکر، والتفعيلة الثانية في هذا الشطر غير موزونة، وتصح بتنوين الدال بالكسر (صُدٍّ)، وفي طبعة دار هجر بتحقيق التركي، كذلك لكن بتنوين (صِدٍّ) وذكر أن في نسخة (م): (وَرَمَلٍ وَالصُّدَاءَ مَعَ الصُّمُودِ) وهو صحيح الوزن.

عادٍ. حتی إذا فرغوا من دعوتهم قام، فقال: "اللهم إني جئتُك وحدي في حاجتي فأعطني سؤلي!" وقال قَيْلُ بن عَزْر حين دعا: "يا إلهنا، إن كان هودٌ صادقاً فاسقنا فإننا قد هلكنا!" فأنشأ الله ﷻ لهم سحائب ثلاثاً: بيضاء، وحمراء، وسوداء، ثم ناداه منادٍ من السحاب: "يا قَيْلُ، اختر لنفسك ولقومك من هذه السحائب". فقال: "اخترتُ السحابة السوداء، فإنها أكثر السحاب ماءً!" فناداه منادٍ: "اخترت رَمَادًا، رَمِيدًا^(١)، لا تُبقي من آل عاد أحدًا، لا والدًا تترك ولا ولدًا، إلا جعلته هَمِيدًا، إلا بني اللُّؤِيَّةِ الْمُهْدَى"، و"بنو اللُّؤِيَّةِ"، بنو لُقيم بن هزَال بن هزيلة بن بكر، وكانوا سَكَنًا بمكة مع أخوالهم، ولم يكونوا مع عاد بأرضهم، فهم عادُ الآخرة، ومن كان من نسلهم الذين بقُوا من عاد.

وساق الله ﷻ السحابة السوداء، فيما يذكرون، التي اختارها قَيْلُ بن عَزْر بما فيها من النعمة إلى عاد، حتى خرجت عليهم من وادٍ يقال له: "المغيث". فلما رأوها استبشروا بها، وقالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾، يقول الله ﷻ: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۖ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [سورة الأحقاف: ٢٤-٢٥]، أي: كلُّ شيء أُمرتُ به، وكان أوَّل من أبصر ما فيها وعرف أنها رِيح، فيما يذكرون، امرأة من عاد يقال لها "مَهْدَد"، فلما تيقنت ما فيها صاحت، ثم صَعِقت. فلما أن أفاقَت قالوا: ماذا رأيت يا مَهْدَد؟ قالت: رأيتُ رِيحًا فيها كَشْهَبُ النار، أمامها رجالٌ يقودونها! فسخرها الله ﷻ عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسومًا، كما قال الله ﷻ، و"الحُسوم": الدائمة، فلم تدع من عاد أحدًا إلا هلك.

فاعتزل هودُ الطيِّلَة، فيما ذكر لي، ومن معه من المؤمنين في حظيرة، ما يصيبه ومن معه من الريح إلا ما تلين عليه الجلود، وتلتدُّ الأنفس، وإنها لتمرُّ على عاد بالطَّعن بين السماء والأرض، وتدمغهم بالحجارة. وخرج وفد عاد من مَكَّة حتى مرُّوا بمعاوية بن بكر وأبيه، فنزلوا عليه. فبينما هم عنده، إذ أقبل رجل على ناقة له في ليلة مقمرة مُسَيَّ^(٢) ثالثة من مُصاب عادٍ، فأخبرهم الخبر، فقالوا له: أين فارقت هودًا وأصحابه؟ قال: فارقتهم بساحل البحر. فكأنهم شكُّوا فيما حدَّثهم به، فقالت هزيلة بنت بكر: صدق وربِّ الكعبة!

(١) «رَمِيدًا أي هَبَاءٌ أدَقُّ ما يكون» انظر: العين (٣٨/٨).

(٢) أي: مساء. ك: صُبْحٌ وصباح.

وروى الطبري رحمه الله عن الحارث بن حسان البكري شيئاً يشبه ذلك جرى الحديث به أمام النبي ﷺ. وقال ابن كثير رحمه الله أيضاً^(١): "رواه الترمذي، عن عبد بن حميد، عن زيد بن الحباب، به. ورواه النسائي من حديث سلام أبي المنذر، عن عاصم ابن بهدلة. ومن طريقه رواه ابن ماجه. وهكذا أورد هذا الحديث، وهذه القصة، عند تفسير هذه القصة غير واحد، من المفسرين، كابن جرير وغيره، وقد يكون هذا السياق لإهلاك عاد الآخرة، فإنَّ فيما ذكره ابن إسحاق رحمه الله وغيره ذكراً لمكة، ولم تُبنَ إلا بعد إبراهيم الخليل عليه السلام، حين أسكن فيها هاجر وابنه إسماعيل عليهما السلام، فنزلت جُرهم عندهم، كما سيأتي. وعاد الأولى قبل الخليل عليه السلام. وفيه ذكر "معاوية بن بكر" وشعره، وهو من الشعر المتأخر عن زمان عاد الأولى، لا يشبه كلام المتقدمين، وفيه: أن في تلك السحابة شرر نار، وعاد الأولى إنما أهلكوا ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ ﴿الحاقة: ٦﴾.

عذاب عاد كان عجيبتاً، فقد ذكر الله أنهم كانوا يعيشون في جنات وعيون، فقال: ﴿وَأَتَقُوا الَّذِينَ أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمٍ وَبَيْنَ وَجَلَّتْ وَعُيُونٍ ﴿٣٤﴾ [الشعراء: ١٣٢ - ١٣٤]. إذن بعد الجنات والعيون التي كانت لعاد أصيبوا بالجذب، وصاروا يبحثون عن السحاب الذي يعرض لهم عسى أن يجدوا فيه مطراً وغيثاً، فكيف لم يعتبروا؟

وردت قصة في السنة النبوية توضح بعض ما أصاب أمة عاد، فعن الحارث البكري رحمه الله قال: خَرَجْتُ أَشْكُو الْعَلَاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ رحمه الله إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَرَرْتُ بِالرَّبْدَةِ فَإِذَا عَجُوزٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ مُنْقَطِعٌ بِهَا، فَقَالَتْ لِي: يَا عَبْدَ اللَّهِ، إِنَّ لِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَاجَةً، فَهَلْ أَنْتَ مُبْلَغِي إِلَيْهِ؟ قَالَ: فَحَمَلْتُهَا فَأَتَيْتُ الْمَدِينَةَ، فَإِذَا الْمَسْجِدُ غَاصُّ بِأَهْلِهِ، وَإِذَا رَايَةُ سَوْدَاءٍ تَخْفِقُ، وَإِذَا بِلَالٌ مُتَقَلِّدٌ بِسَيْفٍ بَيْنَ يَدَي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: مَا شَأْنُ النَّاسِ؟ فَقَالُوا: يُرِيدُ أَنْ يَبْعَثَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَجْهًا أَي: أَنْ النَّبِي ﷺ يجهز عمرو بن العاص من أجل أن يرسله في وفادة أو في غزوة. قَالَ: فَجَلَسْتُ، فَدَخَلَ مَنْزِلُهُ - أَوْ قَالَ: رَحْلُهُ فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ، فَأَذِنَ لِي، فَدَخَلْتُ فَسَلَّمْتُ، قَالَ: "هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ تَمِيمٍ شَيْءٌ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، وَكَانَتْ لَنَا الدَّيْرَةُ عَلَيْهِمْ - أَي وقعت بيننا وبينهم معركة ونحن فزنا عليهم -، وَمَرَرْتُ بِعَجُوزٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ مُنْقَطِعٍ بِهَا، فَسَأَلْتَنِي أَنْ أَحْمِلَهَا إِلَيْكَ، وَهِيَ بِالْبَابِ. فَأَذِنَ لَهَا، فَدَخَلْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ

(١) البداية والنهاية ط الفكر (١/ ٢٨).

رَأَيْتَ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ تَمِيمٍ حَاجِرًا، فَاجْعَلِ الدَّهْنَاءَ. فَحَمِيتِ الْعَجُوزُ وَاسْتَوْفَزَتْ^(١)، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِلَى أَيْنَ يُضْطَرُّ مُضْطَرُّكَ؟ قَالَ: قُلْتُ: إِنَّ مَثَلِي مَثَلُ مَا قَالَ الْأَوَّلُ: "مِعْزَاةٌ حَمَلَتْ حَتْفَهَا"، حَمَلْتُ هَذِهِ وَلَا أَشْعُرُ أَنَّهَا كَانَتْ لِي حَصْمًا، أَعُوذُ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ أَنْ أَكُونَ كَوَافِدٍ عَادٍ! قَالَ: هَيْه، وَمَا وَافِدٌ عَادٍ؟ -وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْحَدِيثِ مِنْهُ، وَلَكِنْ يَسْتَطِيعُهُ أَيُّ النَّبِيِّ ﷺ يَسْتَنْشِدُنِي مِنْ أَجْلِ أَنْ أَتَكَلَّمَ حَتَّى يَنْظُرَ مَاذَا عِنْدِي مِنْ عِلْمٍ- قُلْتُ: إِنَّ عَادًا فُحَطُوا فَبِعَثُّوا وَافِدًا لَهُمْ يُقَالُ لَهُ: "قَبِيلٌ"، فَمَرَّ بِمُعَاوِيَةَ بْنِ بَكْرٍ، فَأَقَامَ عِنْدَهُ شَهْرًا يَسْقِيهِ الْخَمْرَ وَتُعْنِيهِ جَارِيَتَانِ، يُقَالُ لَهُمَا: "الْجَرَادَتَانِ"، فَلَمَّا مَضَى الشَّهْرُ خَرَجَ إِلَى جِبَالٍ مَهْرَةٍ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَجِئْ إِلَى مَرِيضٍ فَأَدَاوِيهِ، وَلَا إِلَى أَسِيرٍ فَأُفَادِيهِ. اللَّهُمَّ اسْقِ عَادًا مَا كُنْتُ تَسْقِيهِ، فَمَرَّتْ بِهِ سَحَابَاتٌ سَوْدٌ، فَنُودِيَ: مِنْهَا "اخْتَرِ". فَأَوَّمًا إِلَى سَحَابَةٍ مِنْهَا سَوْدَاءَ، فَنُودِيَ مِنْهَا: "خُذْهَا رَمَادًا رَمِدًا، لَا تُبْقِي مِنْ عَادٍ أَحَدًا". قَالَ: فَمَا بَلَغَنِي أَنَّهُ بُعِثَ عَلَيْهِمْ مِنَ الرِّيحِ إِلَّا قَدَرُ مَا يَجْرِي فِي خَاتَمِي هَذَا -يعني أن الله ﷻ أرسل عليهم ريحًا قوية ولكنها تظل محدودة- حَتَّى، هَلَكُوا- قَالَ أَبُو وَائِلٍ: وَصَدَقَ- قَالَ: وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ وَالرَّجُلُ إِذَا بَعَثُوا وَافِدًا لَهُمْ قَالُوا: "لَا تَكُنْ كَوَافِدٍ عَادٍ". أَيُّ: نَشْغَلُ عَنَا بَدَلًا مِنْ أَنْ تَذْهَبَ لِتَحْقِيقِ مَا أَرْسَلْنَاكَ لَهُ^(٢).

وعن السدي رحمه الله: فلما نظروا إليها قالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]. فلما دنت منهم، نظروا إلى الإبل والرجال تطيرُ بهم الريحُ بين السماء والأرض. فلما رأوها تبادروا إلى البيوت، فلما دخلوا تبادرت أنفسهم إلى البيوت، دخلت عليهم فأهلكتهم فيها، ثم أخرجتهم من البيوت، فأصابهم ﴿يَوْمَ نَحْسٍ﴾، والنحس، هو الشؤم، و﴿مُسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١٩]، استمر عليهم بالعذاب ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَنِيَّةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]: حَسَمَتْ كُلَّ شَيْءٍ مَرَّتَ بِهِ، فلما أخرجتهم من البيوت قال الله ﷻ: ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ﴾: من البيوت، ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠]. انقعر من أصوله إذا أخذ وقطع، ﴿خَاوِيَةً﴾ [الحاقة: ٧]، خوت فسقطت. فلما أهلكهم الله ﷻ، أرسل عليهم طيرًا سودًا، فنقلتهم إلى البحر فألقاهم فيه، فذلك قوله: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِئُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥]. ولم تخرج ريحٌ

(١) قال الشيخ شاکر في تعليقه على تفسير الطبري (٥١٧/١٢): "حميت": غضبت، وأخذتها الحمية والأنفة والغیظ. و"استوفزت الرجل في قعدته"، إذا قعد قعودًا منتصبًا غير مطمئن، ولم يستو قائمًا، كالمتهنئ للوثوب، وذلك عند الشر والخصام والجدال والمماحبة.

(٢) أحمد (١٥٩٩٦)، وقال: محققو المسند: إسناده حسن.

قط إلا بمكيال، إلا يومئذ، فإنها عَتَتْ على الخَزَنَةِ فغلبتهم، فلم يعلموا كم كان مكيالها، وذلك قوله: ﴿فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۖ﴾ [الحاقة: ٦]، و"الصرصر": ذات الصوت الشديد^(١).

ما السُّنَّة التي تنبئنا بها قصة هود عليه السلام؟

هي السُّنَّة ذاتها التي تنبئنا بها قصص الأنبياء ﷺ، فهم يحملون الرسالة نفسها، ويُجرون الحوار ذاته مع اختلاف في بعض التفاصيل والأساليب، ويصيرون إلى النتيجة ذاتها، وإلى العاقبة المشتركة، يدافعون الباطل بالحق، ثم إن الباطل يعدو على الحق، ويبغي عليه، ويصر على أبشع العدوان، ثم ينجي الله تعالى الذين آمنوا برحمة منه جل في علاه، وهكذا تتكرر مشاهد الحياة بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وإنما يحدث الخلاف في المشاهد بينهم في المدة، وبعض الأساليب، وتفاصيل النتائج، ولكن الأهم في ذلك كله هو ما قرره الله ﷻ هنا في نهاية قصة هود عليه السلام: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ۖ﴾ [الأعراف: ٧٢].

فقارن هذا بقوله في قصة نوح عليه السلام: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ۖ﴾ [الأعراف: ٦٤].

نلاحظ أن كلمة: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ موجودة في قصة نوح عليه السلام، وغير موجودة في قصة هود عليه السلام، وقوله: ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ بالعكس من ذلك في وجودها.

فالكلمات التي تزيد في ألفاظ الآيتين أو الآيات نجدها واقعاً في القصة الأخرى إما بالنص في آيات أخرى، وإما بطريق الاحتباك، فنحن نعلم وحدة البداية والنهاية بين الأنبياء ﷺ مع اختلاف التفاصيل.

قصة هود عليه السلام من براهين هيمنة القرآن على الكتب السابقة:

قد تسأل: لماذا كانت قصة هود عليه السلام من براهين هيمنة القرآن المجيد على الكتب السابقة وخاصة التوراة والإنجيل، ومن أعظم الأدلة على أن القرآن منزل من عند الله؟
الجواب: تعد قصة هود عليه السلام من براهين هيمنة القرآن على الكتب السابقة، وذلك لما يأتي:

(١) تاريخ الأمم والملوك (١/١٣٨).

(١) قصة عاد لا توجد في الكتب السابقة، فهم لا يعرفون أمة عاد؛ إذ لا يوجد أي ذكر لقِصَّتِي عاد وثمود في العهد القديم أي: في التوراة ولا في العهد الجديد؛ وهذا من أهم أدلة المصدرية الإلهية للقرآن الكريم؛ لأن هاتين الأُمَتَيْنِ كانتا معروفتين عند بني إسرائيل، ولأمرٍ ما كُتِمَ المحرِّفون أخبارهما، والدليل على أنهما كانتا معروفتين عند بني إسرائيل، ذكر ذلك في القرآن الكريم، فقد قال مؤمن آل فرعون: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ (٣٠) ﴿مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ (غافر: ٣٠-٣١)، فذكرهم، ومعنى ذلك أن المصريين في عهد موسى ﷺ عرفوا قصتهم.

(٢) وفي سورة إبراهيم ﷺ يقول موسى لقومه من بني إسرائيل: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩].

(٣) وبما أن القرآن ذكر هاتين القِصَّتَيْنِ فهذا يدل على أن القرآن ليس مجرد نقل من كتب أهل الكتاب كما يفترى ذلك بعض المحرِّفين إلى اليوم، ما أكثر ما يكذبون ويحرفون!

(٤) ولماذا كنتم محرفو أهل الكتاب هاتين القِصَّتَيْنِ؟ يحتمل لرغبتهم في ألا يوجد ذكرٌ لأي ماضٍ للعرب بحيث يوهمون غيرهم أنه لا يوجد أحد سواهم في التاريخ تدور عليه الأحداث.

(٥) وقصة عاد وثمود توضحان العلاقة المحكمة للقرآن المجيد بالتوراة والإنجيل، ونجد تلخيصاً محكماً لهذه العلاقة في قوله تعالى مجده: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

(٦) نجد أن في الكتب السابقة مواضع لم ينلها التحريف، فالقرآن الكريم مصدق لها مثل أصل قصة آدم ونوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى ﷺ.

فكلُّ هؤلاء أصل قِصَّتِهِمْ متفق عليها بين القرآن والكتب السابقة، ولكن كثيراً من التفاصيل مختلفة، فالقرآن مصدق للمتفق عليه، ومهيمن على المختلف فيه.

(٧) من الكتب السابقة مواضع نالها التحريف، فالقرآن المجيد مهيمن عليها يبين خطأها وتحريفها، ويُظهر صدق المعاني العامة التي كان ينبغي أن توجد مكان المحرف.

(٨) ويأتي القرآن بأنباء لم توجد في الكتب السابقة ليبين الله ﷻ أَنَّ القرآن الكريم مهيمن على الكتب السابقة وخاتم لها، يبين ما لم يرد فيها.

بصيرة: مساکین جماہیر الیہود والنصارى عندما یکذب علیہم أحبارہم، فیوقعون فی أنفسهم أن محمدًا ﷺ أخذ القرآن من کتبہم التي تلاعبت بہا الأیدی البشريّة حسب أهوائہا!، مساکین هؤلاء لأنہم لا یطلّعون!، ولو اطلّعوا لعلموا أن القرآن مستقل بذاتہ، وأنه الوحي الخاتم الذي أنزلہ الله لیصحح تحريفات الكتب السابقة، ویصحح الحیاة البشريّة کلہا.

ثم وصلنا إلى قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَلِحًا قَالَ يَاقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف ٧٣].

فما العهد الجديد الذي ينقلنا إليه القرآن بعد عهد عاد ونبيهم هود عليه السلام؟

الجواب: هنا يأتي عهد قوم صالح عليه السلام

الدورة الثالثة: حضارة دولة ثمود

القيادة الثالثة للذرية الأدمية (صالح عليه السلام) في مواجهة الإفساد في الأرض [الأعراف: ٧٣-٧٩]



الدورة الثالثة: حضارة دولة ثمود

وفيها تبرز القيادة الثالثة للذرية الآدمية في مواجهة الإفساد في الأرض، وهي قيادة

صالح عليه السلام [الأعراف: ٧٣-٧٩]

آيات هذا العهد: ﴿وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَافَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَادْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّي قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِءِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِءِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحْ أَثْنَانَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمٍ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف: ٧٣-٧٩].

وفي أول هذا العهد نضع سؤالاً: ما المناسبة والاتصال بين هذه الآيات وما قبلها؟

المناسبة والاتصال:

الجواب: تيسر السُّورة في هذه المواضع على تسلسل تاريخي واضح لتوضح لذرية آدم عليه السلام أهم الفواصل التاريخية التي مروا بها، ويظهر عبرها التاريخ الخفي للمسيرة الإنسانية في هذه الحياة، فبدأت السُّورة بذكر خلق الأرض، ثم انتقلت إلى قصة آدم وزوجه عليهما السلام، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف: ١١]، وذكَّرت الذُّرِّيَّةُ الآدمية بالأهداف الكبرى لوجودهم في هذه الحياة، وكيف سيعيشون في الأرض، وينتقلون إلى الآخرة، ثم ذكرت مسيرتهم التاريخية التفصيلية، فأبتدأت بذكر رسالة نوح عليه السلام، ثم رسالة هود عليه السلام، والآن وصلت إلى مفصل تاريخي جديد في حياة الذُّرِّيَّةِ الآدمية... إنه عهد صالح عليه السلام، بخلاف ما ورد في سورة

البقرة، فقد ذكر الله ﷻ آدم ﷺ ثم ذكر بني إسرائيل، ثم ذكر إبراهيم ﷺ، فلم يكن التسلسل تاريخياً، ولا بد أن نتدبر الحكمة هناك، أما هنا فالأمر واضح.

وقد تسأل: ما المشاهد التي تكونت منها قصة قوم صالح ﷺ؟
الجواب: اشتملت قصة أمة ثمود على خمسة مشاهد:

المشهد الأول: مشهد صالح ﷺ، وقد أرسله الله ﷻ إلى أمة ثمود، وبيصّرنا بذلك صدر الآية: في قوله تعالى: ﴿وَالِى ثُمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [الأعراف: ٧٣].

عندما نسمع ﴿وَالِى﴾ هذه الواو تثير عندنا التساؤل: فما الذي عطفت عليه حتى يتضح التتابع؟ ومن "ثمود" هذه الأمة الجديدة التي نشأت بعد عاد؟
الجواب: يتضح ذلك في تفصيل بصائر هذه الكلمات المباركات وبيان جمال معانيها:

الكلمة الأولى: ﴿وَالِى﴾: الواو عطفت اللاحق ﴿ثُمُودَ﴾ على السابق ﴿عاد﴾، أي: كما جاء أمة عاد رسولٌ فقد جاء ثمود رسولٌ أيضاً، ولكن العطف في الحقيقة ليس على ذلك بل على قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: ٥٩]، فيكون المعنى: لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه، وأرسلنا هوداً ﷺ إلى أمته أمة عاد، وأرسلنا صالحاً ﷺ إلى أمته أمة ثمود.
و﴿إلى﴾: حرف جر.

الكلمة الثانية: ﴿ثُمُودَ﴾:

هذه هي الأمة الجديدة التي نشأت بعد أمة عاد، والله جل مجده لم يسمِ أمة نوح ﷺ باسمٍ خاص، ويظهر أن ذلك لأن أهل الأرض قريبون من زمن آدم ﷺ، فلم تنتشر البشريّة انتشاراً كبيراً بعد، أي لم تصبح أمماً، وأما في عهد هود ﷺ فقد انتشرت ذرية آدم ﷺ، وأصبحوا أمماً متفرقة في مواضعهم، وأماكن تمكّنهم من الأرض، وهكذا بعد هود ﷺ.

فإن قلت: إلى من تنتسب ثمود؟ وما التحقيق في ذلك؟

الجواب: نقل الطبري رحمته نسب قبيلة ثمود، فذكر أنهم ينتسبون إلى ثمود بن غائر، -وفي القاموس: (جَائِرٌ) بِجِيمٍ وَثَاءٌ مُثَلَّثَةٌ- ابْنُ إِرَمَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ عليه السلام (١)، فَيَلْتَفُونَ مَعَ عَادٍ فِي (إِرَمَ) (٢)، وهو أخو جَدِيس بن غائر (٣).

ولا أظن ذلك صحيحاً؛ بل أظن أن سلسلة الأجداد لأمة ثمود أوسع من ذلك، وأنه بين ثمود وبين نوح زمن أطول حتى يحدث التغيير العقدي، فالتغيير العقدي الواسع لا يحدث خلال جيل أو جيلين في الغالب، إلا أن يقال بأن أعمارهم كانت تطول حتى تأتي الأجيال المتعددة، ولكن بقاء الآباء يمنع من تغيير واسع في الغالب سواء نحو الخير أو نحو الشر، ويصطاد الشيطان فرصه فيما بين الأجيال أي: عندما يكاد أن يفنى الجيل المسلم، ويظهر جيل ثالث لم يدرك معاني الإسلام التي جاء بها النبي السابق، وهو الذي حدث فيما قصه ابن عباس عليه السلام عندما غيّر قوم نوح عليه السلام معالم الإسلام، فظاهر القصة يدل على أن أمة ثمود جاءت بعد أمة عاد، وهذا يجعل المرء يتوقع أجيالاً لتنشأ وتنمو وتتعاظم.

ستقول: أين كانت تسكن قبيلة ثمود؟

الجواب: نفهم من نقل الطبري رحمته أن ثمود دولة كان أهلها يسكنون الجُحْر وهي التي تسمى مدائن صالح عليه السلام الآن، ولعل هذه المنطقة كانت عاصمة لهم، وهي بين الحجاز والشام، وتمتد دولتهم إلى وادي القُرى وما حوله، ويظهر أنها كانت أوسع من ذلك حيث خلفت عاداً، فالمتوقع امتداد ملكها إلى اليمن، وهناك منطقة في حضرموت تسمى ثمود فلعلها تنسب إليهم.

وقد تتساءل: لماذا ترى إلحاحاً على تسمية (ثمود) وإشهار اسمها في القرآن الكريم بينما لا ترى ذلك مثلاً في قوم لوط؛ إذ لم نر في القرآن ذكراً لاسم قبليتهم أو دولتهم سوى أنهم قوم لوط، وبتعبير آخر: هل كلمة (ثمود) التي جاءت في القرآن تعطينا أبعداً عظيمة يخبرنا الله جلّ جلاله فيها عن هذه القبيلة أو الدولة بدقة؟

(١) القاموس المحيط (ص: ٣٦١)، وتاج العروس (١٠/٣٧٢).

(٢) التحرير والتنوير (٨-ب/٢١٥).

(٣) تفسير الطبري (١٢/٥٢٤).

الجواب: نحاول أن نستكشف العظمة القرآنيّة في كل كلمة نقرأها؛ فقد كانت ثمود دولة عظيمة متقدمة ذات مصانع مبتكرة ولم يكن الأمر كذلك لقوم لوط عليه السلام، واسمها يدل على ذلك، أما بعض المفسرين قالوا: سُمِّيَتْ ثَمُودٌ؛ لِأَنَّهُ اسْمُ أَكْثَرِهِمْ الْأَكْبَرُ ثَمُودٌ ومن الأقوال المذكورة هنا أن أمة ثمود سميت بذلك لقلة مائها، من الثَّمْد وهو الماء القليل وقد نسب الرازي رحمه الله هذين القولين إلى أبي عمرو بن العلاء رحمه الله (١).

والتعبير بأنه الماء القليل تعبير غير محرّر عند من ينقل معاني الكلمات العربية؛ فقد ذكر أهل المعاجم أنه يقال: ثَمَدُ الْمَاءِ أَي: قَلٌّ، وَثَمَدُ الْمَكَانِ: هَيَّاهُ كَالْحَوْضِ لِيَجْتَمَعَ فِيهِ الْمَاءُ، وَثَمَدُ الْمَاءِ: اسْتَنْبَطُهُ مِنَ الْأَرْضِ، وَافْجُرْ لَهُمُ الثَّمَدُ -بِالتَّحْرِيكِ- أَي: الْمَاءُ الْقَلِيلُ، وَالْمَعْنَى: افْجُرْ لَهُمْ حَتَّى يَصِيرَ كَثِيرًا؛ وَالثَّمَدُ: أَنْ يَعْمَدَ إِلَى مَوْضِعٍ يَلْزِمُ مَاءَ السَّمَاءِ فَيَجْعَلُهُ صَنْعًا، وَهُوَ الْمَكَانُ يَجْتَمِعُ فِيهِ الْمَاءُ، وَلَهُ مَسَايِلُ مِنَ الْمَاءِ، وَيَحْفَرُ فِي نَوَاحِيهِ رَكَايَا فَيَمْلُؤُهَا مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، فَيَشْرَبُ النَّاسُ الْمَاءَ الظَّاهِرَ حَتَّى يَجْفَ إِذَا أَصَابَهُ بَوَاحُ الْقَيْظِ، وَتَبْقَى تِلْكَ الرِّكَايَا فِيهِ الثَّمَادُ؛ وَأَنْشُد:

لَعَمْرُكَ إِنِّي وَطِلَابٌ سَلَى لَكُمُتَبَرِّضِ الثَّمَدِ الظُّنُونَا

والمُتَبَرِّضُ الثَّمَدِ: الطَّالِبُ قَلِيلًا، وَالظُّنُونُ: الَّذِي لَا يُوَثِّقُ بِمَائِهِ (٢).

فكلمة: (ثمود) إن كانت عَلَمًا مَنْقُولًا، وَلَمْ تَكُنْ عَلَمًا مُرْتَجَلًا (٣)، فهي تشير إلى الذي يحافظ على الأصل، كالذي يحافظ على الماء فيرجع الناس إليه عند الحاجة، كما تشير إلى الذكاء ودقة الصنع كالثَّمَد الذي يجعله الناس مصنعًا يتقنونه ليحفظ لهم ماءهم، وهذا الاستنباط بخلاف من زعم أن ثمود كانت قليلة الماء، فهذا القول أراه ضعيفًا، فقد بلغ من ذكاء أهل هذه الدولة أنها كانت تمور فيها الجنات والعيون، ولعل ذلك كان بصناعتهم وقوتهم والتقدم الذي أحرزوه في ترقية حياتهم المادية؛ فقد قال الله عز وجل يحكي كلام صالح عليه السلام لقومه ثمود: ﴿أَنْتُمْ كُنْتُمْ فِي مَا هُمْنَا أَمِينِينَ﴾ (١٦١) فِي

(١) تفسير الرازي (١٤/ ١٣١).

(٢) لسان العرب (٣/ ١٠٥)، تاج العروس (٧/ ٤٦٧-٤٦٨). والبيت: بغير نسبة كما في تهذيب اللغة (١٤/ ٦٥).

(٣) الْعَلَمُ قِسْمَانِ: الْأَوَّلُ: الْعِلْمُ الْمُرْتَجِلُ، هُوَ: مَا لَمْ يَسْبِقْ لَهُ اسْتِعْمَالٌ قَبْلَ الْعِلْمِيَّةِ فِي غَيْرِهَا، نَحْوُ: سَعَادٌ، وَأَذَدٌ، وَمَرِيْمٌ. وَالثَّانِي: الْعِلْمُ الْمَنْقُولُ، هُوَ: مَا سَبَقَ لَهُ اسْتِعْمَالٌ فِي غَيْرِ الْعِلْمِيَّةِ، وَهُوَ مَنْقُولٌ إِمَّا مِنْ: الصِّفَةِ، كَاسْمِ الْفَاعِلِ: الْحَارِثُ، وَاسْمِ الْمَفْعُولِ: مَسْغُودٌ، وَالصِّفَةِ الْمَشَبَّهَةِ: سَعِيدٌ. أَوْ مِنْ الْمَصْدَرِ، نَحْوُ: فَضْلٌ، وَزَيْدٌ. أَوْ مِنْ اسْمِ جِنْسٍ، نَحْوُ: أَسَدٌ، وَصَقْرٌ. أَوْ مِنْ الْفِعْلِ، نَحْوُ: أَحْمَدٌ، وَزَيْدٌ. وَهَذِهِ الْأَنْوَاعُ كُلُّهَا مَعْرَبَةٌ. أَوْ مِنْ الْجُمْلَةِ، نَحْوُ: تَأَبَّطُ شَرًّا، وَجَادَ الْحَقُّ، وَقَامَ زَيْدٌ. وَهَذَا النَّوعُ يُعْرَبُ بِالْحِكَايَةِ.

جَنَّتْ وَعُيُونٍ ﴿١٧٧﴾ (الشعراء: ١٤٦، ١٤٧)، فالجنات والعيون إما بسبب كثرة الماء النازل، وإما بسبب إدارة الماء النازل والخارج من الأرض، ولو كان قليلاً.

وتأتي هذه الكلمة ﴿ثُمُودَ﴾ ممنوعة من الصرف في بعض المواضع^(١)، فمن منع الصرف تأوله بالقبيلة، فيكون علماً يجري مجرى المؤنث، ومن صرفه تأوله بالحي، والحي مذكر أي المنطقة أو المدينة أو المكان، لكنهم أجمعوا في سورة الأعراف على منعها من الصرف.

الكلمة الثالثة: ﴿أَخَاهُمْ﴾:

فصلنا في قصة أمة عاد الحكيم العظيمة لوصف معظم الأنبياء بالأخوة لأقوامهم، وذكرنا هناك الحكم الدعوية الكبيرة التي ينبغي أن نهل منها في هذا الوصف.

الكلمة الرابعة: ﴿صَلِحًا﴾: هذا اسم عَلَم للنبي العظيم الصالح المصلح الذي بعثه الله ﷻ إلى أمته أمة ثمود، وقد حاول المؤرخون والمفسرون أن ينسبوه، فما حاجتنا إلى أن نرجم بالغيب ولم يرد بشأن ذلك نص في القرآن ولا في الآثار المقبولة؟

بصيرة: الإرسال إلى ثمود كالإرسال إلى من قبلهم وإلى من بعدهم يبصّرنا بعظيم عناية الله ﷻ بالبشر، واهتمامه بما يصلحهم، فكأنه قال: لم نترك من بعدهم سدى، ولم نجعلهم يعيشون في الظلمات، بل أرسلنا إليهم صالحاً ﷺ كما أرسلنا غيره إلى غيرهم ليدلهم على النور، ويبصّرهم بما فيه الخير والسرور، ويصنع لهم نظام السعادة في حياتهم.

(١) قرأ حفص وحزمة ويعقوب: بعدم التنوين، وقرأ بقية العشرة بالتنوين. يُنظر: النشر في القراءات العشر، (٢/٢٨٩)، وقرأ الأعمش بصرف هذا اللفظ إذا كان مرفوعاً أو مجروراً في جميع القرآن. يُنظر: المبهج لسبط الخياط، (ص ٤٨٨).

المشهد الثاني

الأسس التي جاء بها صالح عليه السلام لإصلاح فساد دولة ثمود: [الأعراف: ٧٣-٧٤]



المشهد الثاني: الأسس التي جاء بها صالح عليه السلام ليصلح فساد البشرية الذي تصدرت فيه أمة
ثمود:

ذكرنا أن الله جلَّ وعزَّ أرسل إلى أمة ثمود أخاهم صالحًا عليه السلام، فقال: ﴿وَالْيَئِثْمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾،
فماذا فعل معهم؟ هل أدى الرسالة؟ وما طبيعة هذه الرسالة؟
الجواب: دعاهم إلى مجموعة من الأسس التي دعا إليها جميع الرسل عليهم الصَّلَاة والسَّلَام،
وبصَّرتنا هذه الآية بتسعة أسس عظيمة، وهي:
الأساس الأول: الدعوة إلى عبادة الله جلَّ وعزَّ، ولا يعبدون الله جلَّ وعزَّ إلا إذا آمنوا به، وببصرتنا بذلك
قوله عليه السلام: ﴿قَالَ يَقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [الأعراف: ٧٣].

الكلمة الأولى: ﴿قَالَ﴾: تبصَّرتنا بأنه لم يسكت ولا اعتزل ولا تردد بل أدى الواجب الذي عليه،
فذهب إليهم دون تردد أو خجل، وبلغهم ما أرسل به، عليه وعلى أنبياء الله الصَّلَاة والسلام.
الكلمة الثانية: ﴿يَقَوْمُ﴾: تبصَّرتنا بما قرَّناه في القصتين السابقتين من أن صالحًا عليه السلام لم يتعال
عليهم، ولا انفصل عنهم، فلم يقل لهم مثلاً: أنتم تفعلون كذا، بل نسب نفسه إليهم متودِّدًا بما بينه
وبينهم من النسب والعشرة، فكلمة: (يا) أداة نداء تصور لنا أنه سلك كل الأساليب لمخاطبتهم؛ لأن
النداء قد يكون من بعيد، وقد يكون من قريب، وقد يكون عامًا، وقد يكون لمجموعة أو لمجموعات
خاصة، وكلمة: (قوم) مشتقة من قام، فتصوِّر لنا كأنه يقول لهم: أنا لا أقوم إلا بكم كما أنكم
تقومون بي، فنحن نشترك في القيام في الحياة بتفاعل فيما بيننا.

الكلمة الثالثة: ﴿اعْبُدُوا﴾: سبق أن قرَّنا بأنها مشتقة من التعبيد الذي يعني التدليل، ومن ذلك:
الأرض المعبَّدة أي: المذللة ليُمشى عليها بيسر.

فالعبداء محبة الحق، والخُلُق الحسن مع الخَلْق، وهي اسم لكل ما يحبه الله جلَّ وعزَّ ويرضاه^(١)،

(١) الفتاوى الكبرى (٥/ ١٥٥).

وهي الخضوع الكامل لله وحده، فالقرآن عندما نزل في مكة مادحاً العبادة والعباد لربهم ﷺ لم تكن التشريعات التفصيلية قد نزلت بعد، فعلمنا أن مدح الإنسان عندما يكون عبداً للولي الديان إنما يعني به الخضوع والتبذل، والاجتهاد في مجاهدة النفس لتقويمها على منهاج الرحمن.

الكلمة الرابعة: ﴿الله﴾: لفظ الجلالة بيّن لنا المعبود، فهو الله جل مجده، وهذا يشير إلى أن لفظ الجلالة: ﴿الله﴾ كان معروفاً، ونحن نكرر هذه الحقيقة أمام التحريف الهائل الذي تعرض له اسم الله، فلا يعقل أن تكون أسماء الأعلام مشتركة بين اللغات، واسم ﴿الله﴾ ليس معروفاً إلا في العربية.

بصيرة: أهم أساس إصلاحي دعا إليه صالح ﷺ هو قوله لهم قبل كل شيء: ﴿قَالَ يَقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وهو الأساس الذي دعا إليه الأنبياء الذين سبقوه والذين جاؤوا بعده، وهو الغاية من إيجاد الخليقة.

الأساس الثاني: أن تكون هذه العبادة خالصة لله ﷻ، فلا تشركوا معه غيره في العبادة، يبصّرنا بذلك قوله: ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٣].

أي: ليس لكم أن تشركوا به غيره؛ لأنه لا يمكن أن يكون لكم إله غيره، وتأمل قوله ﷻ: ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾: "لم يعط هذه الجملة المنفية بفاء ولا غيرها؛ لأنها مبينة ومنبهة على اختصاص الله تعالى بالعبادة ورَفُض ما سواه، وكانت في غاية الاتصال" (١).

فإن قلت: ما الدليل على استحقاق المولى وحده لهذه العبادة؟

الجواب: يأتي الأساس الثالث ليبين الدليل على ذلك:

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (٥/ ٣٥٥).

الأساس الثالث: الدليل على استحقاق الله ﷻ لأن يعبد وحده هو أنه لا يتصور في الوجود أن يكون هناك إله سواه، ويصّرنا بهذا العبارة ذاتها: ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٣].

كان يمكن لصالح ﷺ أن يقول: "اعبدوا الله ولا تشركوا معه غيره"، أو "ولا تشركوا به شيئاً"، لكنه اختار هذه الصياغة كما اختارها غيره من الرسل ليجمع أمرين معاً: النهي عن الشرك، وبيان دليل هذا النهي، وهو أنكم عندما تفكرون جيداً فلا يمكن أن يكون لكم إله تعبدونه غير الله ﷻ، فلو فعلتم واتخذتم إلهاً آخر تكونون قد حاربتم العقل الصحيح، وهذا يعني أنهم كانوا يعلمون أن الله رب العالمين، فكيف يمكن أن يوجد إله غيره أو معه، ولا رب للعالمين سواه.

عد بنا إلى هذه الصياغة: ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ هل تعني أنهم مشركون أو ملحدون؟

الجواب: هذه صياغة عجيبة توضح لنا أن من ثمود من كان ملحدًا لا يعبد الله ﷻ، ولكن يعبد غيره، فهذا معنى كلمة: ﴿غَيْرُهُ﴾، أي: أن بعضهم قد اتخذ غير الله إلهاً، فهذا احتمال يورثه هذا التعبير.

ويحتمل أيضًا أن من ثمود من كان مشركًا يعبد الله ﷻ، ويعبد معه غيره، وهذا الاحتمال هو الغالب على أحوال الجاهليين على تفاوت بينهم في كيفية عبادة الله ﷻ والإشراك به، فبعضهم يشرك به حتى لا يجعل له مكانًا، ثم تمر الأجيال، فيُنسى الله ﷻ، ويبقى ذكر الشريك، ويغلب على ظني أن هذا هو الذي حدث لديانات مثل البوذية: إذ نُسي رب العالمين، وأصبح المتعبدون فيهم يذكرون القوة الموجودة في الكون دون الإقرار بأنه رب العالمين، وكذلك بعض العرب الجاهليين قال الله ﷻ عنهم: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

وقد تسأل: ما أهم أسس الإصلاح المشتركة بين جميع الرسل ﷺ؟

الجواب: هذه الأسس مشتركة بين جميع الرسل والأنبياء ﷺ، فأهم أسس الإصلاح لذرية آدم ﷺ أن تعرف طبيعة وجودها في الأرض، فهي تسير على وظيفة تسعد بها، وهذه الوظيفة وظيفة عبادة الله وحده لا شريك له، ولذا كانت الكلمة الأولى في الدعوة الإصلاحية لصالح ﷺ: ﴿أَعْبُدُوا﴾،

وثانيًا: أن تعرف اسم إلهها، فلما قال لهم: ﴿أَعْبُدُوا﴾ بيّن لهم اسم الإله الذي يُعبد وهو الله ﷻ، فهو الذي خلقهم وأوجدهم في هذا الكون، إنه الإله الذي يجب أن تعبده الذرّة الأدميّة، لذا كانت الكلمة الثانية: ﴿الله﴾. وثالثًا: أن تعلم أن الله ﷻ هو الواحد الذي يجب أن يُعبد لئلا تقوم ذرية آدم بالإشراك معه غيره لينالوا التكريم الحقيقي في الأرض حيث يتحررون من عبودية ما سواه، ولذا كانت الكلمة التي بعدها: ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾.

ويقرر بعض المفسرين المعاصرين أنها حقيقة واحدة يقوم عليها دين الله ﷻ كله، ويتعاقب بها الرسل جميعًا على مدار التاريخ، فكل رسول يجيء إنما يقول هذه الكلمة لقومه الذين اجتالهم الشيطان عنها، فنسوها وضلوا عنها، وأشركوا مع الله ﷻ آلهة أخرى، وعلى أساسها تدور المعركة بين الحق والباطل، وعلى أساسها يأخذ الله ﷻ المكذبين بها وينجي المؤمنين.

والسياق القرآني يوحّد الألفاظ التي عبر بها جميع الرسل ﷺ مع اختلاف لغاتهم، يوحد حكاية ما قالوه، ويوحد ترجمته في نص واحد: ﴿يَقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾: وذلك لتحقيق معنى وحدة العقيدة السماوية - على مدار التاريخ - حتى في صورتها اللفظية! لأن هذه العبارة دقيقة في التعبير عن حقيقة العقيدة، ولأن عرضها في السياق بذاتها يصور وحدة العقيدة تصويرًا حسيًا، ولهذا كله دلالتُه في تقرير المنهج القرآني عن تاريخ العقيدة.

الأساس الرابع: إظهار براهين الرسالة لإثبات أنها جاءت حقًا من ربهم وربنا وهو الله ﷻ، ويبصّرنا بذلك قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وهنا لا بد أن نتساءل: ما وجه قوة هذه الكلمات المباركات: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؟
الجواب: يتبين لنا وجه قوة هذه الكلمات المباركات فيما يأتي:

الكلمة الأولى: ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق يؤكد ما بعده، أي: إن البينة جاءت مجيئًا مؤكدًا، وليس مجرد وهم أو ادّعاء، فاستعمل ما يؤكد كلامه أثناء حوارهم معهم.

الكلمة الثانية: ﴿جَاءَكُمْ﴾: تصور هذه الكلمة أن البينة أقبلت عليهم كما يقبل عليهم الجاني من مكان آخر، فيرونها، ويعاينونها، والبينة قد تكون حوارًا وإقناعًا بالعقل، لكن صالحًا ﷺ يصور

لهم البينة على هيئة محسوسة ملموسة تتحرك نحوهم عبر جمال هذه الكلمة (جاء)، والكاف تصور معي البينة إليهم، فالبينة لم تأت إلى غيرهم حتى يقولوا: لم نرها ولم نعرفها.

نصل إلى الكلمة الثالثة: وهي: ﴿بَيِّنَةٌ﴾، فماذا يكون معناها في قوله جل ذكره حاكياً عن صالح **الْعَلِيَّةُ**: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ^ط؟﴾

الجواب: ﴿بَيِّنَةٌ﴾ مشتقة من (بَيَّنَ)^(١)، وهي كلمة تدل على بُعد الشيء مع انكشافه، يُقَالُ: بَانَ يَبِينُ بَيِّنًا وَبَيِّنُونَةً إذا فارق ابتعد ونأى وظهر وبرز وانفصل واتضح مستقلاً عن غيره، فاتضحت شخصيته، ولذا نقول: بَانَ لي الأمر أي اتضح وانكشف عن الاختلاط بغيره، ويظهر لي أن البعد قد يؤدي إلى الاختفاء في النهاية، ومن هنا يقال لمن ابتعد عن دياره: بَانَ عنهم، ولكنه في البداية يؤدي إلى الانفصال عن الموجود، فإذا انفصل الشيء بَانَ أي انكشفت جميع معالمه وظهرت شخصيته، ثم قد يتابع البين أي الوضوح في البعد حتى يخرج عن إطاره الرؤية الواضحة فيختفي، كما قال الله سبحانه: ﴿وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّن مَّسْكِنِهِمْ^ط﴾ [العنكبوت: ٣٨].

بصيرة: البينة هي الحجة المنفصلة الواضحة الكاشفة للحقيقة، فهي حجة قوية ظاهرة في حجيتها عقلية كانت أو محسوسة.

ومعنى كلام صالح **الْعَلِيَّةُ**: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ^ط﴾ أي: قد جاءتكم حجة واضحة منطقية ترونها لا تقبل أن تكون خفية، بل هي في غاية الوضوح.

وهنا نتساءل: لماذا أخبر صالح **الْعَلِيَّةُ** قومه بأن بينة جاءتهم من ربهم؟ هل يلزم كل نبي أن يأتي ببينة؟

الجواب: هذا القول من صالح **الْعَلِيَّةُ** يبصّرنا بأنه يجب عليهم أن يتحروا في دعوى من يدعي النبوة، فكل نبي لا بد أن يكون معه بينة تدل على نبوته حتى لا يكذب على الله ﷻ عندما يخبر بأنه رسول منه.

(١) ينظر: الصحاح (٢٠٨٢/٥)، مقاييس اللغة (٣٢٧/١)، المفردات في غريب القرآن (ص: ١٥٦).

وهذا القانون يدل على أن كلَّ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ كَانُوا يَذْكُرُونَ الدَّلَائِلَ عَلَى صِحَّةِ دَعْوَاهُمْ أَنَّهُمْ أَنْبِيَاءُ، فكل من يقول: أنا رسول من الله ﷺ لا يقبل قوله حتى يأتي بيينة تبرهن على دعواه^(١).

ولكن السؤال: ما نوع هذه البيينة التي جاءتهم من ربهم؟

الجواب:

كل ما يدعو إليه صالح ﷺ دليلٌ على أنه صدق، وأول أنواع بيئته: إحياء الفطرة الصحيحة في الإنسان، وهي الفطرة التي لا يمكن للعقل معارضتها ما هي؟ عبادة الله ﷻ وتوحيده في هذه العبادة، فادعاء آلهة أخرى قضية غير عقلية لذلك بدأ بها صالح ﷺ.

الكلمتان [الرابعة والخامسة]: ﴿مَنْ رَبِّكُمْ؟﴾

سنسأل: قيّد صالح ﷺ بأن البيينة جاءت ﴿مَنْ رَبِّكُمْ؟﴾ فبماذا يفيدنا هذا التقييد؟

الجواب: يفيدنا قوله: ﴿مَنْ رَبِّكُمْ؟﴾ أن مصدر هذه البيينة الله ﷻ، فقوله: ﴿مَنْ﴾ ابتدائية، تبين نقطة البداية، فنقطة البداية للبيينة هي الله ﷻ، وليست من عند صالح ﷺ ولا من غيره، ولو أراد صالح ﷺ لنفسه مجداً لقال: هذه البيينة من عند نفسه، لكنه كان أميئاً على تبليغ رسالة الله ﷻ، فبين أن مصدر ما يأتيه من بيينة هو الله جل في علاه.

وأعلمهم بذلك بأن هذه البيينة لَيْسَتْ مِنْ فِعْلِ صَالِحٍ ﷺ، ولا مما يقدر على أن يفعل مثله، وَكَذَلِكَ سَائِرُ مَا يُؤَيِّدُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ الرُّسُلَ ﷺ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ، وَبَعْضُ الْجَاهِلِينَ يَطْنُونَ أَنَّ الْخَوَارِقَ مِمَّا يَدْخُلُ فِي كَسْبِ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ هُمْ دُونَ الْأَنْبِيَاءِ، يُسَمُّوهُمْ الْأَقْطَابَ الْمُتَصَرِّفِينَ فِي الْكُؤُنِ^(٢)، وهذا كذب؛ فإذا كانت البيينة من الله ﷻ لا من الأنبياء ﷺ، فكيف تكون الكرامة من عبدٍ من العباد هو دون الأنبياء ﷺ.

الكرامة شيء يكرم الله ﷻ به عبداً من عباده تشريعاً وتكريماً أو ابتلاء واختباراً، ولا يمكن أن يكون ذلك لإرادة ذلك العبد، فليس له اختيار في وجود الكرامة أو عدم وجودها.

(١) تفسير الرازي (٣٠٤/١٤).

(٢) تفسير المنار (٤٤٦/٨).

وهنا ينبعث لنا سؤال: هذه هي الأسس الأربعة الأولى التي ذكرها الله ﷻ في دعوة صالح عليه السلام في سورة الأعراف، وقبل أن ننظر إلى الأساس الخامس في هذه السورة نسأل: هل ذكر الله ﷻ أن صالحاً عليه السلام دعاهم إلى أسس غيرها في بقية السور التي ذكرت قصته عليه السلام؟

الجواب:

تكرر اسم أمة ثمود في القرآن المجيد: (٢٦) مرة، ومن الأسس التي بصّرتنا بها سور أخرى، ودعاهم إليها نبينهم صالح عليه السلام:

الأساس الأول: إعمار الأرض وفق شريعة الله، لا وفق الأنظمة الظالمة المفسدة: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

الأساس الثاني: طلب المغفرة منه جل مجده، ثم التوبة إليه: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٦١].

أي: اطلبوا مغفرته على خطيئاتكم السابقة، ولا تطلبوها بالسنتكم فحسب، بل ارجعوا إليه بقلوبكم وأنفسكم، وأفعالكم، دون الحاجة إلى الأصنام أو الوسائط بينكم وبينه، لذا قال صالح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

الأساس الثالث: اتقاء أخطار المستقبل لو انحرفتم عن التشريع الإلهي: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٤٢].

الأساس الرابع: الإيمان بأن صالح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام رسول أمين في تبليغه لرسالة الله ﷻ: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٤٣]، ويترتب على ذلك أن تتقوا الأخطار والعقوبات التي ستأتيكم من الله ﷻ الذي أرسلني إن لم تؤمنوا بي، ولذا يجب عليكم أن تطيعوني: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء: ١٤٤].

ولا تظنوا أنني أطلب أجراً على تبليغي لرسالتي أو أنني أهدف إلى تحقيق مكاسب أو أرباح دنيوية: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٥].

فهذه أربعة أسس تضاف إلى ما سبق وإلى ما سيأتي، وهي تمثل أسساً دعا صالح عليه السلام قومه إليها في بداية دعوته.

قال صالح عليه السلام بعد ذلك: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ [الأعراف: ٧٣] لماذا ذكر الناقة بعد أن عمّم البينة، إذ ذكر أنه قد جاءتهم بينة من ربهم؟ وهل الناقة هي البينة أم شيء آخر؟
الجواب: هذا أساس جديد من أسس دعوة صالح عليه السلام، وهو:
الأساس الخامس: من الآيات الخارقة للعادة في دعوة صالح عليه السلام: الناقة، وبصّرنا بذلك قوله عليه السلام: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

هنا لا بد أن نسأل عن هذه الناقة: هل كانت هي البينة القائمة على صدق صالح عليه السلام؟
الجواب:
أولاً: يظهر من كلام المفسرين عليهم السلام أن صالحاً عليه السلام أخبر قومه في البداية عن أسس دعوته، فقال لهم: ﴿يَقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٧٣].
ثانياً: لم يبين ما البينة التي جاء بها، وحينها سألوه: ما البينة التي أتيت بها لنصدقك؟ وكأنهم اعتقدوا أن البينة لا بد أن تكون مادية محسوسة، فلم يكتفوا بالكلام الرشيد الواضح الذي كلمهم به صالح عليه السلام، وبصّرنا بهذا السور الأخرى، فإنك عندما تجمع بين الآيات في هذه السور المباركات تجد النعيم.. حيث تجتمع لك الصورة كاملة.

ثالثاً: البينة أعم من الآية، والآية فرد من أفراد البينة، فهم ردّوا دعوته، وحاولوا التعامل معه بمنطق التأثير عليه بترغيبه وترهيبه، حتى يترك هذه الدعوة، ويبين الله جلّ جلاله لنا ذلك في سورة هود عليه السلام إذ قالوا له ثلاث جمل يتلاعبون به عبرها، وهي التي قال الله جلّ جلاله عنها:

(١) ﴿قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾: فأرادوا التأثير عليه، فقالوا: كنت سابقاً ممن نرجو رئاسته وعقله وحكمته، أي: انظر إلى حالك الآن، فهو ينافي الحكمة والعقل والرئاسة التي كنا نرجوها لك.

(٢) ﴿أَتَنْهَيْنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾: فجعلوه عدواً لهم ولآبائهم، وصوّروه بمنظر الذي يريد تدميرهم، بل وتدمير المجد الذي بناه آبائهم لهم.

(٣) ﴿وَأَنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢]: فزعموا أنهم في شك من أنه نبي من عند الله جلّ جلاله، وأنهم في شك من أن دعوته حق، وكرروا هذه الدعوى عليه بأساليب متعددة.

رابعا: لما أكثر عليهم من الخطاب العقلي الفطري أبوا إلا أن يطلبوا آية مادية، وألحوا عليه في طلبها: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۖ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣، ١٥٤].

وعند ذلك أجابهم إلى سؤالهم بناءً على أمر الله وتدبيره، فالله ﷻ يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨].

ولما أذن الله ﷻ في أن يجعل لهم آية قال لهم صالح عليه السلام، وأشار إلى ناقة خارجة أمامهم: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ [الأعراف: ٧٣]، فخرجت لهم هذه الناقة العظيمة، فتكون هذا القبس من الآية من خمس كلمات:

الكلمة: [١]: ﴿هَذِهِ﴾: اسم إشارة للقريب، ومعنى ذلك أنه أشار إليها، وأنها كانت قريبة، وكان الجميع يشاهدونها وهي تخرج من مكان ما، وبعض العلماء ذكر أن هذا المكان كان جبلاً، وقيل: كان هضبة، وقيل: انشقت الأرض فخرجت هذه الناقة، ولا يوجد دليل على هذا إلا أن الواضح أنها وأن خروجها كان على هيئة معجزة وليست على الهيئة المعتادة.

الكلمتان: [٢-٣]: ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾: الناقة معروفة، وهي أنثى ذلك الحيوان الكبير العظيم المذلل للإنسان الذي يعيش في المناطق الحارة عادةً، ويسمى الذكر: جَمَلًا.

الكلمة: [٤]: ﴿لَكُمْ﴾: اللام أفادت الاختصاص أي: خصكم الله ﷻ بها لتكون أحد البينات التي تصير حجة عليكم.

فلما أخبرهم صالح عليه السلام عن ناقة الله أراد أن يخبرهم أن الله ﷻ أخرجها لتكون آية اختصوا بمشاهدتها لما أكثروا من التشكك في رسالته، لذا قدم كلمة: ﴿لَكُمْ﴾ على كلمة: ﴿آيَةٌ﴾، فكلمة: ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور في موضع الحال من ﴿آيَةٌ﴾، وَأَصْلُهُ صِفَةٌ، فَلَمَّا قُدِمَ عَلَى مُوصُوفِهِ صَارَ خَالًا، أَي: هِيَ آيَةٌ مُقْنِعَةٌ لَكُمْ وَمَجْعُولَةٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ لِأَجْلِكُمْ^(١)، فهي بيان لمن هي له آية لتوجب عليه

(١) التحرير والتنوير (٨/٢١٨).

الإيمان خاصة وهم ثمود، لأنهم عاينوها، وسائر الناس أخبروا عنها، وليس الخبر كالمعاينة، كأنه قال: لكم خصوصاً تكفيكم لتتيقنوا بصدق رسالتي.

الكلمة: [٥]: ﴿آيَةً﴾: في محل نصبٍ حال من اسم الإشارة: ﴿هذه﴾، والتقدير: هذه ناقة الله ﷻ خصكم بها حال كونها آية أي: علامة على صدق ما أقول. وتنكير كلمة ﴿آيَةً﴾ يدل على التعظيم والتفخيم، أي: إنها عَظِيمَةُ الْقَدْرِ، ظَاهِرَةُ الدَّلَالَةِ عَلَى مَا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ^(١).

(١) تفسير المنار (٨/ ٤٤٦).

الصفات المعجزة

تجليات القدرة الإلهية في ناقة صالح عليه السلام



سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقَبِيرِ

مَنْصَلٌ تَنْسِيخٌ
إِلَى الْإِسْلَامِ (٤)

ويترتب على هذه المعرفة القرآنية العظيمة عددٌ من الأسئلة تلهمنا مجموعة من البصائر:

ما صفات هذه الناقة؟

الجواب: اتصفت الناقة بثمان صفات، وهي:

الصفة الأولى: لا بد أن تكون آية خارقة للعادة، ولذا سمّاها ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾ ليكون لها مزيد خصوصية على غيرها من النوق، فيظهر أنها كانت ضخمة عظيمة.

وهذا كقولنا: هذا بَيْتُ اللَّهِ، فالله ﷻ ليس له بيت مما اعتاد البشر أن يعرفوه، ولكننا نضيف المكان إلى اسم الله ﷻ تعظيماً لهذا المكان أو ذلك المخلوق وتفضيماً لشأنه، وتُشْرِيفاً وتُخْصِيصاً. واضح أنها ليست ناقة معتادة، لأنها إذا كانت ناقة معتادة، فهي آية لأمة ثمود ولغيرهم من الناس أجمعين، وتكون بذلك آية عامة على ما اعتاده الناس من آيات الآفاق والأنفس كما قال الله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]، فهل كانت أعظم حجماً، وأرهب منظرًا؟!

يحتمل ذلك بقوة؛ لأنها كانت تسيطر على الماء في اليوم المخصص لها، ويحتمل أنها ناقة مما اعتادوا أن يروه ولكن مزيّتها هذه القدرة المدهشة في شرب ماء أمة ثمود في يوم واحد، ومما يشير إلى ضخامتها قول أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه): أتيتُ أرض ثمود، فذرعتُ مصدر الناقة فوجدتُه ستين ذراعاً^(١)، أي: نحو أربعين مترًا، وهذا الخبر يدل على ضخامتها، والمصدر أي: المكان الذي تصدر منه الناقة، ومعنى ذلك أنه كانت توجد بقايا آثار، فهل إذا ذهب الإنسان إلى مدائن صالح ودقق يمكن أن يجد بقايا آثار للناقة؟ يحتمل.

ولو كانت هذه الناقة كغيرها من النوق لقالوا له: كما أن عندك ناقة فعندنا نوق مثلها، فهل هذا يعني أننا أنبياء مثلك؟ فوضّح من هذا التحليل أن هذه الناقة مختلفة في خلقها وطبيعتها، وإن اشتركت في اسمها ووصفها العام مع بقية النوق.

وهنا يأتي سؤال جديد: ما وجه كون هذه الناقة آية؟ هل كانت تكلمهم مثلاً؟ وما الصفات التي اتصفت بها هذه الناقة حتى اختلفت عن سائر النوق التي تعرفها الأمم؟

الجواب: اختلف العلماء في وجه كونها آية، وسأجمع بين الأقوال الأقرب للصواب، وأجعل كل قول صفة لهذه الناقة:

(١) تفسير الطبري، ط: دار الحديث (٤٠٢/٥)، وقال إسلام منصور (المحقق): "ضعيف: أبو إسحاق السبعي مدلس ولم يصرح بالسماع، وابن حميد ضعيف".

الصفة الثانية: لأنها جاءت من عند الله مكوّنة مخلوقة من غير ذكر وأنثى (فحل وطروقة)، وهذا من أعظم آياته، فَخَلَقَهَا بِلا واسِطَةٍ، وصارت حُجَّةً لِلَّهِ عَلَى الْقَوْمِ.

الصفة الثالثة: جاءت كاملة الخلقة مِنْ غَيْرِ تَدْرِيجٍ في نموها:

وقيل: كانت آيَةً بِسَبَبِ خُرُوجِهَا بِكَمَالِهَا مِنَ الصَّخْرَةِ^(١)، ولكننا لا نملك دليلاً على مكان خروجها، إلا ما رواه الطبري عن أبي الطفيل عامر بن واثلة الليثي قال: "قالت ثمود لصالح عليه السلام: ائتنا بآيةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ: فقال لهم صالح عليه السلام: اخرجوا إلى هَضْبَةٍ مِنَ الْأَرْضِ. فَخَرَجُوا، فإذا هي تَمَخَّضُ كما تَمَخَّضُ الحاملُ، ثم إنها انفَرَجَتْ، فَخَرَجَتْ مِنْ وَسْطِهَا الناقةُ، فقال صالح عليه السلام: هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ" [الأعراف: ٧٣] (٢).

ففهمنا أن من صفاتها كمالَ خَلْقِهَا مِنْ غَيْرِ تَدْرِيجٍ، فصالح عليه السلام لما أشار إليها قال: هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ [الأعراف: ٧٣] أي: ما وُلِدَتْ صغيرة ثم ربت ونمت حتى كبرت، بل خرجت مكتملة الخلق حتى نقل بعض المفسرين أنها جاءت بفصيل ولدتها^(٣)، وكل ذلك من غير الطريق المعتاد.

الصفة الرابعة: كانت آيَةً عَجِيبَةً لِأَجْلِ أَنْ لَهَا شَرِبٌ يَوْمٍ، وَلِجَمِيعِ أُمَّةٍ ثَمُودَ شَرِبَ يَوْمٍ آخر معلوم لهم:

فكان ماء هذه الأمة الكبيرة ﴿ثمود﴾ مقسوماً بينها وبينهم، فقد أمر الله صالحاً عليه السلام أن يخبرهم بضبط العلاقة بينهم وبين هذه الناقة العظيمة، فقال: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ حُتِّضِرُّ ۖ﴾ [القمر: ٢٨]، ونفَّذ صالح عليه السلام ذلك، فقال الله ﴿وَكَلَّمَ عَنْكَ عَنْهُ﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شَرِبٌ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمٍ مَعْلُومٍ [الشعراء: ١٥٥].

(١) تفسير الرازي (٣٠٥/١٤).

(٢) تفسير الطبري، ط: دار الحديث (٣٩٥/٥)، وقال إسلام منصور (المحقق): "صحيح أخرجه عبد الرزاق في التفسير من طريق المصنف، وسند المصنف حسن من أجل الحسن".

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٥٢٦/١٢)، والهداية إلى بلوغ النهاية (٢٤٢٨/٤).

أي: تشرب الماء جميعه في يوم، وجميع أمة ثمود تشرب في يوم آخر، واستيفاء ناقة شرب أمة متحضرة بأكملها شيء عجيب، وكانت مع ذلك تأكل ما يليق بذلك الماء من الكلال والحشيش^(١)؛ إذ لا بد أن يقابل شربها ما يناسبه من الكلال.

وهل هذه الصفة محمودة أم مذمومة، إذ حرمت أمة كاملة من مائها يوماً كل يومين؟

الجواب: الكلام ليس في كونها صفة محمودة أو مذمومة، بل في كونها آية تدل على قدرة غير معتادة إجابة لثمود عندما طلبوا شيئاً غير معتاد، وقد تضمنت هذه الآية التهديد لهم، فإذا كانت ناقة واحدة تحرمهم من مائهم لمدة يوم كامل كل يومين فكيف لو نزل بهم العذاب؟! فالآية لأجل أن يُختبروا في انقيادهم للإيمان بعد أن تحقق لهم الطلب الذي طلبوه، والآيات قد يكون إرسالها لتخويف العباد عسى أن يختاروا القرار الصحيح، فيؤمنوا كما قال ربنا ﷻ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال ﷻ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يَكْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ، وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّهُمَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِمَا عِبَادَهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ كُسُوفًا، فَادْكُرُوا اللَّهَ حَتَّى يَنْجِلِيَا»^(٢).

الصفة الخامسة: كانوا في يوم شربها يحلبون منها القدر الذي يقوم لهم مقام الماء في يوم شربهم:

وهذا من أوجه كونها آية، ويدل لذلك ما ورد عن جابر رضي الله عنه، قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر، قال: «لَا تَسْأَلُوا الْآيَاتِ، وَقَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ صَالِحٍ، فَكَانَتْ تَرِدُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ، وَتَصْدُرُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ، فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ، فَعَقَرُوهَا، وَكَانَتْ تَشْرَبُ مَاءَهُمْ يَوْمًا، وَيَشْرَبُونَ لَبَنَهَا يَوْمًا، فَاخَذَتْهُمْ صَيْحَةٌ أَهَمَدَ اللَّهُ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ مِنْهُمْ، إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا كَانَ فِي حَرَمِ اللَّهِ»، قيل: مَنْ هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «هُوَ أَبُو رِغَالٍ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الْحَرَمِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمَهُ»^(٣).

(١) تفسير الرازي (٣٠٥/١٤).

(٢) مسلم (٩٠١-٦).

(٣) أحمد (١٤١٦٠)، وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٣١٧/١): "وهذا الحديث على شرط مسلم، وليس هو في شيء من الكتب الستة".

الصفة السادسة: يَوْمَ مَحِيئِهَا إِلَى الْمَاءِ كَانَ جَمِيعُ الْحَيَوَانَاتِ يَمْتَنِعْنَ عَنِ الْوُرُودِ فِيهِ عَلَى الْمَاءِ، وَفِي يَوْمٍ اِمْتِنَاعِهَا كَانَتْ الْحَيَوَانَاتُ تَأْتِي^(١)، فهذا الترتيب آية في ذاته:

وهذا لا يوجد عندنا فيه نص واضح، ولكن يدل عليه قول صالح عليه السلام: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝﴾ [الشعراء: ١٥٥]، فإذا كان البشر لا يستطيعون مزاحمتها على الماء، فكذاك بقية الحيوانات، ويظهر أن الخطاب في قوله: ﴿وَلَكُمْ شِرْبٌ﴾ يشمل حيواناتهم كما قال الله ﷻ: ﴿مَتَنَعًا لَّكُمْ وَلِأَنعَمِيكُمْ﴾ [النازعات: ٣٣].

وهم مأمورون بذلك، ولا يستطيعون لو أرادوا أن يزاحموها، لكن من الواضح أن الناقة كانت مسالمة، ولم يكن حجمها بالذي يعجزهم عن أن يعقروها. وقد ذكر الرازي رحمه الله بعض هذه الوجوه في السبب الذي لأجله صارت هذه الناقة آية، ثم ذهب إلى ما ذهب إليه عددٌ من المحققين من أن القرآن قد دلَّ على ناقة الله ﷻ، وأنَّ فيها آيةً، فدخل فيها ما يمكن أن تكون لأجله آية متميزة عن غيرها^(٢).

قال ابن إسحاق رحمه الله: "فكانت -فيما بلغني والله أعلم- إذا وردت، وكانت ترد غبًا، وضعت رأسها في بئر في الحجر يقال لها: "بئر الناقة"، فيزعمون أنها كانت تشرب إذا وردت، تضع رأسها فيها، فما ترفعه حتى تشرب كل قطرة ماء في الوادي أي: تسحب جميع المياه، ثم ترفع رأسها فتفسج^(٣) يعني: أنها تباعد ما بين رجليها. "فيحتلبون ما شاؤوا من لبن، فيشربون ويدّخرون، حتى يملؤوا كل أنيتهم، ثم تصدر من غير الفج الذي منه وردت، لا تقدير على أن تصدر من حيث ترد لضيقه عنها، فلا ترجع منه، حتى إذا كان الغد، كان يومهم، فيشربون ما شاؤوا من الماء، ويدّخرون ما شاؤوا ليوم الناقة، فهم من ذلك في سعة"^(٣).

(١) تفسير الرازي (٣٠٥/١٤).

(٢) ينظر: تفسير الرازي (٣٠٥/١٤).

(٣) تفسير الطبري، ط: دار الحديث (٤٠/٥)، وقال إسلام منصور (المحقق): "ضعيف: محمد بن إسحاق صدوق مدلس، ولم يصرح، وسلمة بن الفضل ومحمد بن حميد ضعيفان".

ما الذي يبصرنا به قوله ﷻ: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾؟

الجواب: يبصرنا بـ:

الصفة السابعة: أن تُترك تأكل في أرض الله ﷻ، ولا تهمل في أن تتفكر عقولهم في أنها آية من الله ﷻ: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣]:

فلأنها آية حية تعيش بينهم كان لا بد من ضبط العلاقة بينها وبينهم، فأخبرهم صالح ﷺ عن ذلك، بقوله: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾: ف"الفاء" للإفصاح عن شرط مقدر دلت عليه الجملة قبلها، أي: إذا كانت آية الله ﷻ لنبيه، فاتركوها تأكل في الكلاً المباح في أرض الله تعالى، ولا تمسوها بأي أمر يسوء في ذاته وعاقبته، وبسببه يأخذكم عذاب واقع لا محالة^(١).

الكلمة: [١]: ﴿فَذَرُوهَا﴾: "والعرب قد أماتت المصدر من يذر والفعل الماضي، واستعملته في الحاضر والأمر، فإذا أرادوا المصدر قالوا: ذره تركاً، أي اتركه، ولا يقال وذره ولا واذره، ولكن: تركه وهو تارك"^(٢).

والتعبير بكلمة ﴿فَذَرُوهَا﴾ يختلف عن التعبير بكلمة: (فاتركوها)؛ إذ (ذروها) يعني: اتركوها تركاً يظهر فيه الانفصال عنها بأن لا تتعرضوا لها بسوء، مع الاتصال بها من حيث التفكير في كونها آية.

الكلمة: [٢]: ﴿تَأْكُلْ﴾: أي: تتناول طعامها من الحشائش المعتادة لمثلها، وهنا ذكر الأكل بينما في سورة الشعراء ذكر الشرب.

الكلمات: [٥-٣]: ﴿فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾:

فلم يقل فذروها تأكل في الأرض، لماذا؟

(١) زهرة التفاسير (٧/ ٣٧٢٦).

(٢) العين (٨/ ١٩٦)، وانظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٢/ ٨٤٥).

الجواب: المعنى ذروها تأكل في المكان الذي تحب أن تأكل فيه مهما غيَّرتَه، فهو أرض الله ﷻ، وإضافة كلمة: ﴿أَرْضُ﴾ إلى لفظ الجلالة: ﴿اللَّهُ﴾ قريب من إضافة كلمة: ﴿نَاقَةُ﴾ إلى كلمة: ﴿اللَّهُ﴾ إلا أنه يظهر في أسباب إضافة كلمة: ﴿أَرْضُ﴾ إلى لفظ الجلالة: ﴿اللَّهُ﴾ الآتي:

(١) أي: الأرض العامة التي فيها الكلاً والأعشاب التي تأكل منها الأنعام، وليس الأراضي الخاصة التي تزرعها الناس، وتخضع للملكية الخاصة؛ فعلى الرغم من أنها ملك لله ﷻ فإن عُزْفَ الناس جرى بأن يقولوا: هذه أرض فلان، أما أرض الله ﷻ، فجرى العُزْفُ أن تطلق على الأراضي التي لا مالك لها، ويكون المعنى: اتركوا ناقة الله ﷻ تركاً محدداً يهمل التعرض لها، ولا يهمل الشعور بكونها آية حقيقية دالة على صدق رسول الله صالح ﷺ.

(٢) لإشعارهم أنها في أكلها لم تتعد علمهم، بل هي تأكل من أرضه التي خلقها وأباحها لخلقها^(١).
الصفة الثامنة: كانت مسالمة، ويصبرنا بذلك قول صالح ﷺ: ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣] طلب أن يذروها تأكل، وهذا يعني أنهم يقدرّون على منعها، ونهاهم عن مسها بسوء، وذلك يدل على قدرتهم على إيدائها، فلم تكن هجومية أو متوحشة:

ما الحكمة في أنه عبر عن نهيمهم عن إيدائها بقوله: ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾، ولم يقل: لا تؤذوها أو لا تعقروها؟
الجواب نجده في الآتي:

الكلمات: [٣-١]: ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾: "المس"^(٢) أصله جَسُّ الشَّيْءِ بِالْيَدِ بوضعها على جسم ما، فيقال: مَسَسْتُه بالكسر، أَمَسُّهُ مَسًّا، فالمس يعني أن تضع اليد على جسم آخر بصورة سريعة أو مؤثرة تأثيراً يختلف حسب المراد من المس، كمس الشيء الحار لمعرفة حرارته يكون مساً خفيفاً، ثم يقوى المس كغمس اليد في المطهرة لتناول الماء، و"السوء": ما يوجع صاحبه أن يقع فيه، أو يقع

(١) تفسير المنار (٨/ ٤٤٨).

(٢) مقاييس اللغة (٥/ ٢٧١)، المفردات في غريب القرآن (ص ٧٦٦)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٤/ ٢٠٧٠).

به، أو يقع عليه، أي: الأذى، فكلمة: ﴿تَمَسُّوْهَا﴾ دقيقة جداً، أي: لا يصل إليها أدنى شيء ولو كان شيئاً خفيفاً.

ونكر كلمة (سوء) ليمنع أدنى شيء يمكن أن يسمى سوءاً، فهذا التعبير مثل قوله ﷺ: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣] أي: ومن باب أولى لا تقل لهما ولا تفعل معهما ما هو أسوأ من ذلك، وكذلك بالنسبة للناقة، فالنهي عن مسها بسوء يتناول بنفسه أو بمفهوم الأولى ما هو أسوأ من المس بسوء. والباء في قوله: ﴿بِسُوءٍ﴾ للمصاحبة، أي: لا يمسوها حال مسهم إياها مصاحبين الإساءة لها جسدية كانت الإساءة أو لفظية.

وهذا التقييد ﴿بِسُوءٍ﴾ يبصّرنا أنهم يجوز لهم أن يمسوها بخير، كأن يعطوها شيئاً تنتفع به، أو يلاطفوها بما يعجب أمثالها من الحيوانات، أو يقوموا بحلمها؛ فإن هذا خير لهم ولها. ومعنى ذلك: أنه يجب أن يبعدوا عنها أدنى أذى، سواء كان الأذى في نفسها أو أكلها أو شربها أو مكانها، وكذلك يجب أن يمتنعوا عن أن يؤذوها في سَقَبِها أي: في صغيرها، هذا إذا وُجد لها فصيلٌ صغير؛ لأن بعض الروايات تذكر ذلك^(١)، ولكن لا يوجد عندنا رواية صحيحة تدل على أنه كان عندها صغير أو سَقَب.

الكلمات: [٤-٦]: ﴿فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: الفاء سببية فصيحة في وقت واحد فيما يظهر، والمعنى: ولا تمسوها بأدنى سوء ولا بما هو أعلى منه، فإن مسستموها بسوء يأخذكم عذاب أليم على وجه العقوبة المباشرة التي لا تتأخر بما يناسب حالها وحالهم، ولذا أنذرهم صالح ﷺ ثلاثة أيام بعد أن عقروها.

ولكننا سنسأل: ما وجه قوة الكلمة القرآنية في قوله: ﴿فَيَأْخُذْكُمْ﴾ ولم يقل مباشرة:

فيعذبكم؟

الجواب:

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٥٢٦).

الكلمة: [١]: ﴿فَيَأْخُذْكُمْ﴾: لأن هذه الكلمة أقوى بكثير من غيرها في هذا الموضوع، ﴿فَيَأْخُذْكُمْ﴾ أي: يتناولكم العذاب تناول استيلاء وقهرٍ وغلبةٍ، فلا تستطيعون معه شيئاً، كما تأخذ القلم أو الشيء مستوليّاً عليه، غير تاركٍ له.

الكلمتان: [٢-٣]: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٣) أي: عقوبةٌ عظيمةٌ تسلب عنكم عذوبة الحياة، فتودون معها الموت، ووصف العذاب بالأليم ليبين أن العذاب ليس عذاباً قليلاً ولا صغيراً، بل هو مؤلم موجع يجدون ألمه أي: أذاه الشديد الذي يشعرونهم بوجع الحياة.

وقد وصف نبي الله ﷺ هذا العذاب بصفة أخرى وردت في سورة هود ﷻ إذ قال: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤]، فوصفه بالألم والقرب، أي: قريبٌ زمانه لن يتأخر عنكم، وذلك الذي حدث حينما عقروها إذ أمهلهم ثلاثة أيام لم يزدوا عليها، وقد وصف الله ﷻ اليوم الذي سيعذبون فيه إن مسوها بسوء بالعظمة، فقال: ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٦].

وهنا نتساءل: بعد أن رأوا هذه الناقة العظيمة، وصفاتها المميزة، هل أسلموا؟ ماذا كان حالهم؟

الجواب: نقل الطبري عن ابن إسحاق رحمه الله أنهم سألوا صالحاً ﷻ أن يُريهم آية تكون مصداقاً لما يقول فيما يدعوهم إليه، فقال لهم: أي آية تريدون؟ قالوا: تخرج معنا إلى عيدنا هذا - وكان لهم عيد يخرجون إليه بأصنامهم وما يعبدون من دون الله ﷻ، في يوم معلوم من السنة- فتدعو إلهك وتدعو آلِهتنا، فإن استجيب لك اتَّبِعنا! وإن استجيب لنا اتَّبِعنا! فقال لهم صالح ﷻ: نعم! فخرجوا بأوثانهم إلى عيدهم ذلك، وخرج صالح ﷻ معهم إلى الله ﷻ، فدعوا أوثانهم وسألوها ألا يستجاب لصالح ﷻ في شيء ممّا يدعو به. ثم قال له جُنْدَع بن عمرو بن الدُمَيل، وكان يومئذٍ سيّدَ ثمود وعظيّمهم: يا صالح، أخرج لنا من هذه الصخرة -الصخرة منفردة في ناحية الجُجر، يقال لها الكائبة- ناقةً مخترجة جوفاء وبراء، و"المخترجة": ما شاكلت البُخت من الإبل أي: النوق العظيمة.

وقالت ثمود لصالح ﷻ مثل ما قال جُنْدَع بن عمرو: فإن فعلت آمناً بك وصَدَقْنَاكَ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق! وأخذ عليهم صالح ﷻ مواثيقهم: لئن فعلتُ وفعلَ الله لتَصِدَّقَنِي ولتؤمننَّ بي!

قالوا: نعم! فأعطوه على ذلك عهدَهم. فدعا صالح عليه السلام رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بأن يخرجَها لهم من تلك الهَضْبَةِ، كما وصفوا.

فنظروا إلى الهَضْبَةِ -حين دعا الله عَزَّ وَجَلَّ صالح عليه السلام بما دعا به- تتمخَّضُ بالناقَةِ تَمَخُّضُ النَّتُوجِ بولدها فتحركت الهَضْبَةُ، ثم انتفضت بالناقَةِ، فانصدعت عن ناقَةٍ، كما وصفوا، جوفاءً وَبَرَاءً نَتُوجٌ، ما بين جنبِها لا يعلمه إلا الله عَزَّ وَجَلَّ عِظْماً، فأمن به جُنْدَعُ بن عمرو وَمَنْ كان معه على أمره من رهطه، وأراد أشرافُ ثمود أن يؤمنوا به ويصدقوا، فنهاهم دُؤَابُ بن عمرو بن لبيد، والحبابُ صاحبُ أوثانهم، ورباب بن صَمْعَرٍ، وكانوا من أشرافِ ثمود، فردَّ هؤلاء الثلاثة أشرافَ أمةِ ثمود عن الإسلام، والدخول فيما دعاهم إليه صالح من الرَّحْمَةِ والنجاة، وكان لجُنْدَعِ ابنِ عِمٍّ يقال له: "شهاب بن خليفة"، فأراد أن يُسَلِّمَ، فنهاه أولئك الرهط عن ذلك، فأطاعهم، وكان من أشرافِ ثمود وأفاضلها، فقال رجل من ثمود يقال له: "مهوس" ^(١) بن غَنَمَةَ بن الدُّمَيْلِ، وكان مسلماً:

وَكَانَتْ عُصْبَةٌ مِنْ آلٍ إِلَى دِينِ النَّبِيِّ دَعَوْا شُهَابًا
عَزِيزَ ثُمُودَ كُلِّهِمْ جَمِيعًا فَهَمَّ بِأَنْ يُجِيبَ، وَلَوْ أَجَابَا
لَأَصْبَحَ صَالِحٌ فِينَا عَزِيزًا وَمَا عَدَلُوا بِصَاحِبِهِمْ دُؤَابًا
وَلَكِنَّ الْغَوَاةَ مِنْ آلِ حُجْرٍ تَوَلَّوْا بَعْدَ رُشْدِهِمْ ذُبَابًا ^(٢)

ولا يوجد عندنا دليل مرفوع على هذا التفصيل الذي ذكره ابن إسحاق لكن تناقلته العرب عن قصة ثمود؛ لأن قصة ثمود من خواص العرب، فلا توجد في كتب أهل الكتاب، ولا أميل إلى الإكثار منها لافتقارها للسند المقبول، ويحتمل أن تناقل العرب لها كان على طريقتهم في نقل الأخبار أو لرؤية بعض الكتابات المندثرة.

(١) وفي البداية والنهاية (٣١١/١): (مُتْرَش).

(٢) تفسير الطبري، ط: دار الحديث (٤٠١/٥)، وقال إسلام منصور (المحقق): "ضعيف: محمد بن إسحاق صدوق مدلس، ولم يصرح، وسلمة بن الفضل ومحمد بن حميد ضعيفان".

إذن: أخرج الله ﷻ لأمةِ ثمود قوم صالح ﷺ آية مبصرة عظيمة هي الناقة، فهل نفعهم رؤية هذه المعجزة المادية؟

نعرف أنهم لم ينتفعوا، ولقد طالبت قريش أيضاً بآيات مادية، فماذا كان الموقف؟
يروى ابن عباس ؓ ما حدث، فيقول: "سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمُ الصِّفَا ذَهَبًا، وَأَنْ يُنَجِّيَ الْجِبَالَ عَنْهُمْ، فَيَزْرَعُوا، فَقِيلَ لَهُ: إِنْ شِئْتَ أَنْ تَسْتَأْنِي بِهِمْ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تُؤْتِيَهُمُ الَّذِي سَأَلُوا، فَإِنْ كَفَرُوا أَهْلِكُوا كَمَا أَهْلَكْتُ مِنْ قَبْلِهِمْ. قَالَ: «لَا، بَلْ أَسْتَأْنِي بِهِمْ»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَعَاقِبَتُنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩]»^(١).

ونردد هنا مع ابن الجوزي ؒ: «اعْتَبِرُوا إِخْوَانِي يَهُودَ الْأَهْلِيَيْنِ، وَانظُرُوا سُوءَ تَدْبِيرِ الْخَاسِرِينَ، لَا بِالنَّاقَةِ اعْتَبِرُوا، وَلَا لِتَغْوِيضِهِمُ اللَّبَنَ شَكَّرُوا، وَعَتَوْا عَنِ النِّعَمِ وَبَطَرُوا، وَعَمُوا عَنِ الْكَرَمِ فَمَا نَظَرُوا، وَأَوْعِدُوا بِالْعَذَابِ فَمَا حَذَرُوا، كُلَّمَا رَأَوْا آيَةً مِنَ الْآيَاتِ كَفَرُوا. أَعَاذَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنَ الْكُفْرَانِ، وَحَفِظْنَا مِنْ مُوجِبَاتِ الْخُسْرَانِ، إِنَّهُ إِذَا لَطَفَ صَانَ.

أَهْلُ السَّكْرَانُ بِالْأَمَالِ قَدْ حَانَ الرَّجِيلُ
فَإِنْتَبَهَ مِنْ رَفْدَةِ الْغَفْلَةِ فَالْعُمْرُ قَلِيلُ
وَاطْرَحْ سَوْفَ وَحَتَّى فُهِمَا دَاءٌ ذَخِيلُ»^(٢)

بعد ذكر الأساس الخامس المتضمن عرض البيئة ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾ والتحذير من مسها بسوء، فما الأساس السادس الذي يبصرنا به قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤]؟
الجواب:

(١) أحمد (٢٣٣٣)، قال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين، قال الوادعي في الصحيح المسند (٦٧٠): "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين".

(٢) التبصرة لابن الجوزي (١/١٠٣).

الأساس السادس: تذكيرهم بالتاريخ ليقوموا بمقتضيات الاستخلاف والتمكين في الأرض، إذ استخلفهم الله ﷻ في الأرض بعد عاد، وبيصّرنا بذلك قوله: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤]:

المناسبة والاتصال:

الجواب: انتقلت الآية: (٧٤) إلى أساس جديد من الأسس التي دعا إليها جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام، إذ يقنع صالح ﷺ قومه عبره بالنعمة العظيمة التي جاءتهم، ويواصل إقناع قومه بالنعمة العظيمة التي جاءتهم: نعمة تبليغ الله ﷻ لهم ما ينبغي أن يفعلوه في الحياة بواسطة نبهم صالح ﷺ.

علاقة هذه الآية: (٧٤) بما قبلها واضحة، فهي تنتمة للأسس التي جاء بها صالح ﷺ في دعوته لأمتة ثمود، ولننظر في كلمات الآية:

الكلمة: [١]: ﴿وَأَذْكُرُوا﴾: يأمرهم بالتذكر، والتذكر يقتضي أنهم كانوا يعرفون شيئاً، ونسوه أو تناسوه، فأمرهم أن يتذكروه، والتذكر يعني: أن نجعل ما يجب أن نتذكره في الإعلام والتعليم والثقافة حتى لا ننسى.

فما الذي يجب أن يذكروه؟

الجواب: أمرهم أن يتذكروا أمرين أساسيين: أنه جَلَّ مَجْدُهُ جعلهم خلفاء من بعد أمة عاد العظيمة، وأنه مَكَّنَ لهم في الأرض.

الكلمة: [٢]: ﴿إِذْ﴾ وهي: ظرف زمان بمعنى حين أو وقت، أي: اذكروا وقت جعلكم خلفاء.

الكلمة: [٣]: ﴿جَعَلَكُمْ﴾: أي: خلقكم وخصصكم بهذا الزمان وعلى هذا الحال.

الكلمة: [٤]: ﴿خُلَفَاءَ﴾ جمع خليفة، وكلمة "فعليل" يأتي جمعها على وزن فعلاء كما "الشركاء" جمع "شريك"، و"العلماء" جمع "عليم"، و"الحلماء" جمع "حليم"، ويمكن أن يكون جمعها فعائل أي: خلائف كما ورد في سورة فاطر، وفي سورة الأنعام، ومثلها لو جمعت "كريمة" على "كرائم" و"حليمة" على "حلائل"، و"رغيبية" على "رغائب"، وتكون التاء للتقوية، وقال الطبري ﷺ للتأنيث، والخلفاء هم الذين يخلفون من قبلهم، ويتمكنون تمكّنهم، وربما زادوا على ذلك.

الكلمات: [٧-٥]: ﴿مَنْ بَعْدَ عَادٍ﴾ أي: يعني أنكم قد جئتم في زمنٍ بعد الزمن الذي جاءت فيه أمة عاد، فأمرهم أن يذكرُوا أن الله ﷻ جعلهم خلفاء من بعد عاد، وهذا التذكير بعاد يدل على معرفتهم بهم، وبما جرى لهم، فذلك استدلال منه بالتاريخ المعروف عندهم. أي: كيف لا تعتبرون بالتاريخ؟ كيف تنسون التاريخ؟

بصيرة: أعظم الأمم أو الناس شقاءً الذي لا يعتبر بغيره، لأن الله ﷻ قد أعطاه الفرصة بأن أراه حال آخرين مثله لينظر أخطاءهم، فلا يقع فيها، ولينتبه، وليحذر، ويهتم غاية الاهتمام في الابتعاد عنها.

فانتقل صالح ﷺ من الاستدلال بالناقة، وهي آية خارقة للعادة، إلى الاستدلال بالتاريخ ليحاول أن يقنعهم برسالته.

أهمية التفكير والاعتبار:

يلفت صالح ﷺ هنا نظرهم إلى التذكر، أي: إلى تحريك عقولهم بالاعتبار بحوادث الدهر، وتقلب الزمان، فقد جاء لأمة عاد العظيمة رسول منهم فكذبوه، فاجتاحهم العذاب، فكيف لا تتفكر أمة ثمود في أنه سيحل بهم نفس المصير إن أصروا على تكذيب رسولهم؟ والتفكر الذي يؤدي إلى التذكر عبادة عظيمة تفوق كثيراً من عبادات النوافل، فعَنْ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ لِمُ الدَّرْدَاءِ ﷺ: أَيُّ عِبَادَةٍ أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ كَانَ أَكْثَرَ؟ قَالَتْ: «التَّفَكُّرُ وَالْإِعْتِبَارُ»^(١)، وكان «أبو الدرداء ﷺ يقول: «تَفَكَّرْ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ قِيَامٍ لَيْلَةٍ»^(٢).

ولفت النبي ﷺ نظر أمته إلى أنه استخلفهم بعد أمم سابقة مثل أمة ثمود، فينبغي أن يتفكروا ويتذكروا، ولذا نهاهم عن دخول أماكن المعذنين حالهم كونهم لاهين غافلين، فعَنِ ابْنِ عُمرَ، عَنِ

(١) الزهد والرفائق، لابن المبارك (ص ٩٧).

(٢) الجامع لعلوم الإمام أحمد - الأدب والزهد (٢٠ / ٤٠٠).

النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ عُدُّبُوا إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ»^(۱).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «ووجه هذه الخشية أَنَّ البكاء يبعثه على التفكير والاعتبار، فكانه أمرهم بالتفكير في أحوالِ تُوجِبُ البكاء من تقدير الله ﷻ على أولئك بالكفر مع تمكينه لهم في الأرض، وإمهالهم مدةً طويلة، ثم إيقاع نعمته بهم وشدة عذابه، وهو سبحانه مُقَلِّبُ القلوب، فلا يأمن المؤمن أن تكون عاقبته إلى مثل ذلك»^(۲).

هذا الذكر يؤدي إلى التذكر، والتذكر يجعل صائحاً ينادي عقلك، ويوقظ قلبك، ويقول لك: "أَيُّهَا الْعَاصِي: تَفَكَّرْ فِي حَالِ آدَمَ أَبِيكَ، أَيُّهَا الْغَافِلُ: تَذَكَّرْ مَا جَرَى لَهُ وَيَكْفِيكَ، أَبْعِدْ بَعْدَ الْقُرْبِ مِنْ رَبِّهِ، وَأُهْبِطْ مِنَ الْجَنَّةِ لِشُؤْمِ ذَنْبِهِ، وَإِبْلِيسَ الْعَدُوَّ الْمُخْتَالِ أَسْرَهُ بِخَدِيعَتِهِ فِي حَزْبِهِ، وَيَسْعَى فِي هَلَاكِكَ فَاعْتَبِرْ بِهِ.

فَرَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا تَذَكَّرُ أَنَّ اللَّهَ ﷻ اسْتَخْلَفَهُ بَعْدَ مَنْ مَضَى مِنْ أَهْلِ دَرْبِهِ، فَتَأَهَّبْ لِمُحَارَبَةِ عَدُوِّهِ، فِي رَوَاجِهِ وَعُدُوِّهِ»^(۳)، كما قال قس بن ساعدة:

فِي الدَّاهِبِينَ الْأُولِي	— مِنَ الْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرُ
لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا	لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرُ
وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا	يَمْضِي الْأَصَاغُرُ وَالْأَكَابِرُ
لَا يَرْجِعُ الْمَاضِي وَلَا	يَبْقَى مِنَ الْبَاقِينَ غَايِرُ
أَيَقَنْتُ أَنِّي لَا مَحَا	لَهُ حَيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرُ ^(۴)

ثم قال لهم صالح ﷺ: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤]، لماذا يذكرهم صالح بهذه النعمة؟

(۱) أحمد (٤٥٦١)، وصححه ابن حبان كما في التعليقات الحسان (٦١٧٠)، وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين.
 (۲) فتح الباري لابن حجر (١/ ٥٣١).
 (۳) التبصرة لابن الجوزي (١/ ٢٩).
 (۴) ينظر: الحماسة للبحتري (ص: ٢١٠).

يأتي الجواب على ذلك في الأساس السابع:

الأساس السابع: تذكيرهم بالواقع الحاضر حيث حباهم الله ﷻ بعمرانٍ متميز، وحضارة فريدة، وبيصّرنا بذلك قوله: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤].

الكلمة: [١]: ﴿وَبَوَّأَكُمْ﴾:

لا بد أن نسأل: كيف يظهر جمال هذه الكلمة القرآنيّة وقوتها بحيث لا يمكن أن نضع غيرها مكانها مثل: ويسّر لكم أو مكّنكم؟

الجواب:

هذه الكلمة تصور القوة التي حباهم الله ﷻ بها، وعظمة العمران التي وصلوا لها، فهي من باء ومعناه: رجع رجوعاً إلى مكان وزمان وحال يجد فيه الصلاحية الكاملة للرجوع، أي: هيئنا لكم في الأرض مهياً، أو أنزلناكم إنزالاً مناسباً لكم في بيئة مناسبة تستطيعون بها أن تصنعوا صناعتكم، وتشيدوا عمرانكم، فالإنسان قد يكون قوياً ماهراً مهندساً، ولكنه لا يجد البيئة التي تساعد على أن يقوم بما يطمح له من العمران، فلما قال لهم: ﴿وَبَوَّأَكُمْ﴾: أدركنا أن الله ﷻ هيأ لهم البيئة المناسبة في المكان والزمان والحال ليستغلوا ما آتاهم الله ﷻ من القوة والخبرة والتجربة والذكاء والقوة الجسدية في بناء هذه القصور في الأرض مكاناً وكمية وحالاً، ومن ذلك الباءة وهي الإمكانية والقدرة والاستعداد والتهيؤ للنكاح، وتُجمع على الباءات، قال الشاعر:

يَا أَيُّهَا الرَّائِبُ دُو الثَّبَاتِ

إِنْ كُنْتَ تَبْغِي صَاحِبَ الْبَاءَاتِ

فَاعْمِدْ إِلَى هَاتِيكُمُ الْأَبْيَاتِ^(١).

(١) الرجز بلا نسبة في: لسان العرب (١/٣٦)، وتاج العروس (١/١٥٣).

فَقَوْلُهُ: ﴿يَوَّأَكُمُ﴾ أَيُّ: تَرْجِعُونَ إِلَيْهَا عِنْدَمَا تَرِيدُونَ وَقَدْ هَيَّأَهَا لَكُمْ لِتَتِمَكَّنُوا أَنْ تَفْعَلُوا فِيهَا مَا تَشَاؤُونَ مِنْ حَيْثُ الْبِنَاءُ الْهِنْدَسِي، وَتَنْقَلِبُوا إِلَيْهَا عِنْدَمَا تَحْبُونَ التَّغْيِيرَ وَالْمَنَامَ وَالْمُضْجَعَ وَالْمُسْتَرَا حَ وَالْمَرَا حَ وَالْمَكَانَ فَتَنْتَقِلُونَ مِنَ السَّهُولِ إِلَى الْجِبَالِ، وَمِنَ الْجِبَالِ إِلَى السَّهُولِ وَتَسْتَمْعُونَ بِهَا عَلَى نَحْوِ سَهْلِهِ اللَّهُ ﷻ لَكُمْ، وَهَيَّأَ عَلَى أَجْمَلِ الْوُجُوهِ فِي أَحْسَنِ الْبَيْتَاتِ.

أَيُّ: جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ الَّتِي تَعِيشُونَ فِيهَا بَيْنَةَ مَنَاسِبَةٍ لِتَصْنَعُوا فِيهَا مَا تَشَاؤُونَ، وَتُظْهِرُونَ مِنْ خِلَالِ مَا تَصْنَعُونَ بَاءَكُمْ، أَيُّ: قُدْرَتَكُمْ وَقَوَّتَكُمْ وَتُدْبِيرَكُمْ، وَلِذَا عَقِبَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَبَوَّأَكُمُ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾.

وَهُنَا يَلْفَتْ نَظْرُكَ بِشِدَّةِ أَنْ صَالِحًا عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِينَا الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ ذَكَرَ أَنَّهُمْ يَتَّخِذُونَ مِنَ السَّهُولِ قُصُورًا بَيْنَمَا لَمَّا ذَكَرَ الْجِبَالَ لَمْ يَأْتْ بِكَلِمَةِ ﴿مِنْ﴾، فَمَا الْحِكْمَةُ؟

الجواب:

الجواب: لِأَنَّ السَّهُولَ أَكْثَرَ مِنَ الْجِبَالِ، وَهُمْ لَنْ يَتَّخِذُوا كُلَّ السَّهُولِ قُصُورًا بَلْ سَيَتَّخِذُونَ بَعْضَ السَّهُولِ قُصُورًا.

أَمَّا الْجِبَالُ، فَهِيَ أَقَلُّ مِنَ حَيْثُ الْوُجُودِ فِي مَنَاطِقِهِمُ الَّتِي كَانَتْ فِيهَا حَوَاضِرُهُمْ وَمَدَنُهُمْ، فَيَسْتَغْلِقُونَ وَجُودَ الْجِبَالِ، وَبِقُوَّةٍ عَظِيمَةٍ، وَتَخْطِيطٍ بَدِيعٍ، وَهِنْدَسَةٍ لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ إِلَى الْآنَ كَيْفَ كَانَتْ، يَحُولُونَ هَذِهِ الْجِبَالَ إِلَى بَيُوتٍ، وَلِذَا فَإِنْ قَوْلُهُ: ﴿بُيُوتًا﴾ مَنْصُوبَةٌ عَلَى الْحَالِ، كَمَا تَقُولُ: خِطُّ هَذَا الثَّوْبِ قَمِيصًا، أَيُّ: انْسَجَ حَالُ كَوْنِ نَسْجِكَ لَهُ قَمِيصًا، وَالْمَعْنَى: وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ حَالُ كَوْنِ نَحْتِكُمْ لَهَا بَيُوتًا. وَهِيَ مِنَ الْحَالِ الْمَقْدَّرَةِ، لِأَنَّ الْجِبَلَ لَا يَكُونُ بَيْتًا فِي حَالِ النَّحْتِ، وَقَدْ قِيلَ: كَانُوا يَسْكُنُونَ السَّهُولَ فِي الصَّيْفِ، وَالْجِبَالَ فِي الشِّتَاءِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَقَالَ: كَانُوا يَجْعَلُونَ الْجِبَالَ بَيُوتًا لِتَحْقِيقِ عِدَّةِ أَغْرَاضٍ: مِنْهَا التَّفَكُّهُ، وَتَنْوِيعِ الْأُمُكْنَةِ الَّتِي يَسْتَأْنِسُونَ فِيهَا، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ مَتَرَفُونَ مَتَرَفُهُونَ، وَمِنْهَا: الْأَمْنُ، أَيُّ: إِذَا هُوَ جَمْعُهَا مِنْ عَدُوٍّ آخَرَ، وَاحْتَا جَا إِلَى النِّزَاجِ إِلَى مَكَانٍ آمِنٍ لَا يُمْكِنُ لِلْعَدُوِّ الْوُصُولَ إِلَيْهِ سَالِمًا احْتَمَوْا بِبَيُوتِ الْجِبَالِ.

يَذَكِّرُ لَهُمْ صَالِحُ ﷺ أَسَاسًا جَدِيدًا مِنْ أَسَاسِ دَعْوَتِهِ يَقْنَعُهُمْ بِهِ بِصَدَقِهِ وَمَحَبَّتِهِ لَهُمْ وَإِشْفَاقِهِ عَلَيْهِمْ، فَبَعْدَ أَنْ ذَكَرَهُمْ بِالتَّارِيخِ يَذَكِّرُهُمْ هُنَا بِالْوَاقِعِ الَّذِي يَعِيشُونَهُ.

فقد منحهم الله ﷻ هذه القوة الجسدية والعقلية، ومكنهم ذلك من أن يتبوؤوا في الأرض، فيتخذوا من سهولها قصوراً، وينحتوا الجبال بيوتاً وفق دقة هندسية مدهشة باقية إلى يومنا، و«السُّهول» جَمْعُ سَهْلٍ، وَهُوَ الْمُسْتَوِي مِنَ الْأَرْضِ، وَضِدُّهُ الْجَبَلُ^(١)، وهو المرتفع الناشز في الأرض. والقصور البيوت الواسعة الحجرية الفارهة المحصنة بجران الجبل، فلا يحتاجون إلى جدار يصنعونها من عند أنفسهم، والتنوع بين البيوت والقصور يدل على مقدار رفاهيتهم من جهة. وعلى مقدار الاحتياطات الأمنية التي وضعوها لأنفسهم من جهة أخرى، ولذا ذكر لهم صالح ﷺ هذين الهدفين من تنويعهم في البناء، فقال: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرَهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩]، ﴿وَكَاْنُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢] فاتخذوا البيوت في الجبال للأمرين معاً: اللهو والترفيه والاستمتاع، والأمن في الوقت ذاته.

وهنا قد تسأل: فما الحكمة من إثبات ﴿مِنْ﴾ قبل كلمة ﴿الجبال﴾ في سورتي الحجر والشعراء مع ملاحظتنا أنها لم تُثَبِّتْ في سورة الأعراف؟

الجواب: يظهر أن التقييد الذي في سورتي الحجر والشعراء جعل إثبات ﴿مِنْ﴾ له وظيفته المهمة، فقد قيّد نحت الجبال في سورة الحجر بقوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾، وقيّد نحت الجبال في سورة الشعراء بقوله: ﴿فَرِهِينَ﴾ بينما لم يوجد أي من هذه القيدتين في سورة الأعراف: ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾، فهم يتخذون من الجبال بيوتاً حال كونهم آمنين أو فارحين، لكنهم يتخذون الجبال بيوتاً مطلقاً، ولو لغرض آخر غير هذين الغرضين.

ثم قال صالح ﷺ لقومه: ﴿فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٤]، فماذا يعني بذلك؟

الجواب:

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/٢٢٠).

الأساس الثامن: تذكيرهم بعجائب صنع الله ﷻ في النعم التي تحيط بهم، والنقم التي سمعوا بها، وببصرنا بذلك قوله: ﴿فَاذْكُرُواْ آلاءَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٤].

الكلمة: [١]: ﴿فَاذْكُرُواْ﴾: الفاء تدل على التعقيب والنتيجة على ما سبق، ويسميه العلماء التفرع، أي: إذا كنتم قد سمعتم أسس دعوتي التي ذكرتها لكم، فيترتب على ذلك أن تذكروا شيئاً مهماً نتيجة لما قلته لكم

وكلمة: (اذكروا): تعني: استحضار الشيء في الذاكرة، وعدم نسيانه، وترك الغفلة عنه، أي استحضروا آلاء الله ﷻ بقلوبكم وعقولكم، لتستفيدوا من ذلك.

الكلمتان: [٣-٢]: ﴿آلاءَ اللَّهِ﴾: سبق أنها تعني: عجائب صنع الله ﷻ، فيدخل فيها النعم، والنقم، وكل ما هو مستعظم من الثواب والعقاب.

وفعل: ﴿فَاذْكُرُواْ﴾ مُشْتَقٌّ مِنَ الْمَصْدَرِ، الَّذِي هُوَ بَضَمَ الدَّالِ، وَهُوَ التَّنْذِيرُ بِالْعَقْلِ وَالنَّظَرِ النَّفْسَانِي، وَتَذَكُّرُ الْأَلَاءِ يَبْعَثُ عَلَى الشُّكْرِ وَالطَّاعَةِ وَتَرْكِ الْفَسَادِ، فَلِذَلِكَ عَطَفَ تَعْنِيهِمْ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ عَلَى الْأَمْرِ بِذِكْرِ آلاءِ اللَّهِ ﷻ^(١).

واستدل بعضهم بهذه الآية على أن بناء القصور ليس بمنكر، وأن البناء الطايل غير مؤثر في نسك الناسكين؛ إذ محال أن يذكرهم آلاء الله في شيء بنيانه معصية، وأنه لو كان بناء القصور منكراً لكان داخلياً في الفساد لا في الآلاء^(٢).

وقد سبق لنا أن كلمة آلاء تعني العجائب التي وضعها الله ﷻ بقدرته سواء أكانت نعماً أم كانت نقماً، سواء كانت مما يراه الإنسان أو مما لا يراه.

وختم صالح ﷺ كلامه بالتحذير من الإفساد في الأرض، فقال: ﴿وَلَا تَعْتَوْاْ فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤]، فكيف يُثبت هذا التحذيرُ عظمتَ رسالات الأنبياء؟

ويأتي الجواب على ذلك في الأساس التاسع من الأسس التي جاء بها صالح ﷺ:

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/ ٢٢١).

(٢) نكت القرآن الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام (١/ ٤٣٣).

الأساس التاسع: تحذيرهم من صناعة الإفساد في الأرض، ويصرنا بذلك قوله: ﴿وَلَا تَعْتَوْا﴾ في **الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ** ﴿٧٤﴾ [الأعراف: ١٧٤].

فهو لم يحذّرهم من الإفساد فحسب، بل حذّرهم من صناعة الإفساد، ولا بد أن نسأل: كيف فهمنا ذلك من الآية؟

الجواب: لأنه قال: ﴿وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ﴿٧٤﴾، ولم يقل: ولا تفسدوا فحسب، فتعبيره **الْعَتَا** أقوى في هذا الموضع، وحتى يظهر لنا ذلك دعونا ننظر في كلمات هذا القبس القرآني:

الكلمة: [١]: ﴿تَعْتَوْا﴾ لأصلها ثلاثة أشكال:

عَتَى يَعْتِي، وَعَتِيَّ يَعْتِي، عَتِيًّا وَعَتِيَانًا، وَعَتَا يَعْتُو عَتَا، بِمَعْنَى أَفْسَدَ وَكَفَرَ وَتَكَبَّرَ، وَمِثْلُهُ مَقْلُوبُهُ: عَاتٍ يَعِيتُ عَيْثًا وَعَيْثَانًا، وَفِيهِ مَعْنَى الْإِسْرَافِ وَالتَّبَذِيرِ مَعَ الْإِفْسَادِ.

وَقَالَ الرَّاعِبُ رحمته الله: "الْعَيْثُ وَالْعَيْثُ يَتَقَارَبَانِ نَحْوُ: جَذَبَ وَجَبَذَ، إِلَّا أَنَّ الْعَيْثَ أَكْثَرُ مَا يُقَالُ فِي الْفُسَادِ الَّذِي يُدْرِكُ حِسًّا، وَالْعَيْثُ فِيمَا يُدْرِكُ حُكْمًا" ^(١). اهـ.

الكلمات: [٢-٤]: ﴿فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾:

فإذا كان معنى ﴿تَعْتَوْا﴾ أي تفسدوا، فكيف يكون معنى: ﴿مُفْسِدِينَ﴾ هل تكون الآية: ولا تفسدوا في الأرض مفسدين؟ لا شك أنه لها معنى آخر، فما هو؟

الجواب: يكون معنى: ﴿وَلَا تَعْتَوْا﴾: أي: لا تنشروا، ولا تصنعوا ما يسبب العثي حال كونكم مفسدين في الأرض، أي: لا تتحولوا إلى من يصنع الإجرام والفسق والمعاصي والظلم في الأرض، فتسرفوا في الإفساد، فكلمة: ﴿مُفْسِدِينَ﴾ ليست حالاً مؤكدة كما ذهب إليه بعض المفسرين، بل زادتنا هذا المعنى المبارك العظيم، وهو النهي عن نشر الإفساد في الأرض، والنهي عن صناعة الإفساد. وقد يقول قائل: إذا لم يصنعوا الإفساد أو لم يسرفوا فيه، فهل يجوز أن يُفسدوا فحسب، أو يفسدوا في أنفسهم دون أن يعثوا في الأرض مفسدين؟ أي: لو قال: لن يكون مفسداً فهل يجوز أن يكون فاسداً؟

(١) المفردات في غريب القرآن (ص: ٥٤٦).

الجواب: لا قطعاً، ولكن صالحاً عليه السلام يبين مقدار جرمهم في واقعهم، فكلامهم عن واقعهم.

بصيرة: انظروا الآن: كم من الجهات والمنظمات والأنظمة التي تصنع الإفساد في الأرض، كم من الغرف المظلمة التي تدير تدمير البلدان، ونهب ثروات الأوطان، وتحويل الإنسان إلى أسوأ من الحيوان بإلغاء مفهوم الأسرة، والحشمة والعفة، والتناسل، وانتهاك حقوق الأجنة باسم حرية الاختيار، والله المستعان.

وهنا تفرض علينا هذه الآية سؤالاً عظيماً: ﴿وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٧٤): أليست مهمة الأنبياء الدعوة إلى عبادة الله ﷻ، فلماذا يركزون أيضاً على ألا يفسد الناس في الأرض؟
الجواب: تبين لنا هذه الآية رسالة الأنبياء، فهم ما جاؤوا ليُلزموا الإنسان بأن يبقى ساجداً طوال وقته، ولا بأن يبقى راکعاً كل عمره، بل جاؤوا ليأمروا الخلق بعبادة ربهم ﷻ، والحفاظ على حياتهم وبيئتهم وأرضهم، واجتناب الإفساد في معاشهم، ونبد الغفلة عن معادهم.
فهذه الدعوة تحريضٌ شديدٌ على المحافظة على البيئة التي خلقها الله سبحانه لا لنفسه وإنما للإنسان ليستمتع بها، وفيها.

وتتعجب أن تجد قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٧٤) يبصّرنا بالسعة العظيمة في المحافظة على البيئة في هوائها، في ترابها، في القوانين التي تزكو بها الأرض وتنمو، في خضرتها، في قوانين الصيد الذي ينبغي أن يخضع للتوازن بين حاجات الإنسان ولهوه وبين استقرار التكاثر الحيواني والزراعي، فمن المحافظة على البيئة ومن ترك الإفساد في الأرض أن يحافظ الإنسان على هذه المخلوقات الموجودة في هذه البيئة، ويدخل في قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٧٤) بأن تنشئوا التحالفات التي يدمر بها بعضكم بعضاً
انظر لعظمة رسالة الأنبياء، فقد نهاهم صالح عليه السلام عن الانطلاق في الأرض بالفساد، اغتراراً بالقوة والتمكين، وأمامهم العبرة ماثلة في عاد الغابرين!.

ثم ينقلنا الله ﷻ إلى مشهد آخر، فيقول: ﴿قَالَ أَمْلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنْ ضَلُّوا مَرَّسًا مِنْ رَبِّهِ...﴾ [الأعراف ١٧٥].

فما المناسبة والاتصال بين هذه الآية وما قبلها؟

الجواب: هذا هو

المشهد الثالث: المملأ المستكبر المفسد يتحركون لإيقاف تأثير دعوة صالح عليه السلام [الأعراف:

٧٥-٧٧]:

هذا مشهد مكمل للمشهد السابق، ففي المشهد السابق نرى صالحًا عليه السلام وهو يخطب فيهم، ويتكلم معهم، ويحاورهم، ويدعوهم، ويقنعهم بأفضل الأساليب، وينوع في ذكر الأسس التي أمره الله جل جلاله أن يبلغهم إياها، إذ ذكر ثمانية أسس في الآيتين السابقتين: (٧٣، ٧٤)، وهذه الآية (٧٥) تظهر لنا ماذا صنع قومه، تصف لنا ردة فعلهم على دعوته، وكيف انقسموا، وردود الفعل المقابلة التي قابل كل واحد منهم الفريق الآخر، بعد هذا الإقناع العقلي والمادي والتاريخي والنفسي.

ويفاجئك هذا المشهد الذي تعرضه الآية: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٧٥]، وهنا ترى الإيجاز الجذاب الذي يكتنف التعبير القرآني، فإن هذه الآية تنبئك أن طائفة من قوم صالح آمنوا، وأبَّت طائفة؛ منعهم الاستكبار. وتعال ننظر في بصائر كلمات هذه الآية المباركة:

الكلمة: [١]: ﴿قَالَ﴾:

ما وجه الجمال القرآني الذي قدمته لنا كلمة: ﴿قَالَ﴾؟

الجواب: يتصدر المشهد منظر المستكبرين، وهم يرون أن صالحًا عليه السلام أثر تأثيرًا واضحًا على قومه، فسارعوا ليوقفوا أي تأثير لصالح عليه السلام على الإنسانية، وتقدم لنا كلمة: ﴿قَالَ﴾ صورة عظيمة لنشاط السيئين في المجتمع، فهي تبين أنهم لم يكتفوا بأن يحاوروا نبي الله صالحًا عليه السلام، بل انتقلوا للتأثير على أتباعه.

ما القراءات الواردة في هذه الكلمة؟ وهل يسهم ذلك في إضافة معاني جديدة تُفيد منها في فهم

النص القرآني؟

الجواب: في هذه الكلمة قراءتان تصوران مشهدين:

القراءة الأولى: قراءة الجمهور: ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ بدون واو، وهذه القراءة يصف الله جل جلاله بها الحركة

السريعة التي قام بها المملأ من المستكبرين ليمنعوا الناس من الاستمرار في اتباع صالح عليه السلام، فقال

الله ﷻ: ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾، ولم يقل: (وقال الملاء)، وإنما أتى بها دون واو عاطفة في قراءة الجمهور "جَزِيًّا عَلَى طَرِيقَةٍ أَمْثَالِهِ فِي حِكَايَةِ الْمُخَاوَرَاتِ" ^(١) كما يقول ابن عاشور رحمه الله، ولا أميل إلى أن هذه هي الحكمة الأصلية، بل يمكن أن نزيد معنى أوضح يظهر لنا من ذكر كلمة: ﴿قَالَ﴾ دون واو، وهو أنهم تحركوا سريعاً إلى الذين يؤمنون بصالح ﷺ، فصورت كلمة: ﴿قَالَ﴾ سرعة تحرك المستكبرين ليمنعوا الناس من أن يتبعوا صالحاً ﷺ، وليزلزلا مَنْ اتبعه، وليقللوا تأثيره قدر الإمكان، وليس المقصود بأنهم تكلموا بذلك على الفور بل المقصود الاهتمام بأنهم تكلموا مع المؤمنين المستضعفين ليصدوهم عن إيمانهم.

القراءة الثانية: قرأ بها ابنُ عامرٍ رحمه الله: ﴿وَقَالَ﴾: بِحَرْفِ الْعُطْفِ، وهو الواو ^(٢)، وعندما ننظر في تاريخ المصحف الشامي الذي بعثه عثمان رضي الله عنه إلى الشام تجد أن الواو ثابتة فيه ^(٣)، وهي تفيدنا معنى إضافياً، وصورة إضافية، هي: أن هذا مشهدٌ حدث في قصة صالح ﷺ ضمن مشاهد متعددة في تلك القصة، وهذا المشهد وقع بعد مدة مناسبة من بداية دعوة صالح ﷺ، ولم يحدث مباشرة بعد كلامه، وهذه الفكرة صحيحة جداً، فالسياق يظهر لنا أن كلام المستكبرين مع المؤمنين لم يحدث إلا بعد أن اجتهد صالح ﷺ في بيان دعوته، فأمن به بعضهم، وكفر بعضهم، وخاطب المستكبرون الكافرون المؤمنين المستضعفين بهذا الخطاب الذي سيأتي ذكره في الآية، فيكون العطف على كَلَامِ مُقَدَّرٍ، والتقدير: فأمنت طائفة بصالح ﷺ وكفرت طائفة بسبب استكبارهم، وقال الملاء الذين استكبروا من قومه فكفروا ولم يسلموا للذين استضعفوا لمن آمن منهم: أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه.

الكلمة: [٢]: ﴿الْمَلَأُ﴾: تتكرر كلمة ﴿الْمَلَأُ﴾ في هذه السُورَة لتبصّرنا بأنهم الذين يتصدرون لقيادة المشهد في طريق الخير أو في طريق الشر، والملاء كما سبق هم أصحاب النفوذ والتأثير الكبير على الناس الذين يملؤون العين قوةً وجاذبيةً وتصدراً وكلاماً ومنطقاً، وقيادةً لغيرهم، فتحركوا هنا في طريق السوء.

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/ ٢٢٤).

(٢) النشر في القراءات العشر (٢/ ٢٧٠).

(٣) المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار للداني، (ص ١٠٧).

ولكن مَن هؤلاء المَلَأ الذين تحركوا ضد دعوة الخير التي جاء بها صالحٌ عليه السلام؟

هنا تأتي بقية كلمات الآية لتصف حقيقتهم:

الكلمتان: [٣-٤]: ﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾:

ما وجه الجمال البياني في وصف المَلَأ بهاتين الكلمتين: ﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾؟

الجواب: كلمة: ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يحدد نوع المَلَأ، وكلمة ﴿اسْتَكْبَرُوا﴾ فعل ماضٍ يصف عمل هؤلاء المَلَأ، فهم ﴿اسْتَكْبَرُوا﴾ أي: طلبوا أن يكونوا أكبر من حجمهم لا على سبيل الطموح الحق كما يطلب المذنب الصفح مثلاً، أو يطلب العبد المسكين الفردوس الأعلى من الجنة، فهذا طلب مرغوب لمنزلة عليا يتفضل الله ﷻ بها على عباده، وليس استكباراً، فكيف يطلب هؤلاء المَلَأ أن يكونوا أكبر من حجمهم استكباراً دون وجه حق؟

فوصف الله ﷻ المجرمين بالاستكبار؛ لأن الاستكبار وصف مذموم في حق المخلوق، أي: طلبوا الكِبَر، فهم يطلبون ما هو فوق حجمهم، والاستكبار لا بد أن يصحبه الغرور ورد الحق والمستكبر اعتاد على أن يفعل ما يريد دون انضباط أو بحثٍ عن صلاح أو إصلاح، فإن دعوته إلى الخير لا يتقبلها ذلك التقبل؛ فالكبر حالة نفسية موجودة في نفسه، ولا فرق في ذلك بين الغني والفقير، والمستكبر يأبى اتباع الحق بسبب ظنه أنه فوق أي استقامة، وفوق أي إنسان يدعوه.

بصيرة: قد يكون الفقير متكبراً، فالاستكبار ليس خاصاً بذوي الأموال أو المناصب، لكن الغنى والمنصب والجاه قد تؤز أصحابها أژاً لتنتقل بهم من الكبر الكامن في النفوس إلى التباهي بالاستكبار أمام الناس، والعاقل من يجتنب هذه الكبيرة سواءً أكان فقيراً أم غنياً؛ لأنّها من أسباب الهلاك في الدنيا والآخرة.

يصف لنا النبي ﷺ أمرين عمليين لهذا الاستكبار المدمر، فيقول: «الكبر بטר الحق وغمط الناس»^(١).

(١) مسلم (١٤٧-٩١).

و«بطر الحق»: هو دفعه وإنكاره ترفعاً وتجبراً، و«غمط الناس» معناه: احتقارهم وعدم إنزالهم منازلهم كما فعل الملأ المستكبرون، وعرف الإمام الغزالي رحمه الله الكبر بأنه: "استعظام النفس، ورؤية قدرها فوق قدر الغير" ^(١).

الكلمتان: [٦-٥]: ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾:

كيف ظهر جمال هذا التقييد ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾، وكيف ظهرت قوة الكلمة القرآنية هنا؟

الجواب: تحقق هاتان الكلمتان: ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾ صورة عظيمة في سيرة نبي الله صالح عليه السلام، حيث تصور لنا انتماء المستكبرين المعارضين لصالح عليه السلام، فقال: ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾، وليسوا من الأغراب، هذا يدل على شدة الألم الذي يجده، وعلى قوة الصد الذي يواجهه، كما قال طرفة بن العبد:

وظلمُ ذوي القُرْبَى أشدُّ مَضَاضَةً عَلَى الْمَرْءِ مِنْ وَقَعِ الْحُسَامُ الْمُهَنَّدِ ^(٢)

فإن كان الذي يعاديه من قومه فمن باب أولى أن يرد عليه الغريب ويكذِّبه، وإذا كان الذي يتهمة ينتهي إلى قومه، فمن باب أولى ألا يصدِّقه الغريب.

هنا تعلم لماذا أنزل الله تعالى سورة المسد، وسعى فيها أبا لهب مبيِّناً مصيره البائس، ومظهراً لللعنة التي تطارده وزوجته، ولم يحصل هذا لأحد من أعداء النبي صلى الله عليه وسلم مثل أبي جهل وأمية بن خلف.

لقد كان موقف أبي لهب خطيراً جداً مؤلماً جداً، وفتح أسوأ بابٍ لمنع الناس من أن يفكروا فيما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم فضلاً عن أن يدخلوا في دينه، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ

الْأَقْرَبِينَ﴾ ^(٣) [الشعراء: ٢١٤]، صَعِدَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم عَلَى الصَّفَا، فَجَعَلَ يُنَادِي: «يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ - لِبَطُونٍ قُرَيْشٍ - حَتَّى اجْتَمَعُوا فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَفُرَيْشٌ، فَقَالَ: «أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟» قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا، قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ:

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٥٣).

(٢) ديوان طرفة بن العبد (ص: ٨).

تَبَّ لَكَ سَائِرُ الْيَوْمِ، أَلَيْذَا جَمَعْتُنَا؟ فَتَزَلْتُ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝﴾ [المسد: ٢٠، ١].^(١)

السلطان العادل ودفع أذى المستكبرين عن المظلومين:

فأول ظلم يتعرض له النبي ﷺ من الكفار، وأول من جهر بعداوة النبي ﷺ، وصار مشهوراً بارزاً في ذلك يقتدي به المجرمون، ويتابعه المترددون هو عمه أبو لهب، وكذلك وجد أصحاب النبي ﷺ من كفار مكة إزاء عظيمًا، واستدلوا على النجاشي ليعيد معهم الصحابة رضي الله عنهم بأنهم قومهم وأدري الناس بهم، فعن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج النبي ﷺ قالت: لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ جَاوَرْنَا بِهَا خَيْرَ جَارٍ النَّجَّاشِيَّ، أَمِنَّا عَلَى دِينِنَا، وَعَبَدْنَا اللَّهَ تَعَالَى، لَا نُؤْذِي، وَلَا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُهُ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ قُرَيْشًا اتَّخَمَرُوا أَنْ يَبْعُثُوا إِلَى النَّجَّاشِيِّ فِينَا رَجُلَيْنِ جَلْدَيْنِ، وَأَنْ يُهْدُوا لِلنَّجَّاشِيِّ هَدَايَا مِمَّا يُسْتَطَرَفُ مِنْ مَتَاعِ مَكَّةَ، وَكَانَ مِنْ أَعْجَبِ مَا يَأْتِيهِ مِنْهَا إِلَيْهِ الْأَدَمُ، فَجَمَعُوا لَهُ أَدَمًا كَثِيرًا - يعني جلودا كثيرة -، وَلَمْ يَتْرُكُوا مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطَرِيقًا إِلَّا أَهْدَوْا لَهُ هَدِيَّةً، ثُمَّ بَعَثُوا بِذَلِكَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمُخْزُومِيَّ، وَعَمَرُوهُ بْنُ الْعَاصِي بْنِ وَائِلِ السَّهْمِيِّ، وَأَمَرُوهُمَا أَمْرَهُمْ، وَقَالُوا لَهُمَا: ادْفَعَا إِلَى كُلِّ بَطَرِيقٍ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ تُكَلِّمُوا النَّجَّاشِيَّ فِيهِمْ، ثُمَّ قَدِمُوا لِلنَّجَّاشِيِّ هَدَايَاهُ، ثُمَّ سَلَوْهُ أَنْ يُسَلِّمَهُمْ إِلَيْكُمْ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَهُمْ.

قَالَتْ: فَخَرَجَا، فَقَدِمَا عَلَى النَّجَّاشِيِّ، وَنَحْنُ عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ وَخَيْرِ جَارٍ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطَرِيقٍ إِلَّا دَفَعَا إِلَيْهِ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَا النَّجَّاشِيَّ، ثُمَّ قَالَا: لِكُلِّ بَطَرِيقٍ مِنْهُمْ: إِنَّهُ قَدْ صَبَا إِلَى بَلَدِ الْمَلِكِ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ، فَارْقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ، وَجَاؤُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتُمْ، وَقَدْ بَعَثْنَا إِلَى الْمَلِكِ فِيهِمْ أَشْرَافَ قَوْمِهِمْ لِنَرِّدَهُمْ إِلَيْهِمْ، فَإِذَا كَلَّمْنَا الْمَلِكَ فِيهِمْ، فَأَشِيرُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يُسَلِّمَهُمْ إِلَيْنَا وَلَا يُكَلِّمَهُمْ، فَإِنَّ قَوْمَهُمْ أَعْلَىٰ بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ. فَقَالُوا لَهُمَا: نَعَمْ. ثُمَّ إِنَّهُمَا قَرَّبَا هَدَايَاهُمْ إِلَى النَّجَّاشِيِّ، فَقَبِلَهَا مِنْهُمَا، ثُمَّ كَلَّمَاهُ فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّهُ قَدْ صَبَا إِلَى بَلَدِكَ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ، فَارْقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ، وَجَاؤُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ لَا نَعْرِفُهُ

(١) البخاري (٤٧٧٠).

نَحْنُ وَلَا أَنْتَ، وَقَدْ بَعَثْنَا إِلَيْكَ فِيهِمْ أَشْرَافَ قَوْمِهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَعْمَامِهِمْ وَعَسَائِرِهِمْ لِيُرَدَّهُمْ إِلَيْهِمْ، فَهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ وَعَانَبُوهُمْ فِيهِ...
فَقَالَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ: صَدَقُوا أَيُّهَا الْمَلِكُ، قَوْمُهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ، فَاسْلِمَهُمْ إِلَيْهِمَا فَلْيُرَدَّا لَهُمْ إِلَى بِلَادِهِمْ وَقَوْمِهِمْ^(١).

وبين أبو طالب شدة عداوة الأقارب لذوي قرابتهم حين يفجرون في الخصومة، فيقول في الوفد الذي أرسلته قريش للنجاشي لاسترجاع المهاجرين، ويشيد بما يتمتع به النجاشي من سجايا:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ فِي النَّأْيِ جَعَفَرُ وَعَمَرُو وَأَعْدَاءُ الْعَدُوِّ الْأَقَارِبُ
وَهَلْ نَالَ أَفْعَالُ النَّجَاشِيِّ جَعَفَرًا وَأَصْحَابَهُ أَوْ عَاقَ ذَلِكَ شَاغِبُ
تَعْلَمُ، -أَبَيْتَ اللَّعْنَ- أَنَّكَ مَا جِدْتُ كَرِيمٌ فَلَا يَشْقَى لَدَيْكَ الْمُجَانِبُ
تَعْلَمُ بِأَنَّ اللَّهَ زَادَكَ بَسْطَةً وَأَسْبَابَ خَيْرٍ كُلِّهَا بِكَ لَا زُبُ
وَأَنَّكَ فَيَضُّ ذُو سِجَالٍ غَزِيرَةً يَنَالُ الْأَعَادِي نَفْعَهَا وَالْأَقَارِبُ^(٢)

فإن قلت: وما الذي تصوره أيضًا هذه العبارة القرآنية: ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾ من بصائر نهدي بها في سبيل الدعوة إلى الله ﷻ؟

الجواب: هذه العبارة تصور مقدار الشدة التي وجدها صالح عليه السلام: إذ عارضه من يفترض بهم أن يقوموا له، ويقوموا معه، إذا هذا يدل على شدة الابتلاء والألم الذي يجده صالح عليه السلام، ففيه مواساة لمن يأتي بعده من الأنبياء ومواساة لمن يأتي بعده من الصالحين المصلحين عندما يجدون مثل هذا الأذى، فعبرة: ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾ لها دور وظيفي قوي، وإلا قد يقول قائل: هو أصلاً أرسل إلى قومه ما أرسل إلى آخرين، نقول: ولكن كلمة من قومه تذكر بشدة الألم الذي يجده، وشدة الجهد الذي يبذله في إقناع هؤلاء الذين ينتسبون إلى قومه.

(١) الحديث بطوله رواه أحمد في المسند (١٧٤٠)، وحسن إسناده محققو المسند.

(٢) سيرة ابن هشام (٢٨٨/١).

وقد تسأل: لماذا وصف الله ﷻ المجرمين بالاستكبار، ووصف المؤمنين بالاستضعاف في قوله ﷻ: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ [الأعراف: ۷۵]؟ وهل الاستضعاف وصف مدح أم ذم؟

سبق وجه جمال الوصف القرآني للملأ بأنهم: ﴿اسْتَكْبَرُوا﴾، أما وصف المؤمنين بالاستضعاف، فالسين والتاء في: ﴿اسْتُضْعِفُوا﴾ للطلب أي: طلب غيرهم أن يجعلوهم ضعفاء، احتقاراً لهم إما لفقرهم، وإما لضعف نسبهم أمام المتعاليين في الأنساب، وإما لاحتقارهم لقلة عددهم أو لسبب من الأسباب، والاستضعاف لَيْسَ فِعْلاً صَادِراً عَنِ الْمُسْتَضْعَفِينَ بل هو صادر عن المستكبرين، ولذا فوصف أحده به ليس وصف ذم، بل قد يكون وصف مدح؛ لأن أصحابه سارعوا إلى ما لم يسارع إليه الكبراء والأغنياء، والأقوياء، فالذم للمستكبرين، والمدح للمستضعفين، وليس المدح لهم مدحاً لضعفهم، ف«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف». كما جاء في الحديث^(۱).

قوم صالح ﷺ ملأ مستكبرون ومستضعفون صادقون:

وهنا نسال: ما الذي يبصرنا به قوله ﷺ: ﴿لَمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ؟﴾

الجواب: هذه الكلمات الثلاث: ﴿لَمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ تصور بإيجاز مدهش أن قوم صالح ﷺ انقسموا إلى أربعة أصناف:

الصنف الأول: الملأ المستكبرون الذين لم يؤمنوا، وهم نشطون جداً في صد الناس عن صالح ﷺ.

الصنف الثاني: الملأ الذين آمنوا بصالح ﷺ، فهؤلاء لا ينتمون للمستضعفين، ولكنهم نبذوا الاستكبار جانباً، واتبعوا الحق، فمن الأشراف الذين آمنوا من الملأ جُنْدَع بن عمرو كما في الرواية التاريخية، ومنهم في عهد النبي ﷺ أبو بكر وعمر بن الخطاب ؓ، فقد قال عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ؓ: «لَمَّا أَسْلَمَ عُمَرُ ؓ اجْتَمَعَ النَّاسُ عِنْدَ دَارِهِ، وَقَالُوا: صَبَا عُمَرُ وَأَنَا غُلَامٌ، فَوْقَ ظَهْرِ بَيْتِي، فَجَاءَ رَجُلٌ

(۱) ينظر: صحيح مسلم: (۳۴-۲۶۶۴).

عَلَيْهِ قَبَاءٌ مِّنْ دِيْبَاجٍ، فَقَالَ: قَدْ صَبَا عُمُرُ فَمَا ذَاكَ، فَأَنَا لَهُ جَارٌ، قَالَ: فَرَأَيْتُ النَّاسَ تَصَدَّعُوا عَنْهُ فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ»^(۱).

الصنف الثالث: المستضعفون المستكبرون الذين لم يؤمنوا، لكن الله ﷻ في سورة الأعراف يخبرنا أن القوى المستكبرة وجهت كلامها للمؤمنين من المستضعفين ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضِعُّوْا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾، وهنا تجد الآية تنبئك بأن عددًا من المستضعفين تبعوا صالحًا ﷺ على الرغم من اضطهاد المستكبرين، كما تجدها تنبئك أن ثلة من المستضعفين استمروا على تبعيتهم للمستكبرين، ولم يؤمنوا، فالله ﷻ قال: ﴿لِمَنْ ءَامَنَ﴾، وهذا بدل اشتغال من (الذين استضعفوا) أي: قالوا للمؤمنين المستضعفين، ومعنى ذلك أن هناك جمعًا من المستضعفين لم يؤمنوا بل اختاروا جانب المستكبرين. فقد يكون المستضعف مستكبرًا، ويحدثنا النبي ﷺ عن هذا الصنف، فيقول لمن سألته «وَمَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَشْنُوهُمْ اللَّهُ ﷻ؟ قَالَ: «التَّاجِرُ الْخَلَّافُ، أَوْ قَالَ: الْبَائِعُ الْخَلَّافُ، وَالْبَخِيلُ الْمُتَّانُ، وَالْفَقِيرُ الْمُخْتَالُ»^(۲)، وقال ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ ﷻ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْإِمَامُ الْكَذَّابُ، وَالشَّيْخُ الرَّانِي، وَالْعَائِلُ الْمَرْهُو»^(۳).

الصنف الرابع: المستضعفون الذين آمنوا، فاملأ المستكبرون لم يخاطبوا المؤمنين من المملأ، بل خاطبوا المستضعفين، لأجل أن يصدوهم عن الاستمرار في اتباع الدين.

وفي حياة النبي ﷺ ما يبين ذلك، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «أَوَّلُ مَنْ أَظْهَرَ إِسْلَامَهُ سَبْعَةٌ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَبُو بَكْرٍ، وَعَمَّارٌ، وَأُمُّهُ سُمَيَّةُ، وَصُهَيْبٌ، وَبِلَالٌ، وَالْمِقْدَادُ ﷺ، فَأَمَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَمَنَعَهُ اللَّهُ بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ ﷺ، فَمَنَعَهُ اللَّهُ بِقَوْمِهِ، وَأَمَّا سَائِرُهُمْ فَأَخَذَهُمُ الْمُشْرِكُونَ، فَأَلْبَسُوهُمْ أَذْرَاعَ الْحَدِيدِ، وَصَهَرُوهُمْ فِي الشَّمْسِ، فَمَا مِنْهُمْ إِنْسَانٌ إِلَّا وَقَدْ وَاتَاهُمْ عَلَى مَا أَرَادُوا، إِلَّا بِلَالٌ، فَإِنَّهُ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي اللَّهِ، وَهَانَ عَلَى قَوْمِهِ، فَأَعْطَوْهُ الْوِلْدَانَ، وَأَخَذُوا يَطْوِفُونَ بِهِ شِعَابَ مَكَّةَ، وَهُوَ يَقُولُ: أَحَدٌ، أَحَدٌ»^(۴).

(۱) البخاري (۳۸۶۵).

(۲) أحمد (۲۱۳۴۰)، وصححه محققو المسند، والألباني كما في صحيح الجامع الصغير (۳۰۷۴).

(۳) أحمد (۹۵۹۴)، وقال محققو المسند: "إسناده صحيح، رجاله ثقات".

(۴) أحمد (۳۸۳۲)، وصححه الذهبي، كما ذكره ابن الملقن في مختصر تلخيص الذهبي (۶۸۱)، وحسن إسناده محققو المسند.

فأبو بكر من المألأ المؤمنين، والخمسة من المستضعفين المؤمنين ﷺ.

وهنا نسال: هل يصح الاستدلال بهذه الآية على فضيلة الفقر كما قال الرازي ﷺ؟

الجواب: بالغ الرازي ﷺ فذكر بأن هذه الآية من أعظم ما يحتج به في بيان أن الفقر خير من الغنى؛ وحجته في أن الفقر خير من الغنى أن الاستكبار إنما يتولد من كثرة المال والجاه، والاستضعاف إنما يحصل من قلتهما، فبين ﷺ أن كثرة المال والجاه حملهم على التمرّد، والإباء، والإنكار، والكفر. وقلة المال والجاه حملهم على الإيمان، والتّصديق، والإنقياد، وذلك يدل على أن الفقر خير من الغنى^(١).

ولا يظهر أن ما قرره صحيح:

أما أولاً: فيظهر أن الحماسة تملكته ﷺ هنا حتى خرج عن إطار الفهم الذي ينبغي أن يفهمه لكلمتي: ﴿أَسْتَكْبَرُوا﴾ و﴿أَسْتَضْعَفُوا﴾، فكلمة: ﴿أَسْتَضْعَفُوا﴾ تصور لنا أن قومهم استضعفوه، والاستضعاف لا يكون بالضرورة للفقر، ولكن الفقر أحد أسبابه، وقد يُستضعف الإنسان الغني أو صاحب الجاه كما حدث لعمر وعثمان ﷺ في الحديبية؛ فإن النبي ﷺ أراد أن يرسل عمر بن الخطاب ﷺ لمفاوضة قريش، ثم عدل عنه إلى عثمان بن عفان ﷺ عندما بين عمر أن قريشاً ربما قتلوه، وأن بني عدي قومه لا يحمونه، فذهب عثمان ﷺ، فأجاره أبان بن سعيد بن العاص حتى أبلغهم رسالة النبي ﷺ.

فعمر ﷺ من وجهاء قريش، وأقويائهم، ولكنه خاف أن يُستضعف، وعثمان ﷺ من أغنيائهم، ولكنه احتاج إلى من يجيره، فالاستضعاف لا يكون للفقراء بالضرورة كما أن الاستكبار لا يكون بسبب الغنى أو الجاه أو القوة أو الجمال بالضرورة أيضاً، فقد يكون الفقير مستكبراً، فقد قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُرَكِّبُهُمْ - قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ: وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ - وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ^(٢)»، والعائل هو الفقير.

(١) انظر: تفسير الرازي (١٤/٣٠٧).

(٢) مسلم (١٧٢).

فلاستكبار حالة نفسية، لا تختص بالفقير والغني، ولكن وجود النعمة الزائدة قد يحفزها للظهور.

وأما ثانياً: لا يظهر في الآية أدنى وجه يؤيد ما ذكره، فالله ﷻ ذكر الفريقين ووصفهم وصفاً واقعياً يبين حالهم، فالكفار كفروا بسبب استكبارهم لا بسبب غناهم، والمستضعفون استضعفوا بسبب إيمانهم لا بسبب فقرهم، كما تذكر مثلاً: فريق آباء ظالمين أمام فريق يتامى مظلومين، فهل الوصف باليتم مدح أم الوصف بالأبوة ظلم.. أنت تتحدث عن الواقع فحسب، ولكن لاحظ كيف جاءت الآية:

في جانب الكفار لم يذكر الله ﷻ وصف الكفر، بل ذكر الاستكبار ليبين سبب الكفر، والاستكبار مذموم.

أما في جانب المؤمنين فذكر الصفتين معاً: الاستضعاف، والإيمان: ﴿لِّلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ فليس المستضعف ممدوحاً لأنه مستضعف بل لأنه مؤمن، وقد ثبت على الرغم من استضعافه، فلا علاقة للآية بدم الغنى ومدح الفقر، والصحيح أن الغني الشاكر بمنزلة الفقير الصابر، ولكن الغني الذي جعل غناه مطية لآخرته ربما ارتفعت درجته بسبب نفعه المتعدي، كما قال النبي ﷺ: «أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ»^(١).

والاستضعاف لا يمدح صاحبه لأنه مستضعف، بل لأنه ثبت على الإسلام على الرغم من استضعافه كما يمدح الغني لأنه ثبت على الإسلام على الرغم من غناه، وقد أمرنا الله ﷻ بالضرب في الأرض لنبتغي من فضله ﷻ فقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۚ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، ولذا قال النبي ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ»^(٢)، بل قال: «وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى»^(٣).

(١) المعجم الأوسط للطبراني (٦٠٢٦)، قال الألباني: "حسن لغيره". صحيح الترغيب والترهيب: (٢٦٢٣).

(٢) مسلم (٢٦٦٤-٣٤).

(٣) البخاري (١٣٦١)، ومسلم (١٠٣٤).

بصيرة: الفريق الغني الحاكم مذموم بسبب استكباره واستضعافه لغيره لا بسبب غناه وثرائه وحكمه، والفريق المستضعف ممدوح بسبب ثباته وليس لأنه جعل نفسه ضعيفاً، بل استضعفه غيره.

المستكبرون استضعفوا المؤمنین، لكننا نلاحظ أن الله ﷻ بنى الفعل: ﴿اسْتَضْعِفُوا﴾ لغير فاعل، ولم يقل: قال المملأ الذين استكبروا للذين استضعفهم رؤساء الكفار واستذلوهم.. لماذا بناه لغير فاعل؟

الجواب: لتتسع عقولنا، وتنمو مداركنا وأفكارنا فنرى التركيز في الآية على المؤمنین وهم يُستضعفون بغض النظر عن استضعفهم، ولنرى الصورة الحقيقية للواقع المؤلم، فالمؤمنون يستضعفهم المستكبرون من جهة، ولكن الذي يُنقِذ ذلك الاستضعاف المستضعفون الذين لم يؤمنوا، فيكونون عيوناً وجواسيس، يتقربون بدماء أصحابهم وأعراضهم وأجسادهم، فما أكثر ما كان المستضعفون أتباع المستكبرين أدوات للمستكبرين ليستضعفوا غيرهم! لأنهم يتقربون إلى المملأ بهذا، فاختاروا أن يتبعوا الباطل، ويساعدوا المستكبرين في ظلم المؤمنین.

هذا يجعلنا نفكر في البديل في قوله: ﴿لِمَنْ عَآمَنْ﴾ ما نوعه؟ ولماذا أطنب وفصّل في الكلام فجاء بالبديل، وكان يمكن أن يوجز فيقول: قال المستكبرون للمؤمنین؟
والبديل هنا بدل بعض من كل؛ لأنه: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾، فهل قالوا ذلك لجميع المستضعفين؟

جاء قوله جل مجده: ﴿لِمَنْ عَآمَنْ مِنْهُمْ﴾ محدداً للمقصودين، فهذا بدل بعض من كل^(١)، ولماذا جاء بالبديل، ولم يقل: قال المستكبرون للمستضعفين، والبديل كما يقول البقاعي رحمته الله: "أَوْقَعَ فِي

(١) وهو قول الزمخشري في الكشاف (١٢٣/٢)، وفي الدر المصون (٥/٣٦٥): «قوله: ﴿لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ بدلٌ من «الذين اسْتُضْعِفُوا» بإعادة العامل، وفيه وجهان أحدهما: أنه بدلٌ كلٍ من كلٍ إن عاد الضمير في «منهم» على قومه، ويكون المستضعفون مؤمنين فقط. كأنه قيل: قال المستكبرون للمؤمنين من قوم صالح. والثاني: أنه بدلٌ بعضٍ من كلٍ إن عاد الضمير على المستضعفين، ويكون المستضعفون ضربين: مؤمنين وكافرين، كأنه قيل: / قال المستكبرون للمؤمنين من الضعفاء دون الكافرين من الضعفاء».

النَّفْسِ، وَأَزَوَّعَ لِلْجَنَانِ مِنَ الْبَيَانِ فِي أَوَّلِ وَهْلَةٍ^(١)، أي: وجَّه المستكبرون حوارهم للمؤمنين المستضعفين، وأعرضوا عن الحوار مع الملأ المؤمنين؛ لأنهم ذوو جاهٍ ومكانة، وأعرضوا عن المستضعفين الكافرين، وذلك يعني: أنه وجد مؤمنون من أصحاب النفوذ لكن المستكبرين آثروا أن يوجهوا خطابهم للمستضعفين دون أصحاب الجاه والمكانة لأنهم الأغلب، ولظنهم أن تأثيرهم عليهم أكبر، ويبدو أن هذه الصورة هي الواقعة حينها؛ لأن الله ﷻ حكى أن قادة المفسدين من قوم صالح كانوا يخشون بعض أقارب صالح، ولذا لما تأمروا عليه وضعوا اعتبارًا حقيقيًا لأقاربه، ونصرائه الأقوياء ممن دعوهم بأوليائه، فقالوا: ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَدِّقُونَ﴾ [النمل: ٤٩].

فالبديل هنا بدل بعض من كل، وبعضهم قالوا: يمكن أن يكون البديل بدل اشتغال^(٢)، ويكون التقدير: (قال الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن من قومه)، ومعنى ذلك: أن جميع أتباع صالح ﷺ صاروا مستضعفين نظرًا لحملة الاضطهاد التي وجهوها لجميع أتباع صالح ﷺ، ويظهر لي أن الصورة الأولى أقوى، وهي تخبرنا بأن المستضعفين كانوا مؤمنين وكافرين، وأنه يوجد من الملأ من كانوا مؤمنين، وأن أتباع صالح ﷺ كانوا صنفين باعتبار مركزهم الاجتماعي والمالي:

الصنف الأول: فقراء من الناحية المالية مستضعفون من الناحية الاجتماعية.

الصنف الثاني: أقوياء من الناحية المالية والاجتماعية.

فجاء بالبديل ليصور لنا موقف المستكبرين وقد استهدفوا الحلقة الأضعف من الناحية المالية والاجتماعية ليكون التأثير عليهم أكبر، فتركوا المؤمنين الأقوياء من الناحية المالية والاجتماعية لأنهم لا يستطيعون التأثير عليهم، ولأن الفقراء هم الأكثر، فالبديل مقصود هنا ليبين لنا أن الخطاب موجَّه إلى صنف مخصوص من أتباع صالح ﷺ، وأظني أستطيع الجزم بأن هناك صورة أخرى في الآية، فالمستكبرون خاطبوا الفئة الأضعف من المؤمنين في البداية ثم جرَّأهم قوتهم واستكبارهم ليستضعفوا الفئة القوية من أتباع صالح ﷺ، فأصبح جميع أتباع صالح ﷺ مستضعفين.

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٤٤٦/٧).

(٢) وهو لأبي البقاء، نقله عنه السمين الحلبي في الدر المصون (٥١١/٥).

ولكن يثور هنا سؤال: لماذا يحاور المملأ المستكبرون المؤمنين المستضعفين وهم يستطيعون أن يضطهدوهم ويعذبوهم بدلاً من الحوار؟
الجواب: سبحانه الله!

تتعجب من الفرق بين الجاهلية الأولى والجاهلية الأخرى، الجاهلية الأولى تجد أن المستكبرين والمتجبرين والمعتدين يضعون هامشاً أو مساحة للحوار، فلا يأخذون الجميع للسجون والمعتقلات، ولا يحاولون إبادة الجميع مباشرة، ولا يكتمون صوت الحق في كل مكان، ويمنعون قوله بصورة شاملة، ويظهر في قصة ثمود مع نبيهم صالح عليه السلام أن المملأ المستكبرين كانوا في البداية أطف وأكثر تأنيلاً في التعامل مع صالح عليه السلام ومع المؤمنين من المستضعفين، فلم يُغلظوا له القول كما أغلظت قوم نوح حينما قالوا مثلاً: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْوُحَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ۝﴾، فَقَدْ: ﴿قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝﴾ [هود: ٦٢]^(١) فأنشؤوا قنوات حوار بينهم وبين صالح عليه السلام، وربما كان ذلك لمكانته، وربما لمكانة أقربائه وقوتهم، وربما لتكاثر أتباعه، وربما لبروز بيناته، وربما لمعرفةهم القريبة بما حل به، وليس الأمر لما ذكره ابن عاشور رحمه الله من التطور الاجتماعي البشري نحو العقل والائزان، فقد قال: "فَقَدْ أَشْعَرَتْ مُجَادَلَتُهُمْ صَالِحًا عليه السلام فِي أَمْرِ الدِّينِ عَلَى أَنَّ التَّعَقُّلَ فِي الْمُجَادَلَةِ أَخَذَ يَدُبُّ فِي نَفُوسِ الْبَشَرِ -يعني الذين كانوا من قبل كانوا همجيين لا يوجد عندهم تعقل، وهؤلاء عندهم تعقل- وَأَنَّ غُلُوءَهُمْ فِي الْمُكَابَرَةِ أَخَذَتْ تَقْصُرُ، وَأَنَّ قَنَاءَهُ بِأَسْهَمِ ابْتَدَأَتْ تَلِينُ، لِلْفَرْقِ الْوَاضِحِ بَيْنَ جَوَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَقَوْمِ هُودٍ، وَبَيْنَ جَوَابِ قَوْمِ صَالِحٍ"^(٢).

إذ الأمر بالعكس عندما نقارن بين الجاهلية الأولى والجاهلية الأخرى، سنجد أن التطور الاجتماعي البشري يجعل المتأخرين من البشر أشد إجرأً واستكباراً واضطهاداً للمؤمنين، وابن عاشور رحمه الله نظر إلى جزئية معينة من القصة دون النظر إلى مشاهد القصص التي وردت في السور المختلفة مثل قصة فرعون، فقد كان بعد ثمود، وكان أشد إجرأً، وذلك لأن المجرمين والمسرفين والظالمين

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/٢١٦).

(٢) التحرير والتنوير (٨-ب/٢١٧).

يَتَّسِمُونَ بطبيعة عدوانية طاغية لا يغيرها الزمان، وها نحن أولاء نرى في عصرنا ميل البشر نحو الطبيعة العدوانية الهائلة ولكنها مغلفة في ثوب السعي نحو السلام وحقوق الإنسان كما قال البردوني^(١):

أَذْهَى مِنَ الْجَهْلِ عِلْمٌ يَطْمَئِنُّ إِلَى أَنْصَافِ نَاسٍ طَعَوْا بِالْعِلْمِ وَاعْتَصَبُوا
قَالُوا: هُمُ الْبَشَرُ الْأَرْقَى وَمَا أَكَلُوا شَيْئًا كَمَا أَكَلُوا الْإِنْسَانُ أَوْ شَرِبُوا

إلا أن الذي يظهر أن سبب حوار المستكبرين المبطلين مع المستضعفين أنهم يسعون لإظهار أنفسهم بمظهر المتعقلين، فيلجؤون إلى الحوار ليكون وسيلة مضمونة لخداع الناس حيث يوهمونهم بأنهم لا يلجؤون إلى التعذيب دون حوار، وربما لخوف المستكبرين من أن يسارع بقية المستضعفين إلى الإيمان، فحاوروا المؤمنين ليغالطوهم في المنطق الذي يحاورونهم حوله، وربما لخوفهم على أن ينقلب بقية المستضعفين ضدهم، وحينها يفقدون نفوذهم؛ فإن استكبار المستكبرين لا يتحقق إلا بطاعة الأتباع الخانعين وربما قالوا ذلك لِيَعْلَمُوا حَالَهُمْ فَيَنْبُتُوا عَلَيْهِ مَا يَفْعَلُونَهُ^(٢) ويخططون لما يحفظ لهم نفوذهم واستكبارهم.

تنوع ردود قوم ثمود على صالح عليه السلام:

هذا المشهد الذي ترسمه سورة الأعراف هنا حوار بين المستكبرين ومن آمن من المستضعفين، بينما تجد سورة هود ترسم لنا مشهد ثمود قوم صالح عليه السلام يردون عليه ردًا هادئًا يعبرون فيه عن تشككهم في دعوته إذ قال الله عز وجل: ﴿قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۚ﴾ [هود: ٦٢]، فكيف نفهم الصورة التي ترسمها لنا السور المتعددة لما قام به المستكبرون؟

الجواب: عندما نجمع بين الآيات المتعددة في السور المختلفة تتضح لنا صورٌ متعددة مترتبة، فسورة الأعراف نقلت صورة واحدة لحوار الكافرين مع المؤمنين، وغيرها نقل لنا صورًا أخرى، هي:

(١) عبد الله البردوني: بعنوان: أبو تمام وعروبة اليوم، رقم القصيدة: (٦٧٦٨٧). من كتاب دواوين الشعر العربي على مر العصور (٥٥/٤٠٠).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/٤٤٦).

الصورة الأولى: رسمتها لنا سورة هود عليه السلام: ﴿قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَنَّا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّآ لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٢٢﴾﴾ هذا القول منهم يخبرنا بأن الذي وقع في سورة هود كان أول موقف لهم حيث ردوا على صالح عليه السلام دعوته، وشككوا فيها.

الصورة الثانية: رسمتها لنا سورة الشعراء حيث نرى فيها الموقف الجماعي الثاني لردهم على صالح عليه السلام، حيث لاحظوا أن كلامه حكيم منطقي واقعي عقلائي، وهو كلام مقنع يلامس الفطرة البشرية، ولذا لَفَّقُوا له تهمة اخترعوها من عند أنفسهم، فاتهموه بأنه مسحور، وطالبوه بأية خارقة تدل على أنه رسول من عند الله ﷻ، قال الله ﷻ حاكياً عنهم ذلك: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٥﴾﴾ [الشعراء: ١٥٣ - ١٥٥].

الصورة الثالثة: في سورة الأعراف، لما ظهرت الناقة آية مادية مبصرة، أعاد صالح عليه السلام لقومه ما ذكر لهم من الأسس التي بعثه الله ﷻ بها، فذكر لهم الأسس الثمانية التي تفرض عليهم منطق الإيمان، وبصَّرتنا بها الآيتان: [٧٤-٧٥] من هذه السورة.

هكذا ظهر ترتيب الآيات بالنسبة لردود الفعل، فالآية في سورة هود هي الأولى في حوار الكفار قوم صالح عليه السلام، والآيات في سورة الشعراء تأتي في المقام الثاني، والآيات هنا التي في سورة الأعراف تأتي في المقام الثالث؛ لأنها تكلمت عن مرحلة متقدمة، استطاع فيها صالح عليه السلام أن يؤثر على الناس، وأن يؤمن به بعض من الملائكة وكثير من المستضعفين، فاتجهت جهود المستكبرين من الملائكة إلى المستضعفين من المؤمنين عسى أن يردوهم عن دينهم.

وكما ترى فإنك لا تجد في هذه السور الثلاث تكراراً، بل تجد تكاملاً مدهشاً أفلح أتم الفلاح ونجح أكمل النجاح في تقديم صورة متحركة متكاملة عن مختلف المشاهد المهمة التي ظهرت في تلك الحالة.

قال الملائكة المستكبرون للمستضعفين: ﴿اتَّعَلَّمُونَ أَنْ صَلَّحَا﴾، هذه الكلمات التي ابتدؤوا بها حوارهم ما دلالتها؟

الجواب: لما علت البراهين المؤيدة لرسالة صالح عليه السلام آمن عدد من أبناء قومه لكن المستكبرين استضعفوه، وهنا جاء الموقف الجماعي الثالث للمستكبرين من قومه فأنشؤوا حواراً مع المؤمنين

من المستضعفين ليقفوا هذا التأثير الخيّر العظيم لدعوة صالح عليه السلام، فقاموا يخاطبون المؤمنين، فيقولون لهم:

لاحظ كيف خاطبوه... لقد قالوا: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾، ونتكلم على هذا الخطاب منهم في هذه الكلمات:

الكلمة: [١]: ﴿أَتَعْلَمُونَ﴾: همزة السؤال تُظهر أنه يُقصد به أمران معًا:

الأول: التشكيك، وتقليل ثقة المؤمنين بما آمنوا به، وكلمة ﴿تَعْلَمُونَ﴾ سؤال عن يقينهم ليزلزلوه، وكأنهم يقولون: من أين لكم هذا اليقين بصدقه أنه مرسل من ربه؟ وهذه الكلمة تصور لنا جملة تكمل ذلك، فكانهم قالوا: نعم! يمكن أن تقولوا: يحتمل أنه مرسل من ربه، لكن كيف تجزمون، وتتيقنون بذلك؟

الثاني: أن تكون همزة السؤال لِلتَّهْكُمِ وَالِاسْتِهْزَاءِ.

الثالث: قال محمد رشيد رضا رحمته الله: "وَلَا مَانِعَ مِنْ جَعْلِهِ اسْتِفْهَامًا حَقِيقِيًّا؛ إِذْ سَأَلُوهُمْ عَنِ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ مُرْسَلٌ لِإِتِبَاعِهِمْ فِي اتِّبَاعِهِمْ إِيَّاهُ عَنْ عِلْمِ بُرْهَانِيٍّ، وَتَجْوِيزِهِمْ أَنْ يَكُونَ عَنِ اسْتِحْسَانٍ مَا، وَتَفْصِيلٍ لَهُ عَلَيْهِمْ، وَاخْتِيَارٍ لِرِيَاسَتِهِ عَلَى رِيَاسَتِهِمْ"^(١).

الكلمتان: [٢-٣]: ﴿أَنَّ صَالِحًا﴾ فَسَمَوْهُ بِاسْمِهِ تَقْلِيلًا لِّشَأْنِهِ جَفَاءً وَغِلْظَةً، وَإِزْهَابًا لِلْمَسْئُولِينَ لِيُجِيبُوهُمْ بِمَا يُرْضِيهِمْ، كما يقول البقاعي رحمته الله^(٢).

الكلمات: [٤-٦]: ﴿مُرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ ويكون المعنى: هل عندكم العلم اليقيني الكامل بأن صالحًا عليه السلام مرسل من ربه برسالة إلينا؟ كأنهم يقولون: ألا يحتمل أن يكون مدعيًا مفتريًا، وكأنهم يقولون لهم: إذا كنتم تعلمون أنه مرسل من ربه، وتتيقنون بذلك، فهذا يقتضي أنكم تكلمون الملائكة، أو تكلمون الله جل في علاه حتى يؤكد لكم ذلك.

فكأن المستكبرين يكلمون كلامهم، فيقولون للمستضعفين: ولأنكم لا تكلمون الله جل جلاله، ولا الملائكة، فلا يصح أن تقطعوا أن صالحًا مرسل من ربه.

(١) تفسير المنار (٨/٤٤٨).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/٤٤٦).

رد عليهم المؤمنون: ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِءُ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾ ما الشعور الذي يصيبنا عند سماع

هذا الرد؟

الجواب:

رَدُّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَضْعَفِينَ كَانَ قُوَّةً مُفْتَخِرًا بِأَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

مدهش ما تسمعه! بل جليل كبيرٌ هذا المشهد الذي تراه: إن الضعاف لم يعودوا ضِعَافًا!

فهذا الرد منهم قد بلغ أعلى درجات القوة والتحدى للملأ المستكبرين.

لقد سكب الإيمان بالله ﷻ القوة في قلوبهم، وأيدهم الله ﷻ بروحٍ منه، ومكَّن الإيمان في قلوبهم، والثقة في نفوسهم، والاطمئنان في منطقتهم، إنهم على يقين من أمرهم، فماذا يُجدي التهديد والتخويف لهم؟ وماذا تجدي السخرية والاستنكار من الملأ المستكبرين.

وهذا يرجح لنا أن سؤال المستكبرين: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسِلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ سؤال تهديد ووعيد وتهكم واستهتار وتشكيك واستبعاد لأن يكون صالحٌ مرسلًا من ربه، فَرَدَّ عليهم المؤمنون ردًّا يدل على اليقين والثبات والتحدى، أي: فافعلوا ما شئتم لأننا سنبقى مؤمنين.

لقد رد عليهم المؤمنون: ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِءُ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾، وهذا الرد مضاعف، فقد كان المتوقع أن يقولوا: نعم نعلم أنه مرسل من ربه، لكنهم لم يقولوا ذلك بل أخبروا بأنهم يؤمنون بما أُرْسِلَ، فلماذا كان جوابهم على خلاف سؤال خصومهم؟

الجواب: لقد قفز المؤمنون قفزة قوية إلى ذكر نتيجة إرسال صالح عليه السلام، فكأنهم يقولون للمستكبرين: لا تسألوا: هل تعلمون أن صالحًا مرسل من ربه. لا تسألوا عن هذا؛ لأنكم تسألون عن ظهور الشمس في رابعة النهار، فهي واضحة لكل الناس، وكذلك وضوح أن صالحًا عليه السلام مرسل من ربه، فذلك واضح لكل المؤمنين والفجار، فجعل هؤلاء المستضعفون إرساله أمرًا معلومًا مكشوفًا مُسَلَّمًا لا يدخله ريب.

إذًا لماذا ترتابون أيها المستكبرون في ذلك؟!

بذلك أوجز رَدُّهم كلماتٍ آخر قالوها، فيكون تقدير ردهم:

نعم نعلم أن صالحًا عليه السلام مرسل من ربه، لا ريب في ذلك، إنما ينبغي أن تسألونا: هل نجترئ أمامكم ونؤمن بما رأيناه من حقائق رسالته رغم قوتكم واضطهادكم،

والجواب: نعم نحن نجترئ على أن نعلن ذلك، فعلمكم بأننا نعمل بمقتضى هذا العلم، فإنما بما أرسل به مؤمنون.

ولاحظ أنهم صاغوا التعبير عن قناعتهم الفكرية وعقيدتهم الراسخة بالجملة الاسمية: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِءُ مُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٧٥﴾ فلم يقولوا: آمنا أو نؤمن ليدلوا على القدر العظيم لتمكن الإيمان في نفوسهم، ورسوخه في قلوبهم، فَلَمْ يَتْرُكُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مَطْمَعًا فِي تَشْكِيكِهِمْ^(١) أو في زعزعة عقيدتهم، أو في التأثير السلبي عليهم، ولم يكتفوا بذلك حتى عبروا عن هذه القناعة بمزيد تأكيد فأتوا بـ: ﴿إِن﴾ التأكيدية، وذلك يجعلهم يأخذون زمام المبادرة على المستكبرين، فكأنهم يقولون لهم: إننا بما أرسل به مؤمنون غير عابئين باستكباركم وغطرستكم.

أي: إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ دُونَ مَا يُخَالِفُهُ مِنَ الشِّرْكِ وَالْفَسَادِ مُصَدِّقُونَ بِأَنَّهُ جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَمُذْعِنُونَ لَهُ بِالْفِعْلِ، فالإيمان هُوَ التَّصَدِيقُ الَّذِي يَجْزِمُ بِهِ الْعَقْلُ الْمُصْحُوبُ بِكَامِلِ الْأَطْمِئْنَانِ حَيْثُ يَجِدُ الْإِنْسَانُ الْأَمْنَ لِنَفْسِهِ، وَيَطْمَئِنُّ بِهِ الْقَلْبُ، وَتَخْضَعُ لَهُ الْإِرَادَةُ، وَتَعْمَلُ بِهَيْدِيَةِ الْجَوَارِحِ... فَأَجَابُوا بِمَا يَسْتَلْزِمُ الْمَعْنَى الَّذِي سَأَلَ عَنْهُ الْمُسْتَكْبِرُونَ، وَيَزِيدُ عَلَيْهِ، وَهُوَ أَنَّهُمْ عَلِمُوا بِذَلِكَ عِلْمًا يَقِينًا إِذْ عَانِيًا، لَهُ السُّلْطَانُ عَلَى عُقُولِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ، إِذْ آمَنُوا بِهِ إِيْمَانًا صَادِقًا كَامِلًا حَتَّى صَارَ هَذَا الْإِيْمَانُ صِفَةً مِنْ صِفَاتِهِمُ الرَّاسِخَةِ الَّتِي تَصْدُرُ عَنْهَا أَعْمَالُهُمْ، وَمَا كُلُّ مَنْ يَعْلَمُ شَيْئًا يَصِلُ عِلْمُهُ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ. بَلْ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْلَمُ الشَّيْءَ بِالْبُرْهَانِ وَهُوَ يَنْفِرُ مِنْهُ بِالْوَجْدَانِ، فَيَجْحَدُهُ وَيُحَارِبُهُ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهِ، اسْتِكْبَارًا عَنْهُ أَوْ حَسَدًا لِأَهْلِيهِ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]^(٢).

وكل ذلك "مِنْ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ فِي حِكَايَةِ كَلَامِهِمْ، وَلَيْسَ مِنْ بَلَاغَةِ كَلَامِهِمْ"^(٣) كما يقول ابن عاشور

رحمته

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/٢٢٣).

(٢) تفسير المنار (٨/٤٤٩).

(٣) التحرير والتنوير (٨-ب/٢٢٤).

إصرار المستكبرين على الكفر:

الآن تعال إلى رد المستكبرين على المستضعفين: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ

كَفِرُونَ ۖ﴾، فلماذا اختاروا هذا الرد ولم يقولوا: إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ كَافِرُونَ؟

الجواب: لِأَنَّهُمْ لَوْ قَالُوا: (إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ كَافِرُونَ) لكان ذلك يعني: أنهم يصدقون بأنه مرسل من ربه ﷺ، ولذلك أعرضوا عن ذكر رسالة صالح عليه السلام، وقالوا إنا بالذي آمنتم به أنتم، وليس بما أرسل به، لأننا لا نؤمن بأنه أرسل بشيء من ربه ﷺ، فلو قالوا: إنا بما أرسل به كافرين سيكونون قد شهدوا له بأصل الرِّسَالَةِ، فأتروا هذا التعبير ليتبروا من إثبات الرسالة له، ويلوح لك معنى آخر عند التأمل، فكأن المستكبرين يبينون للمستضعفين بأنهم في جانب مقابل لهم، فمجرد اختيار المستضعفين لاختيار معين فإن ذلك الاختيار يجعل المستكبرين يختارون ما يقابله، وكأنهم يستدلون على صحة موقفهم بأن الذين اختاروا الإيمان مستضعفون، والمستضعفون لا رأي لهم، فكأنهم استدلوا بذلك على أن صالحاً عليه السلام ليس مرسلًا.

ولاحظ أن الله ﷻ أظهر طبيعة المأل الذين ردوا، فوصفهم بأنهم: ﴿اسْتَكْبَرُوا﴾ ليبين أن ردهم نبع من استكبارهم لا من تفكيرهم المنطقي، ثم أخبر أنهم قالوا: ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَفِرُونَ ۖ﴾ فكفروا بما آمن به المستضعفون، وهذا الكلام منهم يدل على إقرارهم بأن ما جاء به صالح عليه السلام حق لكنهم كفروا به لأنهم استكبروا أولاً، ولأنهم لا يمكن أن يؤمنوا بشيء آمن به المستضعفون.

وهكذا تفعل القوى المتكبرة في كل زمان، إنهم لا يجعلون معيار القبول والرد وجود الحق أو عدمه، بل يجعلون القبول والرد متعلقًا بالرتبة الاجتماعية، أو متعلقًا بالرتبة والقوة والمال، ولذلك قال بنو إسرائيل وهم يردون على نبيهم عندما أخبرهم أن طالوت هو الملك: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ [البقرة: ٢٤٧] أي: لطالوت الذي اختاره نبيهم، كذلك فعلت القوى الوثنية المتكبرة من قريش مع المؤمنين من أتباع النبي ﷺ إذ قال الله ﷻ عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكَ قَدِيمٌ ۖ﴾ [الأحقاف: ١١].

لماذا اختار المستكبرون أن يعلنوا هذا الرد الجازم وأن يتبجحوا بكفرهم مع أنهم رأوا آية الله ﷻ مبصرة أمامهم؟

الجواب: لأنهم لا يريدون أن تكون الحاكمية لله، بل يريدون أن يكون الحكم لأهوائهم، ورغباتهم وشهواتهم، مع أن من أهم أسس دعوة صالح عليه السلام قوله لهم: ﴿يَقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]. فاتباع الحق يقود إلى إعمار الدنيا، وإلى تحقيق الشهوات ولكن وفق النظام الذي أنزله الله ﷻ للخلق، وبعض الناس يظن أنه لو ظهرت معجزة فسيؤمن الناس، وهذا غير صحيح، فهي البيئة المعجزة أمام قوم صالح عليه السلام لكن المستكبرين أبوا اتباع الحق المبين.

بصيرة: ليست مسألة الإيمان عندهم مسألة بينة أو معجزة، بل هو الخوف على سلطانهم مع أنهم في ظل الإسلام سيبقى لهم سلطانهم ويزيد ما لديهم، لكنها الأوهام التي يجلبها الشيطان للأنام تستولي على عقولهم، وعندها يصرون على الباطل المريد: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

فعلى الرغم من البيئة التي جاءهم بها صالح عليه السلام إلا أنهم رفضوا الحق الظاهر، وأبوا إلا ركوب العناد والكبر، والإصرار على الباطل الداعر، وبدلاً من أن يسمعو داعي الله ﷻ استجابوا لداعي الشيطان والأهواء، والتعاضم عن اتباع الحق الذي جاء بالنور والضياء..

تصور ذلك! فالبيئة المبصرة أمامهم، فما مشكلة هؤلاء؟

إنها الكلمة الخطيرة التي يعبر بها بعضنا، فيقول: ما عندي نية!

دَعَكْ من هذه العبارة الردية، فإذا رأيت الحق فلا تتأخر مع النفس الغوية، بل أقدم على ما يريده ربك ﷻ، فهناك جنة عرضها السموات والأرض، وإذا أقدمت ترفع درجتك ويغفر ذنبك.

قد تتساءل: لماذا لم يؤمن الملاً المستكبرون؟

الجواب: لأنهم يريدون التمتع بالمشتهى المحرم العاجل، ويستبعدون الشهوة الحلال في الدنيا، والفوز بالباقي الآجل، ويستكبرون عن اتباع الحق كما يفعل كل متكبر مغترٍ جاهل، وصالح عليه السلام

يدعوهم إلى مجدٍ عظيمٍ في الدنيا ذي طولٍ وعرض، وإلى جنةٍ عرضها السموات والأرض، ودعوته مثل دعوة نبينا محمد ﷺ: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ۱۳۳].

أيها الناس! يا أيها العالم: لَقَدْ دَعَاكُمْ إِلَى الْبِدَارِ مَوْلَاكُمْ، وَفَتَحَ بَابَ الْإِجَابَةِ ثُمَّ اسْتَدْعَاكُمْ، وَدَلَّكُمْ عَلَى مَنَافِعِكُمْ وَهَدَاكُمْ، فَلَا تَسْتَجِيبُوا لِنَزَعِ الْهَوَى فَقَدْ آذَاكُمْ، وَانصرفوا عن الشيطان فقد بلاكُم، وَحُثُّوا حَزَمَ عَزْمِكُمْ، وَصَبُّوا دُنُوبَ الْحُزْنِ عَلَى ذُنُوبِكُمْ، وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ.

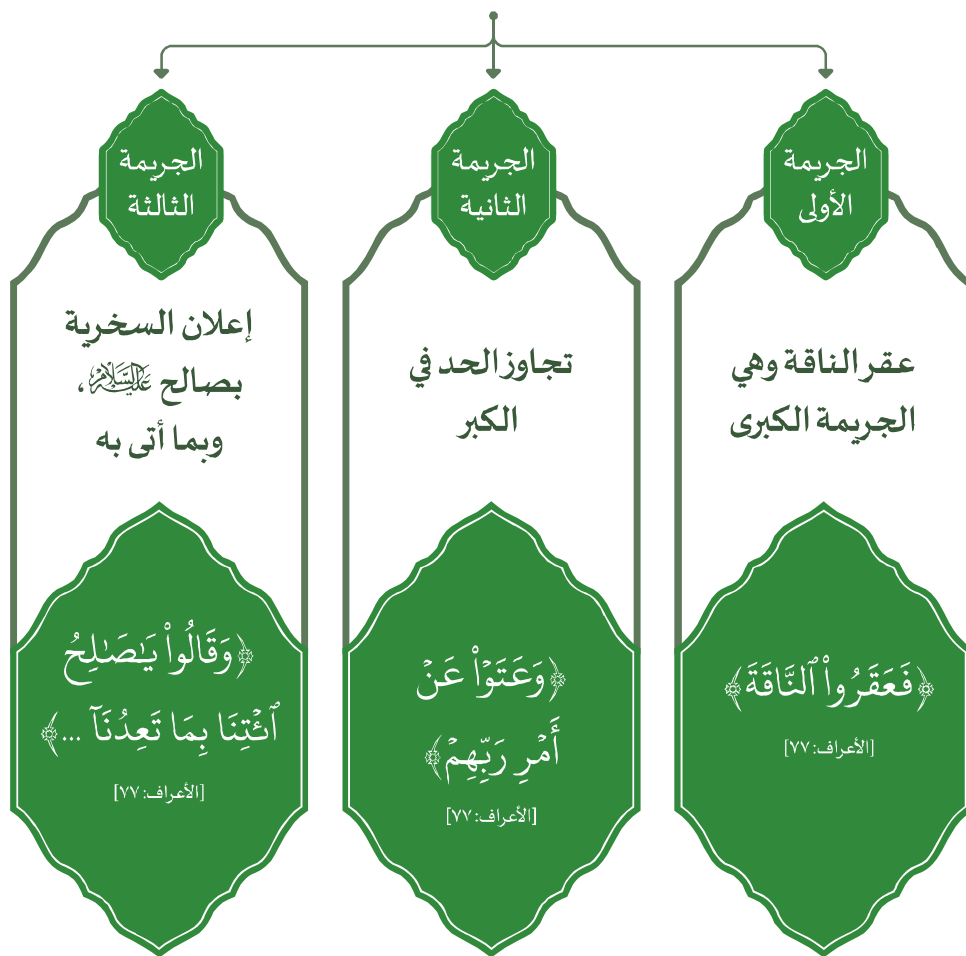
إنه الله ﷻ يدعوكم الأنبياء إليه: بِأَبْنَاءُ مَفْتُوحٍ لِلطَّالِبِينَ، وَعِطَاؤُهُ مَبْدُولٌ لِلرَّاعِيَيْنِ؛ وَفَضْلُهُ يُنَادِي: يَا سَائِلِينَ، وَإِحْسَانُهُ يَدْعُو الْغَافِلِينَ، فَاخْرُجُوا مِنْ دَائِرَةِ الْمُدْنِيِّينَ، وَبَادِرُوا مُبَادِرَةَ النَّائِبِينَ، وَتَعَرَّضُوا لِنَسَمَاتِ الرَّحْمَةِ لِتَخْلَصُوا مِنْ كَرْبِكُمْ، وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ^(۱).

ثم قال الله ﷻ: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحْ أَعْتِنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف ۷۷]، فما المشهد الجديد الذي نقلته لنا هذه الآية في قصة صالح عليه السلام؟
الجواب: هذه الآية تنقل لنا:

(۱) التبصرة لابن الجوزي (۱/ ۵۰).

المشهد الرابع

انتقال الملائكة المستكبرين من مرحلة التشكيك إلى مرحلة الاعتداء، وارتكاب الجرائم الثلاثية [الأعراف ٧٧]



المشهد الرابع: انتقال الملائكة المستكبرين من مرحلة التشكيك إلى مرحلة الاعتداء، فارتكبوا الجرائم الثلاثية التي منها إظهارهم للتحدي الأكبر اليأس لصالح عليه السلام، إذ قال الله جل جلاله واصفًا هذا المشهد: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَفْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف ٧٧].

في المشهد السابق حاول الملائكة المستكبرون أن يضيّقوا على المؤمنين المستضعفين، ويشكّكهم في صحة إسلامهم، فلما فشلوا انتقلوا إلى أفعال خطيرة تمثلت في ثلاث جرائم كبيرة؛ ليوأجوها بها الأثر الإيجابي المحمود الذي فرضه صالح عليه السلام بحكمته، وتنقل لنا هذه الآية بإيجاز مدّش هذه الجرائم الثلاث:

الجريمة الأولى: عقر الناقة وهي الجريمة الكبرى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ [الأعراف ٧٧].

فوجئ المستكبرون باعتزاز المؤمنين بإيمانهم بما أرسل به صالح عليه السلام، ولما رأوا التأثير الكبير له على الناس أرادوا إيقافه، فارتكبوا الجريمة الكبرى، وأعدموا الآية التي طلبوها: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾، وظنوا أنهم بذلك سيوقفون تأثير صالح عليه السلام، وسيدخلون الرعب في قلوب الآخرين، حينها سيتوقف الناس عن الإيمان به، والدخول في الإسلام، بل ظنوا أنهم بهذا الفعل سيُرهبون الذين دخلوا مسبقًا. وهنا ينبغي أن نركز بقوة حول الارتباط بين الأحداث في سورة الأعراف، فبعد الحوار بين الملائكة المستكبرين والمستضعفين من المؤمنين جاء قول عليه السلام: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ [الأعراف ٧٧]، والذي يظهر في المناسبة والاتصال بصورة واضحة بينهما أن سبب العقر ضيق المستكبرين من اعتزاز المؤمنين بإيمانهم بصالح عليه السلام، وبما أن الناقة آية واضحة على صدقه، وهي تتحرك بين أظهرهم فقد أرادوا أن يثبتوا أنها ليست آية، فعمدوا إلى عقرها.

وهنا نسأل: لماذا عبر بالعقر مع أن اللفظ المعتاد مع الإبل هو النحر، ويمكن أن يكون القتل؟ ما وجه قوة اللفظ القرآني: ﴿فَعَقَرُوا﴾؟

الجواب: ﴿فَعَقَرُوا﴾: الفاء دلت على أن الأحداث الجديدة وقعت عقب الأحداث السابقة مع مضي مدة من الزمان تناسب التعاقب المباشر، وكلمة: (عقروها) من عقر^(١) أي: أصاب شيء أصله، فمنعه من المتوقع منه، ومنه العاقر: وهو العظيم من الرمل لا يُنبت شيئاً، ويقال طائر عَقِر - ككتف: إذا أصاب ريشه آفة فلم يُنبت، وعَقَرَ النخلة: قطع رأسها كله مع الجُمَار: كَشَطَ لِيُنْفِهَا عن قَلْبِهَا وأخذ جَذَبِهَا أي: جُمَارَهَا فإذا فَعَلَ بها ذلك يَبَسَتْ وهمدت، وعَقَرْتُ الفرس: كَسَعَتْ^(٢) قوائمهُ بالسَّيْف فسقط، ولم يعد يصنع ما اعتيد منه من المشي، وفرس عَقِيرٌ: معقورٌ، وكذلك يُفَعَّلُ بالناقة، فإذا سَقَطَتْ نَحَرَهَا مُسْتَمَكِّتًا مِنْهَا^(٣).

فَالْعَقْرُ: أن يقطع إحدى قوائم البعير ليسقط، فإذا سقط تمكنا من نحره، وهو ثابت لا يستطيع الهرب من مكانه، ويطلق العقر لفظاً عاماً على إزهاق الروح، والنَّحْر هُوَ طَعْنُ البعير في الْمَكَانِ الْمُعْرُوفِ مِنْ حَلْقِهِ بِالنَّحْرِ، ويظهر أن عاقر الناقة نحرها، ولم يكتف بعقرها، ولكنه أطلق في محل النحر العقر:

(١) لأن العقر سببٌ للنحر، فهو مقدمته التي توصل إليه، وَلَمَّا كَانَ الْعَقْرُ سَبَبًا لِلنَّحْرِ أُطْلِقَ الْعَقْرُ عَلَى النَّحْرِ إطلاَقاً لِاسْمِ السَّبَبِ عَلَى الْمُسَبَّبِ كما يقول الرازي رحمته الله^(٤).

(٢) ولأنه لا يستطيع أن ينحر هذه الناقة العظيمة بيسرٍ إن لم يعقرها، وَعَبَّرَ أَيْضًا بِالْعَقْرِ دُونَ النَّحْرِ لِشُمُولِهِ كُلِّ سَبَبٍ لِقَتْلِهَا كما يقول البقاعي رحمته الله^(٥)، فتحرك عاقرها، فبدأ بعقر القوائم لأجل ألا تتحرك، فالعقر مقدمة للنحر.

(٣) ليبين الله جل جلاله أنهم خالفوا قول نبيهم صالح عليه السلام الذي نهاهم أن يمسوها بسوء ولم يقل: لا تذبحوها أو لا تقتلوهما أو لا تنحروها، بل نهاهم عن مجرد مسها بسوء، فمسَّوهَا بسوء بأن عقرها العاقر، ثم يظهر أنهم قاموا بنحرها بعد ذلك، وإنما ذكر الله جل جلاله العقر فحسب: لأن مجرد المس بسوء كافٍ في أن تصيهم العقوبة.

(١) العين (١٤٩/١)، مقاييس اللغة (٩٠/٤)، المفردات في غريب القرآن (ص ٥٧٧)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/ ١٥٠٠).

(٢) تحرفت هذه الكلمة إلى (كشف) في تفسير الرازي في الشاملة، وإلى (كسف) في غيره.

(٣) لسان العرب (٥٩٢/٤).

(٤) تفسير الرازي (٣٠٧/١٤).

(٥) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٤٤٧/٧).

القرار الأثم: عقر الناقة:

وهنا نساءل: ما الذي حدث بدقة للناقة عندما قرر الكفار من أمة ثمود أن يتخلصوا منها؟

وما سبب عقرها؟

الجواب:

الذي يظهر أن سبب عقرهم للناقة شدة خوفهم من تأثير بقائها على الناس، حيث يرونها آية مبصرة، فيؤمنوا بصالح عليه السلام بسبب ذلك، فأرادوا إبطال ما ادعى صالح عليه السلام من أنهم إن مسوها بسوء سيأخذهم عذاب أليم، هذا هو السبب الرئيس.

وذكر بعض المفسرين أسباباً أخرى، ولكن لا يوجد ما يدل عليها، وهذه الأسباب يحتمل أنها وقعت، ولكنها لا تشغلنا عن السبب الأكبر الذي صرح به القرآن، وهو عتوهم، وضيقهم من إيمان من آمن بصالح عليه السلام، فمن تلك الأسباب ما ذكره ابن إسحاق رحمه الله وغيره من «أَنَّهُمْ كَانُوا اقْتَرَحُوهَا عَلَى صَالِحٍ عليه السلام، فَأَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ تَعَنَّتُوا فِي وَصْفِهَا، فَأَخْرَجَ اللَّهُ ﷻ لَهُ نَاقَةً مِنْ صَخْرَةٍ بِالصِّفَةِ الْمَطْلُوبَةِ، فَأَمَّنَ بَعْضٌ وَكَفَرَ بَعْضٌ، وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يَتْرَكُوا النَّاقَةَ تَزْعَى حَيْثُ شَاءَتْ وَتَرِدُ الْمَاءَ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَكَانَتْ إِذَا وَرَدَتْ تَشْرَبُ مَاءَ الْبَيْرِ كُلِّهِ، وَكَانُوا يَرْفَعُونَ حَاجَتَهُمْ مِنَ الْمَاءِ فِي يَوْمِهِمْ لِلْعَدِ ثُمَّ ضَاقَ بِهِمُ الْأَمْرُ فِي ذَلِكَ فَانْتَدَبَ تِسْعَةٌ زَهْطٍ مِنْهُمْ قِدَارُ الْمَذْكُورِ فَبَاشَرَ عَقْرَهَا»^(١)

ونقل ابن إسحاق رحمه الله أنه اجتمع لها ناس منهم فرماها أحدهم بسهم، وضرب آخر قوائمها بالسيف، ونحرها آخر^(٢)، ولكن هذا لا يتوافق مع ظاهر آية القمر: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩].

ويحتمل أن النحر لم يقع بل وقع العقر فقط، حيث تقطع العراقيب، وتسيل الدماء، وتترك الناقة ترغو وتموت موتاً بطيئاً شنيعاً لا ينبغي أن يفكر به مسلم، فمادة: (عقر) تدور على إيقاف الانتفاع، وهو أشبه بالموت البطيء مع التعذيب السادي الذي يحصل مع أهل القلوب المريضة، وأكثر ما يستعمل العقر في الفساد، وأما النحر فيستعمل غالباً في الانتفاع بالمنحور لحماً وجلداً وغيرهما، فلعلَّ التَّعْيِيرَ بِهِ دُونَ النَّحْرِ إشارةٌ إلى أَنَّهُمْ لَمْ يَقْصِدُوا بِنَحْرِهَا إِلَّا إِهْلَاكَهَا عُنُوءًا عَلَى اللَّهِ،

(١) فتح الباري لابن حجر (٦/ ٣٧٩).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (١٢/ ٥١٤).

وعِندَاءًا، وَفِعْلًا لِلسُّوءِ مُخَالَفَةً لِنَهْيِ صَالِحٍ عليه السلام، وَلَا يُشْكَلُ ذَلِكَ بِمَا وَرَدَ مِنْ أَنَّهُمْ افْتَسَمُوا لَحْمَهَا؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَدَّعِ أَنَّ الْعَقْرَ يَلْزِمُهُ عَدَمُ الْإِنْتِفَاعِ بِالْمَنْحُورِ، وَعَلَى التَّنَزُّلِ، فَهَمْ لَمْ يُرِيدُوا بِذَلِكَ الْإِنْتِفَاعَ بِاللَّحْمِ، وَإِنَّمَا قَصَدُوا -حَيْثُ لَمْ يُمْكِنْ لَهُمُ الْمُشَارَكَةُ جَمِيعًا فِي الْعَقْرِ- أَنْ يَشْتَرِكُوا فِيْمَا نَشَأَ عَنْهُ تَغْرِيبًا بِرِضَاهُمْ بِهِ وَمُشَارَكَةً فِيهِ بِمَا يُمْكِنُهُمْ ^(۱).

وذكر ابن إسحاق رحمه الله وغيره أسبابًا أخرى لضيق كفار ثمود بالناقاة، وهي أسباب لا نملك ما يؤيدها، بل يظهر لي أنها تبعد عن روح هذه القصة، وتربطنا بحكايا وأقاصيص للمتعة، فمثلاً قال ابن إسحاق رحمه الله: "وكانت الناقاة، فيما يذكرون، تصيف إذا كان الحرُّ ظَهَرَ الوادي، فتهرب منها المواشي؛ أغنامهم وأبقارهم وإبلهم، فتهبط إلى بطن الوادي في حرِّه وجَدْبِهِ، وذلك أن المواشي تنفرُ منها إذا رأتها، وتشتو في بطن الوادي إذا كان الشتاء، فتهرب مواشيهم إلى ظهر الوادي في البرد والجذب، فأضرَّ ذلك بمواشيهم للبلاء والاختبار... فكَبُرَ ذلك عليهم، فعتوا عن أمر ربهم، وأجمعوا في عقر الناقاة رأيهم" ^(۲).

وهنا نسال: هل ضاقوا بالناقاة لأنها كانت تشرب ماءهم، فنافستهم في احتياجاتهم المائية؟

الجواب: قبل أن نكمل رواية ابن إسحاق رحمه الله نعلق على هذا فنقول: إن القرآن أبان لنا أنهم عقروا الناقاة، وعتوا عن أمر ربهم، ولم يذكر لنا أنهم عقروها لضيقهم منها في دنياهم، وهي عجيبة من عجائب الدنيا ستجذب أنظار العالم لهم، بل ضاقوا بها -فيما تظهره لنا الآيات القرآنية- لأنها من أعظم براهين صدق نبي الله صالح عليه السلام، وليس لأنها ضيقت عليهم في معاشهم، فسببُ ضيقهم أنهم يصرون على الكفر ويأبون الإيمان فيريدون أن يزيلوا السبب الذي من أجله يتساءل الناس: لماذا لا يؤمنون، يتساءل الذين يؤمنون أو الذين يريدون الإيمان: لماذا لا نؤمن وهناك آية واضحة أمامنا؟ ولم يكن ذلك لأنها كانت تضيق عليهم الحياة في مرعاهم، وتنفر منها دوابهم، أو أنها كانت تضيق عليهم في مياههم.

ونجد هذا الفهم الذي فهمناه من القرآن للأسف يشتهه البُعد القصصي، فالإنسان يستحلي القصص ذات الغرائب، ولا ينظر إلى العبرة والمفاهيم والمبادئ التي يلفت القرآن نظرنا إليها، وما

(۱) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (۷/ ۴۴۷).

(۲) تفسير الطبري (۱۲/ ۵۳۱).

یرویه ابن إسحاق رحمہ اللہ عما تناقلته العرب فی أخبارها لم يذكره القرآن المجید، فینقل قصة طويلة فی سبع أو ثمان صفحات، فیقول: "وكانت امرأة من ثمود یقال لها: "عُنَيْزَةُ بنتُ غُنَمٍ بنِ مِجَلَزٍ"، تكنی بأُمِ غُنَمٍ، وهي من بني عبید بن المہل، أخي زُمیل بن المہل، وكانت امرأة ذُؤَاب بن عمرو، وكانت عجوزًا مُسِنَّةً، وكانت ذات بناتٍ حسان، وكانت ذات مالٍ من إبلٍ وبقرةٍ وغنم، وامرأة أخرى یقال لها: "صَدُوفُ بنتُ المحیّا بن دهر بن المحیّا"، سید بني عبید وصاحب أوثانهم فی الزمن الأول، وكان الوادي یقال له: "وادي المحیّا"، وهو المحیّا الأكبر، جد المحیّا الأصغر أبي صَدُوفٍ، وكانت "صَدُوفُ" من أحسن الناس، وكانت غنیةً، ذات مالٍ من إبلٍ وغنم وبقرةٍ، وکانتا من أشدّ امرأتین فی ثمود عداوةً لصالح، وأعظمه به كفرًا، وکانتا تَخْتالان أن تُعَقِّرَ الناقةَ مع كفرهما به، ولذلك أغرتا مجموعة من أشراف قومهما من أجل أن یعقروا الناقة، وذكروا بأن كل واحدة من المرأتین أرسلت بنتًا من بناتها إلى فلان من كبار أشراف صالح لأجل ذلك" ^(۱).

هذه القصة من ابن سحاق رحمہ اللہ تظهر أن كل واحدة من هؤلاء البنات جعلت لنفسها إذا عقرت الناقة أن تكون لهذا الرجل، ولكننا لا نجد لهذه القصة إشارة ولا ذكرًا فی القرآن الکریم، بل القرآن یحدثنا عن المؤثر الأكبر الذي جعلهم یصرون على عقر الناقة، وهو أن الملأ المستکبرین ضاقوا بإیمان المؤمنین.

وأما قصة المرأتین عنيزة وصدوف اللتین ينقلها ابن إسحاق رحمہ اللہ، وأنها قالت: أعطیک أيّ بناتی شئتَ على أن تعقر الناقة! فلا یوجد عندنا دلیل علیها، بل ربما تكون خرافية، وقد تكون صحيحة لكنها لیست السبب المباشر للتأمر على صالح عليه السلام، ولا على عقر الناقة.

وهذا النظر تتضح البصائر التي یربینا القرآن علیها.

رؤية البصائر القرآنية لمثل هذه الروایات التاريخية:

هذه القصص الزائدة التي لا یوجد علیها دلیل بین من القرآن والسنة تحجب أحيانًا موضع العبرة من القصة، فكيف نتعامل مع ذلك؟

(۱) تفسیر الطبري (۱۲ / ۵۳۲).

حکى الرواة -حکایات غیر ثابتہ- عما فعلته المرأتان صدوف، وعنيزة من العبث بعقول الرجال، ولو ثبتت هذه القصص لنقلها القرآن، بل حذر القرآن ممن يفسدون في العرض ولا يفسدون في الأرض، ولا يصلحون، ولا ينبغي للإنسان أن يستغرق في تلك الحكايات لئلا ينسيه الاستغراق بصائر القرآن، فالإنسان يستحلها كما يستحلي القصص البوليسية أو غيرها، والقرآن تُبنى قصصه على الواقع، والبصائر التي نفيدها من هذا الواقع، وقد روى الإمام أحمد رحمہ اللہ مثلاً كلاماً زائداً مفصلاً لما في القرآن في قصة ثمود.

ويؤكد لنا النبي ﷺ هذه البصائر القرآنية عند النظر في قصة ثمود، فعن جابر رضي اللہ عنہ، قال: "لَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْحِجْرِ -وهي أراضى ثمود بدأ يبين لهم العبر ﷺ فَقَالَ: «لَا تَسْأَلُوا الْآيَاتِ، وَقَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ صَالِحٌ»، وهذا يعني أن النبي ﷺ دخل الحجر، ونهاهم في البداية أن يدخلوا إلا أن يكونوا باكين، فهو بين لهم أنه ينبغي ألا يدخلوا لاهين، ولا ضاحكين، ولا راقصين، بل أن يدخلوا لأجل العبر، فدخل الحجر معهم ﷺ، وبدأ يشرح لهم مباشرة، ويشير لهم قائلاً: "فَكَانَتْ أَيْ: الناقه تَرِدُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ، وَتَصْدُرُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ -أي: تمشي ثم تعود من جهة أخرى- فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ، فَعَقَرُوهَا، وَكَانَتْ تَشْرَبُ مَاءَهُمْ يَوْمًا، وَيَبْشُرُونَ لِبَيْهَا يَوْمًا، فَاخَذَتْهُمْ صَيْحَةٌ أَهَمَدَ اللَّهُ ﷻ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ مِنْهُمْ، إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا كَانَ فِي حَرَمِ اللَّهِ، قِيلَ: مَنْ هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: هُوَ أَبُو رِغَالٍ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الْحَرَمِ ^(۱) أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمَهُ" ^(۲).

وعن عبد الله بن عمرو رضي اللہ عنہ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ حِينَ خَرَجْنَا مَعَهُ إِلَى الطَّائِفِ فَمَرَرْنَا بِقَبْرِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا قَبْرُ أَبِي رِغَالٍ وَكَانَ يَهْدِي الْحَرَمَ يَدْفَعُ عَنْهُ -أي لما غَدِب قوم صالح- فَلَمَّا خَرَجَ أَصَابَتْهُ النَّفْثَةُ الَّتِي أَصَابَتْ قَوْمَهُ يَهْدِي الْمَكَانَ فَدْفِنَ فِيهِ، وَأَيُّ ذَلِكَ أَنَّهُ دُفِنَ مَعَهُ غُصْنٌ مِنْ ذَهَبٍ إِنْ أَنْتُمْ نَبَشْتُمْ عَنْهُ أَصْبَتْكُمْ مَعَهُ»، فَأَبْتَدَرَهُ النَّاسُ فَاسْتَخَرُوا الْغُصْنَ" ^(۳).

(۱) هذا يدل على ما بيناه مراراً من أن الحرم كان بيتاً قبل إبراهيم عليه السلام ولكن عثت آثاره عندما اقترب عهد إبراهيم، وهذا الحديث إسناده قوي.

(۲) أحمد (۱۴۱۹۳)، وقال محققو المسند: "حديث قوي وهذا إسناد على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عبد الله بن عثمان بن خثيم وأبي الزبير فمن رجال مسلم".

(۳) أبو داود (۳۰۸۸)، وقال الأرنؤوط: "إسناده ضعيف: لجهالة بجير بن أبي بجير، وقد تفرد بوصل هذا الحديث كما قال ابن كثير في "تفسيره" ۴/ ۴۴۳، وقال: "وعلى هذا يُخشى أن يكون وهم في رفع هذا الحديث، وإنما يكون من كلام عبد الله بن عمرو، مما أخذه من

هنا نسأل: ذكر الله ﷻ عاقر الناقة بأساليب متعددة:

ففي سورة الأعراف قال: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ [الأعراف: ٧٧]، وفي سورة هود ﷻ قال: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ [هود: ٦٥]، وفي سورة الشعراء: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ [الشعراء: ١٥٧]، وفي سورة الشمس: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: ١٤]، فنسب العقْر إلى جميعهم في هذه الآيات في هذه السور، وفي سورة القمر العاقر واحد كما قال ﷻ: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾، فكيف نجمع بين هذه السور؟

الجواب:

عند الجمع بين السُّور تجتمع لنا مختلف الصور، وهنا يكون المشهد الكامل قد ظهر وتحرر، فتقرر، والذي يظهر أن سيطرة المفسدين على أمة ثمود مربراحل:

المرحلة الأولى: ظهور قائد الطليعة المفسدة: إذ يظهر أن الناس الذين آمنوا بصالح ﷻ بدؤوا بالتكاثر بعد رؤية الناقة، وحينها ضاق مجرمو ثمود، فانبعث أشقاها بالتعاون مع المفسدين يريدون إيقاف هذا التأثير الكبير، وقد وصف الله ﷻ الأشقى بهذا الوصف الدقيق، فقال: ﴿إِذْ أَنْبَعَتْ أَشَقُّهَا﴾ [الشمس: ١٢]، وكان رجلاً مميزاً عظيماً في أمة ثمود يتسم بالنشاط والقوة والمكانة والجاه، ويظهر أن هذا العاقر كان نشطاً متحرراً لكن نشاطه في مقابلة صالح بالكفر والتكذيب والعتو مع أنه واحد، ويُظهر لنا النبي ﷺ الصفات المميزة التي تمتع بها كبير المفسدين، فالقيادة لا تأتي من فراغ، فعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَمْعَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَخْطُبُ، وَذَكَرَ النَّاقَةَ وَالَّذِي عَقَرَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «﴿إِذْ أَنْبَعَتْ أَشَقُّهَا﴾: أَنْبَعَتْ لَهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ عَارِمٌ مَنِيْعٌ فِي رَهْطِهِ مِثْلُ أَبِي زَمْعَةَ» [عمّ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ] ^(١).

فوصفه بأربع صفات قيادية:

(١) أنه رجل، فالقيادة العامة تكون غالباً في الرجال.

(٢) وأنه (عَزِيزٌ) أَي: قَلِيلُ الْمِثْلِ.

الزاملتين، ثم قال: قال شيخنا أبر الحجاج [يعني المزني]، بعد أن عرضتُ عليه ذلك: وهذا محتمل، والله أعلم"، وضعفه الألباني في

سلسلة الأحاديث الضعيفة (٤٧٣٦).

(١) البخاري (٤٦٥٨)، مسلم (٢٨٥٥).

٣) وأنه (عارم) تعني: أنه رجل جبار، صَعْبٌ عَلَى مَنْ يَرُومُهُ، كَثِيرُ الشَّهَامَةِ وَالشَّرِّ، شديد القوة والشراسة في الإفساد والخبث.

٤) أنه مَنِيعٌ أَيُّ: قَوِيٌّ ذُو مَنَعَةٍ أَيُّ: صاحب زَهْطٍ يَمْنَعُونَهُ مِنَ الضَّيِّمِ ^(١) أو من تبعات أفعاله. وشبهه النبي ﷺ هنا بأبي زمعة، وهو «الأسود بن المطلب بن أسد، وهو جد عبد الله بن زمعة راوي هذا الخبر... وأخرج الزبير بن بكار هذا الحديث في ترجمة الأسود بن المطلب من طريق عامر بن صالح عن هشام بن عروة، وزاد قال: "فتحدث بها عروة وأبو عبيدة بن عبد الله بن زمعة جالس فكأنه وجد منها، فقال له عروة: يا ابن أخي والله ما حدثتها أبوك إلا وهو يفخر بها، وكان الأسود أحد المستهزئين، ومات على كفره بمكة، وقتل ابنه زمعة يوم بدر كافراً أيضاً» ^(٢).

وهذا الأشقى هو نفسه عاقر الناقة «اسْمُهُ قِدَارُ بْنُ سَالِفٍ، قِيلَ كَانَ أَحْمَرَ أَزْرَقَ أَصْهَبَ» ^(٣).

هنا يأتي سؤال: في قوله ﷺ: ﴿إِذْ أَتَبَعْتَ أَشَقَّهَا﴾ [الشمس: ١٢] إلى أي شيء انبعث هذا الأشقى؟
الجواب: انبعث إلى مواجهة دعوة صالح عليه السلام، والآية تصور لنا ذلك بوضوح، إذ يقول الله ﷻ: ﴿إِذْ أَتَبَعْتَ أَشَقَّهَا﴾ [الشمس: ١٢]؛ فكلمة: ﴿إِذْ﴾ متعلقة بقوله: ﴿كَذَّبَتْ﴾، وبين الواحدي ﷻ ذلك، فقال: «أي: كذبوا بالعذاب، وكذبوا صالحاً لما انبعث الأشقى للعقر، ومعنى انبعث: انتدب، وقام به، يقال: بعثته على الأمر، فانبعث له» ^(٤)، وقال الزمخشري ﷻ: «﴿إِذْ أَتَبَعْتَ﴾ منصوب بـ ﴿كَذَّبَتْ﴾، أو بـ (الطغوى)» ^(٥)، والمعنى: كذبت ثمود بسبب طغيانها لما انبعث أشقاها فجَرَّها بنشاطه وتأثيره وتفكيره وتدييره إلى مواجهة الإيمان الذي جاء به صالح عليه السلام، وأفضى بهم التكذيب إلى أن يعقروا ناقة الله ﷻ.

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر (٧٠٥/٨)، وقد دمجت كلامه في ثنايا كلامي على منهجي في الكتابة.

(٢) فتح الباري لابن حجر (٧٠٦/٨).

(٣) فتح الباري لابن حجر (٣٧٩/٦).

(٤) التفسير الوسيط للواحدي (٤٩٨/٤).

(٥) الكشف (٧٦٠/٤).

وهذا بخلاف ما تذكره الروايات التي تجدها هنا أن سبب العقر أن هذا الرجل كان يهوى امرأة، وأنها أرادت منه أن تعقر الناقة، ففعل ذلك وكأنه لا توجد عنده عقيدة تدفعه إلى مواجهة دعوة الإصلاح التي يقودها النبي الصالح صالح عليه السلام، وهذا التفكير بخلاف ما يظهر من الآيات.

المرحلة الثانية: العمل الجماعي، وتكوين الحزب المفسد:

لشدة نشاط رأس المفسدين يظهر أنه جمع له مجموعة تأمروا معه على صالح عليه السلام، وجمع معه ثمانية فأصبحوا تسعة هم الخلية النشطة للسيطرة على الرأي العام في ثمود، ويحتمل أنه صار قائداً لهذه الخلية النشطة المفسدة، وصار مع خليفته هم المُقَدِّمِينَ، حيث كُونُوا حِزْبًا نشطاً لإدارة الأزمة مع صالح عليه السلام، وهم الذين تأمروا على صالح عليه السلام من جهة، وعلى أن يعقروا الناقة ويزيلوا أحد براهين نبوته من جهة أخرى.

فالعبرة في هذه الآية أن الواحد المفسد المجرم إذا كان نشطاً يمكنه أن يجمع حوله خلية نشطة في الشر، وعندما يجمع حوله خلية شريرة نشطة تصبح أساساً للإفساد في الأرض ومنع الناس من أن يعرفوا البينات التي أرسلها إليهم ربهم عز وجل، وتحاول هذه الخلية أن تحول بينهم وبين الخير الذي ينبغي أن يشيع في الأرض.

ربما يخطر ببالنا أن وجود الحزب المفسد في أمة ثمود مجرد مبالغات، فهل نجد في القرآن سنداً يظهر لنا تَكُونُ هذا الحزب المفسد النشط فعلاً؟

الجواب: كان من أخطر ما اتفقوا عليه أن يوقعوا مذبحاً كاملة تستأصل الناقة وتستأصل صالحاً عليه السلام وأهله، وأن يتقوا أي آثار جانبية بأن يدفعوا التهمة عنهم أمام عشيرته، وقد أخبر الله عز وجل عنهم فقال: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ (٤٩) وَمَكْرُؤًا مَكَرًّا وَمَكْرَئًا مَكَرًّا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (النمل: ٤٨ - ٥٠).

وصار هذا الحزب المفسد مؤثراً جداً على ثمود، فيقوم بالفعاليات التي يصد فيها عن دين الله عز وجل، ويدعو الناس إلى الكفر بالله عز وجل، وتطيعه ثمود إما رغباً، وإما رهباً، وإما انهمازاً، ولاحظ صالح عليه السلام هذه الطاعة العمياء لحزب المفسدين، فقال لهم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (١٥) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (الشعراء: ١٥٠-١٥٢).

وهنا نسأل: فما الذي حدث حتى نسب الله ﷻ عقر الناقة لكفاراً صالِحاً ﷻ؟
﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ [الأعراف: ٧٧]؟

الجواب: أخبر الله جل مجده أنهم تأمروا مع رئيس المفسدين، ودعوه ليكون مقدمهم في ذلك العمل، فقال: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩]، فيظهر أن الذين نادوا صاحبهم هم أبرز كفار ثمود يقودهم الملائم المستكبرون، ووافقهم الباقون، فلم يتجرؤوا على عقر الناقة لكهم أخذوا دور الدعم اللوجستي كالتحريض والإمداد والإعانة على إمساك الناقة، فيكون الجميع قد اشتركوا في هذه الجريمة الكبرى، ولذلك أسند الله ﷻ العقر إلى جميعهم كما ذكر الله ﷻ ذلك في أربعة مواضع، فانقسم الكفار من أمة ثمود إلى أربعة أقسام:

(١) أشقاهم، وهو عاقر الناقة المسمى قدار بن سالف.
(٢) الثمانية الذين معه، الذين كانوا الخلية النشطة لإدارة الأزمة ولإبقاء أمة ثمود على الكفر والفساد.

(٣) بقية الملائم من المستكبرين، وهؤلاء دعوا أشقاهم لتلك الجريمة.
(٤) بقية كفار ثمود من المستضعفين والمستكبرين من غير المؤمنين، وهم الذين ارتضوا تلك الجريمة.

فصار الجميع مذنباً متآمراً متواطئاً.
وقد استنبط الرازي رحمه الله ما قررناه هنا من أن الله ﷻ نسب العقر لهم؛ لَأَنَّهُ كَانَ بِرِضَاهُمْ مَعَ أَنَّهُ ما بَاشَرَهُ إِلَّا بَعْضُهُمْ، وَقَدْ يُقَالُ لِلْقَبِيلَةِ الْعَظِيمَةِ: أَنْتُمْ فَعَلْتُمْ كَذَا، مَعَ أَنَّهُ مَا فَعَلَهُ إِلَّا وَاحِدٌ مِنْهُمْ^(١)، وكلام الرازي رحمه الله بهذه الصياغة يشبه أن يكون تخفيفاً من مقدار جرمهم، والحقيقة التي تجليها لنا الآية القرآنية أسوأ من ذلك، وهي: أن العاقر فعل ذلك بتواطئ مع بقية أمة ثمود، فظاهر القرآن أنه لم يقم بذلك إلا واحد، ولكن حزب الإفساد هو الذي خطط ودعا وجمع الجماهير حولها.

(١) تفسير الرازي (١٤/٣٠٧).

فلم يقتصر العذاب على المباشرين للظلم بل أتى على الجميع ما عدا المؤمنين، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَأَنْفِقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝﴾ [الأنفال: ٢٥]، فالمجتمع ينبغي أن يبقى مستيقظاً لكل حركة إفساد في الأرض ليمنعها، وإلا دمرته. وأخبر علي عليه السلام أن النبي ﷺ سعى عاقر الناقة أشقى الأولين، فقال: قال لي رسول الله ﷺ: "من أشقى الأولين؟

قلت: عاقر الناقة.

قال: صدقت، فمن أشقى الآخرين؟ قلت: لا علم لي يا رسول الله.

قال: الذي يضربك على هذه، وأشار بيده إلى يافوخه -وسط الجمجمة-. وكان علي عليه السلام يقول لأهل الكوفة: «وَدِدْتُ أَنَّهُ قَدِ انْبَعَثَ أَشْقَاكُمْ فَخَضَبَ هَذِهِ مِنْ هَذِهِ»، يَعْنِي: لِحْيَتَهُ مِنْ دَمِ رَأْسِهِ^(١).

ولماذا وصف النبي ﷺ قاتل علي عليه السلام بأشقى الآخرين؟

لأن علي بن أبي طالب مثله مثل عثمان عليه السلام، حدث بقتله فتنة عظيمة، ومن صورها أنه عليه السلام لم يُمهّل حتى يبين الضلال العظيم، والخيانة الكبرى التي قام بها من يزعم أنه من شيعته من تغيير الدين، وأدرك ذلك الحسن بن علي عليه السلام، فسارع إلى الصلح مع معاوية عليه السلام. وكما فعل قدار بن سالف عاقر الناقة من محاولة إطفاء نور الله ﷻ، والإفساد في الأرض يحاول الخوارج ومن يزعمون أنهم من شيعة علي عليه السلام أن يفعلوا.

فكما صنع أشقى الأولين في جمع خلية الشر، وإضلال أمة بأسرها ما زال يخرج من الخوارج وممن يزعم أنه من شيعة علي عليه السلام من يدمر واقع المسلمين، ويغير دينهم، ويقتل رجالهم ونساءهم وأطفالهم، وقد وصف النبي ﷺ منبت هؤلاء بقوله: «إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضَنْضِي هَذَا -يعني من أصله وفكره- قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ رَطْبًا، لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرِّمِيَّةِ -وَأَظَنُّهُ قَالَ: - لَيْنَ أَدْرَكْتَهُمْ لَأَقْتُلَنَّاهُمْ قَتْلَ ثُمُودَ»^(٢).

(١) مسند أبي يعلى (٤٨٥)، وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (١٣٦/٩): «رواه الطبراني وأبو يعلى، وفيه رشدين بن سعد وقد وثق، وبقيته رجاله ثقات.»، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٨٨) وقال: "لكن الحديث صحيح، فقد جاءت له شواهد كثيرة عن جمع من الصحابة منهم علي نفسه وعمار بن ياسر وصهيب الرومي".

(٢) البخاري (٤٣٥١).

فهذه الجريمة الأولى التي ارتكبتها الملائكة الذين استكبروا من ثمود أمة صالح عليه السلام ذكرها الله جل جلاله في قوله: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ [الأعراف: ٧٧]، فما الجريمة الثانية؟

الجواب:

الجريمة الثانية: تجاوز الحد في الكبر: ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ٧٧].

الكلمة [١]: ﴿وَعَتَوْا﴾:

ما معنى: ﴿وَعَتَوْا﴾، وما وجه قوة هذه الكلمة القرآنية هنا؟

الجواب: عتأ^(١) يغتو عتوًا، إذا زاد في تمرده وإبائه واستكباره عن عنادٍ ولجاج، ومنه يُقال: جَبَأَ عاتٍ،

وبذا ترى أن العاتي لا يكتفي بأن يكون مبطلًا بل إنه يغلو في الباطل كما قال مُجاهدٌ: العُتُوُ: الغُلُوُّ في الباطل، وأصل العتو هو: الغلو في الشيء كأن يغلو في الكبر، فقول ربنا: ﴿مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مرم: ٨] أي: صار كبيرًا، ولم يتوقف عند ذلك بل غلا به الكبر حتى أَسَنَّ فلم يستطع أن يصنع ما كان يصنعه قبل من بدهيات حياته، ووصل إلى حالة لا سبيل إلى إصلاحها ومداواتها، فهذا عتو عن ضعف، ويمكن أن يقال: عتو أي: غلو في الضعف، فهو قوة في الضعف بمعنى مضاعفة للضعف. وقد يكون العتو عَنْ قُوَّةٍ كَوَصَفِ الرِّيحِ الشَّدِيدَةِ بِالْعَاتِيَةِ، لأنها ليست شديدة بل بلغت أقوى درجات الشدة، وَتُوصَفُ النَّخْلَةُ الْعَالِيَةُ بِالْعَاتِيَةِ لِامْتِنَاعِهَا عَلَى مَنْ يُرِيدُ جَنَاحَهَا إِلَّا بِمَشَقَّةِ التَّسْلُقِ وَالصُّعُودِ، وَيُقَالُ: تَعَى فُلَانٌ وَتَعَتَّتْ فُلَانَةٌ، إِذَا لَمْ تُطِغْ، وَلَا يُقَدَّرُ عَلَى حَمْلِهَا عَلَى الطَّاعَةِ. قَالَ الْعَجَّاجُ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي اسْتَقَلَّتْ

بِأَمْرِهِ السَّمَاءُ وَاطْمَأَنَّتِ

بِأَمْرِهِ الْأَرْضُ فَمَا تَعَتَّتِ^(٢)

(١) مقاييس اللغة (٤/ ٢٢٥)، المفردات في غريب القرآن (ص ٥٤٦)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/ ١٣٩٩).

(٢) ديوان العجاج، رواية الأصمعي (ص: ٢٦١).

أَيُّ: مَا عَصَتْ^(١) عصيان متمرّد.

وَهُنَا يَأْتِي عُنُو الْجَبَّارِينَ وَالْمُسْتَكْبِرِينَ.

بصيرة: ﴿وَعَتُّوْا﴾: انظر قوة هذه الكلمة القرآنيّة في وصف عصيان مجرمي ثمود: إذ قدمت لنا ملخصاً شاملاً للأنشطة الجامحة المتمردة التي قاموا بها، فلم يكتفوا بالمعصية حتى وصلوا فيها إلى حد الغلو والإفراط.

وَعَدَى الفعل بكلمة: ﴿عَنْ﴾ لِيَضْمِنَهُ مَعْنَى الْإِعْرَاضِ، ويكون التقدير: تمردوا وتجاوزوا الحدود المعروفة في الإجرام، وأعرضوا عن كل نصيح وَجَّهَ لَهُمْ، واستحلوا المعاصي والآثام، واستكثروا منها، وكلمة: ﴿عَتُّوْا﴾ تصور أيضاً التبجح الذي يصاحب المعصية، والافتخار الذي يقارن الإجرام، والزهو والإعجاب النفسي باقتراف الذنوب، ويدل على أن العاتي يتحدى الله ﷻ، ولا يبالي، فيستعجل العذاب متحدياً، ويستهمتر بالنذير مستهيناً مجافياً.

أبصرنا قوة كلمة: ﴿عَتُّوْا﴾ في وصف إجرام كفار أمة ثمود، فما وجه قوة الكلمات: [٢-٤]: ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾؟

﴿عَنْ﴾: للمجازة، فتصور لنا أنهم عتوا مجاوزين أمر ربهم أي: غير مباليين به لا بوعده ولا بوعيده ولا بعظمته.

وقوله: ﴿أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾، ﴿أَمْرٍ﴾: مفرد مضاف يعني: توجيهات ربهم، وكلماته، وتحذيراته، وكلمة: ﴿رَبِّهِمْ﴾، مضاف إليه، فتصور لنا هاتان الكلمتان أنهم لم يراجعوا ولم يلتفتوا إلى أدنى أمر من أوامر ربهم ﷻ، فلم يتلفتوا إلى الأمر بعبادته، ولا إلى طاعة رسوله صالح ﷺ، ولا إلى الأمر بإصلاح الأرض، ولا إلى الأمر بحفظ الآية التي طلبوها، ونلمح فيه معنى عظمة الأوامر الموجهة إليهم من ربهم ﷻ، فكانها أمرٌ واحد.

(١) مقاييس اللغة (٤/ ٢٢٥).

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن أمر ربهم ﷻ هو حفظ الناقة وعدم التعرض لها بسوء^(۱)، وهذا فردٌ واحد من أمر ربهم كما ترى.

بقي لنا في هذه الآية قوله ﷻ: ﴿وَقَالُوا يَصْلِحُ أَثْنَتَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف ۷۷]، وهذه التكملة تصور الجريمة الثالثة التي اقترفها هؤلاء المستكبرون، فما طبيعة هذه الجريمة؟

الجريمة الثالثة: إعلانهم السخرية بصالح ﷻ، وبما أتى به، وإظهارهم الاستهانة بتبليغه ما بلغه عن ربه ﷻ، إذ قال الله ﷻ عنهم: ﴿وَقَالُوا يَصْلِحُ أَثْنَتَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ۷۷].

فقد واجهوا صالحًا ﷻ بالتحدي الطفولي المستكبر المعتاد، فطلبوا أن يُنزل عليهم العذاب: الكلمة: [۱]: ﴿وَقَالُوا﴾: تصور لنا أنهم عند ارتكابهم الجريمة الأولى، وهي: عقر الناقة، وعند ارتكابهم الجريمة الثانية، وهي: العتو عن أمر ربهم، لم يكتفوا بالأفعال بل قرنوها بالافتخار بالأقوال. الكلمة: [۲]: ﴿يَصْلِحُ﴾: نَادَوْهُ بِاسْمِهِ مُجَدِّدًا، ولم يقولوا: يا رسول الله: تصغيرًا له، وتهوينًا لمكانته، وإنقاصًا لقدره، وَتَغْرِيبًا بِمَا يَظُنُّونَ مِنْ عَجْزِهِ^(۲).

الكلمات: [۳-۵]: ﴿أَثْنَتَا بِمَا تَعِدُنَا﴾: أي: إلى متى تظل مكتفيًا بأن تدعونا، فنحن لن نستجيب لك، ونتحداك أن تأتينا بما تعدنا، ولم يقولوا: اثنتا بالعذاب الذي تعدنا به، بل قالوا: ﴿بِمَا﴾: ليشمل ذلك ما وعدهم من العذاب الذي سيحل بمجرميهم، والنصر الذي سينزل على المؤمنين.

وبتصور البقاعي رحمه الله أن هذه الكلمات تنطق بأنهم يقولون: وَإِنْ كُنْتُ صَادِقًا فافْعَلْ، وَلَا تُؤَخِّرْهُ رِفْقًا بِنَا وَشَفَقَةً عَلَيْنَا، فَإِنَّا لَا نَتَأَذَى بِذَلِكَ، بَلْ نَتَلَدَّدُ بِهِ تَلَدُّدٌ مَن يَلْقَى الْوَعْدَ الْحَسَنَ، وَحَاصِلُهُ

(۱) ممن قال بذلك ابن عاشور. ينظر: التحرير والتنوير (۸-ب/۲۲۶).

(۲) تفسير المنار (۸/۴۵۰).

التَّهْكُومُ مِنْهُمْ بِهِ، وَالْإِشَارَةُ إِلَى عَدَمِ قُدْرَتِهِ؛ وَكُذُّوا ذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ بِأَدَاةِ الشَّكِّ: ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧١): أَي: الَّذِينَ سَمِعْنَا أَخْبَارَهُمْ فِيمَا مَضَى^(١)؛ أَوْ مِنَ الْمُرْسَلِينَ الَّذِينَ يَدْعُونَ أَنَّ اللَّهَ جَلَّالٌ أَرْسَلَهُمْ.

بصيرة: تحذيرهم بهذه الصورة يصور استخفافهم بكلام صالح عليه السلام، وعدم مبالاتهم بإنذاره، كأنهم يَقُولُونَ له: نَحْنُ نَقْطَعُ أَنْكَ لَنْ تَأْتِيَنَا بِمَا تَعِدُنَا مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي تَوَعَدْتَنَا بِهِ إِنْ مَسَسْنَا النَّاقَةَ بِسَوْءٍ.

وكلامهم هنا يصور لنا أمرين خطيرين:

الأول: محاولة تلاعبهم بصالح عليه السلام وبالناس حوله من المؤمنين والكافرين، حيث طالبوا صالحًا عليه السلام أَنْ يَأْتِيَهُمْ هُوَ بِالْعَذَابِ: ﴿أَتُتْبَأُ﴾: أَي: أَنْتَ، وَلَمْ يَخْبِرْهُمْ صَالِحُ عليه السلام بِذَلِكَ مِنْ قَبْلِ، لَمْ يَقُلْ لَهُمْ: أَنَا سَأَتِيَكُم بِالْعَذَابِ، بَلْ قَالَ لَهُمْ: ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسَوْءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

فلم يقل لهم: سَيَأْتِيَكُم مَنِي عَذَابٍ أَلِيمٍ، بَلْ سَيَأْخُذْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٍ، أَمَا مَصْدَرُ الْعَذَابِ فَلَيْسَ صَالِحًا عليه السلام بَلْ مَصْدَرُهُ مِنْ بِيَدِهِ الْقُدْرَةُ الْعَظْمَى عَلَى تَحْرِيكِ الْأُمُورِ وَتَدْبِيرِهَا.

الثاني: إظهار صالح عليه السلام بمظهر الذي يَعِدُ وَلَا يَفِي، وَلَا يَتَحَقَّقُ كَلَامُهُ، وَهَذَا كَذِبٌ وَتَلَاعِبٌ، فَصَالِحُ عليه السلام لَمَّا طَالَبُوهُ بِآيَةِ شَاهِدَةٍ عَلَى صَدْقِهِ، أَخْرَجَ اللَّهُ جَلَّالٌ لَهُ النَّاقَةَ مَبْصُورَةً يَرَوْنَهَا أَمَامَهُمْ، وَإِخْرَاجُهَا وَهَيْئَتُهَا وَأَفْعَالُهَا تَدُلُّ عَلَى صَدْقِ رِسَالَتِهِ.

قد يتساءل بعضنا هنا، فيقول: ولماذا لم ينزل العذاب عليهم على الفور؟ بل جاءهم بعد ثلاثة أيام؟

الجواب: هذا جهل عظيم بقدرته الله جلَّالٌ؛ وَهَؤُلَاءِ لِحَبْلِهِمْ بِحَقِيقَةٍ تَصَرَّفُ اللَّهُ تَعَالَى وَحُكْمَتِهِ، يَخْسِبُونَ أَنَّ تَصَرُّفَاتِ اللَّهِ كَتَصَرُّفَاتِ الْخَلْقِ، فَإِذَا أُرْسِلَ رَسُولًا وَلَمْ يُصَدِّقْهُ الْمُرْسَلُ إِلَيْهِمْ غَضِبَ اللَّهُ جلَّالٌ، وَانْدَفَعَ إِلَى إِنْزَالِ الْعِقَابِ إِلَيْهِمْ، وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ جلَّالٌ يُمَهِّلُ الظَّالِمِينَ ثُمَّ يَأْخُذُهُمْ مَتَى شَاءَ^(٢).

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٤٤٩).

(٢) التحرير والتنوير (٨-ب/ ٢٢٦).

فهم لا يعلمون أن الله ﷻ قد حدد عقاباً في موعدٍ مسي قبل أن يبعث الرسل، فوعد صالح ﷺ لهم بأن يأخذهم عذاب أليم لو مسوا الناقة بسوء لا يعني: أن العذاب لا بد أن ينزل عليهم من فوره.

الروايات التفسيرية المخالفة لهدى الآيات في ضوء البصائر القرآنية:

وهنا ربما نتساءل: نجد روايات ذكرت عن بعض المفسرين تخالف ما تهدي إليه الآيات

القرآنية، ولكن بعض المفسرين يوردها ويحتفي بها، فما الموقف منها؟

الجواب: ينبغي أن يرجع الإنسان إلى هدى القرآن حتى يجد من بصائره ما يدير بها حياته، أما الروايات التي تخالف فإنها تميل غالباً إلى الجانب القصصي الأسطوري، وتخرجنا عن الهدى القرآني، فقول قوم صالح ﷻ: ﴿يَصْلِحْ أَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٧٧﴾ لم يكن بسبب أن بعضهم أحب فتاة كما تذكر بعض القصص، مع أنه قد يكون هذا موجوداً لكنه ليس السبب الأساسي في معارضة صالح ﷻ، بل السبب الأساسي هو الاستكبار الذي في قلوبهم، ومن الروايات التي تجمع القصص الغريبة قول السدي رحمه الله: إن الله ﷻ بعث صالحاً ﷻ إلى ثمود، فدعاهم، فكذبوه، فقال لهم ما ذكر الله ﷻ في القرآن، فسألوه أن يأتيهم بآية، فجاءهم بالناقة، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم. وقال: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾ [الأعراف: ٧٣]، فأقروا بها جميعاً، فذلك قوله: ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ فَأَسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧]. وكانوا قد أقروا به على وجه النفاق والتقية، وكانت الناقة لها شرب، فيوم تشرب فيه الماء تمر بين جبلين فيرحمانها أي: الجبلان، ففيهما أثرها حتى الساعة، ثم تأتي فتقف لهم حتى يحلبوا اللبن، فيرويه، إنما تصب صباً، ويوم يشربون الماء لا تأتيهم. وكان معها فصيل لها^(١).

وهذه الروايات منها ما لا دليل عليه فنورده عالمين بأنه زيادة مفتقرة إلى دليل، وإلا فهي رجم بالغيب مثل وجود الفصيل معها، ومثل قصة الجبلين، وأما الزعم أنهم آمنوا نفاقاً فيناقض الآية التي صرح الله ﷻ فيها بأنهم كفروا.

وإنما نورد الإشارة إلى هذه القصص لنبين أنه لا ينبغي للإنسان فضلاً عن المفسر أن يشتغل بها بعيداً عن الشعور ببصائر القرآن التي تهديه سواء السبيل، وتبين له طريق الحق، وتعرض له كيف

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٥٢٦).

يتعامل مع واقعه، وذكر السُّدِّي رحمه الله في روايته هذه أمورًا أكثر غرابة، فلم أوردتها، والبيان القرآني أهدى من الأسلوب القصصي الأقرب إلى الأسطوري الذي ذكره السُّدِّي رحمه الله إذ ذكر أن صالحًا عليه السلام قال لقومه: إنه يولد في شهركم هذا غلامٌ يكون هلاككم على يديه! فولد لتسعة منهم في ذلك الشهر، فذبحوا أبناءهم، ثم وُلد للعاشر فأبى أن يذبح ابنه، وكان لم يولد له قبل ذلك شيء... إلى آخر مما ذكر مما هو أقرب إلى قصص (ألف ليلة وليلة) منه إلى القصص الواقعي.

فهذه الرواية الغريبة لا تجدُها في قول الله ﷻ عن حزب الإفساد الذي ذكر الله ﷻ عن أصحابه أنهم: ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ [النمل: ٤٩].

أي: حلف بعضهم لبعض أن يغدروا بصالح عليه السلام وأهله ثم يذهبون إلى وليه ويتبرؤن من مهلكه. فالبيان القرآني يدل على أنهم احتالوا ليظهروا عدم وجودهم في المكان، كأن أظهروا أنهم سافروا ثم رجعوا ليلاً، ونحن نقول هذا احتمالاً، بينما جزم السُّدِّي رحمه الله بهذا فقال: قالوا: نخرج، فيرى الناس أننا قد خرجنا إلى سفر، فنأتي الغار فنكون فيه، حتى إذا كان الليل وخرج صالح عليه السلام إلى المسجد، أتيناها فقتلناه.

ككيف يصح هذا مع أنهم أصلاً يبنون بيوتاً في الصخور؟!

بصيرة: الذي يظهر من السياق القرآني أن هؤلاء التسعة هم قيادة الملائكة المستكبر، وهم الخلية النشطة، وأن أشقى ثمود هو القيادي الأول فيهم، أو هو أكثرهم نشاطاً في الإفساد.

ويذكر السُّدِّي رحمه الله أن سبب عقره للناقة أنه وصَّبه وجدوا الماء قد شربته الناقة، حينما أرادوه للخمر، وهذه شنشة تغطي الحقائق القرآنية الواضحة، فعندما نرجع إلى القرآن نجد من ترتيب الآيات في سورة الأعراف أن المستكبرين بعد أن حاوروا المستضعفين ورأوا المستضعفين يصرون على الثبات على الإيمان: ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِءُ مُؤْمِنُونَ﴾ (٧٥)، وعند ذلك أرادوا أن يبينوا لهم أن الآية

التي جاء بها صالح عليه السلام ليست آية على الحقيقة وأنهم إن عقروها فلن يحدث لهم شيء مع أن صالحاً عليه السلام نهاهم أن يعقروها.

فإذا رجعت للبيان القرآني تجد الملاء المستكبر اغتاظوا من توسع تأثير صالح عليه السلام، ولذلك حاوروا المستضعفين المؤمنين، وعلى إثر ذلك عقروا الناقة، فكان ذلك سبب دمارهم: ﴿دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥١].

وهنا نسال: كان المشهد الرابع من مشاهد حضارة ثمود أمة صالح عليه السلام يصور لنا: انتقال الملاء المستكبرين من مرحلة الحوار إلى مرحلة الاعتداء، وارتكابهم للجرائم الثلاثية: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَثْنَانَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]، فما المشهد الخامس في هذه القصة؟

الجواب:

المشهد الخامس: ختام القصة حيث ظهرت لها نتيجتان: دمار المستكبرين وأتباعهم، ونجاة صالح عليه السلام مع من معه من المؤمنين [الأعراف: ٧٨-٧٩].

النتيجة الأولى: نزول العذاب في وقته المسمى عند الله تعالى، وبصرنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾:

هنا يأتي المشهد الختامي بعد ارتكاب المجرمين الجرائم الثلاث، وهي: عقر الناقة، والعتو عن أمر ربهم، وأنهم تحدوا صالحاً عليه السلام تحدي سخرية واستهزاء: ﴿وَقَالُوا يُصْلِحُ أَثْنَانَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]. عند ذلك: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾.

وهنا يأتي سؤال: ما موقع هذه الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾، ﴿فَأَصْبَحُوا﴾؟

الجواب: ذكر ابن هشام رحمته الله أن الفاء تأتي لثلاثة معان:

الترتيب الفعلي المعنوي، والتعقيب، والسببية^(١)، وعند تطبيق هذه المعاني على هذا الموضوع تجدها صالحة للمعاني الثلاثة، فإن الرجة جاءت مرتبة على عتوهم عن أمر ربهم ﷻ، كما جاءت عقب ذلك من الناحية الزمنية، وكان العتو سبباً في وقوع هذه الرجة، ولكنك قد تتساءل عن هذا التعقيب... ما مداه؟ فإن التعقيب يفهم منه أن اللاحق يقع عقب السابق مباشرة، لكن ابن هشام رحمه الله في المغني يقرر أن التعقيب في كل شيء بحسبه، ألا ترى أنه يُقال: تزوج فلان فولد له، والولد لا يأتي إلا بعد تسعة أشهر، إذا لم يكن بينهما إلا مدة الحمل وإن كانت متطاوله، وتقول: دخلت البصرة فبعداد؛ إذا لم تقم في البصرة إلا وقتاً معتاداً، فالتعقيب بحسبه لا أنه يأتي فوراً، ومنه قال الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣]. أي: إذا لم يكن بين الاخضرار وبين نزول الماء إلا ما هو معتاد من المدة اللازمة لعملية الإنبات.

فهم عتوا عن أمر ربهم ﷻ، فأخذتهم الرجة عقب ذلك بزمان مناسب لعتو الأمم واستكبارها ثم نزول العذاب عليها، وهنا نجتمع بين هذه الفاء وقول الله ﷻ عن صالح عليه السلام بعد أن عقر قومه الناقة: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]. فأخبرهم أن العذاب سيحل بهم بعد ثلاثة أيام.

وهنا نسال: كيف عبر عن هلاكهم بقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾؟ هل الرجة تأخذ؟

الجواب: كلمة: (أخذ)^(٢) تصور تناول الشيء وخَوْزه وَجَبِيه وَجَمْعُه وَقَبْضُه، والسياق هنا سياق عقوبة شديدة عامة فيقتضي:

أن يكون التناول سريعاً مستولياً مستحوذاً يحوز المأخوذين، ويقبض عليهم قبضاً محكماً معنوياً ومادياً، ويقهرهم بهذا القبض القهر الشديد، فيستولي عليهم، ويستوعبهم، فلا يملكون هروباً منه.

(١) ينظر: مغني اللبيب (ص: ٢١٣-٢١٤).

(٢) مقاييس اللغة (١/٦٨)، المفردات في غريب القرآن (ص ٦٧)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (١/٥٣٥).

و﴿الرَّجْفَةُ﴾ "الفعلة": مشتقة من رجف^(١)، وهي كلمة تصور اضطراباً شديداً في الأرض وزلزلة في قشرتها وزعزعة، والرَّجْفُ: الاضطراب الشديد، فيقال: رَجَفَتِ الْأَرْضُ وأرجفت، وَرَجَفَ السَّيِّءُ يَرْجُفُ رَجْفاً وَرَجْفَاناً، وَرَجَفَ الْقَلْبُ، وَرَجَفَ الْبَحْرُ، وَبَحْرٌ رَجَافٌ، وَأَرْجَفَ النَّاسُ فِي السَّيِّءِ، إِذَا حَاضُوا فِيهِ وَاضْطَرَبُوا، وَرَجَفَ الْقَلْبُ وَالْفُؤَادُ مِنَ الْخَوْفِ، وَفِي حَدِيثِ الْوَحْيِ: «فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ»^(٢)، أي في الآيات الخمس التي سمعها من جبريل عليه السلام وكما يَرْجُفُ الشَّجَرُ إِذَا أَرْجَفَتْهُ الرِّيحُ كما قال الأخطل:

إِمَّا تَرِنِي حَنَانِي الشَّيْبُ مِنْ كِبَرٍ كَالنَّسْرِ أَرْجُفُ، وَالْإِنْسَانُ مَهْدُودٌ^(٣)

قال ﷺ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ [المزمل: ١٤]، وقال ﷺ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ ٦ تَتَّبِعُهَا الرَّاِدِفَةُ ٧ [النازعات: ٦، ٧].

فيصور لنا قول ربنا ﷺ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أن الرجفة تناولتهم تناولاً محكماً مستولياً عليهم، مسيطراً عليهم قاهراً لهم، كما تسيطر اليد على ما تأخذه، فلم يتمكنوا منها فراراً، وهذا أبلغ من أن يقال: أهلكتهم الرجفة؛ لأن (أهلكتهم) تصور النتيجة النهائية للأخذ، بينما (أخذتهم) تصورهم وهم يصرخون ويصيحون يريدون الخلاص فلا يستطيعون.

أوصاف عذاب ثمود في القرآن الكريم:

وهنا نسأل: وصف الله ﷻ العذاب الذي أصاب أمة ثمود بأربعة أوصاف في القرآن المجيد، فكيف نجمع بينها؟

فقد وصفه الله ﷻ هنا بأنه رجفة، فقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ ٧٨، ووصفه بأنه طاغية في قوله ﷻ: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥]، ووصفه بأنه صيحة في قوله ﷻ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١]،

(١) مقاييس اللغة (٢/ ٤٩١)، المفردات في غريب القرآن (ص ٣٤٤)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٢/ ٧٦٥).

(٢) البخاري (٣).

(٣) ديوان الأخطل (ص: ٥١).

ووصفه بالصاعقة، فقال ﷺ: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [١٧] [فصلت:

١٧]، وقال ﷺ: ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٤]؟

الجواب: لما رأى بعض الملحدین هذا التنوع في الآيات فرحوا بما عندهم من الفسق، وزعموا أن هذا التنوع في ذكر نوع العذاب الذي حلَّ على ثمود يعد تناقضاً، ولكنك عندما تجمع بين الآيات تجد أنها متلائمة منسجمة واضحة تقدم لك صورة متكاملة عما حلَّ بهم من أنواع العذاب، فقد اجتمع عليهم من العذاب أربعة أنواع، فما الذي يجعل الإنسان يظن أنه لا يأتيهم إلا نوعٌ واحدٌ؟ ما المانع أن تجتمع عليهم أنواع من العذاب.

وعلى سبيل المثال يثور البركان في وسط البحر، فيقذف بحُمَم هائلة قد تدمر السفن العامرة، فيصاب بعضهم بلظى النيران، أو الجحيم الذي يصدر من البركان فيدمر سفينتهم، فيحترقون ثم قبل أن يموتوا يسقطون في البحر فيغرقون، وربما وصفنا سبب موتهم، فقلنا: دمرهم البركان، وربما وصفناه، فقلنا: ماتوا بالغرق في البحر، فما المانع أن يجتمع على الإنسان أكثر من نوع من العذاب؟ والسيارة يحدث لها الاصطدام مع سيارة أخرى، فيحصل أن يموت واحد من الناس بهذا الصدام، نسأل الله ﷻ السلامة والعافية، ولكن الآخر لا يموت بسبب الصدام وإنما مثلاً يحصل له مرض يبتلى به، فاجتمع له ثلاثة أمور: الاصطدام، والألم، والخوف والرعب الذي ربما بقي عالقاً في ذهنه لا يبرح.

وهكذا وقع لثمود حيث اجتمع عليهم أربعة أنواع من العذاب: الصيحة والرجفة والصاعقة والطاغية، وبعضها متصل ببعض، ونستطيع تصور ذلك بيسر عندما نريد أن نرتب بينها، ونحن نرتب بينها على سبيل الظن^(١) وليس على سبيل القطع لأنه يحتمل أن يكون الترتيب غير ذلك:

لقد حلت بهم هذه الأنواع من العذاب في تتابعٍ مربع، فجاءت الرجفة فأخذَتْهُمْ من تحتمهم تزلزل ديارهم وأرضهم التي عليها يستقرون، والصَّاعِقَةُ جاءتْهم مِنْ فَوْقِهِمْ، كما أن الصاعقة يحتمل أن يُعْنَى بها ما يصيبهم من صعق بسبب رعبهم بما شعروا به من الرجفة، وصَاحَبَ نُزُولُ الصَّاعِقَةِ صَيْحَةً شَدِيدَةً الْقُوَّةِ وَالطُّغْيَانِ فَصَخَتْ أَذَانُهُمْ وَدَمَرَتْ أَجْسَادُهُمْ، وَ(الطَّاغِيَةُ) اسْمٌ لِكُلِّ مَا تَجَاوَزَ

(١) انظر: تفسير المنار (٨ / ٤٥٠).

حَدَّ سَوَاءٌ كَانَ حَيَوَانًا أَوْ غَيْرَ حَيَوَانٍ، وَأَصْلُهَا طَاغِي وَأَلْحَقَ الْهَاءَ بِهِ لِلْمُبَالَغَةِ، فَاَلْمُسْلِمُونَ يُسْمَوْنَ الْمَلِكَ الْعَاتِي بِالطَّاعِيَةِ وَالطَّاعُوتِ. وَقَالَ عليه السلام: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَ طَافٍ﴾ ٦، ﴿العلق: ٦﴾، وَيُقَالُ: طَغَى طُغْيَانًا، وَهُوَ طَاغٍ وَطَاغِيَّةٌ. وَقَالَ عليه السلام: ﴿كَذَبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ ٧، ﴿الشمس: ١١﴾، وَقَالَ فِي غَيْرِ الْحَيَوَانِ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ ١١، ﴿الحاقة: ١١﴾، وَتَطْلُقُ عَلَى الْمَاءِ أَيْ: غَلَبَ وَتَجَاوَزَ عَنِ الْحَدِّ، فَالطَّاعِيَةُ وَصِفَ لَجَمِيعٍ مَا سَبَقَ بِسَبَبِ تَجَاوُزِهَا الْحَدَّ فِي ذَاتِهِ، فَالْعَذَابُ الَّذِي أَصَابَ ثُمُودَ تَكُونُ مِنْ كُلِّ هَذِهِ الْمَظَاهِرِ الْمَخِيفَةِ الَّتِي يَغَيِّرُ اللَّهُ جل جلاله بِهَا النِّظَامَ الْأَرْضِي وَالسَّمَائِيَّ الْمُعْتَادَ عِنْدَ الْبَشَرِ:

فَالصَّيْحَةُ كَانَتْ طَاغِيَةً، وَيُمْكِنُ أَنْ نَسْمِيَ الصَّاعِقَةَ الطَّاعِيَةَ؛ لِأَنَّهَا زِيَادَةٌ عَنِ الْمُعْتَادِ فِي الصَّعَقِ، وَالرَّجْفَةُ طَاغِيَةٌ بِسَبَبِ تَجَاوُزِهَا الْحَدَّ فِي الرَّجْفِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ إِضَافَةً لَذَلِكَ: جَاءَتْ الصَّيْحَةُ مِنَ الْأَعْلَى فَتَسَبَّبَتْ بِحَرَكَةِ الْأَرْضِ فَتَزَلْزَلَتْ بِسَبَبِهَا الْأَرْضُ الَّتِي تَعِيشُ عَلَيْهَا ثُمُودُ وَارْتَجَّتْ، وَتَصْدَعَتْ نَوَاحِيهَا وَمَبَانِيهَا، وَاضْطَرَبَ ظَاهِرُهَا بِسَبَبِ صَوْتِهَا الشَّدِيدِ، فَأَحْدَثَتْ الْاضْطِرَابَ الْمُرْعِبَ فِي قُلُوبِ الْمَجْرِمِينَ، وَصَاحَتْهَا الصَّوَاغِقُ الْمُتَتَالِيَةُ الَّتِي تَتَّصِلُ فِيهَا الَّتِي تَصْحَبُهَا أَصْوَاتُ الرُّعُودِ الْهَادِرَةِ الْمَخِيفَةِ، وَسَبَّبَتْ الصَّوَاغِقُ إِحْرَاقَ الشَّجَرِ، كَمَا صَعِقَ بِسَبَبِ ذَلِكَ كُلِّهِ قُلُوبُ الْبَشَرِ وَبِمَا أَجْسَادُهُمْ، وَصَحَّ أَنْ يُقَالَ فِيهَا: إِنَّ الْعُقُوبَةَ هُنَا كَانَتْ طَاغِيَةً لِاجْتِمَاعِ ذَلِكَ كُلِّهِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْخَالِقُ الْقَادِرُ الْمُقَدِّرُ قَدْ جَعَلَ هَلَاكَهُمْ فِي وَقْتٍ سَاقٍ فِيهِ السَّحَابُ الْمُتَشَبِّعُ بِالْكَهْرِبَاءِ إِلَى أَرْضِهِمْ بِأَسْبَابِهِ الْمُعْتَادَةِ، كَمَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَدْ خَلَقَ تِلْكَ الصَّاعِقَةَ لِأَجْلِهِمْ عَلَى سَبِيلِ خَرْقِ الْعَادَةِ، وَأَيًّا مَا كَانَ الْوَاقِعُ فَلَا يَتَّبَعُ قَدْ وَقَعَتْ تَجْمَعُ فِي تَعْذِيبِ اللَّهِ جل جلاله هَؤُلَاءِ الْأَقْوَامَ بَيْنَ كُلِّ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ وَصَدَّقَ اللَّهُ رُسُلَهُ فِي إِذْذَارِ قَوْمِهِ ^(١).

وهنا يأتي سؤال آخر: وكيف تجمع بين قوله: ﴿دارهم﴾ هنا بالتوحيد، و﴿ديارهم﴾ بالجمع في

سورة هود عليه السلام؟

الجواب:

(١) تفسير المنار (٨ / ٤٥١).

كلمة: (دار) مشتقة من دار^(١) يدور دَوْرَانَا، وتدل على إحداق السَّيِّءِ بِالسَّيِّءِ مِنْ حَوَالِيهِ، ومنه: دارُ العمامة حول رأسه: لَقْهَا، والدَّارُ: المَحَلُّ يَجْمَعُ البِنَاءَ والعَرْصَةَ، لكثرة حركات النَّاسِ فِيهَا، واعتباراً بدورانها الذي لها بالحائط، وقيل: دارة، وجمعها ديار، ثم تسمى البلدة داراً، والصَّقْعُ داراً، وتطلق على القرية، والمدينة، والدولة، والقبيلة باعتبار أن كلاً منها تَجْمَعُ واحدٌ.

فالدار بالتوحيد إشارة إلى وطنهم وأرضهم العامة التي تجمعهم، ولو كانوا فيها يسكنون مُدُنًا وبَوَادِي، فهي دار باعتبارها مكاناً يدورون فيه دون قيود، ولو تباعدت بيوتهم، ولكنها تسمى دياراً باعتبار تعدد مُدُنِهِم والأمكنة التي يكونون فيها أكثر استقراراً، وتعدد مساكنهم وبيوتهم وقصورهم الخاصة، فقد كانوا كما قال الله ﷻ: ﴿وَبَوَآكُمُ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الاعراف: ٧٤]، فأنا أسمى بيتي داراً وأسمى الدولة الكاملة داراً كما يمكن أن أسميها دياراً. وعند الجمع بين آتي الأعراف وهوود ﷻ يظهر لنا اتساع المملكة التي كانت عليها ثمود، واستقرارهم، وتمكنهم فيها، فهي ديار لكنها باعتبار الاستقرار والأمن ويُسرِّ الحركة دار، وهذا أولى من تفسير الدار بأنه مفرد أريد به الجنس؛ لأن من قواعد الترجيح: تقديم ما يدل على وفرة المعاني.

التصوير القرآني البديع لنهاية قوم ثمود الوخيمة:

وهنا نسال: في قول ربنا ﷻ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾: ما وجه قوة

هذه الكلمة القرآنية: ﴿جِثِيمِينَ﴾ وكيف صورت لنا هذه الكلمة حالتهم المخيفة؟

الجواب: ﴿جِثِيمِينَ﴾: جمع جاثم، من (جَثَمَ)^(٢)، وهي كلمة تدلُّ على تَجْمُعِ السَّيِّئِ، فَالْجِثِيمَانُ: شَخْصُ الْإِنْسَانِ، وَقِيْدُهُ الرَّاغِبُ ﷻ. بأن يكون قاعداً، ورجل جُثْمَةً وَجَثَامَةً: كناية عن النَّوْم والكسلان، وَجَثَمَ: إِذَا لَطِئَ بِالْأَرْضِ، وَالْجُثْمَةُ وَالْجَثُومُ: الْأَكْمَةُ، فمعنى ﴿جِثِيمِينَ﴾: أي: جامعي جسمهم معاً بأن يخر الرأس على الصدر حال التصاق الجسد بالأرض، ويجتمع إليه الساقان أو تقرب منه أقدامه على هيئة الأكمة أي: التلة المرتفعة، ويتصور الجثوم للأجساد حال كونها تلقى وجوهاً على الأرض مع تجمع جسموها.

(١) مقاييس اللغة (٢/ ٣١٠)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٣٢١)، تاج العروس (١١/ ٣١٧)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٢/ ٦٤٣).

(٢) مقاييس اللغة (١/ ٥٠٥)، المفردات في غريب القرآن (ص: ١٨٧)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (١/ ٢٧٨).

فأصبحوا سقوطاً هامدين موتى صرعى لا يتحركون، لأنهم لا أرواح فيهم، قد هلكوا.

بصيرة: يظهر أن هذه الكلمة العجيبة: ﴿جَثِمِينَ﴾ تصور لنا كفار ثمود وقد أصابهم الرجفة والصيحة والصاعقة بصورة طاغية فتراهم مبنوثين منتشرين في دورهم وطرقهم؛ فمنهم من سقط رأسه على صدره، والتصق بالأرض على هيئة الجالس المنحني باركاً على ركبته، فهو جاثم، ومنهم من سقط على الأرض على وجهه لكنه ارتفع جزء من جسده من وسطه، ومنهم من سقط على رأسه قاعداً على الأرض، والكل جاثمون خامدون يبرز جزء من أجسامهم إلى الأعلى كما تبرز الجثمة، وهي الأكمة.

قال ابن عاشور رحمته الله: "وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ تَشْبِيهَ حَالِهِمْ وَقُوعِهِمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ حِينَ صُعِقُوا بِحَالَةِ الْجَائِمِ تَفْطِيلًا لِهَيْئَةِ مَيِّتِهِمْ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ أَصْبَحُوا جُثًا هَامِدَةً مَيِّتَةً عَلَى أَبْشَعِ مَنَظَرٍ لَمَّيَتْ^(١). ويظهر لي أنه يحتمل مع ذلك: لما حدثت الزلزلة الطاغية كأنهم أرادوا أن يتمسكوا بشيء، فصاروا في وضع لا يكونون فيه قياماً ولا مضطجعين، بل يكونون جلوساً خائفين مضطربين، فسمعوا الصيحة الطاغية، فدمرتهم، وصحب ذلك نزول الصواعق الطاغية، فصعقتهم، وصاروا على هذه الحالات التي جمعها الله ﷻ في هذا الوصف الدقيق: ﴿جَثِمِينَ﴾.

بصيرة: ﴿جَثِمِينَ﴾ هذا التصوير الدقيق للكلمة القرآنية يفزع من يسمعه، ويرعب من يتصوره، فيحيي نفسه أن يقع فيما يسخط الله ﷻ، ويعتصم بربه لئلا يقع فيما يغضبه.

ويصف النبي ﷺ عموم سيطرة العذاب عليهم، وشموله لهم، فعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْحِجْرِ قَالَ: "لَا تَسْأَلُوا الْآيَاتِ فَقَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ صَالِحٍ وَكَانَتِ النَّاقَةُ تَرُدُّ مِنْ هَذَا الْفَجِّ وَتَصْدُرُ مِنْ

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/٢٢٧).

هَذَا الْفَجِّ، -وهذا الوصف يدل على أن النبي ﷺ كان يشرح لهم مباشرةً، وينبغي للإنسان أن يستخدم الوسائل التعليمية ما استطاع؛ لأن النبي ﷺ يشير لهم إلى الفج الذي كانت تصدر منه الناقة وتذهب فيه ثم قال- فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ، وَكَانَتْ تَشْرَبُ يَوْمًا وَيَشْرَبُونَ لَبَنَهَا يَوْمًا، فَعَقَرُوهَا، فَأَخَذَتْهُمْ صَيْحَةٌ أَهَمَدَ اللَّهُ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ مِنْهُمْ إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا كَانَ فِي حَرَمِ اللَّهِ -وَهُوَ أَبُو رِغَالٍ- فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الْحَرَمِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمَهُ" (١).

هنا نسأل: هذه الرجفة، وذلك الجثوم أصابا المستكبرين من قوم صالح ﷺ، ولكن التعبير القرآني يصور لنا أن الرجفة والجثوم كانا جزاءً وفاقاً على ما فعلوه، فكيف ذلك؟
الجواب:

نلاحظ أن الله ﷻ لما ذكر الجرائم الثلاث الأخيرة التي ارتكبتها المستكبرون من ثمود قال: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَثْنَانَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢٧)، فقولهم: ﴿يُصْلِحُ أَثْنَانَا﴾ نجد فيه تبجحاً منهم، واستخفافاً بقدرة الله ﷻ ورسالة رسوله، فأخذتهم الرجفة مقابل عتوهم وأصابهم الجثوم مقابل تبجحهم.

فالرجفة والجثوم كانا جزأين يقابلان العتو والتبجح، فالرجفة يصاحبها الفرع، والجثوم مشهد للعجز عن الحراك، وما أجدر العاتي أن يرتجف، وما أجدر المعتدي أن يعجز عن الحراك جزاءً وفاقاً في المصير، وانظر لقوة التعبير عن هذا المصير بهذه الكلمات التي تصور الحدث على خير الوجوه.

وفي حديث ابن إسحاق رحمه الله تفصيلٌ لذلك، لكنه يحجب التصوير القرآني لكثرة ما فيه من حكايات لم ترد في قرآن ولا سنة، بل إن قراءته تحجب البصائر الظاهرة في القرآن، فلنأخذ شيئاً منه من باب بيان أن هذه التفاصيل الواردة بعضها لا يوجد عليه دليل، وبعضها ينافي بصائر القرآن، فقد قال: "فلما قال لهم صالح: "أبشروا بعذاب الله ونقمته"، قالوا له وهم يهزؤون به: ومتى ذلك يا صالح؟ وما آية ذلك؟ وكانوا يسمون الأيام فيهم: الأحد "أول"، والاثنين "أهون"، والثلاثاء "دُبَار"، والأربعاء

(١) أحمد (١٤١٦٠)، وقال محققو المسند: "حديث قوي، وهذا إسناد على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عبد الله بن عثمان بن خثيم، وأبي الزبير، فمن رجال مسلم..."

"جُبَار"، والخميس "مُؤْنِس"، والجمعة "العَرْوَة"، والسبت "شِيَار"، -أي: أن هذه الأسماء اشتهرت في العرب البائدة، فلم يكونوا يسمون أسماء الأيام كما استقرت عندنا- وكانوا عقروا الناقة يوم الأربعاء.

فقال لهم صالح عليه السلام حين قالوا ذلك: تصبحون غداً يوم مُؤْنِس، يعني يوم الخميس، ووجوهكم مصفرة، ثم تصبحون يوم العَرْوَة، يعني يوم الجمعة، ووجوهكم محمرة، ثم تصبحون يوم شِيَار، يعني يوم السبت، ووجوهكم مسودة، ثم يصبحكم العذاب يوم الأول، يعني: يوم الأحد.

فلما قال لهم صالح عليه السلام ذلك، قال التسعة الذين عقروا الناقة: هلمّ فلنقتل صالحاً، إن كان صادقاً عجلناه قبلنا، وإن كان كاذباً يكون قد ألحقناه بناقيته! فأتوه ليلاً لبيّته في أهله، فدمغتهم الملائكة بالحجارة. فلما أبطؤوا على أصحابهم، أتوا منزل صالح عليه السلام، فوجدوهم مشدّخين قد رُضّخوا بالحجارة، فقالوا لصالح عليه السلام: أنت قتلتهم! ثم همّوا به، فقامت عشيرته دونه ولبسوا السلاح، وقالوا لهم: والله لا تقتلونه أبداً، فقد وعدكم أن العذاب نازل بكم في ثلاث، فإن كان صادقاً لم تزيدوا ربكم عليكم إلا غضباً، وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ما تريدون! فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك، والنفرة الذين رَضّختهم الملائكة بالحجارة التسعة الذين ذكرهم الله في القرآن بقوله عَلَّامٌ: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةٌ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (٤٨) إلى قوله: ﴿لَا يَأْتِيَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْكَلْبُ﴾ (٥٢) [النمل: ٤٨-٥٢]. فأصبحوا من تلك الليلة التي انصرفوا فيها عن صالح عليه السلام، ووجوههم مصفرة، فأيقنوا بالعذاب، وعرفوا أن صالحاً قد صدّقهم، فطلبوه ليقتلوه.

وخرج صالح عليه السلام هارباً منهم، حتى لجأ إلى بطن من ثمود يقال لهم: "بنو غنم"، فنزل على سيدهم رجلٍ منهم يقال له: "نفيل"، يكنى بأبي هُذْب، وهو مشرك، فغيّبه، فلم يقدروا عليه، فغدوا على أصحاب صالح عليه السلام فعذبوهم ليدلّوهم عليه، فقال رجل من أصحاب صالح عليه السلام يقال له: "ميدع بن هرم": يا نبي الله إنهم ليعذبوننا لندلّهم عليك، أفندلّهم عليك؟ قال: نعم! فدلّهم عليه "ميدع بن هرم"، فلما علموا بمكان صالح عليه السلام، أتوا أبا هُذْب فكلّموه، فقال لهم: عندي صالح عليه السلام، وليس

لكم إليه سبيل! فأعرضوا عنه وتركوه، وشغلهم عنه ما أنزل الله ﷻ بهم من عذابه... إلى آخر حديثه^(١).

ونقل عن الحسن البصري رحمه الله قال: "لما عقرت ثمود الناقة، ذهبَ فصيلُها حتى صعد تلاً، فقال: يا رب، أين أمي؟ ثم رغا رغوَةً، فنزلت الصيحةُ، فأخمدتهم"^(٢).
فالفصيل لا توجد رواية موثوقة تؤكد وجوده، فكيف برغوته؟!

بصيرة: هذه التفاصيل التي ذكرها ابن إسحاق رحمه الله وغيره تحجب التصوير القرآني عندما يشعر الإنسان بجماله، فيقذف العبرة العظيمة به، ويشعر فيه بعظمة الله وقدرته وقوته ﷻ.

ثم قال الله ﷻ: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩]، هذه هي الآية الختامية في قصة صالح عليه السلام في هذه السورة، فما المشهد الذي تقدمه لنا؟
الجواب: المشهد الذي تقدمه لنا هذه الآية هو:

النتيجة الثانية في ختام القصة: إظهار نقاء المصلحين، ومحبتهم لصلاح البشرية، ويبصّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

الكلمة: [١]: ﴿فَتَوَلَّى﴾: الفاء تبصّرنا بمشهد صالح عليه السلام بعد هلاك قومه من المستكبرين، وتدوّن جمال التعبير في هذا الكلام الكبير؛ فأتى بالفاء ليبين أنه كان مشاهداً لعذابهم ناظراً لما حلَّ بهم على بُعدٍ بحيث لا يصله ما وقع بهم من العذاب.

(١) تفسير الطبري (١٢/٥٣٤-٥٣٥).

(٢) تفسير الطبري (١٢/٥٣٦).



والتولي يصور لنا أن الله ﷻ نجى صالحًا ﷺ ومن معه، وأنهم خرجوا من مكان العذاب حتى لا يصيبهم، وهذا يبصّرنا بأنه ينبغي للمؤمن أن يتخذ الأسباب اللازمة للنجاة من العذاب، ولا يعتمد على المعجزات في ذلك فحسب، فلما خرجوا إلى مكان، ونزلت أنواع العذاب الثلاثة على قومهم بصورة طاغية، قام صالح ﷺ والمؤمنون معه يراقبون قومهم من مكان آمن.

وَمِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ أَنَّ ذَلِكَ الَّذِي خَلَعَ قُلُوبَ الْكَافِرِينَ مِنْ قَوْمِهِ، وَأَزَالَ أَرْوَاحَهُمْ لَمْ يُؤَثِّرْ فِي صَالِحِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ شَيْئًا، وَذَلِكَ مِثْلَ الرِّيحِ الَّتِي زُلْزِلَتْ الْأُخْزَابُ، وَأَنَاثَتْهُمْ أَشَدَّ الْعَذَابِ، وَرَمَتْهُمْ بِالْحِجَارَةِ وَالتَّرَابِ حَتَّى هَرَمَتْهُمْ وَمَا نَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ مِنْهَا كَبِيرٌ أَدَّى، وَكَفَّهَا اللَّهُ ﷻ عَنْ حَذِيفَةَ ﷺ -الذي دخل معسكر المشركين ليكون عيّنًا استخباراتية للنبي ﷺ-، وَكَذَا الْبَرْدُ الَّذِي كَانَ ذَلِكَ زَمَانُهُ لَمَّا أُرْسِلَ النَّبِيُّ ﷺ لِيَتَعَرَّفَ لَهُ أَخْبَارُهُمْ^(١).

ولكن لا يوجد دليل على أن صالحًا ﷺ كان مخالطًا لقومه عند نزول العذاب، بل يظهر أنه ومن معه انحازوا عن مكان العذاب، فلم يصيبهم، حتى لو كانوا قريبين من ذلك المكان، كما أن المطر إذا نزل أصاب ناحية ولم يصب ناحية مجاورة، وتولي صالح ﷺ نبئ أنه لم يكن في مكان نزول العذاب كما حدث لنوح ﷺ والمؤمنين معه، فإنه ركب السفينة بعد أن صنعها، وكما حدث للوط ﷺ، فإنه خرج مع أهله من مكان عذاب قومه، فنجاة الأنبياء آية، ولكن ذلك لا يعني أنهم لم يبذلوا أسباب نجاتهم.

والصورة التي يرسمها قوله: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ ومخاطبته لهم صورةً معبرة جدًا، إذ تشعر أنهم أمامك جاثمين، قد سقطت رؤوسهم على صدورهم، أو على الأرض، وارتفعت أجزاء من وسط أبدانهم على اختلاف أحوالهم، وانتهى التعذيب بهذه الصورة البائسة، وصالح ﷺ يرقبهم، وهنا ينبعث صوته ليُشهد الله ﷻ على أمانة التبليغ والنصح الذي أظهره لهم، وليُظهر عاطفته المحبة لهدياتهم، ومصلحتهم، ولكنهم أبوا إلا الإصرار على العتو والإجرام والاستكبار وجلب لهم ذلك هذا المصير البائس.

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٤٥٠).

ويظهر لي أنه يُحتمل أن يكون الكلام الذي قاله هنا تكلم به حين فارقهم قبل نزول العذاب، ثم أعاده بعد نزول العذاب.

قد تسأل: ما المشاعر التي تلامس نفسك وأنت تسمع صالحًا عليه السلام تفيض عاطفته، فيقول:
﴿يَقُومُ لَقَدْ أْبَلَّغْتُكُمْ رِسَالَهٖ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ﴾ (٧٦)؟

الجواب: عندما تنظر للآية بصفة عامة تشعر بعظمة الأنبياء عليهم السلام، وصدق نصيحهم؛ فصالح عليه السلام لم يشمت بهم بل أظهر ألمه عليهم عندما لم يستجيبوا له، فالمصلحون لا يشمتون بالمعذَّبين، بل يعلنون تألمهم لعدم انقياد المستكبرين للنصح الأمين.

ذهب صالح عليه السلام مبتعدًا عنهم بعد أن أخذهم العذاب حتى لا يعيش هو والمؤمنون في ديار المعذَّبين، ذهب شاعرًا بآلامه وأحزانه، والسياق هنا يبين لك مقدار التألم والتلف الذي سيطر على قلبه عندما رأى العذاب فتك بقومه، أو يوشك أن يفتك بهم، حيث قال الله ﷻ: ﴿وَقَالَ﴾.

الكلمة: [٢]: ﴿وَقَالَ﴾: الواو مرتبطة بالجملة الحالية، أي تولى عنهم مبتعدًا عن مكان تعذيبهم مغتمًا متحسرًا على ما فاته من إيمانهم يتحزن لهم حال كونه قائلًا: ﴿يَقُومُ لَقَدْ أْبَلَّغْتُكُمْ رِسَالَهٖ رَبِّي﴾ [الأعراف: ٧٩].

الكلمة: [٣]: ﴿يَقُومُ﴾: فلم يقل: يا أيها الهلكى، يا أيها المجرمون، يا إخوة السوء، بل ظهرت عاطفته بوضوح، وهو يناديهم بقوله: ﴿يَقُومُ﴾ فما زالت وشيجة القربى ومحبة الهداية تعملان في نفسه عملهما، وسبق أن ذكرنا جمال كلمة: (قوم)، فعندما ينطق بها الإنسان، فهو يتحجب إليهم؛ لأنها مأخوذة من قام، فكل واحد يقوم للآخر أي يفرح له، ويقوم على مصالحه.

الكلمة: [٤]: ﴿لَقَدْ﴾: تصور لنا هذه الكلمة تأكيد نبي الله ﷺ على كلامه، فاللام وكلمة: (قد) واقعتان في جواب القسم، والتقدير: والله لقد بذلت فيكم جهدي لأوصل لكم أمرين عظيمين:

الأمر الأول هو إبلاغ الرسالة، وتبينه الكلمات الآتية: ﴿أْبَلَّغْتُكُمْ رِسَالَهٖ رَبِّي﴾:

الكلمة: [٥]: ﴿أْبَلَّغْتُكُمْ﴾: أي: أوصلت لكم ما فيه بلاغكم لتجتازوا اختبار الحياة الدنيا على أحسن الوجوه في العمران بالإيمان والإحسان.

الكلمة: [٦]: ﴿رِسَالَةٌ﴾: تصور لنا أنه استلم شيئاً من ربه، وكان رسولاً أميناً، فأوصل هذا الذي أرسل به، أي: أبلغتكم كل ما أمرني ربي أن أوصله إليكم من التفاصيل المتعددة التي تحتاجونها في حياتكم.

الكلمة: [٧]: ﴿رَبِّي﴾: تبصّرنا كلمة: (رب) بأن الرسالة مصدرها الله ﷻ الذي يرّبي الناس وفق ما يصلحهم ويرفعهم وينفعهم، وأما الياء في كلمة: ﴿رَبِّي﴾ فتبصّرنا باعتزاز صالح ﷺ بربه جل مجده، فهو الذي ليس كمثله شيء.

الأمر الثاني الذي حلف عليه صالح ﷺ: أنه نصح لهم، وتبينه الكلمتان: [٨-٩]: ﴿وَرَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾:

وهنا يأتي سؤال: ما الفرق بين الأمرين: تبليغ الرسالة، والنصح؟
الجواب:

تبليغ الرسالة يعني: تأدية ما أمر أن يوصله إليهم من ربهم ﷻ، فيدخل فيه أركان الرسالة الثلاثة: أمرهم بما يجب أن يفعلوه، ونهيمهم عما يجب أن يتركوه، وإنذارهم من العواقب الوخيمة في الدنيا والآخرة إن لم يستجيبوا.

«والنصيحة: كلمة جَامِعَةٌ تَتَضَمَّنُ قيام الناصح للمنصوح لَهُ بِوُجُوهِ الْخَيْرِ إِرَادَةً وَفِعَالاً»^(١)، **والنصح** يعني: بذل أجمل الوسائل في التبليغ، وإظهار العاطفة العظيمة أثناء هذا التبليغ، حيث نبصر بذلك أن صالحاً ﷺ يحلف أنه بذل كل ما يملكه من دقة ومحبة وأسلوب حسن ليلبغهم أنهم لو اتبعوا الهدى فإن حياتهم ستكون كما يزين الخياط الناصح اللباس الذي يَخِيطُهُ، فيقبل الناس على أخذه، والتمتع به.

(١) صيانة صحيح مسلم (ص ٢٢١).

بصيرة: كلمة: ﴿تَصَحَّتْ﴾ تصور لنا أن صالحًا عليه السلام أخلص في ذلك ليحبب لهم التوجيهات التي أرسل بها، فهو مخلص لهم مشفق عليهم من عذاب الله تعالى، فإن عملوا بنصيحته أسعدتهم ونفعتهم في الدنيا والآخرة.

ثم ختم كلامه عليه السلام بقوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾، فما البصائر التي تظهر في هذه الكلمات الأربع؟
الجواب:

الكلمة: [١٠]: ﴿وَلَكِنْ﴾: الواو العاطفة لاتصال ما بعدها بما قبلها، وكلمة: ﴿لَكِنْ﴾ يُظْهِرُ بها سبب عدم استجابتهم له مع تبليغه ونصحه بإخلاص ومحبة.

الكلمة: [١١]: ﴿لَا﴾: كلمة نفى بها اختيارهم للقرار الصائب، وهو الإيمان به، والمحبة لنصحه.
الكلمة: [١٢]: ﴿تُحِبُّونَ﴾: يبصِّرنا هذا الفعل المضارع أن أساس الاختيار للشيء يقوم على المحبة لا على الإكراه، يا أسقى لهم، فهذا الفعل المضارع: ﴿لَا تُحِبُّونَ﴾ يصور لنا أنهم اختاروا الخيار الخاطئ، فلم يحبوا نصيح صالح عليه السلام في المرة الأولى، ثم لم يحبوه في المرة الثانية، ثم استمروا على عدم محبة النصيح في كل مرة يسمعون أو يفكرون به.

هذه كلمة السر في كل قرار خاطئ في الحياة، فهذا المسؤول لا يحب الناصح؛ فيجزم في حق الناس؛ لأن الله ﷻ ابتلاه بالسلطة، وهذا الابن لا يحب الناصح، فيعصي أبويه، وهذه الزوجة لا تحب الناصح، فتدمر حياتها، وهذا الزوج لا يحب الناصح فيخرب بيته، وهذا التاجر لا يحب الناصح، فيخسر في تجارته.. إنها كلمة عجيبة مؤثرة: ﴿لَا تُحِبُّونَ﴾.

الكلمة: [١٣]: ﴿النَّاصِحِينَ﴾: لم يقل هذا النبي المبارك عليه السلام: (لا تحبون نصحي)، بل قال: ﴿وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾، فكلمة: ﴿النَّاصِحِينَ﴾ جمع ناصح، وبصَّرنا هذا الجمع أن المستكبرين من قوم صالح عليه السلام لم يكتفوا بأن لا يحبوا نصيح نبهم عليه السلام، بل لم يحبوا نصيح كل واحد ينصحهم بأن يتبعوا نبهم عسى أن يحققوا الحياة السعيدة.

ما أنعسهم! ما أشقاهم!، فربما نصحهم أبّ آمَنَ واتبع الحق، فلم يلتفتوا إليه، وربما نصحهم صديق مشفق، فلم يبالوا به، وقد رأينا فيما سبق المؤمنين المستضعفين من قومه يفتخرون بأنهم آمنوا بما أرسل به، وهذا يعني أنهم ينصحون المستكبرين بأن يفعلوا الأمر ذاته.

بصيرة: كلمة: ﴿التَّبَصُّرِ﴾: تبصّرنا بتعدد النصح، وهذا أسلوب ينبغي أن يتبعه المُرَبُّونَ، فيكررون النصح من جهتهم بأساليب متعددة، ويستعينون بغيرهم من الصالحين للقيام بهذه الوظيفة.

ولكننا نتساءل: إن كان صالح عليه السلام قال ذلك بعد أن هلك قومه، فكيف يصحّ أن يخاطب الموتى؟

الجواب: خطابه لقومه وقد صاروا جاثمين يصور لنا عدة عواطف:

الأولى: شدة محبته لصالحهم، وتأمله على واقعهم، فها هي فاطمة عليها السلام تخاطب أباهما عليهما السلام معزّية نفسها بعد موته: "يا أبتاه، أجب ربّاً دعاه، يا أبتاه، مَنْ جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه، إلى جبريل ننعاه"^(١).

وقد يقول الرجل الصالح لصاحبه وهو ميت وكان قد نصحه حيّاً، فلم يسمع منه حتى ألقى بنفسه إلى التهلكة: يا أخي، كم نصحتك، وكم قلت لك فلم تقبل مني؟ وقد يقول وهو وحيدٌ خالٍ في بيته لصاحبه الذي في مكان آخر، وهو لا يراه وليس بينهما اتصال: ألم أقل لك كذا وكذا؟ وهو لا يسمعه، وكذلك قد يأتي إلى قبر صاحبه، ويقول له: يا فلان ألم أقل لك كذا وكذا وهو ميت؟

وكل ذلك يعكس ألماً إما على الفقد، وإما على الاختيار الخاطئ الذي وقع فيه صاحبه. ولذا نجد امرئ القيس يقول:

فَإِذَا نَبَأُكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ بِسِقْطِ اللَّوَى، بَيْنَ الدُّخُولِ، فَحَوْمَلٍ^(٢)

(١) البخاري (٤١٩٣).

(٢) ديوان امرؤ القيس (ص: ١٤).

واللذان يخاطبهما غير موجودين أصلاً.

الثانية: جهره بما يزيده يقيناً بربه، فقد خاطبهم، وهو يشعر أنهم يسمعون، وإن كانوا لا يقدرّون على الرد، فقد نادى النَّبِيُّ ﷺ بَعْضَ قَتَلَى الْمُشْرِكِينَ بِبَدْرِ بَعْدَ دَفْنِهِمْ فِي الْقَلْبِ: «يَا فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ! وَفُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ! أَيَسُرُّكُمْ أَنْكُمُ أَطْعَمْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدْنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا؟» قَالَ أَبُو طَلْحَةَ الْأَنْصَارِيُّ رَأَوِي هَذَا الْحَدِيثَ: فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا تُكَلِّمُ مِنْ أَجْسَادٍ لَا أَرْوَاحَ لَهَا؟ - أَوْ فِيهَا - فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ». قَالَ قَتَادَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَحْيَاهُمْ اللَّهُ ﷻ حَتَّى أَسْمَعَهُمْ قَوْلَهُ ﷺ تَوْبِيخًا وَتَصْغِيرًا وَنِقْمَةً، حَسْرَةً وَنَدَمًا^(١).

وكل ميت فإنه في مرحلة ما يسمع ما حوله، ولكنه لا يستطيع الإجابة، فقد ذهب الزمان الذي يتحكم فيه الإنسان باللسان.

"وهكذا تطوى صفحة أخرى من صحائف المكذبين، ويحق النذير بعد التذكير على المستهزئين." ثم وصلنا إلى قوله ﷺ: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]، فما العهد الجديد الذي ينقلنا إليه القرآن بعد العهد الثالث الذي

مضى، عهد أمة ثمود ونبهم صالح ﷺ؟

الجواب: هنا يأتي عهد قوم لوط ﷺ

(١) البخاري (٣٧٥٧).

الدورة الرابعة: حضارة دولة قوم لوط

القيادة الرابعة للذرية الأدمية (لوط عليه السلام) في مواجهة الفساد الخلقي
الذي يدمر البشرية بالشهوات الشاذة المحرمة [الأعراف: ٨٠-٨٤]



عَبْدُ اللَّهِ مُحَمَّدٌ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ

مُفَصَّلٌ تَسْنِينُ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (٤)

الدورة الرابعة: حضارة دولة قوم لوط

وفيها قام لوط عليه السلام في مواجهة نوع من أخطر أنواع الإفساد في الأرض، وهو

الفساد الخلقي الذي يدمر البشرية بالشهوات الشاذة المحرمة: [الأعراف: ٨٠-٨٤]

آيات هذا القسم: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ وَكَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأعراف: ٨٠-٨٤].

هنا نسأل بصورة مباشرة: ما المشاهد التي ظهرت في قصة لوط عليه السلام مع قومه؟ وإذا عُلِمَ أن عهد إبراهيم عليه السلام يسبق عهد لوط عليه السلام، فما المناسبة والاتصال بين العهد السابق عهد أمة ثمود ذات الحضارة القوية، وعهد أمة لوط عليه السلام؟

الجواب: تضمن هذا العهد الرابع أربعة مشاهد، تفصيلها في الآتي:

المشهد الأول: التعرف إلى القيادة النبوية الجديدة، وهذا المشهد يُبيّن حرف الواو في قول الله تعالى: ﴿وَلُوطًا﴾، وهو مشهد المناسبة والاتصال العظيمين بين العهود السابقة، وعهد لوط عليه السلام:

بعد قوم صالح عليه السلام استمرت البشرية في تقدمها، وتناسلها، وظهور المصلحين والمفسدين فيها، فطويت صفحة أخرى من صحائف المستكبرين بالعذاب المرعب الذي أصاب المستكبرين من قوم ثمود، تبصرةً وذكرى لأولي الألباب، ويحق النذير بعد التذكير على المستهزئين، ولكن عجلة التاريخ تظل دائرةً سائرةً، وجاء من نسل المؤمنين الذين كانوا في عهد الأنبياء السابقين قوم مفسدون.

وقد تسأل متلهفًا: ما الحضارات التي نشأت بعد حضارة ثمود؟ ولماذا لم يتحدث القرآن عن مصير قوم إبراهيم عليه السلام؟

الجواب: نشأت بعد حضارة ثمود حضارات جديدة في العالم، كان من أهمها حضارة أرض بابل من العراق في زمن إبراهيم عليه السلام، ولكن سورة الأعراف لم تتعرض لذكرهم، بل تنتقل إلى عهد لوط عليه السلام، وهو المؤمن الصالح الذي آمن بإبراهيم عليه السلام، وهاجر معه.

أسباب عدم ذكر قصة إبراهيم بعد قصة قوم صالح عليه السلام:

أولاً: أنه لم يشتهر تعذيب قوم إبراهيم عليه السلام، بل اشتهر تخلص نبيهم من بطشهم؛ إذ نجاه الله ﷻ ولوطاً إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين، وسياق سورة الأعراف يحدثنا عن هلاك الأمم الظالمة المستكبرة الغافلة في مسيرة التاريخ البشري إذ قال الله ﷻ في أول السورة: ﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٥٠﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف: ٤-٥٠]، فالذين اشتهر ذكر تعذيبهم بعد حضارة ثمود هم قوم لوط عليه السلام، وليس قوم إبراهيم عليه السلام.

ثانياً: أن جريمة الشرك التي وقع فيها قوم إبراهيم عليه السلام قريبة في معاملها الكبرى مما فعله قوم نوح وقوم هود وقوم صالح عليهم السلام، وكأن الله ﷻ أراد أن ينقلنا إلى نوع جديد من أنواع العصيان والطغيان، وإلى عهد جديد من الإفساد، هو عهد الانحلال الأخلاقي، والإفساد المجتمعي الذي يدمر الأرض والإنسان بفعل الفاحشة بين الرجال.

ثالثاً: كشف الله ﷻ في بدايات سورة الأعراف خطة الشيطان الخطيرة لنزع لباس البشر، لتتكشف سواتهم، ويجرد عنهم لباس التقوى، وقد برع قوم لوط عليه السلام في هذا النوع الخطير من الإفساد، وكأن الله ﷻ ينقلنا تماماً إلى ما سيواجه البشرية في أيامها القادمة، وقد حدث هذا، وانظر للحضارة الغربية المنتكسة المدمرة للإنسانية كيف ترفع هذه الأيام بحماس شديد راية نزع البسة الإنسانية، وتشجيع التعري والفاحشة في العالم، ويجعلون ذلك علامة على التقدم والقيام بحقوق الإنسان، وآخر ذلك الحرب التي يشنها متطرفو الفاسقين في فرنسا على النقاب والحجاب، وأخيراً حربهم على اللباس الذي يستر الساق "العباءة"، ولما أنكر عليهم بعض قومهم صرحوا بالذي يريدون، فقالوا: يستبين لكم صاحب هذا اللباس من ملامحه، ويعنون بذلك تصيد الأعفّة من المسلمين ومعرفتهم.

رابعاً: ذكر الله ﷻ قصة إبراهيم عليه السلام في سورة الأنعام بعض تفاصيلها المثيرة التي لم تتكرر في أي سورة، وأسّس بها الكلام عن عدد من الأنبياء الذين ذكرهم في سورة الأعراف، والأنعام والأعراف قرينتان كما ذكرنا، وهذا الأسلوب القرآني نجده في سور أخرى، فقد ذكر الله ﷻ مثلاً في سورة الأنبياء إشارةً محدودة لقصة موسى وهارون عليه السلام اكتفاءً بالتفاصيل الضخمة التي ذكرها في سورة طه التي جاءت قبل سورة الأنبياء في ترتيب السور المصحفي.

هنا نسأل: فهمنا أن الواو في قول الله ﷻ: ﴿وَلَوْطًا﴾ كشفت الاتصال بين عهد لوط عليه السلام والعهود الثلاثة السابقة، فما العامل الذي نصب كلمة لوط في قوله ﷻ: ﴿وَلَوْطًا﴾؟ وما المعاني البينانية التي تختبئ خلف نصب هذه الكلمة مع وجود الواو العاطفة؟

الجواب: الواو تظهر الاتصال القوي بين هذا العهد وما قبله، وكلمة: ﴿وَلَوْطًا﴾ منصوبة بفعل محذوف تقديره: "أرسلنا" التي بدأ الله ﷻ بها الكلام عن مسيرة الأنبياء في التاريخ عندما ذكر الله ﷻ نوحاً عليه السلام حين قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: ٥٩]، فكان الله ﷻ قال: لقد أرسلنا نوحاً، وهوذا، وصالحاً، ولوطاً عليه السلام، فالعطف هنا عطفٌ لمفرداتٍ تشير إلى أعظم القيادات النبوية التي حاولت إنقاذ ذرية آدم عليه السلام من الفخاخ الشيطانية.

بصيرة: ﴿وَلَوْطًا﴾ إن هذا العطف الجميل بين هذه الأسماء العظيمة يصور لنا تتابع هذه القيادات النبوية المصلحة ضمن مسيرة الإنسانية، لتصلحها وترشدها وتسدها وتنقذها من حبائل الشيطان، وتخلصها من الفساد الذي تقع فيه كلما نشأ جيل جديد.

فهذا هو التقدير الأو، وهو رائع، يبين كيف تختبئ المعاني المتتابعة خلف الألفاظ القرآنية المحدودة المحددة المتميزة إلا أنه لا يمنع من توافر معنى ثانٍ بتقدير آخر.

فما التقدير الثاني؟

الجواب:

التقدير الثاني: أن تكون الواو لعطف القصة على القصة في قوله: ﴿وَلَوْطًا﴾، وقد جَوَزَ الزمخشري وابن عطية نصب ﴿لَوْطًا﴾ بـ(واذكر) مضمره^(١)، والمعنى: واذكر لوطًا يا أيها الرسول، ويا أيها القارئ، ويا أيها السامع؛ إذ قال لقومه معالجًا وضعا غريبًا جديدًا على البشرية، هو وضع الفساد في فطرة الناس وأخلاقهم: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾، فيكون: ﴿إِذْ﴾ ظرفٌ لأرسلنا، واعتُرض بأن الإرسال قبل وقت القول لا فيه كما تقتضيه هذه الظرفية، ودُفع بأنه يعتبر الظرف ممتدًا كما يقال: (زيد في أرض الروم)، فهو ظرف غير حقيقي يعتبر وقوع المظروف في بعض أجزائه. أو يكون التقدير: "واذكر لوطًا"، و﴿إِذْ﴾ بدلٌ منه، بدل اشتمال^(٢)، بمعنى: واذكر لوطًا وقت قال لِقَوْمِهِ.

هنا نسأل: في قول ربنا الملك الحق: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ [الأعراف: ٨٠]، فكلمة: ﴿إِذْ﴾ تدل على أن كلام لوط كان حال نطقه به. ونحن نذكره ونذكر كلامه وقت نزول الآية، وبعد نزول الآية إلى يومنا هذا:

فكيف نجمع بين قوله في الماضي الذي تدل عليها كلمة: ﴿إِذْ﴾ وبين ذكرنا له الآن؟ وبعبارة أخرى: كيف يظهر لنا جمال الكلمة القرآنية: ﴿إِذْ﴾ هنا؟

الجواب: اقتران الإرسال والذكر بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ يعني: أن لوطًا عليه السلام بادر في تبليغ رسالة ربه دون إبطاء، فدعا قومه إلى ما أُرسله الله به، فكلمة: ﴿إِذْ﴾ تعني: وقت، أي: أرسلنا لوطًا فاذكره وقت قال لقومه، فلم يتأخر لحظة، ولا تردد برهة في أن يبلغ رسالة ربه لقومه، فالمُقَارَنَةُ الَّتِي تَقْتَضِيهَا الظَّرْفِيَّةُ بَيْنَ وَقْتِ الْإِرْسَالِ وَوَقْتِ قَوْلِهِ، مُقَارَنَةُ عُرْفِيَّةٍ تدل على شدة القرب، أي بلغهم في شِدَّةِ الْقُرْبِ بِأَقْصَى مَا يُسْتَطَاعُ مِنْ مُبَادَرَةِ التَّبْلِيغِ^(٣).

(١) إعراب القرآن لابن سيده (٥/ ٦٤).

(٢) روح المعاني (٤/ ٤٠٦).

(٣) «التحرير والتنوير» (٨-ب/ ٢٢٩).

قصة المدن الخمس (المؤتفكات):

وذكر بعض المفسرين أن لوطاً عليه السلام هو ابنُ أخي إبراهيمَ خليلِ الرحمن -صلى الله على نبيِّنا وعَلَمِها وَسَلَّم- عاش في العراق، وأمن لعمِّه إبراهيمَ صلى الله علىهما وَسَلَّم، ثم هاجر معه إلى أرضِ كنعانَ في بلاد الشام، فبعثه الله ﷻ إلى قوم يسكنون قُربَ البَحْرِ المِيتِ الَّذِي سَمِّيَ بِبَحْرِ لُوطٍ عليه السلام أَيْضاً ^(١)، وذكروا أن قومه كانوا أَرْبَعَةَ آلافٍ بَيْنَ الشَّامِ والمَدِينَةِ الشَّرِيفَةِ ^(٢) يسكنون خمس مدن هي التي لُقِّبت في القرآن بالمُؤْتَفِكَاتُ، وهي سَدُومُ وَعَمُورَةُ وَأَدْمَةُ وَصَبُوبِيمُ، والظاهر أنها باء وصباويم، وبَالِغُ الَّتِي سُمِّيَتْ بَعْدَ ذَلِكَ صُوغَرَ لِصِغَرِهَا، وَكَانَتْ عَمُورَةُ تَلِي سَدُومَ فِي الْكِبَرِ وَفِي الْفَسَادِ، وَهُمَا اللَّتَانِ يَحْفَظُ النَّاسُ اسْمَهُمَا إِلَى الْآنِ، وزعم بعضهم أنهم أسلافُ الْفَيْنِيقِيِّينَ، وكانتا على شاطئِ السَّيْدِيمِ، وهو بَحْرُ الْمَلْحِ كما جاءَ في التَّوْرَةِ ^(٣)، ولعل البحر الميت صار محلها بعد الخسف، والظاهر أن هذا البحر لم يكن موجوداً، وإنما كانوا على نهر الأردن وأن هذا البحر نشأ بعد أن خسف بهم، والله أعلم.

وبعض علماء طبقات الأرض يؤكدون أن البحر الميت يغمر مدناً كانت أهلة بالسكان. وقد كشف بعض رجال الآثار بقايا حصن بجوار البحر، وبجواره المذبح الذي تقدم عليه القرايين.

لوط عليه السلام: اسمه وسبب عدم وصفه بأنه أخ لقومه:

هو: لوط بن هاران بن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السلام ^(٤).

وعندما نقرأ قوله ﷻ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ [الأعراف: ٨٠] نتساءل: لماذا لم يوصف لوط عليه السلام بأنه أخ لقومه كما وصف الله ﷻ هوداً وصالحاً عليهما السلام، فقال ﷻ: ﴿وَالِإِخْوَانِهِمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥]، وقال ﷻ: ﴿وَالِإِخْوَانِهِمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٧٣]؟

الجواب: ذهب ابن عاشور رحمته الله إلى أن لوطاً عليه السلام لَمْ يُوصَفْ بِأَنَّهُ أَخُوهُمْ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبَائِلِهِمْ، وَإِنَّمَا نَزَلَ فِيهِمْ وَاسْتَوْطَنَ دِيَارَهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ قُرَابَةٌ ^(٥).

فما رأيك بهذا؟!

(١) تفسير المنار (٨/ ٤٥٣).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٤٥٢).

(٣) التحرير والتنوير (٨-ب/ ٢٣٠).

(٤) تفسير ابن كثير (٦/ ١٥٧).

(٥) «التحرير والتنوير» (٨-ب/ ٢٢٩)، ومن ذهب إلى ذلك أيضاً أبو زهرة. ينظر: زهرة التفاسير (٦/ ٢٨٩٢).

البحث عن سبب عدم وصف لوط عليه السلام بأنه أخ لهم في هذه السورة يحتاج إلى زيادة تأمل، فإنك ترى أن لوطاً عليه السلام لم يوصف بأنه أخ لهم هنا، ولكنه وصف بذلك في قوله ﷻ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ۖ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ۝﴾ [الشعراء: ١٦٠ - ١٦١].

والذي يظهر لي: أنه وصف في سورة الشعراء بذلك باعتبار المعاشرة والمخالطة؛ لأن الإنسان إذا عاش وخالط قومًا صار أخًا لهم، ولم يوصف بذلك في سورة الأعراف باعتبار النسب والدين. مثل نوح عليه السلام فإنه كان من قومه، ولكن الله ﷻ لم يصفه في سورة الأعراف بأنه أخوهم، فقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ولكنه وصفه في سورة الشعراء بالأخ لهم.

وأما اسم لوط عليه السلام، فقد قال محمد رشيد رضا رحمته الله: "وَأَسْمُ لُوطٍ مَصْرُوفٌ وَإِنْ كَانَ أَعْجَمِيًّا لِكُونِهِ ثَلَاثِيًّا سَاكِنَ الْوَسْطِ كَنُوحٍ، وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: إِنَّهُ عَرَبِيٌّ مِنْ مَادَّةِ لَاطِ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ لُوطًا أَيْ لَصِقَ بِهِ، وَلَكِنَّ بَعْضَ أَهْلِ الْكِتَابِ يَقُولُ: إِنَّ مَعْنَى كَلِمَةِ لُوطٍ بِالْعِبْرَانِيَّةِ "سَتَرٌ" فَهِيَ مِنَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَخْتَلِفُ مَعْنَى مَادَّتِهَا الْعَرَبِيَّةَ عَنْ مَادَّتِهَا الْعِبْرِيَّةِ وَالسَّرْيَانِيَّةِ أُخْتِي الْعَرَبِيَّةِ الصُّغْرَيْنِ، عَلَى أَنَّهُ يُقْرَبُ مِنْهُ؛ فَإِنَّ اللَّصُوقَ ضَرْبٌ مِنَ السَّرِّ" (١).

ولماذا غيّر الله ﷻ الأسلوب بين قصة هود وصالح عليهما السلام قبل هذه القصة وقصة شعيب عليه السلام بعد هذه القصة، فقال ﷻ: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥]، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [الأعراف: ٧٣]، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥]، بينما قال ﷻ هنا: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ [الأعراف: ٨٠]؟

الجواب: هذا التغيير في أسلوب حكاية هذه القصص التاريخية الكبيرة يدل على مزية معينة موجودة في عهد هذه الأمة، وهذه الرسالة التي أرسل بها لوط عليه السلام إليها، إما لأن قومه لم يعرفوا باسم محدد كقوم نوح عليه السلام، وهذا ما مال إليه ابن عاشور رحمته الله، وإما لأن قومه مارسوا فسادًا لا يتخيله أحد من العالمين، ولم يقع فيه أحد من البشر قبلهم، وهو تطبيع الفاحشة، وجعلها نظامًا طبيعيًا في حياة الناس.

(١) تفسير المنار (٨/ ٤٥٣).



المشهد الثاني

الأدوية المتقنة التي قدمها لوط عليه السلام لعلاج الانحراف الشاذ لقومه [الأعراف: ٨٠-٨١]

العلاج الثاني

الإنكار:

فكلمة ﴿أَتَأْتُونَ﴾ سؤال إنكاري يفهم منه أنهم يأتونها بصورة اختيارية

العلاج الأول

التركيز الشديد على الإفساد الأخلاقي الخطير الذي تصبف به قومه

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ ...﴾ [الأعراف: ٨٠-٨١]

العلاج الرابع

تفطيع الجماعة في الفعل:

وبصبرنا بذلك واو الجماعة في قوله: ﴿أَتَأْتُونَ﴾

العلاج الثالث

الاختيار:

فكلمة: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ بصورهم وهم يتحركون بمحض اختيارهم عند فعلهم لهذا المنكر الكبير

العلاج السادس

اختراع هذه الفاحشة المنكرة لأول مرة في حياة البشر فخالفوا السبيل الفطري المنطقي ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]

العلاج الخامس

تسمية ما يفعلونه باسمه الحقيقي:

﴿الْفَحِشَةَ﴾، وعزفها بال، وأفردتها، مع أن الفواحش متعددة، وذلك على سبيل المبالغة.

العلاج الثامن

الإجابة عن السؤال الإنكاري بإخبارهم أنهم يفعلون تلك الفعلة الشنيعة بوضوح، وبصبرنا بهذا قراءة الإخبار: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ [الأعراف: ٨١]

العلاج السابع

التساؤل عن جريمتهم بصورة تستفز عقولهم: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ [الأعراف: ٨١] بالاستفهام على قراءة الجمهور، الذي يفيد أن ما بعد الهمزة واقع، وأن فاعله مذموم ملوم لومًا عظيمًا

العلاج العاشر

يصورلهم أنهم سيصلون إلى تدمير الإنسانية ﴿مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ [الأعراف: ٨١]، إضافة إلى تعذيب النساء نفسيًا بالإعراض عنهن

العلاج التاسع

تقبيح فعلهم ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ [الأعراف: ٨١]، مؤكدًا أنه بسبب انحلال الإرادة السوية أمام الشهوة الردية، وليس بسبب جينات لا يمكن التخلص منها

العلاج الحادي عشر

لفت نظرهم إلى أن فعلهم إسراف، إذ قال: ﴿يَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١]

المشهد الثاني: الأدوية المتقنة التي قدمها لوط عليه السلام لعلاج الانحراف الشاذ لقومه، إذ قام برسالة الإصلاح الأخلاقي، وإحياء الأمن المجتمعي، وبيصّرنا بذلك قوله ﷺ: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأعراف: ٨٠-٨١].

تكشف لنا الآيتان أن قوم لوط عليه السلام وقعوا في انحراف شديد مختلف غير متوقع، إذ كانوا يأتون الفاحشة الشنيعة، ولا يأتونها بصورة مَرَضِيَّة قلقة مخفية بل يجعلونها نظام حياتهم، وكأن المتطهر منها هو الشاذ، والمخالف للفطرة والنظام، فنظر لوط عليه السلام إلى الإفساد الغريب الشاذ الذي وجده في قومه، فعالج مَرَضَهُم الذي لا يعترفون به معالجة الطبيب الماهر الحذق، فقال الله ﷻ واصفًا جهود لوط عليه السلام: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأعراف: ٨٠-٨١].

بصرتنا هاتان الآيتان أن لوطًا عليه السلام حاول أن يقدم المعونة العلاجية المناسبة لهذا الانحراف الشبهواني الصارخ، فما العلاج الأول الذي قدمه لهم؟

الجواب: قدّم لوط عليه السلام أحد عشر علاجًا للانحراف الأخلاقي الذي وقع فيه قومه، وهي:

العلاج الأول: التركيز الشديد على الإفساد الخطير الذي اتصف به قومه:

هنا يفاجئك أن الله ﷻ يخبرنا في سورة الأعراف - كما في سورة النمل والعنكبوت - أن لوطًا عليه السلام يذكر لقومه ضرورة إصلاح الأرض من فسادهم الأخلاقي الشاذ الغريب الذي يمارسونه، فيقول لهم: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأعراف: ٨٠، ٨١].

فلم يمسح على رؤوسهم ويقول لهم: لا بأس يمكن أن ننظر فيما تفعلونه، ويمكن أن نناقشه بل قال لهم مباشرة: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

وهنا تتفاجأ أيضًا في أسلوب لوط عليه السلام، فلم يذكر لهم هنا أنه يجب عليهم أن يعبدوا الله ﷻ كما ذكر الله ﷻ ذلك في القصص الثلاث السابقة، وفي القصة الخامسة اللاحقة.

وهنا يبرز لنا سؤال يتعلق بهذا العلاج المباشر الذي مارسه لوط مع قومه:

فلماذا لم يذكر قضية الألوهية؟ لماذا لم يقل لهم: ﴿يَقُومُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾^(١) كما فعل نوحٌ وهودٌ وصالحٌ عليهم السلام من قبله؟

الجواب: لقد ذكر لوط عليه السلام قضية الألوهية، لكن ليس لإصلاح شرك كان فيهم، فقد أخبرنا الله ﷻ أن لوطاً عليه السلام ذكر لقومه قضية الألوهية في سورة الشعراء، حيث بدأ رسالته بها، وربط بينها وبين الإصلاح لأخلاقهم الرديئة، وممارساتهم المنحرفة، فقال الله ﷻ عنه: ﴿كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ۚ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ۚ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۚ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِيَّاهُ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۚ﴾، ثم ذكر الفساد الذي هم فيه فقال عليه السلام: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ۚ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ۚ﴾ [الشعراء: ١٦٠ - ١٦٦].

لكن عندما نراجع سورة الأعراف، وهود، والحجر، والنمل، والعنكبوت نجد أنه لم يذكر موضوع الألوهية وإنما صب جهده تماماً على موضوع إتيان الفاحشة.

ما الذي تلاحظه في خطابه لقومه هنا في موضوع الألوهية؟

الجواب: تلاحظ أنه ذكرهم بالله ﷻ داعياً إياهم إلى تقواه، والتقوى تتضمن نفي الشرك، ونحن نعلم أن الرسل جميعاً بعثوا بدعوة الإنسانية إلى عبادة الله ﷻ كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، لكننا لم نجد آيات خاصة تخبرنا أن لوطاً عليه السلام ركّز على موضوع الألوهية، وقد حاول السيد محمد رشيد رضا رحمته الله أن يجد السبب، فقال: "وَلَكِنْ خُذِفَ هُنَا مُتَعَلِّقُ الْإِرْسَالِ وَرُكْنُهُ الْأَوَّلُ، وَهُوَ تَوْحِيدُ الْعِبَادَةِ لِلْعَلَمِ بِهِ مِمَّا قَبْلَهُ، وَمِمَّا ذُكِرَ فِي غَيْرِ هَذِهِ السُّورَةِ"^(١)، فما رأيك بما قرره رحمته الله؟

هذا الإمام الثاقب الفكر ربما جانب الصواب هنا؛ وذلك لأن الله ﷻ ذكر موضوع الألوهية مراراً في السورة، فقد ذكر أن الأنبياء عليهم السلام أمروا قومهم بعبادة الله ﷻ قبل قصة لوط عليه السلام، وبعدها،

(١) تفسير المنار (٨/ ٤٥٣).

وربطها بكل نبي بعثه قبل لوط وبعده، فذكرها في قصة نوح وهود وصالح عليهم السلام، قبل قصة لوط عليه السلام، وذكرها في قصة شعيب بعد قصة لوط عليه السلام.

وكل هذه المؤشرات تجعلنا نحتمل أن مشكلة قوم لوط في تصور معنى الألوهية لا في الألوهية ذاتها. لأن الإنسان إذا عبد الله تعالى، فيجب أن يستقيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ [فصلت: ٣٠].

بصيرة: إن الخلل عند قوم لوط فيما يظهر أنهم آمنوا بالله تعالى، ثم جعلوا الفاحشة شيئاً معتاداً، وحياة طبيعية يمارسونها في حياتهم، فجعلوا أنفسهم بذلك آلهة، وشرعوا لأنفسهم فعل النجاسات.

ويمكن أن نقرر أن هؤلاء الناس آمنوا بالله تعالى؛ لأن إبراهيم عليه السلام هاجر إلى نواحيهم، وأنهم تأثروا بدعوته، فيحتمل أنهم آمنوا لكن أبوا إلا إتيان هذه المعصية، وممارسة هذه الفاحشة، وبما أن لوطاً ابن أخ لإبراهيم عليه السلام، فقد أرسله الله تعالى إليهم ليعالج هذه الفاحشة العظيمة التي انتشرت في دولتهم، إذ كانوا يعرفون الله تعالى ولا يعبدون أصناماً، ويؤكد هذا أن لوطاً عليه السلام ذكر في سورة العنكبوت ثلاث معاصٍ كبار لم يذكر منها الشرك، فماذا قال الله تعالى عن ذلك؟ قال تعالى: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَيْنَكُمْ لَأَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ ﴿٢٩﴾﴾ [العنكبوت: ٢٨، ٢٩]، فلم يذكر الأوثان، وهذا يجعلنا نحتمل أنه كان عندهم شيء من التوحيد، ولكنهم يأتون إلا أن يفعلوا هذه المعصية العظيمة.

ويقول أبو حيان رحمه الله: "ولم يأت في قصة لوط أنه دعا قومه إلى عبادة الله، كما جاء في قصة إبراهيم وقصة شعيب عليه السلام، لأن لوطاً كان من قوم إبراهيم عليه السلام وفي زمانه، وسبقه إبراهيم عليه السلام إلى الدعاء لعبادة الله وتوحيده، واشتهر أمره بذلك عند الخلق، فذكر لوط عليه السلام ما اختص به من المنع من

الفحشاء وغيرها، وأما إبراهيم وشعيب عليه السلام فجاء بعد انقراض مَنْ كان يعبد الله ﷻ، فلذلك دعوا إلى عبادة الله ^(١).

التنوع الأسلوبي في التعبير عن قصة لوط عليه السلام:

ونلاحظ هنا شيئاً ظاهراً في التدبر القرآني: فقد كان التعبير القرآني في قصة نوح عليه السلام يقول الله ﷻ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ثُمَّ نَسَقَ مَنْ بَعْدَهُ عَلَيْهِ، فَقِيلَ: ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥]، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [الأعراف: ٧٣]، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥]، وَعَدَلَ عَنْ هَذَا الْأُسْلُوبِ فِي قِصَّةِ لُوطٍ، فَلَمْ يَقُلْ: ﴿وَإِلَىٰ أَهْلِ أَدُومَ أَخَاهُمْ لُوطًا﴾، أَوْ ﴿إِلَىٰ أَهْلِ سَدُومَ لُوطًا﴾، أَوْ ﴿وَأَرْسَلْنَا لُوطًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾، ونحو ذلك ^(٢)، وَإِنَّمَا قَالَ ﷻ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ﴾ [الأعراف: ٨٠].

وقد تسأل: لماذا تغير الأسلوب في قصة لوط عليه السلام؟ وما الحكمة من ذلك؟

الجواب: نحتاج إلى مزيد من النظر في معالجة السورة للقضايا المختلفة، وإلى فتح من الله ﷻ لفهم هذه السور المتعددة، ولفهم اتساق هذا النسق تارة، وتغيره في بعض المواضع تارة أخرى، وما المعاني الكامنة وراء هذا وذاك.

وعند التأمل تجد أن لوطاً عليه السلام ركّز في تبليغه على الجريمة الشاذة المقززة التي يقتربها قوم لوط عليه السلام، وتلاحظ أنه عليه السلام في سور: الأعراف، وهود، والحجر، والنمل، والعنكبوت يركز على جريمتهم الأخلاقية، وما صاحبها من قطع السبيل؛ لأخذ المال، أو ليفعلوا به الفاحشة، وعندما يذكرهم لوط عليه السلام بالله ﷻ فإنه يذكرهم بتقواه كما في سورة الشعراء: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء: ١٦٣]، وفي سورة هود: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْعِي﴾ [هود: ٧٨]، لماذا يذكرهم بتقوى الله فهل كانوا مشركين؟ لا، بل يدل على أنهم كانوا مؤمنين بالله ﷻ، لكنهم يخالفون الله ﷻ في أعظم أوامره، وهو الحفاظ على سلامة الفطرة الإنسانية.

(١) البحر المحيط في التفسير (٣٥٣/٨).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٤٥٣/٧).

بصيرة: الرسل عليهم السّلام جميعاً دعوا إلى عبادة الله ﷻ، لكن لم يُذكر هذا في قصة لوط عليه السلام؛ لأنهم ربما كان عندهم بقايا الإيمان بالله ﷻ، ولكنهم يأبون إلا مخالفة الله ﷻ في أعظم أوامره وهو الحفاظ على الإنسانية، فيخالفونه بإتيان الفاحشة.

وقد تسأل: هل يمكن أن يكون الإنسان مؤمناً بالله ﷻ، وهو يأتي هذه الفاحشة العظيمة؟

الجواب: هناك حالتان لهذا الذنب العظيم:

الحالة الأولى: إتيان هذا الذنب كبيرة من كبائر الذنوب، وهو مصيبة عظيمة، وجريمة بشعة في حق النفس والإنسانية، وفعل الكبائر لا يوجد معصوم منه إلا الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، ولا ينافي الإيمان قبل فعله وبعد فعله؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وقال النبي ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَالتَّوْبَةُ مَعْرُوضَةٌ بَعْدُ»^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «إِذَا زَنَى الرَّجُلُ خَرَجَ مِنَ الْإِيمَانِ كَانَ عَلَيْهِ كَالظُّلَّةِ، فَإِذَا انْقَطَعَ رَجَعَ إِلَيْهِ الْإِيمَانُ»^(٢).

الحالة الثانية: أن يأتي الفاحشة، ويحوّلها إلى نظام حياة، ويجعلها تشريعاً عاماً بين الناس، ويسنّ لأجلها القوانين، فهذه المصيبة الأكبر التي قد تصل إلى حدّ أسوأ من الشرك الفردي، وهذه هي الحالة الخطيرة التي كان عليها قوم لوط عليه السلام أنهم جعلوا إتيان الفاحشة هو الأصل الذي ينبغي أن يحياه الإنسان.

والإمام البقاعي رحمه الله رأى أنهم كانوا مشركين كغيرهم، ورجّح أن سبب تغير الأسلوب: "لأنّ من أعظم المقاصد بسياق هذه القصص تسليّة النبي ﷺ في مخالفة قومه له وعدم استجابتهم وشدة أذاهم،

(١) البخاري (٦٨١٠)، مسلم (١٠٤-٥٧).

(٢) أبو داود (٤٦٩٠)، وصحح إسناده ابن حجر في فتح الباري (٦١/١٢).

وإِندَارِ قَوْمِهِ أَنْ يَحِلَّ بِهِمْ مَا حَلَّ بِهَذِهِ الْأُمَّمِ مِنَ الْعَذَابِ، وَقِصَصُ مَنْ عَدَا قَوْمُ لُوطٍ مُشَابِهَةٌ لِقِصَّةِ قُرَيْشٍ فِي الشِّرْكِ بِاللَّهِ وَالْأَذَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ.

وَأَمَّا قِصَّةُ قَوْمِ لُوطٍ فَزَائِدَةٌ عَنْ ذَلِكَ بِأَمْرِ فَطِيعٍ عَظِيمِ الشَّنَاعَةِ شَدِيدِ الْعَارِ وَالْفُحْشِ فَعَدَلَ عَنْ ذَلِكَ النَّسَقِ تَنْبِيْهَا عَلَيْهِ تَهْوِيلاً لِلْأَمْرِ وَتَبْشِيْعاً لَهُ؛ لِيَكُونَ فِي التَّسْلِيَةِ أَشَدَّ، وَفِي اسْتِدْعَاءِ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ أَتَمَّ، وَحِينَئِذٍ يَتَرَجَّحُ أَنْ يَكُونَ الْعَامِلُ (أَذْكَرُ) لَا (أَرْسَلْنَا) أَي: وَاذْكُرْ لُوطاً عليه السلام وَمَا حَصَلَ عَلَيْهِ مِنْ قَوْمِهِ زِيَادَةٌ عَلَى شِرْكِهِمْ مِنْ رُؤْيِيَةِ فِيهِمْ هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي لَمْ يُبْقِ لِلشَّنَاعَةِ مَوْضِعاً.

فَالْقِصَّةُ فِي الْحَقِيقَةِ تَسْلِيَةٌ وَتَذْكِيرٌ بِنِعْمَةِ مُعَافَاةِ الْعَرَبِ مِنْ مِثْلِ هَذَا الْحَالِ، وَإِندَارٌ لَهُمْ سُوءِ الْمَالِ مَعَ مَا شَارَكَتْ فِيهِ أَخَوَاتُهَا مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى سُوءِ جِبِلَّةِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ وَشَرَارَةِ جَوْهَرِهِمُ الْمُقْتَضِي لِيَتَفَرَّدَهُمْ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ بِذَلِكَ الْأَمْرِ الْفَاحِشِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ أَشْنَعُ الشَّنَعِ بَعْدَ الشِّرْكِ - مَعَ مَا جَعَلَ اللَّهُ ﷻ فِي كُلِّ طَبْعٍ سَلِيمٍ مِنَ التُّفَرَّةِ عَنْهُ - اخْتِصَاصُهُ بِمُشَارَكَةِ الشِّرْكِ فِي أَنَّهُ لَمْ يَحِلَّ فِي مِلَّةٍ مِنَ الْمِلَلِ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ وَلَا مَعَ وَصْفٍ مِنَ الْأَوْصَافِ، وَبَقِيَّةُ الْمُحَرَّمَاتِ لَيْسَتْ كَذَلِكَ، فَأَمَّا قَتْلُ النَّفُوسِ فَقَدْ حَلَّ فِي الْقِصَاصِ وَالْجِهَادِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَالْوَطْءُ فِي الْقُبُلِ لَمْ يَحْرَمْ إِلَّا بِقَيْدِ كَوْنِهِ زَنًى، وَلَوْلَا الْوَصْفُ لَحَلَّ، وَأَكْلُ الْمَالِ الْأَصْلُ فِيهِ الْجُلُّ، وَمَا حَرَّمَ إِلَّا بِقَيْدِ كَوْنِهِ بِالْبَاطِلِ - وَكَذَا غَيْرُ ذَلِكَ ^(١).

هَذَا مَا رَأَاهُ الْبِقَاعِي، وَلَا أَمِيلٌ إِلَى مَا قَرَّرَهُ رحمته الله فَإِنَّ الْإِجْرَامَ الْاِقْتِصَادِيَّ يَسَاوِي فِي إِجْرَامِهِ وَشَنَاعَتِهِ إِتْيَانُ الْفَاحِشَةِ إِنْ لَمْ يَكُنْ أَعْلَى؛ إِذْ يَتَرْتَبُ عَلَيْهِ نَشْرُ الْفَاحِشَةِ، وَبَيْعُ الْأَعْرَاضِ، وَبَيْعُ الْأَوْطَانِ، وَإِنْ كَانَتْ التَّشْرِيعَاتُ لَمْ تَأْتِ بِذِكْرِ حَدٍّ مُعَيَّنٍ لَهُ.

وَبِذَا تَرَانِي أَمِيلٌ مُتَرَدِّداً إِلَى أَنَّ قَوْمَ لُوطٍ عليه السلام لَمْ يَكُونُوا مُشْرِكِينَ فِي الْأَصْلِ، خَاصَّةً وَأَنْ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام هَاجَرَ مِنَ الْعِرَاقِ إِلَى جِهَتِهِمْ، فَلَعَلَّهُمْ أَسْلَمُوا بِسَبَبِ مَا سَمِعُوا عَنْهُ، فَأَرْسَلَ لَهُمْ لُوطاً عليه السلام يَعَالِجُ الْجَرَائِمَ الضَّخْمَةَ الَّتِي كَانُوا يَغْشَوْنَهَا.

ثُمَّ وَجَدْتُ ابْنَ عَاشُورٍ رحمته الله يَقُولُ: "فَذَكَرَ أَنَّ لُوطاً عليه السلام أُرْسِلَ لَهُمْ لِيُنَبِّهَهُمْ عَنِ الْفَاحِشَةِ، لَا لِإِتْمَانِهِمْ مُشْرِكُونَ بِاللَّهِ ﷻ، إِذْ لَمْ يُتَعَرَّضْ لَهُ فِي الْقُرْآنِ بِخِلَافِ مَا قُصَّ عَنِ الْأُمَّمِ الْأُخْرَى، لَكِنَّ تَمَازُجَهُمْ عَلَى

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٤٥٣-٤٥٤).

فِعْلُ الْفَاحِشَةِ وَاسْتِحْلَالِهِمْ إِيَّاهَا يُدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ ﷻ، وَبِذَلِكَ يُؤْذَنُ قَوْلُهُ ﷻ فِي سُورَةِ التَّحْرِيمِ: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾ [التحریم: ١٠]، فَيَكُونُ إِرسَالُ لُوطٍ ﷻ بِإِنْكَارِ تِلْكَ الْفَاحِشَةِ ابْتِدَاءً بِتَطْهِيرِ نُفُوسِهِمْ، ثُمَّ يَصِفُ لَهُمُ الْإِيمَانَ، إِذْ لَا شَكَّ أَنَّ لُوطًا ﷻ بَلَّغَهُمُ الرِّسَالَةَ عَنِ اللَّهِ ﷻ، وَبِذَلِكَ يَتَضَمَّنُ أَنَّهُ دَعَاهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ، إِلَّا أَنَّ اهْتِمَامَهُ الْأَوَّلَ كَانَ بِإِبْطَالِ هَذِهِ الْفَاحِشَةِ، وَلِذَلِكَ وَقَعَ الْإِفْتِصَارُ فِي إِنْكَارِهِ عَلَيْهِمْ وَمُجَادَلَتِهِمْ إِيَّاهُ عَلَى مَا يَخْصُ تِلْكَ الْفَاحِشَةَ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ ﷻ أَصَابَهُمْ بِالْعَذَابِ عُقُوبَةً، عَلَى تِلْكَ الْفَاحِشَةِ، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ: ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنْ أَسْمَاءٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤]، وَأَنَّهُمْ لَوْ أَقْلَعُوا عَنْهَا لَتَرَكُوا عَذَابَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ إِلَى يَوْمٍ آخَرَ أَوْ إِلَى الْيَوْمِ الْآخِرِ^(١).

لَكِنِّي أَسْتَدْرِكُ عَلَى أَسَاطِذِ الزَّمَانِ ابْنِ عَاشُورٍ ﷺ؛ فَإِنَّ جَمِيعَ أَصْحَابِ الْفَوَاحِشِ يَنْبَغِي أَنْ تَبِينَ لَهُمُ الْأُلُوهِيَّةُ أَوَّلًا وَآخِرًا، وَمَا سَاقَهُ مِنْ عَذْرِ فِي عَدَمِ ذِكْرِ قَضِيَّةِ الْأُلُوهِيَّةِ لَا يَتَّفِقُ مَعَ الْمَنْهَجِ الَّذِي يَرْسِلُ اللَّهُ ﷻ بِهِ رِسْلَهُ إِلَى خَلْقِهِ، وَهُوَ الدَّعْوَةُ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ ﷻ، وَهُوَ أَسَاسُ إِصْلَاحِ كُلِّ الْمَعَاصِي. وَهَبْنَا خَطَرَ لِي فِي مَوْضُوعِ قَوْمِ لُوطٍ ﷻ، أَنَّهُمْ لَمَّا فَعَلُوا هَذِهِ الْفَاحِشَةَ لَمْ يَعِدْ مَوْضُوعُ الْأُلُوهِيَّةِ مُؤَثِّرًا عَلَيْهِمْ لَوْ بَدَأَ بِهِ، فَلَا يَهْمُهُمْ هَلْ يُوَحِّدُونَ أَوْ يَشْرِكُونَ؛ إِذْ هُمْ غَيْرُ مُبَالِينَ لَا بِتَوْحِيدٍ وَلَا بِشِرْكَ، وَأَهَمُّ شَيْءٍ عِنْدَهُمْ أَنَّ هَذِهِ الْفَاحِشَةَ تَكُونُ تَشْرِيعًا عَامًّا جَائِزًا، وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَهَمُّ لَنْ يَعْتَرِفُوا بِقَضِيَّةِ الْأُلُوهِيَّةِ بِصُورَةٍ صَادِقَةٍ، فَلَوْ قَالَ لَهُمْ: (اعْبُدُوا اللَّهَ ﷻ)، فَقَالُوا: نَعْبُدُهُ، وَلَكِنْ بِشَرَطٍ: أَنْ يَبْقُوا عَلَى هَذِهِ الْفَاحِشَةِ، فَلَا يَكُونُ كَلَامُ لُوطٍ ﷻ مَعَهُمْ عَنِ الْأُلُوهِيَّةِ مَنَاسِبًا، فَلَمْ تَذَكُرِ الْأُلُوهِيَّةُ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُوَحِّدِينَ وَلَا لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ؛ إِنَّمَا لِأَنَّهُمْ كَانُوا تَرْكِيزَهُمُ الْأَعْظَمُ عَلَى الْفَاحِشَةِ، فَهَمُّ مُسْتَعِدُونَ أَنْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ بِشَرَطِ بَقَاءِ هَذِهِ الْفَاحِشَةِ فِي حَيَاتِهِمْ، وَبِذَلِكَ مَا لَا يَجْتَمِعُ مَعَ الْإِيمَانِ، وَمِنْ هَذَا الْمُنْطَلَقِ رَكِزَ لُوطٍ ﷻ عَلَى مُحَارَبَةِ هَذِهِ الْفَاحِشَةِ وَإِبْطَالِهَا.

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/ ٢٣٨-٢٣٩).

بصيرة: إنَّ استحلال قوم لوط هذه الفاحشة، وتشريعها، وجعلها شيئاً معتاداً سائغاً في المجتمع هو كفر بواح، فلا عبرة حينئذ ببحث إيمانهم من عدمه، فمجرد استحلالهم لها وتقنينها في مجتمعهم هو رفض لألوهية الله ﷻ، وردٌ لشريعته ودينه، وعدم استسلام لأوامر الله ونواهيه.

وهذا يخرجهم عن دائرة الإيمان على الفور، ولذا قال بعض المفسرين عن هذه القضية: (ولكنها في الواقع ليست بعيدة عن قضية الألوهية والتوحيد... إن الاعتقاد في الله الواحد يقود إلى الاستسلام لسننه وشرعه).

عرفنا كيف بينت لنا الآية السابقة العلاج الأول الذي ركز عليه لوط عليه السلام عسى أن يخرج قومه من سكرة الفاحشة التي يأتونها، فما العلاج الثاني الذي حاول لوط عليه السلام أن يعالج به النفسيات المريضة لقومه؟

الجواب:

العلاج الثاني: الإنكار: فكلمة ﴿أَتَأْتُونَ﴾ سؤال إنكاري يُفهم منه أنهم يأتونها بصورة اختيارية، بل إنهم لا يكتفون بفعالها... إنهم يأتونها:

هنا ترى جملاً بيانياً مذهلاً في كلمة واحدة: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ فعالج بهذه الكلمة المباركة جزءاً من ضلالهم وانحرافهم.

فالهمزة تنكر عليهم حياتهم العفنة، أي: "أتفعلون تلك الفعل التي بلغت أقصى القبح وغايته"^(١)، فلم يقل لهم: إن الله ﷻ يهاكم عن هذه الفاحشة القذرة التي تأتونها؛ ذلك لأنه يريد أن يعالجهم، ويأخذ بأيديهم، وأول ذلك أن يبشع لهم هذه الأفعال الخطيرة.

(١) روح المعاني (٤/٤٠٦).

العلاج الثالث: الاختيار: فكلمة: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ يصورهم وهم يتحركون بمحض اختيارهم عند فعلهم لهذا المنكر الكبير:

فكلمة: (أتى) تدل على المجئ والتحرك من مكان إلى مكان، أو من فعل إلى فعل أو من طرف إلى آخر، فهم يتحركون متجهزين يتأتى لهم الفعل، ولا يباعدونه أو يأبونه، وكلمة: (يأتي) يعني: يفعل الشيء الذي تأتي له منتقلاً من وضع الإباحة إلى الكراهة إلى فعل الحرام الذي تهبأ له، ولم يمنع منه، فينتقل إلى الحرام المتجاوز للحدود الفطرية الإنسانية.

أما كلمة: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ تبصّرنا بأنهم جعلوا ذلك الفعل هدفاً مميزاً في حياتهم، لذلك أنكر عليهم، فبشع لهم الفعل عسى أن يستفيقوا من سكرتهم الغوية، ويعودوا إلى فطرتهم السوية، ويعالجوا أنفسهم من هذه النزوة الدنية.

ولعل من أسباب ذلك أنهم كانوا يعرفون الله ﷻ معرفة محدودة يعظمونه عبرها، ولا يحفلون بالشرك به لكنهم يحكّمون أهواءهم في إدارة حياتهم، وفي سبيل شهوتهم يحاولون جعل العالم خاضعاً لرغباتهم، حيث قال لهم لوط عليه السلام: ﴿أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

فإن كانوا يعرفون الله ﷻ، فلعل من أسباب إيراد القصة بهذه الهيئة أن ينتبه الناس إلى أن:

بصيرة: مجرد معرفة الله ﷻ لا تكفي لدفع العذاب، فلا بد من الاستقامة على النظام الإلهي الذي وضعه الله ﷻ، فهو من له الخلق والأمر.

أسباب انتشار الفاحشة:

ومن أسباب انتشار هذه الفاحشة في العالم:

أولاً: اغترار بعض الإنسانية بهذه الفاحشة الفظيعة العظيمة؛ لأنهم يقولون هذا اختيار شخصي، ولا تتضمن عدواناً مباشراً على الآخرين، وهذه حجة باطلة، فهم يضيقون ذرعاً بمن لم يقبل هذا، فيؤذونه، ويعملون على إخراجهم، ويسخرون من طهارته، وها هي فرنسا التي تفتخر بمتحف الجماجم البشرية لا همّ لها إلا أن تحارب مظاهر العفة، ابتداءً بالنقاب ثم الحجاب ثم

العبادة والفسان الطويل، ولا مانع عندها من أن يمشى الناس عراة، أليس هذا ما يريد الشيطان، وحذر الله ﷻ بني آدم منه في قوله ﷻ: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٧]؟

ثانيًا: افتتان المؤثرين في العالم بهذه الفاحشة، فصار كل يعمل على إشاعتها من موقع مسؤوليته، وتأثيره حتى لا يهتم بالشذوذ، فمنهم رؤساء دول ورؤساء وزراء، ورؤساء برلمانات، ومنهم بعض المليارديرات، وبعضهم قسس يعملون في الكنائس، ومنهم اليهود الصهاينة الذين يعملون لتحقيق خرافاتهم، وأشهرهم الآن رئيس الكنيسة الإسرائيلي، ومنهم مدراء تنفيذيون لأكبر الشركات التقنية مثل (تيم كوك) رئيس شركة (آبل) الذي وصف نفسه بأنه "فخور بكونه شاذًا جنسيًا".

إنهم الذين يتبعون الشهوات، فمن الطبيعي أن يشيعوا أن إتيان الفاحشة جزء من الحياة الطبيعية لكل إنسان، بل هي حق من حقوق الإنسان، ثم أضافوا إليها جرائم أخرى ليمضوا في درب إتيان الفاحشة، فوفروا كل الوسائل؛ لارتكاب أبشع جرائم الاعتداء في العالم منها جريمة الإجهاض، وجعلوها حرية شخصية محضة بل حقًا لهم، وحرية اختيار كما تصرح (هيلاري كلينتون)! مع أن حقيقة ما يفعلون هو الاعتداء الكامل على الفطرة الإنسانية، والنسل الإنساني.

وقد حضر بعضهم^(١) مؤتمرًا في (هولندا) عُقد لدراسة حقوق المصابين بالإيدز عام ١٩٩٠م، وفوجئ بأن المنظمين له يهود، وأصحاب النفوذ فيه يهود، وحصلت معارك كلامية ضدهم، وهم يحاولون إصدار القرارات التي تدافع عن أصحاب الشذوذ والزنا باعتبار ذلك من حقوق الإنسان، ولذا نجد أن معظم قرارات منظمة الصحة العالمية والمنظمات العالمية الأخرى متأثرة جدًا بهذا الاتجاه^(٢).

وفي الإجهاض ترى هذا الطفل المستضعف قد نفخ فيه الروح وهو موجود في بطن أمه، وهذه الأم مؤمنة عليه، فيزبنون لأمه أن تقتله؛ حتى تتمكن من أن تعيش حياتها، وتستمتع بشهواتها دون التزامها بشيء من المسؤولية، وتتعاون الأجهزة الطبية التي تشجع على ذلك مع الأم على قتل هذا

(١) هو الدكتور محمد علي البار مستشار الطب الإسلامي بمستشفى الملك فهد التخصصية بجدة، صاحب الورقة البحثية بعنوان: الإيدز ومشاكل الاجتماعية والفقهية. مجلة مجمع الفقه الإسلامي (٩/ ٢١٠٥).

(٢) مجلة مجمع الفقه الإسلامي (٩/ ٢١٢٧).

الطفل الذي أوصى الله ﷻ به بأبشع قِتلة؛ فهم عندما يخرجونه عبر الإجهاض يقطعونه تقطيعاً داخل رحم أمه في صورة بشعة، ويطعمون لأجل ذلك المستشفيات، والجمعيات التعاونية.

وهنا سنسأل متعجبين: ولماذا يُجَوِّزون قتل الأجنة الذي يسمونه الإجهاض؟ وما الفائدة المرجوة من ذلك؟

الجواب: لا شك أنهم بذلك يريدون ممارسة المزيد من الشهوات، وتوسيع دائرتها، وإزاحة المسؤولية والتبعات على مرتكبيها، ويعللون ذلك بأن الصحة الإنجابية تقتضي أن تعتني الفتاة بجمالها، وهنا تقوم بعض المنظمات الدولية بحماية هذه الجريمة الفظيعة ضمن كلام مُرَوِّق - مُجَمَّل مُحَسَّن - مُنَمَّقٍ حقيقته قتلٌ لأضعف المستضعفين من البشر وهو الجنين.

العلاج الرابع: تفضيع الجماعة في الفعل: ويصرنا بذلك واو الجماعة في قوله: ﴿أَتَأْتُونَ﴾.

فالواو تدل على أنهم كانوا يفعلون ذلك بصورة جماعية مع أنه قد يجوز أن تكون الواو وصفاً لفعلهم، وإن فعله كل واحدٍ في بيته، لكن سياق قصتهم يبيِّننا بأن من أبرز ما يقومون به أن يشيعوا هذه الفاحشة بينهم، وبذلك ينزعون الحياء من أنفسهم، ويجرِّئون الذين يشعرون بالخجل من فعل ذلك، فبدلاً من الحياء يتفاخرون بما هم عليه من الشقاء.

وهنا يرتكبون ما هو أسوأ من الفاحشة، وهو التفاخر بها، وجعلها عادات في نواديهم وجزء من حياتهم، وكما فعل أتباعهم الجدد في هذه الأيام بتخصيص شهر للفخر بقذاراتهم أمام العالم أجمع، وأحسن من قال عنهم:

قومٌ لو طُ من بلاد الروم جاؤوا	ينشرون السوءَ فينا كيف شاؤوا
تحتَ عنوانِ التَّلَاقِ في أمورٍ	تنفع الأقطارَ يوماً كم أساؤوا
كم بما أخفت نواياهم تفسَّى	يُفسِدُ الأخلاقَ بين الناس داءُ
ظنَّ منهم مَنْ يُدِيف الغثَ سُمًّا	أنَّنا في كَفِّ مُحْتالٍ وعاءُ
خاب منه الظنُّ في أمرٍ أتاه	عقله عَن فَهْمٍ مَعْنانا خواءُ
دوحةُ الأخلاقِ والمجدِ استمرت	ما لها رغم الذي يجري انتهاءُ

كم بذلتكم نشرتم دون جدوى أيها الفسّاقُ ما جنتم هباءً
سعيكم قد ضلَّ عمّا قد رجوتم ما لكم للصّدقِ والحقِّ انتماءً
منكم في كلّ أرضٍ قد وطأتم عربدَ العسرِ انتشاءً والشّقَاءُ^(١)

وقد وصف لوط عليه السلام فعلهم لذلك في نوادهم بصورة جماعية، فقال: ﴿أَبْنَيْكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

يقول الله تبارك وتعالى ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ﴾ [الأعراف: ٨٠]: لقد وصف لوط عليه السلام فعل قومه بأنه إتيان للفاحشة دون أي تسمية أخرى، فلماذا اختار عليه السلام هذا الاسم ﴿الْفَحِشَةَ﴾ للفعل المجرم الذي يمارسه أولئك الناس؟
الجواب على ذلك في هذا العلاج:

العلاج الخامس: تسمية ما يفعلونه باسمه الحقيقي: ﴿الْفَحِشَةَ﴾، فالناس يرتكبون أبشع الأفعال، ويزوِّرون على أنفسهم وعلى الناس حقيقة ما يرتكبونه عندما يطلقون عليها أسماء تخفي قبحها، فقام لوط عليه السلام بتبشيع ما يفعلونه، ووصفه بأقوى كلمة تجمع كل ما يُتَقَرَّز منه، فوصف ما يأتونه بأنه: ﴿الْفَحِشَةَ﴾.

وهذه الكلمة تبشع فعلهم من جهتين:
الجهة الأولى: أنه عرّفها بأل، وأفردتها، مع أن الفواحش كثيرة الأنواع متعددة الأشكال كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، لكن لوطاً عليه السلام قال: ﴿الْفَحِشَةَ﴾؛ ولم يقل: فاحشة، وذلك ينبئنا بأنه صور لهم أن أكبر فاحشة تستحق أن تسمى

(١) الأبيات لعبد الله جعفر آل إبراهيم، قالها يوم الاثنين ٢٤ رمضان ١٤٤١هـ الموافق ١٨ مايو ٢٠٢٠م، تعليقاً على صورة ضمت ممثلين من السفارتين الكندية والبريطانية وبعثات الاتحاد الأوروبي في العراق لتسليط الضوء على حقوق المثليين ومتحولي/متحولات الجنس ومزدوجي ومزدوجات الجنس.

فاحشة هو هذا الذي يفعلونه، فتكون (أل) فيه للجنس على سبيل المبالغة، كأنه لشدة قبحه جعل فيه جميع الفواحش^(١).

الجهة الثانية: أنه سئى جريمتهم المنكرة فاحشة، والفاحشة: الأمر الفظيع المَقْرَز الذي فَحُش ذكره، حتى يستبشعه الناس عند سماعه، فهي السيئة المتمادية في القبح. وهكذا صرح بما يفعلونه بصورة مباشرة دون وضع مساحيق تجميل عليها، وأنكر عليهم عسى أن يحركوا شعورهم بالخطأ والمعصية.

ويترب على حب الفاحشة وإشاعتها جريمة الإجهاض، وربما تساءلت: ما العلاقة بينهما؟ العلاقة واضحة في الواقع البيمي اليوم، فالذين يأتون الفاحشة لا يمانعون في أن يتسلوا بالزنا بالنساء، ولكي يقننوا الفاحشة يعملون بحرص ويرغبون بشدة على جعل الزنا شيئاً مفهوماً طبيعياً، ويترب على ذلك إشاعة مفاهيم الإجهاض تحت شعارات متعددة، فصار الإجهاض أحد النتائج غير المباشرة لإتيان الفاحشة، وهي اليوم تسمى بغير اسمها، فهي (هيلاري كلينتون) تقول: الإجهاض خيار صعب ومثير للجدل، لهذا أنا مع الحق في الاختيار؛ لأنني أريد أن يقرر الناس بأنفسهم.

الاستعمال القرآني للفظ ﴿الْفَحِشَةُ﴾ معرفة ومنكرة:

في هذا الباب لو قارنا بين وصف القرآن الكريم لفاحشة قوم لوط عليه السلام، وفاحشة الزنا؛ لوجدنا الكلمات التي وصفت هذه الفاحشة أقوى؛ إذ قال الله تعالى عن الزنا: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقال تعالى عن إتيان الفاحشة: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]، فكيف ظهر لنا أن عمل قوم لوط عليه السلام كان أشنع من الزنا؟

الجواب: يقارن ابن القيم رحمه الله بينهما مبيناً كيف أخبر الله تعالى أن عمل قوم لوط أشنع، ويمكن أن تلاحظ ذلك عندما تسمع قول الله تعالى حين وصف الزنا: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، فنكّر الفاحشة في الزنى، أي هو فاحشة من الفواحش، وعرفها عند ذكر

(١) البحر المحيط في التفسير (٩٩/٥).

(٢) «الداء والدواء» (ص ١٧٠).

عمل قوم لوط، وذلك يفيد أن الشذوذ جامع لمعاني اسم الفاحشة، كما تقول: زيد الرجل، ونعم الرجل زيد، وتقول: فلان الشير أي: هو الذي جمع الشر كله، فكان لوطاً عليه السلام قال: أتأتون الخصلة التي استقر فحشها عند كل أحد، فهي لظهور فحشها وكماله غيبة عن ذكرها باسم خاص، فإذا ذكرت كلمة (الفاحشة) لم ينصرف إلا إليها.

وهذا نظير قول فرعون لموسى عليه السلام: ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْتِي فَعَلْتَ﴾ [الشعراء: ١٩] أي: الفعلة الشنعاء الظاهرة المألومة لكل أحد.

ثم قال لهم لوط عليه السلام بعدها: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾، فما الإضافة النفسية والعقلية التي يفيدها كلامه هنا؟ وكيف ظهر جمال كلامه وقوته؟

الجواب: هنا جاء العلاج السادس:

العلاج السادس: اختراع هذه الفاحشة المنكرة لأول مرة في حياة البشر فخالفوا السبيل الفطري المنطقي في اتصال ذرية آدم ببعضها؛ إذ أخبرهم لوط بشذوذهم القبيح عن الخلق بهذه الفعل، فقال عليه السلام: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠].

تعال ننظر كيف ينبغي أن تعالج هذه الكلمات السبع نفوسهم بقوة إقناعها العظيمة لو كانوا يعقلون:

﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا﴾ أي: لم يتقدمكم بالالتصاق بهذه الفاحشة، و"السبق حقيقته: وصول الماشي إلى مكان مطلوب له ولغيره قبل وصول غيره، ويستعمل مجازاً في التقدم في الزمان، أي: الأولوية والابتداء، وهو المراد هنا، والمقصود أنهم سبقوا الناس بهذه الفاحشة إذ لا يقصد بمثل هذا التركيب أنهم ابتدأوا مع غيرهم في وقت واحد^(١).

و﴿مِنْ﴾: صلة لتوكيد النفي وإفادة معنى الاستغراق، وكان يمكنه أن يقول: (ما سبقكم بها أحد)؛ لكنه أدخل كلمة: ﴿مِنْ﴾ لتعميم الحكم^(٢)، و﴿مِنْ﴾ الثانية للتبعيض، فأدت هاتان الكلمتان:

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/ ٢٣٠).

(٢) كما قال ابن مالك في ألفيته (ص: ٢٠٩):

﴿مِّنَ الْأُولَىٰ، وَ﴿مِنَ﴾ الثانية دورًا كبيرًا في الإنكار عليهم، فهما تصوّر أن الشيطان عبث بعقولهم حتى أبعدهم عن الطريق الفطري السوي، لدرجة أنهم فعلوا شيئًا لم يفعله أحدٌ من العالمين، فمهما حاولوا أن يقولوا: قد فعلها فلان أو فلان، فلن يجدوا.

وهذه الجملة: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ تؤدي وظيفتين:

الوظيفة الأولى: أن تكون جملة مستأنفة مقررة لفحاشة تلك الفعلة، كأن قائلًا قال: لم كانت فاحشة؟ فقيل له: لأن أحدًا قبلهم لم يُقدِّم عليها اشمئزًا منها في طباعهم لإفراط قبحها، حتى أقدم عليها قوم لوط لخبث طينتهم وقدر طباعهم ^(١).

فأنكر عليهم أولًا بقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ﴾، ثم ليزيد في توبيخهم قال لهم: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾، فهم سيكونون أول من يسُن هذه الجريمة البشعة الخبيثة.

فهل ذلك يعني أن البشرية ظلت في معافاة عن أن يقترف بعض بنينها شيئًا من ذلك؟

هذا ظاهر الآية، ويظهر أن نوازع السوء نحو هذه الفعلة قد تعتري بعض بني آدم عليه السلام، لكن الذي جرّأهم على مقاومة دوافع الفطرة وهتك مكامن الحياء هم قوم لوط، فكأنهم فتحوا الباب على مصراعيه للمتباينين الذين يشيعون الفاحشة في العالمين.

الوظيفة الثانية: أن تكون جوابًا لسؤال مقدّر، كأنهم قالوا: لم لا نأتئها؟ فقال: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ﴾، فلا تفعلوا ما لم تُسبقوا به.

ولكن هذا السؤال لا يتوقع إلا عندما تقرر إجابته بكونها فاحشة كأنه قال لهم: كما ابتدع ابن آدم الشقي قتل الإنسان، فكذلك ابتدعتم أنتم هذه الفاحشة البشعة المستقبحة التي لم يسبقكم بها أحد من العالمين من المسلمين والكافرين، وستكونون فيها قدوات سوء، إذ سيأتي من يعمل عملكم ويسير سيرتكم الخبيثة، فيكون عليكم وزرُها ومثل أوزار من يتبعكم فيها إلى يوم القيامة ^(٢).

وزيد في نفي وشبهه فجر... نكرة كما لبّاغ من مفر

(١) الكشف (٣/ ٤٥١).

(٢) تفسير المنار (٨/ ٤٥٣).

وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ حَالًا مِنَ الْفَاعِلِ أَوْ مِنَ الْفَاحِشَةِ؛ لِأَنَّ فِي ﴿سَبَقَكُمْ بِهَا﴾ ضَمِيرُهُمْ وَضَمِيرُهَا^(١)،
وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ جُمْلَةً: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ﴾ صِفَةً لِلْفَاحِشَةِ^(٢).

فمن جاء بعدهم يقال فيهم:

فَإِنْ لَمْ يَكُونُوا قَوْمَ لُوطٍ بِعَيْنِهِمْ	فَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِنْهُمْ بَبَعِيدٍ
وَأَنَّهُمْ فِي الْخُسْفِ يَنْتَظِرُونَهُمْ	عَلَى مُورِدٍ مِنْ مَهْلَةٍ وَصَدِيدٍ
يَقُولُونَ: لَا أَهْلًا وَلَا مَرْحِيًّا بِكُمْ	أَلَمْ يَتَقَدَّمْ رَبُّكُمْ بَوَعِيدٍ
فَقَالُوا: بَلَى لَكِنُّكُمْ قَدْ سَنَنْتُمْ	صِرَاطًا لَنَا فِي الْعِشْقِ غَيْرَ حَمِيدٍ
أَتَيْنَا بِهِ الذُّكْرَانَ مِنْ عِشْقِنَا لَهُمْ	فَأَوْرَدْنَا ذَا الْعِشْقِ شَرًّا وَرُودٍ
فَأَنْتُمْ بِتَضْعِيفِ الْعَذَابِ أَحَقُّ مِنْ	مُتَابِعِكُمْ فِي ذَلِكَ غَيْرَ رَشِيدٍ
فَقَالُوا: وَأَنْتُمْ رُسُلُكُمْ أَنْذَرْتَكُمْ	بِمَا قَدْ لَقَيْنَاهُ بِصَدَقٍ وَعِيدٍ
فَمَا لَكُمْ فَضْلًا عَلَيْنَا فَكُنَّا	نَذُوقُ عَذَابَ الْهَوْنِ ذَوْقَ مَزِيدٍ
كَمَا كُلْنَا قَدْ ذَاقَ لَذَّةَ وَصْلِهِمْ	وَمَجْمَعُنَا فِي النَّارِ غَيْرُ بَعِيدٍ ^(٣)

ثم قال لهم لوط عليه السلام: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ [الأعراف ٨١].

فما العلاج السابع الذي يبصرنا به هذا التساؤل؟ وما وجه قوة هذه الكلمات في علاج الذين
أسكرتهم شهوة الفاحشة من قوم لوط عليه السلام؟

الجواب: هاهنا علاجان يبصرنا بهما القراءتان في ﴿إِنَّكُمْ﴾:

(١) البحر المحيط في التفسير (٨/ ٣٥٣).

(٢) التحرير والتنوير (٨-ب/ ٢٣٠).

(٣) هذه الأبيات بلا نسبة في روضة المحبين (ص: ٢٨٧)، وديوان الصبابة (ص: ٨٦).

**العلاج السابع: التساؤل عن جريمتهم بصورة تستفز عقولهم إذ قال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ
الرِّجَالَ﴾ [الأعراف: ٨١]:**

وللقراء في ﴿إِنَّكُمْ﴾ قراءتان:

القراءة الأولى: قرأ الجمهور: ﴿إِنَّكُمْ﴾ على تفصيلٍ في هيئة نطق الهمزتين، فالقراءة بصيغة السؤال تبصّرنا بأنه ينكر عليهم، ويكشف الواقع الذي هم فيه، وهو سؤالٌ إنكاريٌّ متكرر لزيادة التشنيع عليهم.

والسؤال الإنكاري يفيد أن ما بعد الهمزة واقع، هو قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾، وأن فاعله مذمومٌ ملومٌ لومًا عظيمًا، وكأن لوطًا عليه السلام يقول لهم: هل جننتم؟ أمعكم عقول؟ أتأتون الرجال؟! فالسؤال هنا يحرك نفوسهم عسى أن يشعروا بضخامة الإنكار الذي يوجهه لوطٌ عليه السلام لهم.

العلاج الثامن: الإجابة عن السؤال الإنكاري بإخبارهم أنهم يفعلون تلك الفعل الشنيعة بوضوح، ويصّرنا بهذا قراءة الإخبار: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ [الأعراف: ٨١]:

القراءة الثانية: قرأ نافعٌ، وحفصٌ عن عاصمٍ، وأبو جعفرٍ بالإخبار: ﴿إِنَّكُمْ﴾، وهذه القراءة تخبرهم بالواقع المر الذي طبعت حياتهم عليه، فهو خبرٌ مستعمل في توبيخهم وتقريعهم^(١)، فكأن لوطًا عليه السلام قال لهم أولًا متسائلًا سؤال من لا يُصدّق ما يفعلونه: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾، ثم قال مجيبًا نفسه: الأمر واضح: ﴿إِنَّكُمْ﴾ بالإخبار والتأكيد الذي يدل عليه حرف: (إنَّ) التوكيدية ﴿لَتَأْتُونَ﴾ باختياركم ﴿الرِّجَالَ﴾.

فإن قلت: ما وجه قوة كلمة: ﴿لَتَأْتُونَ﴾ في تصوير المعنى وبيان ارتباطهم بتلك الفاحشة؟

الجواب: وجه قوة كلمة: ﴿لَتَأْتُونَ﴾ وجود اللام المؤكدة، وكلمة: (تأتون) تصوّر أنهم يفعلون الفاحشة التي تأتت لهم، وصارت أدوات فعلها جاهزة، من التأتّي والمؤاتاة التي تعني: التهيؤ والمطاوعة

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/ ٢٣١).

والموافقة، فقد صيروا الفاحشة نظاماً لهم في حياتهم يتباهون به، ويأتونه جماعة في مكان واحد أو في أماكن خاصة دون حرج من فعله، بل يتباهون بذلك.

فَصَرَّحَ لَهُمْ هُنَا يَمَّا يُوْقِظُ فِطْرَتَهُمْ، إِذْ ذَكَرَهُمْ بِالصُّورَةِ الَّتِي يَنْسُونَهَا فِي سَكْرَةِ الشَّهْوَةِ، وَهِيَ الصُّورَةُ الَّتِي تَشْمَتُّ مِنْهَا الْقُلُوبُ، وَتَنْبُو عَنْهَا الْأَسْمَاعُ، وَتَنْفِرُ مِنْهَا الطَّبَاعُ أَشَدَّ نَفَرًا، وَهُوَ إِيثَانُ الرَّجُلِ رَجُلًا مِثْلَهُ يَنْكِحُهَا كَمَا يَنْكِحُ الْأُنْثَى، فَقَالَ: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ [الأعراف: ٨١] ^(١).

ووصف الجنس الذين يفعلون معهم الفاحشة بالرجال، وذلك لزيادة التشنيع على الفاعل والمفعول به، فإن كون الإنسان رجلاً يجعل من المقزز أن يحدث بينه وبين رجل آخر مثل ذلك الفعل التشنيع؛ لأن أخلاق الرجولة تأبى ذلك، وأما في سورة الشعراء فقط فوصفهم بالذكران لأنه أراد أنهم يأتون جنساً لا يعقل أن يفعلوا معه ذلك.

بصيرة: وصف الذين يفعلون الفاحشة بالرجال، وذلك لزيادة التشنيع على الفاعل والمفعول به، فإن كون الإنسان رجلاً يجعل من المقزز والمستقبح أن يحدث بينه وبين رجل آخر هذا الفعل؛ لأن أخلاق الرجولة تأبى ذلك وتتنافى معه.

بَصَرْنَا الاستفهام في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ أنه صارحهم بما يفعلون، ثم وبَّخهم عليه، وبعد مصارحتهم وإخبارهم بواقعتهم وبَّخهم عليه مستنكراً عسى أن يحركوا شعورهم بالخطأ الذي فعلوه، والمعصية التي ارتكبوها، فما الإضافة التي زادت كلمة: ﴿شَهْوَةً﴾ في قوله **الطَّبَاعُ** لقومه: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ [الأعراف: ٨١]؟ وما وجه قوة الكلمة القرآنية هنا؟

الجواب: بصرتنا كلمة: ﴿شَهْوَةً﴾ بالعلاج الآتي:

(١) الداء والدواء (ص: ١٧١).

العلاج التاسع: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ [الأعراف: ٨١]، فَقَبِّحْ لَهُمُ الْأَمْرَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ مَرَضَهُمْ بِسَبَبِ انْحِلَالِ الْإِرَادَةِ السُّوِيَةِ أَمَامَ الشَّهْوَةِ الرَّدِيَةِ، وَلَيْسَ بِسَبَبِ شَيْءٍ مَوْجُودٍ فِي أَجْسَامٍ مِثْلَ الْجِينَاتِ الَّتِي لَا يَسْتَطِيعُونَ التَّخْلُصَ مِنْهَا كَمَا يَزْعُمُ الْمَزُورُونَ مِنْ أَدْعِيَاءِ الْعِلْمِ:

كلمة: ﴿شَهْوَةً﴾ تَكْشِفُ حَقِيقَةَ مَا يَحْدُثُ، فِيهِ مُشْتَقَّةٌ^(١) مِنْ شَهِي الشَّيْءِ كَأَن يَشْتَهِي النُّومَ أَوْ النِّسَاءَ أَوْ الطَّعَامَ أَوْ الرِّئَاسَةَ، وَشَهَاهُ يَشْهَاهُ شَهْوَةً وَاشْتَهَاهُ وَتَشْتَهَاهُ أَي: رَغِبَ فِيهِ رَغْبَةً قَوِيَّةً حَادَّةً، وَنَزَعَتْ نَفْسَهُ إِلَيْهِ، وَانْجَذِبَتْ نَحْوَهُ لِتَصْنَعُ بِهِ مَا يَنْسَابُ الْإِشْتِهَاءَ، فَالَّذِي يَنْسَابُ الطَّعَامَ الْأَكْلَ، وَالَّذِي يَنْسَابُ الْمَرْأَةَ النِّكَاحَ، وَالَّذِي يَنْسَابُ النُّومَ الْإِسْتِسْلَامَ لَهُ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

وَأَشْعَثَ يَشْهَى النَّوْمُ قُلْتُ لَهُ: ارْتَجِلْ إِذَا مَا التُّجُومُ أَعْرَضَتْ وَأَسْبَطَرَتْ

فَقَامَ يَجْرُ الْبُرْدُ، لَوْ أَنَّ نَفْسَهُ يُقَالُ لَهُ: خُذْهَا بِكَفَيْكَ! خَرَّتِ^(٢)

فَرَفِيقَهُ يَشْتَهِي النَّوْمَ بِشِدَّةٍ حَتَّى يُمْكِنُ أَنْ يَرْمِيَ نَفْسَهُ عَلَى الْأَرْضِ وَلَا يَبَالِي. فَالشَّهْوَةُ: أَنْ تَشْتَاقَ نَفْسَكَ لِلشَّيْءِ الَّذِي يَحَقِّقُ لَهَا لَذَّةً مِنْ نَوْعٍ مَعِينٍ، وَأَنْ تَنْزِعَ إِلَى مَا تَشْتَهِيهِ وَتَرْغِبُ فِيهِ وَتُرِيدُهُ بَغْضِ النَّظَرِ عَنْ مَدَى السَّلَامَةِ وَالنَّفْعِ الْمَصَاحِبِ. وَالْجَمْعُ: شَهَوَاتٌ وَأَشْهِيَّةٌ، وَتَتَفَاوَتْ قُوَّةُ الشَّهْوَةِ وَجِدَّتْهَا حَسَبَ الْمُشْتَهَى وَالْمُشْتَهِي، وَقَدْ تَزَادَتْ قُوَّةُ هَذِهِ الرِّغْبَةِ الْقَوِيَّةِ وَجِدَّتْهَا حَتَّى تَخْرُجَ عَنْ إِطَارِ التَّحَكُّمِ.

فهل يعني هذا أَنَّ كلَّ شهوةٍ مذمومة؟

الجواب: الشَّهْوَةُ فِي مَوْضِعِهَا الْفَطْرِيِّ الصَّحِيحِ مَطْلُوبَةٌ بَلْ يُؤْجَرُ الْإِنْسَانُ عَلَيْهَا؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «وَفِي بُضْعٍ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيَّاتِي أَحَدُنَا شَهْوَتُهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وَزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ»^(٣).

(١) المفردات في غريب القرآن (ص ٤٦٨)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (١١٧٦/٢).

(٢) ديوان الخطبة (ص: ٢٥). "وأشعث": يعني رفيقه في السفر، طال عليه السفر، فاغبر رأسه وتفرق شعره من ترك الأدهان. و"أسبطرت النجوم"، امتدت واستقامت وأسعرت في مسيحها.

(٣) مسلم (١٠٠٦-٥٣)، وقال النووي: "قوله ﷺ: (وفي بضع أحدكم): هو بضم الباء، ويطلق على الجماع، ويطلق على الفرج نفسه، وكلاهما تصح إرادته هنا، وفي هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنيات الصادقات".

ولكن الشهوة التي تخرج عن موضعها الفطري الصحيح تسبب تدميرًا للإنسان، فشهوة الكسل إن استمرت ولم يعالجها الإنسان عطّلت حياته، وشهوة المال إن لم يتحكم فيها دمّرت عليه وعلى غيره أوضاعهم، وشهوة الجسد إن لم يرضعها في موضعها النافع صارت إسرافًا واعتداء.

فكلمة: ﴿شَهْوَةٌ﴾ في قول لوط عليه السلام: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ موقعها الأعرابي مفعول له، أي: تفعلون ذلك لا لصالحكم، ولا لنفعمكم، ولا لنفع الإنسانية حولكم، ولا لاضطراكم إليه، بل للاشتهاء المحض، فلا حامل لكم على إتيان الرجال إلا مجرد الشهوة، دون أن يوجد داعٍ غريزي كغريزة الجوع يدفعكم لفعل ذلك.

والوصف بالشهوة المحضة ليس للتشبيه بالهيممة كما ذهب إليه الزمخشري رحمته الله^(١)، بل لأن الشهوة المحضة القائمة على مجرد التشهي مذمومة، فقد ينجذب الإنسان إلى أكلة مغرية من حيث شكلها مع علمه أن سمًا يوجد في مكوناتها، وانظر لموضوع الخمر، والتدخين والمخدرات... فهذا النوع من الشهوة سببه الاستجابة لإرادة الإنسان دون نظرٍ إلى الطبيعة الجسدية، أو إلى المنافع الإنسانية، فصاحب الشهوة المحضة لا ينظر إلى باعث منغرس في خلق الإنسان يجب إشباعه من أجل سلامة الإنسان أو لكرامته، ولا هو ينظر إلى باعث في حياة الإنسانية يجب الاستجابة له.

بلاغة التعبير القرآني بكلمة: ﴿شَهْوَةٌ﴾ وثراؤها المعنوي:

(١) الكشف (٢/ ١٢٥).

الثراء المعنوي لكلمة: (شَهْوَةٌ) في الاستعمال القرآني



عَبَسَ الْبَاقِلَاتُ الْفَجَّارِي

مِفْتَاحُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْاِعْرَافِ (٤)

ماذا يحاول لوط عليه السلام أن يكشفه لهم عندما قال لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾؟

لوط عليه السلام يحقق عدة أهداف بهذه الكلمة: ﴿شَهْوَةً﴾ منها:

الهدف الأول: أنها شهوة محضة: فإتيان الرجال شهوة يعني أن حِدَّة الشهوة هي الدافع الأساسي من ذلك الفعل، وليس الاستجابة للفطرة الإنسانية المعتادة، وذلك يعني أن الشهوة تُغْمِضُ أعينهم عما يجب عليهم فعله.

الهدف الثاني: أن الشهوة لا تبرر الفعل أو تبينه: فهو يريد إيقاظهم بأن يشير إليهم أن:

بصيرة: الحيوانات لا تأتي الشهوة للشهوة ذاتها فحسب، بل تأتينا في سبيلها الصحيح، وتنشئ بناء عليها الحياة المستمرة، أما قوم لوط عليه السلام فهم يأتون الفاحشة لمجرد الشهوة.

فكم من أناس يشتهون أن يقتلوا غيرهم ويبطشوا بهم، فهل نتركهم يقومون بذلك لأن داعي الشهوة موجود؟!

اللص يشتهي السرقة، والغاضب يشتهي البطش بمن غضب عليه، وغير المؤهل يشتهي الغش ليحصل على النجاح أو على الوظيفة... هل نتركهم يحصلون على ذلك لمجرد وجود شهوة عندهم؟! وكم خربت شهوة الرئاسة والزعامة البلدان؟! وكم قتلت شهوة القوة من بني الإنسان؟!

لماذا أصر الذين أرسلوا قُنْبَلَيْ (هيروشيما) و(ناجازاكي) على إرسالهما مع أن اليابان كانت قد استسلمت؟! إنها شهوة القوة والعنف.

وكذلك سرقة المال وحيازته، انظر كم يسرق العالم بقوته العسكرية من خيرات أفريقيا وبقية شعوب ما يسمونه بالعالم الثالث، فهل مجرد هذه الشهوة تكون سبباً للسماح بها؟!

الهدف الثالث: كلمة: ﴿شَهْوَةٌ﴾ تدل على أنها قد جردت من كل دوافعها الحسنة وآثارها الحميدة، فهذه الكلمة وحدها تعني أن يفعل كل واحد ما يشتهي ولو أدى ذلك إلى إبادة الإنسانية، فلو اكتفى الرجال بالرجال والنساء بالنساء لانعدم النسل، لذلك جعل الله ﷻ الشهوة الصحيحة سبباً لتناسل الإنسانية، فيقضي الإنسان شهوته في النكاح الصحيح، ويتحمل تبعه ذلك إن جاء الولد، وكذلك مسؤولية النقطة على الزوجة ورعايتها، ولا يكفي بمجرد الاستمتاع الجسدي، ثم إن مجيء الولد من أعظم الشهوات الصحيحة في حياة الإنسان، فمجيئه زينة للإنسان وللحياة كالكسب المال، ولذا جمع الله ﷻ بينهما في قوله: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

الهدف الرابع: شهوة النكاح الصحيحة تجلب منافع كثيرة ومنها: المودة والرحمة بين الطرفين، وتزيد في السعادة، أما الفاحشة المحرمة بين الذكور فليس فيها سوى الضرر المحض، والمفسدة المحققة، ولا يقال: في الوقت الحاضر صارت العلاقة الجسدية بين ذكركن فيها مودة ورحمة؛ لأن كلاً منهما يحب الآخر، ويرتبط معه بعقد زواج؛ لأننا نقول: لا يوجد من هذه العلاقة إلا مجرد الشهوة المحضة، وأما المحبة المصاحبة فأصلها كمحبة الصديق صديقه لكن الإسراف دفعهما إلى الوصول إلى الفعل المحرم، ثم لا تنفك هذه العلاقة أن تتلاشى بل وتنقلب إلى عداوة؛ لأنها محض سراب وخداع.

أضرار الفاحشة وجمال الفطرة:

بصيرة: إن شهوة إتيان الرجال تعزز الأنانية والشح والمرض والرغبات الذاتية، والإعراض عن احتياجات الإنسانية، لأن مريد الفاحشة يريد الاستمتاع المحض دون النظر إلى الأخطار التي تترتب على فعله وعلى حياته وحياة من حوله. كما يستمتع الذي يتناول الهيروين في لحظته، ولا يفيق من سكرة المخدرات وإدمانه حتى يجد نفسه أسوأ من النفايات السامة.

وهذا كله بعكس ميل الذَّكَرِ إِلَى الْأُنْثَى بطريق شرعي، فإنه يحقق قَضَاءَ وَطَرِ الْمَرْأَةِ وَالرَّجُلِ وَلَدَّةَ استمتاعهما، وَحُصُولَ الْمُوَدَّةِ وَالرَّحْمَةِ الَّتِي تَعُوضُ الْمَرْأَةَ عَنْ أَبْوَيْهَا، وَتَرْتَبُطُ ارْتِبَاطًا سَعِيدًا بِبَعْطِهَا، وَيَتَرْتَبُ عَلَى لِقَائِهِمَا النَّسْلُ الَّذِي يَحْفَظُ النَّوعَ الْإِنْسَانِي، وَتَحْدُثُ مَصَالِحُ الْارْتِبَاطِ الْإِنْسَانِي بِالْمُصَاهَرَةِ الَّتِي هِيَ أُخْتُ النَّسَبِ، وَيَقُومُ الرِّجَالُ عَلَى النِّسَاءِ^(١)، وَيَحْصِنُ الْمَرْأَةَ كَمَا يَحْصِنُ الرَّجُلَ، فَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى امْرَأَةً، فَأَتَى امْرَأَتَهُ زَيْنَبَ، وَهِيَ تَمْعَسُ مَنِيئَهُ لَهَا فَقَضَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمَرْأَةَ تُقْبِلُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، وَتُدْبِرُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، فَإِذَا أَبْصَرَ أَحَدُكُمْ امْرَأَةً، فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ»^(٢).

عرفنا المعنى الدقيق الذي بصَّرنَا به قوله ﷺ: «إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً»، ثم قيد لهم لوط بعد هذا الإتيان للرجال شهوةً بقيد ثاني، فقال ﷺ: «مِنْ دُونِ النِّسَاءِ»، فما الذي يبصرنَا هذا القيد؟

الجواب: بصرتنا قوله تعالى: «مِنْ دُونِ النِّسَاءِ» بالعلاج الآتي:

(١) انظر: «الداء والدواء» (ص: ١٧١).

(٢) مسلم (٩-١٤٠٣)، وقوله: (تمعس منيئة لها): المعس: الدلك. والمنيئة: هي الجلد في الدباغ. قال الكسائي: يسمى منيئة ما دام في الدباغ. وقال أبو عبيدة: هو في أول الدباغ منيئة، ثم أفيق وجمعه أفق كأديم وأدم. (إن المرأة تقبل في صورة شيطان) قال العلماء: معناه الإشارة إلى الهوى والدعاء إلى الفتنة بها. ينظر: شرح النووي (١٧٨/٩).

العلاج العاشر: يصور لهم أنهم سيصلون إلى تدمير الإنسانية باستباحة هذه الجريمة، إذ

قال لهم: ﴿مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ [الأعراف: ٨١].

فهناك يذكر لهم لوط عليه السلام خللاً كبيراً جديداً يدمرون به الإنسانية، وهو ترك النساء، فكيف سيؤول الأمر بهم؟ إلى الفناء والخلل السكاني، والتعذيب النفسي للنساء اللواتي حدث الإعراض عنهن.

فَقَوْلُهُ: ﴿مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾: هذا القيد إيضاحي وليس تأسيسياً، أراد منه أن يزيد في تفضيع واقعهم، فهو ليسَ قيِّداً للإنكار، فليسَ إثباتُ الرِّجالِ مَعَ إثباتِ النِّساءِ بِأَقْلٍ مِنَ الْآخِرِ فَطَاعَةً، وَلَكِنَّ الْمُرَادَ أَنَّ إِثْبَاتَ الرِّجَالِ كُلُّهُ وَاقِعٌ فِي حَالَةٍ مِنْ حَقِّهَا إِثْبَاتُ النِّسَاءِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ﴾ [الشعراء: ١٦٦]^(١).

وذكر الرازي رحمه الله خمسة وجوه في تقبيح هذا العمل وتشنيعه يرجع الصالح منها إلى ما حررته هنا، ثم ذكر وجهاً سادساً مهماً، ويمثل فطنة مبكرة للآثار الجسدية المدمرة لِلْهَيْث وراء الشهوة المسرفة المعتدية المحضة، إنها الأمراض الفتاكة التي تدمر الجسد، والتي اضطرت الأمم المتحدة في المؤتمرات المتعددة التي أقامتها للسكان والتنمية أن تعترف بها، فماذا قال الرازي رحمه الله حول هذه الأمراض الخطيرة:

وَالْوَجْهُ السَّادِسُ: أَنَّهُ ﷺ أَوْدَعَ فِي الرَّجِمِ قُوَّةَ شَدِيدَةِ الْجَذْبِ لِلْمَنِيِّ، فَإِذَا وَقَعَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ قَوِيَ الْجَذْبُ، فَلَمْ يَبْقَ شَيْءٌ مِنَ الْمَنِيِّ فِي الْمَجَارِيِّ إِلَّا وَيَنْفَصِلُ، أَمَّا إِذَا وَقَعَ الرَّجُلُ فَلَمْ يَحْصُلْ فِي ذَلِكَ الْغَضُو الْمُعَيْنِ مِنَ الْمَفْعُولِ قُوَّةَ جاذِبَةٍ لِلْمَنِيِّ، وَحِينَئِذٍ لَا يَكْمُلُ الْجَذْبُ، فَيَبْقَى شَيْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ الْمَنِيِّ فِي تِلْكَ الْمَجَارِيِّ وَلَا يَنْفَصِلُ، وَيَعْفَنُ وَيَفْسُدُ، وَيَتَوَلَّدُ مِنْهُ الْأَوْرَامُ الشَّدِيدَةُ وَالْأَسْقَامُ الْعَظِيمَةُ، وَهَذِهِ فَائِدَةٌ لَا يُمَكِّنُ مَعْرِفَتَهَا إِلَّا بِالْقَوَانِينِ الطَّبِيبِيَّةِ، فَهَذِهِ هِيَ الْوُجُوهُ الْمَوْجِبَةُ لَقُبْحِ هَذَا الْعَمَلِ^(٢).

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/ ٢٣١).

(٢) تفسير الرازي (١٤/ ٣١١).

ثم قال لهم لوط عليه السلام: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾^(٨)، فما العلاج الجديد الذي أنبأنا به هذه الكلمات، وخاطب بها لوط قومه؟

العلاج الحادي عشر: لفت نظرهم إلى أن فعلهم إسرافٌ، إذ قال: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾^(٨) [الأعراف: ٨١]، وليس استجابةً جسديةً لرغبة مريضة في تعدي طبيعة الإنسان، وليس استجابةً فرضها مَوْرَثٌ موجود في الجسد:

لاحظ كلمة: ﴿بَلْ﴾ التي للإضراب، فقد أضرب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجب ارتكاب القبائح وتدعو إلى اتباع الشهوات، وهو أنهم قوم عادتهم الإسراف: ﴿أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾. لماذا عبر لوط عليه السلام عن فعلتهم النكراء بأن وصفهم بأنهم مسرفون باسم الفاعل دون أن يلجأ إلى وصفهم بالفعل المتجدد كأن يقول: أنتم تسرفون؟

الجواب: لأن اسم الفاعل يدل على رسوخ صاحبه في الفعل الذي يفعله، وثباته عليه، وكأنه يقول لهم: لقد صرتم تتجاوزون الحدود في هذه الشهوة، وفي كل حياتكم، وقد صرح لوط عليه السلام ببعض أفعالهم المرسفة في غير هذه الشهوة، فقال في سورة العنكبوت ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

فجاءت الجملة الاسمية التي تدل على الثبات لتخبر عن عادتهم المستمرة الرديئة، وسمّاهم مسرفين؛ لأنهم تجاوزوا الحد الذي وضعه الله ﷻ للبشر في قضاء الشهوة، أي: أنْتُمْ قَوْمٌ تَمَكَّنَ مِنْهُمْ الْإِسْرَافُ فِي الشَّهَوَاتِ فَلِذَلِكَ اشْتَهَوْا شَهْوَةً غَرِيبَةً لَّمَّا سَيَّمُوا الشَّهَوَاتِ الْمُعْتَادَةَ. وَهَذِهِ شَنْشَنَةُ -أي: عادة- الْإِسْتِرْسَالِ فِي الشَّهَوَاتِ حَتَّى يُصْبِحَ الْمَرْءُ لَا يَشْفِي شَهْوَتُهُ شَيْءٌ^(١).

(١) «التحرير والتنوير» (٨-ب/٢٣٢).

والإسراف سبق أن ذكرنا أنه تَعَدَّى الْحَدَّ وصولاً إلى الإهدار والإفساد، ومنه السُرْفَةُ: دُوْبَةُ تَأْكُلُ الخَشَبَ والورق، وتَنِي لِنَفْسِهَا بَيْتًا حَسَنًا، وَيَقُولُونَ فِي الْمَثَلِ: "أَصْنَعُ مِنْ سُرْفَةٍ" (١)، ولكنها تجاوزت الحد فتعدت ما تحتاج إلى غيره، وسُرِفُ الماء -بالتحريك: ما ذهب منه في غير سَقْيٍ ولا نفع (٢).

فتجاوزوا الحدود في باب قضاء الشهوة مع أن الله ﷻ لم يمنعه من قضاء الشهوة الفطرية التي خلقوا بها، وهي شهوة إتيان النساء وفق الطريق الشرعي، لكنهم أصروا على الاستجابة لشهواتهم حتى تجاوزوا المعتاد إلى غير المعتاد.

واسمع للوط عليه السلام كيف يعالج انحرافهم شيئاً فشيئاً، فقد أخبرهم بأن عندهم آفة تعيث بأخلاقهم هي آفة الإسراف.

وقد حذرنا الله ﷻ من الإسراف في أخذ الزينة والأكل والشرب في أول السورة فقال: ﴿يَبْنَى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، وهنا يحذرنا من الإسراف في استعمال القوة الجسدية الجنسية، فاستعمالها في غير موضعها تجاوز لما حدده الله ﷻ ذو الخلق والأمر.

وإذا كان النبي ﷺ حذّر من الإسراف في الوضوء عندما جاءه أعرابي يسأله عن الوضوء، فأراه الوضوء ثلاثاً ثلاثاً، ثم قال: «هكذا الوضوء، فمن زاد على هذا فقد أساء وتعدّى وظلم» (٣).

انظر إلى هذا الميزان الشرعي الدقيق، فالإسراف موجود في الوضوء فكيف بغيره؟!
وهنا سؤال: فقد وصف لوط عليه السلام قومه في سورة الأعراف بالإسراف، وفي سورة الشعراء بأنهم: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ ● فما الفرق بينهما؟

الجواب: وصفهم هنا بالإسراف وهو تجاوز حد الواجب أو المباح إلى الحرام، ووصفهم في سورة الشعراء فقال عليه السلام: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦]، والعادي المتعدّي في ظلّمهِ المتجاوزُ فيه الحدّ المعروف عند الظالمين، فإن الظالم في الشهوة الجنسية يتجاوز الحلال إلى الحرام، لكن هؤلاء

(١) مقاييس اللغة (٣/ ١٥٣-١٥٤).

(٢) لسان العرب (٩/ ١٤٩).

(٣) أحمد (٦٦٨٤)، وقال محققو المسند: "صحيح وهذا إسناد حسن"، وذكره الألباني في الصحيحة (٢٩٨٠).

تجاوزوا الحرام المعروف إلى حرامٍ أسوأ وأبشع، وبذا ظهر الفرق بين الإسراف والتعدي، أي تعديتم في جميع المعاصي، وهذا من جملتها، أو متجاوزون عن حد الشهوة؛ حيث زدتكم على سائر الناس، بل أكثر الحيوانات^(١)، أو مفرطون في المعاصي وهذا من جملة ذاك، أو أحقاء بأن توصفوا بالعدوان لارتكابكم هذه الجريمة^(٢).

ووصفهم بالإسراف يبين صلة هذه القضية بالانحراف عن قضية الألوهية والحاكمية، فإن الله ﷻ الذي له الخلق هو الذي له الأمر، وقد خلق الله ﷻ البشرية زوجين ذكرًا وأنثى، فهما شقان للنفس الواحدة، وجعل السبيل الوحيد لبث الحياة البشرية أن يلتقي الذكر والأنثى وفق عقد شرعي لقضاء لذة مشتركة.

هذه اللذة ينجذبان إليها انجذابًا عميقًا؛ إذ هما مجهزان عضوياً ونفسياً للشعور بها فوق اللقاء والتواصل الجسدي. وينتج عن هذه اللذة آلام الحمل، ثم مشاق التربية.

انظر لهذا التدبير المحكم! حيث ارتبطت اللذة المطلوبة ببث الحياة البشرية. فإن بحث أحد عن لذة محضة دون نظر للحقوق البشرية العامة، فقد عبد نفسه، واتبع هواه، وصدف عن قوانين الله ﷻ.

فحق كل من الزوجين أن يشعر بهذه اللذة العارمة، وفي المقابل فحق الإنسانية أن يدفعا مقابل هذه اللذة قيامًا على حراسة الجيل الجديد من أبناء الإنسانية، فيصبران على متاعب الحمل والوضع والرضاعة والنفقة والتربية والكفالة.

ما علاقة ذلك بوصف قوم لوط بالإسراف؟

لأن الذي يأتي الذكران: يصر بأنانية مفرطة على الشعور باللذة المحضة دون تحمل أي تبعات تتعلق بحقوق الآخرين، وحق الإنسانية في الامتداد، فهو مسرف في عبادة شهوته، فأخذ حقًا لا يستحقه، وهو كذلك يسهم في تدمير أبناء جنسه بهذه الطريقة، وهو مسرف حيث منع حق النساء في الشعور بالدفء الجسدي والنفسي الكامل.

(١) روح المعاني (١٠٠/١١٤).

(٢) ينظر: الكشف (٣/٣٣٠).

ولذا ورد عن النبي ﷺ أنه لعن من عمل عمل قوم لوط، لعنهم ثلاثاً، فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ نُحُومَ الْأَرْضِ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ تَوَلَّى غَيْرَ مَوَالِيهِ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ كَمَّه أَعْيَى عَنِ الطَّرِيقِ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ وَقَعَ عَلَى بَهِيمَةٍ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَقَّ وَالدِّيَةِ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ» قَالَهَا ثَلَاثًا^(١).

لكن اللعن هنا جاء في معرض التهيب لمن يفعل ذلك مستخفياً، فكيف إذا صار مجتمع بأكمله يجعل ذلك العمل شيئاً طبيعياً؟

البيان الإعجازي في تحريم الفاحشة: قراءة في الأسلوب القرآني الفريد في سورة الأعراف:
هنا: نسال: كيف ظهر الإعجاز القرآني العظيم عن طريق التركيز على التحذير من جريمة إتيان الفاحشة؟ وكيف ظهرت البيئة القرآنية بصورة أفخم في هذا الموضوع في سورة الأعراف؟
الجواب:

الله أكبر، إنك تعجب لعظمة البيئة القرآنية، وكيف أن آيات القرآن عندما تطبقها في واقع الإنسان ترى فيها آيات الله ﷻ بيئة حاضرة، وتؤمن أنها من لدن حكيم حميد، والآن تعال نطبق ذلك هنا:

هناك جملتان مدهشتان تكشفان الكذب الكبير الذي يقترفه الملاحدون ومرضى الفاحشة:

الأولى: قول لوط عليه السلام: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف ٨٠].

فلو كان هناك جين يجبر صاحبه على إتيان الفاحشة لظهر مع ظهور الإنسان، لكن الذي انفراد بإتيان الفاحشة وابتدأ بها في تاريخ البشرية هم قوم لوط، وذلك يكشف شذوذ فعلهم عن الطبيعة البشرية.

الثانية: قوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف ٨١]، فالإسراف: تَعَدِّي الْحَدِّ وَصَوْلًا إِلَى الْإِهْدَارِ والإفساد، فهو تجاوز الحدِّ في كلِّ فعل يفعلُه الإنسان.

فما الذي حدث في واقع الإنسان حتى تتكشف لنا عظمة القرآن، وأنه آية الله ﷻ البيئة المعجزة؟

(١) أحمد (٢٩١٣)، وصححه ابن حبان (٤٤١٧)، وقال محققو المسند: "إسناده حسن، رجاله رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن أبي الزناد، فقد روى له أصحاب السنن وعلق له البخاري، وروى له مسلم في المقدمة، وهو حسن الحديث".

الجواب: بداية العبث المعاصر لتشريع الفاحشة أن مجموعة من المرضى بحب الشهوة الشاذة سواء في طلب الشهوة أو المال أو هذه الفاحشة أرادوا أن يجعلوا الأمر طبيعياً، بل أن يجعلوه من حقوق الإنسان.

في البداية قالوا: السبب وراء فرض الفاحشة أن مورثات توجد في جسم الإنسان تدفع الإنسان إلى فعل ذلك، وقالوا: ارحموا الذكر الذي يكتشف أنه محبوس في جسد أنثى، وارحموا الأنثى التي تكتشف أنها محبوسة في جسد ذكر، وبناء على ذلك شرعوا تغيير الجنس أي: تغيير خلق الله ﷻ. فليست الفاحشة عندهم آفة ولا علة ولا انحرافاً ولا مرضاً عضوياً ولا خللاً نفسياً مدمراً، بل هو خيار مشروع فرضه وجوده في الحمض النووي البشري (Human DNA)، ولذا يرى الملحدون أنه يجب دعم من يفعل هذه الفاحشة.

بصيرة: القرآن ببصائره المذهلة في هاتين الجملتين يكشف أن من أكبر الأكاذيب ما رُوِّجه الملحدون ومرضى الشذوذ من أنهم اكتشفوا مورث، أو جين الشذوذ الجنسي (Gay Gene)، وحينها ادعوا كذباً أنه يوجد كود جيني (Genetic code) معين مسؤول عن الشذوذ الجنسي في الحمض النووي البشري.

بناءً على هذه الكذبة زعموا أن المثلية الجنسية أمر طبيعي وفطري لدى البشر. ثم تمادى الذين يتبعون الشهوات، ومضوا بعيداً مطالبين فرض الشذوذ وتعليمه في التعليم والإعلام، وتعاون مجتمع الشهوة الرأسمالية قائماً على البحث عن المادة والمتعة المطلقة التي تجعل الناس عبيداً عند أصحاب الثروات الكبيرة، فاستجاب كثيرٌ لأسباب مختلفة للجهود الشيطانية التي بذلها الملحدون ومرضى الشهوات المسرفة، فقضت المحكمة الأميركية العليا عام (٢٠١٥ م) بالسماح بزواج المثليين (الفاحشين) في عموم الولايات المتحدة، فصارت ضمن الدول التي تُشرع ذلك كهلندا وجنوب أفريقيا والدنمارك والبرازيل. يكفيك هذا لتعلم أن ما يسمى بالديمقراطية ليست إلا قناعاً يختفي وراءه إجرام الذين يتبعون الشهوات.

وهنا سؤال يتردد كثيراً في هذه الأيام: هل صحيح أنه توجد مورثات (جينات) تدفع الإنسان لفعل فاحشة قوم لوط؟

الجواب: كلا! بل هي كذبة كبرى.

ومن الدراسات التي كشفت الكذبة الكبرى هاهنا دراسة نشرت على موقع الجزيرة لإبراهيم السيد بعنوان: "الشذوذ الجنسي.. سلوك مكتسب أم جينات لا نتحكم بها؟"^(١). وكذلك بحث: "براءة الجينات من الشذوذ الجنسي" ليونس نظيف في موقع مركز يقين.

ومما يخبرك عن هذا التزوير للحقائق العلمية الكاتبان العلميان الأخوان (نيل وايتهد) و(بريار وايتهد) في كتابهما: (هل جيناتي جعلتني هكذا؟ المثلية والحجة الجينية)^(٢)، إذ أوضحا أن ادعاء وجود جين بشري يدفع الإنسان نحو الفاحشة محض فرية، فقالا: "إن الغرب كان معرضاً لحملة من التضليل والخداع في السنوات العشرين أو الثلاثين الأخيرة، جعلت مؤسساته العامة من المشرّعين إلى القضاة ومن الكنائس إلى التخصصات الذهنية الصحية يؤمنون بشكل واسع أن المثلية الجنسية مورثة عضوياً وبالتالي لا يمكن تغييرها"^(٣).

وقال المحلل الإعلامي (مارك داييس): "الإعلام الليبرالي أجرى عملية غسيل مخ من خلال (بروباغاندا) المثليين الجنسيين -الممارسين للفاحشة- حتى يقنع الأمريكيان بارتفاع نسب الشذوذ الجنسي"، والإسراف الإعلامي في تضخيم هذه الكذبة على أنها حقيقة جعل معدلات الشذوذ ترتفع^(٤).

لكنهم استدلو بوجود السلوك المثلي لدى الحيوانات، وزعموا أن هذه طبيعة الأحياء، فهل هذا الاستدلال صحيح؟

الجواب: إن القول بوجود السلوك المثلي الجنسي لدى الحيوانات، وأنه دليل على صحة وجود غريزة السلوك المثلي عند البشر استدلال خاطئ؛ فالغرائز والسلوكيات الحيوانية لا يصح قياسها

(١) ينظر رابط هذه الدراسة: <https://www.ajnet.me/midan/intellect/sociology/٢٠١٧/٨/١>

(٢) الكتاب من إصدارات مركز البحوث والتواصل المعرفي، الرياض، ١٤٤٢هـ، ترجمة: د. عبد القادر مساعد.

(٣) ينظر: هل جيناتي جعلتني هكذا؟ المثلية والحجة الجينية (ص: ٤٣).

(٤) نحن نجاري في موضوع المصطلحات، وإلا فمصطلح الشذوذ والمثلية وغيرها ما هي إلا تلميع للفاحشة ومحاولة تخفيف وقع معنى بشاعتها وقبحها على الأسماع، ولذلك أصبح مصطلح هو ما أقره الله في كتابه (الفاحشة).

على مثيلها الإنسانيّة، فمثلاً، تقوم بعض القطط -إناث وذكور- بقتل القطط الصغيرة حتى لو كانت أبناءها، وهو فعلٌ بسببٍ غريزي في القطط بسبب بعض التغيّرات السيكولوجية والعضوية. في سُلُوكٍ كهذا، يصبح من العبث أن يقتل الإنسان أخاه الإنسان بدعوى أنّ هذا السلوك طبيعي لدى الحيوانات، فلكل نوع كائن حيّ (Species) تركيبته البنيوية والوظيفية المختلفة تمام الاختلاف عن النوع الآخر.

ثم هذا السلوك لا علاقة له بوجود الشذوذ عند الحيوان، فالدراسة التي تزعم ذلك قاصرة وجاهلة.

فقد قام عالم الوراثة الأمريكي الشهير والمؤيد للمثلية الجنسية (دين هامر) بإجراء بحث يزعم فيه الربط بين علم الجينات والمثلية الجنسية. وقد تلقت الصحف الأمريكية الخبر بسرعة كبيرة تحت عنوان صريح: "باحث يكتشف جين الشذوذ الجنسي"! انظر للعنوان المثير، لكن الأكثر إثارة أن كل ذلك كذب، ف(دين هامر) نفسه نفى هذا الأمر، فقال: "لم نكتشف الجين المسؤول عن التوجّه الجنسي، بل نعتقد أنه ليس موجوداً أصلاً".

وفي حادثة مماثلة عام (٢٠١٥م)، قام فريق من الباحثين بجامعة كاليفورنيا بالإعلان عن وجود بعض العلامات الفوق-جينية التي تؤثر بشكل مباشر في المثلية الجنسية لدى الرجال. وقد قامت مجلة "الطبيعة" (Nature) الشهيرة بتلقّي الخبر بحفاوة شديدة، وتبعتها سريعاً عدّة مواقع إلكترونية علمية.

لكن قام عددٌ من المحقّقين بمراجعة الدراسة فوجدوا فيها عدّة أخطاء تطعن في مصداقية الدراسة ككلّ، ومن نقد هذه الدراسة: أستاذ علم الجينات (جون غريلي)، فاضطر رئيس فريق الباحثين نفسه أن يعترف بأن الدراسة قاصرة علمياً وإحصائياً.

واسمتع للمفاجأة، فقد أجرى فريقٌ من الباحثين بجامعة (نورث ويستيرن) الأميركية دراسة علمية عام (٢٠١٤م) شملت فحص الحمض النووي لـ (٤٠٠) ذكّرٍ ممن يأتي الفاحشة، فلم يتمكّن الباحثون من العثور على جين واحد مسؤول عن توجيههم الجنسي، وقالوا: إن "الجينات كانت إمّا غير كافية، وإمّا غير ضرورية لجعل أيّ من الرجال شاذّاً جنسياً"، وعلّق أستاذ علم الجينات الأمريكي (آلان ساندرز) على هذه الدراسة قائلاً: "الجينات ليست هي القصة الكاملة، إنها ليست كذلك".

إذن فقد علّق أستاذ علم الجينات الأمريكي (آلان ساندروز) على هذه الدراسة قائلاً: "الجينات ليست هي القصة الكاملة، إنها ليست كذلك"، فهل لها عندنا جواب: ما القصة الكاملة؟
الجواب: القرآن يجيبك عن القصة الكاملة، فيخاطب الشاذين في سورة الأعراف: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

تعال الآن لترى هذا الوصف الدقيق المدهش: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾؛ إذ يثبت العلماء أن الجينات-السلوكية (Behavioral Genetics) ليست محدّدة بشكل قطعي للسلوك البشري ويشرح أستاذ الدراسات العائلية بجامعة نبراسكا (دوغلاس أبوت) هذه الإشكالية قائلاً: "كثير من الناس يعتقدون أن الجينات تتسبب في سلوك نفسي مرگّب، ولكن الأمر ليس كذلك. في أغلب الحالات، ينتج السلوك من تأثير جيني متفاعل مع العوامل البيئية وحرية الإرادة الإنسانية".
وأكبر محاولة تم القيام بها سنة (٢٠١٢م) لتحديد الجينات المرتبطة بالشذوذ الجنسي أجرتها الجمعية الأمريكية لعلم الوراثة البشرية (the American Society of Human Genetics) على أكثر من (٢٣) ألف فرد، فخلصت إلى الآتي:
"لم نجد دليلاً يجمع بين الهوية الجنسية وتعدد أشكال النوكليوتيدات المفردة – SNPs – على الكروموسوم X عند الرجال، النساء...".
وفي سنة (٢٠١٥م) قدمت الجمعية نفسها دراسة لجامعة كاليفورنيا تقول خلاصتها كما توضح جريدة (التلغراف): "المثلية الجنسية يمكن أن تكون ناجمة عن البيئة بعد الولادة"
إذن هي الشهوات المسرفة التي تدفع الشهواني إلى فعل الفاحشة، وليست المورثات في أجساد الناس.

بصيرة: انظرهنا إلى موضوع حرية الإرادة، فهل وجود الإرادة المسرفة يعني أن نسمح لها بالإسراف، وإسرافها يؤدي إلى الإفساد في الأرض؟!

وفي إطار الأكاذيب التي يقترفها المسرفون الذين يأتون الفاحشة روجت بعض المؤسسات التي تعمل على إشاعة الفاحشة أن نسبة (١٠٪) من السكان هم مثليون بالطبيعة. وهذه كذبة أخرى

كبيرة عند الدراسات الإحصائية كما أن جعل الشذوذ طبيعة كذبة أكبر، فهو إسراف يتجاوز الحد الإنساني الطبيعي.

ومن أهم أسباب الفاحشة التحريف الكبير الذي اقترفته الكنيسة بتحريم الزواج على القُسس، وتحريم التعدد، فمن الحقائق المثيرة أن الشذوذ الجنسي يرتفع بشكل ملحوظ في أوساط الكنائس الغربية، ففي عام (٢٠٠٠م)، نشرت صحيفة التايمز البريطانية تقريراً يفيد بأن الوفيات الناتجة عن مرض الإيدز (AIDS) وسط رجال الدين المسيحيين الأميركيين أكثر ١٠ مرّات من نسب الوفيات بالمرض نفسه في الشعب ككل.

الإعجاز التشريعي في معالجة الانحراف: قراءة في الخطاب القرآني لنبي الله لوط عليه السلام:

نعود الآن إلى ما ذكرته من فهمك للآيات: أنت نفيت بالأدلة العلمية أن تكون شهوتهم التي يأتون بها الفاحشة جبرية نابعة من شيء في جيناتهم تجبرهم على أن يتجهوا هذا الاتجاه، ولكنك سميت الجهود التي قام بها لوط عليه السلام علاجات. إذن:

هل القوم الذين يأتون الفاحشة مجرد مرضى عندهم اضطراب، ويحتاجون إلى مساعدة فقط؟

وكيف صار كلام لوط عليه السلام ملهماً إذاً في التعامل مع هذه الأنواع المخيفة من الشهوات المسرفة؟

الجواب: لو قلنا بأنهم مجرد مرضى لكانوا سيقولون: فاسمحوا لنا أن نفعل ما يحلو لنا حتى يتم علاجنا، وربما يقولون: علاجنا يدوم وقتاً طويلاً، وهكذا سيطلبون أن نعذرهم فيما يفعلون. نعم هم مرضى، لكنه مرض لا يعذرون فيه، لأنه مرض سببه إصرارهم على الفعل المسكر، والذين يتناولون المسكر ينبغي أن يقلعوا عنه، وقد وصفهم الله ﷻ سكارى أسكرتهم شهوتهم غير الطبيعية، فقال ﷻ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧٦) [الحجر ١٧٢].

والعلاجات التي بذلها لوط عليه السلام إنما هي علاجات عقلية نفسية بينت لهم الخطر الكبير للفعل الذي يفعلونه، فهي علاجات مقترنة بالإدانة العظيمة لفعلهم، وفعلهم ليس مرضاً محضاً، ولكنه جريمة حقيقية، ويبين لك هذه الإدانة الهائلة لجريمتهم هذه الجمل الثلاث التي واجههم بها لوط عليه السلام:

الأولى: قال لهم فيها: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف ٨٠]، فهي إذن ليست مسألة طبيعية دفعكم لها وجود جين أو جوهر ضمن تركيبكم الجسدي، فقد مضت البشرية قبلكم ولم يعرفوا هذه الجريمة التي تأتونها

الثانية: قال لهم فيها: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ﴾ [الأعراف ٨١]، فالذي يدفعكم لها مجرد الاشتها، والاشتها لإتيان الرجال مثل الاشتها للمال الحرام، وللقتل الحرام لا حلَّ له إلا الكف.

وبعض المناصرين لإشاعة الفاحشة يقولون: هذه الفاحشة لا تؤدي إلى احتراق بيت، ولا إلى اعتداء على مال، فنجيبه: لكنها اعتداء على البشرية كلها؛ لأن المصابون بهذا الداء لا يقتصر فسادهم وتأثيرهم على أنفسهم المريضة بل يريدون نقل العدوى إلى غيرهم سواء بالاغتصاب، أو الابتزاز، أو الخداع والترويج والتدليس على الآخرين، وكذلك لأن ممارسة هذه الفاحشة يؤدي إلى انتشار الأمراض التي تصيب البشرية فيؤدي إلى فناءها، وهلاكها؛ ولأن البشرية من حقها أن تتكاثر وتتناسل، وهذا الفعل يؤدي إلى انقراض البشرية وتقليل أعدادها، ويؤدي إلى اختلال التركيب الأصلي الفطري لها، فالإنسان لا يمكن أن يجد راحته وسكينته إلا بجوار امرأة ضمن زواج معتبر موثق توثيقاً شرعياً.

الثالثة: قال لهم فيها **الْعَلِيلُ**: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف ٨١]، ففعلكم فيها تجاوز من الحلال إلى الحرام، والحلّ لمثل ذلك الكف عن الحرام.

ولكن لماذا سلك لوط **الْعَلِيلُ أسلوب العلاج العقلي النفسي المقترن بالإدانة؟ لماذا لم يلجأ إلى منعهم بالقوة؟**

الجواب: لأنه - كما هو واضح - لم يملك القوة اللازمة لمنعهم، فقد جاءه ضيوف، فهرع قومه إليه يريدون أن يأخذوا ضيوفه ليصنعوا بهم ذلك الفعل القبيح، فلم يملك لوط **الْعَلِيلُ** إلا أن يخبرهم بموافقته على أن يتزوج كباراهم ببناته، وقد كان امتنع من ذلك من قبل: ﴿قَالَ يَنْفِقُونَ هَهُؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَظْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزَوْا فِي صَیْفِ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [هود ٧٨]، أو أراد ببناته نساءهم كما روى الطبري عن جمعٍ منهم: سعيد بن جبیر، في قول لوط **الْعَلِيلُ**: ﴿هَهُؤُلَاءِ بَنَاتِي

هُنَّ أَظْهَرُ لَكُمْ﴾ يعني: نساءهم، هُنَّ بَنَاتُهُ؛ لَأَنَّهُ نَبِيَّهُمْ، كَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، زاد في قراءة تفسيرية: (وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ).

ولكنهم أصرّوا على الإجرام: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ (٧٨)

[هود: ٧٩].

عندها شكّا ضعفه وقلة حيلته حيث لا توجد معه قوة تردعهم عن ضيوفه: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوَايَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (هود: ٨٠)، ولو كانت معه قوة لردعهم عن شهواتهم الحرام، ولكنه سلك أسلوب المحاورّة العلاجيّة المقترنة بالإدانة الشديدة لجرائمهم.

هل الأسلوب الذي سار عليه لوط عليه السلام يتناسب في التعامل مع جرائم شهوانية خطيرة قريبة مما فعله قوم لوط عليه السلام؟

الجواب: نعم! لقد كان خطاب لوط عليه السلام ملهّماً جدّاً؛ ليلفت أنظارنا إلى الجرائم الشهوانية الخطيرة التي يريد الذين يتبعون الشهوات المسرفة أن يُميلوا إليها البشريّة.

هل تصدقون أن بعض الدول والأنظمة انحدرت إلى إباحة قتل الأجنة تحت عنوان إباحة الإجهاض؟ فقط كل ذلك تلبيةً لشهواتها المسرفة المحرمة.

الآن اسمع إلى الجديد الذي تهرول إليه منظمات في البلاد الغربية اتباعاً للشهوات المسرفة: إنه حرية إتيان الغلمان والصبيان الصغار من البنين والبنات، ويسمونه "البيدوفيليا".

هل تصدق أن هذا الشيء المقيز بدأ يأخذ مجراه في النقاش في بعض الدول؟!

فقد قامت هيئة الإذاعة البريطانية (BBC) بنشر مقالة بعنوان: (البيدوفيل يحتاج إلى المساعدة إلى الإدانة)، رفضت فيه تطبيع العلاقة مع الغلمانين واعتبرت الهيئة فيه أن البيدوفيليا هي مجرد (اضطراب ذهني)، ثم ختمت مقالها بتجربة لأحد الأشخاص الغلمانيين الذين "تم علاجهم" و"تعافوا" من حيمهم للأطفال، وصار الآن يعيش حياة سعيدة مع زوجته.

لاحظ التلاعب: جعلوا الميل إلى إتيان الفاحشة مع أكثر الأعمار براءة، مجرد اضطراب يحتاج إلى علاج، وليس جريمة سببها الشهوات المسرفة؟!

وكذلك نشرت (The New York Times) مقالاً بعنوان: (البيدوفيليا: اضطراب وليس جريمة)، ذكرت فيه أن البيدوفيليا هو أمر طبيعي غير ناتج عن اختيار الشخص، وقالت: "ثمة

اعتقاد خاطئ منتشر وهو أن البيدوفيليا اختيار... لا ينبغي أن نلوم البيدوفيلي على توجهه الجنسي، فالأبحاث العلمية الحديثة تثبت أن الانجذاب الجنسي للأطفال ليس إلا نتيجة لعوامل بيولوجية يتم تفعيلها بواسطة البيئة المحيطة بالشخص".

بل يمضي أصحاب الشهوات المسرفة وداعموهم بعيداً ليقبلوا القضية، فيشجعوا على هذه الجريمة بسبب أن من يفعلها لا يوجد دليل على أنه ربما يتوقف.

كما نشر الكنديان المتخصصان في الدراسات الجنسية: (جيمس كانتور) و(بول فيدوروف) ورقة بحثية على موقع (Springer) المرموق، ذكراً فيها أنه "لا يوجد أي دليل علمي حاليًا على إمكانية تحول الغلماني إلى شخص غير غلماني، سواء بشكل تلقائي أو عبر العلاج"، وهو ما يعزز فكرة أن البيدوفيليا هي أمر طبيعي وجيني غير قابل للاختيار الحرّ.

وبناءً على ذلك وضع كاتب في موقع الجزيرة حول هذا الموضوع سؤاله المرعب: هل يستعد الغرب للاعتراف بالبيدوفيليا؟

وللتمهيد لإباحة الشهوات المسرفة يفرق بعضهم بين: من عندهم اضطراب البيدوفيليا، والمعتدين على الأطفال، حيث يعرف الاعتداء الجنسي على الأطفال (Child Sexual Offending) اختصاراً ب (CSO)، وهو الاتصال الجنسي بين بالغ وقاصر، فقسّم من المعتدين على الأطفال تم تشخيصهم بالبيدوفيليا، وبالمقابل فإن (٥٠٪) ممن تمت عليهم الدراسة ومصابون بالبيدوفيليا قاموا باعتداءات على الأطفال.

وقد تسأل: كيف شجع قوم لوط بعضهم في القيام بهذا العمل الشنيع الفظيع؟ وكيف صار قبول ذلك الفعل شيئاً عاماً في هذه الدولة التي سُميت المؤتفكة؟

الجواب: صار ذلك عندما جعلوه تشريعاً عاماً، وحاربوا كل صاحب فطرة سوية ممن ينكر أعمالهم حتى طلبوا ممن ينكر أعمالهم أن يكون تحت الإقامة الجبرية حتى لا يقابل أحداً من العالمين، فيصدهم عن ذلك الفعل، وصرّحوا بذلك حينما قالوا للوط العليّة: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نُنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٧٠﴾ [الحجر ٧٠].

والآن تحاول المنظمات الدولية أن تقوم بما هو أسوأ مما قام به قوم لوط العليّة؛ حيث تسعى لتشريع هذا النوع من الأفعال، بل طالبت أن يكون نوعاً من أنواع إقامة الأسر.

وإنك لتعجب من اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة (CEDAW)، والتي اعتمدت في عام (١٩٧٩م) من قبل الجمعية العامة للأمم المتحدة، وكثيراً ما توصف بأنها وثيقة دولية لحقوق المرأة.

لاحظ يقولون: القضاء على التمييز وليس القضاء على الظلم، فإذا ميزت المرأة بأنها أم تستحق التقدير وخصوصية التعامل، فهل هذا تمييز؟!

وقد اعتمدتها الأمم المتحدة في عام ١٩٧٩م، ثم أصبحت سارية المفعول بتوقيع خمسين دولة عليها في ١٩٨١م.

عند قراءتها نجدها توجه للمطالبة بحق الفرد وفق أهوائه سواء أكان ذكراً أم أنثى لا وفق المسؤولية الإنسانية المشتركة، ولذا تجد كلمة حقوق تكررت: (٥٦) مرة، ومساواة: (٣٦) مرة، ومسؤولية: (٧) مرات، أما تضامن وتعاون فلا وجود لهما، وأما العدل فلا وجود له، وتم التلاعب بمفهوم المساواة ليكون أساساً للظلم لا للعدل، وقد وجدت بعض النقاط المضيئة في الوثيقة مثل الانتصار لحقوق الحمل والأمومة في عدد من الجوانب، إلا أنك ترى شحن الوثيقة لإظهار الصراع بين الرجل والمرأة بدلاً من التكامل، ومن ذلك:

إعطاء المرأة حق التصرف في جسدها: بالتحكم في الإنجاب عبر الحق في تحديد النسل والإجهاض، والله ﷻ يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقَ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]

ومن الغريب فيها الترويج للشهوة المطلقة وتقييد حق الزوجين في اللقاء الجنسي ببعضهم في بعض الحالات، حيث تروج بعض المنظمات لمصطلح الاغتصاب الزوجي لأجل تنفير الزوجين من بعضهما، ويطلق على حالات عامة دون تفريق، فيذكرون عقوبة قانونية تترتب عليه مع أن الذي يدور بين الزوج والزوجة قد يكون صلاحه باللقاء الزوجي الذي يذهب سورة الغضب، ويجلب السكينة للنفوس والأجساد، مع أن الله ﷻ يقول: ﴿يَسْأَوُكُمُ حَرْثُ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أُنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، ويقول رسول الله ﷺ: «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ، فَبَاتَ غَضَبَانِ عَلَيَّهَا، لَعْنَتُهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ»^(١).

(١) البخاري (٣٢٣٧)، ومسلم (١٤٣٦-١٢٢).

بذل لوط عليه السلام جهودًا عظيمة لبيان فحش الجريمة التي يرتكها قومه، وأخبرهم عن الأضرار الخطيرة التي تسببها أفعالهم، فهل مجرد المعرفة بضرر الشيء وسوئه يكفي لردع من يريد اقترافه؟ وما الذي يحدث للنفس الإنسانية عندما يتصارع فيها الهوى الذي يرغب بقضاء الشهوة ولو كانت ضارة، والعقل الذي يحذر هذه النفس من الضرر اللاحق؟

الجواب: العِلْمُ بالفساد لا يردع المفسد، والمعرفة بالضرر لا يمنع المجرم من الإقدام على الجرم الذي سيعود بالضرر عليه خاصة عندما يكون الضرر على الأمد الطويل. واضرب لهم مثلاً بالأطباء المدخنين الذين يهون الناس عن التدخين.

وما الذي يحدث للنفس الإنسانية عندما يتصارع فيها الهوى الذي يرغب بقضاء الشهوة ولو كانت ضارة، والعقل الذي يحذر هذه النفس من الضرر اللاحق؟
إما أن يقبل المرء على الهوى المُشْتَمَى المُشْتَمَى، وإما أن يعتنق العقل الذي يحذره من الضرر العاجل والأجل، فإذا دافع الهوى نجا.

ثلاثٌ مهلكاتٌ لا محالة هوى نفسٍ يقودُ إلى البطالة
وشحٌّ لا يزالُ يطاعُ دأبًا وعُجْبٌ ظاهرٌ في كل حاله^(١).

ضرورة علاج الهوى:

وأضر من هذه الأضرار كلها: أن يكون المرء متماديًا لا يعالج هواه، غير مسرع إلى مخالفته، حتى أن مثل أبي العتاهية يضجر ويتأفف من برودة صاحبه في ذلك، فيخاطبه:

خالفْ هواك إذا دعاكَ لريبةٍ فلربَّ خيرٍ في مخالفةِ الهوى
حتى متى لا ترعوي يا صاحبي حتى متى؟ حتى متى؟ وإلى متى؟^(٢)

ويتعجب ثانيةً لفتوره وعدم المسارعة إلى الإصلاح فيقول:

سبحان ربك كيف يغلبك الهوى سبحانه، إنَّ الهوى لغلوبُ

(١) الشعر للعلامة أبي جعفر أحمد بن ليون التجيبي: نفخ الطيب من غصن الاندلس الرطيب (٥/ ٥٤٥).

(٢) أبو العتاهية: أشعاره وأخباره (ص: ١٤، ١٥).

سبحان ربك ما تزال وفيك عن إصلاح نفسك فترةً ونكوب^(١)

وكان صاحبه كبعض من نراهم اليوم، ينكرون تلبسهم بالهوى، ولا يكتشفونه، فيقعّدون عن مداواة نفوسهم، وعلاج أمراضهم، ولكن الطبيب الماهر يكتشف عليهم وإن لم يحسوا به أو يعترفوا به أيضاً.

ومن يُطع الهوى يعرف هواه وقد ينبيك بالأمر الخبير^(٢)

فالخبير، ومن عنده علم الفتن وصفات الشر يعرف الهوى الكامن المستقر من آثاره الظاهرة لا محالة.

ولذلك يجب الإصغاء لطبيب خبير من السلف طلب منا إضعاف هذا العدو فقال: "الهوى لا يترك العبودية تصفو، وما لم يشتغل السالك بإضعاف هذا العدو الذي بين جنبه لا تصح له قدمٌ، ولو أتى بأعمال تسد الخافقين^(٣)."

بصيرة: إن الإنسان كما ألهم الفجور فقد ألهم التقوى، ومن أهم خصال التقوى فضائل الأخلاق، ولكن الفضائل الموهوبة لا بد من أن تنميها الفضائل المكتسبة، وطاعة الهوى يدمر الفضائل الموهوبة أصلاً، "فَالْفَضَائِلُ الْمُوهُوبَةُ بِسَلَامَةِ الْفِطْرَةِ، غُرْضَةٌ لِلْفَسَادِ بِسُوءِ الْقُدْوَةِ، إِلَّا إِذَا رَسَخَتْ بِالْفَضَائِلِ الْمَكْسُوبَةِ بِتَرْبِيَةِ الدِّينِ".

تفسير المنار (٨/ ٤٥٥)

وأكد الله ﷻ قبح ما كان يفعله هؤلاء، فقال: ﴿وَنَحْيَيْنَهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْحَبِيثَ﴾ [الأنبياء: ٧٤]، ثُمَّ أَكَّدَ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمُ الدَّمَ بِوَصْفَيْنِ فِي غَايَةِ الْقُبْحِ فَقَالَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤]، وَسَمَّاهُمْ مُفْسِدِينَ فِي قَوْلِ نَبِيِّهِمْ: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ

(١) أبو العتاهية: أشعاره وأخباره (ص: ٣٠، ٣١).

(٢) هذا البيت لدادود بن سلم كما في معجم البلدان (١١٣/٤).

(٣) العوانق (ص: ٦٥، ٦٦).

الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ [الْعنكبوت: ٣٠]، وَسَمَّاهُمْ ظَالِمِينَ فِي قَوْلِ الْمَلَكَةِ لِبَرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الْعنكبوت: ٣١].

أخطر ما يتعلق بالفاحشة:

(١) أنها استجابة مباشرة للشيطان في قلب الفطرة وتغيير خلق الله ﷻ، حيث جعل الشيطان ذلك من أعظم أهدافه، فقال: ﴿وَلَا ضِلَّتَهُمْ وَلَا مَنِّتَهُمْ وَلَا مُرِنَّتَهُمْ فَلْيَبْتَكَنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَمِ وَلَا مُرِنَّتَهُمْ فَلْيَعْبِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩].

(٢) أنها اعتداء على الطفولة البريئة، وفعلها استجابة لنداء الشيطان، واستجاباً لسخط الرحمن، وعدم شكره على إنعامه بالخلق الذي خلق عليه الإنسان، وقد جعل الشيطان عدم شكر الله ﷻ واحداً من أهم أهدافه، وذكر الله ﷻ ذلك في هذه السورة، فقال الله ﷻ عنه: ﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لَأَفْعِدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأَنبِئَهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧].

(٣) أنها تدمير للشخصية، وطمس للذات، ومحو لكرامة الإنسان؛ لذلك يسارع المأزومون من الأطباء النفسانيين إلى نصح الطفل المسكين أو الطفلة الخائفة إلى تغيير الجنس، ويوهمونهم بأن سبب شقايمهم ليس عدم شكر الله ﷻ على نعمة كون الواحد ذكراً أو أنثى بل يجعلون كل مشكلة عندهم سبباً أنهم محبوبسون في جسد ليس جسدهم، ثم يحثونهم ثم يلزموهم بتناول هرمونات الجنس الآخر، وإن كانت فتاة عملوا لها عملية لنزع أئدائها، ثم يشوهون كل واحد في خلقته، والنتيجة لذلك أن ينتحر كل متحول في الغالب أو يشقى في حياته.

نماذج سيئة للانحطاط الغربي:

(الفريد كينزي) توفي عام (١٩٥٦م)، وهو عالم الأحياء الأمريكي، ومؤسس معهد أبحاث الجنس في جامعة (إنديانا بلومنغتون)، وأستاذ علم الحيوان وعلم الحشرات، ويعرفونه بأنه أبو الثورة الجنسية ومؤسس علم الجنس.

و(جون ماني) وتوفي عام (٢٠٠٦م)، وهو من أشهر خبراء السلوك الجنسي، ومبتكر نظرية تأثير المجتمع على الهوية الجنسية للفرد، وأن الميول الجنسية يتم تشكيلها وفقاً للمجتمع وليس وفقاً لنوع الجنين، ذكرًا كان أم أنثى.

أسهم هذان الاثنان في تغيير المجتمعات الغربية لتتقبل الشذوذ والفاحشة مثل تغيير الجنس أو التعري أمام الأطفال أو حتى الاعتداء عليهم.

وهما عالمان مجرمان منحرفان أجريا تجارب جنسية على أطفال:

فالأول: (ألفريد كينزي) باع آلاف النسخ من كتابيه: "السلوك الجنسي لدى المرأة"، "السلوك الجنسي لدى الرجل"، وكان الكتابان في الأصل عبارة عن منهج مستقل للمتزوجين أو المقبلين على الزواج، وبنى أبحاثه على هوس جنسي، فماذا تتوقع أن تكون النتائج من الذين يتبعون الشهوات؟ واعتبر أن الأطفال الذين يبلغون ثلاثة شهور عندهم... ما يستحيا من ذكره؛ لأن الرجل يريد أن يشرع للفاحشة.

أما الثاني: (جون ماني) فيؤكد أن الهوية الجنسية للأطفال تتشكل وفقاً للمجتمع والبيئة، وقد ارتكب جرائم في سبيل ذلك، والآن تصور: عندما يرتكب طبيب نفسي جرائمه، ويلزم المجتمع على اعتبار أن فعله علاج لمساكين يظنون أنه يعالجهم، وأشهر تجربة مجرمة كذب بها على الناس تجربته على توأمين هما: (بروس) و(رايان رايمر).

ولأنه ارتكب خطأ جراحي مع الطفل بروس ذهب يقنع والديه أن الحل تغيير جنسه ليكون أنثى صار اسمها (بريندا)، ثم واصل إجرامه ومحبه لرؤية الطفلين يكبران، ويتعريان أمامه، ويفعل أحدهما الفاحشة بالآخر أمامه، ويمدهما بالهرمونات، وتحولت حياتهما إلى جحيم، ولكن هذا الجحيم جعله -الدكتور الكذاب، وناشطات الفاحشة النسويات- جنة، فوصف حالتهما في كتابه: "رجل وامرأة، فتى وفتاة" (جون موني) (١٩٧٢)، وجاء محبو الفاحشة من الناشطات النسويات ليستدلوا بالكتاب على أن الإنسان يولد بلا جنس ويتم تحديد جنسه لاحقاً عن طريق الثقافة والتنشئة، فقالت (أورزولا شوي) في كتابها "أصل الفروق بين الجنسين": "نحن لا نولد بناتٍ أو صبياناً، إنما يجعلون منا هكذا".

النتيجة:

المسكين (بروس) الذي حوَّله (جون ماني) لأنثى طلب العودة إلى أن يكون ذكراً بعد أن كبر، وغير اسمه إلى (ديفيد)، ولكنه فشل في العودة إلى حياته الطبيعية فانتحر في سن (٣٨) بطلقة في الرأس، وكذلك انتحر شقيقه (رايان)، ويرى هذا المسخ الدكتور أنه من الطبيعي أن يفعل الرجل الفاحشة بالأطفال الذين يرغبون به، وجعل (الهوية الجنسية) مكتسبة بواسطة التنشئة لا مع تكوُّن الجنين. والطفل (بروس) الذي حوله هذا الدكتور المجرم إلى (بريندا) حاول الانتحار ثلاث مرات ولما رجع إلى التعامل كذكر أطلع العالم على قصته في لقاء صحفي تم نشره بمجلة (رولينج ستون) في ديسمبر كانون الأول عام ١٩٩٨ م، ونشر قصته (جون كولابنتو) في كتاب سماه: "الصبي الذي نشأ كفتاة"، ولكن علاج هذا الدكتور المجرم ظل يلاحقه نفسياً، فانتحر أخوه (براين) عام (٢٠٠٢ م)، وفي (٢٠٠٤ م) انتحر (ديفيد)، وحمل والداه (جون موني) مسؤولية وفاة التوأمين. اليوم تعرض الشاشة جلسات مأزومين ومأزومات يدعون أنفسهم معالجين نفسيين، وقضاة في المحكمة الأمريكية العليا، ويدعون الذي يدعيه (موني) بأن الهوية الجنسية تتشكل من التعليم والتعلم، ويدعون أن سبب انتحار التوأمين المسكينين هو تحيُّز وسائل الإعلامية اليمينية ضد الأفكار النسوية.

ثم قال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢]، فما المشهد الجديد الذي تنقلنا إليه هذه الآية؟

الجواب:

المشهد الثالث: الفاحشيون يقررون تهجير المتطهرين خارج الأرض، وهنا نرى قرار الاعتداء على لوط عليه السلام وأهله، وبيصّرنا بذلك قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢]، فأصبروا على الوقاحة في جعل تلك الفاحشة نظام حياتهم، وأن يمنعوا كل من يحاول تصحيح حياتهم من الرجس الذي يعيشونه.

وأول سؤال تدبري: على أي شيء كان العطف بالواو في قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾؟ وما وجه قوة الواو في تصوير الأحداث التي وقعت؟

الجواب: يظهر لي أن العطف بالواو هنا من عطف القصة على القصة أو المفصل العام في القصة الواحدة على المفصل العام في القصة ذاتها، وكأن التقدير: واذكر لوطاً إذ قال لقومه، واذكر أنه ما كان جواب قومه إلا أن قالوا، والواو هنا طوت سنين من موعظة الصالحين أي: من موعظة لوط عليه السلام لقومه، ومحاولته لعلاجهم من مرضهم الخبيث الذي كان يُمكنهم أن يتداووا منه باتخاذ القرار الصحيح، وكأن الله ﷻ يصور لنا الحياة بهذا الاختصار: أرسلنا نبياً صالحاً من أنبيائنا لإنقاذ البشرية، فأبوا وقاموا عملية الإنقاذ، وأصرروا على البقاء في عفنهم ونجاستهم، ثم اتخذوا قراراً بالاعتداء على منقذهم.

والآن ماذا يعني هذا المصطلح الجوّاري: ﴿جَوَابٌ﴾؟ وما وجه قوة بيان هذه الكلمة القرآنية في هذا الموضع؟

الجواب: كلمة ﴿جَوَابٌ﴾: منصوبة على أنّها خبرٌ ﴿كَانَ﴾ مُقَدَّمٌ على اسمها الواقع بَعْدَ أداة الاستئناء المُقَرَّرِ.

وكلمة: ﴿جَوَابٌ﴾ مشتقة من (جَوَبٌ)^(١) التي تصير (جاب) أي قطع الجَوْبَة وخرقها، وهي الأرض الواسعة الممتدة، ثم يستعمل في قطع كلّ أرض، يُقَالُ: جُبْتُ الْأَرْضَ جَوْبًا، فَأَنَا جَائِبٌ وَجَوَابٌ أي: أقطع المسافات، ومنه قوله ﷻ: ﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩﴾ [الفجر: ٩]. أي: قطعوا الصخر، وَقَالَ الْجَعْدِيُّ:

أَتَاكَ أَبُو لَيْلَى يَجُوبُ بِهِ الدُّجَى دُجَى اللَّيْلِ جَوَابُ الْفَلَاةِ عَثْمَثُ^(٢).

وَالْجَوْبُ: دَنْعٌ يُقَطَّعُ وَيُقَصَّلُ ليناسب أن تلبسه المرأة، وَالْمَجُوبُ: حَدِيدَةٌ يُجَابُ بِهَا، أَيُ يُخَصَفُ. وهنا ندرك قوة هذه الكلمة القرآنية: ﴿جَوَابٌ﴾ في هذا الموضع، فهي تصور ردة الفعل التي قطعت المسافة بين طرفين، وردة الفعل إما أن تكون قولاً، وإما أن تكون فعلاً يجوب به المتكلم الهواء الفاصل بينه وبين الطرف الآخر، فيقطعه واصلًا إلى الطرف المقابل له موافقًا أو مخالفاً لقول الطرف الآخر أو فعله، فقد يكون تَقَرُّيراً، وقد يكون رَدًّا، وقد يكون جَزَاءً، يُقَالُ: "هَلْ عِنْدَكَ جَائِبَةٌ

(١) مقاييس اللغة (٤٩١/١)، والعين (١٩٢/٦)، لسان العرب (٢٤٨/١)، والقاموس المحيط (ص: ٧٠).

(٢) ديوان البابغة الجعدي (ص: ١٥٢)، (وأبو ليلي): كنية النابغة الشاعر، و(عَثْمَثُ): الجمل القوي الشديد

خَبَرٍ" أَي: خَبَرٌ يَجُوبُ الْبِلَادَ، وَيُقَالُ: كَلَّمَهُ فَأَجَابَهُ جَوَابًا، وَتَجَاوَبَا مُجَاوَبَةً، وَيَقُولُونَ فِي مَثَلٍ: "أَسَاءَ سَمْعًا فَأَسَاءَ جَابَةً"^(١).

والجواب: يقال في مقابلة السؤال، والسؤال على ضربين:

طلب مقال، وجوابه المقال، ومنه قوله ﷺ: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ [الأحاف: ٣١].

وطلب فعال، وجوابه فعال سواء أكان نوالاً أم شيئاً آخر كالتحدي، ومنه قوله ﷺ: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا﴾ [يونس: ٨٩]، أَي: أُعْطِيْتُمَا مَا سَأَلْتُمَا^(٢).

قال الراغب رحمه الله: "والاستجابة قيل: هي الإجابة، وحقيقتها هي التحري للجواب والتهيؤ له، لكن عبر به عن الإجابة لقلّة انفكاكها منها، قال ﷺ: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٢٤]"^(٣).

فكلمة ﴿جَوَابَ﴾: تصور لنا قوم لوط عليه السلام وهم يردون على كل محاولات نبهم لإنقاذهم، بهذا الجواب الخائب المعتدي الذي قالوه بدلاً من الاستجابة له.

وهنا يأتي سؤال: نلاحظ أن الله ﷻ قال: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ [الأعراف: ٨٢]، فأتى بـ ﴿مَا﴾ النافية، ثم أتى بـ ﴿إِلَّا﴾ الاستثنائية:

فلماذا هذا التعبير الذي يدل على الحصر، مع أن أجوبة قومه عليه تعددت؟

الجواب: كانت المعالجات المتعددة التي قام بها لوط عليه السلام لينبه قومه على فظاعة الحياة التي يحيونها تكفي ليستجيبوا، وليظهروا شيئاً من الحياء، لكنهم أجابوه أجوبة متعددة، وأسوأ هذه الأجوبة هو هذا الجواب، فكانه لا جواب لهم سواه، فأجابوه "بِوَقَاحَةٍ عَظِيمَةٍ وَفُجُورٍ زَائِدٍ عَلَى الْحَدِّ"^(٤)، فلم يلتفتوا إلى إنذاره ولا إلى تحذيره ولم يستجيبوا لنصحه لهم، ولم يُعْمَلُوا التفكير في

(١) ينظر: مقاييس اللغة (١/ ٤٩١)، وهذا المثل: "أَسَاءَ سَمْعًا فَأَسَاءَ جَابَةً" أَوَّلُ من قاله سهيل بن عمرو أخو بني عامر، وكان قد خرج بابنه أنس، فوقف بحزورة مكة، فأقبل الأخنس بن شريق الثقفي فقال له: من هذا؟ فقال: ابني! فقال: حياك الله يا فتى [أين أُمُّك؟] يريد: أين تُوْم؟ فقال: لا والله ما أمي في البيت، ولكنها انطلقت إلى أمّ حنظلة تطحن دقيقاً، فقال أبوه: ساء سمعاً فأساء جابة، فأرسلها مثلاً. نهاية الأرب في فنون الأدب (٣/ ٣٤).

(٢) بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز (ص: ٦٢٧).

(٣) المفردات في غريب القرآن (ص: ٢١٠).

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٤٥٦).

بشاعة أفعالهم، وطريقة حياتهم، ولا قبلوا بإنقاذه لهم من الغرق الأخلاقي الذي لا يشعرون به في وخل الفاحشة، ومستنقع المنكر.

وهنا لا تتعجب من أسلوب القرآن الكريم في التعبير عن ردة فعلهم إذ قال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾، فكأنه قال: فلم يتأثروا لحرص لوط عليه السلام، ولم يزدوا في جوابهم على أن قالوا، فحصر أجوبتهم في هذا، مع أنهم تكلموا معه بغير ذلك، لكن أسلوب الحصر بيصّرنا أن كل أجوبتهم كأنها تنحصر في هذا الجواب، فتقص علينا أداة الحصر والقصر كيف قطع قومه أي قدرة على التواصل معه، وأجمعوا على الإصرار على وضعهم الشاذ، وكأنهم اتفقوا جميعاً على جواب واحد هو نفي لوط عليه السلام مع من تبعه من أهله إلى خارج قريتهم.

وهنا يأتي سؤال آخر: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾: لماذا اختاروا أن يحكموا على آل لوط عليه السلام بالنفي؟

الجواب: إنهم فرحون بالإنجاز الذي حققوه، إذ جعلوا إتيان الفاحشة تشريعاً عاماً في حياتهم، والصوت الذي ينكر عليهم ذلك ربما استجاب له بعضهم، وربما استيقظت فطرهم المخزونة وعادت إلى رشدها، ولذلك حكموا عليه بالإخراج: لأنهم لا يريدون أن يؤثر على أي واحد منهم.

وهكذا الفاحشيون في كل زمانٍ ومكان لا يريدون أن يقول لهم أحد: إنهم يرتكبون الإجرام! ألا ترى أنهم الآن يصرون على الاعتداء على الأجنة بما يسمى حق الإجهاض؟ ألا ترى أنهم الآن يصرون على الاعتداء على أطفال الآخرين؛ لأنهم يريدون أن يتبنوا أولئك الأطفال؟ وكيف يتبنونهم إلا بأن يحرموا آباءهم وأمهاتهم منهم؟! ويصرون على الاعتداء على الأطفال زاعمين أن تحرش الكبار بالأطفال مجرد حب وليس اعتداء على الأطفال وعلى كل الإنسانية!

فقالوا: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ أي: أخرجوا لوطاً ومن يوافقه من دولتكم، وعبروا عنها بالقرية؛ لأن هذه الكلمة تصور اجتماعهم في أفعالهم، وحياتهم.

بصيرة: جواب قوم لوط ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾: يصور لنا أنهم يتلاعبون بكلمة الحرية، وبملف الحريات، ويصورون أفعالهم على أنها مجرد حرية شخصية قائمة على التراضي بين طرفين، حتى إذا كان لهم أدنى تمكُّن انتقلوا إلى الاعتداء على الطاهرين الذي لا يفعلون فعلهم.

ونتدبر في التعبير القرآني في هذه السُّورة، فنجد أن الذي كان ينكر عليهم حسب الآيات هو لوط

عليه السلام: فلماذا قالوا: ﴿أَخْرِجُوهُمْ﴾ ولم يقولوا: أخرجوه؟

الجواب: لقد أرادوا نفي أهله معه، فهم استقاموا على أمر أبيهم، وانصاعوا للحق إلا امرأته، ولذا حكم عليهم قومهم بالنفي الجماعي، وهنا يأتيك الجواب على الذين يتلاعبون بحياة الناس، وعلى الذين يسمعون لهم، ماذا يقولون؟

يقولون: لماذا تعادون الفاحشيين، وهم يقومون بما يفعلونه دون أن يعتدوا على الآخرين؟ هنا يبصِّرُ القرآن الكريم أن الفاحشيين يتظاهرون في البداية بعدم الاعتداء، ويعتبرون العلاقة فيما بينهم خاصة، ثم يواصلون مكرهم حتى يعتدوا على جميع من لا يفعل فعلهم الخبيث، وقد طالبوا هنا بإخراج آل لوط عليه السلام من مسكنهم ووطنهم، وذكروا كلمة: ﴿قَرْيَتِكُمْ﴾ ولم يقولوا: قومهم أو نحو ذلك؛ لأنهم أرادوا بيان أن الذي يملك حق العيش في هذه الدولة هو من يفعل أفعالهم الخبيثة، وأنَّ الطاهر لا حق له في العيش في تلك الدولة، فيتَّئم نفيه وعزله خارجها، ولكن إلى أين؟ المتوقع أنهم يريدون إخراجهم إلى أي مكان خارج دولة الفاحشيين التي عبروا عنها بالقرية.

وهنا سنضع سؤالاً: فاحشيو زماننا الذين يصرون على أن يجعلوا الناس مثلهم عندما يطلبون إخراج مَنْ لا يفعل فعلهم، فإلى أين سينفونهم، بما أنهم يريدون أن يجعلوا الفاحشة تعم الأرض؟ الجواب: يريدون إخراجهم إلى خارج الأرض، ولأنهم لن يخرجوهم خارج الأرض من الناحية الواقعية، فسيحرصون على إسكاتهم بأي وسيلة كانت.

ثم قالوا: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾، فذكروا سبب الحكم على آل لوط عليه السلام بالإخراج من دولتهم، وهو طهارتهم: فهل هذا يعني أنهم اعترفوا بطهارة آل لوط عليه السلام؟

الجواب: هذا التعليل يخبرنا عن شدة انحراف هؤلاء، وغريب أمرهم، فأسلوب القرآن هنا يصور لنا أمرين معًا:

الأول: أنهم كانوا صادقين في التعبير عن أوضاعهم، فهم يشعرون أن ما يأتونه نجاسات، ولكنهم أسارى لشهواتهم، فيقبلون على إتيان هذه النجاسات بحماسة، ويعترفون بأن لوطًا عليه السلام ومن معه من أهله يتطهرون من هذه النجاسات، فاعترفوا أَنَّ الْبُعْدَ عَنِ الْإِثْمِ يُسَعِّي طَهَارَةً، فَقَوْلُهُ: ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي: يَتَبَاعَدُونَ عَنِ الْمَعَاصِي وَالْإِثْمِ، ولذا قال قتادة رضي الله عنه: ﴿إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ عابوهم بغير عيب، وذمموهم بغير ذم^(١).

والآن لاحظ القوة البيانية في كلامهم؛ فقد أكدوا تعليلهم للإخراج، أكدوا السبب الذي أرادوا من أجله إخراج آل لوط بقولهم: ﴿إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (إن) حرف تأكيد وبيان للسبب في الوقت ذاته، يخبرنا أنهم متيقنون من طهارة آل لوط عليه السلام، وجعلوا ذلك كافيًا لأن يحكموا عليهم بالإخراج، والتطهر يدل على رغبة صاحبه بتزكية نفسه، وتنقيتها من الرذائل، وملئها بالفضائل في جسده، وقلبه وعقله وتفكيره وحياته، فتتسامى روحه بطهر نفسه، وسمو قلبه.

وهنا يتعجب بعض المفسرين، ويتساءلون:

كيف يجعل هؤلاء التطهر تهمة، ولذا قيل: كانوا مستهزئين لا جادين؟

الجواب: يظهر لي أنهم كانوا جادين في جعل التطهر تهمة، ولم يكونوا يسخرون أو يتهكمون، بدليل قولهم: ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ (هود: ٧٩).

ثانيًا: التهكم والسخرية: فالمعنى السابق الواضح لا يمنعنا من الشعور بأن هذه الكلمات ﴿إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ تصور لنا حالًا ثانيًا وهو: أن فئة منهم جعلت هذا التعليل على سبيل التهكم، وهو ما ذهب إليه بعض أهل التفسير إذ أشاروا إلى أنه يجوز أن يكون كلامهم تهكمًا بلوط عليه السلام وآله، وهذا من قلب الحقائق لأجل مشايعة العوائد الدميمة، وأهل المجون والانخلاع يُسَمُّونَ الْمُتَعَفِّفَ عَنْ سَيْرَتِهِم بِالْتَّائِبِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، فَقَوْلُهُم: ﴿إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ قَصَدُوا بِهِ ذَمَّهُمْ^(٢).

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٥٥٠).

(٢) التحرير والتنوير (٨-ب/ ٢٣٥).

إلا أن هذا المعنى لا يغطي أبداً المعنى السابق، أنهم فرحون بنجاستهم معترفون بها، وقد زاد المعاصرون من الفاحشيين على أسلافهم من قوم لوط أنهم يريدون أن يعترف العالم أن ما يفعلونه هو الطهارة ذاتها، وأنه حق طبيعي من حقوق الإنسان.

وهنا نسأل: ما الذي يصوره الفعل المضارع في قولهم: ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾؟ فلماذا لم يأتوا به على هيئة الماضي، فيقولون: تطهروا؟

الجواب: هنا ندرك هذه القوة في التعبير القرآني، فالفعل المضارع يصور شدة المقاومة العظيمة التي يبديها لوط عليه السلام وآله أمام العواصف العاتية التي تدفعهم إلى تلك الحياة البائسة، فقد عاشرهم قومهم، ورأوهم يتزهون عن الفحشاء، والتعبير يدلنا على أن قومهم حاولوا إيقاعهم وإغراءهم ليقعوا في الفاحشة، فيرونهم في كل محاولة يتباعدون عن الوقوع في تلك الأفعال الشنيعة، ف"التَّطَهَّرُ مُتَكَرِّرٌ مِنْهُمْ، وَمُتَجَدِّدٌ، وَذَلِكَ أَذْعَى لِمُنَافَرَتِهِمْ طِبَاعَهُمْ وَالْغَضَبِ عَلَيْهِمْ"^(١).
يا عجباً! أو من يتطهر يخرج من القرية إخراجاً، ليبقى فيها الملوؤثون المدنسون؟! ولكن لماذا العجب؟ وماذا تصنع الجاهلية الحديثة؟ أليست تطارد الذين يتطهرون، فلا ينغمسون في الوحل الذي تنغمس فيه هذه المجتمعات، وتسميه تقدماً وتحطيماً للأغلال عن المرأة وغير المرأة؟ أليست تطاردهم في أرزاقهم وأنفسهم وأموالهم وأفكارهم وتصوراتهم؟ إنها لا تطيق أن تراهم يتطهرون؛ لأنها لا تتسع ولا ترحب إلا بالملوؤثين الدنسين القذرين! فهو منطق الجاهلية في كل حين!

بعد هذا التحليق المدهش: هل هناك معانٍ أخرى تلوح لنا من كلمة ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾؟
إنني أرى في هذه العبارة المتكررة البراءة الكاملة للوط عليه السلام وابنتيه مما رماهم به كاتبو العهد القديم.

وتدفعنا الآية دفعاً إلى السؤال عن قولهم: ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾: لماذا استخدموا صيغة التفعّل، فإن ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ على وزن (يتفعلون)؟ كان يمكنهم أن يستخدموا صيغة أخرى مثل: إنهم قوم طاهرون؟

(١) «التحرير والتنوير» (٨-ب/ ٢٣٥).



الله أكبر! كم تخبئ الكلمات القرآنيّة من معانٍ ممدودة، فهذه الكلمة تفضح المزورين الذين يفترون على الإنسانيّة الكذب، فيزعمون أن هناك جيئاً في الجسد الإنساني يبرر ميل بعض الناس إلى هذه الفاحشة.

ولعل قوم لوط اخترعوا هذه الكذبة الكبيرة، فقد عبروا عن طهارة لوط ومن معه بصيغة التفعّل، فكأن لوطاً يتكلف الطهارة، وكأن الأصل عندهم هو النجاسة والقذارة، فكأنهم يزعمون أن لوطاً **التَّائِبُ** وأهله تركوا الفاحشة؛ لأنهم يتكلفون ذلك، ويتصنعونه فيتعبون أنفسهم بِرَدِّهَا عَمَّا هِيَ مَائِلَةٌ إِلَيْهِ، وإقبالاً على الطُّهْرِ مِنْ غَيْرِ وَجْهَةٍ وإظهاراً لَهُ رِيَاءً بما أشارَ إِلَيْهِ إظهاراً تاءِ التَّفْعِيلِ، وفيهِ -مَعَ ذَلِكَ- حَرْفٌ مِنَ السُّخْرِيَةِ^(١).

وجزاء من هذا الكلام صحيح؛ فإن الله **عَلَّمَ** ألهم النفس فجورها وتقواها، والفجور هوى في النفس يجب على المرء أن يتكلف ليرده، ويدحر قوته وسطوته كما يرد الكسلان هواه في البقاء خاملاً، وكما يرد الإنسان هواه في تناول الخمر أو المخدرات.

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٤٥٦/٧).

نماذج من التنوع الأسلوبى في ذكر مشاهد قصة قوم لوط في سور القرآن الكريم:
ونتساءل أيضاً عن سبب إضمار المفعول به هنا في قوله: ﴿أَخْرِجُوهُمْ﴾ بينما نجدهم أظهروه في سورة النمل مع وجود العطف بالفاء بدلاً من الواو في سورة الأعراف، فقال الله ﷻ في آية النمل: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل: ٥٦]؟

الجواب:

ذكر البقاعي رحمه الله سر هذا التنوع فقال: "لَمَّا كَانَ الْمُقْصُودُ بَيَانُ أَنَّهُمْ أَسْرَعُوا إِجَابَتَهُ بِمَا يَنْكِيهِ أَضْمَرَ مَا لَا يُشْكِلُ بِالِإِضْمَارِ، [أَوْ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ السِّيَاقُ لِبَيَانِ الْحَبِيثِ يَبَيَّنُ أَنَّهُ لَا أَحَبَّتْ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ بَلَغَ مِنْ رَذَالَتِهِمْ أَنَّهُمْ عَدُّوا الطَّاهِرِينَ الْمُتَطَهِّرِينَ مِمَّا يُصَانُ اللَّسَانُ عَنْ ذِكْرِهِ] فَقَالَ ﷻ مُشِيرًا إِلَى ذَلِكَ فِي حِكَايَةِ قَوْلِهِمْ: ﴿أَخْرِجُوهُمْ﴾ أَيْ: الْمُحَدَّثَ عَنْهُمْ، وَهُمْ لُوطٌ وَمَنْ انْضَمَّ إِلَيْهِ ﴿مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ وَالْمُرَادُ بَيَانُ الْإِسْرَاعِ فِي هَذَا تَسْلِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ رَدِّ قَوْمِهِ لِكَلَامِهِ لِنَلَّا يَكُونُ فِي صَدْرِهِ حَرْجٌ مِنْ إِنْذَارِهِمْ^(١).
وذكر النيسابوري رحمه الله أن ذلك ليكون ما في النمل تفسيراً لهذه الكناية ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾،
وقيل: إن سورة النمل نزلت قبل الأعراف فيكون قد صرح في الأولى وكفى في الثانية^(٢).
والذي يظهر لي أن كل سورة تحكي جزءاً من الصورة الكاملة لما حدث بينهم وبين نبيهم ﷺ،
فيمكنك أن تتصور مجلس الأمن القومي الخاص بهم بواسطة السورتين، وهم يتبادلون الرأي حول الإجراء الذي يتبعونه مع لوط ﷺ، فقال بعضهم: أخرجوا آل لوط من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون كما في سورة النمل، فأرادت طائفة من أعضاء مجلس أمنهم أن يؤيدوا كلام من اقترح هذا الاقتراح، فقالوا بحماسة وتأيد: أجل أو صحيح أخرجوهم من قريبتكم كما في سورة الأعراف، وهذا المتوقع من الهتافات الظالمة المنفعلة عندما يؤيد بعضها بعضاً.

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٤٥٦ / ٧).

(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان» (٢٨٠ / ٣).

ويحتمل العكس؛ إذ قال بعضهم بعد التباحث في حال لوط **الطَّيِّبِ** وآله: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ كما في سورة الأعراف، ثم قال الآخرون: نعم ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ كما في سورة النمل لزيادة التنصيص عليهم، والتأكيد على تحديدهم.

وربما تكررت هذه الأقوال منهم، وربما تقدم بعضها على بعض، لكن السور المتعددة تنبئنا بالصور المتعددة التي يتكرر مثالها في حياة الدُّرِّيَّةِ الْأَدَمِيَّةِ، وهذا التصوير المدهش يكشف لك جانباً من الإعجاز البياني التصويري المذهل للقرآن الكريم.

وبعد أن حرَّرت ذلك وجدت السيد محمد رشيد رضا **رحمته** يقرر ما يشبه ذلك، فيقول: "فَكَأَنَّهُ قَالَ: فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالَ بَعْضُهُمْ: لَيْنَ لَمْ تَنْتَهَ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ، وَأَنْ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾. وَرَدَّدَهُ آخَرُونَ: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾، وَهَذِهِ الدِّقَّةُ فِي اخْتِلَافِ التَّعْبِيرِ فِي الْمَوَاقِعِ الْمُتَّحِدَةِ أَوْ الْمُتَشَابِهَةِ لِأَمْثَالِ هَذِهِ النُّكَبِ لَا تَجِدُهَا مُطَرَّدَةً إِلَّا فِي كِتَابِ اللَّهِ **ﷻ**، وَهِيَ مِنْ إِعْجَازِهِ اللَّفْظِيِّ، وَلِذَلِكَ يَغْفُلُ عَنْهَا أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ" ^(١).

ثم تأتي سورة الشعراء لتخبرك بمشهد جديد، فبعد أن اتفقوا على إخراج آل لوط خاطبوا لوطاً **الطَّيِّبِ**، ووجهوا له الإنذار الأخير، فقالوا له: ﴿قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهَ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ **﴿١٧﴾**﴾ **[الشعراء: ١٦٧]**.

كيف نجمع بين هذا الجواب منهم في هذه السُّورَةِ وقوله **ﷻ** عن جوابهم في سورة العنكبوت: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ **﴿١٦﴾**﴾ **[العنكبوت: ٢٩]**، وقوله في سورة النمل: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ **﴿٥٦﴾**﴾ **[النمل: ٥٦]**؟

فالإشكال الكبير الذي يورده المحبون للقرآن والطاعنون فيه هنا: أن الله **ﷻ** ذكر الأجوبة الثلاثة في السور الثلاث بصيغة الحصر والقصر بواسطة صِيغَةِ النَّفْيِ وَالْإِنْتِبَاطِ فِيهِمَا، وكلٌّ منها يفترض أنه هو الجواب الوحيد دون سواه؟

(١) تفسير المنار (٨/ ٤٥٧).

الجواب: الحصر هنا هو الذي يسميه البلاغيون الحصر الادعائي أو الإضافي، فلا يمنع الجواب من جوابٍ آخر، ولكن الإتيان بصيغة الحصر يخفي وراءه صورة بيانية قوية سوغت استخدام ذلك الحصر، فسبب الحصر هنا فيما يدل عليه السياق: أنهم أجابوه بما لا يصلح جواباً، ففي موقف نصحتهم وعلاجهم أرادوا تأييده وتقنيطه من أنه يمكن أن يؤثر عليهم فقالوا: ﴿أَتُتَبَّعُ بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ۲۹]، ولما خلوا بأنفسهم يتآمرون عليه قالوا ما فصلنا ترتيبه في سورتي الأعراف والنمل.

فلوط عليه السلام كان يستغل الأوقات المختلفة لنصحتهم وعلاجهم ومناقشتهم وتنبيههم، وتكثر المرات التي تضيق صدورهم منه، وبدلاً من أن يفتحوا عقولهم وقلوبهم يحصرون أجوبتهم عليه في مثل هذه الأجوبة الثلاثة التي وردت في سور: الأعراف والنمل والعنكبوت.

وعندما ننظر إلى هذه المواضع الثلاثة كيف نستطيع أن نرتب أجوبتهم على لوط عليه السلام؟ ما الذي قالوه أولاً، وما الذي قالوه بعد ذلك؟

الجواب: اشتركت سورتا الأعراف والنمل في الجواب الذي صدر من قوم لوط عليه السلام، إلا أن الأعراف صدرت الجواب بالواو، والنمل بالفاء، وهما يشتركان في معنى العطف لكن الفاء تزيد على ذلك بإفادة الترتيب والتعقيب والسببية وجزاء الشرط، فما بعد الفاء يكون في الترتيب الزمني بعد الجملة التي قبلها، ويكون ناشئاً عنها، لكن التعقيب لا يقتضي المباشرة، فليس أحد أجوبة قومه وقع بالضرورة بعد أن نصحتهم لوط مباشرةً.

وهذا الذي تم تقريره أولى بكثير مما نقله الألوسي رحمته الله ولم يرتضه من قول بعضهم: "وَأَنَّمَا جِيءَ بِالْوَاوِ فِي ﴿وَمَا كَانَ﴾ إلخ. دُونَ الْفَاءِ كَمَا فِي النَّمْلِ وَالْعَنْكَبُوتِ لَوْفُوعِ الْإِسْمِ قَبْلَ الْفِعْلِ هُنَا وَالْفِعْلِ هُنَاكَ، وَالتَّعْقِيبُ بِالْفِعْلِ بَعْدَ الْفِعْلِ حَسَنٌ دُونَ التَّعْقِيبِ بِهِ بَعْدَ الْإِسْمِ، وَفِيهِ تَأْمُلٌ" (۱).

وعند النظر في الأجوبة الثلاثة في الأعراف والنمل والعنكبوت، وإذا أضفت إليها جوابهم في سورة الشعراء، وإذا تدبرت سباقها ولحاقها لربما انقده لك ما انقده لي في ترتيبها، فتكون على النحو الآتي:

(۱) روح المعاني (۴/ ۴۰۸).

بدأ قومه يضيقون به ذرعًا أمام العلاجات المختلفة، والنصح المتتابع، وأرادوا الخروج من هيمنة تأثيره على الناس خاصة عندما ذكر جرائمهم المتعددة في سورة العنكبوت مركِّزًا على الجريمة الكبرى وهي: إتيان الذكران، فقال لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ ﴿٢٩﴾﴾ [العنكبوت: ٢٨، ٢٩].

وحينها وصف الله ﷻ جوابهم أمام هذا الإعصار الهادر من البيان الذي أخرجهم في أنفسهم وأمام بعضهم: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأَتَيْنَا بَعْدَ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [العنكبوت: ٢٨، ٢٩].

ثم إنه كرر عليهم علاجه لواقعهم، فقال ما في سورة النمل: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣١﴾ أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ الْيَسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النمل: ٥٤، ٥٥]. وهنا جاء وصف جوابهم في سورة النمل على هيئة تشير إلى أنهم اجتمعوا يأتمرون به، فاقترح بعضهم إخراجهم، فقال الله ﷻ واصفًا واقعهم حينها: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوْا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل: ٥٦].

ثم جاء المشهد الثالث في سورة الأعراف ليصف تطور القصة بين هذه الدُّرَيْتَةِ الْأَدْمِيَّةِ وبنهم لوط عليه السلام، فقد عاد لوط عليه السلام يعالج قومه ويذكرهم مجددًا، فيقول لهم: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٥٧﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ الْيَسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأعراف: ٨٠، ٨١].

وقد يسأل سائل: فأنت ترى أن ترتيب أجوبتهم كان على النحو الآتي: العنكبوت أولاً ثم النمل ثم الأعراف، فهل وافقت أحدًا من المفسرين في هذا الترتيب؟

الجواب: بعد أن تذوقت الثمر الجني الهني وأنا أتدبر هذه الموضوع من كلمات الله ﷻ، رجعت إلى المراجع التفسيرية الكبرى فوجدت أن الألوسي يصحح بما وصلت له في الترتيب، وينقل ذلك عن غيره، فبيّن أن قوله عليه السلام: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأَتَيْنَا بَعْدَ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩] أي: فيما تعدنا من نزول العذاب على ما في (الكشاف) وغيره، وهذا ظاهر في أنه عليه السلام

كان أوعدهم بالعذاب، وقيل: أي: في دعوى استحقاقنا العذاب على ما نحن عليه المفهومة من التوبيخ المعلوم من الاستفهام الإنكاري، وقيل: أي: في دعوى استقباح ذلك الناطق بها كلامك.

ثم حرر الألوسي أن هذا الجواب صدر عنهم في المرة الأولى من مرات مواعظ لوط عليه السلام، وما في سورة الأعراف المذكور في قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٢] الآية، وما في سورة النمل المذكور في قوله ﷻ: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ [النمل: ٥٦] الآية، فقد صدر عنهم بعد هذه المرة، فلا منافاة بين الحصر هنا والحصر هناك، قاله أبو حيان وتبعه أبو السعود^(١).

ولكنه أورد استشكالا على هذا الترتيب، فالترتيب تعيين، وهو يحتاج إلى توقيف.

وأجيب بأن مضموني الجوابين يشعران بالتقدم والتأخر، وذلك أن: ﴿أَخْتَبْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] من باب التكذيب والسخرية، وهو أوفق بأوائل المواعظ والتوبيخات، ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ ونحوه من باب التعذيب والانتقام، وهو أنسب بأن يكون بعد تكرار الوعظ والتوبيخ الموجب لضجهم ومزيد تألمهم مع قدرتهم على التشفي، وهذا القدر يكفي لدعوى التقدم والتأخر، وقيل في دفع المنافاة بين الحصرين: إن ما هنا جواب قومه ﷻ له إذ نصحبهم، وما هناك جواب بعضهم لبعض إذ تشاوروا في أمره، وقيل: إن أحد الجوابين صدر عن كبار قومه وأمرائهم، والآخر صدر عن غيرهم، وظاهر صنيع بعض الأجلة يقتضي اختيار أن يكون كل من الحصرين بالإضافة إلى الجواب الذي يرجوه ﷻ في متابعتة^(٢).

ثم قال الله ﷻ: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَايِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٣، ٨٤].

فما المشهد الذين ينقلنا إليه التصوير القرآني في هاتين الآيتين؟

الجواب: هنا يأتي:

(١) ينظر: البحر المحيط (١/٥)، تفسير أبو السعود (٢٤٦/٣).

(٢) روح المعاني (١٠/٣٥٨-٣٥٩).

المشهد الرابع: ختام القصة والنتيجة المتوقعة: نجاة الأطهار الأخيار، وهلاك الفجار الأشرار، وبيّصنا بذلك قوله ﷺ: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِينَ ۖ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَقِبُهُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٣، ٨٤].

يرى ابن عاشور رحمه الله أن قول ربنا ﷺ: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ من المقدم الذي حقه التأخير؛ لأنه لم يذكر العذاب بعد، والتأخير: فامطرنا عليهم مطراً، وأنجيناه وأهله، فقدم الخبر بإنجاء لوط عليه السلام على الخبر بمطاريهم مطر العذاب، لقصيد إظهار الإهتمام بأمر إنجاء لوط عليه السلام، ولتعجيل المسرة للسامعين من المؤمنين، فتطمئن قلوبهم لحسن عواقب أسلافهم من مؤمني الأمم الماضية، فيعلموا أن تلك سنة الله في عبادِهِ^(١)، ولكن هل هذا التدبر دقيق؟

الجواب: هذا التدبر محتمل، فالتقديم والتأخير أسلوب عظيم في اللغة العربية المبينة، وقد أظهر ابن عاشور رحمه الله هنا سر التقديم والتأخير.

ولكن يظهر لي أن ما ذهب إليه رحمه الله ليس دقيقاً؛ لأن كلمة: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ هنا في محلها الترتيبي زمناً وذكرًا، والأصل حمل الكلام على ظاهره، ويدل على هذا التقرير: أن الله ﷻ جعل الإنجاء لآل لوط أولاً كما قال الملائكة له: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾، فمعنى ذلك أنهم خرجوا سالكين درب النجاة قبل أن ينزل عليهم العذاب، ثم قال: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]، ثم قال الله ﷻ عن العذاب الذي حلّ بقومه بعد ذلك: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ﴾ [٨٢] مَسُومَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ [هود: ٨٢، ٨٣]، وكذلك قال ﷻ: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [قصص: ٢٥] وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ [الحجر: ٦٥، ٦٦].

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/٢٣٦).

وأما ما ذكره ﷺ من الحكَم في تقديم الإنجاء، فهي متحققة بالتقديم الذِّكْرِي، وقد وافق التقديم الذِّكْرِي هنا التقديم الزمني أيضًا، فبقي الكلام على ظاهره.

فأنجي الله ﷻ لوطًا عليه السلام وأهله؛ إذ لم يؤمن غيرهم معه، ولم يدخل فيهم من ليس منهم؛ ويخبرنا بهذا الحصر قول الله ﷻ: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٦﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦].

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾: هذه اللفظة تصور لنا قوة الكلمة القرآنيّة في وصف الحدث؛ إذ المعنى: أخرجناه من مكان العذاب على هيئة المنجاة التي هي حركة سرية يصنعها الإنسان عندما يريد أن ينفرد في كلامه بغيره، فيقال: نجاه، ثم كأنه أٌصعد من مكان العذاب إلى نجوة أي: مرتفع من الأرض، بحيث يراهم ويطل عليهم، وهم لا يرونه.

وهنا نسال: في قوله ﷻ: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأعراف: ٨٣]، لماذا استثنيت امرأته؟

الجواب: أهل لوط عليه السلام هم زَوْجُهُ وقيل ابنتان له كما وردَ في التَّوْرَةِ، ولا يوجد عندنا دليل على أنهما ابنتان فحسب، ولا يوجد دليل على أنه لم يكن له أولاد ذكور.

وامرأة لوط عليه السلام كانت كافرة، فخانت زوجها حين اختارت الكفر، إذ قال الله ﷻ عنها وعن امرأة نوح عليه السلام: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتُ نُوحٍ وَامْرَأَتُ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾، والخيانة هنا تنطبق على الكفر أولاً بدليل أن الله ﷻ قال عنهما بعد ذلك: ﴿فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [التحریم: ١٠]، أي: لم يغن نوح ولوط عن زوجتهما من الله شيئاً، ولا يكون ذلك في حالة المعصية بل في حالة الكفر، وأما الخيانة هنا فلا يدخل فيها ما يُسمى عرفاً الخيانة الزوجية بالزنى، فإن ذلك لا يتصور وجوده؛ لأنه يناقض مبدأ الزواج بحد ذاته، فلا يدخل في مفهوم الخيانة هذا الخيانة في العِرض.

وقد بين الله ﷻ لنا في القرآن العظيم أن امرأة لوط عليه السلام لن تنجو؛ حيث أخبرتنا الملائكة بذلك إبراهيم عليه السلام، وكذلك أخبروا به لوطًا عليه السلام، وبين الله ﷻ لنا انتماء هذه المرأة إلى قومها في اعوجاج الفكر حيث يقول: ﴿إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأعراف: ٨٣]، فكلمة: ﴿كَانَتْ﴾ تصور أنها

جزء من كينونتهم، باختيارها الكفر، وربما بعدم حفظ أسرار بيتها، فيحتمل أنها هي التي كلمت قوم لوط عليه السلام عن ضيوفه.

ولكن ما معنى كلمة: ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾؟

الجواب: قوله: ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي: من الباقين، والفعل منه: "غَبَرَ يَغْبُرُ غُبُورًا، وَغَبْرًا"، وذلك إذا بقي، وَبِهِ غَبْرٌ مِنْ مَرَضٍ، أَي: بَقِيَّةٌ، والغَبْر بالضم، وكسَرَ: البَقِيَّة في الضَّرْع من اللَّبَن، قَالَ ابْنُ مُقْبِلٍ أَوْ غَيْرُهُ:

فَإِنْ سَأَلْتَ عَنِّي سُلَيْمَى فَقُلْ لَهَا بِهِ غُبْرٌ مِنْ دَائِهِ، وَهُوَ صَالِحٌ^(١)

أي: به بقية داء، وبذا تراني خالفت ابن فارس رحمه الله في جعله (غَبَرَ) يدل على أصليين^(٢)، بل يمكنك أن تجعله أصلًا واحدًا، فالغَابِرُ: الماكث الباقي بعد مضي من كان معه، فقول عليه السلام: ﴿إِلَّا أُمَرَأَتُهُ وَكَانَتْ مِنْ الْغَابِرِينَ﴾^(٣) كانت فيمن بقي بعد رحيل آل لوط عليه السلام، منتمية إليهم، فشملها العذاب كما شملهم، والذي يظهر أنه عندما جاء من العراق تزوج بهذه المرأة التي هي منهم، وهذا يعني أن آباءهم لم يكونوا يأتون هذه الفاحشة العظيمة بهذه الصورة القبيحة، بل كانوا يتناسلون على السنة البشرية المعتادة.

ولماذا قال: ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ ولم يقل: الغابرات؟

الجواب: لأنه أريد أنها ممن بقي مع الرجال الذين قادوا غيرهم من النساء وغيرهن، فلما ضم ذكرها إلى ذكر الرجال قيل: من الغابرين.

وهنا يستبين لنا أمران:

الأول: أنها كانت كافرة؛ إذ قال الله عز وجل: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا أُمَرَأَتٍ نُوْحٍ وَأُمَرَأَتٍ لُوطٍ﴾ [التحریم: ١٠]، فجعلها قدوة للكافرين.

(١) البيت لابن مقبل في ملحق ديوانه (ص: ٢٥١)، وذكر ابن فارس أنه لابن مقبل أو لغيره. مقاييس اللغة (٤/٤٠٨).

(٢) مقاييس اللغة (٤/٤٠٨).

الثاني: أنها كانت خائنة لزوجها لا تكتم أسرار بيتها، فقد كانت تخبر قومه عما يقع عندهم، وتتواطأ معهم على جرائمهم، ولذا استثناه الله ﷻ من الإنجاء، وأخبر بالعقوبة الصارمة التي حلت على قوم لوط: إنه المطر الذي حصدهم، وقد أبقي الله ﷻ أماكنهم محفوظة لتكون عبرة.

في قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ [الأعراف: ٨٤]، ما معنى الإمطار هنا، وكيف نفرق بينه وبين المطر المعتاد؟

الجواب: يقال: مَطَرْتُهُمُ السَّمَاءُ - يَدُونِ هَمْزَةً - بِمَعْنَى نَزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَطَرُ، كَمَا يُقَالُ: غَائِثُهُمْ وَوَيْلَتُهُمْ، وَيُقَالُ: مَكَانٌ مَمْطُورٌ، أَيُّ: أَصَابَهُ الْمَطَرُ، وَلَا يُقَالُ: مُمَطَّرٌ، وَيُقَالُ: أَمْطَرُوا - بِالْهَمْزَةِ - بِمَعْنَى نَزَلَ عَلَيْهِمُ مِنَ الْجَوِّ مَا يُشَبِّهُ الْمَطَرَ، وَلَيْسَ هُوَ بِمَطَرٍ، فَلَا يُقَالُ: هُمْ مُمَطَّرُونَ، وَلَكِنْ يُقَالُ: هُمْ مُمَطَّرُونَ، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الحجر: ٧٤]، وَقَالَ ﷻ: ﴿فَأَمْطَرْنَا عَلَيْكَ حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]. كَذَا قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ - هُنَا ^(١) - وَقَالَ فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ: قَدْ كَثُرَ الْإِمْطَارُ فِي مَعْنَى الْعَذَابِ ^(٢)، وَعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ أَنَّ التَّفْرِيفَةَ بَيْنَ مَطَرٍ وَأَمْطَرٍ: أَنَّ مَطَرٌ لِلرَّحْمَةِ، وَأَمْطَرٌ لِلْعَذَابِ ^(٣).

هكذا ذكر بعضهم في التفريق، ويدل عليه أن النبي ﷺ قال: «أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قلنا: الله ورسوله أعلم فقال: «قَالَ اللَّهُ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِي، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطَرْنَا بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَبِرِزْقِ اللَّهِ وَبِفَضْلِ اللَّهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكُوكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطَرْنَا بِنَجْمٍ كَذَا، فَهُوَ مُؤْمِنٌ بِالْكُوكَبِ كَافِرٌ بِي» ^(٤)، ويظهر أنه يمكن استعمال الكلمتين مكان بعضهما، ففي سُورَةِ الْأَحْقَافِ: ﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمَطَّرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]، فهم ذكروه في معرض الخير الذي ظنوه لا في معرض العذاب الذي حل بهم.

ومعنى قوله ﷻ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ أي: أرسلنا عليهم نوعاً من المطر عجيبياً يعني الحجارة. ألا ترى إلى قوله ﷻ: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الشعراء: ٧٣]، فالإنسان عندما يذكر المطر يتوقع

(١) الكشف (١٢٦/٢).

(٢) المرجع السابق (٢١٧/٢).

(٣) التحرير والتنوير (٨-ب/٢٣٧).

(٤) البخاري (٤١٤٧).

الخير والغيث في الأرض، فتأتي جملة: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ لتبين أن هذا المطر لم يكن إلا عذاباً، وهلاكاً حل بهم.

حيث أمطر الله ﷻ عليهم حجارةً من السماء، وحَزَفَ الاستِغلاء: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لبيان أن العذاب صُبَّ عليهم من الأعلى، وأكد كونه من السماء لا من سطح أو جبل ونحوه بقوله: ﴿مَطَرًا﴾^(١). وقد علمنا أنهم رفعوا أولاً من مكانهم، وقلبت أرضهم عاليها سافلها، ويقرب لنا ما وقع لهم: الزلازل الهائلة التي تجعل عالي الأرض سافله.

ولماذا جاءت كلمة: ﴿مَطَرًا﴾ نكرة؟

الجواب: تَنكِيرُ: ﴿مَطَرًا﴾ لِلتَّعْظِيمِ وَالتَّعْجِيبِ أَيُّ: مَطَرًا عَجِيبًا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُهْلِكَ الْقُرَى^(٢)، وحذف نوع المطر في سورة الأعراف، وبينه في سورة هود ﷻ، وفي سورة الحجر تشويقاً لمعرفة نوع المطر الذي هلك به هؤلاء.

ثم حث الله ﷻ القارئ والسماع على أن يتفكروا فيما حدث لهؤلاء الظالمين، إذ قال ﷻ: ﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤].

تختتم الآية بلفت النظر إلى حالهم الرهيب، فيقول الله ﷻ: ﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾: فلمن الخطاب في هذه الآية؟ وما النظر المطلوب من المخاطب؟

الجواب: ﴿فَأَنْظُرْ﴾: هذا خطاب يصلح أن يكون لكل من استمع للقصة أو قرأها سواء أكان مسلماً أم كافراً. فالله ﷻ يخبره بالعقوبة التي حلت بأولئك القوم، ليعتبر كل مستمع بحسب حاله، فالمؤمن يعلم أن عاقبته إلى نصرٍ وتأيدٍ وتمكين، وأن عاقبة الظالمين إلى بوار، والظالم يشعر بالتهديد من المستقبل الغامض المفاجئ، فيتنصع عيشه، ويمتلئ بالمخاوف من أي تغيرات غير محسوبة. والنظر الذي يحرك الخطاب الإلهي نفوسنا إليه هنا نوعان: مادي وعقلي:

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٤٥٨).

(٢) التحرير والتنوير (٨-ب/ ٢٣٨).

فالنظر المادي المحسوس يكون لمن مرَّ على تلك الأراضي، فهي أراضٍ معروفة كما قال ﷺ عنها في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ﴿٣٧﴾ وَبِالْأَيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الصافات: ٣٧-٣٨]، فعن قتادة رحمه الله قال: «نعم والله صباحًا ومساءً، يطؤونها وطئًا، من أخذ من المدينة إلى الشام أخذ على سدوم؛ قرية قوم لوط» «نعم والله صباحًا ومساءً يطؤونها وطئًا، من أخذ من المدينة إلى الشام، أخذ على سدوم قرية قوم لوط ﷺ»^(١).

بصيرة: تعجب من تواطؤ وسائل الإعلام على عدم زيارة تلك الأماكن، وتوثيق ما حصل فيها من تغيرات، كأن الإعلام قائم على صناعة الغفلة.

والنظر العقلي بأن نحرك تفكيرنا حول تكوُّن الأمم، واستخلاف الله ﷻ للأجيال في الأرض، وحول فنائها وإبادتها عندما تصر على الغفلة والكبر.

وكلمة: ﴿عَقِبَةُ﴾ تعني: خاتمة الشيء المتصلة به، وتظهر قوة هذه الكلمة في أن الخاتمة غير منفصلة عن البداية، فهم عندما ارتكبوا القبائح ظنوا أنهم باقون على هذا التمتع، لكن خاتمتهم كانت خسرًا.

قال ابن القيم رحمه الله: "أَحَذَهُمْ عَلَى غِرَّةٍ وَهُمْ نَائِمُونَ، وَجَاءَهُمْ بِأَسُهُ وَهُمْ فِي سَكْرَتِهِمْ يَعْصَمُونَ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، فَقُلِبَتْ تِلْكَ اللَّذَّةُ أَلَامًا، فَأَصْبَحُوا بِهَا يُعَذَّبُونَ.

مَارِبُ كَانَتْ فِي الْحَيَاةِ لِأَهْلِهَا عَذَابًا، فَصَارَتْ فِي الْمَمَاتِ عَذَابًا

ذَهَبَتِ اللَّذَاتُ، وَأَعْقَبَتِ الْحَسَرَاتُ، وَانْقَضَتِ الشَّهَوَاتُ، وَأَوْرَثَتِ الشَّقَوَاتُ، وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا، وَعَذَّبُوا طَوِيلًا، رَتَعُوا مَرْتَعًا وَخِيمًا، فَأَعْقَبَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا، أَسْكَرَتْهُمْ حَمْرَةُ تِلْكَ الشَّهَوَاتِ، فَمَا اسْتَفَاقُوا مِنْهَا إِلَّا فِي دِيَارِ الْمُعَذِّبِينَ، وَأَرْقَدَتْهُمْ تِلْكَ الْغَفْلَةُ، فَمَا اسْتَيْقَظُوا مِنْهَا إِلَّا وَهُمْ فِي مَنَازِلِ الْهَالِكِينَ.

(١) تفسير الطبري (٢١/١٠٥)، وسنده حسن كما في "الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور" (٤/٢١٠).

وَقَدْ قَرَّبَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَسَافَةَ الْعَذَابِ بَيْنَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَبَيْنَ إِخْوَانِهِمْ فِي الْعَمَلِ، فَقَالَ مُخَوِّفًا لَهُمْ أَنْ يَفْعَ الْوَعِيدُ: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ ﴿٨٣﴾ [هُود: ٨٣] ^(١).

النظر المادي مطلوب حين إمكانه، ولكنه قد يكون مصدرًا للغفلة إن لم يصحبه النظر العقلي المتفكر، وعندما أمر الله ﷻ المستمع أن ينظر إلى عاقبة المجرمين فإن الخطاب الإلهي يلفت نظر المستمع إلى المشاهدات الحقيقية التي ينبغي أن يلتفت إليها ويشاهدها، فهو يلفت نظره إلى ضرورة أن يبني حياته البناء الصحيح بعد أن يَعتَبِرَ بما يسمع من تغيرات التاريخ الإنساني، وتقلبات أحوال الدُّرِّيَّةِ الْأَدَمِيَّةِ، فعاقبة الإجرام الزوال:

أَنْتَ بِالْأَمْسِ قَدْ مَدَدْتَ يَدَ السِّلَمِ	لَمَنْ لَمْ يَرَاكِ أَمَّا وَسَلْمًا
أَنْتَ أَثَرْتَ أَنْ تُحَابِي عَدُوًّا	وَتُعَادِي مَنْ كَانَ أَقْرَبَ رُحْمًا
أَنْسَيْتَ الْأَطْفَالَ عَضُّهُمْ الْبُؤْ	سُ وَعَاشُوا الْحَيَاةَ ذُلًّا وَيُثْمًا
أَنْسَيْتَ الْمُسْتَوْطَنَاتِ وَمَا زَا	لُوا يَقِيمُونَهَا اعْتِدَاءً وَظُلْمًا
أَنْسَيْتَ الدَّمَاءَ؟ فَاسْأَلْ رُبَا سِينَاءَ	وَاسْأَلْ أَرْضَ السَّوْيِسِ وَشَرْمًا
كَمْ قَتِيلٍ قَدْ عَانَقَ الرَّمْلَ فِيهَا	وَقَضَى وَالْفَوَاضِلَ بِالْجَرَحِ يُدْمَى
أَيُّهَا الْمُسْتَبْدُ كُلِّ مُرَادٍ	كَنْتَ تَسْعَى إِلَيْهِ أَصْبَحَ وَهْمًا
فُضِيَ الْأَمْرُ وَانْتَهَى كُلُّ شَيْءٍ	وَطَوَى اللَّهُ مَا نَشَرْتَ وَأَطَى

لماذا سَمَى الله ﷻ قوم لوط المستحقين للعذاب ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٨٤﴾ في قوله ﷻ: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾؟ وما وجه قوة هذه الكلمة هنا؟
الجواب:

(١) الجواب الكافي (ص: ٤٠٤).

المجرم^(١): اسم فاعل من أجرم، وهذه الكلمة جاءت في الأصل لتدلنا على معنى: قطع الثمر عن الشجر لاكتساب الرزق الرديء المتعيب منها، فالجَرْم هو قطع الثمرة عن الشجر، ورجل جَارِم، وقوم جَرَام، وثمر جَرِيم، والجُرَامة: رديء الثمر المجزوم أي: المقطوع، وهنا جاء قولهم: جَرَمَ، أي: كَسَبَ ثمرًا جريمًا أي: يابسًا رديئًا، فاقتطعه، ولذا صار الجُرم والجَريمة عند الراغب رحمته الله: الذنب؛ والمُجرِمون - عند ابن عاشور رحمته الله - فاعِلُوا الجَريمة، وهي المَعْصِيَةُ والسَّيِّئَةُ، ولكنك عندما تنظر في القرآن تجد أن وصف المجرمين لا يأتي للمذنبين الذين اقترفوا ذنوبًا فحسب، بل تأتي لوصف المذنبين الذين يقترفون الذنوب العظام الفاحشة؛ لِأَنَّ الذنب الذي اقترفه كَسَبٌ خاصٌّ لأمر رديء. فالمجرمون يرتكبون الذنوب الفاحشة الكبيرة، وهي الجرائم التي يقتطعون بها أجزامًا أي: أجزاء من أبدان الناس وأقواتهم، ولذا قال الدكتور محمد حسن جبل رحمته الله: "أخيرًا: فإن ما سبق من معنى الجرم وأنه كتلة كبيرة ثقيلة، ومع ملحظ الجفاف يجعلني أؤيد تمامًا ما جاء في (الكليات) أن "الجرم لا يطلق إلا على الذنب الغليظ"^(٢).

وقد تسأل: لماذا يوصف صاحب الذنب الكبير بأنه مجرم؟

الجواب: لِأَنَّ الذنب الذي اقترفه كَسَبٌ خاص فيه اقتطاع لرديء من الفعل، واستعمال هذه المادة (جرم) في المعنى المادي عند الحصاد يوصلنا إلى سر استعمال كلمة مجرم فيمن ارتكب الذنب الغليظ.

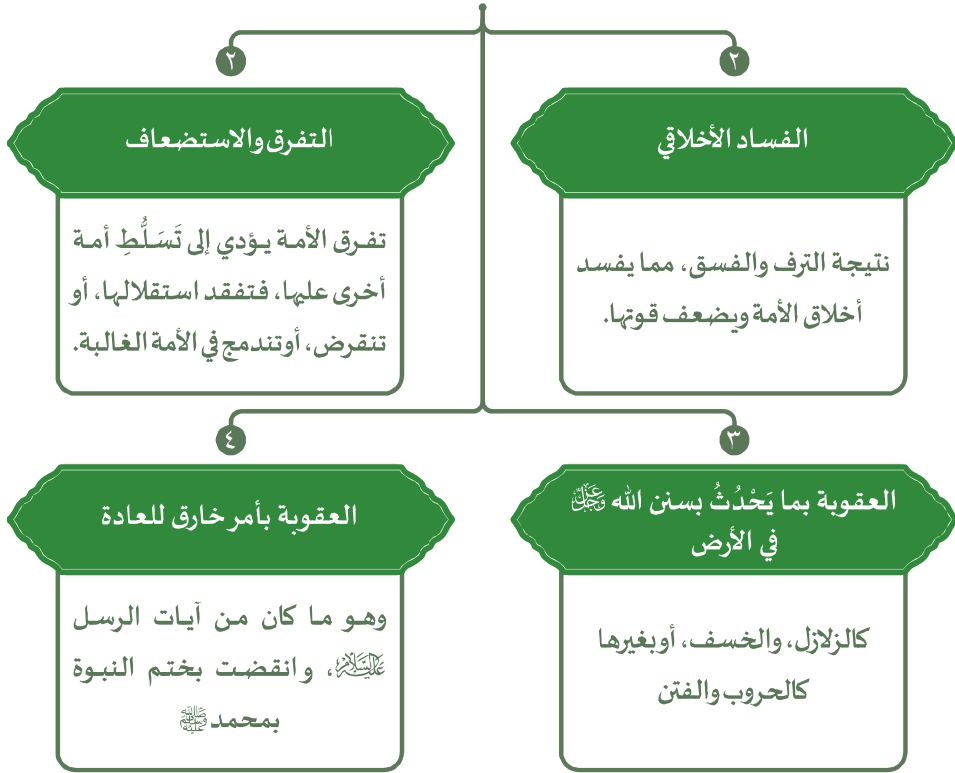
فكلمة (مجرم): أقوى في الدلالة على الذنب من كلمة: (كافر)؛ لأنها دلت على الكفر في هذا الموضع، وعلى التعدي بأخذ ما لا يحل.

(١) مقاييس اللغة (٤٤٥/١)، المفردات في غريب القرآن (ص ١٩٢)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣٠٢/١).

(٢) ينظر الكليات (ص ٤١)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣٠٢/١).

الفاحشة المقيتة: عقوبات متنوعة وعواقب مخيفة:

أنواع العقوبات على جرائم الأمم في الدنيا



عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ

عَنْ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (٤)

في هذه الخاتمة لهذه القصة: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ هل النظر إلى عاقبة المجرمين يعني الخوف من أن يصيبنا ما أصابهم؟ وهل العقوبات تقتصر على التدمير المادي كالإغراق والريح والصيحة؟
تعاقب الأمم على الجرائم في الدنيا، وتنوع العقوبات، فمن أنواعها:

النوع الأول: أن تكون العقوبة أثرًا طبيعيًا للدُّنْبِ كالزُّلْفِ، والسَّرَفِ في الفِسْقِ يُفسِدُ أخلاق الأُمَّة وَيَذْهَبُ بِبأسها.

النوع الثاني: أن تكون العقوبة بأن يجعل الله ﷻ بأس الأُمَّة بينها شديدًا يتفرق كلمتها واختلاف أحزابها وتعاديمهم، فيترتب على ذلك تسلط أمة أخرى عليها تستذلها بسلب استقلالها، وتسخيرها في منافعتها، حتى تكون حرضًا أو تكون من الهالكين بذهاب مقوماتها ومُشخصاتها، أو اندغامها في الأُمَّة الغالبة أو انقراضها.

النوع الثالث: أن تكون العقوبة بما يحدث بسنن الله ﷻ في الأرض من الجوائح الطبيعية - كالزلازل والخسوف وإمطار النار والمُواتِ المُضطربة التي تقذفها البراكين من الأرض والأوبئة - أو الانقلابات الاجتماعية كالحروب والثورات والفتن^(١).

وبين تنوع هذه العقوبات قوله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥].

النوع الرابع: أن تكون العقوبة بأمر خارق للعادة، وحقق جمع من أهل العلم أن ذلك قد انقضى بعد إنجاء الله ﷻ موسى عليه السلام، وهو ما كان من آيات الرُّسل عليهم الصلاة والسلام، وقد انقضى زمانه بختمهم بنبي الرحمة محمد ﷺ.

وبين لنا أن العقوبة قد تكون اقتصادية، أو بأن يسلط الله ﷻ الأُمَّة بعضها على بعض ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ، حَتَّى يُغْلِنُوا بِهَا، إِلَّا فَشًا فِيهِمُ الطَّاعُونَ، وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، إِلَّا أَخَذُوا بِالسِّنِينَ، وَشِدَّةِ الْمُؤُونَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمَطَّرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ، وَعَهْدَ رَسُولِهِ، إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا

(١) تفسير المنار (٨/ ٤٦٠).

مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَيْمَتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ، إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بِأَسْهُمِ بَيْنَهُمْ»^(١).

قصة لوط عليه السلام قراءة مقارنة بين النص القرآني والتوراتي:

إذا قارنا قصة لوط عليه السلام في القرآن بقصته التي وردت في التوراة، فبأي انطباع نخرج؟

الجواب: رأينا صورة مبهمة لمعالجة لوط عليه السلام لعقليات قومه الشنيعة، ودعوتهم إلى إدانة أفعالهم، وتطهير حياتهم، وفي ردود قومه عليه، وهذه الصورة لا نجدها في التوراة الموجودة بين أيدينا، بل اختلفت رواية سفر التكوين الموجود الآن عن القرآن في نوع التهديد الذي نال لوطاً عليه السلام، فأول اختلاف أن التوراة تحكي عن ضيفين جاء لوطاً عليه السلام، وظاهر القرآن أنهم أكثر من ذلك، ويحكي سفر التكوين تهديداً رديئاً لجأ إليه المجرمون من قوم لوط، ففي الفصل: (١٩)، يحكي السفر دفاع لوط عن ضيفيه:

(٦:١٩) فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ لُوطٌ إِلَى الْبَابِ وَأَغْلَقَ الْبَابَ وَرَاءَهُ.

(٧:١٩) وَقَالَ: «لَا تَفْعَلُوا شَرًّا يَا إِخْوَتِي.

(٨:١٩) هُوَذَا لِي ابْنَتَانِ لَمْ تَعْرِفَا رَجُلًا، أَخْرِجُهُمَا إِلَيْكُمْ فَافْعَلُوا بِهِمَا كَمَا يَحْسُنُ فِي عُيُونِكُمْ، وَأَمَّا هَذَانِ الرَّجُلَانِ فَلَا تَفْعَلُوا بِهِمَا شَيْئًا، لِأَنَّهُمَا قَدْ دَخَلَا تَحْتَ ظِلِّ سَقْفِي».

(٩:١٩) فَقَالُوا: «ابْعُدْ إِلَى هُنَاكَ». ثُمَّ قَالُوا: «جَاءَ هَذَا الْإِنْسَانُ لِيَتَغَرَّبَ، وَهُوَ يَحْكُمُ حُكْمًا. الْآنَ نَفْعَلُ بِكَ شَرًّا أَكْثَرَ مِنْهُمْ». فَالْحُجُوا عَلَى الرَّجُلِ لُوطَ جِدًّا وَتَقَدَّمُوا لِيَكْسِرُوا الْبَابَ.

(١٠:١٩) فَمَدَّ الرَّجُلَانِ أَيْدِيَهُمَا وَأَدْخَلَا لُوطًا إِلَيْهِمَا إِلَى الْبَيْتِ وَأَغْلَقَا الْبَابَ.

(١١:١٩) وَأَمَّا الرَّجَالُ الَّذِينَ عَلَى بَابِ الْبَيْتِ فَضَرَبَاهُمْ بِالْعَصَى، مِنَ الصَّغِيرِ إِلَى الْكَبِيرِ، فَعَجَزُوا عَنْ أَنْ يَجِدُوا الْبَابَ.

(١٢:١٩) وَقَالَ الرَّجُلَانِ لِلُّوطِ: «مَنْ لَكَ أَيْضًا هُنَا؟ أَصْهَارُكَ وَبَنِيكَ وَبَنَاتُكَ وَكُلٌّ مِنْ لَكَ فِي الْمَدِينَةِ، أَخْرِجْ مِنَ الْمَكَانِ.

(١٣:١٩) لَأَنَّنَا مُهْلِكَانِ هَذَا الْمَكَانَ، إِذْ قَدْ عَظُمَ صُرَاخُهُمْ أَمَامَ الرَّبِّ، فَأَرْسَلْنَا الرَّبُّ لِهَلِكِهِ».

(١) ابن ماجه (٤٠١٩)، وحسنه لغيره الأناؤوط، وذكره الألباني في الصحيحة (١٠٦).

(١٩: ١٤) فَخَرَجَ لُوطٌ وَكَلَّمَ أَصْهَارَهُ الْأَخْدِينَ بَنَاتِهِ وَقَالَ: «قُومُوا اخْرُجُوا مِنْ هَذَا الْمَكَانِ، لِأَنَّ الرَّبَّ مُهِلَّكَ الْمَدِينَةِ». فَكَانَ كَمَا نَحْنُ فِي أَغْيُنِ أَصْهَارِهِ.

هل نجد في التوراة المحرفة الصورة الرائعة للوط عليه السلام وهو يدعو قومه إلى العودة إلى الفطرة البشرية السليمة؟

الجواب: لم يرد في التوراة تفصيل جرائم قوم لوط عليه السلام، ولا الجهود العظيمة التي بذلها لوط ليردهم إلى حياة الطهارة.

ومن الاختلافات أن القرآن يحدثنا أن لوطاً عليه السلام كان ينتظر الخلاص، فيقول الله ﷻ: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَايَ إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (٨٠) قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَبَ أَهْلُكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ [هود: ٨٠-٨١].

بينما نجد في التوراة في سفر التكوين أيضاً أن لوطاً يتباطأ، ففيها: (١٩: ١٥) وَلَمَّا طَلَعَ الْفَجْرُ كَانَ الْمَلَائِكَةُ يُعْجِلَانِ لُوطاً قَائِلَيْنِ: «فَمُ خُذِ امْرَأَتَكَ وَابْنَتَيْكَ الْمُوجُودَتَيْنِ لَيْلًا تَهْلِكُ بِإِثْمِ الْمَدِينَةِ».

(١٩: ١٦) وَلَمَّا تَوَانَى، أَمْسَكَ الرَّجُلَانِ بِيَدِهِ وَبِيَدِ امْرَأَتِهِ وَبِيَدِ ابْنَتَيْهِ، لِيَشْفَقَةَ الرَّبِّ عَلَيْهِ، وَأَخْرَجَاهُ وَوَضَعَاهُ خَارِجَ الْمَدِينَةِ.

لاحظ هنا لم يذكر من الخارجين سوى ابنتين له مع أنه ذكر قبل أن له بنين وبنيتين قد تزوجتا بينما في القرآن نجد ذكراً لنجاة كل أهله، وكذلك نجد في التوراة أن امرأته خرجت معه ثم التفتت فصارت عمود ملح، وفي القرآن يتقارب ما ورد فيه مع ذلك إذ عندما نجتمع بين قوله ﷻ: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَايَ إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (٨٠) قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَبَ أَهْلُكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ ﴿٨١﴾ [هود: ٨١].

وقوله ﷻ: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٣]. يظهر عندنا احتمال أنها خرجت ثم التفتت، فأصاها ما أصابهم، واحتمال أنها بقيت، وأبت أن تخرج.

في القرآن يقول الله ﷻ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَذَابُهُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤]، فهل نجد مثل هذا التنبيه الكبير إلى أخذ العبرة في التوراة المعاصرة؟

هذا السفر سفر التكوين يتكلم بقبح شديد عن حياة لوط عليه السلام وابنتيه بعد خروجه من قريته، ويدخلهم جميعاً في سلك العصيان الذي لا يتصوره إنسان، وسنذكر ذلك لنبين مقدار الافتراء الهائل الذي يلصقه محرفو أهل الكتاب بالأنبياء:

(٢٩: ١٩) وَحَدَّثَ لَمَّا أَخْرَبَ اللَّهُ مُدْنَ الدَّائِرَةِ أَنَّ اللَّهَ ذَكَرَ إِبْرَاهِيمَ، وَأَرْسَلَ لُوطًا مِنْ وَسْطِ الْأَنْقِلَابِ حِينَ قَلَبَ الْمُدْنَ الَّتِي سَكَنَ فِيهَا لُوطٌ.

(٣٠: ١٩) وَصَعِدَ لُوطٌ مِنْ صُوعَرَ وَسَكَنَ فِي الْجَبَلِ، وَابْنَتَاهُ مَعَهُ، لِأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَسْكُنَ فِي صُوعَرَ. فَسَكَنَ فِي الْمَغَارَةِ هُوَ وَابْنَتَاهُ.

(٣١: ١٩) وَقَالَتِ الْبِكْرُ لِلصَّغِيرَةِ: «أَبُونَا قَدْ شَاخَ، وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ رَجُلٌ لِيَدْخُلَ عَلَيْنَا كَعَادَةِ كُلِّ الْأَرْضِ.

(٣٢: ١٩) هَلُمَّ نَسْقِي آبَانَا خَمْرًا وَنَضْطَجِعَ مَعَهُ، فَنُحْيِي مِنْ أَيْبِنَا نَسْلًا».

(٣٣: ١٩) فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَدَخَلَتِ الْبِكْرُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَ أُبَيْهَا، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلَا بِقِيَامِهَا.

(٣٤: ١٩) وَحَدَّثَ فِي الْغَدِ أَنَّ الْبِكْرَ قَالَتْ لِلصَّغِيرَةِ: «إِنِّي قَدْ اضْطَجَعْتُ الْبَارِحَةَ مَعَ أَبِي. نَسْقِيهِ خَمْرًا اللَّيْلَةَ أَيْضًا فَادْخُلِي اضْطَجِعِي مَعَهُ، فَنُحْيِي مِنْ أَيْبِنَا نَسْلًا».

(٣٥: ١٩) فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَيْضًا، وَقَامَتِ الصَّغِيرَةُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَهُ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلَا بِقِيَامِهَا،

(٣٦: ١٩) فَحَبَلَتِ ابْنَتَا لُوطٍ مِنْ أُبَيْهِمَا.

(٣٧: ١٩) فَوَلَدَتِ الْبِكْرُ ابْنًا وَدَعَتِ اسْمَهُ «مُؤَابَ»، وَهُوَ أَبُو الْمُؤَابِّيْنَ إِلَى الْيَوْمِ.

(٣٨: ١٩) وَالصَّغِيرَةُ أَيْضًا وَلَدَتِ ابْنًا وَدَعَتِ اسْمَهُ «بِنْ عَمِّي»، وَهُوَ أَبُو بَنِي عَمُّونَ إِلَى الْيَوْمِ.

وكأنني بهذه الرواية تنبعث من الحقد على جيران الإسرائيليين بعد أن أتى بهم موسى عليه السلام إلى الأرض المقدسة، وهي شبيهة بمطالبة ننتيا هو الفلسطينيين بعدم الفساد إن أقاموا دولة العبيد التي

انبثقت عنها صفقة القرن في الوقت الذي يبحث عن حصانة أمام قومه تحميه من محاكمته على فساد.

الحكمة من عدم التعرض لقصة إبراهيم عليه السلام في سورة الأعراف:

في خاتمة هذه القصة التي تعالج واقعاً متجدداً في الحياة يلفت نظرنا عدم ذكر قصة إبراهيم عليه السلام في سورة الأعراف مع ذكر قصة لوط عليه السلام مع تلازم العلاقة بينهما ﷺ: فلماذا ذكر الله ﷻ هذه القصة ولم يذكر عهد إبراهيم عليه السلام مع قرب لوط عليه السلام منه، ومع أن إبراهيم عليه السلام أعظم شأنًا؟

الجواب: يظهر لي أن ذلك لأمرين:

الأول: مبنى السُّورَة قائم على بيان المسيرة التاريخية للحضارات التي أهلكها الله ﷻ بعصيانها وإجرامها حيث قال الله ﷻ في أول السُّورَة: ﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف ٤].

الثاني: لأن مبنى السُّورَة أيضًا اتباع الكتاب، إذ قال الله ﷻ في أولها: ﴿كِتَابٌ أُزِيلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ٢ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف ٢-٣].

وقد علم الله ﷻ أن هذه الفاحشة ستشيع في العالم، بل سيحاول العالم أن يسن القوانين لجعلها طبيعية، ويجعل من ينكرها خارجاً عن حيز الطبيعة الفطرية، فاستحقت أن يتكلم عنها، وسيحذفون الآيات أو يحرفون معانيها لجعلوا من يأتي هذه الفاحشة كأنه يقوم بإنجاز ويحقق فلاحاً، وفي الحديث عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«مَلْعُونٌ مَّنْ سَبَّ أَبَاهُ، مَلْعُونٌ مَّنْ سَبَّ أُمَّهُ»،

وفي رواية: «مَلْعُونٌ مَّنْ عَقَّ وَالِدَيْهِ».

"مَلْعُونٌ مَّنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ".

"مَلْعُونٌ مَّنْ غَيَّرَ حُدُودَ الْأَرْضِ" أي: عَلَامَتَهَا وَحُدُودَهَا التي تبين حدود ملك كل واحد.

"مَلْعُونٌ مَّنْ كَمَعَ أَعْيَى عَنْ طَرِيقٍ". أي: عَنَى عليه الطريق، ولم يوقفه عليه.

"مَلْعُونٌ مَّنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ مَوَالِيهِ".

"مَلْعُونٌ مَنْ آوَى مُجْدِثًا" أي: نصر من أكرم أو ارتكب الإثم والعدوان أو أشاع الفاحشة، ويحرف الكلم عن مواضعه.

"مَلْعُونٌ مَنْ وَقَعَ عَلَى بَهِيمَةٍ".

"مَلْعُونٌ مَنْ عَمِلَ بِعَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ"، قَالَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَرَارًا ثَلَاثًا^(١)

تنوع التسميات لجريمة قوم لوط ﷺ كشف لأبعادها وخطورتها:

تبين لنا من إنكار لوط ﷺ على قومه أنه سمى فعلهم: (فاحشة) و(شهوة) و(إسرافاً): فهل هذه التسميات تكشف عن المخاطر الحقيقية لإتيان الرجال؟ وكيف ذلك؟

الجواب: هذه التسميات تشنع هذه الجريمة في حق البشرية، فتسميتها: (فاحشة) و(شهوة) و(إسرافاً) لأنها تحتوي على مَفسِدٍ كَثِيرٍ أشار إليها ابن عاشور والسيد محمد رشيد رضا رحمهما الله،^(٢) يمكن تلخيصها فيما يأتي:

أولاً: اسْتِعْمَالُ الشَّهْوَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ فِي غَيْرِ الْمَوْضِعِ الَّذِي هَيَأَ اللَّهُ ﷻ لِيَكُونَ الْمَوْضِعُ الْفَطْرِي الْمُنَاسِبَ. **ثانياً:** الإصرار على فعلها يعني الإجرام في حق البشرية؛ إذ يؤول الأمر إلى تجميل القبيح، وتقبيح الجميل، وتحسين البشع، وتبشيع الحسن، والنتيجة شيخوخة الحضارات وموتها كما ترى في معدل الخصوبة في الدول التي أباحت ذلك مثل أوروبا.

ثالثاً: اعتداء على نظام الدُّكُورَةِ والأنوثة، حيث يكون قضاء الشهوة في المفعول به على غير الأمر الطبيعي.

رابعاً: يصحب ذلك مرض في القلب، وانتكاس في المفاهيم، ويختلف الذين يقعون في ذلك في تمكن هذا المرض القلبي منهم.

العقوبة الشرعية المقررة لمرتكبي هذه الفاحشة:

اختلف العلماء في العقوبة الزاجرة المعالجة لمن يقع في ذلك، فمالك رحمهما الله جعلهم كالزُّناة المحصنين، وقال أبو حنيفة رحمهما الله: يُعَزَّرُ فاعِلُهُ وَلَا يَبْلُغُ التَّعْزِيرُ حَدَّ الرِّتَى عَلَى تَفْصِيلٍ، وقال الشَّافِعِيُّ رحمهما الله يُحَدُّ حَدَّ الزَّانِي، فَإِنْ كَانَ مُحْصَنًا فَحَدُّ الْمُحْصَنِ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مُحْصَنٍ فَحَدُّ غَيْرِ الْمُحْصَنِ، وقال

(١) أحمد (٢٩١٦)، المعجم الأوسط (٨٤٩٧)، وحسن إسناده محققو المسند، وصحَّه الألباني لغيره في صحيح الترغيب والترهيب (٢٤٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (٨-ب/٢٣٢).

ابْنُ حَزْمٍ رحمته الله في "المحلّى": يُجْلَدُ ذُوْنَ الْحَدِّ، وَلَمْ يُصَرَّحْ، فِيمَا نَقَلُوا عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ وَصَاحِبَيْهِ، وَلَا عَنْ أَحَدٍ، وَلَا الشَّافِعِيَّ رحمته الله بِمُسَاوَةِ الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ بِهِ فِي الْحُكْمِ إِلَّا عِنْدَ مَالِكٍ رحمته الله، وَيُؤْخَذُ مِنْ حِكَايَةِ ابْنِ حَزْمٍ رحمته الله فِي "المحلّى": أَنَّ أَصْحَابَ الْمَذَاهِبِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي تَعْزِيرِ هَذِهِ الْفَاحِشَةِ لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ إِلَّا قَوْلًا شَاذًّا لِأَحَدِ فُقَهَاءِ الشَّافِعِيَّةِ رَأَى أَنَّ الْمَفْعُولَ أَغْلَظُ عُقُوبَةً مِنَ الْفَاعِلِ ^(١). والاختلاف يجعل عند الجهات القانونية السعة للنظر في حالة كل واحد خاصة مع هذا الظلام الذي يحل في العقول الإنسانية، إذ يريد الذين يتبعون الشهوات المسرفة أن يجعلوا اعتداءهم قانونيًا، وإسرافهم شرعيًا!

فإن قلت: كيف طرأت هذه الفاحشة في الواقع البشري مع أن الفطرة الإنسانية تأبأها وتمقتها؟

الجواب: لم يُعلم كيف بدأت هذه الفاحشة، فَرَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ رحمته الله عَنْ بَعْضِ رُؤَاةِ ابْنِ عَبَّاسٍ رحمته الله أَنَّ إِبْلِيسَ جَاءَهُمْ فِي هَيْئَةِ صَبِيٍّ أَجْمَلَ صَبِيٍّ رَأَى النَّاسَ فِدَعَاهُمْ إِلَى نَفْسِهِ فَنَكَحُوهُ ثُمَّ جَرَوْا عَلَى ذَلِكَ ^(٢).

وَهَذَا أَتَرَ لَا يَتَبَيَّنُ بِهِ شَيْءٌ ^(٣)، لَكِنْ لَا شَكَّ فِي وَسوسةِ إِبْلِيسَ وَإِغْوَاثِهِ لِلْبَشَرِ لِيَفْعَلُوا ذَلِكَ ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل ٢٤].

وهذه الشهوة المنحرفة مثل سائر الشهوات المنحرفة يأنف منها المرء عندما يسمع بها، ولكنه إذا أتاها استمرأها، ثم صار يأتيها خفية، فإذا طال عليه الأمر، وأراد الاستكثار منها، أشاعها بين الناس، ورغب أن يكون الناس مثله في إتيناها، فكيف إذا شارك فيها المليارديرات وصناع القرار؟ وانظر كيف يحارب كثير من النجوم (المشهورين) والقيادات في العالم في الظاهر المخدرات، ويمارس كثير تعاطيها بل يتفاخرون بها، وكانت العرب من أشد الناس أنفة أن يحدث ذلك بينها في الجاهلية فكيف في الإسلام؟!

(١) انظر: التحرير والتنوير (٨-ب/٢٣٢-٢٣٤).

(٢) أخرجه ابن عساکر في تاريخ دمشق (٣١٣/٥٠).

(٣) تفسير المنار (٨/٤٦٢).

والله ﷻ أرسل نبيه لوطاً عليه السلام ليبلغ قومه مغبة هذه الجريمة وعظم خطرها في الدنيا والآخرة، ولما أهلكهم ﷻ قال معقبا على ذلك: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣].

وقد حذر من ذلك الرسول ﷺ أيضاً: فعن بريدة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما نقض قوم العهد إلا كان القتل بينهم، ولا ظهرت الفاحشة في قوم إلا سلب الله عليهم الموت، ولا منع قوم الزكاة إلا حبس عنهم القطر»^(١)، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الله ﷻ إلى رجل أتى رجلاً أو امرأة في دبرها»^(٢).

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي عَمَلُ قَوْمِ لُوطٍ»^(٣). وقد ثبت علمياً وطبيعياً، ولدى أهل الاختصاص من علماء الأوبئة والفيروسات أن كثيراً من الأمراض الجنسية تؤدي بأصحابها إلى الموت، مثل مرض الإيدز (فقد المناعة المكتسب) الذي يضعف مقاومة الجسم للأمراض، ومثل:

(١) تليف الكبد، وسرطان الكبد، والزهري الثلاثي أو العصبي، ويؤثر على الأعضاء الحيوية مثل: القلب والدماغ والجهاز العصبي المركزي مما يؤدي إلى الوفاة.

(٢) فيروس الورم الحليمي (البشري HPV)، وبعض أنواعه تسبب بعض السرطانات؛ أخبرها سرطان عنق الرحم، وسرطان الشرج والقضيب والحلق، وغير ذلك.

لكن السؤال الكبير: من أخبر محمداً ﷺ أن الفاحشة لها عقوبة قدرية هي الموت؟! إنه الله ﷻ ﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وكل من ظن أنه يفلت من أحكام الشريعة الإسلامية ويضادها فإن العقوبات له بالمرصاد.

(١) المستدرک للحاکم (٢٥٧٧)، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه"، وقال الذهبي: على شرط مسلم.

(٢) الترمذي (١١٦٥)، وقال: "هذا حديث حسن غريب"، وحسنه الألباني.

(٣) الترمذي (١٤٥٧)، وابن ماجه (٢٥٦٣)، وقال الترمذي: "هذا حديث حسن غريب"، وحسنه الألباني.

أهم أسباب شيوع هذه الفاحشة:

ونسأل هنا: ما أهم أسباب شيوع هذه الفاحشة؟

الجواب: نجد أن من أسباب شيوع هذه الفاحشة: عبث المترفين، ووجود الأماكن التي يعزل فيها الرجال عن نساءهم كرهاً أو اختياراً كالسجون وتكنات الجند، والمدارس التي لا تشتد المراقبة الدينية الأديبة فيما على التلاميذ، وتساهل فيها الناس عندما تساهلوا في إشاعته مع الرقيق:

فقال الفقيه ابن حجر الهيتمي رحمته الله في آخر الكلام على هذه الكبيرة من كتابه "الزواجر" ما نصه: "وأجمعت الأمة على أن من فعل بمملوكه فعل قوم لوط فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، وقد فشا ذلك في التجارة والمترفين"، وبين ابن حجر الهيتمي رحمته الله خطر عدم شكر النعمة، فذكر أن هذه القبايح الشنيعة الفظيعة توجب الفقر وهلاك الأموال وأنمحق البركات، والخيانة في المعاملات والأمانات؛ ولذلك تجد أكثرهم قد افتقر من سوء ما جناها، وقبيح معاملته لمن أنعم عليه وأعطاه، ولم يرجع إلى باريه وخالفه، وموجده ورآقيه، بل بارزه بهذه المبارزة المنيية على خلع جلباب الحياء والمروءة والتخلي عن سائر صفات أهل الشهامة والفتوة، والتخلي بصفات البهائم بل بأفبح وأفطع صفة وخلّة، إذ لا نجد حيواناً ذكراً ينكح مثله، فناهيك برذيلة تغف عنها الحمير^(١).

قال السيد رشيد رضا رحمته الله: "إن هذه الفتن بالمرد هي التي حملت بعض الفقهاء على تحريم النظر إلى الغلام الأمرد ولا سيما إذا كان جميل الصورة، أطلقه بعضهم، وخصه آخرون بنظر الشهوة الذي هو ذريعة الفاحشة.

وعن مجاهد رحمته الله قال: "لو أن الذي يعمل ذلك العمل (يعني: عمل قوم لوط) اغتسل بكل قطر في السماء وكل قطر في الأرض لم يزل نجساً"^(٢).

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر (٢/ ٢٣٥).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا بسنده في "ذم الملاهي" (١٣٦)، والنجاسة هنا المقصود بها: نجاسة الفاحشة التي قد تنجس بها قلبه وباطنه، فإن تلك نجاسة لا يرفعها الاغتسال بالماء، وإنما يرفعها الاغتسال بماء التوبة النصوح المستمرة إلى الممات. قاله ابن تيمية في: مجموع الفتاوى (٣٨٥/١٥).

وَأَخْرَجَ الْبُهْمِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ قَالَ: دَخَلَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ الْحَمَّامَ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ غُلَامٌ صَبِيحٌ فَقَالَ: أَخْرِجُوهُ فَإِنِّي أَرَى مَعَ كُلِّ امْرَأَةٍ شَيْطَانًا وَمَعَ كُلِّ غُلَامٍ بَضْعَةٌ عَشْرَ شَيْطَانًا^(١)، يَغْنِي أَنَّ الْوَسْوَسةَ وَالْإِعْرَاءَ بِالْغُلَامِ الْجَمِيلِ يَزِيدُ عَلَى الْإِعْرَاءِ بِالْمَرْأَةِ بَضْعَةٌ عَشْرَ ضِعْفًا لِسُهُولَةِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ وَكَثْرَةِ وَسَائِلِهِ.

وَكَمْ فِتْنٌ أَسْتَاذٌ مِنْ هَؤُلَاءِ وَأَوْلَيْكَ بِمُيِّدِهِ وَتَلْمِيذِهِ وَأَخْفَى هَوَاهُ حَتَّى فَسَدَتْ حَالُهُ، وَسَاءَ مَالُهُ، وَكَمْ تَهْتَكُ مَهْتِكٌ فَفُضِحَ سِرُّهُ، وَاشْتَهَرَ أَمْرُهُ، كَالشَّيْخِ مُدْرِكِ الَّذِي عَشِقَ عَمْرًا النَّصْرَانِيَّ أَحَدَ التَّلَامِيذِ الَّذِينَ كَانُوا يَأْخُذُونَ عَنْهُ عِلْمَ الْأَدَبِ، فَكَتَمَ هَوَاهُ زَمَنًا حَتَّى غَلَبَهُ قَبَاحُ بِهِ، فَانْقَطَعَ الْغُلَامُ عَنْ مَجْلِسِهِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ قَصِيدَتَهُ الْمُرْدَوِّجَةَ الْمَشْهُورَةَ الَّتِي قَالَ فِيهَا:

إِنْ كَانَ ذَنْبِي عِنْدَهُ الْإِسْلَامُ فَقَدْ سَعَتْ فِي نَفْضِهِ الْأَنَامُ
وَاخْتَلَّتِ الصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ وَجَارَ فِي الدِّينِ لَهُ الْحَرَامُ

وَعَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الْبَاقِرِ قَالَ: قُلْتُ لِمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ (ابن الحنفية) عليه السلام: "عَدَبَ اللَّهُ نِسَاءَ قَوْمٍ لُوطٍ بِعَمَلِ رَجَالِهِمْ؟ قَالَ اللَّهُ أَغْدَلُ مِنْ ذَلِكَ: اسْتَغْنَى النِّسَاءُ بِالنِّسَاءِ وَالرِّجَالُ بِالرِّجَالِ^(٢).
ومن أقبح الجرائم إشاعة الفاحشة في الدين آمنوا عن طريق وسائل الإعلام:

يحسب المرء أنه يعجز الله فيلهو ويملا الأرض ظلماً
يتسامى فلا يرى من يساميه وفي الناس من هو أسمى
ويرى الناس كالدمى يستجيبون لما يبتغيه صمًا وبكمًا
ويجيء القضاء حتمًا فلا يقدر ردًا له ولا فيه حكمًا
كم رأينا من خاضعٍ للأعادي جعلوا منه في المحافل نجمًا
يتمموا وجهه إليهم، فما يقصد إلا أبوابهم حيث أمّا

(١) شعب الإيمان (٥٠٢١).

(٢) تفسير المنار (٤٦٣-٤٦٤)، والأثر عن ابن الحنفية أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الملاحية (١٤٥)، والبيهقي في الشعب (٥٠٨١)، وإسناده ضعيف كما قال محقق شعب الإيمان: عبد العلي عبد الحميد.

صَوَّبَ الْقَوْمَ أَلْفَ سَهْمٍ إِلَيْهِ لَيْتَهُ اسْتَطَاعَ أَنْ يَصُوبَ سَهْمًا
أَيُّهَا الْمُقْتَفِي طَرِيقَ الْأَعَادِي وَرَمًا مَا رَأَيْتَهُ لَيْسَ شَحْمًا
كَمْ قُلُوبٌ زَرَعَتْ فِيهَا الْمَاسِي كَمْ حَقُوقُ الْنَهْيَا مِنْكَ ظَلَمًا
كَمْ سَجِينٌ تَرَكْتَهُ يَتَلَطَّى بِسِيَاطِ الْجَلَادِ لَمْ يَأْتِ جَرَمًا
كَمْ لِسَانٌ قَطَعْتَهُ كَانَ يَدْعُو لِلتَّأَخِي، وَيَمْنَحُ النَّاسَ عِلْمًا
إِنْ أَقْسَى مَصَائِبِ الْعَصْرِ أَنْ نَلْمَحَ أَهْلَ الْهَدْيِ يُسَامُونَ ظَلَمًا
وَدَعَا الضَّلَالُ يَلْقُونَ إِجْلًا لَا وَهْمَ يَنْفُثُونَ فِي النَّاسِ سَمًا

ثم ننتقل إلى قصة جديدة هي قصة شعيب عليه السلام وقومه من أهل مدين إذ يقول الله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْنَؤُا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف: ٨٥].

فما المناسبة والاتصال بين هذه القصة وما سبقها من القصص في هذه السورة؟

الدورة الخامسة: حضارة دولة مدين

القيادة الخامسة للذرية الآدمية (شعيب عليه السلام) في مواجهة الإفساد الاقتصادي والأخلاقي [الأعراف: ٨٥ - ٩٣]



الدورة الخامسة: حضارة دولة مدين

وفيها برز شعيب عليه السلام ليمثل القيادة الخامسة للذرية الأدمية في مواجهة الإفساد

الاقتصادي والأخلاقي [الأعراف: ٨٥-٩٣]

آيات هذا العهد: ﴿وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنْ كَانَ ظَافِقَةٌ مِنْكُمْ ءَامِنُوا بِالَّذِى أَرْسَلْتُ بِهِ وَطَافِقَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعُوبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنْكُمْ إِذَا لَخْسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف: ٨٥-٩٣].

وأول سؤال يواجهنا: ما المشاهد الكبرى التي تكونت منها هذه الدورة الحضارية الجديدة، وأظهرتها لنا هذه القصة؟ وكيف أظهرت الواو في قوله ﷻ: ﴿وَالِى مَدْيَنَ﴾ المناسبة والاتصال بينها وبين ما قبلها؟

الجواب: تكون هذا العهد من سبعة مشاهد، وتظهر المناسبة والاتصال في المشهد الأول منها، وذلك كما يأتي

المشهد الأول: سورة الأعراف تقدم لنا الدورات الحضارية المتكررة، وهنا المناسبة والاتصال بين هذه الدورة الحضارية وما قبلها:

تظهر المناسبة والاتصال في حرف العطف الرابط بين هذه القصة وما قبلها، إذ قال الله ﷻ: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥].

فالواو تدل على الترابط والاتصال، ووجدنا هذا الاتصال في تاريخ الذرية الآدمية حين ترى مراحل فاصلة لا بد من ذكرها، فكان منها عهد قوم لوط عليه السلام.

فقد طوفنا بالآيات التي تكلمت عن سيدنا لوط عليه السلام في سورة الأعراف، وهذه الآيات امتدت من (٨٠-٨٤)، وهي خمس آيات كلما الله ﷻ فيها عن فتنة من أعظم الفتن التي يلعب الشيطان بها بالناس، ويحقق لهم الذي أراد تحقيقه نفسه، عندما أغوى آدم وزوجه عليهما السلام، فإنه عندما أغواهما قال الله تعالى عن هذا: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تِهْمَا﴾ [الأعراف: ٢٧]، فصار إيصال الناس إلى قلة الحياء من أعظم أهداف إبليس، وذلك بإظهار السوءات أمام الآخرين، وهذه الشهوة المحرمة تسكر الإنسان.

ولا يحدثنا عن قصة من هذه القصص في سورة الأعراف إلا ونرى تكرارها في الواقع، بل نرى تكرارها بما هو أبشع وأسوأ، ففي قصة نوح عليه السلام رأينا حضارتهم تعبد الأوثان عبر الأولياء ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣] [نوح: ٢٣]، ورأينا تفشي العنصرية؛ لأنهم قالوا: ﴿* قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَأَتَّبِعَكَ الْأَرْدَلُونَ ﴾ [نوح: ٢٣] ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَأَيْنَا أَنْتَ وَالَّذِينَ هُمْ أَرَأَيْنَا أَنْتَ﴾ [هود: ٢٧]؛ ليشعروا بأنهم أعلى مكانًا من بقية الناس.

ثم جاءت قصة حضارة عاد، فقد اشتركت مع حضارة قوم نوح عليه السلام في عبادة غير الله، ولكن بماذا انفردت؟

انفردت بالشعور بالكبر والعلو الحضاري، كان عندهم المصانع والمباني العظيمة، قال ﷻ: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الشعراء: ١٢٩]، وقال

تعالى: ﴿وَرَزَدَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصَاطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩] حتى أنهم من شدة البسطة في الخلق الذي عندهم قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِتًّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

القصة الثالثة، حضارة أمة ثمود، كانوا مشركين فدعاهم نبيهم صالح عليه السلام إلى عبادة الله وحده: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، وتميزت حضارتهم بالتقدم العمراني المدهش حتى أنهم كانوا ﴿يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢] أي: حال كونهم آمنين، أو: حال كونهم طالبين للأمن، ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩] أي: مترقّين حاذقين.

ثم جاءت الدورة الحضارية المتعلقة بقوم لوط عليه السلام، عالج فيها لوط عليه السلام شهوة من أغرب الشهوات؛ لأنها لم تكن من قبل في العالمين، وهي شهوة الشذوذ والفاحشة، فقال عليه السلام لهم: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]، وهذه الفاحشة يسمونها بغير اسمها، فيسمونها مثلية، ويتلاعبون بالألفاظ، كما يسمون الخمر: مشروبات روحية، والمخدرات: مطعومات روحية.

وهنا يقص الله ﷻ علينا في الآية [٨٥] فيقول ﷻ: ﴿وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، ليحدثنا عن دورة حضارية جديدة تتعلق بحضارة مدين، وهي حضارة عظيمة جدًا، ومؤثرة جدًا على المستوى العالمي في الأمور الاقتصادية.

هذه الدورات الحضارية الموجودة في القرآن الكريم تتكرر، والله سبحانه وتعالى يحدثنا عنها لا لنعيش في التاريخ وإنما لنعرف أن التاريخ تتكرر صوره في الواقع.

وقد تسأل: لماذا جاءت هذه القصة بعد قصة لوط عليه السلام خاصة؟

الجواب: كثيرًا ما يقترن العهدان في القرآن المجيد: عهد قوم لوط عليه السلام، وعهد قوم شعيب عليه السلام، كما في هذه السورة، وفي سورة هود عليه السلام، وفي سورة الحجر، وفي سورة الشعراء، وفي سورة العنكبوت، وكانت أفضع فواحش قوم لوط عليه السلام: إتيان الذكران، وقطع السبيل، وإتيان المنكر في النوادي الثقافية والاجتماعية، وكان عهد قوم لوط عليه السلام لا يكاد يُصدّق وجوده إذ استطاع إبليس أن يخترق الحاجز الأخلاقي بصورة فجأة، وأن يجعل أبشع أنواع الفواحش نظامًا مُقنَّنًا، ويقترن بهذا العهد عهد قريب منه تاريخيًا، وقريب منه في الواقع الجغرافي، وقريب منه في فظاعة الفواحش التي



جُعِلَتْ نظامًا يعيش به تلك الشعوب في هذه الحياة. إنه عهد حضارة مدين الذين أُرسل إليهم شعيب عليه السلام.

ومن أقطع فواحش قوم شعيب عليه السلام الإفساد الاقتصادي، والاستيلاء على التجارة المحلية والعالمية، والإفساد في الأرض، وقد ذكر الله تعالى العهدين والمكانين، فقال تعالى عنهما: ﴿وَأَنَّهُمَا لِيَإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٩]، أي: قرية قوم لوط وأيكة قوم شعيب عليه السلام، كلتا القريتين بطريق واضح تمر به قوافل أهل مكة^(١).

فهناك قرب تاريخي وجغرافي، فقوم لوط عليه السلام في الأردن، وقوم شعيب عليه السلام في مَدِين قَرِيب منهم. وهناك ارتباط شديد بين الفساد الأخلاقي والفساد الاقتصادي؛ فإن الفساد الاقتصادي يكون أحد الأسباب الرئيسة ليشغل الناس في المجالات التي تدمر القيم الأخلاقية القويمة للإنسانية. وهنا يأتي السؤال: ما المشهد الثاني الذي يظهر لنا في قصة حضارة مدين في القرآن الكريم؟
الجواب:

(١) التحرير والتنوير، (٧١/١٤).

المشهد الثاني: انتماء شعيب عليه السلام إلى قومه، ويصّرنا بذلك قوله ﷺ: ﴿وَأِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥]، فهذا الانتماء ييسر تبليغ الرسالة، فالمبلّغ واحد منهم، وبداية إصلاح ذرية آدم تكون بإثبات الانتماء للأمة أو للشعب الذين أرسل إليهم النبي ﷺ، فهو أخوهم في النسب، وليس غريباً عنهم.

فإن قلت: في قوله تعالى: ﴿وَأِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥]، ذكر الله ﷻ قوم مدين، فمن هم؟ وأين تقع دولتهم؟

الجواب: "مدين" اسم لقوم شادوا حضارة مستقلة قوية تقوم على التلاعب الاقتصادي، والتحكم الفاسد في النظام المحلي والدولي المجاور لهم، واختلف المفسرون والمؤرخون في كلمة "مدين":

فذهب بعضهم إلى أن "مدين" اسم مكان، وهو عبارة عن بلد أو دولة تضم مساحة واسعة ممتدة بين الشام وشمال غرب الجزيرة العربية، ونجد إلى اليوم بقية آثار مساكن عاصمتهم، حيث تجدها بالقرب من مدينة "البدع" التابعة لمنطقة "تبوك" الآن، وبعضهم رأى أن هذه الدولة سميت باسم رجل يقال له: "مدين"، فهي أمة كبيرة كأمة عاد وثمود، ولكن من هو جدّهم مدين؟ يذكر بعضهم أنه ابن لإبراهيم عليه السلام من زوجة ثالثة اسمها قَطُورًا، فأسكنه أبوه مع ذريته مسكنًا وسطًا بين إسماعيل وإسحاق عليه السلام، وعندني شك كبير في ذلك، ولا أظن أنه يوجد لإبراهيم عليه السلام سوى الولدين العظيمين إسماعيل وإسحاق عليه السلام، ويغلب على ظني أن مدين كانوا قومًا من العرب القدماء يسكنون في ذلك المكان.

وهذه الأمة العظيمة كانت على التوحيد، فأتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم، فصاروا مشركين يعبدون شجرة يقال لها ﴿الْأَيْكَةُ﴾، وزعم بعضهم أنهم أول من أظهر أوائل الخط العربي الحديث، وزعموا أن أشهر ملوك مدين هم الذين أخذت الحروف العربية من أسمائهم: (أبجد هوز حطي كلمن...)، وكل هذا لا دليل عليه، فالذي يظهر أن الأحرف العربية كانت أقدم من ذلك في أصواتها، وإن كانت كتابتها تغيرت مع الزمان.

هنا نسال: فمن يكون شعيب عليه السلام؟ هل يمكن أن نتعرف إليه؟

الجواب: بالنسبة للمنهج القرآني يكفيننا أن نعرف اسمه، فاسمه شعيب، ويكفيننا وصفه، فهو رسول الله إلى قوم مدين، وتتعجب لماذا يحاول بعض العلماء أن يبحثوا عن نسبه بما هو أوسع من ذلك، فيقول بعضهم: اسمه مُرْتَجَلٌ، وَقِيلَ: مُصَغَّرُ شُعْبٍ بِفَتْحِ الْمُعْجَمَةِ أَوْ كَسْرِهَا بِالْوَضْعِ الْأَوَّلِ. وبعضهم قال: هو شعيب بن ميكيل بن يشجر، وزعموا أن اسمه بالسريانية "بثرون"، وفي طبعة القرطبي رحمه الله كَانَ اسْمُهُ بِالسَّرْيَانِيَّةِ (يُثْرُوتَ)، وورد نسبه عند الرازي رحمه الله بأنه شُعَيْبُ بْنُ نُؤَيْبِ بْنِ مَدْيَنَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ^(١)، وقيل: إِنَّ أَهْلَ التَّوْرَةِ يَزْعُمُونَ أَنَّ شُعَيْبًا عليه السلام اسْمُهُ فِي التَّوْرَةِ مِيكَائِيلَ وَاسْمُهُ، بِالسَّرْيَانِيَّةِ خَبْرِيُّ بْنُ يَشْحَرَ^(٢) بَنِي لَأَوَى بْنِ يَعْقُوبَ، وَأَخْرَجَ عَنِ الشَّرَفِيِّ بْنِ الْقَطَامِيِّ وَكَانَ نَسَابَةً عَالِمًا بِالْأَنْسَابِ قَالَ: هُوَ يَتْرُوبُ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، وَشُعَيْبٌ بِالْعَرَبِيَّةِ ابْنُ عَيْفَا بْنِ يَوْيَبَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، يَوْيَبُ يَوْزَنُ جَعْفَرٍ، أَوَّلُهُ مُثْنَاةٌ تَحْتِيَّةٌ وَبَعْدَ الْوَائِ مَوْحَدَتَانِ^(٣).

وكل هذا لا دليل عليه، ولا حاجة له، إنما تجد مثله في كتب التاريخ التي لا تهتم بسنن البناء والفلاح والانتصار، ولا تهتم بسنن الهدم والاندحار، وتجعل التاريخ مجرد قصص للتسلية أو التفاخر، ونرى مثل هذا المنهج في التوراة المعاصرة الممتلئة بالتحريف.

وكذلك ذهب بعضهم إلى أن شعيبًا هو عم موسى عليه السلام، أي: أبو زوجته، ولكنك تجد اسم صهر موسى في سفر الخروج (١٨: ٢) وَسَفَرِ الْعَدَدِ (٢٩: ١٠) من التوراة الحالية: رَعْوَيْلُ، وَقَالُوا: إِنَّ "رَعْوَى" مَعْنَاهُ صَدِيقٌ، فَمَعْنَى رَعْوَيْلَ (صَدِيقُ اللَّهِ) أَيِ الصَّادِقِ فِي عِبَادَتِهِ، وَفِي (١: ٣) خُرُوجٍ أَنَّ اسْمَهُ يَثْرُونُ بِالْمَثْلَةِ وَالنُّونِ، إِذْ قَالَ: وَكَانَ مُوسَى يَزْعَى غَنَمَ يَثْرُونِ حَمِيهِ كَاهِنِ مَدْيَنَ، ونقل كل ذلك محمد رشيد رضا رحمه الله في تفسيره^(٤).

ولا يوجد دليل على ذلك كله، بل أنا في ريب منه؛ إذ لا يعقل أن المؤمنين الذين نجوا مع شعيب عليه السلام كانوا لا يقومون بحاجة نبيهم، ولا يساعدون ابنتيه، وأظن أن بين شعيب عليه السلام نبي مدين والشيخ الكبير صهر موسى عليه السلام دهرًا. فلا داعي لهذا البحث، وإنما ذكرته للتحذير، وكثيرًا ما تطرأ

(١) تفسير الرازي (٣١٣/١٤).

(٢) كذا في تفسير المنار (٤٦٦/٨)، ونقله عن ابن عساكر، ولم أجده في تاريخ مدينة دمشق، ربما سقط، ووجدته في مختصر تاريخ دمشق (٣٠٧/١٠) باسم: جرى بن يسحر. والله أعلم بالصواب.

(٣) تفسير المنار (٤٦٦/٨).

(٤) ينظر: تفسير المنار (٤٦٦/٨).

التحريفات والتغييرات عند الطباعة والنسخ والنقل، وهنا ترى الفرق الكبير بين التوراة الموجودة بين أيدينا وبين البيان الإلهي الأخير المحفوظ وهو القرآن الكريم، ذلك أن:

بصيرة: القرآن لا يحفل بذكر الأنساب بهذه الصورة الكثيفة؛ إذ لا مدخل لها في الإصلاح واكتساب الثواب، بخلاف الديانات العنصرية كاليهودية المعاصرة، فتشعر بالعبث الذي طرأ على التوراة ليحولها من كتاب إلهي لإنقاذ العالم إلى كتاب عنصري تمييزي طائفي.

وهنا نسأل ونحن نتدبر الآية: إلى أي شيء دعا شعيب عليه السلام قومه؟
يأتي الجواب في:



المشهد الثالث

أركان الإصلاح الإسلامي التي أرسل بها شعيب عليه السلام [الأعراف: ٨٥-٨٧]

الركن الثاني وجود البيئة الدالة على صدق رسالته: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥]	الركن الأول أول قضية تصلح بها الدنيا قضية الألوهية: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥]
الركن الرابع الإصلاح الإداري والحقوقي مما يؤدي إلى حفظ نظام الأمة: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥]	الركن الثالث الإصلاح الاقتصادي: فأهم جوانب الفساد بعد الشرك هو الفساد الاقتصادي: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْجِيزَانَ﴾ [الأعراف: ٨٥]
الركن السادس تغذية الشعور بأن هذه التعاليم العظيمة لها أهميتها في حياتهم الفردية والجماعية: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥]	الركن الخامس المحافظة على صلاح البيئة وإصلاحها: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥]
الركن الثامن حماية الناس ليختاروا القرار الصحيح بالاستماع لشعيب عليه السلام: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: ٨٦]	الركن السابع حفظ العلاقات الدولية وحراسة الطرق المحلية والعالمية: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: ٨٦]
الركن العاشر التحذير من إظهار سبيل الله مُعْجَبة أمام العالم: ﴿وَتَبْغُوثَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٦]	الركن التاسع النهي عن تكوين جماعات الصدى عن سبيل الله ﷻ: ﴿وَتَضُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ [الأعراف: ٨٦]
الركن الثاني عشر الاعتبار بالتاريخ وسنن الله ﷻ في الكون: ﴿وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦]	الركن الحادي عشر تذكر أن التمكين ليس إلا منة من رب العالمين ابتلاء واختبارًا: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦]
الركن الثالث عشر التذكير بسنة الصبر، وهي سنة اجتماعية تمنع من المواجهة: ﴿وَإِنْ كَانَ ظَاقِمَةٌ مِّنْكُمْ أَمَانُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ...﴾ [الأعراف: ٨٧]	

المشهد الثالث: أركان الإصلاح الإسلامي التي أرسل بها شعيب عليه السلام [الأعراف: ٨٥-٨٧].

وقد تسأل: ما هذه الأركان التي التي أرسل بها شعيب عليه السلام؟

الجواب: أركان الإصلاح التي أرسل بها شعيب عليه السلام ثلاثة عشر ركنًا، تفصيلها فيما يأتي.

الركن الأول: أول قضية تصلح بها الدنيا قضية الألوهية، ويصّرنا بذلك قوله تعالى ذكره:

﴿قَالَ يَقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥].

إنها أهم القضايا الثابتة التي تستطيع البشرية بها إصلاح الأرض، وإيقاف الفاسدين من الاستجابة للقبيل الشيطاني، ألا وهي: تأليُّه الله جلَّ جلاله، وتوحيده في هذه الألوهية.

﴿قَالَ﴾: تبصّرنا بأنه لم يسكت، ولم يعتزل، بل خالط وبلّغ وصبر على تبعات التبليغ.

﴿يَقُومُ﴾: تبصّرنا بأنه تلتطف في خطابه لهم، فأتى بما يرقق قلوبهم، ويحننها عليه، فهو يناديهم بهذه الكلمة التي تعني: أنا منكم، وأقوم بكم في حياتي، كما تقومون بي.

﴿أَعْبُدُوا﴾ أي: درّبوا أنفسكم وذلّلوها حتى تصبح معبّدة سهلة الانقياد لما يجب أن تقوم به في هذه الحياة، فالعبادة تدريب النفس، وتذليلها لتسير على منهاج الحياة الحق.

﴿اللَّهُ﴾: فحدد لهم اسم المعبود سبحانه وتعالى، وهو الاسم الذي لا يمكن أن يماثله اسم آخر، ولا يوجد له سميٌّ في الدنيا سوى رب العالمين.

هنا نسأل: ما الحكمة من التعبير بـ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ولم يقل: ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَرْجُوا

الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [العنكبوت: ٣٦] كما في سورة العنكبوت؟

الجواب: لأن هذه العبارة العظيمة تتضمن أمرين:

الأول: نفي الشرك أي: اعبدوا الله وحده، فإنه لا يوجد إله معبود بحق سواه.

الثاني: الدليل على كونه يجب أن يُوحَّد الله جلَّ جلاله في عبادته، وهو أنكم عندما تفكرون لا يمكن أن تجدوا إلهاً يُتَّخَذ من دون الله، أو مع الله، فالله رب العالمين، فمن الذي يمكنه أن يكون كذلك، وهذا الدليل فصلّه الله جلَّ جلاله لنفهمه في مواضع متعددة، من أبرزها قوله جلَّ جلاله: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ

مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرْكَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مَنْ ظَهِيرٌ ﴿٢٢﴾ [سبا: ٢٢].

فالأية تبين أنه لا يمكن لعاقل أن يتخذ إلهاً آخر سوى الله، فاطلب من الذين يعبدون مع الله إلهاً آخر ليدعوا آلهتهم، فهل عبدوا هذه الآلهة:

لأنها تملك مثقال ذرة في السموات؟ الجواب: لا

لأنها تملك مثقال ذرة في الأرض؟ الجواب: لا

سيقال: ربما إذن لا تملك مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض على سبيل الاستقلال ولكن لها مشاركة لملك الله فيها، فهل هي كذلك؟ الجواب: لا

سيقال: إن كانوا لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وما لهم فيها من شرك، فهل يعبدهم هؤلاء المخرفون لأن الله رب العالمين يحتاج إليهم لينصروه، ويظاهروه على أعدائه؟ الجواب: لا، وتعالى الله عما يقولون الظالمون علواً كبيراً.

فقوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أجملت هذه المعاني العظيمة.

فالدعوة إلى الإيمان بالله إلهاً واحداً معبوداً أهم الأسس التي تصلح بها الأرض والبشرية، فيها نزول الأوهام والخرافات من القلب والعقل، وتبني الرؤية النقية، وتعود ذرية آدم عليه السلام إلى فطرتها السوية.

حذف الفاء وإثباتها في كلمة ﴿قَالَ﴾ في قصة شعيب عليه السلام ومدلولها:

فإن قلت: لماذا جرد الله ﷻ القول من حرف الفاء في قوله: ﴿قَالَ يَقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ

مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥] ولم يقل: (فقال)؟

الجواب: تجريد قوله ﷻ: ﴿قَالَ﴾ من الفاء في سورة الأعراف يبصرنا بأن هذا النبي المكرم أدى رسالته بصورة قوية، فكان قوله: ﴿قَالَ يَقُومُ﴾ بدل من الإرسال المضمّر في قوله: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، أي: إن الله ﷻ أخبرنا أنه أرسل إلى مدين أخاهم شعيباً، ثم أخبر أن هذا النبي المعظم قام بذلك حق القيام عن طريق تفصيل قوله لقومه، فيكون قوله: ﴿قَالَ﴾ بدلاً من قوله: (أرسلنا) المضمّر في الكلام، ويكون أيضاً ثناء عليه لأنه لم يشتغل بشيء آخر، بل ركّز على الدعوة التي أرسله الله ﷻ بها. وأما قول الله ﷻ في سورة العنكبوت: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ

وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ ﴿العنكبوت: ٣٦﴾ بزيادة الفاء، فإن المقصود به أنه بأشر الدعوة بمجرد أن أُرسِل، فهذان أمران:

في سورة الأعراف ثناء عليه أنه ركز على الدعوة.

في سورة العنكبوت بيان أنه لم يتأخر في تبليغ الدعوة.

ولا أميل هنا إلى ما قرره ابن عاشور رحمه الله حينما ادعى أن تجريد الفعل ﴿قَالَ﴾ مِنَ الْفَاءِ هُنَا يَتَرَجَّحُ أَنَّهُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ كَلَامَهُ هَذَا لَيْسَ هُوَ الَّذِي فَاتَحَهُمْ بِهِ فِي ابْتِدَاءِ رِسَالَتِهِ، بَلْ هُوَ مِمَّا خَاطَبَهُمْ بِهِ بَعْدَ أَنْ دَعَاهُمْ مِرَارًا، وَبَعْدَ أَنْ آمَنَ بِهِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ^(١).

وإنما لم أذهب إلى ذلك؛ لأن أول ما يتوقع من النبي أن يقوله: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، والله جل جلاله نقل لنا كلام شعيب عليه السلام نقل من يورد تقريرًا عن مجمل ما قاله في ابتداء رسالته وفي أثنائها، فتداخل الزمان الذي قال لهم شعيب فيه هذا القول، فقال له في بداية دعوته وظل يردده عليهم.

عرفنا الركن الأول من أركان دعوة شعيب عليه السلام، وهو ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾،

فما الركن الثاني؟

الجواب:

الركن الثاني: وجود البينة الدالة على صدق رسالته، وبصرنا بذلك قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: جاءكم حجة شاهدة على صحة نبوتي قد بانَتْ في أي: ظهرت واضحة أمامكم، وأوجب عليكم الإيمان بي، والأخذ بما أمركم به والانتهاه عما أنهاكم عنه.

فأخبرنا الله جل جلاله بأن له بينة واضحة تدل على نبوته، وذلك لأن كل رسول لا بد أن يُوجد ما يشهد على صحة ادعائه أنه رسول من رب العالمين، ولكننا لا نجد تحديدًا لنوع هذه البينة القوية في القرآن الكريم، فلم يذكر ما طبيعة هذه البينة كما لم تذكر أكثر المعجزات المادية لنبينا صلوات الله عليه فيه.

(١) «التحرير والتنوير» (٨-ب/ ٢٣٩).

وقد بيّن النبي ﷺ أن البينات القوية المفحمة تأتي مع كل نبي يرسله الله ﷻ إلى البشر، ففي حديث أبي هريرة ؓ: «ما من الأنبياء نبي إلا أُوتِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ أَمِنْ عَلَيْهِ الْبَشَرُ» أي: لا بد لكل نبي من بيّنة تبين صدقه سواء أكانت عقلية أم مادية.

بصيرة: البينة هي القضية الواضحة التي يتبين بها الحق، فهي تشمل المعجزات الكونية والبراهين العقلية.

﴿قَدْ﴾: لتأكيد مجيء هذه البينة، وأنها ليست وهمًا بل هي بيّنة حقيقية.

﴿جَاءَتْكُمْ﴾: تبصّرنا هذه الكلمة أن هذه البينة جاءت من الله ﷻ إليهم، فاستعمل فعل المجيء وكأنها تتحرك متجهة إليهم تقصدهم، فهو تصوير متحرك لهذه البينة.

﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾: ثم وصف الله ﷻ بالربوبية ليزيدهم قربًا منه ورغبة فيما عنده، ومحبة له، إذ هو ربهم الذي أنعم عليهم بالتربية، بالإيجاد والإعداد والإمداد والإرشاد والإسعاد، ومن حبه الخير لهم أرسل إليهم رسولاً مؤيدًا بالبينة.

فإن قلت: ما الأقوال الواردة في تحديد هذه البينة؟

الجواب: هذه الجملة أشكلت على المفسرين ﷺ؛ إذ إن البينة تطلق في العرف القرآني على المعجزة المادية، وتطلق على آيات الوحي، ولم يذكر في مواضع أخرى معجزة خارقة خاصة بشعيب عليه السلام كما ذكرت ناقة صالح وعصا موسى ﷺ، ومن الآراء التي ذكروها في هذه البينة:

الرأي الأول: ذهب بعض المفسرين إلى أن المقصود بالبينة هنا: المعجزة المادية الخارقة للعادة، وإن لم يظهر تحديد لها، وحاول بعضهم ذكر معجزات مادية له، ولكن لم تثبت، والأهم المتقدمة ربما أذعن للبينات المادية، فيأتي النبي المرسل بها، أي بالشيء المبين، فيهمّت عند رؤيتها العالمون حوله، ويستجيب له غير المعاندين، وقد سعى موسى عليه السلام معجزاته المادية شيئاً مبيئاً فقال الله ﷻ عنه وهو يخاطب فرعون: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ [الشعراء: ٣٠-٣٢].

الرأي الثاني: بينته هي بياناته الإيمانية المدهشة التي تُصلح الواقع، وكفى بها بينة؛ حتى يتم التركيز عليها، ورجح هذا الرأي ابن عاشور رحمه الله، فقال: "والأظهرُ عندي أن يكون المراد بالبينَةِ حُجَّةً أقامها على بطلان ما هم عليه من الشرك وسوء الفعل، وعجزوا عن مُجادَلَتِهِ فيها، فقامت عليهم الحُجَّةُ مثل المُجادلة التي حُكِيت في سورة هود، فتكون البينَةُ أُطْلِقَتْ على ما يُبين صدق الدعوى، لا على خصوص خارق العادة"^(١).

الرأي الثالث: مال ابن عاشور رحمه الله إلى احتمال أن يكون أرادَ بالبينَةِ ما أشار إليه بقوله: ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ [الأعراف: ٨٧]، أي يكون أنذرهم بعذابٍ يحلُّ بهم إن لم يؤمنوا، كما قال في الآية الأخرى عنهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧] فيكون التَّغْيِيرُ بالماضي في قوله: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ﴾ مرادًا به المُسْتَقْبَلُ القريب، تليها على تحقيق وقوعه.

ولا أرى أن هذا يمكن أن يسمى بينة تقام بها الحجة على المخاطب، بل هي بينة تزيد المؤمنين إيمانًا. **الرأي الرابع:** احتمل ابن عاشور رحمه الله أيضًا أن يكون عَرَضَ عليهم أن يُظْهِرَ لهم آيةً، أي مُعْجَزَةً ليؤمنوا، فلم يسألوها وبادروا بالكذب، فيكون المعنى مثل ما حكاه الله تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [٣٥] قَالَ إِنْ كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَاتِّبِعْهَا. [الأعراف: ١٠٥، ١٠٦]، فيكون معنى: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ﴾: قَدْ أُعِدَّتْ لِنَّ تَجِئَكُمْ إِذَا كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ عِنْدَ مَجِيئِهَا^(٢).

والظاهر أن البينة هي ما أقامه من بياناته القوية العظيمة التي سمعنا خلاصاتها في الذكر الحكيم.

عرفنا الركن الثاني الذي جاء به شعيب عليه السلام في دعوته، وهو قوله: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، فما الركن الثالث؟

الجواب:

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/ ٢٤١).

(٢) «التحرير والتنوير» (٨-ب/ ٢٤١).

الركن الثالث: الإصلاح الاقتصادي: فركز شعيب عليه السلام على أهم جوانب الفساد في المجتمع بعد الشرك، وهو الفساد الاقتصادي، وبيصّرنا بذلك قول شعيب عليه السلام: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ أي: أتموا للناس حقوقهم في الكيل الذي تكيلون به، والوزن الذي تزنون به، الفاء في قوله: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ تصل ما بعدها بما قبلها بعطف تفريع لإظهار نتيجة أو تفصيل، كيف ذلك؟

أما عطف النتيجة وصلتها بما قبلها: فنعني أنه أخبرهم بركنين من أركان دعوته: أن يعبدوا الله ما لهم من إله غيره، وقد جاءتهم بينة من ربهم على هذا، فالنتيجة لهذين الركنين أن يوفوا الكيل والميزان، فذلك نوعٌ من أعظم أنواع عبادة الله جلّ جلاله، وبعض المفسرين رحمهم الله عبر عن ذلك بأن جعل الفاء رتباً على وجود الآية التي جاءتهم ذكر الأوامر والنواهي أي: ذكر التشريعات الإلهية، فكانه قال:

قد جاءتكم بينة من ربكم تدل على صدق كلامي، فنتيجة ذلك أن تعلموا أن الله جلّ جلاله أرسلني يأمركم أن تعبدوه وتوحدوه في العبادة، ومن مقتضيات عبادته أن تصلحوا في الأرض بأن توفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم.

وأما أن تكون الفاء عاطفةً عطف تفصيل وتفريع على ما قبله، فإن المعنى يكون: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، فإن أردتم أن تسألوا عن بعض أهم المظاهر العملية لعبادته، فاعلموا أنه يجب عليكم أن توفوا الكيل والميزان، فلم يذكر لهم الصلاة؛ إما لأنها كانت موجودة عندهم ولو بصورة مشوهة، وإما لأنه لا بد أن يذكرها، فالصلاة أمرٌ مشترك بين كل الأمم، وهكذا بقية التشريعات ربما ذكرها وربما لم يذكرها لسبب ما، لكنه ذكر أبرز ما أخلوا فيه بعبادة الله جلّ جلاله، وهو الفساد الاقتصادي.

هذه الجملة تبين النظام التشريعي الإصلاحي الذي جاء به شعيب عليه السلام، إذ بدأ بأبرز الأوامر التشريعية التي تقتضيها عبادة الله، فكانه قال: اجعلوا ما تُعْطُونَ بالكيل والوزن وافيًا.

وهنا يتبادر سؤال: لماذا جاء الكلام عن إصلاح النظام الاقتصادي بعد ذكر البيئة؟ فلماذا قال: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ بعد قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؟

الجواب: لأن هذا مقتضى الترتيب، فبعد إظهار حجته على أنه رسول من الله ﷻ أن الأوان ليلبغهم بفحوى الرسالة، فيجب عليهم أن يسمعوا ويطيعوا ويغيروا أنظمتهم الفاسدة لتوافق النظام الذي يريده ربهم منهم.

ولماذا قال هنا: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ وقال في سورة هود ﷻ: ﴿وَيَقُومُوا أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ [هود: ٨٥]؟ فظهر فرقان: الأول: أنه قال: الكيل هنا، وقال في سورة هود ﷻ: المكيال، والميزان، والثاني: أنه قيد ما في سورة هود ﷻ بالقسط بينما نجد أنه أطلق ذلك هنا. الجواب: يظهر أن ما قاله في سورة الأعراف كان أولاً، فأمرهم بالإيفاء مطلقاً، ثم ذكر لهم في مشهد آخر ما حكاه الله ﷻ في سورة هود ﷻ فقيد الإيفاء بالقسط.

فيكون ترتيب الخبر على النحو الآتي:

قال لهم ابتداء: فأوفوا الكيل والميزان، ثم عاد فقال لهم: فأوفوا المكيال والميزان بالقسط، وربما كان سبب ذلك لأن بعضهم احتج عليه، فقال: لعلك تريدنا أن نوفي الكيل والميزان، فنعطي الناس فوق حقهم؛ فإن ذلك معنى الإيفاء عند إطلاقه.

ويدل على ذلك حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ يتقاضاه ديناً كان عليه، فاشتد عليه، حتى قال له: أخرج عليك إلا قضيتني، فأنتهره أصحابه، وقالوا: ويحك تدري من تكلم؟ قال: إني أطلب حقي، فقال النبي ﷺ: «هلاً مع صاحب الحق كُنْتُمْ؟»، ثم أرسل إلى حوالة بنت قيس -لاحظ إلى امرأة ليعين تنوع النماذج العظيمة من الصحابة بين الرجال والنساء- فقال لها: «إن كان عندك تمر فأقْرِضِينَا حتى يأتينا تمرنا فنقضيك»، فقالت: نعم، يا بني أنت يا رسول الله، قال: فأقرضته، فقضى الأعرابي وأطعمه -أي زاده فوق قرضه-، فقال: أوفيت، أوفى الله لك، فقال: «أولئك خيار الناس، إنه لا قِدَست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير مُتَعَتِعٍ»^(١).

(١) يلفت نظرنا -من حيث الحفظ- أن كلاً من هاتين الآيتين أخذتا الرقم نفسه في السورتين في العدد الكوفي.

(٢) ابن ماجه (٢٤٢٦). وقال البوصيري في "مصباح الزجاجة" (٦٨/٣): «هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ رَجَالُهُ ثِقَاتٌ»، وقال الأرناؤوط: "إسناده صحيح".

وفي سورة هود **الْكَيْلُ** أخبرهم أنهم لا يظلمون ولا يُظلمون، وأن المطلوب منهم هو أن يكون الإيفاء بالقسط، فليس المطلوب منهم أن يزيدوا الإنسان فوق حقه كما فعل النبي ﷺ هنا، فانظر لهذا الجمال في المشاهد القرآنية المتعددة.

ما الفرق بين الكيل والميزان؟

الجواب: كلاهما من أدوات القياس، لكن يختلف المقيس، فالْكَيْلُ^(١) تقدير الأشياء بحجومها كما في كيل الطعام، فتنظر إلى الحجم لا إلى الثقل، ومنه يُقَالُ: كُلتُ فُلَانًا أَي: أَعْطَيْتُهُ، وَاكْتَلْتُ عَلَيْهِ أَي: أَخَذْتُ مِنْهُ. قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۚ ۝١١ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝١٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾ [المطففين: ١-٣]، ولعل منه: كَالِ الرَّئِدُ يَكِيلُ؛ إِذَا لَمْ يُخْرِجْ نَارًا، إِذَا حَاوَلَ أَنْ يَجِيشَ النَّارَ، فلم يفلح، ولعل منه: الْكَيْوُلُ لأنه يمثل مُوَحَّرُ الصَّفِّ فِي الْحَرْبِ كأنه يمثل حد الكيل كأنك تنظر فيه ما يصنع غيرك، قَالَ أَبُو دَجَانَةَ:

إِنِّي امْرُؤٌ عَاهَدَنِي خَلِيلِي
أَلَّا أَقَوْمَ الدَّهْرَ فِي الْكَيْوُلِ^(٢)

وأما الوزن^(٣) فهو: تقدير الأشياء بنقلها أو بكتلتها للوصول إلى قدر المستقيم الدقيق لهذا الشيء، فالوزن: معرفة قدر الشيء، يقال: وَزَنْتُهُ وَزَنًا وَزَنَةً، ومن ذلك قولهم قَامَ مِيزَانُ النَّهَارِ، إِذَا انْتَصَفَ النَّهَارُ حين يعادل ما بعده ما قبله، وَهَذَا يُوَازِنُ ذَلِكَ، أَي: هُوَ مُحَازِيهِ، وَوَزِنَ الرَّأْيَ: مُعْتَدِلُهُ. وَهُوَ رَاجِعُ الْوُزْنِ، إِذَا نَسَبُوهُ إِلَى رَجَاحَةِ الرَّأْيِ وَشِدَّةِ الْعَقْلِ. وهو يقدر بالقسط والقبان.

فذكر لهم شعيب **الْكَيْلُ** الكيل والميزان معًا لينبههم أنهم يجب عليهم الإيفاء بحسب المعاملة أو حسب ما جعلوه سبيلًا للعدل، فإن كان السبيل هو الكيل فيجب الإيفاء فيه، وإن كان السبيل الميزان فيجب الإيفاء فيه.

ومثل ذلك: المناقصات التي تكلف مليارات أحيانًا مقابل تنفيذ مشاريع، فيجب الإيفاء فيها، فالعقود إما أن تكون على مكيل، وإما أن تكون على وزن، ويلحق بهما بصورة ظاهرة أن يكون العقد

(١) مقاييس اللغة (٥/١٥٠). مفردات الراغب الأصفهاني (ص ٤٤٤).

(٢) الرجز لأبي دجانه دجانه سِمَاك بن خرشة في لسان العرب (١١/٦٠٦): ولعلي بن أبي طالب في المخصص (٣/١٦٦): ولبعض الصحابة

في معجم ديوان الأدب (٣/٣٦١): وبلا نسبة في مراجع أخرى

(٣) مقاييس اللغة (٦/١٠٧). مفردات الراغب الأصفهاني (ص: ٥٢٢). لسان العرب (١٣/٤٤٧).

على مال مقابل تنفيذ مشروع محدد بمواصفات معينة، فهذا وزن: توزن الأموال بالمشروع المطلوب تنفيذه وزناً معنوياً واضحاً.

والقسط هو النصيب المحدد الذي يستحقه كل واحد، ومنه قوله ﷻ: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الشعراء: ١٨٢]، وقوله ﷻ: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ [الرحمن: ٩]، وفي ذلك إشارة إلى مراعاة وتحري العدل في جميع ما يعمله الإنسان من الأفعال والأقوال.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف: ١٠٥] أي: قدراً؛ لِحِسَّتِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَأُثْبِتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونَ﴾ [الحجر: ١٩] قيل: هو المعادن والذهب، وقيل: بل إشارة إلى كل ما أوجده الله تعالى وأنه خلقه باعتدال.

وفي تدبرنا ينبغي أن نتساءل: ما الحكمة من التعبير هنا بـ: ﴿الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ﴾، ولم يقل: المكيال والميزان، كما في سورة هود ﷻ، أو: (الكيل والوزن)؟

الجواب: عندما قال شعيب ﷺ ذلك فإنه عني أن الكيل: هو فعل الاكتيال، وأما آتته فتسمى: المكيال، وقال بعضهم: الكيل تسمية أخرى للمكيال كالميزان، فسعى ما يُكال به بالكيل، كما قيل: العيش، لما يعاش به، أي: فأوفوا الكيل الذي تكيلون به، وأوفوا الميزان الذي تزنون به، ولا تتلاعبوا به نقصاً واحتياجاً.

ويدخل في هذا المعنى: فأوفوا الكيل الذي تقدمونه للناس، وهو المقدار الذي يكون في المكيال، وأوفوا الميزان الذي تزنون به للناس، وفرق بينهما لأن الخلل في الكيل يكون بالتلاعب في المقدار الذي يكون في المكيال لا في المكيال نفسه، وأما الخلل في الميزان فهو في نفس الآلة؛ إذ يتم التلاعب بها مسبقاً، فيوهم المتعامل مشترياً أو بائعاً أنه قد أخذ كامل حقه، والحقيقة الخفية أن الميزان أي آلة الوزن قد تم التلاعب بها بصورة من الصور.

عرفنا الركن الثالث من أركان دعوة نبي الله شعيب ﷺ، وهو الإصلاح الاقتصادي الذي عبر

عنه بقوله: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾، فما الركن الرابع؟

الجواب:

الركن الرابع: الإصلاح الإداري والحقوقي مما يؤدي إلى حفظ نظام الأمة، فقال: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥] أي: ولا تظلموا الناس حقوقهم، فلا تنقصوهم إياها لا في أقدارهم، ولا في ممتلكاتهم.

وقد تسأل: ما معنى البخس في قوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾؟ وما وجه قوة هذه الكلمة وجمالها في التصوير القرآني؟

الجواب: الْبَخْسُ^(١) كلمة تصف الواقع الإجرامي لحضارة مَدِين بدقة، إذ إنها تعني: النقص من أصل الشيء، أو ما يكون في العادة موجوداً على سبيل الإقناع بأن الموجود كافٍ، مع أنه يستحق أعلى من ذلك، فهو نقص الشيء على سبيل الظلم، ومن ذلك الْبَخْسُ: فقء العين بالإصبع وغيرها، والبخس أرض تنبت من غير سقي أي ما لم يُسَقَّ بماء عدّ.. إنما سقاه ماء السماء، فنقص في العادة عما تحتاجه الأرض، وجمعه: بُخُوسٌ.

وقد قال قتادة رحمته الله في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥، هود: ٨٥، الشعراء: ١٨٣]: لا تظلموا الناس أشياءهم.

وبذلك يظهر لنا أن البخس: إنقاصٌ على سبيل الظلم من حق الشيء كأنه أُخِذَ من أساسه وأصله، أو ما يكون في العادة موجوداً، كالعين تكون في العادة موجودة في الإنسان فيبخسها أحدهم بأن يفقأها.

وذهب العسكري إلى التفريق بين البخس والنقص، فالفرق عنده أن البخس هو النَّقْصُ بالظلم، بينما يكون النَّقْصَانُ بالظلم وَغَيْرِهِ^(٢).

وبذلك فهمنا أن الملاً المستكبرين في مدين كانوا يتلاعبون بحقوق الناس، فيشترون بأقل الأثمان، ويبيعون بأعلاها سواء مع عامة قومهم أو مع غيرهم ممن يأتي إلى دولتهم، وكانوا ينقصون من قدر الإنسان حتى لا ينال مكانته، ولا يأخذ حظه من الحياة، وأقرب ما يبين لك هذا البخس المجرم ما قيل من أن فرنسا تشتري اليورانيوم من النيجر بـ ٨٠ سنناً، وحقه ٢٠٠ دولاراً!

(١) ينظر: العين (٢٠٤/٤)، مقاييس اللغة (٢٠٥/١)، المعجم الاشتقاقى الموصول (٧٨/١).

(٢) الفروق اللغوية للعسكري (ص: ١٧٩).

انظر لهذا البخس الذي لا يتصوره أحد، وتصوّر ما تأخذه الشركات الأجنبية هذه الأيام في بلاد كاليمن من النفط والغاز حيث يوقع العقود العملاء والخونة بأبخس الأثمان ودون أدنى التزام بمعايير السلامة، أو التوزيع لعائدات تلك الثروة على أصحابها اليمنيين كما أثبت برنامج توثيقي فرنسي عن عبث شركة (توتال) بثروات اليمنيين، ودفعها للسموم في أرض اليمن مكافأة لليمنيين على السرقات التي ترتكبها هذه الشركة بحقهم.

فانظر كيف تصور هذه الآية الواقع الحاضر الحديث مع أن كلامها عن الواقع القديم.

وإليك بعض وسائل البخس:

(١) يبين ابن العربي رحمه الله أن البخس يكون بالنقص بالتعيب^(١)، أي: أن يعيب الإنسان سلعة ليأخذها بأقل من حقها، ويدخل في ذلك المشتري لأقل السلع أو لأكبرها، أو النقص بالتعيب للخطيب، فيخطب خطيب الجمعة مثلاً مجتهداً، ويقع في خطأ أو خطأين، فلا يذكر أحد الحاضرين إلا الخطأ وينسى كل الخير الذي سمعه، فإذا كان هذا بخساً، فما بالك بالبخس في الثروات العامة كالقمح والبتروال والغاز، وصفقات البنية الأساسية، والأحجار الكريمة، والمواد الأولية، والسّمك، ومن ذلك التعيب لأعظم الثروات: الإسلام، فإنه أعظم ثروات البشر، وتعيب الثروة البشرية، فبدلاً من مدح كثرة السكان تسمع من يذمها، ويحذر من الانفجار السكاني مع أن كثرة السكان من أعظم وسائل التقدم البشري لو أحسن إدارتها، فالعيب في الإدارة لا في هذه الثروة المباركة، ومن ذلك ذم شعوب بعينها كما تسمع هذه الأيام من ذم الشعوب العربية ومدح المغتصبين المجرمين الذي سرقوا الأرض والثروة في فلسطين.

فانظر كيف حوت هذه الكلمات ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ كل هذه المعاني.

(٢) البخس يكون أيضاً بالتزهيد، أو المخادعة عن القيمة، أو الإحتيال في التزديد في الكيل والنقصان منه^(٢).

(١) أحكام القرآن، لابن العربي، (٣١٨/٢).

(٢) أحكام القرآن، لابن العربي، (٣١٨/٢).

٣) وبنى ابن عاشور رحمته (١) على ذلك، فقال: "البَخْسُ هو إنقاصُ شَيْءٍ مِنْ صِفَةٍ أَوْ مِقْدَارٍ هو حَقِيقٌ بِكَمَالٍ فِي نَوْعِهِ. فَفِيهِ مَعْنَى الظُّلْمِ وَالتَّحِيلِ... فالبَخْسُ حَدَثٌ يَتَصِفُ بِهِ فَاعِلٌ وَلَيْسَ صِفَةً لِلشَّيْءِ الْمَبْخُوسِ فِي ذَاتِهِ، إِلَّا بِمَعْنَى الْوَصْفِ بِالْمَصْدَرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَشَرُّهُ يَتَمَنَّى بَخْسًا﴾ أيوسف: ٢٠. أَي: دُونَ قِيَمَةِ أَمثَالِهِ، أَي: تَسَاهَلَ بِإِعْوَاهُ فِي ثَمَنِهِ لِأَنَّهُمْ حَصَلُوهُ بِغَيْرِ عَوَضٍ وَلَا كُلْفَةٍ".

٤) والبخس قد يكون في الكمية، وقد يكون في الكيفية، وغاية الباخس من البخس أن ينتفع بالسلعة بأقل من سعرها، ويأخذ حقوق الناس بأقل من أثمانها الحقيقية، وأن يتلاعب بعقول الناس، فيوهمهم بقيمة دون القيمة الحقيقية لتلك السلعة بينما هو راغب فيها، فإن صرف الناس عنها اشتراها الباخس بثمان زهيد.

هنا تلاحظ أن كلمة ﴿بَخْسًا﴾ تتعدى إلى مفعول واحد كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَبْخَسُ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فالمفعول هنا كلمة ﴿شَيْئًا﴾، وتعدى هذا الفعل إلى مفعولين هنا، إذ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾، فكلمة ﴿النَّاسَ﴾ مفعول أول، وكلمة ﴿أَشْيَاءَهُمْ﴾ مفعول ثانٍ، فلماذا؟

الجواب: هذا التعدي لمفعولين حقق لنا وظيفة عظيمة، فكان الله تعالى قال: ولا تبخسوا الناس أي: لا تنقصوهم حقوقهم وأحوالهم وشخصياتهم ومقاديرهم ومكاناتهم بأي وسيلة كانت، ثم فصل المقصود من بخس الناس بقوله: ﴿أَشْيَاءَهُمْ﴾.

وقرر ابن عاشور رحمته أن قاعدة هذا الأسلوب أن يقصد "التَّحْوِيلُ لِتَخْصِيلِ الْإِجْمَالِ، ثُمَّ التَّفْصِيلُ، وَأَصْلُ الْكَلَامِ: وَلَا تَبْخَسُوا أَشْيَاءَ النَّاسِ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿أَشْيَاءَهُمْ﴾، بَدَلًا اشْتِمَالًا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿النَّاسَ﴾" (٢)، ففي البداية أجمل، ثم فصل ما يستحق الاهتمام بصورة أكبر.

فدخل في كلمة ﴿أَشْيَاءَهُمْ﴾ كل شيء يتعلق بهم سواء أكان معنويًا أم ماديًا، وسواء كان فرديًا أم جماعيًا، فقد يذم الإنسان شخصًا، فيبخسه، وقد يذم مجموعة من الناس أو الدول، فيبخسها،

(١) التحرير والتنوير، (٨/٢٤٢).

(٢) التحرير والتنوير، (٨/٢٤٣).

وقد یذم ثروة كأن يقال: ماذا يوجد في السودان أو في أفريقيا حتى تتعامل معها الدول والحكومات على أساس المساواة والندية؟ وهكذا ما نسمعه عن بعض الدول العربية التي نكبتها العالم، وكذلك ما نسمعه عند المقارنة بين المغتصبين في فلسطين والشعب الفلسطيني، حيث تسمع بعض الناس يذمون الفلسطينيين، ويمدحون المجرمين المغتصبين.

وهنا نتساءل: لماذا قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾؟

لأنهم كانوا يبخسون الناس في كل شيء في مبيعاتهم، وزراعتهم وأبنيتهم، فكانوا مكاسين لا يدعون شيئاً إلا مكسوه، وقد ذكر المؤرخون أنهم كانوا إذا دخل الغريب بلدهم أخذوا دراهمه الجياد، وقالوا: هي زيوف، ثم أخذوها بنقصان ظاهر، أو أعطوه بدلها زيوفاً.

وفصل محمد رشيد رضا أشياء كثيرة تقدمها لنا هذه الجملة، فقال ﷻ: "وجملة ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ تُشعر بأنهم كانوا يتواطؤون على هضم الغريب وبخسه، وإن كانت تشمل بخس الأفراد بعضهم أشياء بعض، وهضم الشعب في جملة أشياء الغرباء الذين يُعامِلُونهم، وهذه النقيصة فاشية بين الأمم والشعوب في هذا العصر، فتجد بعضهم يذم بعضاً، ويُكرِّر فضله كالأفراد، وترى التجار في عواصم أوربة يُغالون من الأسعار للغرباء ما يُرخِّصون لأهل البلاد، وترى بعض الغرباء -يعني بريطانيا أيام احتلالها لمصر- يستحلون من نهب أموال المصريين بضروب الحيل والتليس ما لا يستحلون مثله في معاملة أبناء جلدتهم، وأما المصريون وأمثالهم من الشرقيين فهم في معاملة الإفرنج، كما قال الشاعر:

لَكِن قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي عَدَدٍ لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَانًا^(١)

وَيَا لَيْتَهُمْ يُعَامِلُونَ أَنْفُسَهُمْ وَمَنْ تَجَمَّعُهُمْ مَعَهُمْ أَقْوَى الْمُقَوِّمَاتِ هَذِهِ الْمُعَامَلَةُ، بَلْ يَكْثُرُ فِيهِمْ مَنْ يَبْخَسُونَ أَبْنَاءَ قَوْمِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ أَشْيَاءَهُمْ وَيَهْضُمُونَ حُقُوقَهُمْ، وَيُعْظِمُونَ الْأَجَنِّيَّ وَيُعْطُونَهُ فَوْقَ حَقِّهِ.

(١) البيتان لقريط بن أنيف العنبري. يُنظر: شرح كتاب الحماسة، للفارسي (٧٨/٢).

وَأَنَّمَا اسْتَدْلَاهُمْ لِلْأَجَانِبِ حُكَّامُهُمْ، فَهُمْ فِي جُمْلَتِهِمْ مَبْخُوسُونَ لَا بَاخِسُونَ، وَمَطْلُومُونَ لَا ظَالِمُونَ، وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ مَذْمُومُونَ لَا مَحْمُودُونَ، وَمَكْفُورُونَ لَا مَشْكُورُونَ^(١).

لماذا نهاهم عن بخش الناس هكذا بالجمع، ولم يقل: ولا تبخسوا إنساناً ما عنده؟

يُظْهِرُ الْبَقَايَ ﷺ أَنَّ نَهْيَهُ ﷺ عَنْ بَخْسِ الْجَمْعِ الَّذِينَ فِيهِمْ قُوَّةُ الْمَدَافَعَةِ نَهْيٌ عَنْ بَخْسِ الْوَاحِدِ مِنْ بَابِ الْأُخْرَى؛ لِأَنَّ الشَّرَائِعَ إِنَّمَا جَاءَتْ بِتَقْوِينَةِ الضَّعِيفِ عَلَى حَقِّهِ^(٢).

وقد يعترك تساؤل: لماذا نهاهم عن البخس، مع أنه لما أمرهم بأن يوفوا الكيل والميزان يشمل ذلك كل شيء؟ فما سبب النهي عن البخس بعد ذلك؟

إيفاء الكيل والميزان تقرير للإصلاح الاقتصادي، و﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ بيان لضرورة الإصلاح الإداري والحقوقى، كما أن الْبَخْسَ -كما يقرر رشيد رضا ﷺ- أَعَمُّ مِنْ نَقْصِ الْمَكِيلِ وَالْمُوزُونِ فَإِنَّهُ يَشْمَلُ غَيْرَهُمَا مِنَ الْمَبِيعَاتِ كَالْمَوَاشِي وَالْمَعْدُونَاتِ وَيَشْمَلُ الْبَخْسَ فِي الْمَسَاوِمَةِ وَالْغِشِّ وَالْجِيلِ الَّذِي تُنْتَقَصُ بِهَا الْحُقُوقُ، وَكَذَا بَخْسُ الْحُقُوقِ الْمَعْنَوِيَّةِ كَالْعُلُومِ وَالْفَضَائِلِ، وَكُلُّ مِنَ الْبَخْسَيْنِ فَاشٍ فِي هَذَا الزَّمَانِ، فَأَكْثَرُ التُّجَّارِ بَاخِسُونَ مُطَقَّفُونَ مُخْسِرُونَ، فِيمَا يَبِيعُونَ وَفِيمَا يَشْتَرُونَ وَأَكْثَرُ الْمُشْتَغِلِينَ بِالْعِلْمِ وَالْأَدَبِ وَكُتَّابِ السِّيَاسَةِ بَخَّاسُونَ لِحُقُوقِ صِنْفِهِمْ، وَنَفَّاجُونَ فِيمَا يَدْعُونَ لِأَنْفُسِهِمْ، يَتَشَبَّعُونَ بِمَا لَمْ يُعْطُوا كَلَابِسِ ثَوْبِي زُورٍ، وَيُنْكِرُونَ عَلَى غَيْرِهِمْ مَا أَعْطَاهُ اللَّهُ بِبَاعِثِ الْبَغْيِ وَالْحَسَدِ وَالْغُرُورِ^(٣).

لماذا جمع شعيب عليه السلام بين هذين المعلمين الإصلاحيين الكبيرين:

الأول: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾، والثاني: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥]؟

الجواب: هذان المعلمان الإصلاحيان الكبيران بداية للنهضة الاقتصادية التنموية الشاملة العادلة التي يستفيد منها الجميع، وليس فئة محدودة من الأثرياء الذين يزدادون ثراءً، فالجمع بين هذين المعلمين جمع بين الإصلاح الاقتصادي في قوله: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ والإصلاح الإداري

(١) تفسير المنار، (٤٦٩/٨).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٤٦٠ / ٧).

(٣) تفسير المنار (٤٦٩ / ٨).

والحقوقي في قوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾، فالنهي عن البخس يشمل الأمور المعنوية والمادية، فيمدح الإنسان عندما تكون له موهبة أو تمكّن أو بروز في اختراع أو خطابة أو حركة أو بناء أو زراعة أو هندسة أو إعلام أو إدارة أو غير ذلك، ويُعطى كل ذي حق حقه بناءً على الجمع بين ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾، فكما ترى هنا أن شعبيًا عليه السلام وازن بين حفظ حقوق المشتري وحقوق البائع.

بصيرة: هذان المعلمان يعدان أهم التشريعات التي تزرع الثقة والاستقرار الاقتصادي في المجتمع، كما تزرع الثقة في الأسواق العالمية، وتؤدي إلى العدالة في التعامل مع الدول الأخرى.

ماذا يعني ذلك؟

إنه يعني التعاون العظيم بين دول العالم، والتنمية والرفاهية لكل منهم؛ إذ تروّج المنتجات، ويتم تبادل السلع والأفكار، فتربو الأرض، وتُنفذ من ذلك كله جميع الفئات.

وأشار ابن عاشور رحمته الله إلى هذه المعالم التنظيمية الكبيرة التي وفق الله عليه السلام لها شعبيًا عليه السلام، فقال: "وحاصل ما أمر به شعيب عليه السلام قومه، بعد الأمر بالتوحيد، يُنحصر في ثلاثة أصول: هي حفظ حقوق المعاملة المالية، وحفظ نظام الأمة ومصالحها، وحفظ حقوق حرية الاستهداء. فالأول قوله: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾، فإيفاء الكيل والميزان يرجع إلى حفظ حقوق المشتري، لأن الكائِل أو الوازن هو البائع، وهو الذي يحمله حب الاستفضال على تطفيف الكيل أو الوزن، ليكون باع الشيء ناقص بثمن الشيء الوافي، كما يحسبه المشتري. وأمّا النهي عن بخس الناس أشياءهم فيرجع إلى حفظ حقوق البائع؛ لأن المشتري هو الذي يبخس شيء البائع ليبيته لقبول الغبن في ثمن شيء، وكلا هذين الأمرين حيلة وخداع لتحصيل ربح من المال" ^(١).

(١) التحرير والتنوير، (٨/ب/٢٤٣).

والذي يظهر لي أن قوله: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أوسع من فكرة البيع والشراء، وإن كان البيع والشراء يدخل فيها دخولاً أولياً لكن هذه الكلمات تتسع حتى لحق الاختراع، أو لحق المال المحدود، فعلى سبيل المثال: لو قام مزارع أو مهندس بتقديم فكرة محددة لزيادة المال، وكانت الفكرة في محلها، وجب أن يعطى حقه في ذلك من الاهتمام والرعاية والمتابعة والعناية، وكذلك إن كانت الثروة الزراعية مثلاً تتسم بها جهة أو بلد، والثروة النفطية مثلاً توجد في بلد آخر، والثروة السمكية في بلد ثالث، والثروة البشرية في بلد رابع فينبغي ألا نبخس الناس أشياءهم. فما بالك بمن لا يكتفي ببخس الناس بل يغزوهم ويسيطر على ثرواتهم، ويقتل أبناءهم، ويتحكم في حياتهم كما يفعله القرامطة القدامى والجدد والمحتلون للبلدان، ورسد الدجال في العالم، والشركات عابرة القارات التي تمتص الثروات وتثير الفتن والتزاعات؟!

وهنا نتساءل متدبرين:

إذا كان الركن الرابع قد تناول: حفظ نظام الأمة وحقوقها كما يبصرنا به قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾، فما الركن الخامس من أركان دعوة شعيب عليه السلام؟

الجواب:

الركن الخامس: المحافظة على صلاح البيئة وإصلاحها، ويبصرنا بذلك قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥]، وذلك يعني إصلاح الأوضاع في الأرض إنساناً ومكاناً وأنظمة.

وإنك والله لتجد هذه الدعوة من أعظم ما يجذبك إلى الإسلام، ويبين لك ضلال المجرمين المعادين للإسلام من المنافقين وأسيادهم، وحتى تتصور ذلك اسمع إلى المعنى الإجمالي لهذه الكلمات: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾:

إن كان المعتدون المفسدون في الأرض يعتدون على الأطفال والنساء والرجال والمباني، ويدمرون حتى المستشفيات فإن الله ﷻ مقابل ذلك يأمرنا بالمحافظة حتى على التراب، ويبين لنا أنه خلق الأرض بيئة مناسبة لنا، فإذا كان يأمرنا بالمحافظة على الأرض، وينهانا أن نفسد فيها، فكيف يكون الأمر بالنسبة للمحافظة على الإنسان نفسه؟

بصيرة: انظر جمال الاتصال:

فقوله تعالى: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ يتعلق بالإصلاح الاقتصادي.
وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ يتعلق بالإصلاح الإداري والحقوقي.
وكلاهما يتعلقان بالإنسان.
وهنا جاء ما يتعلق ببيئة الإنسان: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾.

وتلاحظ الاتصال الوثيق الرائع لهذه الدعوة الشيعية في إصلاح الأرض في الآية (٨٥) بالتوجيه الإلهي لأمة محمد ﷺ وللعالم في هذه السورة حين قال الله ﷻ من قبل: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، وهنا يبدو لك جمال الإسلام، وعظمته.

والآن تعال إلى هذا التركيب الجميل: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾، ما معناه؟

الجواب: الإفساد في الأرض نوعان كبيران: إفساد أهلها، وإفساد بيئتها:

الإفساد الأول للأرض: الإفساد في الأرض بإفساد أهلها، وهذا يعني أن إصلاحها لا يتم إلا بإصلاح أهلها على حذف المضاف، وكيف يُفسد أهل الأرض؟

بإفساد عقول أهلها، ويتحقق ذلك بثلاثة أمور كبيرة ذكرها الله في هذه السورة في قوله: ﴿أَنْ لَّعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفِرُونَ [الأعراف: ٤٤-٤٥]، فيحاول هؤلاء المفسدون أن يغيروا معالم الإيمان، ويدمروا الفكر القويم، ويدخل في إفساد أهل الأرض إفساد أجسادهم باضطهادهم وتدمير كرامتهم، واستعبادهم، أو نشر الأفكار السامة بينهم، كفكرة شعب الله المختار، أو فكرة الشيوعية أو الإباحية، أو بنشر المخدرات والمسكرات التي تدمر الحياة، وكذلك يدخل في إفساد الأرض: إفساد بيئتها الصالحة الغنية بتدمير خيراتها البرية والبحرية، والإسراف في استعمال بعض مواردها لإنهاء مواردها الأخرى مثل التخریب المناخي والبيئي.

ومن أعظم الإفساد: إشاعة المعاصي الخاصة والعامة، ونشر الفاحشة في العالم، وإقامة المسابقات والحوافز والجوائز لنشرها، وجعل الجمهور يُقبل عليها، ويدخل في المفسدين في الأرض

العشَّارون الذين يفرضون الضرائب الهائلة دون سبب، والمرابون، والمطففون، ومن الإفساد لأهل الأرض: نشر الرشوات، وبيع الحكم، وتنصيب أسفه الولاة والمسؤولين.

ويدخل في الإفساد في الأرض: إثارة النزعات والعصبية القبلية والمناطقية والحزبية والعنصرية، وتحويل النزعات إلى نزاعات، وحروب، وتكوين مليشيات مع كل طرف لإيجاد الحروب الأهلية.

الإفساد الثاني للأرض: إفساد بيئتها ومناخها وطبيعتها التي خلقها الله ﷻ عليها، ووضع لها القوانين التي تصلحها. ويرى محمد رشيد رضا رحمه الله أن الإفساد في الأرض يشمل إفساد نظام الاجتماع البشري بالظلم وأكل أموال الناس بالباطل والبغى والغدوان على الأنفس والأعراض، وإفساد الأخلاق والآداب بالإثم والفواحش الظاهرة والباطنة، وإفساد العمران بالجهل وعدم النظام^(١).

وهنا نتساءل متدبرين: لماذا قال الله ﷻ: ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾؟

الجواب: لأن الله ﷻ قد خلق لنا الأرض صالحة على أحسن الوجوه، إذ بين أن لنا المكانة والإمكانية للاستفادة منها كما قال ﷻ في أول هذه السورة: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠]، وهذا أبلغ رد على الذين يزعمون أن موارد الأرض محدودة، ولجشعهم وطمعهم يرون أنه ينبغي عليهم أن يستأثروا بمواردها وحدهم دون سائر الخلق المستحقين لها من الفقراء والمساكين، وربما دون أصحاب الأراضي المخصصة حيث يغزو العالم الأول المجرم العالم الثالث المسالم، وهاتان الكلمتان: ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ تظهران لنا أن الله ﷻ هياً الأرض بعمليات إصلاح ضخمة عظيمة ترجع إلى نوعين: عمليات إصلاح بيئية، وعمليات تنظيمية لها:

النوع الأول: عمليات الإصلاح البيئية للأرض، إذ حدثنا الله ﷻ عنها فقال عن إصلاحها لتكون مهينة لحياة البشر فيها في حركاتهم وأزاقهم: ﴿قُلْ أَبْنِئْكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [٩] وجعل فيها رواسي من فوقها وبرك فيها وقدر فيها

(١) تفسير المنار (٨/ ٤٦٩).

أَقْوَتْهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْسَّالِيَيْنِ ﴿١٠﴾ [فصلت: ٩، ١٠]، فمهما بلغ سكان الأرض من عدد فإن أقواتهم مضمونة فيها لو ترك المفسدون إفسادهم، أو منعهم الصالحون من الإفساد فيها.

وقال عن عمليات الإصلاح الأولى لها؛ ليطمئن بها البشر مهما بلغ عددهم، بل ولتتمتع بها أنعامهم: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَلَهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَلَهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلَا نَعْمِيَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات: ٣٠-٣٣].

وقال عن عمليات إصلاحها ليظهر جمالها وبهاؤها وتنوعها: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُثْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَواسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النمل: ٦٠، ٦١].

النوع الثاني: عمليات الإصلاح التنظيمية للأرض، حيث تمت عن طريق الرسل والأنبياء الذي أشاعوا أعظم أوجه الرشد في الأرض، ويكون المعنى:

أي: لا تفسدوا فيها بعد ما أصلح فيها الصالحون من الأنبياء وأتباعهم العاملين بشرائعهم.

وقال رشيد رضا رحمته الله عن هذا النوع من الإصلاح: وَإِصْلَاحُهَا هُوَ مَا يَصْلُحُ بِهِ أَمْرُهَا وَحَالُ أَهْلِهَا مِنَ الْعَقَائِدِ الصَّحِيحَةِ الْمُنَافِقَةِ لِحُرَافَاتِ الشُّرْكِ وَمَمَانَتِهِ، وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الْمُزَكِّيَةِ لِلْأَنْفُسِ مِنْ أَذْرَانِ الرَّذَائِلِ، وَالْأَعْمَالِ الْفَنِيَّةِ الْمُرْقِيَّةِ لِلْعُمُرَانِ وَحُسْنِ الْمَعِيشَةِ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي أَوَائِلِ هَذِهِ السُّورَةِ: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأعراف: ١٠]، فَقَدْ أَصْلَحَ اللَّهُ تَعَالَى حَالَ الْبَشَرِ بِنِظَامِ الْفِطْرَةِ وَكَمَالِ الْخَلْقَةِ، وَمَكَّنَهُمْ مِنْ إِصْلَاحِ الْأَرْضِ بِمَا آتَاهُمْ مِنَ الْقُوَى الْعَقْلِيَّةِ وَالْجَوَارِحِ، وَبِمَا أَوْدَعَ فِي خَلْقِ الْأَرْضِ مِنَ السَّنَنِ الْحَكِيمَةِ، وَبِمَا بَعَثَ بِهِ الرُّسُلَ مِنْ مُكَمَّلَاتِ الْفِطْرَةِ، فَالْإِفْسَادُ إِزَالَةُ صَالِحٍ أَوْ إِصْلَاحٌ ^(١).

وهنا نتساءل متدبرين: إذا كان الركن الخامس من أركان الإصلاح الإسلامي التي دعا إليها شعيب عليه السلام هو: المحافظة على صلاح البيئة وإصلاحها، فما الركن السادس؟

(١) تفسير المنار (٨/ ٤٧٠).

الجواب:

الركن السادس: تغذية الشعور بأن هذه التعاليم العظيمة لها أهميتها في حياتهم الفردية والجماعية، وهذا يحفزهم لتطبيق الأركان الخمسة السابقة، فهو خير لهم في الحياة الدنيا والآخرة، ويبصرنا بذلك قوله: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

ربما تسأل: إلى ماذا يرجع اسم الإشارة في قوله: ﴿ذَلِكُمْ﴾؟ ومن المخاطب في قوله: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؟

الجواب: يرجع إلى جميع ما تقدم من معالم الإصلاح النبوية الإسلامية التي قام بها شعيب عليه السلام، ولذلك جمع كلمة ﴿ذَلِكُمْ﴾ ولم يفردا؛ وذلك لأن ما ذكره مجموعة من الأركان خاطب بها عدداً كبيراً من الناس، وتوجه شعيب عليه السلام بالخطاب إلى جميع من أمامه: فأما المؤمنون فليطبقوا مقتضيات إيمانهم، وليكملوا إيمانهم بالتشريعات التي يفرضها عليهم إيمانهم.

وأما الكافرون فليبدلهم على أهم الأمور التي تنظم حياتهم، ويكُونُوا بها الإدارة الراشدة في مجتمعاتهم.

لقد أخبرهم بضرورة الإصلاح العقدي الإيماني بأن يعبدوا الله تعالى ويوحده في هذه العبادة، فقال: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وأخبرهم بضرورة التسليم للحجج القوية المقنعة مادية كانت أم معنوية، فقال: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وأخبرهم بضرورة الإصلاح الاقتصادي: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الأعراف: ٨٥].
وأخبرهم بضرورة العدل العام، وإعطاء الحقوق لأهلها: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وأخبرهم بجريمة الإفساد في الأرض، وقد أصلحها الله للذرية الآدمية: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥].

فهذه أسس الإصلاح الكبرى، والاستقامة عليها خير للمؤمنين كما هو خير للكافرين، ولكن هذه الخيرية لا تتحقق إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد، وكأنَّ هذه الأنواع العظيمة من الإصلاح من أدلة عظمة الإيمان.

قال شعيب عليه السلام: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فما وجه الخيرية التي تكلم عنها شعيب عليه السلام؟

الجواب: أي: ما أرشدتكم إليه خير لكم، فهو الذي يحقق لكم كل ما تطلبون من المكاسب المادية والعقلية والنفسية والشهوانية والروحية في الحياة العاجلة والحياة الآخرة، هو خَيْرٌ لَّكُمْ في الواقع الإنساني، وهو خير لكم في بقاء الذِّكر، وحسن السمعة، وطيب الأحدث، وهو خير لكم في تحقيق ما تطلبونه من الغنى والتكسب والتريح، نعم هو تقييد لأطماعكم، لكن هذا التقييد يعود بالنفع عليكم، فإذا أُبَيِّمَ إلا التجارة وفق الخداع والمكر فسيأتي من هو أكثر منكم قدرة على الخداع والمكر، فيمكر بكم كما مكرتم بالناس.

فالناس سيرغبون في تبادل التجارة العادلة معكم، إذا عرفوا منكم الأمانة والعدل في التعامل، فتبقى الأرباح في رفعة وازدياد، أليس ذلك خيراً من ربح كبيرٍ مؤقت؟
إنَّ الخيرية تظهر بصورة واضحة فيما قرره لهم من تشريعات عادلة مدهشة تعود بأعظم الخير على المسلم والكافر منهم، لماذا؟

لأن كل تلك الأركان ومنها عبادة الله ﷻ وحده ضمان لأجمل عيش، وأكرم حياة، فعبادة الله وحده تحرر الإنسان من عبادة الحجر أو البشر أو الشجر.

والأمر بالوفاء في الكيل والميزان يعود نفعه العظيم لكل الأطراف، فإن ظن الحاذق الذكي أنه يستطيع أن يخادع الناس بعدم الوفاء في الكيل والميزان، فهو يحكم على بضاعته بالكساد، وعلى منتجاته بالبوار التام؛ لأن الناس سيعرفون فساده وظلمه وغشه وتزويره، وحينها يتحاشون إجراء البيع والشراء معه، وستضيع الثقة بمنتجاته، ثم يوشك أن يأتي من هو أذكى منه ليتعامل معه بالخدعة ذاتها التي يتعامل بها مع الناس.

وكما تسلط هو على الأبرياء فيوشك أن يتسلط عليه من يكون أقوى منه، بل ربما يخونه أقرب الناس إليه.

هذه حقيقة التشريعات الإسلامية العادلة، فإن الله ﷻ لما حرم على المرء أن يسرق الآخرين، فقد حرم على الآخرين أن يسرقوه، وكما حرم على القوي أن يظلم الآخرين، فقد حرم على الآخرين أن يظلموه، وكما أوجب على الرجل غض البصر وحفظ الفرج وحماية المرأة، فقد أوجب على الآخرين أن يغيضوا أبصارهم عن عرض غيرهم، وأن يحفظوا فروجهم، وأن يحموا نساء الآخرين.

وأمرهم بعدم الإفساد في الأرض سواء أكان إفسادًا بالجرائم البشرية أم إفسادًا بالجرائم البيئية.

هل شعرت بعظمة قول شعيب عليه السلام: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥]؟

والخيرية في تطبيق ذلك كله تتضمن رغد العيش، واستقرار الدول، وحسن التعامل داخل الأمة الواحدة، وحسن الجوار مع سائر الأمم، وهناءة العيش، وصفاء الود، وتكون العلاقات قائمة على الاحترام وتبادل المنافع، فَالْتَّنَكِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿خَيْرٌ﴾ لِلتَّعْظِيمِ وَالْكَمَالِ؛ لِأَنَّهُ جَامِعٌ خَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ^(١).

بصيرة: إن الخير الذي يترتب على تطبيق أمر الله ﷻ يتمثل في رغد العيش،

واستقرار الدول، وحسن التعامل داخل الأمة الواحدة، وحسن الجوار مع سائر

الأمم، وهناءة العيش، وصفاء الود، وبناء العلاقات على الاحترام وتبادل المنافع.

قال ابن عاشور رحمه الله: "وفي دَعْوَةِ شُعَيْبٍ عليه السلام قَوْمُهُ إِلَى الْأَعْمَالِ الْفَرْعِيَّةِ بَعْدَ أَنْ اسْتَقَرَّتِ الدَّعْوَةُ إِلَى التَّوْحِيدِ مَا يُؤْذِنُ بِأَنَّ الْبَشَرَ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ قَدْ تَطَوَّرَتْ نَفُوسُهُمْ تَطَوُّرًا هَيَّأَهُمْ لِقَبُولِ الشَّرَائِعِ الْفَرْعِيَّةِ، فَإِنَّ دَعْوَةَ شُعَيْبٍ عليه السلام كَانَتْ أَوْسَعَ مِنْ دَعْوَةِ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ هُوْدٍ وَصَالِحٍ عليه السلام؛ إِذْ كَانَ فِيهَا تَشْرِيعُ أَحْكَامٍ فَرْعِيَّةٍ، وَقَدْ كَانَ عَصْرُ شُعَيْبٍ عليه السلام قَدْ أَظْلَلَ عَصْرَ مُوسَى عليه السلام الَّذِي جَاءَ بِشَرِيعَةِ عَظِيمَةٍ مَاسَّةٍ نَوَاجِي الْحَيَاةِ كُلِّهَا"^(٢).

فهل كلام هذا الخبر العظيم من علماء التفسير رحمه الله في محله؟

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/٢٤٥).

(٢) «التحرير والتنوير» (٨-ب/٢٤٢).

الجواب: لا يظهر أنه في محله، بل ما جاء به شعيب عليه السلام يُحتاج إليه في كل زمان، ومكان، وتطور البشرية لا يعني أنها أكثر استعدادًا لاتباع الشريعة، فها هم صنف كبير من البشر اليوم يرتكبون من الجرائم ما ربما يتزده عنه كفار قوم نوح عليه السلام.

ستقول: نحن ندرك أن التعامل بالصدق، والوفاء في الكيل والميزان يعود بالنفع على جميع الأطراف سواء أكانوا فقراء أم أغنياء، فهو خير للجميع، ولكن ما وجه الخيرية في أمر الأنبياء أن نعبد الله تعالى ولا نشرك به؟ ولماذا قيد الخيرية بالإيمان في قوله: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؟

الجواب: كأنَّ شعيبًا عليه السلام قال لهم: هذا الذي ذكرت لكم وأمرتكم به من إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وإيفاء الناس حقوقهم من الكيل والوزن، وترك الفساد في الأرض، خيرٌ لكم في عاجل دنياكم وآجل أحراركم عند الله تعالى يوم القيامة ﴿إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، يقول: إن كنتم مصدقٍ فيما أقول لكم، وأؤدِّي إليكم عن الله تعالى من أمره ونهيه.

فالخيرية تتحقق للمؤمن أي المصدق المتبع وليس المتلاعب الذي يأكل أموال الناس، ويغتصب الحقوق، ويأخذ أراضيهم بغير حق.

وخص المؤمنين؛ لأن الكافر المعادي "ناقصُ المداركِ كاملِ المَهالكِ" كما يقول البقاعي رحمته الله ^(١)، وكأنَّ الله تعالى يقول: الكافر بهذه الأركان لن يستفيد إلا أن يوجد من يطبق هذه الأركان على المجتمعات، فهناك يستفيد الكافر رغد العيش، والعدل معه، بل تقدِّم المودة والإقسط إلىه.

إن عبادة الله تعالى هي أساس كل خير في الأرض، فالأوروبيون والأمريكيون واليابانيون والروس كل هؤلاء عرفوا أن الحروب شر عليهم وعلى شعوبهم، فهل منعهم ذلك من شن الحرب العالمية الأولى والثانية؟

لقد قتلوا عشرات الملايين، ولو كانوا يؤمنون بالله تعالى لآمنوا بأنه سيحاسب كل فاعل عما فعل، وعندها سيترددون في فعل أدنى شرٍ يقترفونه، وسيتركون أدنى من مثقال ذرة من الشرور، وينطبق

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٤٦١).

الأمر على المسلمين، فإن مخالفتهم لهذه الأركان تجعل إيمانهم على المحك كما قال ربنا ﷺ هنا: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

إن عبادة الله وحده هي الأساس لإصلاح الحال البشري، والتحرر من جميع القيود الأرضية. لا تتعجب أن ترى الألماني (إمانويل كُنت) (ت ١٨٠٤) في كتابه: "نقد العقل العملي" يصر على ضرورة الاعتقاد بوجود الله، وأن وجود الله فكرة يبعثها العقل المجرد، ولا يمكن عزلها عن فكرة السعادة، وفكرة الفضيلة، وأن فكرة "الله" - كما يعبر، ولو قال: حياة الله، واتخاذها إلهاً - مرتبطة دائماً بمفهوم المثال الأعلى أو مفهوم الخير^(١).

وكأن هذا الفيلسوف يشعر بأنه لا يمكن تحقيق السعادة في الدنيا دون الإيمان بالله ﷻ. والربط بين هذه المفاهيم ضروري جداً لإيجاد عالم تسود فيه الأخلاق، وهذا الربط مهم من الناحية العملية أيضاً، ويدل على هذا قول الفيلسوف الفرنسي (فولتير) (ت ١٧٧٨ م): "لو أن الله ليس موجوداً فسيكون ضرورياً اختراعه"^(٢) - تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً - وبغض النظر عن بشاعة كلمات هذا الرجل لكنه يرد على الملحدين الذين يظنون أنهم يمكن أن يجدوا تكريماً، أو تستقيم لهم الحياة وهم يجحدون وجود الله ﷻ.

ودعني أضرب لك أمثلة واضحة:

تروي عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها: «إِنَّهُ مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ، فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَصِلَهُ الرَّحِمَ وَحَسُنُ الْخُلُقِ وَحَسُنُ الْجَوَارِ يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ، وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ»^(٣). هذا مقتضيات الإيمان، وهنا تعلم قوة قول ربنا ﷻ: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. ومن مقتضيات الإيمان: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥] إذ يقتضي التوزيع العادل للثروة عدم استخدام الأقوياء لقوتهم التي منحهم الله ﷻ، ليستغلوا الضعفاء، ويصادروا حقوقهم، ويحتكروا الثروات لأنفسهم، ويتلاعبوا بأرزاق الناس لتحقيق مصالحهم، لأن ذلك يؤدي إلى تدمير الأرض ومن عليها على الأمد البعيد.

(١) ينظر: نقد العقل العملي، إمانويل كُنت، ترجمة غانم هنا، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٨ م، (ص: ٢١٨، ٢١٩).

(٢) ينظر: العلمانية: نشأتها وتطورها (ص: ١٦٤).

(٣) أحمد، (٢٥٢٥٩). قال عنه محققو الطبعة: إسناده صحيح.

وعندما يتم نصحهم وتذكيرهم يكونون أول المستكبرين الفارّين من النصّح كما قال تعالى: ﴿إِلَّا قَالُ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

بصيرة: هناك ظاهرة واضحة تبين لك أن تحقق الخيرية في التعامل مع العالم لا يمكن أن تكون إلا من المؤمنين، ومع وجود الأعمال الخيرية في المجتمعات الرأسمالية المتوحشة لكنها لا تتعدى أن تكون جزئية محدودة مقارنةً بكونها في الإسلام منهجاً عقدياً يمثل كلّ دولة تنطلق من القرآن الكريم صدقاً لا ادعاءً.

ولذا ربط الله ﷻ القيام على مصالح البشرية على الحقيقة بالإيمان بالله وحده، فقال تعالى: ﴿فَأَكْرَمَ رَبِّهِ ۖ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۖ يَتِيمًا ذَا مَقَرَّةٍ ۖ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۖ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۖ﴾ [البقرة: ١٧-١٣]، وقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۖ وَلَا يَحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۖ﴾ [الحاقة: ٣٣، ٣٤]، وقال: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۖ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمِسْكِينِ ۖ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ۖ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ۖ﴾ [المدثر: ٤٣-٤٦].

ثم قال الله ﷻ حاكياً كلام شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ [الأعراف: ٨٦]، فماذا يعني هذا النهي لهم بأن يقعدوا بكل صراط؟ وهل له علاقة مباشرة بالتأثير الشيطاني على البشر؟

الجواب: هذه الكلمات الغالية لشعيب عليه السلام تنبئنا بـ:

الركن السابع: حفظ العلاقات الدولية وحراسة الطرق المحلية والعالمية، ويصّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف ٨٦]، فنهاهم عن القرصنة العالمية التي يمارسونها على الناس وعلى المؤمنين خاصة.

فقد رجّح الطبري رحمه الله أن قوم شعيب عليه السلام كانوا قُطّاع طريق، ولذا نهاهم عن ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ ^(١)، وزجرهم عن قطع الطريق، وعن تهديد المارين بكل صراط، فالقعود بكل صراط يدل على أنهم يفعلون فعل الكامن "المُتَرَصِّدِ الْمُقْبِلِ بِكُلِّيَّتِهِ" ^(٢) على فريسته لتدميرها، أو لإضلالها والاستحواذ عليها.

هنا يأمرهم بالحفاظ على نظام الطرق المحلية والدولية، وتأمين المرور فيها إذ قال لهم: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾، فهم كانوا يلجؤون إلى ما يشبه نظام القرصنة المحلية والدولية، فيقعدون على كل طريق يتوعدون المارين فيها، ويهددونهم.

وهنا نسال: ما وجه الجمال والقوة في كلمة (قعد) من قوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا﴾؟

الجواب: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا﴾ أي: لا تجلسوا جلوس الذي كان يتحرك، فقعد متربصاً مترصدًا طالبًا أن يوقع كمينًا في فريسته القادمة، فيقطع عليها الطريق.

وهنا يظهر لنا جمال كلمة ﴿تَقْعُدُوا﴾ فلم يقل: تجلسوا، وذلك لأن (قعد) ^(٣) الرَّجُلُ يَقْعُدُ قُعُودًا حالة تصف جلوس الإنسان عندما يكون بين القيام والاضطجاع ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]، ولكنها تطلق على هيئة يجلس فيها الإنسان معتمدًا على أسفله ليحمل أعلاه ويثبته، فهي هيئة استقرار تدل على رُسوخ وثبات يُترصد فيه شيء آخر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ [البقرة: ١٢٧] لأنها أساساته التي يرتفع أعلاه بناءً على رسوخها،

(١) تفسير الطبري (٥٥٨/١٢).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٤٦١/٧).

(٣) مقاييس اللغة (١٠٨/٥)، المفردات في غريب القرآن (ص ٦٧٩)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (١٨١٥/٤).

وكأنها متربصة به ليكتمل، وقواعدُ الهُودَجِ حَشَبَاتُ أَرْبَعٍ معترضة في أسفله تُرَكَّبُ عِيدَانُ الهُودَجِ فيها.

فاتضح الفرق بين (القعود والجلوس)، فكلاهما جلوس معين محدد بين القيام والاضطجاع، لكن الجلوس: انتقال من السفلى إلى العلو المتوسط دون القيام، والقعود الانتقال من الأعلى إلى الأسفل المتوسط وليس الاضطجاع، فيُقال لمن هو قائم: اقعد، ويقال لمن هو نائم أو ساجد: اجلس، ولذا جاء في وصف النبي ﷺ: "وجلس وكان متكئاً، فقال: (ألا وقول الزور)، قال: فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت" (١).

ومما ورد من مادة (قعد) قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١]، وهي المقامات التي يستعد الإنسان فيها استعداد الكمون والتريص مع أنه قد يكون واقفاً لا جالساً.

ولكن لماذا عبر عن ذلك بالقعود في قوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ﴾ [الأعراف: ٨٦]؟

الجواب: هذه كلمة عجيبة تصف جرائم هذا الصنف الشاذ المريض:

التعبير بالقعود عند فعل كل تلك الجرائم يدل على الملازمة والإصرار، كما تصور لنا هذه الكلمة: الكُمُونُ والهدوء والتريص والترصد، ثم الانقضاض على المستهدف، كما ينقض الوحش على الفريسة البرينة الغافلة، فلم يقل: (ولا تقوموا)؛ لأن القيام يصور لنا هؤلاء المجرمين مفضوحين، لكنه عبّر عن ذلك بالقعود؛ ليدل على مقدار تأمرهم وخبثهم وتربصهم ببقية الناس من حولهم، سوء أكانوا من المؤمنين أم من غيرهم.

(١) البخاري (٢٦٥٤).

وأنت ترى أن تجارة المخدرات وغسيل الأموال، وتجارة الرقيق الأبيض، وتجارة الجنس والأسلحة إنما تتم ممن يدعون نشر السلام في العالم، وهم يزرعون أعظم المؤامرات التي تنشر الإرهاب والتدمير للبشرية.

وهكذا أمرهم شعيب عليه السلام بحفظ العلاقات الدولية وحراسة الطرق العالمية، وحذرهم من الإفساد الذي يمارسونه، فهم جعلوا بلادهم مركزاً للمؤامرات ليمنعوا الذرية الأدمية عن الإيمان بالله تعالى.

وقد تسأل: لماذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ فاستعمل حرف الباء في قوله ﴿بِكُلِّ﴾، ولو قيل في غير القرآن: (لا تقعدوا في كل صراط)، كان جائزاً فصيحاً في الكلام؟
الجواب: الباء تأتي لعدة معانٍ جمعها ابن مالك في قوله:

بِالْبَاءِ: اسْتَعْنِ، وَعَدِ، عَوِضْ، أَلْصِقْ وَمِثْلُ: (مَعَ وَمِنْ وَعَنْ) بِهَا انْطِقِ^(١)

فالباء هنا للإلصاق، حيث يلتصقون بالمكان المحدد؛ ليصدوا عن سبيل الله، وإنما جاز ذلك لأن الطريق ليس بالمكان المعلوم، فجاز ذلك كما جاز أن يقال: "قعد له بمكان كذا، وعلى مكان كذا، وفي مكان كذا"^(٢).

وهنا سنتساءل: صراط الحق واحد، فالله يقول: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا أَلْسَبَلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فكيف قال شعيب عليه السلام: ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ فكانه عدّد الطرق؟

الجواب: صراط الحق واحد، ولكنه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام كثيرة مختلفة، فكانوا إذا رأوا أحداً يشرع في شيء منها أوعدوه وصدّوه، فمن ذلك طريق الشهادتين، ومن ذلك طريق الصلاة، ومن ذلك طريق الزكاة، والحج، والصيام، وترك الزنا، وترك الربا، وترك القتل الحرام... فكل هذه طرق تدخل ضمن صراط الحق الواحد.

(١) ألفية ابن مالك (ص: ٢٨). ولكنه بين أن الباء قد تأتي للطرفية قبل ذلك في قوله:

وزيد، والطرفية استعين بها - وفي، وقد يُبينان المَبَبَا

(٢) تفسير الطبري، (١٢/٥٥٨).

وهذا لا يكون معنى الآية قاصراً على قطع الطريق فحسب كما ذكره الطبري، بل المراد بالصراط شرائع الدين المتنوعة، وقد قام الملاء المستكبرون من قوم شعيب بالصد عنها جميعاً.

ولك أن تتساءل عن وجه الجمال والقوة في كلمة ﴿صِرَاطٍ﴾ في قوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾؟

الجواب: الصراط أصلها بالسین من "سراط"^(١)، وهي كلمة تدل على ذهاب سهلٍ مُمهِّدٍ في ممرٍ يوصل إلى المقصود في سلام، ومن ذلك: سَرَطْتُ الطَّعَامَ وزردته، إِذَا بَلَغْتَهُ؛ لِأَنَّهُ إِذَا سُرِطَ ذهب في ممره إلى غايته.

فالسَّـرَاطُ: الطَّرِيقُ المستسهل الواضح الموصل إلى المقصود، وهذا يعني أن الطرق التجارية التي تمر بدولة مَدَّين كانت سهلة واضحة مبينة ميسرة، فتتصور هنا الطرق التجارية التي تأتي من جهة العراق إلى مصر مروراً بدولة مدين، والتي تأتي من الشام إلى الحجاز واليمن مروراً بهذه الدولة أيضاً، والطرق البحرية كذلك، وكان الناس كحالهم اليوم يلجؤون إلى الطرق السهلة الميسرة المعبدة المذلة، فيقعدهم مجرمو دولة مدين في هذه الطرق، فيقطعونها عنهم.

وكيف شعرنا بأن المستكبرين من قوم شعيب عليه السلام تحولوا إلى مجرمين يقطعون الطرق المختلفة في قوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾؟

الجواب:

﴿تُوعِدُونَ﴾ كلمة معبرة جداً عن الجهود الخبيثة الحثيثة التي كان يقوم بها الملاء من قوم شعيب عليه السلام، فكلمة ﴿تُوعِدُونَ﴾ وما عطف عليها محلها النصب على الحال أي: ولا تقعدوا بكل صراط مُوعدين وصادّين عن سبيل الله، تبغونها عوجاً.

وقوله: ﴿تُوعِدُونَ﴾ جاءت من كلمة (وَعَدَ)^(٢)، وهي كلمة تدل على تحقيق أمرٍ مستقبلي في خير أو شر، فيقال: أَرْضُ بَنِي فُلَانٍ وَاَعِدَةٌ، إِذَا رُجِيَ خَيْرُهَا مِنَ الْمَطَرِ وَالْإِغْشَابِ. وَيَوْمٌ وَاَعِدٌ: أَوَّلُهُ يَعْدُ بِحَرٍّ أَوْ

(١) مقاييس اللغة، (١٥٢/٣)، مفردات الراغب الأصفهاني (ص: ٢٣٠).

(٢) مقاييس اللغة (١٢٥/٦)، المفردات في غريب القرآن (ص ٥٢٦)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (١٤٢١).

بَرِّدْ، فَيُقَالُ: وَعَدْتُهُ أَعَدُّهُ وَعَدًّا وَمَوْعِدًا وَمِيعَادًا، وَيَكُونُ ذَلِكَ بِخَيْرٍ وَشَرٍّ، قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، ووعد الحق يشمل الخير والشر، ومما ورد في الخير فقط قوله تعالى: ﴿أَقْمِنْ وَعَدْنَهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَقِيهِ﴾ [القصص: ٦١]، ومما ورد في الشرِّ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحج: ٧٢]، وقوله تعالى: ﴿فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠].

فَأَمَّا الْوَعِيدُ فَلَا يَكُونُ إِلَّا بِشَرٍّ، يَقُولُونَ: أَوْعَدْتُهُ بِكَذَا إِيْعَادًا، وتوعده توعداً، وكلمة (تَوَعَّدَهُ) تتضمن تَكَلُّفًا وَتَعَمُّلاً وَجَهْدًا فِي التَّنْفِيزِ عَلَى خِلَافِ الطَّبِيعَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ، قَالَ: أَوْعَدَنِي بِالسَّجْنِ وَالْأَذَاهِمِ^(١)

فَقَوْلُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿تُوعِدُونَ﴾، أي تهددون غيركم بشئ أنواع التهديد، فهي مثل كلمة ﴿تتوعدون﴾، ولكن تتوعدون تتضمن تهديداً مقترناً بالتكلف، ولم يقيد ﴿تُوعِدُونَ﴾ بشيء مثل: توعدونه بالسجن، أو بقطع المعاش، أو بالتعذيب ليدخل ذلك كله.

فالمعنى هنا: ولا تقعدوا قعود كامن متربص في كل طريق واضح من الطرق التي يسلكها الناس لمصالحهم، فتقطعون عليهم طرقهم، بأن تقعدوا فيها كأنكم انغرستم فيها تهددون بقوة كل من يسلكها إما لابتغاء فدية منه، وإما لمنعه من قضاء مصالحه.

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ هل يمكن أن يبدولنا منها معنى آخر غير ما سبق؟

الجواب: نعم، وهذا هو:

(١) البيت للعديل بن الفرج العجلي، يُنظر: شرح أدب الكاتب، للجواليقي، ص ٢٠٠. والبيت بتمامه: (أوعدني بالسجن والأذاهم.... رجلي ورجلي شئنة المناسم).

الركن الثامن: حماية الناس ليختاروا القرار الصحيح بالاستماع لشعيب عليه السلام، إذ قال لهم: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: ٨٦]، فقد كانوا يحاولون محاصرة الدعوة النبوية التي جاء بها شعيب عليه السلام، فيجلسون في الطرق المختلفة فيتوعدون الناس بأن ينزلوا بهم العقوبات المغلظة، والمصائب المختلفة إن هم تابعوا شعيباً عليه السلام.

فكلمة ﴿تُوعِدُونَ﴾ من "أوعد" إذا هدد وخوّف، ولاحظ أنه لم يحدد المتوعد به، فيدخل في ذلك: التوعد بالقتل، والسجن، والضرب، وسلب المال، والإيذاء النفسي والجسدي، فيخوّفون الناس أن يأتوا شعيباً عليه السلام، فكانوا يَخْصُصُونَ من يقصد شعيباً عليه السلام بالوعيد والتهديد ليرجع قبل أن يرى شعيباً عليه السلام أو يلتقي به.

فإن قلت: ماذا يعني قوله جل ذكره: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ﴾؟ وكيف صورت لنا كلماتها القرآنية قوتها العظيمة؟ وما الفرق بينها وبين ما سبقها في قوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾؟

الجواب: هنا يأتي الركن التاسع من أركان الإصلاح التي دعا إليها شعيب عليه السلام:

الركن التاسع: حماية الناس والمؤمنين ليتخذوا قرارهم الصحيح باتباع شعيب عليه السلام، فنهى شعيب عليه السلام المستكبرين من قومه أن يشكّلوا جماعات الصدّ، فيلتصقون بكل طريق لمنع الناس من سلوك سبيل الله، ويبصرنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ﴾ [الأعراف: ٨٦].

كيف صورت لنا هذه الكلمات العظيمة أعمالهم الخبيثة، وأنشطتهم الحثيثة في صد العالم عن سبيل الله؟ وكيف ظهر جمال الكلمة القرآنية ﴿تَصُدُّونَ﴾؟

الجواب:

[الكلمة ١]: ﴿وَتَصُدُّونَ﴾ الواو لربط ما بعدها بما قبلها، وكأنه يقول لهم: تقومون الآن بأمرين: تقعدون بكل ﴿سَبِيلٍ﴾ أي طريق واضح معروف قعود المتريص الماكر تتوعدون من يفكر بالالتحاق بالمؤمنين، وكذلك تقعدون تصدون عن سبيل الله كل مؤمن به.

وكلمة ﴿تَصُدُّونَ﴾ تصور بقوة هائلة هذه الأنشطة المجرمة لهم، فهي مشتقة من (صَدَّ) ^(١) يَصُدُّ صُدُودًا، وَصَدًّا، فَالْصَّدُّ: هو الميل إِلَى أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ إِعْرَاضًا عما هو أمامه، فَتَقُولُ: صَدَدْتُ فَلَانًا عَنِ الْأَمْرِ إِذَا جَعَلْتَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَلِكَ الْأَمْرَ حَاجِزًا، فَمَنَعَهُ الْحَاجِزُ مِنْ أَنْ يَمْضِيَ أَمَامَهُ، فَيُضْطَرُّ أَنْ يَعْدِلَ إِلَى جِهَةٍ أُخْرَى، وَمِنْ ذَلِكَ الصَّدَّانِ: جَانِبَا الْوَادِي، الْوَاحِدُ صَدٌّ، كَأَنَّهُمَا يُمَثِّلَانِ حَاطِطَيْنِ يَمْنَعَانِ مِنْ هُوَ خَارِجِ الْوَادِي مِنَ الْوَصُولِ إِلَيْهِ، وَالصَّدُّ: الْجَبَلُ.

فالصُّدُودُ وَالصَّدُّ تكوين حاجر يمنع من الوصول إلى جهة يقصدها الإنسان، فقد يكون تكوين الحاجر لمنع النفس، وقد يكون لمنع الآخرين نحو قوله ﷺ: ﴿يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]، أي: يصدون أنفسهم وغيرهم، وقوله ﷻ: ﴿وَرَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانَ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [النمل: ٢٤].

انظر كيف تكشف كلمة ﴿يَصُدُّونَ﴾ أحوالهم النفسية، فأحيانًا يفكرون: ما المانع أن نلتحق بسبيل الله؟ فيأتون إلى أنفسهم فيمنعونها عند هذا التفكير أن تسلك سبيل الله كما حصل عند اعتراف أبي جهل بصدق النبي ﷺ أمام عدد من الكفار مثل: الأخنس بن شريق، والمغيرة بن شعبة قبل إسلامه ^(٢)، وكذلك كثير من المعاصرين من الكفار أو ممن ينتهج سبيل البدعة المغلظة: يفكر أحيانًا بأن يلتحق بسبيل الله، وربما كان مجرمًا، فيفكر بأن يترك إجرامه، فتأتيه نفسه الأمانة بالسوء، فتصده، بأن تجعل حاجزًا بينه وبين سبيل الله مثل التفكير في الدنيا، أو في الشهوة، أو في الهوى...

[الكلمة ٢]: ﴿عَنْ﴾ وهي للمجاوزة، أي: تصدون مجاوزين سبيل الله إلى غيرها.

(١) مقاييس اللغة (٣/ ٢٨٢)، المفردات في غريب القرآن (ص ٤٧٧)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/ ١٢٠١).

(٢) يُنظر: شرح الشفا، للأعلى القاري، (١/ ٧٩).

[الكلمات ٣-٤]: ﴿سَبِيلَ اللَّهِ﴾ أي: طريق الله ﷻ الواضح البين الذي يسير فيه الناس طالبين ربهم، راغبين فيما عنده، ملتزمين بحدوده وقوانينه.

[الكلمات ٥-٧]: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِ﴾ أي: تصدون الذي آمن بالله ﷻ عن أن يسلك سبيله. والمعناد أن يقال: تصدون من آمن بالله عن سبيله، ولكن الآية جاءت هكذا: ﴿وَتَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ﴾ فانظر جمال التعبير القرآني هنا حيث قدم الأهم، وهو سبيل الله مع أن حقه في تركيب الكلام أن يأتي بعد المفعول، فلماذا قدمه؟ لأن أهم المهمات في هذا الموضوع معرفة سبيل الله، وأنهم يصدون عنه، يا للفظاعة والبشاعة لما يرتكبون، إنهم حقًا مختلون عقليًا أو مجرمون، كيف يتجرؤون، فيصدون عن سبيل الله؟!

بصيرة: يبصِّرنا هذان الفعلان ﴿تُوعِدُونَ﴾ ﴿تَصُدُّونَ﴾ أن قوم شعيب عليه السلام استخدموا الإعلام وبطش أجهزتهم الأمنية والعسكرية لخدمة أهدافهم في منع الناس من سماع كلام الله ﷻ، ولترهيبهم ليكفروا بالله ﷻ.

فأضافوا ضمن وعيدهم السلطة الرابعة، وهي السلطة الإعلامية المدمرة، فعن ابن عباس عليه السلام: قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٨٦] قال: كانوا يجلسون في الطريق، فيخبرون مَنْ أتى إليهم: أن شعيبًا عليه السلام كذاب، فلا يفتنكم عن دينكم^(١). فاستخدموا هذه الوسائل الإعلامية المتاحة في ذلك الوقت، وهكذا كان المستكبرون من قريش يصنعون مع النبي ﷺ.

وعندما تقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ﴾ تجد أن: الإبعاد والصد يجتمعان على منع العالم من سماع الخير، فَقَدْ يَكُونُ المنع بِالْإِعْيَادِ بِالْمَضَارِّ، وَقَدْ يَكُونُ بِالْوَعْدِ بِالْمَنَافِعِ وَالْمَصَالِحِ^(٢)، فيقولون لهم: لا تتبعوا هذا السبيل وسنحقق لكم

(١) رواه الطبري بسنده في تفسيره: (٥٥٧/١٢).

(٢) تفسير الرازي (٣١٥/١٤).

الشهرة، أو نجعلكم في مناصب عالية، أو نلبي لكم رغباتكم في قضاء الشهوات، وتوفير الأموال، وهكذا يمنعونهم من أن يسمعو النبي شعيب عليه السلام، وهكذا يجري الأمر مع سائر الدعاة. ويكون المعنى: توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن بالله، ويصح أن يكون المعنى: توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن بسبيل الله؛ لأن كلمة سبيل تُدْكَرُ وتُؤنَّثُ، والمؤدى واحد. هذه الكلمات الشُعْبِيَّة العظيمة تنبئنا أنه قد اقتنع بكلامه بعض قومه فاتبعوه، وأن بعضاً منهم بدأ يميل إليه وهو متردد في اتباعه، وأنه قد تسامع به من هم حول مدين، فجاءوا إليه يريدون الإيمان، والمستكبرون يصدونهم، وتنبئنا هذه الجملة بأن الملأ المستكبرين أصروا على تهيب المؤمنين والسامعين فلم يدعوا طريقاً تُوصِلُ إلى شعيب عليه السلام إِلَّا قَعَدُوا بها يتوعدون من جاء ويخوفونهم، ويزورون الحقائق ليمنعوا الناس من اتباعه عليه السلام. وذكرنا أن النبي ﷺ ليلة أُسْرِيَ به مرَّ على خشبة على الطريق، لا يمرُّ بها ثوبٌ إلا شقته، ولا شيء إلا خرقتة، قال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه! ثم تلا ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ﴾^(١).

كيف يبرز علم الاتصال القرآني في السورة عبر قول شعيب عليه السلام: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾؟ أي: كيف اتصلت هذه الآية بما قبلها من الآيات؟

الجواب: هذه الآية تبين أنهم قاموا بتنفيذ الخطة الشيطانية التي وعد بها إبليس حرفياً عندما قال: ﴿قَالَ فِيمَا آغَاوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦].

كيف نفذوا هذا الوعيد الشيطاني؟

لقد قعدوا في كل صراط معنوي يؤدي إلى الحق يتوعدون من سلكه، ويهددون من سار عليه، ويبثون الشبهة للتنفير من البقاء فيه، فهذا من معاني: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾، كأن شعيباً

(١) رواه الطبري - بسند فيه أبو جعفر الرازي - عن أبي هريرة أو غيره = شك أبو جعفر الرازي. يُنظر: تفسير الطبري: (١٢/٥٥٨)، وقال ابن كثير في تفسيره (٣٨/٥): «وهذا الحديث في بعض ألفاظه غرابة ونكارة شديدة».

العلية يقول لهم: لا تنوبوا عن الشيطان الذي حلف أن يقعد بكل صراط مستقيم، فأنتم فعلتم الأمر نفسه، فصاروا نُوبًا للشيطان في تأدية مهمته.

فكانوا يقعدون ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ أي: طريقٍ من طُرُقِ الدُّنْيَا والِدِّينِ مِنَ الْخَلَالِ وَالْحَرَامِ والأوامر والنَّواهي والمُحْكَمِ والمُتَشَابِهِ والأمثال^(١)، فيصدون عن سبيل الله.

ثم حذرهم شعيب عليه السلام من أمر جديد قال فيه: ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٦]، فماذا يعني هذا التحذير؟ وكيف يكشف جريمةً جديدةً من جرائم قومه؟
الجواب: هنا يظهر:

الركن العاشر: التحذير من إظهار سبيل الله مُعْوَجَّةً أمام العالم، ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٦].

﴿تَبْغُونَهَا﴾ أي: تطلبونها طلبًا حثيثًا قويًا يكاد أن يصل إلى مرحلة البغي، فكلمة (تبغون) ليست مثل كلمة (تطلبون) أو (تريدون) بل هي أقوى في وصف حالهم، والهاء في ﴿تَبْغُونَهَا﴾ تعود على سبيل الله.

والمعنى: تطلبون سبيل الله عِوَجًا أي: منحنيًا مائلًا لا مستقيمةً كما هو حالها، تطلبون ذلك طلبًا حثيثًا دائمًا دائمًا بالتخطيط المصمم والتنفيذ المدمر.

ومن أبرز صور طلبهم لسبيل الله أن تكون أو تظهر مُعْوَجَّةً صورتان:

الصورة الأولى: أن يجعلوا سبيل الله تظهر أمام العالم ذات اعوجاج، فيصنعون دعاية مضادة لسبيل الله حتى يظن الناس أن سبيل الله الواضحة الاستقامة ليست إلا ذات اعوجاج، فلا يظهرنها كما أنزلها الله ﷻ وأرادها ليستقيم عليها العالم، وبدلاً من أن يظهرها اعوجاج الوثنية، أو النصرانية المحرفة، أو اليهودية المبدلة، يظهر سبيل الله ذات اعوجاج، ومن ذلك أن الرئيس الفرنسي (ماكرون) صرح أن الإسلام في أزمة، مع أن الأزمة في طريقة التفكير الذي يفكر بها، والعيش الرديء الذي يحيا به، فهو يعلم مدى انحطاط حياته السفهية، ويعلم كيف تتلاعب فرنسا بالعالم، وعبثا

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٤٦١).



في أفريقيا إلى اليوم، ويعلم ما يصيب شعبه من انهيار الأخلاق، وتدمير الأسرة، والعيش على امتصاص دماء الأفارقة...

ما أمثلة هذه الصورة: أنهم يظهرون سبيل الله ذات اعوجاج؟

الجواب:

(١) الإيمان بالله ﷻ أعظم ما يطلبه ﷺ، فبيث هؤلاء المجرمون في الناس عبر وسائل الإعلام والتعليم بأن الإسلام لا يطلب من الناس أن يؤمنوا، بل يجعلونها قضية عابرة في حياة الإنسان، لا توجد لها أهمية كبيرة، فالمهم عندهم أن يستمتع الإنسان بالحياة، ولا أهمية عندهم لأن تكون متعته بالحياة وفق مبادئ الإيمان، ويترتب على ذلك تضییع معاني آيات الموالاة الإيمانية.

(٢) كثيرٌ من قادة الغرب يظهر الاعوجاج في تفكيرهم، فكثيرٌ من رؤسائهم وزعماء أحزابهم، ومشرعهم لا يفرقون اليوم بين الذكر والأنثى، وعندهم أن ذلك المخلوق الإنساني ذا اللحية المفتول العضلات الذي ينافس النساء في رياضة رفع الأثقال ويغلبهن هو أنثى ما دام قال عن نفسه أنه أنثى، فهل تتصوّر مقدار الاعوجاج الذي وصلوا إليه؟! وبدلاً من أن يشعروا باعوجاج تفكيرهم يهتمون الإسلام الذي يمنحهم حياة الاستقامة الحقيقية.

(٣) يهونون من الصلاة والإخوة الإيمانية، ومن تحريم الربا، ويشجعون مقدمات العلاقات الجنسية المحرمة، ويعتبرون ذلك جزءاً من الدين، ولا يرون ذلك اعوجاجاً، بينما يرون الأخوة الإيمانية، وتحريم الربا، والعلاقات الزوجية الشرعية، تعقيداً في الحياة أي: يرونها مُعوجة، ويروِّجون لذلك في الإعلام والتعليم بكل صفاقة ووقاحة.

(٤) يجعلون الدين تعظيماً للبشر، وتقديسهم، ورفعهم فوق مراتبهم، فيجعلون بيديهم التحليل والتحریم، والحكم والتشريع، بل ويوهمون غيرهم أن من أعظم العبادات الخضوع للحاكم أو للعالم أو لصاحب نسبٍ محدد، حتى لو كان يأمر بغير شرع الله ﷻ، ويجعلون دعوة الدين إلى تعظيم شرع الله دعوة معوجة.

الصورة الثانية: يلقون الشُّكوك والشُّبهات حول سبيل الله الواضحة بإظهار أنها طريق مُعوجة تهلك الناس، وتدمرهم، وأنها سبيل الإرهاب، فيُنَقِّرون الناس منها؛ ليصدُّوهم عن سلوكها والدخول فيها.

وحسبك أن ترى بعض الناس يستقبل بمحبة غامرة أسوأ مجرمي العالم باعتبارهم صنّاع السلام، بينما يتكلم عن الأطفال والنساء والرجال المظلومين في فلسطين أو في غيرها بأنهم يستحقون ما يحصل لهم من إبادة.

وبين الله ﷻ لنا أنموذجاً من ابتغائهم سبيل الله عوجاً: أنهم يتداولون الشّبه ليصدوا الناس عن دين الله، فمن ذلك أنهم قالوا لشعيب عليه السلام: ﴿يَشْعِيبُ أَصْلَوْكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوُ﴾ [هود: ٨٧] فسخروا من شعيب عليه السلام، وتعجبوا منه أمام الآخرين، فكأنهم قالوا: هل الصلاة تأمرك أن نترك عبادة الأوثان التي عبدها آبائنا؟

انظر. فبدلاً من أن يروا عبادة الأوثان سبيلاً معوجة رأوا أن ما يُدْعَوُ إليه هو المعوج! وكأنهم قالوا: هل الدين يحرك الحياة؟ هل الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر؟ هل الصلاة التي يفعلها شعيب عليه السلام تأمر بترك دين الآباء والأجداد، وتأمّر بتقييد حريتنا في اكتساب الأموال بأي طريق؟

بصيرة: يبصرنا قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَشْعِيبُ أَصْلَوْكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوُ﴾ [هود: ٨٧] بأن قوم شعيب اعتمدوا على ثلاث ضلالات:

الأولى: أن العبادة محلها دار العبادة وليس واقع الحياة.

الثانية: أن التقليد لمن سبق مقدس، والعصبية للآباء واجبة حتى لو كانوا على خطأ.

الثالثة: الحرية الشخصية مقدسة حتى لو أدت إلى استغلال الآخرين، والعبث بأموالهم، وهذه الحجج نفسها هي التي يرددها المفسدون في الأرض هذه الأيام.

ويحيي محمد رشيد رضا رحمته الله أنه في عهد الانتداب البريطاني على مصر صارت الحكومة التي يشرف عليها البريطانيون تُبيح الزنا لشعب يدين أكثر أهلهم بالإسلام، وأقله بالنصرانية واليهودية وكلهم يُحرمون الزنا، وإنما أباحتها بإغواء أساتذتها وسادتها من الإفرنج، قال: وَقَدْ خَنَعَ الشَّعْبُ الْمُسْتَدَلُّ الْمُسْتَضْعَفَ لَهَا، وَسَكَتَ عُلَمَاؤُهُ وَمُرْشِدُوهُ الدِّينِيُّونَ فَلَا يَنْكُرُونَ عَلَيْهَا أَفْرَادًا وَلَا جَمَاعَاتٍ، وَلَا

يَتَظَاهَرُونَ عَلَى الْإِحْتِجَاجِ عَلَى عَمَلِهَا بِالْخُطْبِ الدِّينِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَلَا بِالنَّشْرِ فِي الصُّحُفِ الْعَامَّةِ، وَقَدْ آدَى السُّكُوتُ عَنْ هَذَا وَمَا أَشْبَهَهُ إِلَى أَنْ صَارَ الْمُنْكَرُ مَعْرُوفًا يَكْثُرُ أَنْصَارُهُ وَالْمُسْتَحْسِنُونَ لَهُ^(١).

وحتى نستذكر ما سبق نسال: ما خلاصة ما سبق في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ

تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٦]؟

الجواب: حسب ما سبق فإن شعيباً عليه السلام أمرهم بأربعة أمور:

الأول: الحفاظ على نظام الطرق المحلية والدولية، وتأمين المرور فيها، فقال لهم: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾، فهم كانوا يلجؤون إلى ما يشبه نظام القرصنة المحلية والدولية، فيقعدون على كل طريق يتوعدون المارين فيها، ويهددونهم.

الثاني: إعطاء الناس حق الاختيار لقرارهم في الوصول إلى شعيب عليه السلام وسماع كلامه، فكانوا يخصون من يقصد شعيباً عليه السلام بالوعيد والتهديد ليرجع قبل أن يرى شعيباً عليه السلام أو يلتقي به، فيدخل ذلك ضمن التوعد الوارد في قوله: ﴿تُوعِدُونَ﴾.

الثالث: إعطاء الناس حقوقهم في الإيمان بشعيب عليه السلام عندما يقررون ذلك، وعدم منعهم من ذلك، فكانوا يصدون مَنْ وَصَلَ إِلَيْهِ وَآمَنَ بِهِ بِصَرْفِهِ عَنِ الثَّبَاتِ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَالْإِسْتِقَامَةِ عَلَى سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى الْمُوصِلَةَ إِلَى سَعَادَةِ الدَّارَيْنِ^(٢).

الرابع: الكف عن تشويه سبيل الله الواضحة المستقيمة، فكانوا يريدون أن يُظهروها مُعَوَّجَةً أمام العالم؛ لينفر الناس منها، أو ليتدينوا بها بصورة خاطئة عندما يغيرون فيها.

وهذه الأمور الأربعة تنبئنا بأنهم جعلوا دولتهم مركزاً خبيثاً للمؤامرات والإفساد في الأرض، واتخذوا هذه الأفعال المجرمة نظاماً يسرون عليه، بل صارت أهدافاً لهم في الحياة، وكأنك ترى بهم امبراطورية شر متكاملة تعمل في مناحي الحياة المتعددة، فهي تدمر كل شيء قويم جميل مادياً ومعنوياً، وكل ذلك تجده ملخصاً بصورة مدهشة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ

وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٦].

(١) «تفسير المنار» (٨/ ٤٧٥).

(٢) «تفسير المنار» (٨/ ٤٧٥).

بعد هذا الاستعراض لحضارة مدين قوم شعيب عليه السلام، فما أهدافهم من هذه الحياة التي يحيونها؟

الجواب: صارت أهم أهداف حياتهم أن يحيوا حياة المتعة المحرمة، واللذة المجرمة، ويجعلوا حقوق الإنسان دائرة على ذلك، فيتعاملوا مع الحياة المادية حولهم بالبخس والتلاعب في المكيال والميزان، ويتعاملوا مع سبيل الله بالصد عنها، وابتغائها معوجة ينفر الناس عنها، أو يصنعونها على أهوائهم ورغباتهم، فهل ينجحون في إطفاء نور الله؟

كلا، بل حالهم كما قيل:

(وَلْيُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ الْغَلَابِ)	(زَعَمَتْ سَخِينَةٌ أَنْ سَتَغْلِبُ رَبَّهَا)
وَلْتُدْحَضَنَّ مَزَاعِمُ الْكُذَّابِ	وَلْيَهْزَمَنَّ مُكَابِرُ مُسْتَكْبِرٍ
مُسْتَرْسِلٌ فِي غِيٍّ بِحَرَابِ	وَلِيُخْسَأَنَّ مَجَاهِرُ مُتَجَاسِرٍ
بِجْدَالِهِ فِي بَغْيِهِ الْمُنْسَابِ	وَلْيُقَهَّرَنَّ مُجَادِلُ مُسْتَغْرَقٍ
فَعَتَا بِجَهْلِ خَائِضًا بِكِتَابِ	ظَنَّ الشَّرِيعَةَ مَرْتَعًا لِهَرَائِهِ
سَبْحَانَ رَبِّي الْبَاسِطِ الْوَهَّابِ	مَنْ وَحَى رَبِّكَ عَامِرٍ بِضِيَائِهِ
نَصْرًا مَيِّناً بَاهِرَ الْأَسْبَابِ ^(١)	وَلِيَنْصَرَنَّ اللَّهُ دِينًا خَالِدًا

وهنا نسال: بذنا عرفنا أن الركن العاشر من أركان دعوة شعيب عليه السلام: التحذير من إظهار سبيل الله مُعَوجَةً أمام العالم، فما الركن الحادي عشر الذي ينقلنا له قول شعيب عليه السلام ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦]، وما علاقته بما سبق من أوامرونا؟

الجواب:

(١) القصيدة للشاعر المصري صبري الصبري.

الركن الحادي عشر: تذكر أن التمكين ليس إلا منة من رب العالمين ابتلاء واختباراً لا لجنس أو للون، ونبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦].

وهنا يأتي السؤال: ما وجه الجمال والقوة في هذا القبس: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ﴾؟
الجواب: يتبين ذلك فيما يأتي:

[الكلمة ١]: ﴿وَأَذْكُرُوا﴾ من "ذكر" ^(١) أي: استحضروا في عقولكم وتصوراتكم أنكم كنتم قليلاً فكثركم، فلا تهملوا تذكر ذلك حتى يقودكم إلى فهم أعلى، وعمل أقوى تفيدونه من هذا التذكر، وجنس الذكر سمي بذلك لأنه يعود إلى حضور الشيء وقوته وصلابته بدلاً من ذهابه ونسيانه واضمحلاله، أو استخفافه، فالذكر-كما يقول الراغب-: هيئة للنفس بها يُمكن للإنسان أن يستحضر ما يقتنيه من المعرفة، فيضاد الذكر: النسيان والإهمال والترك، فالذكر يتحقق للمذكور بالقلب، وباللسان، وبجوارح الإنسان، ومنه قول كعب بن زهير:

أَتَى أَلَمَ بَكَ الْخَيَالُ يَطِيفُ وَمَطَافُهُ لَكَ ذُكْرَةٌ وَشُعُوفُ ^(٢)

فكلمة (ذكر) مثل كلمة (حفظ) إلا أن الحفظ يُقال اعتباراً بإحراز المحفوظ، والذكر يُقال اعتباراً باستحضاره واستدعائه.

انظر لجمال ﴿وَأَذْكُرُوا﴾ فإذا ذكر الإنسان شيئاً وعرف الآخرون أنه ذكره بقلبه أو بلسانه أو بأي جزء من جسده صار له ذكرٌ في الناس بذلك الشيء المذكور، أي: صارت له شهرةٌ وسمعةٌ وصيتٌ بذلك الشيء، فيشتغل الذاكر بما يجب عليه عند تذكر الشيء، فإذا ذكر الصلاة اشتغل بها، وإذا ذكر الله أطاعه وأحبه ووجل منه قلبه، وإذا ذكر والديه برَّهما، فيكون معنى ﴿وَأَذْكُرُوا﴾:

﴿وَأَذْكُرُوا﴾ فلا تنسوا حتى لا تقعوا في التصرفات الخاطئة.

﴿وَأَذْكُرُوا﴾ لنلا تقعوا في القرارات السيئة؛ لأنكم أهملتم الطريق الصواب.

(١) مقاييس اللغة (٣٥٨/٢)، المفردات في غريب القرآن (ص: ١٧٩)، تاج العروس (٣٧٦/١).

(٢) ديوان كعب بن زهير، (ص ١١٣)، والشُعُوفُ: الولُوءُ بالشيءِ حَتَّى لَا يَغْلِيلَ عَنْهُ.

﴿وَأَذْكُرُوا﴾ أي: تعاهدوا هذه الحقيقة حتى لا يطويها النسيان، وتسيطر الغفلة على النفوس والأذهان.

﴿وَأَذْكُرُوا﴾ فافعلوا كل ما يؤدي إلى بقاء التذكر، فتكلموا، واعملوا، وتدارسوا.
﴿وَأَذْكُرُوا﴾ على مستوى أنفسكم، وبين أفرادكم، وعلى مستوى المجموع والرأي العام، واجعلوا ذلك في خطاباتكم.

فانظروا للكلمة ﴿وَأَذْكُرُوا﴾ فهي تعني أن تصاغ حياتنا وفق هذا التذكر.
[الكلمة ٢]: ﴿إِذْ﴾ «مفعول به غير ظرف. أي: واذكروا على جهة الشكر وقت كونكم قليلاً فَكَثَّرَكُمْ الله ووفر عددكم»^(١).

وهنا نعود إلى قوله شعيب عليه السلام: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦]، فما صُورُ هذه الكثرة بعد القلة؟

الجواب: هذا الأسلوب ﴿كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ أسلوب مثير للتدبر والتفكير، فلم يبين لنا نوع القلة، ونوع الكثرة بل أطلق في كليهما، وبذلك يدخل فيهما ثلاث صور:
الصورة الأولى: كنتم قليلاً في عددكم، فَكَثَّرَكُمْ الله ووفرَّ عددكم^(٢).

قيل: إن مدين بن إبراهيم تزوج بنت لوط، فولدت، فرمى الله ﷻ في نسلها بالبركة والنماء، فكثروا وفشوا، هكذا قيل، ولا أميل إلى إثبات هذه الأخبار ولا إلى نفیها، وإن كنت أستبعدها؛ لأنها لم تصلنا بطريق يوثق به، ولا أظن أن لإبراهيم عليه السلام ابناً ثالثاً غير إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، ولكننا ندرك من الخطاب أنهم كانوا أمة قليلة العدد، فكثروا حتى استطاعت السيطرة والتمكن، وصارت لها مهابة في الأرض.

الصورة الثانية: كنتم مقلين فقراء، فكثركم أي فجعلكم مكثرين موسرين^(٣).

(١) الكشف (٢/١٢٨).

(٢) المرجع السابق.

(٣) الكشف (٢/١٢٨).

الصورة الثالثة: كنتم قليلاً أي: أذلة، وليس المقصود القلة في العدد فأعزكم بكثرة العدد مع وجود القوة والثروات والاستقلال في القرار والعدد؛ فإن الأمة قد تكون كثيرة العدد ولكنها كما وصفها النبي ﷺ: «غثاء كغثاء السيل»^(١).

والتفسير في الصورة الثالثة - إن قبلناه- تفسير باللازم، أو بالثمرة، أو بالنتيجة، وليس تفسيراً بالمعنى اللغوي المباشر.

وهذا التمكين بالتكثير في العدد والمال والعزة بوجود القوة والثروات من أعظم النعم؛ فإن الأمة إذا كثرت عددها ازدادت قوتها، ومتى ازداد قوتها؟ إذا ملكت قيادة إدارية حازمة، وقوم شعيب قد كثّر الله ﷻ جماعتهم، وذلك يدل على أن الله ﷻ رفعهم بهذه الكثرة من الذلة والخساسة.

وهذا التذكير من شعيب عليه السلام: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ﴾ بيصّرنا بأن الكثرة السكانية كانت نعمة وليست نقمة، وترفعها لا عبثاً، وهذا يعني أنهم أفادوا كثيراً من هذه الكثرة، فلم تكن الكثرة لعنة يُطلق عليها بعض فاسدي الإدارة: الانفجار السكاني، ثم يحملونها فشلهم الإداري، وحريٌّ بالأمة أن تسعى لكثرة السكان، وحريٌّ بمن يلي أمرها أن يعد كثرة السكان من أعظم علامات الاعتزاز، والارتفاع بين الأمم، ولذا قال أنس رضي الله عنه: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُ بِالْبَاءَةِ، وَيَنْهَى عَنِ التَّبْتُلِ نَهْيًا شَدِيدًا، وَيَقُولُ: «تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ الْوُلُودَ، إِنِّي مُكَاثِرُ الْأَنْبِيَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

وهنا نسأل: عرفنا أن الركن الحادي عشر من أركان دعوة شعيب عليه السلام: تَذَكُّرُ أَنَّ التَّمَكِينَ لَيْسَ إِلَّا مَنَّةٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فما الركن الثاني عشر الذي ينقلنا له قول شعيب عليه السلام: ﴿وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَقِيبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦]؟ وما معنى أن تختتم الآية بهذا القول؟

الجواب: هنا يأتي:

(١) أبو داود (٤٢٩٧)، وحسنه الأرنؤوط.

(٢) مسند أحمد، ط الرسالة، (١٢٦١٣). وقال محققوه: صحيح لغيره.

الركن الثاني عشر: الاعتبار بالتاريخ وسنن الله ﷻ في الكون، ويصبرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦]، فطلب منهم أن يحركوا عقولهم بالنظر المعتبر في مصير من سبق من المفسدين.

كيف ظهرت قوة التعبير القرآني في قوله ﷻ: ﴿وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾؟
الجواب:

الكلمة [١]: ﴿وَأَنْظُرُوا﴾ النظر ^(١) هو تحريك البصر للتأمل في شيء محسوس أو شيء معقول مُقَدَّر، فالنظر حقيقته في هذا السياق: شدة التفكير، وقوته، فلشدة التفكير في الأمر كأنك تنظر إليه، وتعاينه، وتعرف أوله وآخره، وتفاصيله كأنك تنظر إليه، ومن ذلك المُنَاطَرَةُ، وهي: المُبَاحَثَةُ والمُبَارَاةُ في شدة الفكر ليغلب أحد المناظرين الآخر، إذ يستحضر كلُّ منهما ما يراه بِبَصِيرَتِهِ كأنه أمام نظره، وهنا نعلم لماذا ذكر الله ﷻ النظر بعد الفكر في قوله: ﴿إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ﴾ [١٨] فَقَتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ نَظَرَ ۖ﴾ [الم نشر: ١٨-٢١].

الكلمة [٢، ٣]: ﴿كَيْفَ كَانَ﴾ أي: انظروا الكيفية التي وقعت لمن وجدت كينونته قبلكم.

الكلمة [٤]: ﴿عَاقِبَةُ﴾ أي: الخاتمة المتصلة بحياة المفسدين كاتصال آخر القدم بالجسد.

الكلمة [٥]: ﴿الْمُفْسِدِينَ﴾ من "أفسد" إذا أزال شيئاً مما صلحت عليه الأرض أو الإنسان أو الحياة، وجاءت هذه الكلمة على اسم الفاعل ليدل على رسوخهم في الإفساد، وإذا كانوا مفسدين فإنهم لا بد أن يكونوا فاسدين.

والسؤال: هل كانوا مفسدين لدولتهم، أم لغيرهم من الدول، والأمم الأخرى؟

يظهر أن إفسادهم يشمل الإفساد الداخلي والخارجي، ولكن الإفساد الداخلي يكون بقدر محدد حتى يتمكنوا من أن يكونوا دولة قوية عزيزة تفسد الحياة على الآخرين.

والمعنى: انظروا متأملين متفكرين في تأنٍ وترقٍ وتقليب فكرٍ فيما نزل بمن كان قبلكم من الأمم حين عتوا عن أمر ربهم وعصوا رسله، انظروا ما حلَّ بهم من المَثَلَاتِ والنقم والمصائب، وكيف وجدوا

(١) مقاييس اللغة (٥/ ٤٤٤)، المفردات في غريب القرآن (ص ٨١٢)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٤/ ٢٢١٩).

عقبى عصيانهم ربهم في آخر أمرهم؟ ألم يهلك بعضهم غرقاً بالطوفان، وبعضهم رجماً بالحجارة، وبعضهم بالصيحة؟^(۱)

والمقصود: لا تهملوا كلامي، ولا تعارضوه مغترين بقوتكم وكثرتكم واستقرار أموركم، وقوة عددكم وعدتكم، بل انظروا آخر أمر المفسدين الذين كانوا من قبلكم، فلا تغتروا ببداياتهم، ولا بضحكاتهم، بل انظروا إلى نهايتهم، كقوم نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام، وكانوا قريبي العهد مما أصاب المؤتفكة، وقد فصل الله تعالى لنا قوله لهم في سورة هود عليه السلام: ﴿وَيَقَوْمَ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ۸۹].

وهنا نسأل: عرفنا الركن الثاني عشر من أركان دعوة شعيب عليه السلام، وهو: تحريك العقل بالنظر المعتبر في مصير من سبق من المفسدين، فما الركن الثالث عشر الذي ينقلنا له قول شعيب عليه السلام: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ...﴾ [الأعراف: ۸۷]؟

الجواب:

الركن الثالث عشر: التذكير بسنة الصبر، وهي سنة اجتماعية تمنع من المواجهة أو تمنع من الفشل والإحباط، ويصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ... وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَخْضَعُوا لَكَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ۸۷]، فتعامل معهم شعيب عليه السلام بالحكمة التامة، إذ أخبرهم أن كل فرد منهم اختار القرار الذي يناسبه، فصارت دولة مدين منقسمة إلى معسكر آمن برسالته، ومعسكر لم يؤمن برسالته، وطلب منهم الصبر حتى يفصل الله تعالى بين الفريقين، وهذا يعني إعلان عدم الاعتداء، وذلك منتهى الحكمة.

عبر شعيب عليه السلام بالطائفة عن كل من الجهتين ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا﴾، ﴿وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾ فما وجه القوة في وصف كل مجموعة بالطائفة؟

(۱) انظر: تفسير الطبري (۱۲ / ۵۶۰).

الجواب:

التعبير بالطائفة له مدلول قوي في تصوير الأحداث والوقائع حين ذاك، فهو ينبئك أن كلاً من الجبهتين اتخذ شكل التحزب المكثف، فكل من الجبهتين صار متعاطفاً لقضيته، متعاوناً مع أصحابه، كالذي يطوف حول مركز لا يفارقه، فالطائفة جماعة يتحلقون حول مركز يمثل قيادة الطائفة، أو معتقداتها.

فهي مشتقة من (طَوَفَ) ^(١) وهي كلمة تدل على دَوْرَانِ الشَّيْءِ عَلَى الشَّيْءِ، وَأَنْ يُحَفَّ بِهِ، وَالطَّوْفُ: المشي حول الشيء، يُقَالُ: طَافَ بِهِ وَبِالْبَيْتِ يَطُوفُ طَوْفًا وَطَوَافًا، وَاطَافَ بِهِ، وَاسْتَطَافَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨]. وَالطُّوفَانُ: كُلُّ حَادِثَةٍ تَحِيطُ بِالْإِنْسَانِ كَأَنَّمَا تَطُوفُ بِهِ لَا تَتْرُكُهُ، وَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]، وَصَارَ مُتَعَارِفًا فِي الْمَاءِ الْمُتَنَاهِي فِي الْكَثْرَةِ لِأَجْلِ أَنَّ الْحَادِثَةَ الَّتِي نَالَتْ قَوْمَ نُوحٍ ﷺ كَانَتْ مَاءً.

فَقَوْلُ شُعَيْبٍ ﷺ: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾ [الأعراف: ٨٧] يَصُورُ لَنَا أَنَّ النَّاسَ فِي دَوْلَةٍ مَدِينٍ أَصْبَحُوا مَعْسَكِرِينَ كَبِيرِينَ: مَعْسَكَرٌ آمَنَ بِرِسَالَةِ شُعَيْبٍ ﷺ، يَتَأَلَفُونَ، وَكَأَنَّهُمْ مِنْ شِدَّةِ مَحَبَّتِهِمْ لِبَعْضِهِمْ، وَشُعُورِهِمْ بِأَخُوَّتِهِمْ يَطُوفُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ.

وَمَعْسَكَرٌ لَمْ يُؤْمِنُوا، وَهَمْ كَذَلِكَ مُتَكَتِفُونَ مُتَعَاذِدُونَ ضِدَّ الطَّائِفَةِ الْمُؤْمِنَةِ. وَلَا حَظَّ هَذِهِ الْأَيَّامِ شِدَّةَ طَوَافِ الْمَجْرِمِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَصْحَابِ الْفِتْوَى حَوْلَ نَصْرَةِ أَكْثَرِ وَحُوشِ الْأَرْضِ إِجْرَامًا، الَّذِينَ يَقْتُلُونَ الْأَطْفَالَ أَمَامَ الْعَالَمِ!

وَهَذَا التَّفْرِيقُ بَيْنَ الْمَعْسَكِرِينَ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ مُنْطَقِيٌّ يَحْدُثُ لِكُلِّ مُجْتَمَعٍ تَأْتِيهِ رِسَالَةُ الْإِيمَانِ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ، فَقَدْ قَالَ رَبُّنَا ﷻ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣].

(١) مقاييس اللغة (٤٣٢/٣)، المفردات في غريب القرآن (ص ٥٣١)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (١٣٣٦/٣).

فالتفرق إلى طائفتين: طائفة تنصر الحق، وطائفة تعاديه، سنة كونية دائمة، فانظر أين سيكون مكانك، واستعد لما يترتب على ذلك في الدنيا والآخرة، وقد ذكر النبي ﷺ أن الملائكة جاءت إليه وهو نائم، وذكر من ضمن كلامهم أنهم قالوا: «فَمَنْ أَطَاعَ مُحَمَّدًا ﷺ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَى مُحَمَّدًا ﷺ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ، فَزَقَّ يَبْنَ النَّاسِ»^(١).

وهنا نتساءل عن الحكمة في قول شعيب عليه السلام: ﴿وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾، ولم يقل: (وطائفة كفروا)؟

الجواب: يظهر أنه الآن في مقام الدعوة ونزع فتيل المواجهة غير المتكافئة، وهو يخاطب قومًا مستكبرين يأنفون من أن يرمهم شعيب عليه السلام ببعض المصطلحات مثل الكفر، وقد يجعلهم ذلك يشتدون في إيذاء أتباعه، وأراد أن يبين لهم أن قضية الإيمان برسالته أعظم القضايا، وقد أرسله الله ﷻ لأجل ذلك، ولكن الإيمان بالرسالة يظل مسألة اختيارية أي: لا يقبل الإيمان إلا إذا اختاره الإنسان ولم يجبر عليه، وقد افترقت أمة دولة مدين إلى هاتين الطائفتين، وحينها لا داعي للقتال بين الطائفتين بل لا بد من الصبر، فالذي يناسب الموقف أن يصفهم بعدم الإيمان، ولا يستفزهم بوصفهم له أهل، وهو الكفر، فليس كل شيء لا بد من قوله.

وشعيب عليه السلام في سورة الأعراف يوضح لنا بكلامه هذا أن أتباعه المؤمنين كانوا مستضعفين، ويزيد هذا وضوحًا الآية التي ستأتي، فإن الله ﷻ يقول فيها: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

فهذا تهديد صريح يدل على قوة المعسكر الكافر، وتجبره، وأما عدم مسهم شعيبا عليه السلام، فقد بينه الله ﷻ في سورة هود عليه السلام: ﴿قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرْنَكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١]، ورهطه يتوقع أن يكون فيهم المؤمن والكافر، فتكون حماية الكافر له من باب العصبية فحسب.

وأما هنا في سورة الأعراف، فالكلام عن طائفة مؤمنة، فعند اصطفاف كفر وإيمان سيتخلى رهطه من الكفار عن حمايته، أما عند الاصطفاف بين أفخاذ القبيلة، أو القبائل في الأمة الواحدة تحصل

(١) البخاري (٧٢٨١)، في رواية أبي ذر: «فَرَّقَ».

العصبية، ولذا رأينا كفار بني هاشم اصطفوا مع أبي جهل في بدر وأسر منهم جماعة مع أنهم كانوا يحمون النبي ﷺ في مكة.

فانظر حكمة شعيب عليه السلام حين عبر عن كفار قومه بقوله: ﴿وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾، ورأينا النبي ﷺ يستخدم تعبيراً مشابهاً طلباً للحكمة في التعامل مع الواقع، فيقول: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٢١﴾ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ٢٥ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ٢٦﴾ [سبا: ٢٤ - ٢٦].

وهذا بخلاف المقام الذي اقتضته المفاصلة في سورة الكافرون.

ونتساءل متدبرين: لماذا قال شعيب عليه السلام: ﴿عَامِنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ فبنى فعل الإرسال للمفعول، فلم يقل: أرسلني الله؟

الجواب: رأى البقاعي رحمه الله أن ذلك إشارة إلى أن الفاعل معرُوف بما تقدّم من السياق، فهو الله ﷻ، وأنه صار بحيث لا يتطرق إليه شك لما نصّب من الدلالات على أن المرسل هو الله ﷻ (١).

ويمكن أن يضاف إلى هذا، فيقال: ولأن من لم يؤمن يرى أن شعيباً عليه السلام ليس مرسلًا من الله ﷻ كما رأى سهيل بن عمرو في صلح الحديبية أن محمداً ليس رسول الله ﷻ، فضرب لنا النبي ﷺ مثلاً في التعامل الحكيم، ومسح كلمة (رسول الله) من صحيفة الصلح، وكان الصلح على الرغم من ذلك فتحاً.

والآن نتساءل عن جواب الشرط، فإذا كان الناس قد انقسموا إلى طائفتين: طائفة آمنوا، وطائفة لم يؤمنوا، فما نتيجة هذا الانقسام؟

الجواب:

يُبين شعيب عليه السلام النتيجة لهذا الانقسام الخطير إلى مؤمنين وغير مؤمنين، وتظهر هذه النتيجة في جواب الشرط في قول شعيب عليه السلام: ﴿فَأَصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ أي: بين الفريقين، بأن ينصر المحقين على المبطلين ويظهرهم عليهم سواء أكان المحقون هم الطائفة الأولى أم الثانية. فكلام شعيب عليه السلام له وجهان:

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/٤٦٣).

الأول: أنه وعيدٌ لإحدى الطائفتين بانتقام الله ﷻ منهن إن كانوا هم المخالفين لأمره، وهذا كقوله تعالى معلِّماً النبي ﷺ: ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ۵۲].

الثاني: أنه يحمل وعداً مبطناً للمؤمنين بأن الله ﷻ سينصرهم، ولكن هذا الوعد جاء على هيئة موعظة للمؤمنين يحثهم فيه على الصبر، واحتمال ما كان يلحقهم من أذى المشركين إلى أن يحكم الله ﷻ بينهم وينتقم لهم منهم.

فصار كلام شعيب عليه السلام هنا خطاباً للفريقين بالصبر، ليصبر المؤمنون على أذى الكفار، وليصبر الكفار على ما يسوؤهم من إيمان من آمن منهم، حتى يحكم الله ﷻ بين الفريقين، فيميز الخبيث من الطيب.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [۷۷] لَأَنَّ حُكْمَهُ حَقٌّ وَعَدْلٌ، فَلَا يُخَافُ مِنْهُ الْحَيْفُ، فَهُوَ حَاكِمٌ مُنَزَّهٌ عَنِ الْجَوْرِ وَالْمِيلِ وَالظُّلْمِ، فَلَا بُدَّ وَأَنْ يُخَصَّ الْمُؤْمِنُ النَّقِيُّ بِالدَّرَجَاتِ الْعَالِيَةِ، وَالْكَافِرُ الشَّقِيَّ بِأَنْوَاعِ الْعُقُوبَاتِ الْقَاسِيَةِ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ۲۸] (۱).

وهذا الختام ينبئنا أن أغلب قوم شعيب عليه السلام كانوا مقرين بربوبية الله ﷻ في الجملة ككفار مكة إلا أنهم يأبون الإقرار بالوهمية لله ﷻ، وإخلاص العبادة والحاكمة له.

ما نوع الحكم الذي يقصده شعيب عليه السلام في قوله: ﴿فَأَصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾؟

الجواب:

﴿فَأَصْبِرُوا﴾ أي: احبسوا أنفسكم عن أي تصرفٍ قد تندمون عليه عندما تتعجلون في اتخاذه، وهو يعني بذلك تخويف المستكبرين من أن يتهوروا فيعتدوا على المؤمنين، ولاحظ العبارة جيداً، فلم يقل: نحن مستسلمون لكم، ولم يقل: فإننا سنواجهكم.

(۱) تفسير الرازي (۱۴/ ۳۱۵).

وهنا يأتي سؤال: لماذا لم يقل كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [المتحنة: ٤]؟

الجواب: لأن سياق كلام إبراهيم عليه السلام يختلف عن سياق كلام شعيب عليه السلام، والحكمة: ألا تنقل قضايا مصر إلى العراق مما اختلف فيه السياق، وألا تنقل قضايا المغرب إلى اليمن مما اختلف فيه السياق.

ويتضح لنا من سياق الآيات أن شعيباً عليه السلام كان يواجه قوة استكبارية متجبرة طاغية تريد البطش به وبأتباعه، فذكر لها هذه الكلمة الذهبية التي لم يظهر فيها الاستسلام، ولا طلب فيها المواجهة، بل طلب الصبر، والصبر يقتضي أن ينتهوا، فإنهم إذا أرادوا أن يصنعوا عملاً مؤذياً بالمؤمنين فقد يجدون مقاومة يندمون عليها، ولكنه أيضاً طمأنهم أنه وأتباعه لن يعتدوا عليهم.

والذي يظهر أن إبراهيم عليه السلام كان في موضع قوة إما لأن ذلك كان قبل إلقائه في النار، فهو مطمئن إلى أن النار لن تضره بإذن الله تعالى، ولا يوجد من أتباعه عدد كبير يخاف عليهم، فالذي يظهر أن الذي آمن له زوجته سارة، وابن أخيه لوط عليه السلام، بخلاف تخوف شعيب عليه السلام على أتباعه المؤمنين، ويحتمل أن إبراهيم عليه السلام قال هذه الكلمة بعد القذف في النار، وحينئذ فقوته أظهر وأكبر.

وهنا نسال: فما معنى قوله: ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨٧)؟

الجواب: هذا التركيب (حكم الله) أو (يحكم الله) يراد به أحد ثلاثة أنواع:

النوع الأول: حكمه التشريعي الذي أوحاه إلى رسله عليهم الصلاة والسلام بمقتضى أمره ونهيه، ومنه قوله تعالى في أوّل سورة المائدة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ (١) [المائدة: ١]، فَإِنَّهُ جَاءَ بَعْدَ الْأَمْرِ بِالْوَفَاءِ بِالْعُقُودِ وَإِحْلَالِ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا اسْتُثْنِيَ مِنْهَا بَعْدَ تِلْكَ الْآيَةِ، ومثل قوله تعالى: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

النوع الثاني: حكمه القدري الكوني الفعلي الذي يَفْصِلُ فِيهِ بَيْنَ الْخُلُقِ بِمُقْتَضَى عَدْلِهِ وَسُنَنِهِ الكونية، ومنه قوله تعالى في آخر سورة يونس خِطَاباً لِلنَّبِيِّ ﷺ: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (١٠٩) [يونس: ١٠٩]، ومنه قوله: ﴿قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ (١١٢) [الأنبياء: ١١٢].

ومن هذا النوع الثاني قول شعيب عليه السلام هنا: ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧] أي: حتى يفصل بعدله بيننا في الوقت الذي تقتضيه حكمته.

بصيرة: حكم الله ﷻ لا يقوم على المحاباة، فلا ينصر المسلم لكون اسمه مسلماً مع عدم قيامه بمقتضيات إسلامه، بل ينصر من يسير على سنن النصر، ومنها الإسلام والعمل والعدل والحكمة وإعداد العدة.

وحكمه هنا تعالى كما يقول رشيد رضا رحمته الله: "قائم بين الأمم ينصير أقرّبها إلى العدل والإصلاح في الأرض، وحكمه هو الحق، ولا معقب لحكمه، فليعتبر المسلمون بهذا قبل كل أحد، وليعرضوا حالهم وحال دولهم على القرآن وعلى أحكام الله ﷻ لهم وعلمهم، لعلمهم يتوبون إلى رُشدِهِمْ، ويتوبون إلى ربِّهِمْ، فيُعيد إليهم ما سلب منهم، ويرفع مَقْتَهُ وَغَضَبَهُ عَنْهُمْ. اللهم ثب عَلَيْنَا، وَعَافِنَا وَاعْفُ عَنَّا، وَاحْكُم لَنَا لَا عَلَيْنَا" (١).

النوع الثالث: حكم الله يوم القيامة حين يفصل بين العباد، فيجعل فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير، ومن ذلك قوله تعالى جده: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُم بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ [آل عمران: ٥٥-٥٧].

والذي ينبغي أن ننتبه له هذه اللغة العالية التي واجه بها شعيب عليه السلام الملاً المستكبرين من قومه، فأظهر لهم السلمية العامة في التعامل معهم بعد أن افترقوا إلى طائفة آمنت، وطائفة لم تؤمن، فقد رأى عدم تكافؤ الفرص بينه ومن معه، وبين من كفر، وفي الوقت نفسه حذرهم من عاقبة البغي ﴿وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [٨١].

(١) «تفسير المنار» (٨/ ٤٧٦).

وكذلك استخدم كلمة ﴿فَاصْبِرُوا﴾ وهي كلمة لها مدلولان: فإن القوي يجب أن يصبر على الضعيف، وكذلك فإنه يجب أن يحذر، فقد يسبب له الضعيف آلاماً كبيرة إن تهور المستكبر واختار المواجهة، وكلمة ﴿فَاصْبِرُوا﴾ يعني: لا تبغوا عليّ، ولا على أتباعي، ودعوني أبلغ رسالة ربي، وأنتم قدموا حججكم وبراهينكم في رفض اتباعي، فلا إشكال ما دمت لم تشهروا سلاح عليّ.

وهنا ينبغي أن ندرك الفرق الكبير بين هذه الحالة، وحالة مقاومة البغي، ومقارنته عندما يفرض على الإنسان كما يحدث للمرابطين في أراضي المسلمين المحتلة، إذ يجب أن يعملوا على تطبيق هذه الآيات أو تطبيق آيات في الجهة الأخرى مثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ [الشورى: ٣٩-٤٢].

فهذه سورة مكية ولكن تحمل تحذيراً شديداً للمشركين الذين كانوا في مكة متمكنين مستكبرين. عرفنا المشهد الثالث من مشاهد قصة شعيب عليه السلام، ودولة مدين، وهو يتكلم عن أركان الإصلاح الإسلامي التي أرسل بها شعيب عليه السلام في الآيات [الأعراف ٨-٨٧]: إذ ذكر ثلاثة عشر ركناً، فما المشهد الرابع في هذه القصة؟ وما الذي حدث بعد ذلك؟

الجواب: هنا يأتي مشهدٌ جديد من مشاهد هذه القصة، وهو:

المشهد الرابع: قوى الاستكبار تفتتح حملة الاضطهاد ضد القوى المصلحة أي: ضد

شعيب عليه السلام وأتباعه المؤمنين [الأعراف: ٨٨].

المناسبة والاتصال:

في المشهد الأول من قصة دولة مدين: بصّرنا سورة الأعراف بالدورات الحضارية المتكررة في تاريخ البشر، إذ ذكر الله ﷻ لنا دولة جديدة، وأمة جديدة ورسولاً جديداً، فقال ﷻ: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥].

وفي المشهد الثاني: رأينا انتماء هذا الرسول شعيب عليه السلام إلى قومه، وبصّرنا بذلك قوله ﷻ: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥]، فهذا الانتماء ييسر تبليغ الرسالة، فالمبلغ واحد منهم، وليس غريباً عنهم.

وفي المشهد الثالث: تابعنا أركان الإصلاح الإسلامي التي أرسل بها شعيب عليه السلام [الأعراف: ٨٥-٨٧]. فوجدنا شعيباً عليه السلام يبلغ رسالة ربه حق التبليغ، ويقوم بدوره النبوي الإصلاحي العظيم، ويبرز لهم البيئة التي جاءتهم من ربهم، ويذكر لهم ثلاثة عشر ركناً من أركان دعوته، ورسالته التي أرسل بها لإصلاح أحوالهم، وكان كلامه كافياً للتأثير عليهم، فقد استطاع بذلك البيان المنير أن يحاصر أفكارهم وعقولهم وعواطفهم ومشاعرهم، فلا يمكنهم حينها إلا أن يجيبوا، وكان هذا هو المتوقع منهم، إما أن يجيبوا شعيباً عليه السلام، فيتبعوا دعوته، وإما أن يُبقوا الأمر سَلَمِيّاً بينهم وبينه، وتكون المعركة فكرية حسب الحُجَّة الصادرة من كل واحدٍ منهم، ولذا ختم لهم بيناته بالدعوة إلى التعايش السلمي المتبادل، فقال لهم: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧].

لقد دعاهم إلى أفضل السبل، وتوقف عند النقطة النهائية التي لا يستطيع التراجع عنها، وهي نقطة الصبر والتأني والعيش المشترك دون ضرر، تاركاً كلَّ شخص وما يؤمن به من عقيدة، حتى يحكم الله، وهو أحسن الحاكمين.

فهل استجابوا لذلك؟

إن الطواغيت يطلبون أن يتكبروا في الأرض بغير الحق، فلا يرضيهم أن يتصرف الناس إلا وفق تشريعاتهم، ووفق أمرهم ونهيهم، وهنا جاء هذا المشهد الذي يصور الله ﷻ لنا فيه ردة فعلهم العنيفة على الدعوة الهادئة التي بادر بها شعيب عليه السلام ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

فهذه الآية تظهر لنا تسلسلاً زمنياً وواقعياً حكيماً في ذكر الأحداث التي وقعت.

وهنا نسال: ما البصائر التي يكتنزها هذا المشهد في هذه الآية المباركة؟

الجواب:

البصيرة الأولى: الكلمة الصادقة المبينة تخترق القلوب، فيتأثر بها غير المستكبرين، وتستيقظ بها قلوب الغافلين، وتخبث لها العقول المفتوحة، والقلوب المنشرحة، ويصبرنا بذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ [الأعراف: ٨٨]، فوصفهم بالاستكبار دلالة على إغلاق عقولهم، وضيق قلوبهم، واعتبارهم غيرهم من البشر أنهم لا يستحقون النظر، كما يصف بعض المجرمين هذه الأيام الأبرياء بالحيوانات.

فقول ربنا سبحانه: ﴿قَالَ﴾ يصور لنا أن المستكبرين لا يمكن أن يسكتوا وهم يرون المصلحين ينشرون النور في العالمين، فكلمة ﴿قَالَ﴾ تصور لنا أنهم تكلموا، وصرحوا بخطتهم المضادة علانية، فلن يقفوا متفرجين وهم يرون المصلحين الراشدين يحاولون إنقاذ البشرية من فخاخ الشيطان. فقد بصرتنا بصائر هذه السورة العظيمة أن الشيطان لا يدخر جهداً في إغواء الإنسان، وكذلك قبيله من شياطين الإنس والجن؛ إذ قال الله ﷻ واصفاً ذلك: ﴿إِنَّهُ يَرَلُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وكذلك بصرتنا آيات هذه السورة أن أولياء الشيطان نَشْطُونَ جداً في نشر الفحشاء، فقال الله ﷻ عنهم: ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠]. والتطبيق الواقعي لهذه الآيات أظهرته كلمة ﴿قَالَ﴾؛ إذ تدل على عدم قبول المستكبرين بما عرضه شعيب عليه السلام.

وهنا لا بد أن نسأل عن قوة الكلمة القرآنية، فلماذا وصف الله القوى المجرمة التي تحارب

شعيباً عليه السلام بأنهم ﴿الْمَلَأُوا الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾؟

الجواب:

كلمة ﴿الْمَلَأُوا﴾ تصور لنا أن الذي يحارب شعيباً عليه السلام ويجمع الناس لحرب المؤمنين قوم لهم شأنهم في مجتمعاتهم، فهم الذين يملؤون العين، والمكان، ويجذبون الأعين لهم، فلهم التأثير في المجتمع حولهم، وهم أنفسهم الذين قاموا ضد الأنبياء السابقين، إنهم النشطون من قوى الاستكبار الذين يملأون العين، ويتصدرون المجالس، بخطاباتهم وهيجانهم وبغيمهم.

وكلمة ﴿اسْتَكْبَرُوا﴾ تصور لنا أنهم لا يناقشون ما قاله شعيب عليه السلام وفق العقل والحكمة، بل وفق منطقهم المستكبر، أي: إنهم يطلبون أن يكونوا أكبر من الحق، وكأنهم يجعلون الحق ما يقررونه هم، وانظر هذه الأيام إلى من يبید الأطفال والرجال والنساء، ويدمر المباني، والأراضي، والشجر بل والحجر، ثم يزعم أنه هو الذي يتعرض للإبادة.

وقوله: ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾ تبصرنا بأن العادة السُّنَّية في الكون أن تجد القوى المصلحة مُعَارِضةً من أقرب الناس لها، فالمُعَارِضة ليست من خارج قومه بل من قومه، فأولى أن يكون ذلك داعياً لصِدِّ بقية العالم عن المصلحين كما سبق ذلك مع سائر الأنبياء عليهم السلام.

فأمام بينات شعيب عليه السلام، وقوة حجته لجأ المستكبرون إلى القوة والتهديد.

لاحظ: لم يقل الله تعالى: قال الكفار، ولم يقل: قال الطرف الآخر، ولم يقل: قالت الطائفة الذين لم يؤمنوا، بل قال: ﴿قَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾، والكبر كما وصفه النبي صلى الله عليه وسلم: «بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ»^(۱).

لقد كان شعيب عليه السلام مؤثراً لكن المستكبرين أبوا أن يذعنوا للحق.

بهر شعيب عليه السلام قلوب المؤمنين، وأخذ بمجامع قلوب غير المؤمنين، حتى لما صاروا فريقين ختم خطابه بما هو أكثر تأثيراً مما سبق، فقال: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِأَلَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِء

(۱) مسلم (۹۱).

وَمَا يَفْقَهُ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ [الأعراف: ٨٧]، فلم يهددهم، ولم يخبرهم بأن الحق المبين الذي هو عليه سينتصر، وأنهم سيُذَلُّون بعد عَزٍّ، بل أنهى مرافعته الرائعة بهذا الختم المذهل، وهذه المرافعة المدهشة وهذا الختام نتج عنه أمران: تثبيتُ أتباعه المؤمنين، وميلُ بعض الحاضرين من الملأ والعامة إلى خطابه عليه السلام، لذا اغتاض المستكبرون؛ فأجابوه إجابة المهوت المفحَم أمام ذلك البيان العالي المكرم.

وهنا يأتي السؤال: لماذا؟ ما الذي أخبرنا بهذا الاستنتاج؟

الجواب: أشعرنا بذلك أن الله ﷻ وصف المجرمين من قومه بالاستكبار أولاً، ثم أخبر عن جوابهم الضعيف؛ إذ لجأوا إلى التهديد بإخراج الصالحين، إخراج القيادة النبوية وأتباعها من المؤمنين، وهذا يدل على مقدار تأثير شعيب عليه السلام، فنطاق تأثيره يتسع، ولما كان محمياً بصورة جيدة من أقربائه كما بين الله ﷻ لنا في سورة هود عليه السلام؛ لجأ القوم إلى تهديدهم بالإخراج والنفي من دولتهم. وَكَانَ إِخْرَاجُ الْمُغْضُوبِ عَلَيْهِ مِنْ دِيَارِ قَبِيلَتِهِ عُقُوبَةً مُتَّبَعَةً فِي الْعَرَبِ إِذَا أَجْمَعَتِ الْقَبِيلَةُ عَلَى ذَلِكَ، وَيُسَمَّى هَذَا الْإِخْرَاجُ عِنْدَ الْعَرَبِ بِالْخَلْعِ، وَالْمُخْرَجُ يُسَمَّى خَلِيعاً^(١). قَالَ أَمْرُؤُ الْقَيْسِ:

... .. بِهِ الدِّئْبُ يَعْوِي كَالْخَلِيعِ الْمُعِيلِ^(٢)

بصيرة: إن سلاح التهديد والبطش هو السلاح الذي تلجأ إليه قوى الاستكبار في مواجهة الدعوات الصادقة، فتقوم بحملة الاضطهاد المعتادة ضد القيادة المصلحة وأتباعها، وترجع أفعالها إلى نوع استراتيجي من الاضطهاد وهو الإخراج والنفي إن لم يقدرُوا على ممارسة التعذيب والإبادة. ويحدث مثل ذلك من المجرمين، يقول الله ﷻ: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦].

(١) التحرير والتنوير، (٥/٩).

(٢) ديوان امرئ القيس، تحقيق المصطاوي (ص: ٥١)، وصدر البيت: (وواد كجوف العير قفر قطعته).

في قول المستكبرين من قوم شعيب عليه السلام: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]:

لقد حصرُوا ردهم على شعيب عليه السلام في هذا التهديد، ماذا يعكس ذلك في نفسياتهم؟
الجواب:

هذا القول من المستكبرين: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨] يعكس أنهم لم يتفكروا في البيئات التي جاء بها شعيب عليه السلام، ولم يُعملوا عقولهم في كلامه، ولم يناقشوا حججه، بل اغتروا بقوتهم، ولوَّحوا ببطشهم.
فبدلاً من أن يكلموه عن عبادة الله وحده، وهل هم مقتنعون أم لا، وبدلاً من أن يكلموه عن الإيفاء بالكيل والميزان، وبدلاً من أن يكلموه عن نهيه لهم أن يفسدوا في الأرض، وبدلاً من أن يكلموه عن أركان دعوته أصدرُوا حكمهم القاطع النابع من غرور القوة الغاشمة، فقالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ﴾، فاللام واقعة في جواب القسم، كأنهم قالوا: نقسم يا شعيب قسماً مؤكداً لا لبس فيه لنخرجنك من قريتنا، وهنا تشعر بتكبرهم وغطرستهم؛ فقد حلفوا أن ينفذوا ذلك الحكم، ووجهوا الخطاب مباشرةً للقيادة المؤمنة المصلحة ﴿يَشْعَبُ﴾، ونداؤهم له يناسب خطاب القوة والغضب كما حكى الله ﷻ قَوْلَ آزَرَ خِطَابًا لِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام: ﴿أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [مريم: ٤٦]؛^(١) ليخوفوا أتباعه، وليؤثروا على من حوله، حتى يتفرق الناس عنه عندما يرون هذا التهيب أمامهم. وهكذا في تبجح سافرٍ، وغطرسةٍ مقبلةٍ يصير المستكبرون على عدم قبول التعايش السلمي مع المؤمنين.

البصيرة الثانية: تلجأ قوى الاستكبار إلى إيذاء الطرف الأضعف من المؤمنين، وتتجراً على تهديد القيادة القوية، ونبصرنا بذلك قول المستكبرين: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾.

(١) التحرير والتنوير، (٦/٩).

وهنا تثير الآيات لنا سؤالاً آخر: لقد هددوا القيادة النبوية، فقالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ﴾ ولم يقفوا عند ذلك حتى قالوا: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرِيْنَتَا﴾، وهنا شمل التهديد أتباع شعيب عليه السلام، فلماذا لم يوجهوا كيدهم نحو القيادة المؤمنة فقط، ويكتفوا بذلك؟

الجواب: نصوا على الأتباع (المؤمنين)؛ ليضربوا عصافيرين بحجر واحد -كما يقال:-
فأما أولاً: فلزيادة إرهاب الأتباع وإرعابهم، فليس التهديد قاصراً على القيادة المؤمنة (شعيب عليه السلام)، وهذا التهديد الشامل يدل على عدم مبالاة المستكبرين بالآخرين سواء أكانوا في مركز اجتماعي صغير أم كبير، حتى لو خلت مدين من معظم أهلها، فإن المستكبرين سينفذون تهديدهم، ولاحظ تعبيرهم، فقد بدؤوا بخطاب حادٍّ لاذعٍ عنيفٍ يظهر التهديد المؤكد، فقالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾، ثم خصصوا القيادة بالذكر في تهديدهم، فقالوا: ﴿يَشْعِيبُ﴾.

وأما ثانياً: فلإخافة شعيب عليه السلام؛ فإنه قد يكون محمياً بعصمة الله ﷺ له؛ إذ سخر رهنه له ليدافعوا عنه، ولكن قلبه ربما تقطع ألماً وحسرة وهو يرى أتباعه ينالهم الاضطهاد والتعذيب أو النفي والتشريد، فإنه إن لم يبال بمصلحته وراحته عليه السلام، فربما حزن لأجل أتباعه، وتوجع لهم، لذلك قال له المستكبرون: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾، ثم زادوا الأمر تحديداً فقالوا: ﴿مَعَكَ﴾، فربما ظنوا أنه إذا تصور ذلك المنظر رضح ورجع، ولبئى طلباتهم، أو طلب التفاوض حول بعض ما يدعون إليه، وذلك انتصاراً للقوى المستكبرة، ولذا خاطبوه باسمه منادين له، وهم يوجهون التهديد للجميع.

فإن قلت: لماذا أتوا بهذه اللفظة ﴿مَعَكَ﴾ ولم يكتفوا بوصف أتباعه بالإيمان؟

الجواب: يقرر أبو السعود -رحمه الله- أنهم نسبوا الإخراج إليه -عليه السلام- أولاً ثم إلى المؤمنين ثانياً بعطفهم عليه تنبيهاً على أصلاته عليه السلام في الإخراج، وتبعيتهم له فيه كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿مَعَكَ﴾ فإنه متعلقٌ بالإخراج لا بالإيمان^(١)، فقوله: ﴿مَعَكَ﴾ متعلقٌ بـ ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾، ومتعلقٌ بـ ﴿آمَنُوا﴾ مخدوفٌ، أي: بك، لأنهم لا يصفونهم بالإيمان الحق في اعتقادهم^(٢)، كأنهم يريدون أن يخبروه بذلك بأن حملتهم مركزة على أتباعه، فلو وجد مؤمنون لا يتبعونه، ولا يظهرون إيمانهم، فلا

(١) أبو السعود في تفسيره (٢٤٨/٣).

(٢) التحرير والتنوير (٦/٩).

يهيمهم ذلك، وكذلك الذين يكتمون إيمانهم لا يبالون بهم؛ لأن مصيرهم -في ظن المستكبرين- إلى الزوال أو الذوبان في الغالب كما حدث ممن كتم إيمانه من أهل الأندلس بعد سقوطها.

ثم زادوا التهديد تحديداً، فقالوا: ﴿مِنْ قَرْيَتَيْنَا﴾، والقرية تطلق في القرآن على الحضارة العظيمة، أو على المصر الجامع (الدولة)، أو على العاصمة المركزية للدولة، فهي مشتقة من قرى، أو قري أي: جمع الماء، وتسمى القرية بذلك لاجتماع الناس فيها، وتداخلهم، وتواصلهم، فهي أبلغ من المدينة، وإنما تطلق القرية في القرآن على الدولة؛ لأن هذه الدولة المذكورة تكون ذات حكم مركزي قوي، فذكر القرية يدل على قوة الدولة التي يهيمن عليها المستكبرون من قوم شعيب عليه السلام، ثم عادوا بعد التهديد ليفتحوا لشعيب عليه السلام وأتباعه باب العودة، فقالوا: ﴿أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾.

ويلفت نظرنا قول المائل المستكبرين: ﴿مِنْ قَرْيَتَيْنَا﴾، فقد فهما أن القرية يراد بها هنا الدولة أو المصر الجامع، لكننا نتعجب من أنهم نسبوا الأرض التي عليها هذه الدولة إليهم ﴿قَرْيَتَيْنَا﴾، وكأنها ملك خاص بهم، هذا ما تُظهره إضافة القرية إليهم على سبيل الاختصاص أو التملك.

وهذه الفكرة ذاتها يدندن بها ويردها أتباع إبليس في كل زمان ومكان، فإنهم يجعلون الأنبياء عليهم السلام والمصلحين خارج الحقوق الإنسانية، فبمجرد أن يدعو النبي أو المصلح قومه يُعدُّونه قد خرج عن النظام العام، ويستحق الطرد، وكأن الأرض لهم، ولذا يصحح أنبياء الله هذا الفهم السقيم، فهي هو موسى عليه السلام يقول: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. وكذلك قال الله تعالى مصححاً هذا الفهم المجرم: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤].

بصيرة: يبصرنا قوله تعالى: ﴿لَتُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتَيْنَا﴾

أنهم يصادرون من الإنسان حقه في أن يعيش في وطنه؛ لمجرد أنه دعاهم إلى ما يصلحهم، ووفق المبادئ الحديثة التي يزعمون التوافق عليها؛ فهي هم يريدون سحب الجنسية أو حق المواطنة من شعيب عليه السلام وبقيّة المؤمنين إلا أن يتابعوهم في غيهم وفسادهم في الأرض!

وهنا ينشأ هذا السؤال: أعاد المستكبرون المتحكمون بالقرار في دولة (مدين) القَسَمَ في الاختيار الثاني، فقالوا: ﴿أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾، فاللام مُمَهِّدَةٌ لجواب القسم، فكان المعنى: أو لنُقَسِمَنَّ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا، ولم يكتفوا بالقَسَمَ حتى أكدوا ذلك بالنون المشددة، فلماذا أعادوا القَسَمَ، ولم يكتفوا بالعطف على القَسَمَ السابق في قوله: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾؟

الجواب:

إعادة القسم عند الكلام عن العُودِ في ملتهم ليستيقن شعيب عليه السلام ومن معه بأن الملائم المستكبرين من قومه سيفعلون أحدَ الأمرين لا محالة، وظنوا عندها أن شعيباً عليه السلام وهو يمثل القيادة المؤمنة وأتباعه سيدخلهم الرعبُ، وسيذعن المؤمنون لهذا التهديد، ويخافون من ذلك الوعيد، فيختارون الأرضي للمستكبرين وهو العُودُ في ملتهم الوثنية المفسدة، ونفهم من القَسَمَ أن ذلك إن لم يتحقق بالرضا فسيحققه المستكبرون بالإكراه.

في قوله تعالى: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ﴾:

فإن قلت: لماذا قدَّمَ الملائم المستكبرون في خطابهم لشعيب عليه السلام وأتباعه المؤمنين ذكر الإخراج من دولتهم على ذكر العودة إلى الملة الوثنية المفسدة؟

الجواب: لأن التهديد بالإخراج، أي، النفي والتهجير يحقق لهم الخيار الثاني، وهو العود في ملتهم الفاسدة؛ فالخيار الثاني لن يتحقق بالقناعة بسبب ظهور فساد تلك الملة، فظنوا أن التهديد والوعيد هو الأسلوب الأقوى تأثيراً؛ ليختار شعيب عليه السلام السلامة، ويوافق مع أتباعه على العود في ملتهم، وعطفوا على التهديد بالتهجير العودَ في ملتهم بِحَرْفِ (أو)؛ لأن هذا الحرف يعطي مجالاً للمؤمنين ليختاروا النوع الثاني دون الحاجة إلى المرور على الأول، بخلاف ما لو قالوا: لَنُخْرِجَنَّكَ يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ولتعودن في ملتنا، فهذا التعبير يعني أنهم سيخرجونهم قطعاً، وبعد أن يهجروهم، ويذوقوا ألم التشريد سيعودون صاغرين في ملتهم، فكان الحرف ﴿أَوْ﴾ بديعاً في تصوير هذه المراوغة القذرة من قبل الملائم المستكبرين.

ويبرق عندنا بريق التدبر: فلماذا قالوا: ﴿أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾؟ فهذه أربع كلمات: (أو، لتعودن، في، ملتنا)، فلنتعرف إلى سر قوتها، وأول ذلك أن نسال: لماذا أتى بكلمة ﴿فِي﴾، ولم يقولوا: إلى ملتنا؟ لماذا ضَمَّنَ كلمة (تعودن) مَعْنَى الظَّرْفِيَّةِ مع أن الفعل: عادَ يَتَعَدَّى بِ (الْأَمِّ) وَ (إِلَى)؟

الجواب: بعضهم قَسَرَ (عاد) بمعنى: صار، ومنه قول الشاعر:

فَإِنْ تَكُنِ الْأَيَّامُ أَحْسَنَ مَرَّةً إِلَى فَقَدْ عَادَتْ لَهُنَّ ذُنُوبٌ^(١)

أراد: فقد صارت لهنَّ ذُنُوبٌ، ولم يرد أن ذُنُوبًا كانت لهنَّ قبل الإحسان^(٢).

ويظهر لي أن تعدية الفعل ﴿لَتَعُودَنَّ﴾ بكلمة (في) يدل على أن المألاً المستكبرين لا يريدون من شعيب التَّكَلُّفَ ومن معه أن يعودوا إلى ملتهم عودة ظاهرية بل يريدون أن يثبتوا لهم انسلاخهم الكامل من الإسلام الذي انتقلوا إليه، وأن يبرهنوا على عودتهم إلى الوثنية، واندماجهم الكامل فيها حتى لا تظهر عليهم أدنى علامات الإسلام، وَيُسْتَعْمَلْ حرف الجر (في) مع الفعل (عاد) عندما يدل على ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى﴾ [الإسراء: ٦٩] يَعْني الْبَحْرَ والضَّر الذي يصيب البشر في البحر عندما لا يكون هناك أدنى أثر للبر، حيث يحيطهم الموج من كل مكان، وكذلك قوله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: ٥٥] حيث يكون الإنسان قد أحيط به، فدمج في الأرض، فلم يبق منه شيء على ظهرها.

هنا ندرك التعبير الدقيق في قَوْلِهِ تعالى حاكياً عنهم: ﴿أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ فلم يقولوا: إلى مِلَّتِنَا، بل في ملتنا أي: تعودون إليها وتنغمسون فيها حتى لا نشك أنكم تتلاعبون، فالتعبير ﴿فِي﴾ أقوى وأعظم تصويراً لاستكبار المستكبرين، ويظهر لي أنهم أرادوا لتعودن بالإذعان في ملتنا دون أن تثيروا إنكاراً أو تطلبوا تغييراً.

يلفت نظرنا قول الله ﷻ عنهم: ﴿أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ لماذا اختاروا كلمة (ملة)؟ وما معناها؟

الجواب: الملة أصلها من: ملَّ «ملل»^(٣)، وأصل المِلَّة في الْعَرَبِيَّةِ المِل وهو أن يعدو الذئب على شيء ضرباً من العدو، ومنه: أملت الكتاب أي ذكرت محتواه، فكتبه الكاتب جاريًا على ما قلته، محاكياً بالمكتوب ما أقوله بالملفوظ، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَلِيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ومن هنا

(١) البيت لكعب بن سعد الغنوي، من قصيدة له يرثي فيها أخاه. يُنظر مثلاً: أمالي القالي (١٤٧/٢)، مختارات شعراء العرب، لابن الشجري (٢٦/١)، وورد في تفسير الرازي (٣١٦/١٤): (مُدَّةٌ) بدلاً من (مَرَّةٌ).

(٢) تفسير الرازي (٣١٦/١٤).

(٣) الفروق اللغوية للعسكري (ص: ٢٢٠)، مفردات الراغب الأصفهاني (ص: ٤٧١)، لسان العرب (٣١١/١١).

جاء: ملٌّ في المَشْيِ مَلًّا: إذا مَرَّ مَرًّا سَرِيعًا، كأنه أسرع في طريقِ مسلوِكٍ محاكِيًا السالِكين من قبل، وقالوا: طريقٌ مَلِيلٌ: أي سَلِكٌ كثيرًا، وطالَ تردد المخلوقات والناس عليه.

وبذا تكون المِلَّةُ في اللُّغَةِ: السُّنَّةُ والطَّرِيقَةُ المسلوكة التي جرى عليها السابقون، وأسرع فيها السالكون حتى صارت واضحة المعالم.

فالمِلَّةُ بالكسْرِ: هي الدِّين الذي كان معروفًا عند السابقين، فسلوكه، وجاء من بعدهم فتابعهم عليه، وقد يكون حقًّا، وقد يكون باطلاً، وقد يجمع حقًّا وباطلاً، فيحدث اللَّبس الشديد لأتباعه.

فبصَّرنا ذلك بالسبب الذي لأجله قالوا: ﴿أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ أي: في ديننا المتبوع الذي نسلكه مقتدين بالسابقين، وكأنهم يعيرون شعبيًّا عليه السلام بالشذوذ عما كان عليه السابقون، ولنعم الاختيار اختيار شعيب عليه السلام: لأنه أوضح ضلالهم وضلال من كان قبلهم.

أما لو قالوا: (لتعودن في ديننا) فإنهم لم يكونوا لياتوا بالدليل على صحة فعلهم، فكلمة "دين" تعني نظامًا مُتَّبَعًا يسير عليه الإنسان كما قال سبحانه معلِّمًا نبيه عليه السلام: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، أي: لكم نظامكم ومنهجكم في الحياة، ولي نظامي ومنهجي، بينما كلمة (ملة) تدل على أن هذا الدين قد سار عليه السابقون، وهو الذي أراد الملأ المستكبرون أن يحتجوا به على شعيب عليه السلام.

وهنا يظهر سؤال مهم: هل هناك فرق بين الملة والدين؟

الجواب: دعنا نحاول تلخيص كلام أهل العلم في الفرق بينها وبين الدين: هذان المصطلحان: (الملة والدين) متقاربان، والأصل في الكلمات القرآنية أن الترادف الكامل غير وارد، وأن الترادف الكامل في العربية قليل كما قرر عددٌ من المحققين^(١).

وَالْفُرسُ تزعم أن كلمة (الدين) لفظ فارسي، وتحتج بأنهم يجدونه في كتبهم المُولَّفة قبل دُخُولِ الْعَرَبِيَّةِ أرضهم بألف سنة، ويذكرون أن لَهُم خطأ يَكْتُبُونَ بِهِ كِتَابَهُمُ الْمُنْزِلَ بزعمهم، وأن زرادشت نبي من الأنبياء، ونحن نجد للدين أصلًا واشتقاقًا صَحِيحًا فِي الْعَرَبِيَّةِ، وَمَا كَانَ كَذَلِكَ لَا نَحْكُمُ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ أَعْجَمِي، وَإِنْ صَحَّ مَا قَالُوهُ فَإِنَّ كَلِمَةَ (الدين) مما اتَّفَقَ عَلَيْهِ فِي لَفْظِهَا ومعناها بين اللغتين

(١) يراجع كتابنا: الأساس والتنوير في أصول التفسير (٣٩٦/٢-٤٢٥).

العربية والفارسية^(١)، مثل كلمة (مصحف) في العربية والحبشية، ومثل كلمة (كهف) في العربية واللاتينية ببعض فروعها^(٢).

فكلمة (دين) عربية، وسبق تفصيل دلالتها اللغوية في تفسير سورة الفاتحة، ولشدة تقارب معناها مع كلمة (ملة) مال بعض أهل العلم إلى أنهما مترادفان، فذهب الراغب رحمه الله إلى أن المِلَّةَ كالدين، فقال: "هو اسم لما شرع الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء ليتوصلوا به إلى جوار الله ﷻ"، وجعلهما الإمام القرطبي رحمه الله مترادفين، فقال: "الملة: وهي الدين والشرع"^(٣)، لكن الصحيح أن بينهما فرقاً دقيقاً عند التأمل، وقد شعر بذلك القرطبي رحمه الله ذاته، ففرق بينهما في موضع آخر من تفسيره، ودعنا نحاول جمع الفروق بينهما:

أولاً: الدين يقال اعتباراً بمن شرعه، وهو في الإسلام: الله ﷻ، فتقول: هذا دين الله ﷻ، فهو الذي يدين الله ﷻ به الناس أي: يحاسبهم وفقه، والملة تقال باعتبار من سلكها، ولا تكاد توجد مضافة إلى الله ﷻ، فلا يقال: ملة الله ﷻ.

ثانياً: الدين يقال باعتبار من خضع له سواء أكان نبياً أم ملكاً أم أفراداً، فتقول: ديني الإسلام، أي: الإسلام نظام محدد أخضع له، وأسير به في حياتي، وتقول الإسلام دين الأنبياء: آدم ونوح وإبراهيم... عليهم الصلاة والسلام، وقد تنسبه إلى غيرهم باعتباره نظاماً كما قال الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [يوسف: ٧٦]، أي: نظامه الدستوري الذي وضعه للتعامل مع الحوادث الجنائية، مثل: السرقة، فخضع له الشعب الذي يسوسه هذا الملك.

والملة لا تضاف إلا إلى نبي له مزية محددة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٥]، ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي﴾ [يوسف: ٣٨]، فلا تنسب إلى أحاد أمة النبي ﷺ، فلا يقال: ملتي وملة زيد^(٤).

(١) الفروق اللغوية، للعسكري (ص: ٢٢٠).

(٢) أميل في عدد من الكلمات إلى أن أصلها عربي، وإنما تحرفت في اللغات الأخرى بحسب نطقهم مثل: كهف، وغيرها.

(٣) تفسير القرطبي (١٣٢/٢).

(٤) حاول القرطبي رحمه الله في جامع (١٣٢/٢) التفريق بين الدين والملة، بقول يشبه هذا لكن العبارة عنه لم تكن مبينة، فقال: "والملة: اسم لما شرعه الله لعباده في كتبه، وعلى السنة رسله، فكانت الملة والشرعة سواء. فأما الدين: فقد فُرق بينه وبين الملة والشرعة، فإن الملة

ثالثاً: الدين يستعمل في جملة الشرائع وتفصيلها، فتقول: دين الإسلام، ويقال: الصلاة دين، والصوم دين، وصلة الرحم دين، والملة تستعمل في جملة الشرائع لا في أحادها، فلا يقال: الصلاة ملة، أو ملة الصلاة، لكن يقال: الصلاة ملة إبراهيم، أي: من ملة إبراهيم عليه السلام.

رابعاً: الدين يقال باعتبار الأفراد والجماعات، فيقال: هذا دينك، وهذا دين أهلك وقومك، والناس، وأما الملة فتقال باعتبار المجموع: ملة آبائي، فالملة مذْهَبُ جَمَاعَةٍ يشير بعضهم أن ما هم عليه قد سار عليه من قبلهم كما سبق.

خامساً: الدين خضوع وعبادة وتسليم، أما الملة فطريقة ومنهج، فالدين والملة متحدان بالذات، مختلفان في الاعتبار، فإن الشريعة من حيث إنها تطاع، تسمى: ديناً، ومن حيث إنها يسير عليها اللاحقون، تسمى: ملةً، فهي الطريقة، ويفرّز ذلك السمين الحلبي رحمته الله، فيقول: «والدين: الملة، لكن الدين يقال اعتباراً بالطاعة والانقياد للشريعة، قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يُؤَقِّبُهمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ [النور: ٢٥] أي: جزاءهم أو حسابهم»^(١).

سادساً: الدين يقال بالنظر إلى الجزاء، من دان به، أي نظم حياته وفقهه، فدانه أي: حوسب عليه وفق ذلك، أما الملة فتقال: باعتبار السلوك الثابت، فمن أصول الملة في العربية أن تأتي من: أملت الكتاب، قال تعالى: ﴿وَلِيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلِيَتَّقِيَ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنَّ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلِيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وتقال الملة اعتباراً بالشيء الذي شرعه الله تعالى على نبيه، وهذا قريب مما قرره الماوردي رحمته الله فقال: "والفرق بين الملة والدين أن الملة ما شرعه الله تعالى، والدين ما اعتقده الناس تقرّباً إلى الله تعالى، فصار كلُّ دين ملةً، وليس كلُّ ملةٍ ديناً"^(٢).

والشريعة: ما دعا الله عباده إلى فعله، والدين: ما فعله العباد عن أمره "، وإنما ذكرت قوله ليُعلم أن كثيراً مما نصل إلى تقريره ألهمنا إياه كلام علمائنا السابقين رحمهم الله، وحاولنا -قدر الإمكان- تدقيق العبارة لتكون أوضح.

(١) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ (٣٥ / ٢).

(٢) انظر: تفسير الماوردي (٢ / ٢٣٩).

سابعًا: يظهر أن الملة تطلق على عظم الدين وأصله، وجملة ما يجيء به الرسل، قال الغزالي رحمه الله "والملة عبارة عن أصل الدين والتوحيد والتقديس الذي تتفق فيه جميع الشرائع"^(١)، فهي خاصة.

فالملة اسم للمسائل العقديّة الفكرية وأركان الشريعة الثابتة التي لا تتبدل، تُملَى على الناس ليستسمعوها من نبي إلى نبي، ويوصى بها من عهد إلى عهد، ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، فدخل في ذلك المسائل الإيمانية، والشرائع الدائمة كالصلاة والصيام والزكاة والذكر؛ إذ تجدها في كل الكتب وعند كل النبيين، فهذا عيسى بن مريم عليه السلام يقول: ﴿وَأَوْصَيْتَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۖ﴾ [مريم: ٣١، ٣٢] كما أن أمه من قبل يقال لها: ﴿يَمْرَيْمُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣]، وكذلك الخطاب لبني إسرائيل: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وأخذ الله ﷻ الميثاق عليهم، فذكر عباداتٍ أوجبها عليهم وعلى غيرهم، فقال ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٨٣].

أما الدين فيشمل الأصول والفروع.

وفي هذه المشجرة تلخيص للفرق بين الملة والدين:

(١) المستصفى (٢٥٦/١).

الفرق بين الدِّين والمِلَّة



وهنا يأتي سؤالٌ عن الشريعة، إذ سيقال: كذلك نجد في القرآن اسمَ الشريعة حيث يقول الله ﷻ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الباقية: ١٨]، ويقول: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]. فماذا عن الشريعة؟ وما علاقتها بالملة والدين؟

الجواب: الشريعة يدل عليها اسمها الواضح، فهي اسمٌ لكل ما شرعه الله ﷻ، ولكنها اختصت عرفاً بالتشريعات العملية، ويدخل فيها ما قد يطرأ عليه النسخ، أما الدين فإنه بمفهومه العام يشمل الملة والشريعة، فالدين من (دانه) أي: ساسه وأخضعه، فدان به أي: خضع وانقاد له ونظم حياته وفقهه، ودانه أي: حاسبه وجازاه وفق ذلك الدين، فالدين عند الله ﷻ هو الإسلام الذي دان به الأنبياء منذ خلق آدم عليه السلام إلى أن صدر الإعلان الإلهي بأن الإسلام هو الدين الذي رضي به الله ﷻ للعالم، ولم يرض سواه ديناً، فقال ﷻ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقررنا سابقاً أن الملة هي عظمُ الدين، أو أصل الدين الذي لا يطرأ عليه النسخ في جملته من التصورات العقدية الفكرية والقضايا العملية، وأما الشريعة فهي القضايا العملية التي قد تقبل النسخ، فيدخل في الملة الصلاة والزكاة، فهي من الأمور المستقرة عند الأنبياء ﷺ وإن اختلفت تفاصيلها.

والملة والدين عامان تدخل فيهما الشريعة التي تمثل جزءاً منهما، ويستبين ذلك بأن تسمع قول الله ﷻ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾، فهذه هي الملة، ثم تقرأ: ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾، فهذه أحكام عملية لكنها تدخل في الملة؛ لأنها مشروعة منذ بدء الخليقة - فيما يظهر-، وتدخل تفاصيلها في الشريعة، ثم بين الله ﷻ أن كلاً من الأمرين يشكّلان الدين، فقال ﷻ: ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

ومن الأحكام العملية التي في الملة أيضًا ما قاله ابن عبد البر رحمته الله: "قصُّ الشارب والختان من ملة إبراهيم لا يختلفون في ذلك" ^(١)، ومن الشرائع المشهورة قبل ملة إبراهيم عليه السلام ثم استقرت مشتهرة عند المسلمين والوثنيين في عهد إبراهيم عليه السلام: تحريم نكاح الأخت، ولذا قال إبراهيم عليه السلام للملك الذي سأله عن زوجته سارة: "هذه أختي" والمراد كما قال ابن حجر رحمته الله: "أخوة الإسلام، وإلا فنكاح الأخت كان حرامًا في ملة إبراهيم عليه السلام" ^(٢).

وكذلك تتكرر في القرآن المجيد هذه الكلمات الثلاث: الصراط المستقيم، الدين، الملة كما في قوله ﷻ: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِثْلَ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ١٦١]، فما العلاقة بينهما؟

الجواب: ذهب بعض أهل العلم إلى ترادف الثلاثة، فحسب تعريف هذه الآية ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِثْلَ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ١٦١] يظهر الترادف بين الدين والملة في الإطار العام، وأن كلاً منهما يعبر عن الصراط المستقيم، وإعرابها يوضح ذلك:

فقوله: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ﴾ الجملة مستأنفة لتكرير ما يجب فعله وقوله على كل قارئ للقرآن، و(إن) تأكيدية، واسمها هو ضمير الياء، وجملة ﴿هَدَيْتُ رَبِّي﴾ خبرها، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، و﴿إِلَى صِرَاطٍ﴾ جار ومجرور متعلقان ب﴿هَدَيْتُ﴾ على أنه مفعول به ثانٍ، ﴿دِينًا قِيَمًا مِثْلَ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ^(٣) ﴿دِينًا﴾ نُسب على البديل من محل ﴿إِلَى صِرَاطٍ﴾، لأن معناه: هداني صراطاً، و(هدى) يتعدى تارة (إلى) كما هنا، وتارةً بنفسه كما في قوله ﷻ: ﴿وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢٠]، و﴿قِيَمًا﴾ صفة، أي: مستقيماً، و﴿مِثْلَ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ بدل من ﴿دِينًا﴾، و﴿حَنِيفًا﴾ حال من إبراهيم ^(٣).

فكان ﴿دِينًا﴾ هو ذاته (الصراط المستقيم)، وكذلك ﴿مِثْلَ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾.

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٥٨/٢١).

(٢) فتح الباري (٣٢٤/١٢).

(٣) إعراب القرآن وبيانه (٢٨٧/٣).

فلماذا هذا الحشد الهائل لمصطلحات متقاربة: صراط مستقيم، ديناً قيماً، ملة إبراهيم؟
الجواب: لأن كل تسمية ومصطلح من هؤلاء يعطي مدلولاً غير مدلول الآخر في جزء منه، فلا يوجد
ترادف حقيقي صلب، فالتغاير الجزئي بين هذه المصطلحات الثلاثة يحبو كل واحد منها امتيازاً
خاصاً في مدلوله:

ف"الصراط المستقيم" يبين أن الإسلام هو الطريق الواسع الموصل إلى أعظم
أهداف الحياة التي يجب أن يقصدها كل إنسان.
و"الدين" يعطي معنى النظام الذي تدين به في الدنيا، وتُدان عليه في الآخرة.
و(ملة إبراهيم) المستقيمة ذات القيمة تعطي الامتياز لرسالة النبي ﷺ في أنها جاءت
على الطريق الذي سار عليه إبراهيم عليه السلام، وسار عليه الصالحون من ذريته، فهي
تتضمن أعظم الرد على المتلاعبين باسم: (اتفاق إبراهيم).

وقد يتساءل بعض المتدبرين: لماذا نُسبت الملة إلى إبراهيم عليه السلام لا إلى من قبله من الأنبياء مثل
آدم ونوح وهود وصالح عليه السلام؟

الجواب: يظهر أن النسبة إلى إبراهيم عليه السلام لأمرين:

الأول: لأن إبراهيم عليه السلام يمثل مرحلة تاريخية من تاريخ البشرية تمايزت فيها الشعوب والقبائل
المنتسبة إلى آدم عليه السلام، فامتدت ذريته، وحان عندها الوقت المناسب للتفصيل التشريعي الأوسع في
المسائل الاجتماعية، وهذا حدث بصورة واضحة منذ إبراهيم عليه السلام.

الثاني: أن إبراهيم عليه السلام يمثل نقطة التقاء لأعظم الأنبياء والمرسلين الذي انبثقوا من إسماعيل
وإسحاق عليه السلام، وملته هي المبادئ المشتركة التي يجب أن يتحاكم إليها كل من ينتسب إلى فرعيه:
إسماعيل وإسحاق عليه السلام، ولذا قال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ
أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٣) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ
الْعَالَمِينَ (١٤) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا
وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٥) [البقرة: ١٣٠-١٣٢].

فَذِكْرُ ﴿مَلَّةٍ إِبْرَاهِيمَ﴾ فيه ردٌ لتخريفات الصهاينة وأشياعهم، ومن يعبت بهم ومعهم في لعبتهم الخطيرة من النصارى المتصهينين.

واستطراداً لما سبق: لماذا نَصِفُ الملة بأنها الحنيفية السمحة؟ وما وجه وصفها بالسمحة؟

الجواب: هناك ملمح يتعلق بالشرائع العملية المستقرة في ملة إبراهيم عليه السلام، فهي تتوافق مع الفطرة، وهي سمحة تنفي الحرج عن الإنسانية، ولذا قال العلامة ابن عاشور رحمته الله: "ومعنى اتباع محمد عليه السلام ملة إبراهيم عليه السلام الواقع في كثير من آيات القرآن: أن دين الإسلام بُني على أصول ملة إبراهيم عليه السلام، وهي أصول الفطرة، والتوسط بين الشدة واللين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]"^(١).

وقد علق الشيخ إسماعيل على قول ابن عاشور رحمته الله السابق بتعليق متين خلاصته أن التحقيق يقتضي التنبيه هنا على أن عبارة: "بُني على أصول ملة إبراهيم عليه السلام" فيها نظر؛ فالصواب عقيدة ولغة أن دين الإسلام هو الأصل الأزلي، والأساس الذي بُعث به جميع الأنبياء، وملة إبراهيم عليه السلام فرع منه، ولا يُجعل الأصل فرعاً يُبنى على غيره، بل ملة إبراهيم عليه السلام هي المبنية على أصل الإسلام الذي هو الدين عند الله تعالى في اللوح المحفوظ.

وعَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ عليه السلام أَنَّ النَّبِيَّ عليه السلام قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ» قَالَ: فَقَرَأَ عَلَيْهِ ﴿لَمْ يَكُنْ﴾ [البينة: ١]، وَقَرَأَ عَلَيْهِ: «إِنَّ ذَاتَ الدِّينِ عِنْدَ اللَّهِ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ، لَا الْمُشْرِكَةُ وَلَا الْيَهُودِيَّةُ وَلَا النَّصْرَانِيَّةُ، وَمَنْ يَعْمَلْ خَيْرًا فَلَنْ يُكْفَرَهُ، وَقَرَأَ عَلَيْهِ: لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادٍ لَا يُتَغَى إِلَيْهِ ثَانِيًا، وَلَوْ أُعْطِيَ ثَانِيًا لَا يُتَغَى إِلَيْهِ ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ»^(٢).

والذي يظهر لي أنه قرأ عليه سورة ﴿لَمْ يَكُنْ﴾ مستقلة، ثم قرأ عليه، أي: حدّثه أو أكتبه بقية الحديث كما يظهر في رواية الضياء المقدسي المذكورة سابقاً، فَالْتَبَسَ ذلك على بعض الرواة، فظنوا الزيادة من سورة البينة كما تُؤهِمُهُ رواية أحمد، وليس كذلك، فعَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ عليه السلام، قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ» قَالَ: فَقَرَأَ: ﴿لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ

(١) التحرير والتنوير (١٤ / ٣٢٠).

(٢) الأحاديث المختارة، لضياء الدين المقدسي، (٣ / ٣٦٨)، وصحّح إسناده.

الْكِتَابِ ﴿البينة: ١﴾ قَالَ: فَقَرَأَ فِيهَا: «وَلَوْ أَنَّ ابْنَ آدَمَ سَأَلَ وَادِيًا مِنْ مَالٍ فَأُعْطِيَهُ، لَسَأَلَ ثَانِيًا، وَلَوْ سَأَلَ ثَانِيًا فَأُعْطِيَهُ، لَسَأَلَ ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ، وَإِنَّ ذَلِكَ الدِّينَ الْقَيِّمَ عِنْدَ اللَّهِ الْحَنِيفِيَّةُ، غَيْرَ الْمُشْرِكَةِ، وَلَا الْيَهُودِيَّةِ، وَلَا النَّصْرَانِيَّةِ، وَمَنْ يَفْعَلْ خَيْرًا، فَلَنْ يُكْفِرَهُ»^(١).

فواضح أن الزيادات على سورة البينة ليست منها، بل هي تعقيب من النبي ﷺ اقتضاه السياق.

قلنا من قبل: إن هذا المفهوم: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أعطى امتيازًا خاصًا لرسالة النبي ﷺ عندما يحاور أهل الكتاب، فهل يمكن إيضاح ذلك أكثر في ضوء الفروق بين الدين والملة والشرعية؟

الجواب: الملة لا تنسخ ولا تتغير كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، أما الشريعة فقد تُنسخ، ويزاد فيها ويُنقص، وتفصل كما قال الله ﷻ عن عيسى عليه السلام: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، وقال عن نبينا محمد ﷺ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ولذا نجد في كتاب الله أن الله ﷻ يُعَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ أن يطالب أهل الكتاب دائمًا بالرجوع إلى الملة الإبراهيمية أثناء محاورتهم كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفَاهَةٍ نَفْسِهِ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيَّتِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [١٣٣] وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى

(١) ولعل الوهم كان من جبل الحفظ شعبة ؓ، ففي مسند أحمد (٢١٢٠٢) عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ ؓ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ» قَالَ: فَقَرَأَ عَلَيَّ: «لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ» رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿١﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةُ ﴿٢﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴿٣﴾ [البينة: ١-٤] «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْحَنِيفِيَّةُ، غَيْرَ الْمُشْرِكَةِ، وَلَا الْيَهُودِيَّةِ، وَلَا النَّصْرَانِيَّةِ، وَمَنْ يَفْعَلْ خَيْرًا فَلَنْ يُكْفِرَهُ» قَالَ شُعْبَةُ: ثُمَّ قَرَأَ آيَاتِ بَعْدَهَا، ثُمَّ قَرَأَ: «لَوْ أَنَّ لِبْنِ آدَمَ وَادِيَيْنِ مِنْ مَالٍ، لَسَأَلَ وَادِيًا ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ» قَالَ: ثُمَّ خَتَمَهَا بِمَا بَقِيَ مِنْهَا.

وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٦﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ [النساء: ١٢٣ - ١٢٥].

وطبق النبي ﷺ ذلك، فقد جاءه رسول هرقلي التنوخي، وحدّث عن ذلك اللقاء، فقال هذا الرسول: فقلت: أين صاحبكم؟ قيل: ها هو ذا، فأقبلت أمشي حتى جلست بين يديه، فناولته كتابي، فوضعه في حجره، ثم قال: «ممن أنت؟» فقلت: أنا أحد تنوخ، قال: «هل لك في الإسلام الحنيفية ملة أبيك إبراهيم؟» قلت: إني رسول قوم، وعلى دين قوم لا أرجع عنه حتى أرجع إليهم، فضحك وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَئِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ [الفصل: ٥٦] ^(١).

وهنا يطراً سؤال: قولهم: ﴿أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨] وقوله: ﴿قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنَّ عَدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٩] يدل على أنه ﷺ كان على ملة أبيهم التي هي الكفر، فهذا يقتضي أنه ﷺ كان كافراً قبل ذلك، قال الرازي رحمه الله وهو يضع هذا السؤال: وذلك في غاية الفساد، فهل الأمر كذلك؟

الجواب: سبق أن ذكرنا أن بعض المفسرين ذهبوا إلى التكلف في تفسير هذا الموضع، فزعموا أن كلمة (عاد) بمعنى صار، فيكون المعنى عندهم: أو لتصيرن في ملتنا، فلماذا لجأ هؤلاء المفسرون الأبرار ﷺ إلى هذا التفسير؟

قالوا: لا يعقل أن يكون شعب ﷺ كان على تلك الجاهلية الأولى، وأنا أميل إلى أن كل نبي لم يكن يشارك في أي وثنية جاهلية قبل نبوته، وإنما قد تقع منه أخطاء عارضة غير مقصودة قبل النبوة، كما وقع من موسى ﷺ عندما قتل النفس، ثم اعترف بذنبه، واستغفر ربه ﷻ، وذكر أنه عندما فعل ذلك كان من الضالين، لكن هذا المبرر ليس كافياً لتغيير معنى الكلمة من (عاد) إلى (صار)،

(١) أحمد (١٥٦٥٥). وقال عنه محققوه: حديث غريب وإسناده ضعيف. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٣٦): «رواه عبد الله بن أحمد، وأبو يعلى، ورجال أبي يعلى ثقات، ورجال عبد الله بن أحمد كذلك»، وأورده ابن كثير في البداية والنهاية (١٥/ ١٦)، وعزاه إلى أحمد، ثم قال: هذا حديث غريب، وإسناده لا بأس به! تفرد به الإمام أحمد.

ΣΥΣ

أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلْكَتُبُ وَلَا أَلَايْمُنُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا
وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ [الشورى: ٥٦].

هنا نرى أنه قد اتضح لنا المشهد الرابع، وهو مشهد قوى الاستكبار يفتتحون حملة الاضطهاد
ضد القوى المصلحة أي: ضد شعيب عليه السلام وأتباعه المؤمنين، وذلك في قوله تعالى: ﴿* قَالَ أَلْمَلَأُ
الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَخُورِجَتِكَ يُدْعِبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾
ثم قال الله عز وجل بعدها: ﴿قَالَ أُولَؤُ كُنَّا كَاذِبِينَ﴾ [الأعراف ٨٨]، فما المشهد الذي يبديه هذا
الجواب من شعيب عليه السلام؟
الجواب: هنا يأتي المشهد الخامس:

المشهد الخامس

مشهد الرد الحكيم الصاعق أمام التهديدات المجرمة المستكبرة [الأعراف ٨٨-٨٩]

المُعَلِّمُ الثاني

إعلان تعظيم الله ﷻ وتعظيم دينه، ببيان الجريمة الكبيرة التي يقع فيها شعيب عليه السلام ومن معه لورجعوا إلى الملة الوثنية: ﴿قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ...﴾ [الأعراف: ٨٩]

المُعَلِّمُ الأول

المباشرة في الردِّ مع الحكمة في الكلمات والأسلوب، فبينَ كراهته وأتباعه للملة الظالمة: ﴿قَالَ أَوْلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨]

المُعَلِّمُ الرابع

بيان سعة علم الله ﷻ، فهو يعلم من يستحق العقاب فيعيده إلى الملة الوثنية جزاءً وفاقاً: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: ٨٩]

المُعَلِّمُ الثالث

العودة إلى الملة الوثنية يعني نفي وجود الحقيقة الإنسانية: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٨٩]

المُعَلِّمُ السادس

طلبُ الفصلِ من الله ﷻ الذي يؤدي إلى النصر والفوز على المستكبرين: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]

المُعَلِّمُ الخامس

الاعتزاز الكامل بالتوكل على الله ﷻ، ولذا قال شعيب عليه السلام في مرافعته المدهشة أمام الملأ المستكبرين: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف: ٨٩]

المشهد الخامس: مشهد الرد الحكيم الصاعق أمام التهديدات المجرمة المستكبرة [الأعراف]

. [٨٨-٨٩]

انتقل المشهد إلى شعيب عليه السلام ليرد على تلك الحملة الظالمة التي شنّها المملأ المستكبرون، ووصف الله ﷻ هذا الانتقال، فقال: ﴿قَالَ أَوْلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ ۖ قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنَّ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ۖ﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩].

تبصّرنا كلمات هاتين الآيتين بالرد المباشر على التهديدات المستكبرة:

بصيرة: ﴿قَالَ﴾ أي: قال شعيب عليه السلام، ويظهر أنه لم يصبر لتدّارس الأمر مع أتباعه، بل ردّ من فوره على القوى المستكبرة ﴿قَالَ أَوْلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ ۖ﴾، وإنما ردّ بصورة مباشرة لأن كلام القوى المستكبرة لا بد له من الرد المباشر، فهم لم يزيدوا على التهديدات التي طالبوا فيها بما لا يمكن احتماله، ولا الصبر على سماعه، وهو: إما أن يُخرجوهم من الدولة، وإما أن يعودوا في ملتهم. وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذكر شعيباً عليه السلام قال: «ذاك خطيب الأنبياء»^(١)! لحسن مراجعته قومه، ومحاورته لهم، وجوابه على كلامهم.

وهنا سؤالٌ يَبْزُلُنَا: لماذا اتصل رد شعيب عليه السلام بكلام المستكبرين في آية واحدة؟ لماذا لم يكن ردّه في آية أخرى؟

الجواب: كأنّ ذلك ليبصّرنا الله ﷻ بضرورة الرد المباشر على التهديدات المستفزة، ولكن يجب أن يكون الرد جامعاً بين القوة والحكمة، فترك واحدٍ منهما يعني خسارة من نوع ما، وهذا ما نُبصّر فيه هذا الرد الحكيم القوي الصاعق.

(١) المستدرک: (٤١١٥)، طبعة دار الرسالة، وسكت عنه الذهبي في "التلخيص" وفيه سلمة بن الفضل بن الأبرش، قال في "الميزان": ٢/ ١٩٢: «ضعفه ابن راهويه، وقال البخاري: في حديثه بعض المناكير، وقال ابن معين: كتبنا عنه وليس في المغازي أتم من كتابه، وقال النسائي: ضعيف، وقال أبو حاتم: لا يحتج به»، وقال محققو المستدرک: «المرفوع منه ضعيف لإرساله، وقد سمعه محمد بن إسحاق من يعقوب بن أبي سلمة المايجشون، وهو مرسل كذلك؛ لأنّ المايجشون تابعي».

فقد أعلن لهم شعيب عليه السلام: أنه سيقف عند الحد الذي لا يمكنه تجاوزه خطوة، وهو حد المسالمة والتعايش، بشرط على أن يُترك لمن شاء أن يدخل في العقيدة التي يشاء، وأن يدين للسلطان الذي يشاء، حتى يحكم الله تعالى بين الفريقين، ولا يجوز لصاحب دعوة أن يتنازل عن هذا الموقف ولو قليلاً، مهما كانت الضغوط أو التهديدات من الطغاة، وإلا كان تنازلاً كاملاً عن الحق الذي يدافع عنه وخيانة له.

فلما ردوا على عرض شعيب عليه السلام بالتهديد بطرده من قريتهم أو إجباره على العودة إلى دينهم، أصرَّ شعيب عليه السلام على الحق، متمسكاً بملته، رافضاً العودة إلى الملة الخاسرة التي أنقذه الله تعالى منها، وتوجه إلى ربه تعالى يدعو ويستنصره، طالباً تحقيق وعد الله بنصر الحق وأتباعه.

وهنا نسأل في شوقٍ: اتصل ردُّ شعيب عليه السلام في ختام هذه الآية بالآية التي بعدها، فما المعالم التي حوّاها ردُّه على تهديدات قومه؟

الجواب: ترى في الردِّ الشُعبي الحكيم المحكم ستة معالم، تفصلها كما يأتي:

المعلم الأول: المباشرة في الردِّ مع الحكمة في الكلمات والأسلوب، فلم يزد ابتداءً على أن بين كراهته وأتباعه للملة الظالمة التي يتبعها المستكبرون، وللتهديد المجرم غير المسؤول الذي قررره، وقالوه، فقال الله تعالى عن ذلك: ﴿قَالَ أَوْلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨].

فالمهزة في قوله: ﴿أَوْ﴾ للإنكار عليهم، ولتغيير تفكيرهم نحو شيء جديد حتى لا يترتب على ذلك معركة خطيرة قد تؤذي القلة المؤمنة.

والواو في ﴿أَوْ﴾ من عطف التلقين، فالواو للعطف أو للحال، وهي تتعلق بمحذوفٍ بعد همزة السؤال الإنكاري، وتقدير الكلام: قال شعيب عليه السلام لقومه: أخرجونا من وطننا، وتسلبونا حقنا فيه، أي: في جنسيتنا وانتسابنا إليه، أو تجبرونا على العودة في ملككم ولو كنا كارهين لكل من الأمرين؟

فحذف الجملتين الأوليين بعد همزة السؤال لأنهما معلومتان من السياق، وأدخل "ألف" السؤال على (واو) ﴿وَلَوْ﴾ فصارت بهذا التركيب ﴿قَالَ أَوْلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾.

وهذا الجواب منه عليه السلام يبين لهم فيه أن تهديداتهم غير عاقلة، وأن ملتهم باطلة، وإلا لما جاز أن يعتنقها المرء حال كونه كارهاً، فإن الملة الحق لا تُقبل ممن يكرهها، بل يدخلها المرء عن قناعة ومحبة.

وهنا نسأل: لماذا كان قول شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ أَوْلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ﴾ رداً مناسباً على التهديد الاستكباري الذي لَوَّحت به قوى الاستكبار المَدِينِيَّة؟ لماذا لم يقل لهم مثلاً: أنتم فاسدون، أو نحن على الحق ثابتون مهما هددتم؟ لماذا اختار هذا التعبير المدهش وغير المتوقع ﴿قَالَ أَوْلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ﴾؟

الجواب: لأن هذا الرد غير المتوقع جمع أربعة أوصاف تجعل قائله المنتصر الأعلى: الحكمة، والقوة، والرد المصيب المحيط بجميع اتجاهاتهم، والتأثير الإيجابي. فالحكمة لأنه لم يكن رداً استفزازياً، فلم يقل لهم: أروني قوتكم، أو أتحداكم، أو تعالوا نتواجه، بل رداً عليهم رداً يُظهر لهم فيه أن تنفيذهم لتهديدهم قرارٌ لا يدل على ذكاء، ولا ينبئ عن أنهم اتخذوا موقفاً مناسباً لعلاج أزمته مع شعيب عليه السلام والمؤمنين معه عليه السلام، وهذا الرد الحكيم يجعل قوى الاستكبار مرتبكة في التعامل معهم.

وأما قوة هذا الرد فلأن شعيباً عليه السلام بقوله: ﴿أَوْلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ﴾ عبّر لهم عن أن تهديدهم غيبي ولا أثر له، فإن العود في تلك الملة الوثنية - لو وقع - فسيكون عن كراهية لها، فأظهر شعيب عليه السلام نظامهم الجاهلي بالمظهر الباطل المكروه المنبوذ القبيح الذي ينبغي أن يتقزز منه العقلاء، وينفر منه الأذكاء وكل من عنده استقامة في الطباع، وكأنه يقول لهم: ومثل ذلك كراحتنا لمفارقة ديارنا، وترك وطننا، وإبقائه تحت حكمٍ فاسدٍ مدمر.

وفي هذه الكلمات الموجزة تتضح حقيقة الإيمان وطعمه العذب في قلوب أهله، مقابل طبيعة الجاهلية ومذاقها الكريه، كما نرى في قلب الرسول ذلك المشهد البديع، مشهد تجلي الحقيقة الإلهية في ذلك القلب وكيف تشرق فيه.

بِمَ يَذْكُرْكَ هَذَا يَا صَاحِبَ الْقُرْآنِ؟

يذكرك بقول النبي ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ، بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ»^(١).

هنا نسأل عن أسلوب شعيب عليه السلام: فلماذا اختار أن يكون رده مبدوءاً بالسؤال لا بالإنكار المباشر، ولا بأسلوب التعجب؟

الجواب: لأن أبلغ أسلوب يمكن أن يُؤتى به أمام استكبارهم هو السؤال، فالسؤال هنا مخاطبة لعقولهم، وهو يعكس في شخصية شعيب عليه السلام مدى نور الوحي، والذكاء المتوقد البراق، والقدرة الحصيفة، والبديهة العظيمة، وكل ذلك يجعل شعيباً عليه السلام في موقف الأقوى والأعلى في الحوارات والمجادلات.

لقد أتى هذا الخطيب المتفوق في جوابه بما لا يُغادر شيئاً أوردته خصمه في حوارهِ إلا ردَّ عليه جزءاً وكلاً^(٢).

جمع شعيب عليه السلام هنا الإنكار لكلامهم، والتعجب من صنيعهم، والإشارة إلى فساد الخطاب الذي قاله الطرف الآخر، وكل ذلك يأتي من جهة السؤال لا من جهة غيره من الأساليب. فكانه يخبرهم بمنتهى فساد تهديدهم بأجمل أسلوب مثير.

إن معنى تهديدهم أنهم فشلوا في أن يقنعوا المؤمنين بأن ملتهم تحمل معاني الصدق والسعادة للبشرية.

إن نتيجة تهديد القوى المستكبرة هي إكراه المؤمنين على العودة إلى ملة المفسدين، والسؤال يجعلهم يظهرون بمظهر الأحمق المتغطرس الذي لا يملك حجة مقنعة، وليس له إلا القوة التي تصدر من أبلد العقول وأغباها.

هل يملكون عقولاً عندما يصرون على أن يُكرهوا غيرهم على اعتناق عقيدة فاسدة. إن الله ﷻ منع من استعمال عصا الضَّغْطِ والإكراهِ للدخول في الدين الحق فكيف يستخدمونه في فرض عقيدة فاسدة تفسد في الأرض؟!

(١) البخاري (٢١).

(٢) التحرير والتنوير (٧/٩).

قارن بين هذه العقيدة المفسدة في الأرض، وقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦] تجد الفرق الواضح.

وكأن التعجب والاستنكار الذي نفهمه في السؤال يخبرنا بالآتي:
فهل تظنون أن التهديد يمكن له أن يزعزع المؤمن عن الثبات على الملة التي ينبغي أن تقابل بالمحبة؟
هل يمكن للتهديد أن يدفع قوى الخير إلى ترك الخير والدعوة إليه والتحول إلى عقيدة مكروهة منبوذة فاسدة؟

هل يمكن أن تتصور قوى الاستكبار أن قوى الخير يمكن أن تُؤثر خيراتِ التمتع بالإقامة في الوطن في ظل نظام وثني جاهلي مستغل مفسد في الأرض على العقيدة الصالحة التي تقدم الخير للإنسانية، وتصلها بالله رب العالمين؟!

قل للذي جعلَ البلادَ بعرضِها	سَجَنًا وِبَاتَ الشَّعْبِ شَرَّ سَجِينِ
يا أيها المغرورُ في سلطانيه	أَمِنَ التُّضَارِ خُلِقْتَ أَمَ مِنْ طِينِ؟
يا مَنْ أَسَأْتَ لِكُلِّ مَنْ قَدْ أَحْسَنُوا	لَكَ دَائِنِينَ فَكُنْتَ شَرَّ مَدِينِ
يا ذئبَ غَدِرٍ نَصَبُوهُ رَاعِيًا	وَالذَّنْبُ لَمْ يَكُ سَاعَةً بِأَمِينِ
يا مَنْ زَرَعْتَ الشَّرَّ لَنْ تَجْنِيَ سِوَى	شَرٍّ وَحَقْدٍ فِي الصَّدُورِ دَفِينِ

وقد تسأل: لماذا يصبر المستكبرون على إعادة شعيب عليه السلام ومن معه إلى ملتهم؟

الجواب: لأنهم ظنوا أَنَّ "الْمِلَّةَ رَابِطَةٌ تَقْلِيدِيَّةٌ وَعَصَبِيَّةٌ قَوْمِيَّةٌ، يَجْرِي أَصْحَابُهَا فِيهَا عَلَى قَوْلِ الشَّاعِرِ:

وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةٍ إِنْ غَوَتْ غَوَيْتُ، وَإِنْ تَرُشِدْ غَزِيَّةٌ أُرْشِدْ^(١)

وَمِلَّةُ الرُّسُلِ ﷺ لَيْسَتْ كَذَلِكَ بَلْ هِيَ دِينٌ مَالِكٌ لِلنَّفْسِ، حَاكِمٌ عَلَى الْوُجْدَانِ وَالْعَقْلِ، يُقْصَدُ بِهِ الْكَمَالُ الْبَشَرِيُّ الْأَعْلَى بِمَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْقُرْبِ مِنْهُ، وَمَا يَتَّبِعُ ذَلِكَ مِنْ صَالِحِ الدُّنْيَا وَسَعَادَةِ الْآخِرَةِ،

(١) البيت للدريد بن الصمة، وهو في ديوانه: (ص: ٦٢)، وصدره في الديوان: (وما أنا...) بدلاً من: (وهل أنا...).

فَإِنْ تَمَكَّنَ صَاحِبُهُ مِنْ إِقَامَتِهِ فِي وَطَنِهِ، وَاصْلَاحِ أَهْلِهِ بِهِ فَهُمْ أَحَقُّ بِهِ بِدَأْ وَدَوَامًا، وَإِنْ مَنَعَ فِيهِ حُرِّيَّتُهُ فَفُتِنَ فِي دِينِهِ كَأَن تَرَكُهُ وَاجِبًا^(۱).

وهذا التهديد بالإخراج من الأوطان عادةٌ مستمرة عند مجرمي الأمم في الأنظمة الجاهلية القديمة والحديثة، فقد قال قوم لوط للوط عليه السلام: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ۸۲].

وكذلك قال ورقة بن نوفل رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وآله: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَلَ عَلَى مُوسَى عليه السلام، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: «أَوْ مُخْرِجِي هُمْ؟»، قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا عُودِي^(۲).

ولقد هاجر إبراهيم عليه السلام من أرض الكفر والإجرام: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ۲۶].

وذكرنا في بصائر سورة النساء ضرورة الهجرة من أرض الطغيان إلى أرض الكرامة والعدل إذا كثرت ظلم البلدة التي يعيشون فيها سواء خافوا على دينهم أم على أنفسهم أم لم يستطيعوا العيش بكرامتهم.

"وَرُبَّ أَنَاسٍ عَزَّ عَلَيْهِمْ تَرْكُ وَطَنِهِمْ، فَأَتَرُوا الْبَقَاءَ فِيهِ مَفْتُونِينَ فِي دِينِهِمْ، فَأَظْهَرُوا الْكُفْرَ لِيَأْمَنُوا عَلَى حَيَاتِهِمْ، وَظَلُّوا يُسْرِوْنَ الْمُحَافَظَةَ عَلَى الْإِسْلَامِ فِي خَاصَّةِ أَنْفُسِهِمْ، وَلِكِنَّهُمْ لَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنْ تَلْقِيَنِهِ لِأَوْلَادِهِمْ وَتَرْبِيَتِهِمْ عَلَيْهِ، فَازْدَدَتْ دُرَيْتُهُمْ عَنْهُ فِي زَمَنِهِمْ، أَوْ مِنْ بَعْدِهِمْ، كَمَا وَقَعَ لِبَعْضِ مُسْلِمِي الْأَنْدَلُسِ بَعْدَ ثَلَاثِ (هَدَم) الْأَسْبَانِيَّيْنِ لِعَرَضِ دَوْلَتِهِمُ الْعَرَبِيَّةِ، وَإِكْرَاهِهِمْ عَلَى التَّنَصُّرِ أَوْ الْخُرُوجِ مِنَ الْبِلَادِ، فَخَرَجَ بَعْضٌ، وَبَقِيَ آخَرُونَ تَحْتَ وَعِيدِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا

(۱) تفسير المنار (۴/۹).

(۲) البخاري (۳).

فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ [النساء: ٩٧ - ٩٩] ^(١).

إلا أنه ينبغي أن نؤكد على أن الهجرة تحرم إذا كان هناك مجال للبقاء مع المحافظة على الدين، ونشره مهما كان اعتداء المعتدين، ولم يوجد معنى التحيز إلى فئة حقيقية كحال أهل فلسطين في هذه الأيام.

إذا كان المَعْلَمُ الأول من معالم المشهد الخامس (مشهد الرد الحكيم الصاعق الذي نطق به شعيب عليه السلام) قد تحدث عن: المباشرة في الردّ مع الحكمة في الكلمات والأسلوب، فما المعلم الثاني من معالم هذا الرد؟
الجواب:

المعلم الثاني: إعلان تعظيم الله ﷻ أمام المستكبرين، وتعظيم دينه الذي ارتضاه، ببيان الجريمة الكبيرة التي يقع فيها شعيب عليه السلام ومن معه لو رجعوا إلى الملة الوثنية، ويصّرنا بذلك قوله: ﴿قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ٨٩].
والمعنى: الأمر ليس بأيدينا أن نرجع إلى ملتكم؛ لأن الله ﷻ أعظم من أن نجترئ على الافتراء عليه بأن نزعم أنه يحل لنا أن نرجع في ملتكم.

[الكلمة: ١]: ﴿قَدْ﴾ كلمة تحقيق تؤكد ما بعدها في هذا السياق.

[الكلمات: ٢-٩]: ﴿أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾:

وهنا نسال: ما معنى ﴿أَفْتَرَيْنَا﴾؟ وما وجه قوة هذه الكلمة القرآنية؟ وكيف أوضح المراد منها بقوله: ﴿أَفْتَرَيْنَا﴾؟

الجواب: الافتراء من (فَرَى) ^(٢) وهي كلمة تدور حول قَطْعِ الشَّيْءِ، وإعادة تصنيعه بإحكامٍ وحذقٍ سواء أكان وحده أم مع غيره، ومنه قطع الجلد للخَزَز والإصلاح، وَفَرَيْتُ الشَّيْءَ تَفْرِيهً فَرِيًّا، إذا قطعته

(١) تفسير المنار (٥/٩).

(٢) مقاييس اللغة (٤/٤٩٦)، مفردات الراغب الأصفهاني (ص: ٣٧٩).

لتصلحه قطعاً محكماً دقيقاً، ولذلك قال ابنُ السِّكِّيتِ: فَرَى: إِذَا حَزَرَ، وَأَفْرَيْتُهُ: إِذَا أَنْتَ قَطَعْتَهُ لِلْإِفْسَادِ، ومنه قول زهير في الْفَرَى:

قيل لخلف الأحمر: زهيرٌ أشعر أم ابنه كعب؟ قال: لولا أبياتٌ لزهيرٍ أكبرها الناس لقلت إن كعباً أشعر، يريد قوله:

وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ، وَبَعْدُ ضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي

لَوْ كُنْتُ مِنْ شَيْءٍ سِوَى بَشَرٍ كُنْتُ الْمُنَوَّرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ^(١)

ويقال: فُلَانٌ يَفْرِي الْفَرَى، إِذَا كَانَ يَأْتِي بِالْعَجَبِ، كَأَنَّهُ يَفْطَعُ السَّيِّءَ قَطْعاً عَجَباً، وقال عليه السلام في عمر عليه السلام: «فَلَمْ أَرْ عَبْقَرِيًّا فِي النَّاسِ يَفْرِي فَرِيَّتَهُ»^(٢) بالتخفيف والتشديد، أي: يعمل العمل البالغ - كما قال ابن حجر رحمته الله ^(٣) - أي يبدع في إدارة شؤون الأمة، وقوله عليه السلام: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ مريم: ٢٧ أي: كذباً وذنوباً عظيماً عجيباً مصنوعاً صناعةً مبالغاً في فسادها.

فالاقتراء حقيقته: تقطيع الكلام والتصور، وإعادة بناءهما بناءً محكماً بصورة يظن السامع أنها حق، ولكن في أي جهة يكون إعادة بناء الكلام؟

في جهة الكذب، ولذلك جاءت كلمة ﴿كَذِبًا﴾ في قوله: ﴿قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ لتكون مفعولاً به أو صفة لمصدر محذوف مفعول مطلق، تقديره: افترينا على الله افتراءً كذباً، فبلغنا أسوأ أنواع الكذب المحكم المنمق وأبشع أنواعه؛ لأن السامع سيظن أننا صدقنا، وهذا ما تفعله معظم وسائل السحر الحديث التي تسمى وسائل الإعلام أو السلطة الرابعة.

وهنا تظهر براعة شعيب عليه السلام في محاوره قومه؛ إذ أخذهم بهذه الكلمة من مكانهم إلى مكانٍ آخر؛ كأنه قال لهم: هل أنتم مجانين؟ تريدون أن نعود في ملتكم، ونرتكب هذا الكذب الذي لا يوجد كذب بعده، وهو كذب منمق مزوق مزخرف نوهم به الناس أنه حق، وهو أكذب الكذب. إننا بذلك نؤكد تأكيداً كاملاً أننا نرتكب جريمة عظيمة بهذا الكذب الكبير.

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى، (ص: ٥)، وفيه: (فلأنت...) بدلاً من: (ولأنت...)، الشعر والشعراء، لابن قتيبة (ص: ١٣٩).

(٢) البخاري (٣٦٣٣)، مسلم (٢٣٩٣).

(٣) فتح الباري لابن حجر (٣٩/٧).

فما الدلالة البيانية للتونين في كلمة ﴿كَذِبًا﴾؟

الجواب: ﴿كَذِبًا﴾ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَنْوِينُهُ لِلتَّعْظِيمِ، أي: كذبًا عظيمًا لا يخفى على أحد، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لِلتَّخْفِيرِ والتبشيع^(١)، أي: كذبًا بشعًا خسيسًا لا يمكن لأحد أن يبلغه.

[الكلمات: ١٠-١٤]: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا﴾:

ما الصورة البيانية المشوقة التي يقدمها لنا قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا﴾؟

الجواب: في البداية قال: ﴿قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنَّ عُذْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾، وهذه الكلمات كافية في بيان الثبات العظيم أمام التهديد والإغراء اللذين يصحبان كلام قوى الاستكبار، لكن شعيبًا عليه السلام أطنب في الكلام وأسهب، وفصل وجمل كلامه، فقال: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا﴾ ليظهر بشاعة عروض المجرمين الذين يطالبون بالعودة إلى تلك الملة العفنة، وأتى بالبعدية ليفتخر أمامهم ويزهو بمولاه الذي أخرجه مع أتباعه من الظلمات إلى النور.

وأتى بالفعل (نَجَّى) على وزن (فَعَّل) ليصور لنا قوة إخراجهم من تلك الملة الجاهلية وعظمتها، لأن التشديد تصحبه القوة في الواقع، ثم ذكر الاسم العلم الفرد لرَبَّنَا ﷻ، وهو ﴿اللَّهُ﴾ لتجمع أمامك كل أسمائه الحسنى، فتشعر بالمجد الذي تحققه حين تنتسب إليه عبدًا صادقًا صالحًا تتبع مرضاته.

والإغراء المقصود في عرض المستكبرين مفهوم بصورة غير مباشرة، فهم لما هددوا بإخراجهم من دولتهم، كأنهم قالوا: إن عدتم في ملتنا صارت لكم المكانة اللائقة التي تحبونها من البقاء في دولتنا، والتمتع بحقوق جنسيتنا.

وهنا نسأل: من الناحية البيانية: كيف يمكن أن نصف هذا الأسلوب في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنَّ عُذْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾؟

الجواب: هذا الأسلوب المدهش ينبئك عن بريق النور القرآني، فأنت هنا ترى الذهب النضار حيث تختبئ المعاني المتعددة في الجملة الواحدة:

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢/٨).

فهذا الأسلوب إخبارٌ مُقَيَّدٌ بالشرط، وهو كلامٌ مستأنفٌ استثنافاً بيانياً يُراد منه إثبات الإجابة عن سؤالٍ نشأ عن الجملة السابقة، فكأنَّ السامع لما سمع شعيباً عليه السلام يقول: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَـرْهِيْنَ﴾ ^(٨٨) يقول: أخرجوننا من أرضنا أو تجبروننا على العودة في ملتكم القبيحة المذمومة المكروهة؟

فيتعجب السامع من هذا الثبات، فيتساءل: ما المانع أن تعودوا إلى ملة قومكم، وتحافظوا على تمتعكم بالعيش المستقر في وطنكم، وتتلذذوا بمزايا جنسية دولة مدين؟ فيعمل شعيب عليه السلام تعليلاً يوضح قبح كلامهم، وأوهامهم، وتصوراتهم، فيقول: ﴿قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾.

وهذه الجملة إنشائية جاءت في صيغة الخبر، ولها احتمالان صحيحان في معانيها: **الاحتمال الأول:** أن تكون تأكيداً قسماً لِرَفْضِ دَعْوَةِ الْمَلَأِ إِيَّاهُمْ إِلَى الْعُودِ فِي مِلَّتِهِمْ، كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ: بَرِئْتُ مِنَ الْحَيَاةِ أَوْ مِنَ الذِّمَةِ إِنْ فَعَلْتُ كَذَا، وَالْقَسَمُ هُنَا عَلَى تَقْدِيرِ حَذْفِ اللام، بمعنى: والله لقد افترينا على الله كذباً...

فيكون كلام شعيب عليه السلام هنا قسماً قابل به قسَمُهُمْ عندما قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]، فقابلهم بقسم أغلظ وأعرق في التوكيد. **الاحتمال الثاني:** أن يكون هذا الأسلوب تَعَجُّبًا خَرَجَ لَا عَلَى مُفْتَضَى الظَّاهِرِ، وَأُكِّدَ بِهِ (قَدْ) وَالْفِعْلُ الْمَاضِي، وَالْمَعْنَى: مَا أَكْذَبْنَا عَلَى اللَّهِ تعالى إِنْ عَدْنَا فِي الْكُفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ، أَوْ مَا أَعْظَمَ افْتِرَاءَنَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ لَطَفَ بِنَا فَأَخْرَجَنَا مِنْهَا، كَأَنَّنَا عَلَى نَجْوَةٍ مَرْتَفَعَةٍ، بَعِيدًا عَنِ الْغُرْقِ فِي الْكُفْرِ الَّذِي عَمَّ مِنْ بَقِي فِي هَذِهِ الْمِلَّةِ الْقَبِيحَةِ ^(١).

فإن قلت: ما وجه الارتباط بين فعل الشرط وجوابه في قوله: ﴿قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾؟

(١) يُنظر: تفسير المنار (٥/٩).

الجواب: التقدير: إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله ﷻ منها فقد افترينا على الله كذبًا، فالرَّيْطُ بَيْنَ الشَّرْطِ وَجَوَابِهِ رِبْطُ التَّبْيِيْنِ وَالْإِنْكَشَافِ، أي: إن يَقَعْ عَوْدُنَا فِي مِلَّتِكُمْ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّنا افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، فالماضي في قَوْلِهِ: ﴿قَافَرْتَيْنَا﴾ ماضٍ حَقِيقِيٍّ كَمَا يَقْتَضِيهِ دُخُولُ (قَدْ) عَلَيْهِ. وَتَقْدِيمُهُ عَلَى الشَّرْطِ لِأَنَّهُ فِي الْحَالَتَيْنِ لَا تَقْلِبُهُ (إِنْ) لِلِاسْتِقْبَالِ، أَمَّا الْمَاضِي الْوَاقِعُ شَرْطًا لِ(إِنْ) فِي قَوْلِهِ ﴿إِنْ عُدْنَا﴾ فَهُوَ بِمَعْنَى الْمُسْتَقْبَلِ؛ لِأَنَّ (إِنْ) تَقْلِبُ الْمَاضِي لِلْمُسْتَقْبَلِ عَكْسَ (لَمْ) ^(١).

وقد تسأل: لماذا قال شعيب عليه السلام: ﴿قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ٨٩]؟ وهل يفهم من ذلك أن وصف "الافتراء والكذب" لم يكن منطبقًا على الحال الأولى قبل مجيء البيئة؟

الجواب: البعدية متعلقة بقوله: ﴿عُدْنَا﴾ يُفْصَدُ مِنْهَا تَفْطِيْعُ هَذَا الْأَمْرِ، وَتَأْيِيْسُ الْكَافِرِيْنَ مِنْ مُوَافَقَةِ شُعَيْبٍ وَاتِّبَاعِهِ لَهُمْ؛ لِأَنَّ الْإِفْتِرَاءَ هُوَ تَعَمُّدُ الْكَذْبِ بَعْدَ ظُهُورِ الْحَقِّ، وَهَذَا مُخَالَفٌ لِلْحَالِ الْأَوَّلِي قَبْلَ الْبَعْثَةِ؛ إِذْ لَمْ تَكُنِ الْحُجَّةُ قَدْ قَامَتْ لِيُسَمَّى الْبَقَاءُ عَلَيْهَا افْتِرَاءً، وَنِسْبَةُ "الْعُودِ" فِي الْآيَةِ هِيَ عَلَى لِسَانِ أَتْبَاعِهِ الَّذِينَ نَجَاهُمُ اللَّهُ ﷻ مِنَ الْكُفْرِ، أَوْ بِمَعْنَى "الصِّرُورَةِ" فِي حَقِّهِ ﷺ لِعَصْمَتِهِ، وَلِذَلِكَ عَقَّبَهُ بِقَوْلِهِ ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ٨٩]، أي: لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَقْصِدُهُ الْعَاقِلُ فَيُلْقِي نَفْسَهُ فِي الضَّلَالِ وَالْتَعَرُّضِ لِلْعَذَابِ ^(٢).

ويتعلق بهذا القَبَسِ القرآني سؤالٌ استنباطي دقيق: إذا كان الكفر بحد ذاته افتراءً على الله، فلماذا حُصَّ (الْعُودُ فِي الْمِلَّةِ) -أَيِ الرَّدَّةِ- بِمَزِيدِ تَشْهِيعٍ فِي الْآيَةِ، وَاعْتَبِرَ ذَلِكَ (افْتِرَاءً لِلْكَذِبِ) بِصُورَةٍ أَشَدَّ وَأَغْلَظَ مِنَ الْكُفْرِ الْأَصْلِيِّ؟

الجواب: لأنَّ الكافر مُفْتَرٍ عَلَى اللَّهِ ﷻ الكذب، إذ يزعم أنَّ لله ﷻ ندًا، ولا ندَّ له، والمرتدُّ مثله في ذلك ويزيد عليه، إذ يزعم أنه قد تبين له ما خفي عليه من التمييز بين الحق والباطل، فكأنَّه إن أسلم ثم ارتد أتى بإفكين معًا: إفك الكذب على الناس بأن الإسلام ليس حقًا، وإفك الشرك أو الكفر.

(١) التحرير والتنوير (٨/٩).

(٢) ينظر: المرجع السابق.

وَإِذَا كَانَ مِنْ يَتَّبِعْ مِلَّتَكُمْ يُعَدُّ مُفْتَرِيًا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ مَا لَا يَعْلَمُ، لَا يَهْدَايَةِ مِنَ الْوَحْيِ وَلَا بُرْهَانٍ مِنَ الْعَقْلِ، فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ مَنْ افْتَرَى عَلَيْهِ وَضَلَّ عَنْ صِرَاطِهِ عَلَى عِلْمٍ؟! وَإِنَّ كُفْرَ الْجُحُودِ -وَهُوَ إِنكَارُ الْحَقِّ وَغَمَطُهُ بَعْدَ الْعِلْمِ بِهِ- هُوَ شَرُّ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ، وَالْإِفْتِرَاءُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ أَفْطَعُ ضُرُوبِ الْإِفْتِرَاءِ الَّتِي لَا يُقْبَلُ فِيهَا أَدْنَى عَذْرٍ^(١).

ويعبر المفسر المخبت عن هذه الظلال الوارفة التي يسبغها علينا قول الله ﷻ ذاكراً كلام شعيب عليه السلام: ﴿قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنَّ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ٨٩] فيقول: إن الذي يعود إلى ملة الكفر بعد أن هداه الله ﷻ إلى الحق وأنقذه من عبودية العبيد، فإنما يشهد زوراً على الله ﷻ ودينه؛ شهادة مؤداها: أنه لم يجد في دين الله ﷻ خيراً فلذلك تركه، أو -على الأقل- أن ملّة الطاغوت شرعية في الحكم، وأن وجودها لا يتنافى مع الإيمان بالله ﷻ، وهذه شهادة خطيرة، أخطر من شهادة من لم يعرف الهدى أو يحمل لواء الإسلام، لأنها ترفع راية الطغيان، ولا طغيان أعظم من انتزاع سلطان الله في الحياة!

والردة أشد من الكفر؛ وأخطر، وقد تُمَثِّلُ نوعاً من الخيانة الكبرى، والافتراء الأكبر على الله وعلى المسلمين، لذا أهدر النبي ﷺ دم ستة من الناس في فتح مكة، بعضهم كان ممن ارتد بعد إسلامه، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: لَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ، إِلَّا أَرْبَعَةَ نَفَرٍ وَأَمْرَاتَيْنِ وَقَالَ: «اقْتُلُوهُمْ، وَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمْ مُتَعَلِّقِينَ بِأَسْتَارِ الْكُعْبَةِ، عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَطْلٍ، وَمَقِيسُ بْنُ صُبَابَةَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي السَّرْحِ»، فَأَمَّا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَطْلٍ فَأُذِرِكَ وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِأَسْتَارِ الْكُعْبَةِ، فَاسْتَبَقَ إِلَيْهِ سَعِيدُ بْنُ حُرَيْثٍ وَعَمَارُ بْنُ يَاسِرٍ فَسَبَقَ سَعِيدٌ عَمَارًا، وَكَانَ أَشَبَّ الرَّجُلَيْنِ فَقَتَلَهُ، وَأَمَّا مَقِيسُ بْنُ صُبَابَةَ فَأُذِرَكَ النَّاسُ فِي السُّوقِ فَقَتَلُوهُ، وَأَمَّا عِكْرِمَةُ فَرَكِبَ الْبَحْرَ، فَأَصَابَتْهُمْ عَاصِفٌ، فَقَالَ أَصْحَابُ السَّفِينَةِ: أَخْلِصُوا، فَإِنَّ إِلَهَكُمْ لَا تُغْنِي عَنْكُمْ شَيْئًا هَاهُنَا. فَقَالَ عِكْرِمَةُ: وَاللَّهِ لَئِنْ لَمْ يُنَجِّنِي مِنَ الْبَحْرِ إِلَّا الْإِخْلَاصُ، لَا يُنَجِّنِي فِي الْبَرِّ غَيْرُهُ، اللَّهُمَّ إِنَّ لَكَ عَلَيَّ عَهْدًا، إِنْ أَنْتَ عَافَيْتَنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ أَنْ آتِي مُحَمَّدًا ﷺ حَتَّى أَضَعَ يَدِي فِي يَدِهِ، فَلَأَجِدَنَّه عَفْوَاً كَرِيماً، فَجَاءَ فَأَسْلَمَ، وَأَمَّا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي السَّرْحِ، فَإِنَّهُ اخْتَبَأَ عِنْدَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رضي الله عنه، فَلَمَّا دَعَا

(١) تفسير المنار (٥/٩).

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ إِلَى الْبَيْعَةِ، جَاءَ بِهِ حَتَّى أَوْقَفَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَايِعْ عَبْدَ اللَّهِ، قَالَ: فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَتَنَظَّرَ إِلَيْهِ، ثَلَاثًا كُلَّ ذَلِكَ يَأْتِي، فَبَايَعَهُ بَعْدَ ثَلَاثٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: «أَمَّا كَانَ فِيكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ يَقُومُ إِلَى هَذَا حَيْثُ رَأَيْتُ كَفَمْتُ يَدِي عَنْ بَيْعَتِهِ فَيَقْتُلُهُ» فَقَالُوا: وَمَا يُدْرِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا فِي نَفْسِكَ، هَلَا أَوْمَأْتَ إِلَيْنَا بِعَيْنِكَ؟ قَالَ: «إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَائِنَةٌ أَعْيُنٌ»^(۱). وَأَمَّا سَبَبُ رِدَّةِ ابْنِ حَطَلٍ - أَخْرَاهُ اللَّهُ تَعَالَى - فَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «وَكَانَ جُزْمُهُ أَنَّهُ أَسْلَمَ وَهَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَبَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَاعِيًا، وَبَعَثَ مَعَهُ رَجُلًا مِنْ خُزَاعَةَ، فَكَانَ يَصْنَعُ طَعَامَهُ وَيَخْدُمُهُ، فَتَزَلَا فِي مَجْمَعٍ، فَأَمَرَهُ يَصْنَعُ لَهُ طَعَامًا، وَنَامَ نِصْفَ النَّهَارِ، فَاسْتَبَقَطَ وَالْخُزَاعِيُّ نَائِمٌ وَلَمْ يَصْنَعْ لَهُ شَيْئًا، فَاغْتَاظَ عَلَيْهِ، فَضَرَبَهُ فَلَمْ يُفْلِحْ عَنْهُ حَتَّى قَتَلَهُ، فَلَمَّا قَتَلَهُ قَالَ: وَاللَّهِ لَيَقْتُلَنِي مُحَمَّدٌ بِهِ إِنْ جِئْتُهُ. فَارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَسَاقَ مَا أَخَذَ مِنَ الصَّدَقَةِ وَهَرَبَ إِلَى مَكَّةَ، فَقَالَ لَهُ أَهْلُ مَكَّةَ: مَا رَدَّكَ إِلَيْنَا؟ قَالَ: لَمْ أَجِدْ دِينًا خَيْرًا مِنْ دِينِكُمْ. فَأَقَامَ عَلَى شِرْكِهِ، وَكَانَتْ لَهُ قَبِيلَتَانِ، وَكَانَ يَقُولُ الشَّعْرُ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَيَأْمُرُهُمَا تَغْيِيَانِ بِهِ، وَيَدْخُلُ عَلَيْهِ وَعَلَى قَبِيلَتَيْهِ الْمُشْرِكُونَ فَيَشْرَبُونَ الْخَمْرَ، وَتُعَيِّي الْقَبِيلَتَانِ بِذَلِكَ الْهَجَاءِ»^(۲).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدٍ بْنُ أَبِي سَرْحٍ يَكْتُبُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَرْزَلَهُ الشَّيْطَانُ فَلَحِقَ بِالْكَفَّارِ، فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُقْتَلَ يَوْمَ الْفَتْحِ، فَاسْتَجَارَ لَهُ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، فَأَجَارَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^(۳)، فَالْكَافِرُ الْأَصْلِي تَقَبَّلَ تَوْبَتَهُ، وَقَدْ لَا تَقْبَلُ تَوْبَةُ الْمُرْتَدِّ فِي بَعْضِ الصُّوَرِ.

نعود إلى السؤال الذي طرحناه سابقًا، فنطرحه مجددًا لأنه يتعلق بالآية التي بين أيدينا: هل نفهم من كلام شعيب عليه السلام هنا أنه كان في ملتهم قبل النبوة لأنه قال: ﴿إِنْ عُدْنَا﴾ مع قولهم من قبل: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾؟ وما الأنوار البينانية التي تشرق من قوله تعالى: ﴿إِنْ عُدْنَا﴾؟

الجواب:

(۱) أبو داود (۲۶۸۳)، النسائي (۴۰۶۷)، وقال الهيثمي: "رجاله ثقات". مختصر زوائد البزار (۱۳۸۹)، وذكر له الألباني شاهدًا صحيحًا. سلسلة الأحاديث الصحيحة (۱۷۲۳).

(۲) مغازي الواقدي (۸۶۰/۲).

(۳) أبو داود (۴۳۵۸)، وصححه لغيره الأرنؤوط، وحسنه الوادعي في الصحيح المسند (۷۰۱).

الْعَوْدُ^(١): كلمة تدل على تَفْنِيَةٍ فِي الْأَمْرِ، قَالَ الْخَلِيلُ: هُوَ تَفْنِيَةُ الْأَمْرِ عَوْدًا بَعْدَ بَدْءٍ، فيشمل صورتين:

الأولى: الرجوع إلى الشيء ذاته بعد الانصراف عنه كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، فإذا تكرر هذا الْعَوْدُ أصبح عادة، فالْعَادَةُ: هي الشيء المعتاد الذي تدربت عليه النفس، حتى صار سَجِيَّةً، والْعَادَةُ: اسمٌ لتكرير الفعل والانفعال حتى يصير ذلك سهلاً ينطبع عليه الإنسان، ولذلك قيل: الْعَادَةُ طَبِيعَةٌ ثَانِيَةٌ، وَيَقُولُونَ أَيْضًا لِلطَّرِيقِ الْقَدِيمِ: عَوْدٌ، قَالَ:

عَوْدٌ عَلَى عَوْدٍ لِأَقْوَامٍ أَوَّلُ يَمُوتُ بِالتَّرَكِّ وَيَحْيَا بِالْعَمَلِ^(٢)

يَغْنِي بِالْعَوْدِ: الْجَمَلَ، عَلَى عَوْدٍ، أَيَّ طَرِيقٍ قَدِيمٍ. وَكَذَلِكَ الطَّرِيقُ يَمُوتُ أَوْ يَدْرُسُ إِذَا تَرِكَ، وَيَحْيَا إِذَا سُلِكَ.

الثانية: الرجوع إلى الأمر الأصلي الذي لا بد من الرجوع إليه، وإن لم تكن قد جئته أول مرة، ومنه يقال: عاد فلانٌ إلى الحق مع أنه قد يكون وُلِدَ على الضلال، ولم يعرف الحق في حياته.

ويظهر لي أنه يمكننا تعريف الْعَوْدُ بأنه رجوعٌ إلى أمرٍ سابقٍ قولاً أو فعلاً لتكريره أو لتحسينه أو لجاذبٍ يتعلق به، ويطلق على الذهاب إلى الأصل، ولذلك تسمى الآخرة الْمَعَادُ: فإليها يكون المصير الدائم، والحياة الباقية، وَالْعِيدُ: مَا يُعْتَادُ الرجوع إليه، وهو كُلُّ يَوْمٍ مَجْمَعٍ.

فقول شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ عُدْنَا﴾ مع قولهم من قبل: ﴿أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ لا يدل على أن شعيباً عليه السلام كان على ملتهم الوثنية الفاسدة، فلم يكن على عاداتهم في الإفساد الاقتصادي والاجتماعي وقطع الطريق والتجبر الدولي، بل إن لفظة الْعَوْدُ تكشف لنا أفانين من المعاني:

المعنى الأول: انتماء شعيب عليه السلام إلى ملتهم قبل النبوة إنما هو انتماءٌ بالمجموع، ولا يقتضي بالضرورة أن شعيباً عليه السلام كان يعبد ما يعبدون، أو يفعل ما يفعلون، وهم عند طلب الْعَوْدِ في ملتهم إنما أرادوا العودة إلى نظامهم، وقد كان شعيبٌ عليه السلام لا يُنكر عليهم كما صار يفعل بعد النبوة، فالكسوت وعدم الإنكار على جرائمهم يجعل المرء منتمياً لهم في الجملة.

(١) العين (٢١٧/٢)، مقاييس اللغة (٤/ ١٨١)، المفردات في غريب القرآن (ص ٥٩٣)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/ ١٤١٨).

(٢) البيت لبُشَيْرِ بْنِ الْيَكْتُثَ، يُنْظَرُ: لِسَانُ الْعَرَبِ (٣/ ٣٢١).

المعنى الثاني: تواضع شعيب عليه السلام واعترافه أن التغيير الذي حدث له إنما كان بسبب نور النبوة، وأن راحة عقله العظيمة لا تعني قدرته على الاهتداء إلى الحق الكامل.

لقد كان شعيب عليه السلام بريئاً من الشرك قبل النبوة، ولكنه لم يكن يَهْتَدِي بِعَقْلِهِ وَرَأْيِهِ ونقاء نفسه إلى مِلَّةٍ خَيْرٍ مِنْ ما هم عليه، فَكَانَ مَوْقِفُهُ مَوْقِفَ الْحَيْرَةِ فِي شَأْنِهَا، كَمَا يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي خُطَابِ النَّبِيِّ الْخَاتَمِ الْأَعْظَمِ ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۖ﴾ [الضحى: ٧]، وَتَفْسِيرُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] (١).

ولا أميل إلى تأوُّل مَنْ تَأَوَّلَ قَوْلَ شعيب عليه السلام في كلمة ﴿عُدْنَا﴾ بمعنى (صرنا) كما ذهب إليه القاضي عياض رحمه الله (٢) وغيره، لأن الأصل في الكلمة القرآنية ظاهرها حتى يأتي ما يقتضي تأويلها، كما أن دعوى العصمة المطلقة قبل الوحي لا دليل عليه في الشريعة كما يقرر ابن عاشور رحمه الله (٣).

المعنى الثالث: التحدي باستعمال أسلوب المشكلة (٤)، وهو أسلوبٌ عظيم يدل على مقدار التحدي الهائل، فهم طلبوا العودة إلى ملتهم، فقالوا: ﴿أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]، فرد عليهم شعيب عليه السلام بلفظٍ يُشَاكِلُ كلامهم، فقال: ﴿قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنَّ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٩].

ويظهر لي أن أعظم فوائد المشكلة: التعبير عن معنى يناسب السياق، والمعنى الذي يناسب السياق هنا بيانُ بشاعة تقريرهم، فالبشاعة تكمن في أن يجترئ على الافتراء على الله ﷻ الكذب، كما يُظهِرُ شعيب عليه السلام بشاعة تقريرهم أن ملتهم أصل يستحق العود إليه.

هنا نسأل: لماذا تولى شعيب عليه السلام الجواب عن المؤمنين معه، فعبر عن نفسه وعندهم، مع أنه ربما أثار خطاباً قوياً الملاماً المستكبرة على بعض المؤمنين به، فخافوا أو غيروا رأيهم وحدثوا أنفسهم

(١) تفسير المنار (٦/٩).

(٢) الشفا بتعريف بحقوق المصطفى، للقاضي عياض (٢/٢٦٢).

(٣) التحرير والتنوير (٧/٩).

(٤) "المشكلة" من فنون علم البديع، وهي: أن تذكر الشيء بلفظ غيره؛ لوقوعه في صحبته. يُنظر: مفتاح العلوم، للسكاكي (ص: ٤٢٤).

بالعودة إلى ملة قومهم، ولكننا نرى شعيباً عليه السلام يتحدث بصيغة الجمع في رده المهيب، فيقول: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ۖ قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا...﴾ [الأعراف: ۸۸، ۸۹]؟

الجواب: يحبونا هذا التعبير الشعبي بعددٍ من الصور، منها: أن شعيباً عليه السلام كان متيقناً بإيمان أتباعه وصلابة مواقفهم، ومنها: أن شعيباً عليه السلام أراد أن يثبتوا على إيمانهم، ويشعروا باعتزاز الوحدة الشعورية القلبية بينه وبينهم.

وهنا نسأل: فهمنا أن قول شعيب عليه السلام: يحمل لغة قوية صارمة في رفض العودة إلى ملة الكفر، بل إنه قبحها وأثار التقزز منها، ولكن هل يخفي لنا كلامه مزيد بيان فوق ذلك؟
الجواب: معنى كلامه أي: إِنْ فَعَلْنَا ذَلِكَ فَقَدْ ارْتَكَبْنَا أَقْبَحَ الْقَبَائِحِ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنَّا بِذَلِكَ، فعلق شعيب العود إلى ملتهم على مُحَالٍ عَادَةً^(١).

قال الزركشي رحمه الله: "قَدْ يُعَلَّقُ الشَّرْطُ بِفِعْلِ مُحَالٍ يَسْتَلْزِمُهُ مُحَالٌ آخَرُ، وَتَصْدُقُ الشَّرْطِيَّةُ دُونَ مُفْرَدَتَيْهَا، أَمَّا صِدْقُهَا فَلَا يَسْتَلْزِمُ الْمُحَالَ، وَأَمَّا كَذِبُ مُفْرَدَتَيْهَا فَلَا يَسْتَحَالِ تَحْتَهُمَا، وَعَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾ [الزخرف: ۸۱]، وقوله تَعَالَى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ۲۲]، وقوله تَعَالَى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلُ اللَّهِ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَآتَوْعُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ۴۲].
وَفَائِدَةُ الرِّبْطِ بِالشَّرْطِ فِي مِثْلِ هَذَا أَمْرَانِ: أَحَدُهُمَا: بَيَانُ اسْتِلْزَامِ إِحْدَى الْقَضِيَّتَيْنِ لِلْأُخْرَى، وَالثَّانِي: أَنَّ اللَّازِمَ مُنْتَفٍ فَاِلْمَزُومُ كَذَلِكَ"^(٢).

فيكون المعنى: إن عدنا في ملتكم فقد افترينا على الله ﷻ الكذب، ولا يمكن لنا شرعاً ولا عقلاً إن كانت لنا عقول صحيحة أن نفتري على الله ﷻ الكذب، إذن ما تطلبونه مستحيل.
ما وجه قوة الكلمة القرآنية وجمالها في قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ۸۹]؟

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢/٨).

(٢) البرهان في علوم القرآن، للزركشي (٣٦٤/٢).

الجواب: النجاة مشتقة من: النجوة، وهي: المكان المرتفع المطمئن الذي يمكن للإنسان أن يُسرَّ فيه ما يعمل، فيكون المعنى: بعد أن خلّصنا الله ﷻ منها بصورة لطيفة تجعل الناجي مرتفعاً في نجاته على المنجَوْ منه، وهي ملة الكفر وأصحابها، والتصوير هنا يدل على مقدار تفشي ملة الكفر، فكأنها بِنُظْمِها المختلفة مجموعة من الوحوش المهلكة التي خلّص الله ﷻ منها شعباً ﷻ ومن معه، فقفزوا إلى الأعلى لينجوا من الغرق فيها.

عرفنا أن المَعْلَمَ الثاني من معالم الرد الصاعق الذي قاله شعيب ﷻ لقومه: إعلان تعظيم الله ﷻ أمام المستكبرين، وتعظيم دينه الذي ارتضاه الله ﷻ لهم، ببيان الجريمة الكبيرة التي يقع فيها شعيب ﷻ ومن معه لورجعوا إلى الملة الوثنية، فما المعلم الثالث من معالم هذا الرد الصاعق الحكيم؟

الجواب:

المعلم الثالث: العودة إلى الملة الوثنية يعني نفي وجود الحقيقة الإنسانية، وبيّصّرنا بهذا قوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٨٩].

ستقول: كيف هذا؟ أين ما يدل في الآية على أن العودة إلى الوثنية يعني نفي الإنسانية؟

الجواب: لأن شعيباً ﷻ اختار هذا التعبير: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا﴾، ولم يختَر مصطلحاً شرعياً آخر مثل: يحرم علينا أن نعود.

وهذا تأكيد ثانٍ، ورفض ثالث للعودة في تلك الملة المجرمة، فنفى شعيب ﷻ أنه يحق لهم العودة فيها، ونفيه كان في غاية القوة والدقة والبلاغة، فقال: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا﴾ أي: ليست لنا كينونة، وليس لنا وجود في هذا الكون إذا عدنا في الملة الوثنية.

ويمكن أن نجعل ﴿وَمَا يَكُونُ﴾ مُسَلَّطاً على نفي العودة وبيان بشاعتها، بل واستحالتها وأنها غير واردة أصلاً، كما قال أبو السعود ﷻ: (كأنه قيل: وما كان لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا، وهيئات ذلك...)؟^(١)

(١) إرشاد العقل السليم (٢٥١/٣).

وفسر الزمخشري رحمه الله قوله: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا﴾ بقوله: وما ينبغي لنا، وما يصح لنا^(١)، وسبب تفسير الزمخشري رحمه الله أن فعل ﴿يَكُونُ﴾ مسلط على العودة، أي ما يصح لنا أن نعود، ولكننا نجد معناها أقوى وأعظم عندما نحمل الكلمات على ظاهرها، فيكون التقدير: وليس لنا كينونة ولا وجود يستحق؛ إن عدنا في ملتكم، فالعدم خير من الوجود إن حدث ذلك، ولكن هذا المعنى قد يعترض عليه بأن ما بعد ﴿يَكُونُ﴾ فعل مضارع ﴿أَنْ تَعُودَ﴾ وليس شرطاً ﴿إِنْ عُدْنَا﴾، لكنه يظل محتملاً؛ لأن التأويل موجود في الحالين.

وأشار البقاعي رحمه الله إلى معنى ثانٍ لهذه الكلمة القرآنية، فقال: "وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ: لَا نَعُودُ إِلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ مِنَ السُّكُوتِ عَنْ دُعَائِكُمْ إِلَى اللَّهِ ﷻ، وَنَهَيْكُمْ عَنْ أَفْعَالِ الضَّلَالِ؛ لِأَنَّا أُمِرْنَا بِإِنْدَارِكُمْ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ سَكُوتَنَا بِأَمْرِ يُحْدِثُهُ إِلَيْنَا فِي ذَلِكَ لِمَصْلَحَةٍ اقْتَضَاهَا عِلْمُهُ، وَقَصُرَتْ عَنْهَا عَلُومُنَا، فَإِذَا أَرَادَ ذَلِكَ وَأَمَرَنَا بِهِ فَعَلْنَا، فَلَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ"^(٢).

ومن أعظم الصور المباشرة لهذه الكلمات الشُعيبية الوضاعة ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا﴾: صورة الإنسان المهتدي الذي أغرته الدنيا، وخاف من عذاب الطواغيت فرجع إلى أنظمة الطاغوت وتشريعاته، وترك شريعة الله، فماذا يحدث له بعد؟ تراه ربما تمتع بكفره قليلاً، أو تمتع بدنياه لو بقي على إسلامه مع ركونه إلى الذين ظلموا، وبعدها ربما ينسى دينه رويداً رويداً، ويقبل بالتنازل في رضا الطاغوت بعد التنازل، فيقبل في البداية بحضور الحفلات الماجنة، ويفتي بإباحة ما كان ربما يحرم عليه، ثم يتنازل أكثر، فيفتي بإباحة الربا، ثم يتنازل أكثر فيفتي بإباحة الزنا المُقَنَّع، أو مقدماته الخطيرة بطريقة أو بأخرى، ثم تنظر في صورته في آخر المطاف فإذا هو أزدأ من الحيوان.

لقد ظن هذا العائد إلى إرضاء الطاغوت بدلاً من إرضاء ربه ﷻ، أنه سيخفف عن نفسه تبعات الالتزام بشريعة الله ﷻ، ولن يسأله أحد، ولن يلومه أحد، ولن يحاسبه أحد، ولن يطاله الإعلام الشيطاني بما يطال المستقيمين الثابتين.

(١) الكشاف (١٣٠/٢).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/٨).

بصيرة: إن تكاليف التحرر من العبودية للطاغوت والخضوع لله وحده -مهما بدت ثقيلة- أقل وأهون من تكاليف العبودية للطواغيت.

هل يعلم إلى أين سيذهب من يوافق الطاغوت على حياته المجرمة؟
يوشك أن يشارك الطاغوت في سُكره وعمره، فإن لم يحدث ذلك منه حدث من أبنائه وبناته.
إن ثمن العبودية للطواغيت باهظ، مهما بدا مغرياً بالأمان والرزق! إنها تكاليف خفية، طويلة الأمد، تُفقد الإنسان إنسانيته، فينقلب عبداً للإنسان مثله، وأي شرٍ أعظم من خضوع إنسان لتشريعات إنسان آخر؟! وأي شرٍ أعظم من تعلق قلب إنسان برضا إنسان مثله ورغباته وشهواته؟! وأي شرٍ أعظم من أن يُقاد الإنسان كالبهيمة بلجام يمسه إنسان آخر؟!
ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل تزداد الطواغيت هبوطاً بهم؛ فتحت سلطتها، تُنهب أموالهم، وتُشكّل أبنائهم وفق أهوائها، بأفكار وأخلاق وتقاليد تفرضها، بل تتحكم في أرواح الناس وحياتهم، فتدبجها على مذابح أهوائها، وتُقيم من دمائهم وأشلائهم معالم عزتها، وفي النهاية، تُذهب بأعراضهم وكرامتهم، فتُهينهم وتُسقط قدرهم.

لذلك قالها شعيب عليه السلام مدوية حاسمة: ﴿قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِدْجَانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٨٩].
نحن نعلم أن شعيباً عليه السلام أوضح بقوة شديدة أنه لا يمكنهم أن يرجعوا إلى الملة الوثنية، ولكننا هنا لا بد أن نسأل: ما معنى الاستثناء في قوله ﷺ: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٨٩]، مع أن الله ﷻ لا يرضى لعباده الكفر؟

الجواب: معنى الآية كما سبق: لا يمكن أن يكون لنا وجودٌ حقيقي إن عدنا في ملتكم، فعودة المؤمنين إلى الكُفر يمكن من الناحية العامة، وقد ارتد بعضهم عن دينهم الحق، ولكن لا يمكن تصوره عند الإنسان العاقل السوي، وفي هذه السورة يحدثنا الله ﷻ عن صنفٍ خاص من المرتدين قال عنه: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَآنَسَلَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

والذي يظهر لي أن هذا الاستثناء يصوّر لنا أمرين معاً:

كمال القوة في الردّ على المجرمين مع كمال الأدب مع الله وكمال الشعور بحكمته ﷻ: فأما القوة فلأن المشيئة هنا تبين أن عودة عاقلٍ إلى تلك الملة المجرمة لا يمكن أن يكون إلا بتغيير السنن الطبيعية، وتغيير السنن الطبيعية مرهون بمشيئة الله ﷻ، فهو الذي يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، وهو الذي جعل من الشجر الأخضر ناراً، ومنع النار من أن تحرق إبراهيم عليه السلام، وكأن شعيباً عليه السلام يقول: لأننا نوقن بأن ملتكم قبيحةٌ باطلةٌ فلا يمكن لنا أن نعود فيها إلا أن يُقَلِّبَ الله ﷻ قلوبنا ويمسحها، ونحن برحمته نرجو أن يثبتنا.

وأما كمال الأدب فإن شعيباً عليه السلام بقدر ما يرفع رأسه، ويرفع صوته في مواجهة طواغيت البشر من الملأ الذين استكبروا بقدر ما يخفض هامته، ويُسَلِّم وجهه إلى ربه ذي الجلال والإكرام الذي وسع كل شيء علماً، فهو لا يتألى على الله ﷻ، ولا يجزم بشيء أمام قدره، فيعلن أن الحكم لله ﷻ، والملك له، وما نحن إلا عبيده، فإن شاء أن يزيغنا أزاغنا، ولكننا نلجأ إلى رحمته لئلا يحدث ذلك، وهنا نعلم جمال قول شعيب عليه السلام وهو يعلن خضوعه واستسلامه بعد ذلك، فيقول: ﴿فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ [الأعراف: ٨٩].

وعبر عن ذلك البقاعي رحمه الله بقوله: "ولمّا كانَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاءُ لَا وَاجِبَ عَلَيْهِ وَلَا قَبِيحَ مِنْهُ، أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾، فَذَكَرَ اسْمَ الدَّاتِ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ لَهُ جَمِيعَ الْحَمْدِ لِذَاتِهِ" (١).

وقال ابن عاشور رحمه الله: وفي قول شعيب عليه السلام: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ تَقْيِيدُ عَدَمِ الْعُودِ إِلَى الْكُفْرِ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، وَهُوَ يَسْتَلْزِمُ تَقْيِيدَ الدَّوَامِ عَلَى الْإِيمَانِ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، لِأَنَّ عَدَمَ الْعُودِ إِلَى الْكُفْرِ مُسَاوٍ لِلثَّبَاتِ عَلَى الْإِيمَانِ، وَهُوَ تَقْيِيدُ مَقْصُودٍ مِنْهُ التَّأَدُّبُ وَتَفْوِيضُ الْعِلْمِ بِالْمُسْتَقْبَلِ إِلَى اللَّهِ ﷻ، وَالْكِنَايَةُ عَنْ سُؤَالِ الدَّوَامِ عَلَى الْإِيمَانِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى كَقَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]. (٢)

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٣/٨).

(٢) التحرير والتنوير (٩/٩).

وأضيف أنا: بأن شعبيًا **الْعَالَمِينَ** أراد أن يوصل القوى المستكبرة إلى مرحلة اليأس بأن أردفَ ذلك الاستثناء ليدل على كمال الحكمة الإلهية وعظمتها، واتساعها؛ لأنه يربي خلقه على أجمل الوجوه، وليس على الوجوه الظالمة، لذا قال: ﴿رَبُّنَا﴾، فالاستثناء لا يعني أن الله **عَلَّامُ الْغُيُوبِ** يأمر بالعودة إلى الكفر، بل هو تعالى مجده لا يرضى لعباده الكفر، لكنه قد يعاقب عبده بأن يمدّه في طغيانه إن أصر على العناد والكفران.

بصيرة: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ هذا الاستثناء جمع لنا عددًا من الحكم، منها:
إظهار كمال المشيئة لله **عَلَّامُ الْغُيُوبِ**، فلا يمكن لأحد أن يُكرمه على شيء، فمن كمال الأدب أن نرجع كل شيء إلى مشيئته.
وإظهار كمال الحكمة، فقد يشاء لعبد أن يرجع إلى الكفر جزاءً وفاقًا على ما كان يعمل عنادًا وطغيانًا.
 وهذا يجعلك في غاية الخوف من أن تنقلب على عقبيك في الظاهر بسبب دسيسة باطنة خفية عندك لم تسرع في معالجتها.

وهنا نتساءل: ما سرُّ الجمع بين اسم الله **المُعْظَمُ** ﴿اللَّهُ﴾، ووصفه بالربوبية في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾؟

الجواب: وصفُ الله **عَلَّامُ الْغُيُوبِ** بكلمة (رب) في قوله: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا﴾ يحقق شيئًا أعظم، أشار إليه البقاعي **رحمته**، فقال: "فهو من بابِ التَّذَكُّرِ لِلْمَخَافِ وَالْإِشْرَافِ عَلَى إِمْكَانِ سُوءِ الْعَوَاقِبِ لِلصِّدْقِ فِي التَّضَرُّعِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالِالْتِجَاءِ إِلَيْهِ وَالِاسْتِعَاذَةِ مِنْ مَكْرِهِ؛ وَلِذَلِكَ أَتَى بِاسْمِ الْجَلَالَةِ الْجَامِعِ لِجَمِيعِ مَعَانِي الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَصِفَةِ الرُّبُوبِيَّةِ الْمُتَمَسِّ بِذِكْرِهَا فِعْلٌ مَا يَفْعَلُ الْمُرَبِّي الشَّفِيقُ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: إِنَّ عَوْدَنَا فِي مِلَّتِكُمْ غَيْرُ مُمَكِّنٍ عَادَةً، وَالْمُحَالُ عَادَةً لَا يُفْدَرُ عَلَيْهِ إِلَّا بِقَدَرٍ مِنَ اللَّهِ **عَلَّامُ الْغُيُوبِ**، بَلْ وَلَا تُوجَّهْ

الهِمُّ إِلَيْهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَكْرَمُ مَنْ أَنْ يَعُودَ فِيمَا وَهَبَهُ لَنَا مِنْ هَذَا الْأَمْرِ الْجَلِيلِ، وَيَنْزِعَ عَنَّا هَذَا اللَّيَاسَ الْجَمِيلَ^(١).

ولذلك رأينا إبراهيم عليه السلام يقول: ﴿وَأَجُنِّبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وهنا نشعر بأثر هذه التربية القرآنية على سيد الإنسانية عليه السلام حين قال:

«اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنْبَتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُودُ بِعِزَّتِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تَضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ»^(٢).

قال ابن المنير رحمه الله: "ونظيره قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام: ٨٠]"^(٣).

الاستثناء هنا لتعظيم الملك، ووجل العاقبة، فقد قال الواحدي: وَلَمْ تَزَلِ الْأَنْبِيَاءُ وَالْأَكَابِرُ يَخَافُونَ الْعَاقِبَةَ وَانْقِلَابَ الْأَمْرِ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ الْخَلِيلِ عليه السلام: ﴿وَأَجُنِّبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وكثيرًا ما كَانَ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ وَالْأَبْصَارِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ وَطَاعَتِكَ»، وقال يونس عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ [يوسف: ١٠١]"^(٤).

وهنا نسأل: هل عموم النفي في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٨٩] دخله التخصيص بالمشيئة؟

الجواب:

(١) نظم الدرر (٣/٨). وهذا المعنى بهذا التقرير قريب مما قال الزمخشري رحمه الله إلا أن التعصب الفرقي يعمل عمله في صياغة القوم، وفهم الآخرين لهم. فقد قال الزمخشري رحمه الله: "قلت: معناه إلا أن يشاء الله خذلاننا ومنعنا الألفاظ، لعلمه أنها لا تنفع فينا وتكون عبثًا. والعبث قبيح لا يفعله الحكيم، والدليل عليه قوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: ٨٩] أي: هو عالم بكل شيء مما كان وما يكون، فهو يعلم أحوال عباداه كيف تتحول، وقلوبهم كيف تتقلب، وكيف تقسو بعد الرقة، وتمرض بعد الصحة، وترجع إلى الكفر بعد الإيمان، ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ في أن يثبتنا على الإيمان ويوفقنا لزيادة الإيمان. ويجوز أن يكون قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ حسماً لطمعهم في العود، لأن مشيئة الله لعودهم في الكفر محال خارج عن الحكمة". يُنظر: الكشاف، (١٣٠/٢).

(٢) مسلم (٢٧١٧).

(٣) حاشية الكشاف المسماة: الانتصاف فيما تضمنه الكشاف، لابن المنير (١٣٠/٢).

(٤) تفسير الرازي (٣١٧/١٤).

ہنا نذكر سبباً ثالثاً لهذا الاستثناء بالمشيئة، وهو زيادة التوكيد للنفي عند بعض أهل العلم، فهم انطلقوا من أن الله سبحانه لا يرضى لعباده الكفر لكنه قد يعاقبهم به إن ابتعدوا عنه بأن يطبع على قلوبهم، ولأنه لا يرضى لعباده الكفر؛ فإن قول شعيب عليه السلام عند الرازي رحمته مذكور على طريق التبعية، كما يقال: لا أفعل ذلك إلا إذا أبيض القار، وشاب الغراب، فعلق شعيب عليه السلام عوده إلى ملتهم على مشيئته... على طريق التبعية، لا على وجه الشرط^(۱).

ويقول محمد رشيد رضا رحمته: "فَكَانَ هَذَا بِمَعْنَى قَوْلِ عَبْدِ أَمِينٍ أَرَادَ أَنْ يُغْوِيَهُ بَعْضُ الْمُغْوِينَ، وَيُغْرِيَهُ بِخِيَانَةِ سَيِّدِهِ الْحَفِيِّ بِهِ، وَصَرَفَ بَعْضُ مَالِهِ فِيمَا يَضُرُّهُ هُوَ، وَيُفْسِدُ عَلَيْهِ نَفْسَهُ: لَيْسَ هَذَا مِنْ شَأْنِي، وَلَا مِمَّا يَدْخُلُ فِي تَصَرُّفِي إِلَّا أَنْ يَشَاءَ سَيِّدِي الصَّالِحُ الْمُصْلِحُ الْمُعْتَنِي بِشَأْنِي، وَهُوَ أَعْلَمُ مِنِّي بِأَمْرِي"^(۲). وقد نزع التعصب الفريقي بين الأشاعرة والمعتزلة جمال المعنى من الآية: إذ كلُّ منهم يحاول تأويلها لتكون في جانبه، والتعبير لا يظهر منه أن كلَّ واحدٍ منهم مصيبٌ فيما يرمي إليه، ولا داعي لخوضنا فيما ذهب إليه كلُّ منهم، وإبراهيم الخليل عليه السلام قال مثل ذلك لقومه: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ۸۰].

ہنا نتساءل: هذه الآية ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ تؤيد جواز أن يقول

المسلم: أنا مؤمن إن شاء الله، فهل هذا الفهم مستقيم؟

الجواب: ذكر ابن عاشور رحمته أن هذه الآية يمكن أن تؤيد أصحاب الأشعري على هذا الفهم، ومنهم مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِوَسِيِّ الْقَفِيهِ الْمَالِكِيُّ الْجَلِيلُ، أَنَّ الْمُسْلِمَ يَقُولُ: أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَا يُخْتَمُ لَهُ بِهِ بَعْدُ، وَيَضْعُفُ قَوْلَ الْمَائِثِيْدِيِّ وَطَائِفَةٍ مِنْ عُلَمَاءِ الْقَيْرَوَانِ عَلَى رَأْسِهِمْ مُحَمَّدُ بْنُ سَحْنُونٍ، أَنَّ الْمُسْلِمَ لَا يَقُولُ: أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لِأَنَّهُ مُتَحَقِّقٌ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَلَا يَقُولُ كَلِمَةً تُنْبِئُ عَنِ الشَّكِّ فِي إِيمَانِهِ.

وقد تطايرَ شَرَرُ الْخِلَافِ بَيْنَ ابْنِ عَبْدِوَسِيِّ وَأَصْحَابِهِ مِنْ جِهَةٍ، وَابْنِ سَحْنُونٍ وَأَصْحَابِهِ مِنْ جِهَةٍ، فِي الْقَيْرَوَانِ زَمَانًا طَوِيلًا، وَرَمَى كُلُّ فَرِيقٍ الْفَرِيقَ الْآخَرَ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِمَا، وَكَانَ أَصْحَابُ ابْنِ سَحْنُونٍ

(۱) تفسیر الرازي (۳۱۷/۱۴).

(۲) تفسیر المنار (۷/۹).

يَدْعُونَ ابْنَ عَبْدِوسٍ وَأَصْحَابَهُ الشُّكُوكِيَّةَ، وَتَلَقَّيْتِ الْعَامَّةُ بِالْقَيْرِوانِ هَذَا الْخِلَافَ عَلَى غَيْرِ فَهْمٍ، فَرَبَّمَا اجْتَرَأُوا عَلَى ابْنِ عَبْدِوسٍ وَأَصْحَابِهِ اجْتِرَاءً وَافْتِرَاءً، كَمَا ذَكَرَهُ مُفَصَّلًا عِيَاضٌ فِي "الْمَدَارِكِ" فِي تَرْجَمَةِ مُحَمَّدِ بْنِ سَحْنُونٍ، وَتَرْجَمَةِ ابْنِ التَّبَّانِ، وَالَّذِي حَقَّقَهُ الشَّيْخُ أَبُو مُحَمَّدٍ ابْنُ أَبِي زَيْنَدٍ وَعِيَاضٌ أَنَّ الْخِلَافَ لَفْظِيٌّ: فَإِنْ كَانَ يَقُولُ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَسَرِيرَتُهُ فِي الْإِيمَانِ مِثْلُ عِلَانِيَّتِهِ فَلَا بَأْسَ بِذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ شَكًّا فَهُوَ شَكٌّ فِي الْإِيمَانِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مَا يُرِيدُهُ ابْنُ عَبْدِوسٍ، وَقَدْ قَالَ الْمُحَقِّقُونَ: أَنَّ الْخِلَافَ بَيْنَ الْأَشْعَرِيِّ وَالْمَاتُرِيدِيِّ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مِنَ الْخِلَافِ اللَّفْظِيِّ، كَمَا حَقَّقَهُ تاجُ الدِّينِ السُّبْكِيُّ فِي مَنْظُومَتِهِ التَّوْنِيَّةِ، وَتَبِعَهُ تَلْمِيذُهُ نُورُ الدِّينِ الشِّيرَازِيُّ فِي شَرْحِهِ^(١).

وإنما أشرت إلى هذا النقل لنعلم أن التعصب للرأي يطمس على الإنسان جمال اللفظ القرآني، ويبعده عن عظمة المعاني الفرقانية، ثم لا يقيم أحد الطرفين أخوة الإيمان للآخر. فما النتيجة؟! النتيجة: أن يضحك المלא المستكبرون، ويفتخروا أمام إبليس بإنجاز المهمة دون خسائر.

ونتساءل مرة أخرى: كيف خاطبوا شعيباً عليه السلام بالعود في الكفر في قولهم: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]، ويجيبهم بقوله: ﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ٨٩]، والأنبياء عليهم السلام لا يجوز عليهم من الصغائر إلا ما ليس فيه تنفير، فضلاً عن الكبائر، وأعظم منها الكفر؟

الجواب: رَدُّهُ عليه السلام قائم على التحدي والاستبعاد وفق الأسلوب العربي المتبع في مثل هذا، ولقد جعل الركن الذي يتحدى به اعتزازه بالله تعالى فقال: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا﴾.

ولقد حاول الزمخشري رحمته الله أن يجيب عن هذا التهديد، فجعل الجواب عارضاً لغوياً، فبني جوابه على أن صيغة العود تستدعي رجوع العائد إلى حال كان عليها قبل، فقال: "لما قالوا: ﴿لَتُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ﴾، فعطفوا على ضميره الذين دخلوا في الإيمان منهم بعد كفرهم قالوا: ﴿لَتَعُودُنَّ﴾، فغلَّبوا الجماعة على الواحد، فجعلوهم عاندين جميعاً، إجراءً للكلام على حكم التغليب. وعلى ذلك أجرى شعيب عليه السلام جوابه فقال: ﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا﴾،

(١) التحرير والتنوير (٩/٩).

وهو يريد عود قومه، إلا أنه نظّم نفسه في جملتهم وإن كان بريئاً من ذلك إجراءً لكلامه على حكم التغليب^(١).

وأجاب أحمد بن المنير الإسكندري رحمه الله بجواب آخر قوي، فقال: «والتحقيق في الجواب عن السؤال المذكور مع اقتضاء العود لذلك: أن هذا الفعل وإن استعمل كذلك، إلا أنه كثيراً ما يرد بمعنى (صار)، وحينئذ يجوز أن يكون أحياناً (كان) ولا يستدعي الرجوع إلى حالة سابقة، بل عكس ذلك وهو الانتقال من حال سابقة إلى حالة مؤتلفة مثل (صار)، وكأنهم قالوا- والله أعلم:- لنخرجك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتصيرن كفاراً مثلنا، وحينئذ يندفع السؤال، أو يسلم استعمال العود بمعنى الرجوع إلى أمر سابق.

ويجاب عن ذلك بمثل الجواب عن قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، والإخراج يستدعي دخولاً سابقاً فيما وقع الإخراج منه، ونحن نعلم أن المؤمن الناشئ في الإيمان لم يدخل قط في ظلمة الكفر ولا كان فيها، وكذلك الكافر الأصلي لم يدخل قط في نور الإيمان ولا كان فيه، ولكن لما كان الإيمان والكفر من الأفعال الاختيارية التي خلق الله ﷻ العبد متيسراً لكل واحد منهما متمكناً منه لو أراد، فعبر عن تمكّن المؤمن من الكفر ثم عدوله عنه إلى الإيمان إخباراً بالإخراج من الظلمات إلى النور توفيقاً من الله ﷻ له ولطفاً به. وبالعكس في حق الكافر، وقد مضى نظير هذا النظر عند قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٦]، وهو من المجاز المعبر فيه عن السبب بالمسبب، وفائدة اختياره في هذه المواضع تحقيق التمكّن والاختيار لإقامة حجة الله ﷻ على عباده، والله أعلم^(٢).

عرفنا أن المعلم الثالث من معالم الرد الصاعق الحكيم الذي قاله شعيب عليه السلام لقومه: العودة إلى الملة الوثنية يعني نفي وجود الحقيقة الإنسانية، وبصيرنا بهذا قوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٨٩]، فما المعلم الرابع من معالم هذا الرد؟

(١) الكشف (٢/١٢٩).

(٢) حاشية الكشف المسماة: الانتصاف فيما تضمنه الكشف، لابن المنير (٢/١٢٩).

الجواب: هذا هو:

المعلم الرابع: بيان سعة علم الله ﷻ وشموله، ومن علمه أنه يعلم من يستحق أن يعاقب، فيرجعه ربنا ﷻ إلى الملة الوثنية الظالمة جزاءً وفاقاً، ويبصّرنا بذلك الارتباط بين المعلم السابق، وقول شعيب عليه السلام: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ [الأعراف: ٨٩]:

ودعني أريك عدة ارتباطات بين هذا القبس القرآني العظيم وما قبله: فأول ارتباط أن شعيباً عليه السلام بعد أن أخبرهم أنه لا يمكن أن يتصور رجوعه ومن معه إلى ملتهم الفاسدة إلا أن يشاء الله، أخبرهم هنا بكمال إحاطة الله ﷻ بكل معلوم، فقال: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾.

بصيرة: من علمه ﷻ أنه إذا أراد معاقبة أحدٍ زانغٍ يصرُّ على زيغهِ أزاغ قلبه، وزاده رجساً، فيعلم الله ﷻ حقيقة العبد وصدق إيمانه، كما يعلم خداعه ونفاقه، وبسبب علمه تعالى قد يختم له بالخاتمة السيئة إذا كان ظاهره الصلاح وباطنه الفساد.

كما قال النبي ﷺ: «فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»^(١)، ويحدث ذلك لأن الله ﷻ قد علم من هذا المدعي الصلاح استحقيقه لخاتمة السوء لتظهر حقيقته في الدنيا. هنا تدرك الارتباط الوثيق بين قوله ﷻ: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾، وقوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾، فهذه زيادة في حثِّ أُمَّتِهِ عَلَى الْإِلْتِجَاءِ وَالتَّيَرِّي مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ، أي: لا عِلْمَ لَنَا بِخَوَاتِمِ الْأَعْمَالِ، وَالْعِلْمُ لِلَّهِ، فَهُوَ التَّائِمُ الْعِلْمِ الْكَامِلِ الْقُدْرَةِ، فَهَذِهِ الْجُمْلَةُ كَالْتَّعْلِيلِ لِلتَّعْلِيلِ بِالْمَشِيئَةِ، أَرَادَ شُعَيْبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَقْطَعَ بِهَا طَمَعِ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِي عَوْدَةِ الْمُؤْمِنِينَ فِي مِلَّتِهِمْ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَإِنَّمَا عَلَّقْنَا الْعَوْدَ بِالْمَشِيئَةِ لِنَقْصِ غُلُومَنَا، قَرَبْنَا كَأَن فِي سَعَةِ عِلْمِهِ قِسْمٌ ثَالِثٌ، وَهُوَ أَنْ نَكُونَ

(١) البخاري (٧٤٥٤). مسلم (٢٤٤٣)، واللفظ لمسلم.

في الْقَرْيَةِ عَلَى دِينِنَا، وَتَكُونُونَ أَنْتُمْ فِيهَا أَوْ لَا تَكُونُونَ، أَوْ تُؤَافِقُونَنَا عَلَى مَا نَحْنُ عَلَيْهِ، وَهَكَذَا يَنْبَغِي لِلْمَرْبُوبِ أَنْ يعلق أَعْمَالَهُ بِالْمَشِيئَةِ، وَيُثْنِي عَلَى اللَّهِ ﷻ بِسَعَةِ عِلْمِهِ كَمَا قَالَ الْمَلَائِكَةُ لَهُمْ ﷻ: ﴿سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]، وَلَا يَنْبَغِي الْجَزْمُ بِأَمْرٍ يُسْتَقْبَلُ إِلَّا بِذِكْرِ أَنَّ اللَّهَ ﷻ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَالآيَةُ تُدَلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ فِي الْأَزَلِ عَالِمًا بِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْكُلِّيَّاتِ وَالْجُزْئِيَّاتِ لِأَنَّ (وَسِعَ) فَعْلٌ مَاضٍ^(١)، وَالْمَاضِي فِيهِ لَا يُمْكِنُ تَحْدِيدُهُ لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْأَوَّلُ ﷻ. وَنَرَى ارْتِبَاطًا قَوِيًّا ثَانِيًا يُظْهِرُ لَنَا قُوَّةَ هَذَا الْجَوَابِ الشُّعْبِيِّ، فَإِنَّ الْقَوْمَ لَمَّا قَالُوا لِشُعْبٍ ﷻ: إِمَّا أَنْ تَخْرُجَ مِنْ قَرْيَتِنَا، وَإِمَّا أَنْ نَعُودَ فِي مِلَّتِنَا، قَالَ شُعْبٌ ﷻ: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: ٨٩]، فَرَبَّمَا كَانَ فِي عِلْمِهِ حُصُولُ قِسْمٍ ثَالِثٍ، وَهُوَ أَنَّ نَبْقَى فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ نَعُودَ إِلَى مِلَّتِكُمْ، بَلْ يَجْعَلُكُمْ مَقْهُورِينَ تَحْتَ أَمْرِنَا، ذَلِيلِينَ خَاضِعِينَ تَحْتَ حُكْمِنَا، وَلِذَا قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف: ٨٩]^(٢).

كَمَا أَنَّ هَذَا الْقَبْسَ الْعَظِيمَ يُظْهِرُ لَنَا خِيَارًا رَابِعًا، وَهُوَ أَنَّ نَبْقَى عَلَى مِلَّتِنَا، وَتَبْقُونَ عَلَى مِلَّتِكُمْ، وَيَحْدُثُ التَّعَايُشُ، وَهَذَا الْخِيَارُ الرَّابِعُ يَتَنَزَّلُ الْمُسْلِمَ بِذِكْرِهِ، وَإِلَّا فَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ مُسْتَحِيلٌ؛ لِأَنَّ طَبِيعَةَ الْبَاطِلِ الْعَدَوَانُ، وَانْظُرْ كَيْفَ أَلْغَى مَجْرَمُ الصَّلِيبِيَّةِ الصَّهْيُونِيَّةِ كُلَّ شَعَارَاتِهِمُ الْجَوْفَاءِ حَوْلَ حَقُوقِ الْإِنْسَانِ، وَقَالُوا: إِنَّ الْحَرْبَ عَلَى أَطْفَالِ غَزَّةَ حَرْبٍ دِينِيَّةٍ، وَأَمَامَ مَقْتَلٍ مَا يَقْرُبُ مِنْ (١٨٠٠٠) طِفْلٍ، وَتَقَى مَقْتَلَهُمْ أَمَامَ الشَّاشَاتِ، فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ: إِنَّهُمْ لَا يَرُونَ مَدَنِيِّينَ يُقْتَلُونَ، فَطَبِيعَةُ أَهْلِ الْبَاطِلِ الْعَدَوَانُ الدَّائِمُ.

بصيرة: إن طبيعة أهل الباطل العدوان الدائم المستمر على أهل الحق، ومحاولة استئصال شأفتهم، ومصادرة حقوقهم، وإلغاء حقهم في الحياة الكريمة، وهذا دليله كل أمم الباطل على مِ الْأَزْمَنَةِ وَالْعَصُورِ، وَمَا نَرَاهُ مِنْ دُولِ الظُّلْمِ وَالطُّغْيَانِ الْيَوْمَ إِلَّا امْتِدَادٌ لَتِلْكَ الْأُمَمِ.

(١) نظم الدرر (٤/٨).

(٢) تفسير الرازي (٣١٨/١٤).

قال الله ﷻ: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: ٨٩] ما الموقع الإعرابي لكلمة ﴿عِلْمًا﴾؟ وما التصوير الذي يمنحه هذا الموقع لفكرنا؟ وكيف ظهرت قوة الكلمة القرآنية هنا؟

الجواب: لما قال شعيب ﷺ: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ٨٩] ربما سأل سائل: ماذا؟ ماذا وسع ﷻ؟ هل وسع كل شيء رحمةً، جِلْمًا، قوةً؟! فجاءت كلمة ﴿عِلْمًا﴾ لتكون مَنْصُوبَةً عَلَى التَّمْيِيزِ، فميزت الصفة التي أراد شعيب ﷺ الكلام عن السعة فيها، فالله هو الواسع لكن شعيباً ﷺ أراد أن يذكر السعة العلمية هنا بصورة خاصة، فجاء التمييز لِيُقَصِّلَ الصفة التي يجب الاهتمام بها، وَاِنْتَصَبَ ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ عَلَى الْمَفْعُولِ بِهِ لِـ (وَسِعَ)، أي: وَسِعَ عِلْمُ رَبِّنَا كُلَّ شَيْءٍ.

وَالسَّعَةُ: تدل على الامتداد حتى لا يخرج عن صاحبه شيء، فمعنى ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي: لا يمكن أن يخرج عن علمه شيء.

وهنا ينبري الرازي ﷻ لِيُظْهِرَ التصورات الواسعة التي حباه الله بها، ويعيننا بها على تصور البحر الواسع الذي لا شاطئ له من علم الله ﷻ، فيخبرنا أن شعيباً ﷺ لما قال: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، فذلك يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى كَانَ عَالِمًا فِي الْأَزَلِ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَسِعَ﴾ فِعْلٌ مَاضٍ، فَيَتَنَاوَلُ كُلَّ مَاضٍ، وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّهُ كَانَ فِي الْأَزَلِ عَالِمًا بِجَمِيعِ الْمَعْلُومَاتِ، وَثَبَتَ أَنَّ تَغَيُّرَ مَعْلُومَاتِ اللَّهِ تَعَالَى مُحَالٌ، لَزِمَ أَنَّهُ ثَبَّتَ الْأَحْكَامَ وَجَفَّتِ الْأَقْلَامُ، وَالسَّعِيدُ مَنْ سَعِدَ فِي عِلْمِ اللَّهِ، وَالشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي عِلْمِ اللَّهِ، وَكَانَ يَنْبَغِي لِلرَّازِي ﷻ أَنْ يَقُولَ: وَالسَّعَادَةُ وَالشَّقَاءُ وَإِنْ عِلْمُهُمَا اللَّهُ ﷻ فِي الْأَزَلِ لَكِنْ تَحَقُّقُهُمَا إِنَّمَا يَكُونُ دُونَ جَبْرِ لِلْعَبْدِ، فَهُوَ بِإِرَادَتِهِ يَحَقِّقُ مَا سَيَكُونُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ أَمَا فِي عِلْمِ اللَّهِ ﷻ فَاَلْمُسْتَقْبَلُ الَّذِي يَكُونُ عِنْدَنَا غَيْرَ مَوْجُودٍ؛ لِأَنَّ عِلْمَ اللَّهِ ﷻ وَاحِدٌ فَسَتَوِي فِي حَقِّهِ الْأَزْمَنَةُ، فَلَا يَحِيطُ بِاللَّهِ ﷻ وَبِعِلْمِهِ الزَّمَانُ كَمَا يَحِيطُ بِنَا.

أليست سعة عظيمة لا يمكن أن يدرك لها المرء بتصوره المحدود حدًا؟!

ثم يواصل الرازي ﷻ إذهال عقولنا ببيان هذه السعة، فيذكر أن قَوْلَهُ: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: ٨٩] يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ عِلْمُ الْمَاضِي وَالْحَالِ وَالْمُسْتَقْبَلِ، وَعِلْمُ الْمَعْدُومِ أَنَّهُ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ، فَهَذِهِ أَقْسَامُ أَرْبَعَةٍ، ثُمَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْسَامِ الْأَرْبَعَةِ يَقَعُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ: أَمَّا الْمَاضِي: فَإِنَّهُ عِلْمٌ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ مَاضِيًّا فَإِنَّهُ كَيْفَ كَانَ، وَعِلْمٌ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مَاضِيًّا بَلْ كَانَ حَاضِرًا فَإِنَّهُ كَيْفَ يَكُونُ، وَعِلْمٌ أَنَّهُ لَوْ كَانَ مُسْتَقْبَلًا كَيْفَ سَوْفَ يَكُونُ، وَعِلْمٌ أَنَّهُ لَوْ كَانَ عَدَمًا مَحْضًا كَيْفَ يَكُونُ، فَهَذِهِ

أَقْسَامُ أَرْبَعَةٍ بِحَسَبِ الْمَاضِي، وَاعْتَبَرَ هَذِهِ الْأَقْسَامُ الْأَرْبَعَةَ بِحَسَبِ الْحَالِ، وَبِحَسَبِ الْمُسْتَقْبَلِ، وَبِحَسَبِ الْمَعْدُومِ الْمُحْضِ فَيَكُونُ الْمَجْمُوعُ سِتَّةَ عَشَرَ، ثُمَّ اعْتَبَرَ هَذِهِ الْأَقْسَامُ السِتَّةَ عَشَرَ بِحَسَبِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الدَّوَاتِ وَالْأَلْوَانِ وَالطُّعُومِ وَالرَّوَائِحِ، وَكَذَا الْقَوْلُ فِي سَائِرِ الْمُفْرَدَاتِ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَعْرَاضِ وَأَجْنَاسِهَا، فَحِينَئِذٍ يَلُوحُ لِعَقْلِكَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: ٨٩] بَحْرٌ لَا يَنْتَهِي مَجْمُوعُ عُقُولِ الْعُقَلَاءِ إِلَى أَوَّلِ خُطْوَةٍ مِنْ خُطَوَاتِ سَاحِلِهِ^(١).

ويشير ابن عاشور رحمه الله إلى أن في مجادلة شعيب عليه السلام لقومه إذماج تَعْلِيمٍ بعض صفات الله لِاتِّبَاعِهِ وَغَيْرِهِمْ عَلَى عَادَةِ الْخُطْبَاءِ فِي انْتِهَازِ الْفُرْصَةِ^(٢) لتعليم ما هو أوسع من الموضوع الذي يدور الحديث حوله.

عرفنا أن الْمُعَلِّمَ الرَّابِعَ مِنْ مَعَالِمِ الرَّدِّ الصَّاعِقِ الْحَكِيمِ الَّذِي قَالَهُ شُعَيْبُ عليه السلام لقومه: بَيَانُ سَعَةِ عِلْمِ اللَّهِ جلَّ جلاله وشموله، وَمِنْ عِلْمِهِ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعَاقَبَ، فَيَرْجِعُهُ رَبُّنَا إِلَى الْمِلَّةِ الْوُثْنِيَةِ الظَّالِمَةِ جَزَاءً وَفَاقًا، فَمَا الْمُعَلِّمُ الْخَامِسُ؟

الجواب:

المعلم الخامس: الاعتزاز الكامل بالتوكل على الله جلَّ جلاله، ولذا قال شعيب عليه السلام في مرافقته المدهشة أمام الملأ المستكبرين: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف: ٨٩]:

أتقن شعيب عليه السلام كلامه، فأظهر فيه قوة المعنى الذي يريد إظهاره عبر الصياغة اللفظية، والأسلوب المدهش، فقال: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾.

تصور أن تقول مثل هذا البيان أمام شياطين بني الإنسان في مدافعة سياسية! فالمحفل الذي كان يتكلم فيه شعيب عليه السلام كان محفلاً سياسياً قبل أن يكون محفلاً دينياً؛ إذ تهدد السلطة السياسية لِمَدِينٍ بتهجير شعيب عليه السلام والمؤمنين معه، فلم يقتصر شعيب عليه السلام في رده على المعاني السياسية حينما قال: ﴿قَالَ أَوْلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ ۝٨٨﴾ بل استغل الفرصة في إظهار المعاني الدينية العميقة، وإنك

(١) تفسير الرازي (٣١٨/١٤).

(٢) التحرير والتنوير (١١/٩).

لتعجب من أن المعتدين من بني إسرائيل يظهرون أصول دينهم المحرف في كلِّ محفل سياسيٍّ، ولا تجد مثل ذلك في الطرف الآخر الذي تمثله القيادات السياسية المفروضة على الأمة المسلمة.

وهنا نسأل: ماذا يعني ﴿تَوَكَّلْنَا﴾؟

الجواب: التوكل من: (وَكَّلَ) ^(١) أي: اعتمد على غيره في أمر نفسه لعجزه، أو لعدم كماله في القيام بشأنه، وَيَقُولُونَ: فيه وُكَّالٌ، بفتح الواو أو بكسرهما، أي: بُطءٌ وبلادةٌ وضعفٌ، وفي الدواب: أَنْ يَسِيرَ بِسَيْرِ الْآخَرِ كأن الدابة المتأخرة تعتمد على ما سبقها في الحركة والاتجاه. والوُكَّلةُ، والوُكَّلُ بفتح الواو ثم بفتح الكاف ويجوز بكسرهما، ويجوز بضم الواو وفتح الكاف، وذلك إذا كان ضعيفاً ليس بنافذٍ بل يكون عاجزاً يَكِلُ أمره إلى غيره. يَقُولُونَ: وَكَلَّةٌ تُكَلَّةٌ. والتَّوَكَّلُ يقال على وجهين:

تَوَكَّلْتُ لفلان فأنا وكيل، بمعنى: توليت له، ووكل الأمر إليه: سلَّمه، ووكله إلى رأيه: تركه، أي: سلَّمه إلى رأيه، ويقال: وَكَلْتُهُ فَتَوَكَّلَ لي، أما تَوَكَّلْتُ عليه فمعناه: عرفت أنني ضعيف عاجزٌ عن القيام بالأمر، ففوضت إليه ثقةً بكفايته، واعتمدت عليه كما قال ربنا ﷺ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

وربما فسّر الوكيل بالكفيل، والوكيل أعم، لأنَّ كلَّ كفيل وكيلٌ، وليس كلَّ وكيلٍ كفيلًا. فالوكيلُ فعيلٌ بمعنى المفعول أي: مُوَكَّلٌ، ومعناه: فوضت الأمر بالكلية إلى الله عز وجل، وجعلته عز وجل وكيلًا لي أعتمد عليه في كلِّ شؤني، لشعوري بالعجز عن القيام بها حق القيام، فقال تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١] أي: اكتف به أن يتولّى أمرك.

قال أبو حاتم رحمه الله: «الواجب على العاقل لزوم التوكل على من تكفل بالأرزاق؛ إذ التوكل هو نظام الإيمان وقرين التوحيد، وهو السبب المؤدي إلى نفي الفقر ووجود الراحة، وما توكل أحد على الله جل وعلا من صحة قلبه، حتى كان الله جل وعلا بما تضمّن من الكفالة أوثق عنده بما حوته يده: إلا لم يكله الله ﷻ إلى عبادته، وآتاه رزقه من حيث لم يحتسب» ^(٢).

(١) يُنظر: مقاييس اللغة (١٣٦/٦)، مفردات الراغب الأصفهاني (ص: ٥٣١)، لسان العرب، (١١/٧٣٥).

(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص: ١٥٣).

وهنا نسأل: لماذا قدم الجار والمجرور على الفعل والفاعل في قوله: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا؟﴾

الجواب: هذه الصياغة تفيد الحصر، أي: على الله تَوَكَّلْنَا لا على غيره، فكأنه في هذا المقام عزَل الأسباب، وارتقى عنها إلى مُسَبِّب الأسباب^(١)، فقال: إِلَيْهِ وَحْدَهُ لا إلى غيره وَكَلَّنَا أَمَرْنَا، وعليه وحده توكَّلْنَا في أن يثبتنا على ديننا، ولا يسلبنا إيماننا، ولا يمسخ عقولنا وقلوبنا، فمهما فعلتم من إغرائنا أو إغوائنا أو ترهيبنا فعلى الله وحده توكَّلْنَا في أن لا يؤثر علينا أحدٌ من خلقه، وألا نتأثر بفتنة أو ضلالة، وعليه وحده توكَّلْنَا في أن يكفيننا شر ما أهتمنا، وأن يدرأ عنا شروركم وشور كل مؤامرات المتآمرين.

وهذا التوكل العظيم يعلمنا النبي ﷺ أن نقول أمثاله كما روى ابن عباس رضيه الله عنه قال: كان النبي ﷺ يدْعُو: «رَبِّ أَعْنِي وَلَا تَعْنِ عَلَيَّ، وَاَنْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَاْمْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاْهْدِنِي وَيَسِّرْ هُدَايَ إِلَيَّ، وَاَنْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، اَللّٰهُمَّ اجْعَلْنِي لَكَ شَاكِرًا، لَكَ ذَاكِرًا، لَكَ رَاهِبًا، لَكَ مَطْوَعًا، إِلَيْكَ مُخِبًا أَوْاهًا مُنِيبًا.

رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حُوبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَاْهْدِ قَلْبِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي»^(٢).

ولا يتركنا ابن عباس رضيه الله عنه من هذه التربية النبوية المخبئة المتوكلية العظيمة، فيقول أيضاً: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنْبَتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ»^(٣). ويروي لنا أبو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رضي الله عنه موقفاً عظيماً ينبغي أن نستحضره، ونستحضر التوكل على الله ﷻ فيه، ونتعلم صيغة التوكيل لرَبِّنا بناءً على قول شعيب رضي الله عنه، وبناءً على ما أبرزه النبي ﷺ من أسلوب رائع لصيغة التوكل، حيث قال ﷺ: «كَيْفَ أَنْعَمَ وَصَاحِبُ الْقُرْنِ قَدْ التَّقَمَ الْقُرْنَ وَاسْتَمَعَ

(١) تفسير الرازي (٣١٨/١٤).

(٢) أبو داود (١٥١٠)، الترمذي (٣٥٥١) وقال: "حديث حسن صحيح"، وصححه البغوي في شرح السنة (١٣٧٥).

(٣) مسلم (٢٧١٧).

الإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْعِ فَيَنْفَعُ»، فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قُولُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا»^(١).

ويبدع البقاعي رحمه الله في بيان اتصال هذه الجملة ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ بما قبلها، فيقول: "وَمَا كَانَ الْمُرَادُ مِنْ هَذَا مَا ذَكَرَ، كَانَ مُزْعِجًا لِلْقُلُوبِ، مُقْلِقًا لِلنُّفُوسِ، مُزْعِرًا لِلْخَوَاطِرِ، مُزَلِّلاً لِلْأَفْكَارِ، بِتَأْمُلِ هَذِهِ الْأَخْطَارِ الْمُشْفِيَةِ عَلَى غَايَةِ الْخَسَارِ، فَكَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَالُوا: مَا الْعَمَلُ وَأَيْنَ الْمَقَرُّ؟ فَقَالَ: ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ أَيِ: الَّذِي لَهُ الْأَمْرُ كُلُّهُ وَلَا أَمْرَ لِأَحَدٍ مَعَهُ، وَخَدَهُ لَا عَلَى غَيْرِهِ، ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ أَيِ: فَوَضَّعْنَا جَمِيعَ أُمُورِنَا إِلَيْهِ، وَهُوَ أَكْرَمُ مَنْ أَنْ يَخْتَارَ لَنَا غَيْرَ الْأَرْشَدِ، وَقَدْ تَبَرَّأْنَا مِنْ حَوْلِنَا وَقُوَّتِنَا، وَاعْتَصَمْنَا بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ، وَجَعَلْنَا جَمِيعَ أُمُورِنَا كُلِّهَا مَحْمُولَةً عَلَى قُدْرَتِهِ كَمَا يَحْمِلُ الْوَكِيلُ أَمْرَ مُوَكَّلِهِ عَنْهُ، وَيُرِيحُهُ مِنْ هَمِّهِ وَقَلْقِهِ مِنْهُ"^(٢).

وينسب للشافعي رحمه الله:

توكلتُ في رزقي على الله خالقي	وأيقنتُ أنَّ الله لا شكَّ رازقي
وما يكُ من رزقي فليس يفوتني	ولو كان في قاع البحارِ العوامي
سيأتي به الله العظيم بفضله	ولو لم يكن مني اللسانُ بناطقي
ففي أيِّ شيءٍ تذهبُ النفسُ حسرةً	وقد قسَمَ الرحمنُ رزقَ الخلائقي ^(٣)

ويقول العالم الجزائري الشيخ أحمد سحنون رحمه الله:

لا أبالي بالسَّجَنِ إنْ كان في السَّجَنِ	رضا خالقي فذلك حَسبي
إنَّ حَظُّبًا فيه سلامةٌ ديني	ورضا الله لهو أيسرُ حَظَبٍ
عجبًا: كيفَ يصحُّ النَّصْحُ ذنبًا	في بلادٍ تحتاجُ نصْحَ المُرتَبِي؟

(١) أحمد (٣٠٠٨)، الترمذي (٢٤٣١)، واللفظ له، وقال: "هذا حديثٌ حَسَنٌ"، وحسنه البغوي في شرح السنة (٤٢٩٨).

(٢) نظم الدرر (٤/٨).

(٣) ديوان الإمام الشافعي، إعداد وتعليق: محمد إبراهيم سليم (ص: ١١٠).

يا إلهي إني عبدُكَ حَبًّا فتَقَبَّلْ - يا رَبِّ - خالِصَ حُبِّي
يا إلهي قد أَصْبَحْتُ دَعْوَةَ الْإِسْلَامِ تشكو بأَرْضنا كُلَّ جَدْبٍ
فَأَعِثْها مِن بَعْدِنا بَدْعاً صالحين يُولونها كُلَّ خَصْبٍ^(١)

وهنا يأتي سؤال يتعلق بالتوكل: هل التوكل على الله ﷻ يقتضي تعطيل جميع الأفعال البشرية الأخرى وعدم الالتفات إلى الأسباب، بما أننا توكلنا على مسبب الأسباب؟

الجواب: التوكل على الله ﷻ لا يعني التواكل، ولا التغافل، ولا تجاهل ما يحيط بالإنسان من الظروف المتغيرة الحوالم، والأخطار الهوالم.

والتوكل لا يعني أن يترك الصالحون الأخذ بالأسباب المادية والمعنوية، ويرموا أنفسهم في المتاهات الردية، بل من شروط التوكل والتوكيل أن يقوم المتوكل بكل الأسباب والخطط المشروعة التي تسهم في تحقيق أهدافه، والوصول إلى غايته، وتحميه من الأخطاء والأخطار المتوقعة، وهل تتصور أحداً وكلّ أحداً آخر دون أن يحتاط لنفسه؟ فهذا في أمر البشر، أما في توكيل العبد لله مالك القوى والقدر، وحاكم القضاء والقدر فإنه ﷻ قد أمر بالأخذ بالأسباب، وحثّ على ذلك حتى أوجبه على الناس بغير ارتياب.

بصيرة: إن من لوازم توكيل العبد لله ﷻ مالك القوى والقدر، وحاكم القضاء والقدر الأخذ بالأسباب، وقد حثّ على ذلك حتى أوجبه على الناس بغير ارتياب.

وهذه الأسباب ترجع إلى مطلوبات شرعية مباشرة، وإلى نظير في السُنن الكونية والاجتماعية، فمن يترك العمل بالأسباب فهو جاهل مغرور، لا متوكل منصور، ولا مأجور^(٢)، بل ربما أئيم، وضمن وغريم،

(١) ديوان الشيخ أحمد سحنون، الديوان الثاني (ص: ٩).

(٢) تفسير المنار (٨/٩).

في شرع من أوتي جوامع الكلم، ﷺ، فقد قَالَ لِمَنْ سَأَلَهُ أَيُّكُمْ نَافَتْهُ سَائِبَةٌ، وَيَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى؟ «اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ»^(١).

وقد أمرنا ربنا -جلَّ مجده- في آيات كثيرة بالعمل والبذل ودراسة السنن التي تحقق لنا الغايات في أمور الدنيا والدين، فالتوكل لا يعني التواكل، ولكن يجب على الصالح أن يبذل الأسباب متوكلاً على من يتحكم بها، فهو الذي خلق كل شيء فقدَّره تقديرًا، وأمر عباده ألا يتركوا من العمل صغيرًا ولا كبيرًا.

عرفنا أن المَعْلَمَ الخامس من معالم الرد الصاعق الحكيم الذي قاله شعيب عليه السلام لقومه: الاعتزاز الكامل بالتوكل على الله، ولذا قال شعيب عليه السلام في مرافعته المدهشة أمام الملأ المستكبرين: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾، فما المعلم السادس من معالم رده؟
الجواب: هنا يأتي:

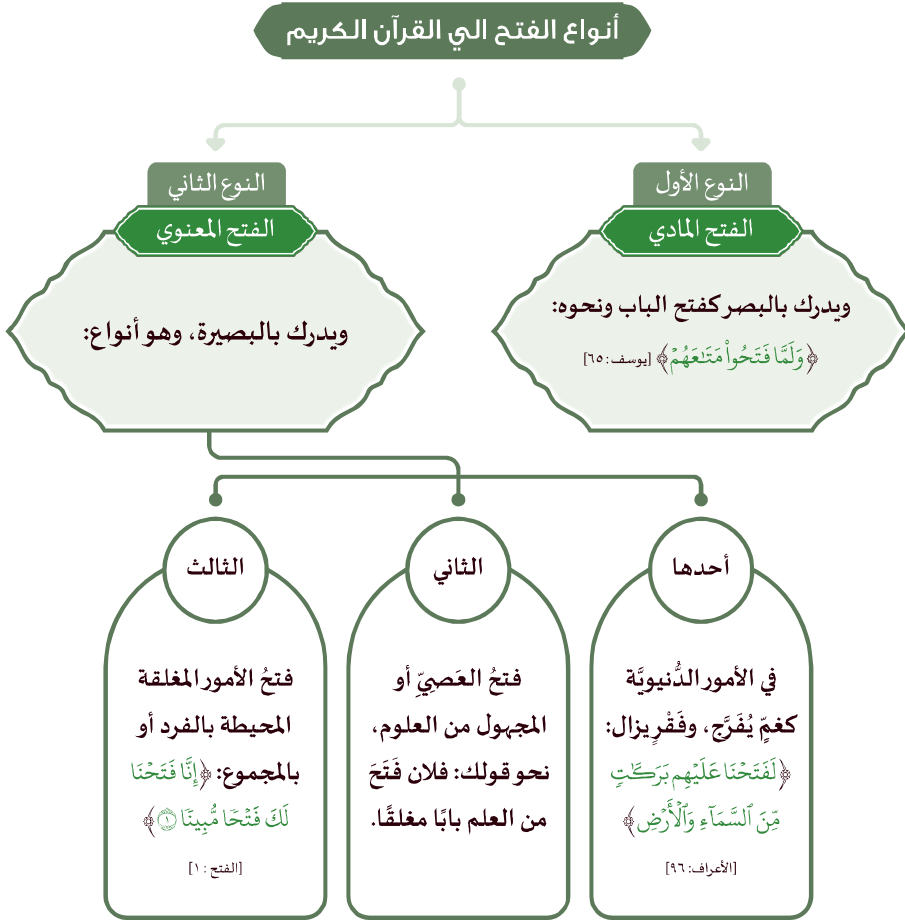
المعلم السادس: طلب من الله تعالى الفصل الذي يؤدي إلى النصر والفوز على المستكبرين، ولذا ختم شعيب عليه السلام مرافعته المدهشة أمام الملأ المستكبرين فقال: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

[الكلمة ١]: ﴿رَبَّنَا﴾ إنها الكلمة التي بها يشعر الإنسان بأعظم القوة، وأكبر القدرة، فهي تعني: يا سيدنا الملك المالك لنا ولجميع ما حولنا المربي لأنفسنا: من ذا الذي ذاق حلاوة مناجاتك، فاشتغل والتهى بلذة بشرٍ عن طاعتك ومرضاتك؟!

(١) الترمذي (٢٥١٧)، وقال العراقي في "المغني عن حمل الأسفار" (ص ١٦٤٠): «أخرجه الترمذي من حديث أنس، قال يحيى القطان: منكر، وزواه ابن خزيمة في التوكل، والطبراني من حديث عمرو بن أمية الضمري بإسناد جيد».

بصيرة: ختم شعيب عليه السلام مرافعته القوية الحكيمة بهذه الكلمات العظيمة،
لِيُشْهَدَنَا وَيُشْهَدَ الْعَالَمَ الْمَشْهَدَ الْبَاهِرَ الَّذِي نَرَى فِيهِ وَلايَةَ رَبِّنَا جل جلاله لأوليائه، فقد
تيقن شعيب عليه السلام من مصدر القوة الحقيقية في هذا الكون، وعَلِمَ الْمُلْجَأَ الَّذِي يَجِدُ
عِنْدَهُ الْأَمَانَ وَأَقْوَى الضَّمَانَ، فَمَا أَكْثَرَ مَا يَظُنُّ الْإِنْسَانُ ذَلِكَ الضَّمَانَ عِنْدَ أَشَدِّ
الْوَحْشِ مِنْ أَهْلِ الطُّغْيَانِ الَّذِينَ يَفْتَرِسُونَ مَنْ يَخْدَعُونَهُمْ بِالضَّمَانِ الْوَهْمِيِّ، فَلَا
مَفْرَءَ مَنْ أَنْ يَتَوَكَّلَ الْإِنْسَانُ عَلَى مَوْلَاهُ الْإِلَهِ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ الْبَرِّ، وَهُوَ الَّذِي لَمْحِهِ
شُعَيْبُ عليه السلام، فَرَجَعَ إِلَيْهِ، وَاعْتَزَّ بِذِكْرِهِ أَمَامَ الْمُسْتَكْبِرِينَ.

[الكلمة ٢]: ﴿أَفْتَحْ﴾:



سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ

مِفْتَاحُ تَسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (٤)

ما معنى الفتح الذي قاله شعيب عليه السلام: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾؟ وكيف تظهر قوة

الكلمة القرآنية هنا؟

الجواب: كلمة ﴿فَتَحْ﴾^(١) تدلُّ عَلَى خِلَافِ الإِغْلَاقِ المادي والمعنوي، والفتح نوعان:

(١) مفردات الراغب الأصفهاني، (ص: ٣٧٠)، لسان العرب، (٥٣٦/٢)، المعجم الاشتقاقي المؤصل، (ص: ١٦٢٢).

النوع الأول: الفتح المادي، ويدرك بالبصر كفتح الباب ونحوه، وكفتح القفل والغلق والمتاع، نحو قوله ﷺ: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَعَهُمْ﴾ [يوسف: ٦٥]، وقوله ﷺ: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الحجر: ١٤]، والفُتْحَة - بالضم: الفُرْجَة في الشيء، وقارورة فُتِحَ - بضمين: واسعة الرأس بلا صِمام ولا غِلاف، وباب فُتِحَ: واسع مُفْتَحٌ، ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧٣].

وتسمى الآلات المادية التي تفتح: مفتاحًا، ومِفْتَاحًا، وهو ما يُفْتَحُ به، وجمعه: مَفَاتِيحُ وَمَفَاتِيحُ، كما في قوله تعالى: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦] عَنَى مفاتيح خزائنه، ومنه قوله ﷺ: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾ [النور: ٦١] جمع مُفْتَح وهو المفتاح.

النوع الثاني: الفتح المعنوي، ويدرك بالبصيرة، والعلاقة بينه وبين الفتح المادي واضحة، فإنك تتصور الشيء المعنوي قد أُغْلِقَ عليك بابه، كالتوظيف والزواج، وحل المشكلات، ومثل ذلك ردع المجرمين، ودحر المحتلين، ورفع الظلم عن المظلومين، فإذا أزيل ذلك قلت: قد فتح الله لنا، فيسمى الخير النابع الذي تلاقيه فتحًا، وأخذه من الفتح المادي، فمن معاني الفتح المادي: الماء يُخْرَجُ مِنْ عَيْنٍ أَوْ غَيْرِهَا.

والفتح المعنوي أنواع:

أحدها: في الأمور الدُنيويَّة كغِيٍّ يُفْرَجَ، وفَقْرٍ يزال بإعطاء المال، وحل المشكلات الاقتصادية كما في قوله تعالى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، أي: لأرسلنا عليهم الخيرات الموجودة التي تنتظر التدفق لو ملكوا مفاتيحها، وقوله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤]، والفتح المادي والمعنوي لا يقتصر على المسلم، بل يشمل عطاء الله للمسلم والكافر إما بحسب بذل الأسباب، وإما ابتلاء من الله بإعطاء الفضل أو الملك لأحد من العباد، ومنه قوله ﷺ: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢].

الثاني: فتح العَصِيِّ أو المجهول من العلوم، نحو قولك: فلان فَتَحَ من العلم بابًا مغلقًا.

الثالث: فتح الأمور المغلقة المحيطة بالفرد أو بالمجموع، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا

مُبِينًا﴾ [الفتح: ١] عَنَى: صلح الحديبية، فإن كل ما فتح للنبي ﷺ بعدها من فتح مكة أو من العلوم وهداية العالم كان بسبب هذا الصلح.

بصيرة: الفتح يتوصل به إلى الخبرات المادية أو المعنوية، ومن ذلك فتح النصر والإطفار، وفتح إحقاق الحق وإبطال الباطل في قضايا التخاصم؛ ولذا يسمى الحكم بالحق فتحًا، فالله تعالى هو الفاتح، أي الحاكم الذي يفتح للحق بالحق لصاحب الحق ليتمكن ويستقر، وللباطل ليضمحل ويندحر.

وَأَسْتَفْتَحْتُ: اسْتَنْصَرْتُ، وَفَوَاتِحُ الْقُرْآنِ: أَوَائِلُ السُّورِ. وَبَابُ فُتْحٍ، أَيُّ وَاسِعٌ مَفْتُوحٌ. وَفَاتِحُهُ كُلُّ شَيْءٍ: مَبْدُؤُهُ الَّذِي يَفْتَحُ بِهِ مَا بَعْدَهُ، وَبِهِ سَمِّيَ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ، وَقِيلَ: افْتَتَحَ فُلَانٌ كَذَا: إِذَا ابْتَدَأَ بِهِ، وَفَتَحَ عَلَيْهِ كَذَا: إِذَا أَعْلَمَهُ وَوَقَفَهُ عَلَيْهِ، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٧٦]، وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ [فاطر: ٢]، وَفَتَحَ الْقَضِيَّةَ فِتْحًا: فَصَلَ الْأَمْرَ فِيهَا، وَأَزَالَ الْإِغْلَاقَ عَنْهَا. قَالَ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وَمِنْهُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَاتِحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبا: ٢٦]. وَ﴿أَفْتَحْ﴾ ذَكَرُوا أَنْ مَعْنَاهَا: احْكُمْ وافْضِ، فَقَدْ ذَكَرَ الْفَرَاءُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ أَهْلَ عُمانَ يسمونَ الْقَاضِيَّ: "الْفَاتِحَ" و"الْفَتَّاحَ" ^(١)، وَذَكَرَ غَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِكَلَامِ الْعَرَبِ: أَنَّهُ مِنْ لُغَةٍ مُرَادٍ، وَأَنْشَدَ لِبَعْضِهِمْ بَيْتًا ^(٢) وَهُوَ:

أَلَا أَبْلُغُ بَنِي عَصْمٍ رَسُولًا
بِأَيِّ عَن فَتَّاحَتِكُمْ غَيِّ ^(٣)

وَالْفُتَّاحَةُ: الْحُكُومَةُ، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: مَا كُنْتُ أَذْرِي قَوْلَهُ: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ حَتَّى سَمِعْتُ ابْنَةَ ذِي يَزَنٍ تَقُولُ لِزَوْجِهَا: تَعَالَ أَفَاتِحْكَ، أَيُّ أَحَاكِمْكَ ^(٤).

(١) معاني القرآن للفراء (٣٨٥/١).

(٢) تفسير الطبري (٣٢٠/١٠).

(٣) يُنسب البيت للأسعر الجعفي، ولمحمد بن حمران الشويعر الجعفي، وغيرهما. يُنظر: تهذيب اللغة (٢٥٩/٤)، سمط اللآي شرح أمالي القالي (٩٢٨/١). ويروي: (بني عوف) بدلًا من: (بني عَصْم).

(٤) تفسير الرازي (٣١٩/١٤).

أي فهم ابن عباس رضي الله عنه أن معنى: افتح أي احكم، وهذا التفسير تفسيرٌ للكلمة بسببها لا بما يعرف بها على وجه الدقة، فإن الفتح نتيجة، وسببها أن يحكم الله ﷻ بين الفريقين، فإن حكم بينهما فتح القفل الذي يتحكم به أو يسيطر به أحدهما على الآخر، ثم أعطى كلاً حقه، ففتح للمؤمنين مواضع الحق، وفتح على المجرمين أسباب الدمار، ولذا قال الرَّجَّاجُ رضي الله عنه: وجائز أن يكون قوله: ﴿أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ أي أظهر أمرنا حتى يتفتح ما بيننا وبين قَوْمِنَا وينكشف بأن تنزل عليهم عذاباً يتبين معه أنهم على الباطل ^(١).

بصيرة: تظهر قوة الكلمة القرآنية ﴿أَفْتَحْ﴾ عندما تشعر بأن شعباً الطاعة يطلب أن يحكم الله ﷻ بينهم، ثم يهب له وللمؤمنين النصر عليهم، والفوز بما بعد النصر من الخيرات، فكلمة ﴿أَفْتَحْ﴾ تدل على ذلك كله.

ستقول: إذا كان الفتح يعني النصر والظفر، فكيف جمع الله بينهما في قوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١]، وفي قوله: ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣]؟

الجواب: سَمَّا الرازي رحمه الله وارتفع بفكره، فحاول أن يُظهر لنا قوة الكلمة القرآنية، ودعاه هذا إلى أن يوضح الفرق بين النصر والفتح، فقرر الآتي:

(١) النصر هو الإعانة على تحصيل المطلوب، والفتح هو تحصيل المطلوب الذي كان متعلّقاً، فالنصر على قريش في المعارك التي قبل مكة كان سبباً للفتح، فلهذا بدأ بذكر النصر وعطف الفتح عليه في سورة النصر.

(٢) يحتمل أن يقال: النصر كمال الدين، والفتح الإقبال الدنيوي الذي هو تمام النعمة.

(٣) النصر هو الظفر في الدنيا، والفتح الظفر بالجنة، كما قال تعالى: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] ^(٢).

(١) معاني القرآن وإعرابه، للرجّاج (٢/٣٥٨).

(٢) تفسير الرازي (٣٢/٣٣٦).

ويظهر أن الفتح قد يكون سابقاً للنصر، وعليه قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «مَنْ وَجَدَ بَابًا مُغْلَقًا وَجَدَ إِلَى جَنْبِهِ بَابًا فَتْحًا»^(١).

وقد يكون لاحقاً له، فالفتح أعظم من النصر، وأعم، ولذا وجدنا النور القرآني يسمي صلح الحديبية فتحاً، فيقول الله تعالى عنه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١].

ثم يخبر في السورة نفسها أنه سيفتح فتحاً قريباً، فقال جل مجده: ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

ثم سمى فتح مكة فتحاً، فقال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١].
فالفتح كان قبل تنوير مكة بحكم الرسول ﷺ لها، وكان عند وصول الرسول ﷺ ليعلن حكمه لها. أما النصر فهو الظفر بالمطلوب فحسب، فيخرج الجيش لينتصر في المعركة، وما يكسبه بعد ذلك فهو من الفتح.

وعلى هذا فقول شعيب عليه السلام: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩] يبصّرنا بعظمة شعيب عليه السلام في مطلبه، فلم يطلب النصر على قومه فحسب بل الفتح بينه وبينهم، والفتح يأتي معه النصر، وما بعد النصر من هداية الناس، أو تحاكمهم إلى شريعة ربهم، ولذا قال الله تعالى في سورة المائدة عن المؤمنين الذين يجدون الأمّرين من خيانات المنافقين الموالين لأعداء رب العالمين: ﴿فَعَسَىٰ أَلَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ [المائدة: ٥٢]، فيدخل فيه: النُصرة والظفر والحكم، وما يفتح الله تعالى من نشر الهدى والنور، وازدياد العلوم والمعارف.

وقد جعل الله تعالى الفتح الأعظم يوم الفصل يوم القيامة حيث يتحول الغيب إلى شهادة، والموعود إلى محقق، فقال تعالى ثناؤه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٨٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٩﴾ [السجدة: ٢٨-٢٩]، وهذا لا يكون إلا يوم القيامة، أو قربه حيث لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيراً.

(١) شعب الإيمان (٨٩٥٩)، وقال محققه (مختار الندوي): إسناده جيد.

وَشَعِيبَ النَّبِيِّ هُنَا يَطْلُبُ مَا طَلَبَهُ نُوْحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَأَفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٨].

فالفتح الذي طلبه شعيب عليه السلام يجعلك تشعر أنه طلب أن يُملِكه الله ﷻ الأدوات المادية التي تفتح له الأبواب المغلقة، وتفتح له الفرج من الاضطهاد المسدود الذي فرضه قومه عليه وعلى أتباعه، وكذلك يتضمن طلبه للأدوات العقلية التي تفتح له حلولاً تنصره على الباطل الذي يريد المستكبرون من قومه أن يفرضوه عليه وعلى أتباعه، ويتضمن طلبه بعد ذلك لأن يحكم الله ﷻ بين الطرفين ثم يفصل بالحق، ويتضمن رابعاً طلب الخير المادي والمعنوي الذي يُفيض به عليه وعلى أتباعه وعلى العالم حوله بعد أن يفتح لهم الأمور الثلاثة السابقة، وكأنه قال: ﴿رَبَّنَا﴾ أنت المستغاث به؛ لأنك الخالق السيد المطاع المالك الملك المربي المصلح للعالم ﴿أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا﴾ احكم بيننا وبين قومنا بالحق الذي به تنصر المصلحين المحققين على المبطلين الباغين، وتفتح للقوى المصلحة به الخيرات والبركات التي تحميهم من اضطهاد قوى الشر وأبناء الظلمات، وتعقد عليهم به جوانب التنمية والقوة والتمكين والإيمان التي تجعلهم يفتحون للعالم أبواب الخير والعدل والإحسان.

بصيرة: انظر جمال الختم للمرافعة الشُعيبية العظيمة؛ إذ قال شعيب عليه السلام:

﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ أي: أنت الحاكم الأعظم خيراً في الفصل بين المتخاصمين، فتفتح أبواب العدل والخير، وتغلق أبواب السوء والظلم والضرر والضرير، فلا تشتبه عليك المرافعات، ولا تغالطك لحون ذوي الألسن البارعات، ولا تنفع عندك الرشوة أو القرابات.

ويظهر أن الجمع هنا ﴿الْفَاتِحِينَ﴾ يشير إلى جواز تسمية الآخرين فاتحين؛ إن استحقوا ذلك الاسم، كما نقول: فتح خالد رضي الله عنه بلاد الشام، وفتح محمد الفاتح القسطنطينية، ولكن خير الفاتحين الله -جلّ مجده-، ولم يكن لغيره أن يفتح شيئاً لولا فضله وإذنه وتقديره تعالى ذكره، وتبارك اسمه. وهنا نسأل: كيف جمع شعيب عليه السلام بين قوة التأثير العاطفي على قومه في دعائه، وبين طلب النصر على اضطهادهم؟

الجواب: لاحظ كلامه العجيب المدهش، فهو أمام تهديد قومه واستمداد النصرة من ربه ما زال يؤثر عليهم بجميل كلامه، وعذب قوله، فيقول:

أولاً: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا﴾ وفي هذا الدعاء العظيم يطلب الفتح لكنه لم يطلب الفتح عليهم، أو الفتح له بصورة مباشرة بل طلب الفتح بالحق للطرف المحق دون أن يجعل نفسه هذا الطرف، ويوضح البقاعي رحمته جمال الصورة هنا، فيقول: "فَقَدْ عَلِمَ مِنْ إِشَارَةِ قَوْلِهِ الْعِنَايَةَ بِقَوْمِهِ، وَمِنْ عِبَارَتِهِ الْإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِهِ، وَلَوْ أَرَادَ تَرْجِيحَ نَفْسِهِ وَمُتَّبِعِيهِ لَدَعَا لَهُمْ أَنْ يُعَامَلُوا بِالْفَضْلِ، وَأَنْ يُعَامَلَ ضِدُّهُمْ بِالْعَدْلِ"^(١).

ثانياً: لم يُسمِ قومه بالمبطلين، ولا بالظالمين، ولا بالمجرمين، لم يقل: افتح لنا على هؤلاء المجرمين بل قال: ﴿أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا﴾، وهو يريد استعطافهم لإسعادهم، وفيه إشارة إلى ميله إلى الدعاء بهدائهم، وأدب بَعْدَ التَّصْرِيحِ بِمَا لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فِيهِ^(٢).

ثالثاً: قيّد هذا الفتح بأن يكون ﴿بِالْحَقِّ﴾، والحق: هو الأمر الفصل الثابت الذي يقوم عليه نظام السموات والأرض، وكل جزء فيها من الذرة إلى المجرة لا يمكن أن يكون له استقرار إلا بالحق أي: بالأمر الذي يُثَبِّتُه مكانه، وإلا حصل الخراب، فكان شعبياً عليه السلام يقول: اجعل الحق هو الفاتح بيننا وبين قومنا؛ ليسود معه العدل والصواب والبر والإحسان، ويزول معه الظلم والإجرام والاستكبار والطغيان، وهم هنا لن يستطيعوا أن يعترضوا عليه، فيقولوا: لا نريد الحق، بل سيضطرون إلى أن يؤمنوا على قوله، أو يطلبوا طلبه، وقد فعل ذلك كفار قريش في بدر، فلم يقولوا: اللهم انصر جيش الكفار المبطلين، بل قال أبو جهل يوم بدر: "اللَّهُمَّ أَقْطَعْنَا لِلرَّحِمِ، وَأَنَا بِمَا لَا نَعْرِفُ فَأَجِنُهُ الْعَدَاةَ. فَكَانَ ذَلِكَ اسْتِفْتَاخًا مِنْهُ، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ١٩] الآية"^(٣) أي: اجعل حينه هذا الصباح، أي وقت هلكته^(٤).

(١) نظم الدرر (٥/٨).

(٢) المرجع السابق.

(٣) أحمد (٢٣٦٦١)، والحاكم في المستدرک (٣٣٠٣) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يُخرجاه»، وحسن إسناده محققو المسند.

(٤) تفسير الطبري (٤٥٤/١٣).

هنا تشعر بالعظمة السامقة لشعيب عليه السلام في دقة كلامه، فقد دعا بما سيقوله بعض كفار قومه على الأقل: لقد دعا بالحق، وماذا ترى فوق ذلك في كلامه عليه السلام؟

ترى أنه ما زال يعتني بقومه، ويُظهر الإنصافَ من نفسه كما يقول البقاعي رحمه الله ^(١) حتى في هذه اللحظات الحرجة، وهنا نعلم لماذا ذكر الله تعالى عقب هذا الموقف الذي وقفه شعيب عليه السلام قوله: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠]، فهم جعلوا المعيار ليس الحق، بل جعلوا المعيار اتباعهم، فجعلوا شخوصهم واختياراتهم هي معيار الحق، وكذلك يفعل بنو إسرائيل وحلفاؤهم، وأولياء الشيطان وأجنادهم، والله من ورائهم محيط. كيف ذلك؟ ما علاقة الآية (٩٠) بما قبلها حتى ظهر لنا ترابط قوي، واتصال محكم، ونسيح متين بينهما؟

لاحظ بريق الجمال القرآني!

ففي الآية (٨٨) يصف الله تعالى الصنف المجرم الذي تزعم عملية التهديد لشعيب عليه السلام ... يصفهم بالاستكبار، فيقول: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَخُذْجَنَّاكَ يَشُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

وبعد خطاب شعيب الذي جمع بين القوة والتأثير العاطفي كما بيئنا فيما سبق وصف الله تعالى القوى المضادة لشعيب عليه السلام بأنهم ﴿كَفَرُوا﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: ٩٠]، والكفر يعني تغطية الحق بجحوده، وهنا يمكنك أن تلمح من الجمع بين الوصفين ﴿اسْتَكْبَرُوا﴾ و﴿كَفَرُوا﴾ أنه ربما حدثت زلزلة في نفوس بعض المستكبرين، فتأثروا وأرادوا متابعة شعيب عليه السلام، وكذلك تلمح لمحا قويًا أن أتباع شعيب عليه السلام ازدادوا ثباتًا، فالذين خاطبوا شعيبًا بعد بيانه القوى هم الموصوفون بالكفر، أي الذين غطوا الحق الذي جاء به جاحدين له.

فماذا حدث؟

(١) نظم الدرر (٥/٨).

لقد حاول المستكبرون المصرون على رعاية مصالحهم المجرمة أن يهددوا الصنفين معاً، فقالوا للصنف الأول: وهو الذي تأثر بشعيب عليه السلام سرّاً وعلانية، وكذلك قالوا للصنف الثاني: وهم أتباعه الثابتون، فكان قولهم للفريقين معاً: ﴿لَئِنْ أَتَبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّاكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠]، وكلمة ﴿لَئِنْ﴾ اللام تدل على القسم، وهذا يدل على مقدار الهزة العظيمة التي أحدثها شعيب عليه السلام إذ واجه قومه بهذا الخطاب العظيم القوي الحكيم.

كان هذا الموقف الذي وقفه شعيب عليه السلام مؤثراً جداً على أتباعه أولاً فازدادوا ثباتاً، وعلى الجمهور الذي يشارك أو يشاهد هذا الحوار، فخاف المستكبرون من بعضهم أن يتبعوا شعيباً، وهنا صرح الله تعالى بأن الذين خاطبوا شعيباً عليه السلام هم الذين كفروا، وهم صنف من المستكبرين.

وهنا نسأل: هل يمكن لنا أن نلخص هذا المشهد المدهش الذي قام به شعيب عليه السلام أمام تهديدات القوى المستكبرة من قومه؟

الجواب: يتلخص هذا المشهد في ثلاثة أقسام:

بدأ أولاً عليه السلام بالرد المنطقي الهادئ على تهديدات المستكبرين، وأظهر التعجب والاستنكار للأسلوب الهمجي الذي لجؤوا إليه، وأخبرهم باستحالة الإكراه على تغيير الأفكار والعقائد التي اتضح الحق فيها إلى العقائد الوثنية التي اتضح الباطل فيها، وتجلّى هذا في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَاهِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩].

ثم انتقل ثانياً إلى التوكل على الله تعالى الذي من توكل عليه كفاه، ومن لجأ إليه أعطاه عليه السلام ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف: ٨٩]، وهنا تتأتى له العناية الوهبية بعد طلبه العناية الكسبية.

ثُمَّ ثَلَاثَ بِالدُّعَاءِ الَّذِي لَا يَكُونُ شَرْعِيًّا مَرْجُوًّا إِلَّا بَعْدَ الْقِيَامِ بِمَا فِي الطَّاقَةِ مِنَ الْعَمَلِ الْكَسْبِيِّ، وَالتَّوَكُّلِ الْقَلْبِيِّ^(١).

(١) تفسير المنار (٨/٩).

هنا نرى أنه قد اتضح لنا المشهد الخامس الذي سبق، وهو مشهد الرد الحكيم الصاعق أمام التهديدات المجرمة المستكبرة، واتضح هذا المشهد في الآيتين [الأعراف: ٨٨-٨٩]، فما المشهد السادس؟

الجواب:

المشهد السادس: تزايد تأثير شعيب عليه السلام، والكافرون يلجؤون إلى التهديد الشديد بأن تحل بالمؤمنين أعظم الخسارات: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠]، فالتهديد وسيلتهم الأخيرة ليعمموا الإضلال في العالم، فهددوا المؤمنين بارتكاب أنواع التعذيب والمصادرة للأموال والحياة الكريمة:

كان رد شعيب عليه السلام على الملأ المستكبرين ردًا حكيماً قوياً زلزل أفئدتهم، ودلّ على الثبات العظيم على الإيمان، وحينها اعتر المستكبرون بالكفر، ووجهوا خطابهم لأتباع شعيب عليه السلام، فقال الله جلّ جلاله واصفاً المشهد: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠].

وتعال ننظر قوة هذه الكلمات القرآنية في هذه الآية التي تصف هذا المشهد:

[الكلمة ١]: الواو في ﴿وَقَالَ﴾: هذه الواو تجذب نظرنا بقوة، وتكشف لنا أخباراً متعددة عند التأمل، فذهب محمد رشيد رضا رحمه الله إلى أن هذا العطف عطفٌ على قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وَلَيْسَ جَوَابًا لِشُعَيْبٍ عليه السلام، وَلَا دَاخِلًا فِي هَذِهِ الْمُرَاجَعَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ؛ وقال: "إِذْ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَفَصَلَ وَلَمْ يَعْطِفْ"^(١).

وهو يعني رحمه الله أن هذا الكلام من المستكبرين ليس ردًا على رد شعيب عليه السلام عليهم، فلو كان ردًا لقال الله جلّ جلاله في هذه الآية: "قال"، ولكنه أتى بالواو.

والذي يظهر لي أن هذه (الواو) العظيمة تنبئنا عن عدة مواقف حدثت بعد الرد المؤثر الذي قاله شعيب عليه السلام وهو يرد على تهديدات الملأ المستكبرين من قومه:

(١) المرجع السابق (١٠/٩).

فالموقف الأول: لما رأت القوى المستكبرة أن تهديداتهم لشعيب عليه السلام وأتباعه أنتجت أمراً غير متوقع.

ما الأمر غير المتوقع هنا؟

ظنوا أن تهديدهم بالتهجير سيقابله إذعان شعيب عليه السلام لهم ليستجدهم ألا يؤذوا أصحابه، وربما يحاول أن يصل معهم إلى أنصاف حلول في مطلبهم الخطير بترك الإسلام والعودة في الملة الوثنية، أو إلى السكوت وعدم فضح الفساد الفكري والاقتصادي والاجتماعي الذي يعيشه المستكبرون وأتباعهم في مدين.

ويحتمل أن المستكبرين توقعوا موقفاً ثانياً إن لم يستجب شعيب عليه السلام لطلبهم، وهو أن يستفزه بتهديدهم، فينشئ خطاباً حماسياً يتحداهم فيه أن ينفذوا تهديدهم المخيف، ويعلن لهم أنه مستعد لمواجهتهم والصبر على دينه في سبيل ذلك.

لكن الموقف غير المتوقع الذي حدث أن شعيباً عليه السلام لم يلجأ إلى خطاب التحدي المستفز، ولم يقبل بالعودة في ملتهم، بل خاطبهم بخطاب جمع فيه بين الثبات على مبادئ الإيمان بالله تعالى، والنهي عن الإفساد في الأرض، وبين الحنان المدهش الذي استدرّ عواطفهم به، حيث أثبت الانتماء القومي لهم، وأشار إليهم بأن الأمور لا تؤخذ بالتهديد بل ينبغي الرجوع إلى الله تعالى ليفتح بين الطرفين بالحق، وليس بالأهواء التي عند كل طرف.

وواضح من الواو أنها تخبرنا أن خطاب شعيب عليه السلام أثر بشدة على المؤمنين فازدادوا إيماناً، وأثر بشدة على المستمعين، فبدأت بعض القوى المستكبرة، وبعض المستضعفين يميلون إلى نصرة شعيب في موقفه سواء آمنوا أم لم يؤمنوا، وهنا خشي أصحاب المصالح والنفوذ المجرم من أن ينتصر شعيب عليه السلام باستمالاته عدداً أكبر من الأنصار إليه، فأظهروا تهديداً آخر وجّهوه لأتباع شعيب عليه السلام، ولكل من يفكر في أن يتبعه.

وهنا لا بد أن نتساءل: كيف كشفت الواو عن ذلك؟

الجواب: الواو عاطفة ولكنها عطفت كلاماً محذوفاً نشأ من رد شعيب عليه السلام على المستكبرين، فإذا أبقينا الواو عاطفة، ونظرنا إلى الترتيب القرآني للآيات على ما هو عليه في تصوير الأحداث، فلا بد أن نبحت عن الجملة التي حدث العطف عليها، وحسب السياق فإن الجملة المحذوفة متوقعة من سياق الكلام، فيكون التقدير:

لما رد شعيب عليه السلام على القوى المستكبرة بهذا الرد أثر على المؤمنين فازدادوا ثباتاً، وأثر على بعض المستمعين من المستكبرين والمستضعفين فمالوا أو همُّوا بالميل لتبني موقف شعيب عليه السلام، وعندها رفع الملاء الذين كفروا عقيرتهم بالتهديد فقالوا: ﴿لَئِنْ أَتَبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ ^(١). هذا الرد الحكيم القوي الذي اتسم به خطاب شعيب عليه السلام، فجاء على غير المألوف يذكرنا بشيء.. لا بد أن الذكريات تأخذ عقلي وعقلك إلى مشهد لا يمكن أن ننساه، وهو رد النبي ﷺ غير المتوقع على استفزاز كفار قريش له، وهو في الحديبية، فما أكثر ما استفزوه قبل الصلح، وأثناءه، وبعده، وعلى الرغم من ذلك كان بأسلوب حكيم قدير، وقوة ظاهرة في الوقت نفسه يحاول جرهم إلى مطالبه التي أفلها أن يدعوه يعتمر، وينشر دعوته إن لم يسلموا، حتى تأثر بعض الرسل بهذين الأمرين معاً: القوة الظاهرة، والحكمة، فرجعوا إلى قريش وطالبوهم بما يريده رسول الله ﷺ، فقد أرسل النبي ﷺ الهدي أمام بديل، فرجع إلى قريش، وقال لهم: إنكم تعجلون على محمد ﷺ إنه لم يأت لقتال إنما جاء معتمراً، وكذلك تأثر عروة بن مسعود إذ قال:

"أَيُّ قَوْمٍ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعْظِمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعْظِمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا، وَاللَّهِ إِنْ تَنَحَّيْتُ نَخَامَةً إِلَّا وَقَعْتُ فِي كَفٍّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَذَلِكَ بِهَا وَجْهُهُ وَجِلْدُهُ، وَإِذَا أَمَرُهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأُوا كَادُوا يَفْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمُوا خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُجِدُونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ فَأَقْبِلُوهَا" ^(١).

والمقصود هنا ليس التنازل ولا المداينة بل إظهار القوة.

[الكلمة ٢:] ﴿وَقَالَ﴾ تبصّرنا بأنهم لجؤوا إلى مكرٍ جديد، وتحركوا قائلين في الأماكن التي يمكنهم أن يتكلموا فيها، وهذا يعم كل دولة مدين؛ لأنهم الأقوى فيما يظهر في المشهد.

[الكلمة ٣:] ﴿أَلَمَلَأُ﴾ تصور لنا هذه الكلمة التي تكررت أنهم النشطون الذين يملؤون العين لتأثيرهم على غيرهم، ولجذبهم أنظار الجماهير.

[الكلمتان ٤-٥:] ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فوصفهم بالكفر بعد أن وصفهم فيما سبق بالاستكبار.

(١) البخاري (٢٧٣١).

وهنا ينشأ هذا السؤال التدبري: لماذا وصف الله ﷻ القوى الظالمة بالكفر في هذه الآية (٩٠) بينما وصفهم في الآية (٨٨) بالاستكبار، فاختلف الوصفان؟
الجواب:

أما أولاً: فليُنوع الأوصاف التي تليق بهم، فهم مستكبرون كافرون.
وأما ثانياً: فليبين لنا أن الكفر يرجع إلى الاستكبار، فالاستكبار قضية خطيرة قد توجد عند المؤمن، فيزداد غليانها عنده، وهو يغفل عن معالجتها، فتفضي به في النهاية إلى الكفر.
فقد أخبرنا الله ﷻ عن الصفات الرديئة التي أفضت بإبليس إلى واقعه المذموم، فقال الله ﷻ: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].
ويظهر لي أن ترتيبها بهذا مقصوداً، فالإباء يؤدي إلى الاستكبار، والاستكبار يؤدي إلى الكفر، والإتيان بالواو لتبصرنا بأن هذه الصفات قد تكون مرتبة، وقد تأتي دون ترتيب، فيكفر الإنسان لا عن استكبار على الناس بالضرورة، وإن كان يستكبر على الله ﷻ، فلا يسمع آياته كما قال ربنا ﷻ في هذه السورة: ﴿سَأَصْرَفُ عَنْ ءَايَتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٦].
وبذا نستطيع أن نقرر أنه:

بصيرة: قد يوجد مستكبر مسلم نسي ما يوجبه عليه دينه من التواضع، وقد يوجد كافر غير مستكبر على الناس لكنه مستكبر عن اتباع آيات الله ﷻ، فالجمع بين الوصفين لبيان جريمة الصفتين، سواء اجتمعتا أم افترقتا، وهذا يفتح لنا باباً واسعاً في تصور الواقع الخطير اليوم.

فقد ذكر الله ﷻ لنا ذلك في هذه السورة فقال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٦]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

وبذا شملت الآيتان نوعي الكافرين: الكافر المستكبر مطلقاً، والكافر المستكبر عن اتباع آيات الله، وإن كان غير مستكبرٍ على الناس، ووصفت الآية (٨٨) القوى النشطة من الكافرين، وهم المستكبرون، ثم وصفت هذه الآية (٩٠) انحياز الكفار جميعاً ضمن حزبٍ يجمعهم، وبه وجهوا التهديد لأتباع شعيب عليه السلام، فقال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِيْنِ أَتَبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠].

هناك سبب ثالث لتنوع الوصفين يناسب كلامهم في الجهتين:

أما وصفهم بالاستكبار في الآية الأولى فيناسب أن يكون الاستكبار هو الباعث لهم على تهديد شعيب عليه السلام ومن معه، فالاستكبار: «بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ»^(١)، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في تعريفه له، و«بَطَرُ الْحَقِّ» أي: دفعه وإنكاره مع وضوحه، و«غَمَطُ النَّاسِ»: الاستهانة والاستحقار. أما في الآية (٩٠) فجاء وصفهم بالكفر؛ لأن الله تعالى أراد أن يبين الحزب العقدي الفكري الذي جمع بين أتباعه الكفر حتى لو كانوا فقراء، والكفر يعني أنهم يتعمدون إخفاء الحقائق الكبرى عن العالم، وأعظمها الإيمان بالله تعالى، ونلمح من هذا أن بعض المستكبرين ربما ترك استكباره بعد رد شعيب عليه السلام، فلم يبق من دافع يدفعهم لرد الحق إلا الكفر المحض، ولو عَلِمَ أُولُو الرَأْيِ مِنْ قَوْمِهِمْ أَنَّ سَبَبَ صَدِّهِمْ عَنْهُ هُوَ الْإِسْتِكْبَارُ وَالْعُتُوُّ لَمَا أَطَاعُوهُمْ^(٢).

[الكلمتان ٦-٧]: ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾:

لماذا وصف الكافرين بأنهم من قومه؟

الجواب: ثم خصص الله تعالى انتماءهم، فقال: ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾ ليبين مقدار الآلام التي يجدها شعيب عليه السلام وكذلك كل المصلحين في العالم؛ إذ ينبعث من أقرب الناس إليه من يعارضه، وليبين الله تعالى أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِهِ، فَقَدْ يُؤْتِيهِ الْبَعِيدَ، وَيَمْنَعُهُ الْحَبِيبَ الْقَرِيبَ^(٣)، وهذا يبصّرنا بأن نحاول زرع الخير سواء أكان عند الأقرباء أم كان عند البعداء، فلا نعلم أنهم أقرب نفعاً، وأعظم قبولاً للخير، ونشرًا له.

(١) مسلم (٩١).

(٢) تفسير المنار (١٠/٩).

(٣) نظم الدرر (٦/٨).

[الكلمات ٨-١٠]: ﴿لَئِنْ أَتَبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾: واضح أن الذين كفروا يوجهون خطابهم لأتباع شعيب عليه السلام، فلماذا وجهوا خطابهم لأتباع شعيب عليه السلام هذه المرة بدلاً من أن يوجهوا خطابهم إلى شعيب عليه السلام نفسه كما في المرة السابقة؟

الجواب:

لأن شعيباً عليه السلام قد رد عليهم ردّاً قوياً، وعلمنا من سورة هود عليه السلام أن رهطه يحمونه ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ [هود: ٩١]، فاتجهوا في خطابهم لما يظنونه الحلقة الأضعف، وهم أتباع شعيب عليه السلام، كما أنهم بهذا الخطاب انتقلوا من مرحلة الضلال الفعلي والإضلال النظري إلى مرحلة الإضلال والاضطهاد العمليين الفعليين، وكيف ذلك؟

لما قالوا لشعيب عليه السلام: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعُوبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ أصروا على ضلالهم قولياً وعملياً، ثم هددوا بإضلال غيرهم واضطهادهم قولياً بالتهديد والوعيد، وهنا انتقلوا إلى مرحلة الإضلال العملي والفعلي بأن أخبروا المؤمنين أنهم إن اتبعوا شعيباً سوف يخسرون كل شيء، وهذا يعني منع أتباع شعيب عليه السلام من أدنى حياة كريمة؛ لأنهم سوف يشنون حملة التعذيب الكبيرة، والمصادرة لأموال أتباع شعيب، والتدمير لكرامتهم وحرمتهم.

وقد فاجأهم هذا الثبات المدهش للقيادة المؤمنة، حين باغتهم شعيب عليه السلام بحجته الساطعة وخطابه المؤثر، لكن الذين كفروا كانوا من المستكبرين الذين أصروا على الكفر المبين، فكيف يصنعون مع أتباع شعيب عليه السلام ومع من يفكر في اتّباعه؟

ظنوا أنهم يمكن أن يوجدوا الرعب في نفوس الأتباع، فوجهوا خطابهم لهم، فقالوا: ﴿لَئِنْ أَتَبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠].

ما معنى هذا التهديد: ﴿لَئِنْ أَتَبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾؟

الجواب: اللام موطئة لجواب القسم، والتقدير: والله أو نقسم بمن يُحلف به لئن اتبعتم شعيباً. وهذه الصيغة تبصّرنا أن خطاب شعيب عليه السلام كان يلقي قبولاً في وسط قومه، وأن شعيبته في اتساع وتمدد وزيادة، فأصدرت القوى الكافرة بياناً عاماً، فقالوا: ﴿لَئِنْ أَتَبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾.

وهنا نسأل: ما وجه قوة هذه الكلمة القرآنية ﴿لَخَسِرُونَ﴾ في هذا الموضع ﴿لَئِنْ أَتَبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنْ كُنْتُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾، وكيف صورت هذه الكلمة الخطر الشديد الذي سيحل بالناس الذين اتبعوا شعيباً عليه السلام أو يفكرون في اتباعه؟

الجواب: هددوهم بأن يقعوا في الخسارة، والخسارة من (خَسِرَ) ^(١) كلمة تدل على النقص، فَمِنْ ذَلِكَ الْخُسْرُ وَالْخُسْرَانُ، كَالْكُفْرِ وَالْكَفْرَانِ، وَالْفُرْقِ وَالْفُرْقَانُ، وَيُقَالُ: خَسِرْتُ الْمِيزَانَ وَأَخْسَرْتُهُ، إِذَا نَقَصْتُهُ.

والخُسْرُ والخُسْرَانُ: انتقاص رأس المال، وينسب ذلك إلى الإنسان، فيقال: خَسِرَ فلان، وإلى الفعل فيقال: خسر تجارته، قال تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: ١٢]، ويستعمل ذلك في المقتنيات المادية الخارجة عن النفس كالمال والجاه في الدنيا وهو الأكثر، وفي المقتنيات النفسانية كالصحة والسلامة، والعقل والإيمان، والثواب، وفي الأحبة كالأهل أزواجاً وأولاداً، وجعل الله ﷻ الخسارة في الأمور الثلاثة: المادية، والنفسية، والأهل هو الخسران المبين ﷻ: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]، وقال ﷻ: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١].

فالخسر يجمع الهلكة، والغبن، وعدم الظفر بالمطلوب، وعدم الانتفاع بالشيء، والعقوبة، والنقص المادي، والضعف، وذهاب القيمة والكرامة، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الدِّبُّ وَخُنْ عُصْبَهُ إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ [يوسف: ١٤] أي: عَجْزَة.

(١) مقاييس اللغة، (١٨٢/٢)، مفردات الراغب الأصفهاني، (٢٨١/١)، المعجم الاشتقاقي المؤصل، (ص: ٥٥٦).

بصيرة: يظهر لي أن الخسارة ليست مجرد عدم الانتفاع بل نقصان ما كان عند الإنسان، ثم قد يزداد خسارته حتى يصبح ما عنده وبالأعلى عليه بدلاً من أن يكون رأس ماله، فيخسر جسده في الآخرة؛ ويصبح أداة شعوره بالعذاب، وتذوقه للألم، ويخسر أهله وولده فبدلاً من أن يكونوا عوامل ربحه في الآخرة - بأن يفوزوا هم بالجنة، فيشفعون له، أو يفوز معهم، فيرفعونه مكاناً علياً- يصبحون سبباً في تعذيبه؛ لأنه ظلمهم أو أضرعهم.

[الكلماتان ١١-١٢]: ﴿إِنَّكُمْ إِذَا﴾: تصوّر (إنّ) أنهم أكدوا على أن الخسارة المحققة ستكون نصيب من يتبع شعبيّاً الكلية، فكأنهم قالوا: نقسم بالذي يحلف به، ثم أكدوا ذلك أكثر بحرف التوكيد (إن)، وباللام الداخلة على خبرها ﴿لَخَسِرُونَ﴾، فاستعلموا هنا تهديداً رهيباً على إيقاع الخسارة بمن اتبع شعبيّاً الكلية، ومن يكفر -حسب زعمهم- من قومهم باتباعه.

وهل هي خسارة مال؟ خسارة مركز؟ خسارة منصب؟ خسارة سمعة؟ خسارة جسد؟ خسارة راحة؟ خسارة أهل؟ خسارة ولد؟ ربما عنا ذلك كله.
فالخسارة هي الضرر الهائل الذي يصيب المرء فيما ظن أنه سينفعه، وهم يعنون هنا الضرر الدنيوي لأنهم لا يؤمنون بالبعث.

فقد رأينا بصائر هذه الآية في كلماتها المتعددة، فكيف شعرنا بقوة التهديد الاستكباري في قول القوى المستكبرة من أهل مدين: ﴿لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَبِيّاً إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾؟

وبعبارة أخرى: لماذا وجدت هذه اللام في قولهم ﴿لَخَسِرُونَ﴾؟ ولماذا اتخذ تهديدهم هذا الأسلوب؟

الجواب: لقد أرادوا أن يكون أسلوبهم ساحقاً ماحقاً مخيفاً مرعباً لهم بمجرد الكلام، فكيف سيكون الفعل إذن؟!

ولذلك أحاطوا أسلوبهم بأقوى أنواع المؤكدات:



فأول المؤكّدات: اللَّام في قَوْلِهِمْ: ﴿لَئِنْ﴾، وهي موطئة لجواب القسم، وَهِيَ أَقْوَى مُؤَكِّدٌ لِلْكَلامِ، والتقدير: والله، أو ونحلف بأغلظ أيماننا لنن اتبعتم شعيباً...

والمؤكّد الثاني: الْجُمْلَةُ الاسْمِيَّةُ في جواب القسم ﴿إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرْتُمْ﴾، إِذْ صَدَّرُوهَا بِ(إِنَّ) التأكيدية، وقرنوا خبرها بِ(اللَّامِ) ﴿لَخَسِرْتُمْ﴾.

والمؤكّد الثالث: وَسَطُوا كلامهم بكلمة ﴿إِذَا﴾، وَهِيَ جَوَابٌ وَجَزَاءٌ بَيْنَ طَرَفَيْهَا، فقولها: ﴿إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرْتُمْ﴾ سَدَّ مَسَدَ جواب الشرط، وقالوا: ﴿إِنَّكُمْ إِذَا﴾ أَي: وَقْتَ اتِّبَاعِهِ.

والمؤكّد الرابع: جعل الخبر اسم فاعل ﴿لَخَسِرْتُمْ﴾ بدلاً من الفعل: تخسرون أو خسرتم. **والمؤكّد الخامس** الذي يمكن أن نجعله المشدّد: أَنَّهُمْ حَدَقُوا مُتَعَلِّقَ الْخَسَارِ؛ لِيُعَيِّنَ كُلَّ مَا يَصْلُحُ لَهُ^(١)، أَي: خاسرون في كل شيء حتى في أجسادكم وأولادكم، وانظر هذه الأيام كيف يُهدّد الصالحون بأطفالهم ونسائهم إن لم يسيروا على طريق الشيطان.

كل هذه المؤكّدات المشدّدات تنبئ عن كلمات متعددة وجهها الكافرون يخاطبون بها المؤمنين، ومن يفكر بالإيمان بالخسارات الضخمة الماحقة الساحقة اللازمة لحياتهم.

لقد بلغ التهديد أن يخبروهم بأن مصالحتهم ستذهب، والخسارات ستحيط بهم من كل مكان، كأنهم قالوا: إنكم إذا لخاسرون باتباع شعيب **الكليلة** فوائد التلاعب، والكسب العاجل الذي نمارسه نحن عبر البخس والتطفيف؛ لأنه ينهاكم عنهما، ويخملكم على الإيفاء والتسوية، وبذلك تخسرون أنفسكم وأولادكم وحياتكم وأهلكم ومستقبلكم؛ لأننا سنكون بالمرصاد لكم في تدمير حياتكم، فماذا تربحون من اتباع شعيب؟

إنكم لخاسرون شَرَفَكُمْ وَمَجْدَكُمْ بِإِثَارِ مَلَّتِهِ عَلَى مِلَّةِ آبَائِكُمْ وَأَجْدَادِكُمْ، وَمَنَاطِ عِرْكُمْ وَفَخْرِكُمْ، وَاعْتِرَافِكُمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ضَالِّينَ، وَأَنَّهُمْ مُعَذِّبُونَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَاسِرُونَ لِنُزُوتِكُمْ وَرَبِّحِكُمْ مِنَ النَّاسِ بِمَا حَدَقْتُمُوهُ مِنْ تَطْفِيفِ الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ، وَبَخْسِ الْغُرَبَاءِ أَشْيَاءَهُمْ لِابْتِزَازِ أَمْوَالِهِمْ، وَأَيُّ خَسَارَةٍ أَكْبَرُ مِنْ خَسَارَةِ الشَّرَفِ وَالنُّزُوتِ؟^(٢).

(١) تفسير المنار (١٠/٩).

(٢) تفسير المنار (١٠/٩).

ومثل هذا التهديد يتكرر في كل زمان ومكان إلا أن الأسلوب قد يختلف.

إنهم يهددون بهذه الكلمات، ويخدعون، وما زال أمثالهم يفعلون الفعل ذاته في زماننا، فما زالت هذه المواقف تتكرر في كل زمان ومكان، حيث تقف قوى الاستكبار أمام المصلحين؛ لأن منبرج الطغيان واحد، وأسلوب المستكبرين متشابه، وطرق الإضلال والإذلال والإرهاب واحدة مهما تطاولت الأزمنة، وتعاقت الأمم، واختلفت المسميات.

بصيرة: تهاوى كل الروابط حين يتمادى المعتدون الشهبانيون في اعتدائهم وشبهاتهم المحرمة، فالمؤمنون والكافرون ينتمون لجنسية واحدة هي دولة (مدين)، لكن الكافرين من قوم شعيب عليه السلام أسقطوا الجنسية النسبية والترابية، مقسمين العالم إلى حق وباطل، واختاروا نصرة الشيطان ضد الإيمان، متجاهلين انتماء المؤمنين لقومهم، فأسقطوا حصانة الأوطان والأنساب. هكذا تفهم الأحداث، دون الانخداع بانتماءات تُفَرِّغُ الحق من مضمونه.

وهذه الفكرة في المقابل جعلت من يمجّد خدمة الإنسان مقدماً على غيره، يقول السيد رشيد رضا

ﷺ:

"وَأَنَّا نَرَى أَشَدَّ الشُّعُوبِ عَصِيَّةً لِلْوَطَنِ لَا يَجْعَلُونَهَا سَبَبًا لِلصِّدِّ عَنِ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ، وَلَا الدِّينِ وَمَدَاهِيهِ، وَأَنَّمَا التَّنَافُسُ بَيْنَهُمْ فِي جَعْلِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَطَنَهُ أَعَزَّ وَأَقْوَى وَأَغْنَى وَأَقْنَى وَلَوْ بِاِقْتِبَاسِ الْعِلْمِ مِنَ الْآخَرِ، نَرَى رِجَالَ الدِّينِ الْكَاثُولِيكِيِّ مِنَ الْأَلْمَانِ وَالْفَرَنْسِيِّسِ أَعْوَانًا عَلَى نَصْرِ الْكُتْلَكَةِ، وَنَشْرِهَا فِي بِلَادِهِمْ وَغَيْرِهَا، كَمَا نَرَى مِثْلَ هَذَا بَيْنَ رِجَالِ الْبُرُوتَسْتَانِيَّةِ مِنَ الْأَلْمَانِ وَالْإِنْكِلِيزِ، كَدَائِبِهِمْ وَسِيرَتِهِمْ فِي الْعِلْمِ، فَعُلَمَاءُ كُلِّ شَعْبٍ يَتَسَابَقُونَ إِلَى اقْتِبَاسِ مَا يَظْهَرُ عِنْدَ الْآخَرِ مِنَ اخْتِرَاعٍ أَوْ كَشْفٍ عَنْ حَقِيقَةٍ عِلْمِيَّةٍ، أَوْ اهْتِدَاءٍ لِسُنَّةٍ كُونِيَّةٍ أَوْ مَنْفَعَةٍ لِلخَلْقِ، وَيَعُزُّونَ كُلُّ أَمْرٍ إِلَى صَاحِبِهِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ الْعِلْمَ لَا وَطَنَ لَهُ، وَأَنَّمَا يَقَعُ التَّغَايُرُ وَالتَّفَرُّقُ بَيْنَ الْبَشَرِ فِي مِثْلِ هَذَا فِي إِبَانِ ضَعْفِهِمْ، وَعِلْبَةِ الْجَهْلِ عَلَيْهِمْ، وَفُسُوقِ التَّحَاسُدِ وَسَائِرِ الْأَخْلَاقِ الرَّدِيَّةِ فِيهِمْ، وَاعْتَبَرْنَا ذَلِكَ فِي الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي إِبَانِ ارْتِقَائِهَا الْعِلْمِيِّ حَتَّى الْقَرْنِ الْخَامِسِ وَالسَّادِسِ، إِذْ كَانَ مِثْلُ أَبِي حَامِدٍ الْغَزَالِيِّ يَجِيءُ بَغْدَادَ عَاصِمَةَ الْعِلْمِ



وَالْمَلِكِ الْكُبْرَى فِي الْأَرْضِ فَيَكُونُ رَئِيسًا لِأَعْظَمِ مَدْرَسَةٍ فِيهَا بَلْ فِي الْعَالَمِ (وَهِيَ النَّظَامِيَّةُ)، وَلَا يَحُولُ دُونَ ذَلِكَ كَوْنُهُ مِنْ قَرْيَةٍ طُوسَ فِي بِلَادِ الْفُرسِ" (١).

هنا يأتي سؤال ارتباطي: نرى أنه قد اتضح لنا المشهد السادس الذي سبق، وهو مشهد تزايد تأثير شعيب عليه السلام، والكافرون يلجأون إلى التهديد الشديد بأن تحل بالمؤمنين أعظم الخسارات [الأعراف: ٩٠]، فما المشهد القادم؟

الجواب: هنا يأتي:

(١) تفسير المنار (١١/٩).

المشهد السابع

الإدارة الحكيمة للمرحلة الباقية [الأعراف: ٧١]



المشهد السابع: مجيء حكم الله ﷻ، وفيه نرى ختام قصة عهد مدين، وعواقبها المتوقعة المحسومة:

آيات هذا المشهد:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَلْقَوْمَ لَقَدْ أَبْلَغْتُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ عَاسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف: ٩١-٩٣].

وفي هذا الختام نرى ثلاث نتائج:

العاقبة الأولى: نزل عليهم عذابٌ مخصوصٌ هو الرجفة:

وبصّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأعراف: ٩١]، فنزول العذاب على قوى الاستكبار أمرٌ حتميٌّ، ووقته قريب، فالزمان مراحل تطوى كأن لم تكن.

البصيرة الأولى: [الكلمة: ١]، وهي الفاء من قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾:

فالفاء تدل على التعقيب، وهذا يعني أن العذاب أصابهم إصابة مؤكدة، والفاء هنا لا تدل على المباشرة الزمنية، فالعذاب لم يقع بعد أن قالوا للمؤمنين: ﴿لَئِنْ أَتَبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأعراف: ٩١]، لكن الفاء تبصرنا أن العذاب يقينيٌّ، وأنه سينزل بالكافرين المستكبرين عندما يعتدون على المؤمنين مهما طال الزمان.

وهذا ما قرره ابن هشام رحمته الله إذ قال عن إفادة الفاء للتعقيب بأنه: "في كل شيء بحسبه، ألا ترى أنه يُقال: تزوج فلان فولد له، إذا لم يكن بينهما إلا مدة الحمل وإن كانت متطاولة" ^(١).

ومثل هذا يقال هنا، فما بعد قيام المستكبرين بسوء المؤمنين سوء العذاب إلا حلول العقوبة عليهم، ولكن ذلك عند الله ﷻ بمقدارٍ، وفي أجل مسمى معلوم عنده، غير أن الفاء تطمئنك إلى أن ذلك سيحدث لهم، فاهتم بثباتك في هذه الحقة من الحياة، وهذا يذكرنا بقول الله ﷻ لنبيه ﷺ:

(١) مغني اللبيب، لابن هشام (ص: ٢١٤).

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ﴾ [٧٧] [غافر: ٧٧].

البصيرة الثانية: الفاء مع ما بعدها تبصرنا بأن دعوة شعيب عليه السلام استُجيبَت، فلما سأل الله تعالى أن يفتح بين المؤمنين والمستكبرين بالحق جاءه حكم الله، وصور الله تعالى لنا ذلك في هذه العواقب الثلاث.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ﴾ يبصِّرنا بنوع العذاب الذي حلَّ بهم، وهو الرجفة، فما معنى هذا العذاب؟

البصيرة الثالثة: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ﴾ الأخذ يصور لنا أن العذاب تناولهم تناول الأخذ المستحوذ المتمكن القابض على الشيء الذي أخذه قبض الممتلك المحاصر له القاهر لأحواله.

البصيرة الرابعة: ﴿الرِّجْفَةُ﴾ تصور لنا عذاباً عظيماً أحدث لهم اضطراباً شديداً في الأرض، وزلزلة في قشرتها، وزعزعة، وارتجاجاً مخيفاً وحركة عنيفة في باطنها، حتى تكاد أن تفلعها أو تسبب قلعها، كالسِّينِ ترجف لضعف إمساك أصلها وتخلخلها، فتناولتهم الرجفة تناولاً قاهراً، فلم يتمكنوا منها فراراً،

وسبق أن هذا أبلغ من أن يقال: أهلكتهم الرجفة؛ لأن أهلكتهم تصور النتيجة النهائية للأخذ، بينما أخذتهم تصورههم وهم يصرخون ويصيحون يريدون الخلاص فلا يستطيعون.

لكننا وجدنا الله تعالى يخبرنا أنه عذبهم بالصيحة، فقال تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جُثُمِينَ﴾ [هود: ٩٤]، وأخبرنا أنه عذبهم بعذاب يوم الظلة - إن كان أهل مدين هم أصحاب الأيكة -، فقد قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، فكيف نجمع بين ذلك؟

الجواب: الجمع بينها واضح، وعند الجمع بينها تتكون الصورة المدهشة التي تنقل لنا ما وقع كأننا نراه، فقد اجتمعت عليهم:

- ظلَّة عظيمة من فوقهم خرجت منها الصواعق بصيحاتها المدمرة ذات الأصوات القارعة.

- وحدث أثناء ذلك رجفة هائلة من تحتهم أحدثت أصوات القلع والقرع.

وفي العلاقة بين الصيحة والرجفة والظلة صور محتملة؛ إذ يمكن أن يكون حلّ بهم كلا العذابين في تنابع، فجاءت الرجفة مزلزلةً ديارهم وأرضهم التي عليها يستقرون، ثم أتبعها الصيحة، فصخت أذانهم وأهلكت أجسادهم، ويحتمل العكس، ونتج عن ذلك أنها اختَرَقَتْ أجسادهم، ودمرت منازلهم، وانقلبت ديارهم، ولم يبق من مملكتهم شيء، ومن هول ذلك أصبحوا ﴿جَثِيمِينَ﴾^(١) أي: جثثًا، اجتمعت أجسامهم مع أفخاذهم؛ بأن يخز الرأس على الصدر حال التصاق الجسد بالأرض، ويجتمع إليه الساقان أو تقرب منه أقدامه على هيئة الأكمة أي التلّة المرتفعة، ويتصور الجثوم للأجساد حال كونها تُلْقِي وجوهها على الأرض مع تجمع جسومها، فأصبحوا سقوطًا هامدين موتى صرعى لا يتحركون، مبثوثين منتشرين في دورهم وطرقهم، فمنهم من سقط رأسه على صدره، والتصق بالأرض على هيئة الجالس المنحني باركًا على ركبته، فهو جاثم، ومنهم من سقط على الأرض على وجهه لكنه ارتفع جزء من جسده من وسطه، ومنهم من سقط على رأسه قاعدًا على الأرض. ويظهر لي أنّ الصورة الكاملة للعذاب الذي حلّ بهم: أنه لما حدثت الزلزلة الطاغية كأنهم أرادوا أن يتمسكوا بشيء، فصاروا في وضع لا يكونون فيه قيامًا ولا مضطجعين، بل يكونون جلوسًا خائفين مضطربين، فسمعوا الصيحة الطاغية، فدمرتهم، وصحب ذلك نزول الصواعق الطاغية، فصعقتهم، وصاروا على هذه الحالات التي جمعها الله ﷻ في هذا الوصف الدقيق ﴿جَثِيمِينَ﴾.

ذكر الله ﷻ أنه أرسل شعيبًا عليه السلام إلى أصحاب الأيكة في سورة الشعراء، فهل هم دولة مدين ذاتها؟

الجواب: اختلف علماؤنا في ذلك، فمنهم من رأى أنه كانت توجد دولتان أرسل إليهما شعيب عليه السلام؛ الأولى: مدين، والثانية: أصحاب الأيكة، إلا أن بينهما اشتراكًا في التوجهات السياسية والفكرية والسياسات الاقتصادية، فحدثنا الله ﷻ عن مدين في عددٍ من السور، وحدثنا عن أصحاب الأيكة في سورة الشعراء وفي غيرها.

وعندما وصف الله ﷻ شعيبًا عليه السلام في سورة الشعراء لم يذكر ضمن أوصافه أنه أخٌ لأصحاب الأيكة كما وصف من ذكر قبله: نُوحًا، وَهُودًا، وَصَالِحًا، وَلُوطًا عليه السلام، وروى ابن عباسٍ رضي الله عنهما في قوله

(١) انظر ما سبق في قصة ثمود عند ذكر بصائر الآية (٧٨)، ونحن هنا نكرر خلاصة المشهد.

تَعَالَى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لُؤَيْكَةَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الشعراء: ١٧٦] قَالُوا: كَانُوا أَصْحَابَ غَيْضَةٍ -أشجار ملتفة- بَيْنَ سَاحِلِ الْبَحْرِ إِلَى مَدِينِ الْإِلَهِ، فَأَقَادَ هَذَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْسَلَهُ إِلَى قَوْمِهِ أَهْلَ مَدِينٍ، وَإِلَى مَنْ اتَّصَلَ بِهِمْ إِلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ، وَأَنَّ حَالِ الْفَرِيقَيْنِ فِي الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي كَانَتْ وَاحِدَةً، وَكَانَ يُنذِرُهُمْ مُتَنَقِّلًا بَيْنَهُمْ فِي زَمَنِ وَاحِدٍ، فَلَا يَنْعُدُ حِينَئِذٍ أَنْ يَكُونَ الْعَذَابُ قَدْ أَخَذَ الْفَرِيقَيْنِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ أَوْ وَقْتَيْنِ مُتَقَارِبَيْنِ^(١).

وذهب بعض المفسرين إلى أنهم دولة واحدة، وكان أصحاب مدين يعبدون شجرة تدعى الأيكة^(٢)، ولم يرد لنا في القرآن ما يدل على أنهم كانوا يعبدون الأيكة، فيحتمل أن نسبتها لهم إما لعبادتها، أو لأنها اسم ثانٍ لمكانهم.

وهنا نساءل: كثيراً ما يقترن ذكر دولة ثمود بدولة مدين، فما وجه الشبه بينهما؟

الجواب: هناك تشابه بين العذاب الذي حل على مدين قوم شعيب عليه السلام والعذاب الذي حل على ثمود قوم صالح عليه السلام؛ إذ مثلت الرجفة جزءاً أساسياً من هذا العذاب، وكذلك الصيحة، والصعقة، فإن كلمة ﴿الظَّلَّةُ﴾ تقاربها، ولذا قرن الله تعالى بين الحضارتين، فقال تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا إِلَّا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود: ٩٥].

وهنا نتساءل: ما السر في جمع الديار عند ذكر العقوبة بالصيحة في سورة هود عليه السلام، والعنكبوت، وإفراد الدار عند ذكر العقوبة بالرجفة في هذه السورة للدولتين معاً «ثمود، ومدين»؟

الجواب: الجمع يناسبه الصيحة؛ لأن الجمع يعني التعدد في البيوت، والمناطق التي تكون الدولة، فالتركيز على ذكر الأعداد الكثيرة للسكان، والأماكن التي كانوا يوجدون فيها عند نزول الصيحة، أما الرجفة فتتعلق بالأرض التي يوجد عليها البيوت، فناسبها الأفراد، فالأرض واحدة إذا حدثت الزلزلة المدمرة فلا تبقي فوقها ولا تذر.

(١) تفسير المنار (١٢/٩).

(٢) ممن ذكر أنهم عبدوا شجرة الأيكة ابن كثير في البداية والنهاية (٤٢٩/١).

ثَالِثُهَا: يَدُلُّ عَلَى الْمُعْجَزِ الْعَظِيمِ فِي حَقِّ شُعَيْبٍ عليه السلام: لِأَنَّ الْعَذَابَ النَّازِلَ مِنَ السَّمَاءِ لَمَّا وَقَعَ عَلَى قَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ مَعَ كَوْنِهِمْ مُجْتَمِعِينَ فِي بَلَدَةٍ وَاحِدَةٍ، كَانَ ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ الْمُعْجَزَاتِ ^(١)، وهذا كلام أستاذ التفسير بلا منازع بين الأنام الإمام الرازي رحمه الله، لكن هذه الفكرة الأخيرة لا يوجد ما يدل عليها؛ لاحتمال أن شعيباً عليه السلام ومن معه فارقوا تلك الديار، وإن لم ينقل لنا.

وهنا نسأل: فما وجه الجمال والقوة في الصورة التي يقدمها لنا قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فَيَهَيَّأ؟﴾

الجواب: هذه الكلمة ﴿يَغْنَوْا﴾ مشتقة من (غَنَى) ^(٢)، وهي تقدم لنا صورتين:

الصورة الأولى: يُقَالُ: غَنَى الْقَوْمُ فِي دَارِهِمْ، إِذَا طَالَ مَقَامُهُمْ فِيهَا فِي حَالٍ قَوِيمةٍ مِنْ سَعَةِ الْعَيْشِ وَظُهُورِ النِّعْمَةِ، وَرَخَاءِ الْحَالِ، فَالْمَنَازِلُ الَّتِي كَانَ يَهَيَّأُ أَهْلُهَا وَاحِدُهَا مَغْنًى. قَالَ الشَّاعِرُ:

وَلَقَدْ غَنَوْا فِيهَا بِإِنْعَمِ عَيْشَةٍ فِي ظِلِّ مُلْكٍ ثَابِتِ الْأَوْتَادِ ^(٣)

أي: أقاموا فيها على هيئة الغنى، والحال الثرية الموارد، فيكون معنى قَوْلِهِ: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا﴾ كَانَ لَمْ يَقِيمُوا فِي أَرْضِهَا إِقَامَةً اطمئنان واستيطان.

الصورة الثانية: قَالَ الرَّجَاجُ رحمه الله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا﴾، كَانَ لَمْ يَعِيشُوا فِيهَا مُسْتَغْنِينَ ^(٤)، يُقَالُ: غَنَى الرَّجُلُ يَغْنَى إِذَا اسْتَغْنَى، وَهُوَ مِنَ الْغِنَى الَّذِي هُوَ ضِدُّ الْفَقْرِ. وَقَالَ حَاتِم طي:

غَنِينَا زَمَانًا بِالتَّصَعُّكِ وَالْغِنَى كَمَا الدَّهْرُ فِي أَيَّامِهِ الْعُسْرُ وَالْيُسْرُ

كَسَبْنَا صُرُوفَ الدَّهْرِ لِينًا وَغِلْظَةً وَكَلَّا سَقَانَاهُ بِكَأْسِهِمَا الدَّهْرُ

(١) تفسير الرازي (١٤/ ٣٢٠).

(٢) المرجع السابق (١٤/ ٣١٩).

(٣) البيت للأسود بن يعفر الهشلي، يُنظر: المفضليات، للضبي (ص: ٢١٧).

(٤) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٢/ ٣٥٨).

فَمَا زَادَنَا بَغْيًا عَلَىٰ ذِي قَرَابَةٍ غِنَانَا، وَلَا أَزْرَىٰ بِأَحْسَابِنَا الْفَقْرُ^(١)

وبذلك نرى العطاء الزاخر، والتصوير الفاخر في قول الملك القدير القادر: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾. **البصيرة الثالثة:** يزول ملك الأمم والدول والأفراد حينما يأتيهم بأس الله ﷻ، فكأنهم لم يذوقوا نعمة قط في حياتهم، وما مروا بخير في تصرفاتهم ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي: كأن لم يقيموا مطمئنين، ولم يلعبوا بالألوف والمئين، ولم يروا ترف المترفين، ولم يشعروا بتفكُّه البطرين، وصار حالهم كما قال عمرو بن الحارث الجرهمي بعد أن زال ملك قبيلة جرهم من مكة:

كَأَن لَّمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَجُّونَ إِلَى الصَّفَا أَنَيْسٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامُرٌ
بلى نحنُ كنا أهلها، فأزالنا صروفُ الليالي والجُدودُ العوثرُ^(٢)

وكذلك حال أهل مدين، فكان الدولة لم تكن دولتهم، والصلوة لم تكن صولتهم، وكأنهم لم يعرفوا ديارهم قط، فبؤساً لهم؛ إذ لم يشكروا نعمة الله ﷻ عليهم الذي مكّهم ذلك التمكين، فزالوا منها كأنهم شيء مهين.

هذه الآية تعلق تعليقاً بهيئاً عظيماً على تلك النهاية المدمرة لقوم شعيب عليه السلام إذ يقول الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٢]، فلماذا جاءت هذه الآية في هذا الموضع؟

الجواب: هذه الآية في موقعها العميق المدهش؛ فقد جاءت لتخبر العالم بأن الأعمال بالخواتيم، وأن العاقبة للمتقين، وألا يغتروا بما يرون من البدايات؛ فإن العبرة بالنهايات، فهي استئنافٌ يرد على المغرورين والغافلين والمستكبرين حينما سمعوا قوى الاستكبار يتهددون القوى المؤمنة بقيادة شعيب عليه السلام، فيقولون لهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]، ثم يَخْصُونَ أتباع شعيب عليه السلام بالخطاب، فيقولون: ﴿لَئِنْ أَتَبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠].

(١) ديوان حاتم الطائي (ص: ٢٤)، وفيه: (غُنِينَا) بدلاً من: (غَنِينَا). (كسبينا) بدلاً من: (كسبنا). (بكأسهم) بدلاً من: (بكأسهما). (بأؤا) بدلاً من: (بغيا)، والبأؤ: الكبر والفخر.

(٢) يُنظر: جمهرة أشعار العرب، لابن أبي الخطاب (ص: ٥٦).

والسؤال الذي يطرح نفسه: كَيْفَ انْتَهَى الْأَمْرُ فِيهَا؟ وَكَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْفَرِيقَيْنِ؟

الجواب: جاءت هذه الآية لتكون بياناً للعاقبة الحقيقية والنتيجة المحتومة لاستكبار المستكبرين، فأما عن التهديد الأول فقد جاء الجواب المدهش: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا﴾ فهددوه وأرهبوه، وأنذروه الإخراج من قريتهم قد هلكوا، وهلك قريتهم فحرموها كأن لم يقيموا بها، ولم يعيشوا فيها مطلقاً أو في ذلك العيش الرغيد، والأمد المديد فمضى انقضى الشيء صار كأنه لم يكن^(١).

البصيرة الرابعة: قد يظهر الله ﷻ الخاسر الحقيقي الذي تصيبه الخسارة العظمى، فهو المكذب للنبيين، فيبرز الله ﷻ خسارته في الدنيا قبل الآخرة؛ ليصور عاقبة تهديداته للمؤمنين بالخسارة، ولذا قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾^(٢).

فأجاب هذا القبس من الآية عن التهديد الثاني جواباً ينقل لنا الصورة مباشرة؛ لتنير العقل والفكر: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا﴾، وزعموا أن من يتبعه يكون خاسراً، وأكذبوا زعمهم بأقوى المؤكدات، ﴿كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾^(٣) لما يعتزون به من تقاليد ملتهم، ومن مالههم ووطنهم، ولما كانوا مؤعدين به من سعادة الدنيا والآخرة لو آمنوا، دون الذين اتبعوه فإنهم كانوا هم الفائزين المفلحين^(٢).

وقد حدثنا الله ﷻ أن المكذبين يهددون المؤمنين بالخسارة لحياتهم، وكرامتهم، وأنفسهم، وأهلهم، وأولادهم، وأموالهم، وديارهم عندما يتبعون كلام النبيين، ووجدنا ذلك في قول الكفار لأتباع شعيب عليه السلام، ومن يريد اتباعه: ﴿لَئِنْ أَتَبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾^(٤)، فأظهر الله ﷻ النتيجة النهائية في الدنيا قبل الآخرة ليزداد الذين آمنوا إيماناً.

وكرر وصف المكذبين فقال: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا﴾؛ لتعظيم المدللة لهم، وتفضيع ما يستحقون من الجزاء على جهلهم، والعرب تكرر مثل هذا في التفضيم والتعظيم، فيقول الرجل لغيره: أخوك الذي ظلمنا، أخوك الذي أخذ أموالنا، أخوك الذي هتك أغراضنا^(٣).

(١) تفسير المنار (١٢/٩).

(٢) المرجع السابق.

(٣) تفسير الرازي (٣٢٠/١٤).

وقد قال ابن إسحاق رحمه الله: فلما كذَّبوه وتوَعَّدوه بالرَّجْم والنفي من بلادهم، وعتوا على الله تعالى، أخذهم عذاب يوم الظُّلَّة، إنه كان عذاب يوم عظيم. فبلغني أن رجلاً من أهل مدين يقال له: عمرو بن جلهاء، لما رآها قال:

يَا قَوْمِ إِنَّ شُعَيْبًا مَّرْسَلٌ فَذَرُوا
عَنكُم سُمَيْرًا وَعِمْرَانَ بَنَ شَدَادٍ
إِنِّي أَرَى غَبِيَّةً يَا قَوْمِ قَدْ طَلَعَتْ
تَدْعُو بِصَوْتٍ عَلَى صَمَانَةِ الْوَادِي
وَإِنَّكُمْ لَنْ تَرَوْا فِيهَا ضَحَاءَ غَدٍ
إِلَّا الرَّقِيمَ يُمَثِّي بَيْنَ أَنْجَادٍ^(١)

في هذا التعليق الختامي للقصة: لماذا جاءت الصياغة بهذا الأسلوب: أسلوب المبتدأ المعرفة ﴿الَّذِينَ﴾، وخبره ﴿كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾، ووجود ضمير الفصل ﴿هُمُ﴾؟

الجواب: لأن هذا الأسلوب جاء ليفيد معنى الحصر والاختصاص، كأنه قيل: الذين كذبوا شعيباً هم المخصوصون بأن أهلكوا واستؤصلوا، كأن لم يقيموا في دارهم؛ لأنَّ الذين اتبعوا شعيباً عليه السلام قد أنجاهم الله تعالى، والذين كذبوا شعيباً هم المخصوصون بالخسران العظيم، دون من اتبعه فإنهم الراحون.

وتظهر قوة التصوير في هذا الأسلوب حيث كرر ذكر المُسْنَدِ إِلَيْهِ بِصِيغَةِ الْمُؤْصُولِ وَالصِّلَةِ ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا﴾ الْمُؤَدَّنِ بِعِلَّةِ الْجَزَاءِ لِيُعِيدَ صُورَةً كُلِّ مِنْهُمَا فِي الذِّهْنِ، وَيَكُونُ حُكْمًا جَدِيدًا بَعْدَ حُكْمٍ، وَلِلْحُكْمَيْنِ مِنَ التَّأْثِيرِ فِي النَّفْسِ مَا لَيْسَ لِلْحُكْمِ الْوَاحِدِ، وَأَمَّا تَسْفِيهِ الرَّأْيِ وَالِاسْتِهْزَاءُ بِذَلِكَ النَّصْحِ، فَهُوَ تَابِعٌ لِهَذَا التَّأْثِيرِ الْمُتَضَمِّنِ لِمَا ذُكِرَ مِنَ التَّصْوِيرِ وَالتَّمْثِيلِ^(٢).

وفي هذا الاستئناف والابتداء وهذا التكرير: مبالغة في ردِّ مقالة الملائكة لأشياعهم، وتسفيه لرأيهم، واستهزاء بنصحهم لقومهم واستعظام لما جرى عليهم.

(١) تفسير الطبري (٥٦٧/١٢)، و"الغيبة" (بفتح فسكون): الدفعة الشديدة من المطر، وقيل: هي المطرة ليست بالكثيرة. وأراد بها هنا سحابة ذات غبية، و"الصمانة"، و"الصمان"، أرض صلبة ذات حجارة إلى جنب رمل، و"سمير" و"عمران"، كاهنهم، و"الرقيم"، كليهم.

(٢) تفسير المنار (١٣/٩).

وَضَمِيرُ الْفَصْلِ فِي قَوْلِهِ ﴿كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ يُفِيدُ الْقَصْرَ، وَهُوَ قَصْرٌ إِضَافِيٌّ، أَيُّ دُونَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا شُعَيْبًا^(١).

وهذا الوصف لعاقبة المكذبين يتضمن إنذارًا شديدًا للمكذبين في كل زمان، فهم يغترون بأنهم يغنون في دولهم، وقوتهم وعلاقاتهم الدولية، ومصالحهم مع الأقوياء في العالم، فيظهرون الفساد في الأرض ويتباهون بأنهم يقفون مع الظالم ضد المظلوم الذي يصفونه بالإرهاب والإجرام. هكذا يظهر الفساد في البر والبحر كما قال الله ﷻ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، لكنهم لا يرجعون عن إفسادهم، فهم يسجنون المصلحين ثم يضحكون ويثملون، حالهم كحال مَنْ سبقهم من المستكبرين، وهنا يمن الله ﷻ عليهم بأن يناديهم مجددًا ويذكّرهم بالتاريخ القريب منهم الذي رأوا آثاره، وسمعوا أخباره، يذكّرهم بأجدادهم الذين مضوا قريبًا فذاقوا وبال أمرهم، ويخاطبهم الله ﷻ ليمدهم بفرصة أخرى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٤٢]، لكنهم يُعرضون، وللحرمات يدنسونه، وحينها يأتي التثبيت للمظلومين لينتظروا يوم الفتح المبين: ﴿فَاقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣].

ومن العجيب أنهم كلما ازدادوا ثراء لم يشبعوا ولم يذكروا موتهم القريب، فازدادوا ظلمًا وإفكًا، والنبى ﷺ يوضح أن هذه الحالة الرديئة تغزو نفوس أقوام ينتسبون إلى أمته، فيقول: «قَوَالْلَّهِ مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكْتُمُ»^(٢).

نعم، يأتي الثراء السريع لكنه يكون مصحوبًا بالأنانية والجشع والشح والإجرام، يصيح الأطفال المظلومون، وترتفع أصواتهم، وتعلو صرخاتهم، ويتردد صدى أناتهم، فلا يرون إلا الموت يحيط بهم

(١) التحرير والتنوير (١٤/٩).

(٢) البخاري (٤٠١٥).

من كل مكان، وضحكات حفلات اللهو والترفيه تزداد، وهم في غفلة معرضون، فيا للغافلين الذين يخسرون الناس أشياءهم! يسبيون بأنفسهم انهيار حضارتهم الظالمة بأفعالهم المجرمة الآثمة. وبدلاً من أن يتخذ صانعو القرار بطاقة صالحة اتخذوا بطاقة لا يألونهم خبالاً، فهل يستوي هذا وقول عمر بن عبد العزيز لعمر بن المهاجر رضي الله عنه: «إذا رأيتني قد ملتُ عن الحق فضع يدك في تلبابي ثم هُزّني، ثم قل: يا عمر، ماذا تصنع؟»^(١).

إن قصة شعيب عليه السلام مع المملأ الذين استكبروا من قومه تعلمنا أن التوزيع العادل للثروات يقتضي إجماع أصحاب النفوذ عن الاستغلال البشع لنفوذهم في إيذاء الناس، وسلب حقوقهم، ومصادرة ممتلكاتهم.

قال وهيب بن الورد رضي الله عنه: اجتمع بنو مروان إلى باب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فقالوا لابنه عبد الملك: قل لأبيك إنَّ مَنْ كان قبله من الخلفاء كان يعطينا ويعرف لنا موضعنا، وإنَّ أباك قد حرمانا ما في يديه، فدخل على أبيه فأخبره، فقال لهم: إن أبي يقول لكم: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: ٥٠] وقال: «ما أنتم وأقصى رجل من المسلمين عندي في هذا الأمر إلا سواء»^(٢). وقال الأوزاعي رضي الله عنه: «لما قطع عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عن أهل بيته ما كان يجري عليهم من أرزاق الخاصة، كلموه في ذلك فقال: "لن يتسع مالي لكم، وأما هذا المال فإنما حُكِّم فيه كحقي رجل بأقصى بَرِّكَ الْغِمَادِ»^(٣).

ستقول: لماذا عبر عن معيشة المتكبرين من قوم مدين بقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾؟

الجواب: هذا التعبير يهرك في وصف التنعم والتمكين الذي كان عليه الكافرون المتكبرون من قوم مدين، فإنه يُقال: غَنِيَ بِالْمَكَانِ فهو يَغْنَى به غِنًى وَغُنْيًا يَوْزَنُ "رَضِيَ يَرْضَى" إِذَا نَزَلَ بِهِ وَأَقَامَ فِيهِ، وقيده الرَّاغِبُ رضي الله عنه بقوله: وَغَنِيَ فِي مَكَانٍ كَذَا إِذَا طَالَ مَقَامُهُ فِيهِ مُسْتَعْنِيًا بِهِ عَنْ غَيْرِهِ، وَكَتَفَى بَعْضُهُمْ بِقَيْدِ طَوْلِ الْإِقَامَةِ، وَبَعْضُهُمْ بِالْإِقَامَةِ فِي رَغَدٍ عَيْشٍ^(٤).

(١) حلية الأولياء (٢٩٢/٥).

(٢) ينظر: حلية الأولياء (٢٦٧/٥)، تاريخ دمشق (١٩٩/٤٥).

(٣) حلية الأولياء (٢٧١/٥)، و(بَرِّكَ الْغِمَادِ): موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلي البحر، وقيل: بلد باليمن. معجم البلدان (٣٩٩/١).

(٤) تفسير المنار (١٢/٩).

وعن قتادة رحمه الله: ﴿كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾: كأن لم يعيشوا، كأن لم ينعموا^(١).

قال عبيد بن الأبرص:

وَلَقَدْ يَغْنَى بِهَا جِيرَانُكَ الْ
مُمْسِكُو مِنْكَ بِعَهْدٍ وَوَصَالٍ^(٢)

وقال رؤبة:

أَبَكْتُ أَبَا الشَّعْثَاءِ وَالسَّمِيدَاعَا
وَعَهْدُ مَغْنَى دِمْنَةٍ بِضَلْفَعَا

بَادَتْ وَأُمْسَى حَيْمُهَا تَدْعُدَا^(٣)

ولنتقل إلى الآية التي بعدها نضع هذا السؤال الارتباطي: عرفنا العاقبة الثانية، وهي الخسارة الكاملة، فما العاقبة الثالثة؟

الجواب:

العاقبة الثالثة: إظهار نفسية الرسل العظيمة، فأظهر شعيب عليه السلام الرحمة بهؤلاء الخاسرين، لكنه أبان عدالة الله تعالى في عقوبتهم:

وبصرنا بهذا قوله: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمُ لَقَدْ أَبْلَغْتُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ۝٩٣﴾ [الأعراف: ٩٣].

وهذه الآية المباركة تكونت من ثلاثة أقباس: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾، ﴿وَقَالَ يَاقَوْمُ لَقَدْ أَبْلَغْتُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾، ﴿فَكَيْفَ ءَاسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ۝٩٣﴾. ولفهمها نصوغها في هذه البصائر العظيمة:

(١) تفسير عبد الرزاق الصنعاني (٨٥/٢).

(٢) ديوان عبيد بن الأبرص (ص: ٩٩)، وفيه: (أصحابك) بدلاً من: (جيرانك). (بأسباب الوصال) بدلاً من: (بعهد ووصال).

(٣) مجموع أشعار العرب وهو مشتمل على ديوان رؤبة بن العجاج (ص: ٨٧)، و"أبو الشعثاء" يعني نفسه. و"ضلفع"، اسم موضع، و"مغنى" على وزن "مفعّل" من "غنى".

بصيرة ١: [الكلمتان ٢-١]: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ تبصّرنا بأن أعظم الناس رحمة، وهم الأنبياء لا بد أن يستجيبوا لعدل الله ﷻ في عقوبة المجرمين، فيتولون عنهم ناسين لهم، فلماذا لا يرحم المجرمون أنفسهم قبل حلول العقوبة، ويتوبون إلى ربهم؟!

فالفاء من: ﴿فَتَوَلَّى﴾ تصور لنا الواقع الذي حدث بعد هلاك دولة مدين بالعقوبة الماحقة التي وصف الله ﷻ جانباً منها بالرجفة، وكلمة (تولى) تصور حركة شعيب الكليلي وهو يراقب العقوبة التي حلت بقومه، ولا يملك لها دفعا، حتى إذا انتهى كل شيء ابتعد مُؤَلِّيًا بعيداً عنهم، مع أن الأنبياء أشد الناس حرصاً على أن يرحم الله ﷻ أقوامهم، لكنه هنا ابتعد عنهم مُؤَلِّيًا لهم ظهره بعد أن انتهت الفرصة التي منحها الله ﷻ لهم للتوبة.

بصيرة ٢: ﴿وَقَالَ يَتَقَوْمَ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ تبصّرنا بأن الداعية لا بد أن يحرص على أداء مهمته على أكمل وجه، ومهمته تتلخص في أمرين كبيرين: البلاغ لرسالة الله ﷻ إلى البشر، والنصح لهم، وذلك يعني تقديم هذه الرسائل على أفضل الوجوه وأجمل السبل كفعل الناصح الأمين.

[الكلمة ٣]: ﴿وَقَالَ﴾ تُرِينَا شُعَيْبًا الكليلي هنا وهو يعلن للعالم قيامه بواجبه الذي كلفه الله ﷻ به، فيخاطب قومه بذلك.

وهنا نسال: ما وجه النداء في هذه الآية؟ لماذا يناديهم وقد هلكوا؟

الجواب: ذهب بعض المفسرين إلى أنه كان يناديهم عند نزول العذاب عليهم^(١)، والذي يظهر لي أن الترتيب هنا في مكانه، وأنه لا مانع من نداءهم بعد أن هلكوا بذلك العذاب، فهذا أسلوب بياني عربي معروف، إذ ناداهم نداء تحسر وتوجع عليهم، شأن المحب لصالح قومه وصالح العالم من حوله، كما أنك ترى في النداء التبرؤ من حالهم وأعمالهم، وهو مثل قول النبي ﷺ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ مخاطباً قادة كفار قريش بعد أن هلكوا: «فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا؟»^(٢).

(١) ينظر: تفسير الرازي (٣٠٩/١٤).

(٢) البخاري (٣٩٧٦).

[الكلمتان ٤-٥]: ﴿يَقُومُ﴾ تصور شعيباً عليه السلام يظهر لوعته على هؤلاء المعذبين، فما زال يصفهم بأنهم قومه أي الناس الذين يقوم بهم، ويقومون به، وهي كلمة تحمل التوجع في هذا السياق.

[الكلمة ٦]: ﴿لَقَدْ﴾ تصور تأكيد شعيب عليه السلام على صحة الكلام الذي يقوله.

[الكلمة ٧]: ﴿أَبْلَغْتُكُمْ﴾ أي: أوصلت لكم ما فيه بلاغكم، أي: ما تحتاجونه لتعيشوا به، وتموتوا عليه.

[الكلمتان ٨-٩]: ﴿رِسَالَتِ رَبِّي﴾ جمعها لأن كل رسالة أمر الله ﷻ بها نبياً تتكون من رسالات متعددة، فكل ركن من أركان الإيمان رسالة، وكل ركن من أركان الإسلام رسالة، وكل شعبة من شعب الإيمان رسالة، وهاتان الكلمتان تصوران الدقة العظيمة التي اتسم بها شعيب عليه السلام في تبليغ رسالاته، وَالْمَعْنَى: إِنِّي يَا قَوْمُ قَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي، أي: مَا أُرْسَلَنِي بِهِ إِلَيْكُمْ مِنَ الْعَقَائِدِ وَالْمَوَاعِظِ وَالْأَحْكَامِ وَالْأَذَابِ، فَجَمَعَ الرِّسَالَةَ هُنَا بِحَسَبِ مُتَعَلِّقِهَا، وَأَفْرَدَهَا فِي قِصَّةِ صَالِحٍ بِحَسَبِ مَعْنَاهَا الْمُصْدَرِيِّ^(١).

[الكلمتان ١٠-١١]: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي: أبلغتكم تلك الرسالات على خير الوجوه، وأجمل الصور لتتبعوها، كما يفعل الناصح وهو الخياط عندما يخطط بالنصاح -وهو الخيط- لينتج ملبساً، فيجعل منه عملاً يبلغ أعلى درجات الإتقان يرغب الناظر في أخذه والاستمتاع به، فلم يبلغ شعيب عليه السلام رسالات ربه ﷻ على وجوه مُتَفَرِّدة، أو على هيئة مُرَدَّجَةٍ. فهذه الكلمات تبرئ ذمة شعيب عليه السلام في أداء المهمة التي كلفه الله بها، لكنها تصور جانباً من تأمله على عدم استماعهم لرسالته.

وهنا نسأل: وصف الله هذا المشهد المثير الذي حدث لصالح عليه السلام بعد هلاك قومه، فقال: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩]، وكذلك هنا وصف مشهداً مماثلاً لشعيب عليه السلام إذ يقول: ﴿فَتَوَلَّى

(١) تفسير المنار (١٣/٩).

عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾
[الأعراف: ٩٣]، فما أوجه التماثل والافتراق بين المشهدين، ولماذا؟

الجواب: يظهر لي أنك ترى تكرر تاريخ بني آدم وصراعهم المير مع إبليس وقبيله، وتكرر مشهد دعوات الإصلاح النبوي التي تحمل الأسس نفسها، كما أن رد الملاء المستكبرين الغافلين يحمل البصمات ذاتها، ومن الطبيعي أن ترى الاتحاد في عواطف الأنبياء المكرمين وفي خطابهم لأقوامهم قبل هلاك المجرمين، وبعد هلاكهم، فهنا كأنك ترى تماثلاً بين المشهدين اللذين تعرضهما الآيتان عن صالح وشعيب عليهما السلام، وهما يتوليان عن قومهما وقد هلكوا، إلا أن الاختلاف في كلامهما وقع في موضعين:

الأول: أفرد صالح عليه السلام الرسالة الإلهية التي بلغها فقال: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي﴾، وجمعها شعيب عليه السلام، فقال: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي﴾.

الثاني: ختم صالح عليه السلام تأوّهه على عدم استماع قومه بقوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ ﴿٩٣﴾، وختم شعيب عليه السلام تأوّهه على عدم استماع قومه بقوله: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ ﴿٩٣﴾.
ويظهر أن كلاً من النبيين قال كلام الآخر، وعرض الله ﷻ لنا المشهدين على طريقة شبه الاحتباك، فكأن الصورة الكاملة أن كلاً منهما قال: لقد أبلغتكم رسالة ربي ورسالاته، ونصحت لكم، ولكن لا تحبون الناصحين، فكيف آسى على قوم كافرين.

ثم قال شعيب عليه السلام في القبس الثالث من أقباس الآية: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ ﴿٩٣﴾
[الأعراف: ٩٣]، فلماذا استعمل أسلوب السؤال بدلاً من النفي المباشر؟

الجواب:

[الكلمة ١٢]: ﴿فَكَيْفَ﴾ المعنى المباشر القريب: فلا آسى على قوم كافرين، ولكنه جاء على أسلوب السؤال، وذلك ليظهر في هذا الأسلوب التوجع وإثبات العدل في حلول العقوبة التي دمرت الملاء المستكبرين وسائر الكافرين من قومه، فأسلوب السؤال هنا أفضل قبلاً وأهدى سبيلاً من أسلوب النفي المباشر.

وهنا نقف أمام هذه الكلمة التي تواجهنا للمرة الثانية في القرآن، وهي كلمة ﴿ءَاسَى﴾، فما وجه قوتها وجمالها في هذا الموضع؟

الجواب:

هذه هي [الكلمة ١٣]: ﴿ءَاسَى﴾، وهي تصور توجعاً كبيراً ينفي شعيب عليه السلام اتصافه به على سبيل السؤال، وهي كلمة قوية جداً، فالأسي^(١): شدة الحزن، فيقال: أسيئت عليه أسيئاً. قال العجاج:

وَانْحَلَبْتُ عَيْنَاهُ مِنْ فَرَطِ الْأَسَى^(٢)

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٢٦]، وأصل كلمة (أسي): إتباع الفاتت بالغم، فهو قريب من التأسي، فيقال: أسيئت له أي لأجله. قال البحتري:

أَسِيْتُ لِأَخَوَالِي رَبِيعَةً أَنْ عَقْتُ مَصَافِيهَا مِنْهَا، وَأَقُوْتُ رِبْوَعَهَا^(٣)

وزهد الراغب رحمه الله إلى أن أصله من الواو كقولهم: رجلٌ أَسْوَانٌ أي: حزينٌ. وهو عند ابن فارس أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الْمَدَاوَةِ وَالْإِصْلَاحِ، يُقَالُ: أَسَوْتُ الْجُرْحَ: إِذَا دَاوَيْتُهُ، وَلِذَلِكَ يُسَمَّى طَبِيبُ الْجُرْحِ الْأَسِي. وَالْأَسْوُ: إِصْلَاحُ الْجُرْحِ، وَيَجْمَعُ عَلَى أَسَاةٍ كَقَوْلِهِ:

فَلَوْ أَنَّ الْأَطْبَاءَ كَانُوا حَوْلِي وَكَانَ مَعَ الْأَطْبَاءِ الْأُسَاءُ^(٤)

وأصله إزالة الأسى نحو: كَرِبْتُ النَّخْلَ أَيِ أَزَلْتُ الْكَرْبَ عَنْهُ.

وَيُقَالُ: أَسَوْتُ بَيْنَ الْقَوْمِ: إِذَا أَصْلَحْتُ بَيْنَهُمْ. وقوله^(٥):

فَالَيْتُ لَا أَمَى عَلَى إِثْرِ هَالِكٍ قَدِ الْآنَ مِنْ حُزْنٍ عَلَى هَالِكٍ قَدِي

(١) مفردات الراغب الأصفهاني (ص: ١٨)، لسان العرب (٣٤/١٤).

(٢) ديوان العجاج (ص: ١٥٦)، أي: أهتمر الدمع منها كما يهتمر الحليب. والبيت بتمامه:

(وَانْحَلَبْتُ عَيْنَاهُ مِنْ فَرَطِ الْأَسَى وَكَيْفَ غَرَبِي دَالِحٍ تَبَجَّسَا).

(٣) ديوان البحتري (ص: ١٢٩٨)، وفيه: (... إِذْ عَقْتُ *** مَصَانِعَهَا مِنْهَا...).

(٤) البيت بلا نسبة. ينظر: الجمل في النحو (ص: ٢٣٢)، ويروى البيت: (كَانَ حَوْلِي) وَأَصْلُهَا: (كَانُوا)، فحذف الشاعر الواو واكتفى بالضممة دلالة عليها. يُنظر: الانتصاف في مسائل الخلاف، للأنباري (٣١٨/١).

(٥) ينسب البيت لرقيع بن عبيد بن صيفي. يُنظر: لباب الآداب، للشيرازي (ص: ٤٠٨)، وصدر البيت فيه: (فَلَسْتُ بِهَالِكٍ بَعْدَهُ إِثْرُ هَالِكٍ).

أي: حلفتُ لا أحرزنُ على أحدٍ يموتُ بعده لأنَّ مصيبتَه جَلَّتْ على سائرِ المصائبِ.
وبذلك يكون أسوَتْ أي: أزلت أساه أي شِدَّةَ بؤسه وشفائه بشيء يصلح بآله وحالَه، وَمِنْ هَذَا
البَابِ لي في فُلَانٍ إِسْوَةٌ، أي: قَدَوَةٌ، أي: إِنِّي أَقْتَدِي بِهِ. كَأَنَّ الْمُؤْتَبِرَ يَرْتَفِعُ لِيَسْتَوِيَ مَعَ الْمُؤْتَسَى بِهِ؛
كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ۲۱، الممتحنة: ۴، ۶].
وَأَسَيْتُ فُلَانًا: إِذَا عَزَيْتُهُ، مِنْ هَذَا، أَيِ قُلْتُ لَهُ: لِيَكُنْ لَكَ بِفُلَانٍ أُسْوَةٌ فَقَدْ أُصِيبَ بِمِثْلِ مَا أُصِيبَتْ
بِهِ فَرَضِي وَسَلَّم. وَمِنْ هَذَا الْبَابِ: أَسَيْتُهُ بِنَفْسِي، وَأَسَاهُ بِمَالِهِ: أَنَالَهُ مِنْهُ وَجَعَلَهُ فِيهِ أُسْوَةً (أي يساويه
فيه)، وقريب منه أَسَى (تعب): حَزَنَ كما في قوله ﷺ: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا
ءَاتَاكُمْ﴾ [الحديد: ۲۳].

وبذلك تظهر قوة هذه الكلمة العظيمة، فيكون معنى كلام شعيب عليه السلام: فكيف يشتد حزني، أو
تعظم كربتي على قوم كافرين؟
فكيف أزيل أساكم أي: شدة بؤسكم، وعمق شقائكم وأنتم كافرون؟
فكيف أعالج حياتكم البائسة وأنتم كافرون؟
أي: فكيف أحرزنُ الحُزْنَ الشَّدِيدَ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ أَغْذَرْتُ إِلَيْهِمْ، وَبَدَلْتُ جُهْدِي فِي سَبِيلِ هِدَايَتِهِمْ
وَنَجَاتِهِمْ، فَاخْتَارُوا مَا فِيهِ هَلَاكُهُمْ، وَأِنَّمَا يَأْسَى مَنْ قَصَرَ فِيمَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ النَّصِيحِ وَالْإِنْدَارِ^(۱).
فجمعت ﴿ءَاسَى﴾ كل هذه المعاني.

وكما ترى فإن هذه الكلمة وأسلوب السؤال يوحيان أنه اعتراه شيءٌ من الحزن عليهم، لكنه يعالج
نفسه بأن ينظر إلى عدل الله ﷻ، وكمال حكمه، فكأنه يقول: حتى لو أصابني الحزن عليكم،
أفتظنون أنني أعترض على حكم الله ﷻ، بل حكم الله ﷻ عادل، وقد أصابكم ما أصابكم بسبب
كفركم.

وهنا يأتي هذا السؤال: لماذا خاطب شعيب عليه السلام نفسه أثناء نداء قومه، فقال: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَى
عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ۹۳]؟ وما وجه قوة هذا السؤال في الدلالة على عاطفته؟

(۱) تفسير المنار (۱۳/۹).

الجواب: هذا السؤال يطوي الله تعالى به صفحة دولة مدين البائسة ببيانٍ عظيم من شعيب عليه السلام، يُظهر فيه رضاه بعدل الله تعالى، وإن أصابه بعضُ الحزن على إصرار قومه على الكفر والاستكبار مما تسبب في نزول العقوبة عليهم.

فالذي يظهر من هذا الأسلوب أنه اشتدَّ حزنه على قومه كما اشتدَّ ذلك الحزن على نبينا صلى الله عليه وسلم حتى قال الله تعالى له: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨]، ولما اشتدَّ حزن شعيب عليه السلام أنكر على نفسه زيادة الحزن، فقال: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [١٣]، أي: فكيف يشتدُّ حزني على قوم ليسوا بأهل للحزن عليهم لكفرهم واستكبارهم واستحقاقهم ما نزل بهم من العقوبة، وقد أعذرتُ إلهي في الإبلاغ والنصيحة والتحذير مما حلَّ بهم، فلم يسمعوا قولي، ولم يصدقوني، فكيف آسى عليهم وليسوا أحقاء بالأسى.

فعن ابن إسحاق رحمه الله قال: أصاب شعيباً عليه السلام على قومه حُزنٌ لما يرى بهم من نقمة الله تعالى، ثم قال يُعزِّي نفسه فيما ذكر الله تعالى عنه: ﴿يَقُولُ لَقَدْ أْبْلَغْتُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [١٣] (١).

ويزكرنا الأوزاعي رحمه الله بعبرة عظيمة في هذه الآية، ودرسٍ بليغ، فيقول: "أَيُّهَا النَّاسُ! تَقَوُّوا بِهِذِهِ النِّعَمِ الَّتِي أَصْبَحْتُمْ فِيهَا عَلَى الْهَرَبِ مِنْ نَارِ اللَّهِ الْمُوقَدَةِ، الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْنِدَةِ، فَإِنَّكُمْ فِي دَارٍ، الثَّوَاءِ (طول المقام) فِيهَا قَلِيلٌ، وَأَنْتُمْ عَنْ قَرِيبٍ مُرْتَجِلُونَ، وَخَلَانُفُ بَعْدَ الْقُرُونِ، الَّذِينَ أَكَلُوا مِنَ الدُّنْيَا زَهْرَتَهَا، كَانُوا أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَارًا، وَأَقْوَى أَجْسَامًا، وَأَعْظَمَ آثَارًا، فَجَدَّذُوا الْجِبَالَ، وَجَابُوا الصُّخُورَ بِالْوَادِ، وَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ، مُؤَيَّدِينَ بِبَطْشٍ شَدِيدٍ، وَأَجْسَامٍ كَالْعِمَادِ، فَمَا لَبِثَ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ أَنْ طَوَتْ مُدَّتَهُمْ، وَعَقَّتْ آثَارَهُمْ، وَأَخَوَتْ مَنَازِلَهُمْ، وَأَنْسَتْ ذِكْرَهُمْ: ﴿هَلْ نُحِشُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨]، كَانُوا بِلَهْوِ الْأَمَلِ آمِنِينَ، وَعَنْ مِيقَاتِ يَوْمِ الْحَقِّ غَافِلِينَ، وَفِي صَبَاحِ هَلَكَةٍ نَادِمِينَ، ثُمَّ إِنَّكُمْ قَدْ عَلِمْتُمْ مَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ بَيِّنَاتًا مِنْ عُقُوبَةِ اللَّهِ تعالى، ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [٧٧]، فَأَصْبَحَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ، وَأَصْبَحَ الْبَاقُونَ يَنْظُرُونَ فِي آثَارِ نِقْمِهِ، وَرَوَالِ نِعَمِهِ، وَمَسَاكِنِ خَاوِيَتِهِ، فِيهَا آيَةٌ لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ، وَعِبْرَةٌ لِمَنْ يَخْشَى، وَأَصْبَحْتُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ فِي أَجَلٍ مَنْقُوصٍ، وَدُنْيَا

(١) رواه الطبري عنه في تفسيره: (٥٧١/١٢).

مقبوضة، في زمان قد ولى عَفُوهُ، وذهب رخاؤه، فلم يبق منه إلا حمأة شرٍّ، وصُبابَةٌ^(١) كدرٍ، وأهاويلُ عِيَرٍ، وعقوباتٌ غَيْرٍ، وإرسالٌ فِتْنٍ، وتتابعٌ زلازلٍ، ورذالةٌ خَلَفٍ، بهم ظهر الفساد في البر والبحر، ولا تكونوا أشباهاً لمن خدعه الأمل، وَغَرَّه طول الأجل، فتَبَلَّغَ بالأمانى، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن وعى إنذاره، وبشراه، فَمَهَّدَ لنفسه^(٢).

قد هدانا سُبُلَنَا عَزَّ وَجَلَّ	حارِبِ الْأَفْكَارُ فِي حِكْمَةٍ مِّنْ
قَلَّ مِنْ جَيْشٍ وَأَفْنَى مِنْ دَوْلٍ	كُتِبَ الْمَوْتُ عَلَى الْخَلْقِ، فَكُمُ
مَلَكُ الْأَرْضِ وَوَلَّى وَعَزَلَّ	أَيْنَ نُمْرُودُ وَكِنَعَانُ وَمَنْ
رَفَعَ الْأَهْرَامَ مَنْ يَسْمَعُ يَخَلَّ	أَيْنَ عَادُ أَيْنَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ
هَلَكَ الْكُلُّ وَلَمْ تُغْنِ الْقُلُلُ	أَيْنَ مِنْ سَادُوا وَشَادُوا وَبَنَوْا
أَيْنَ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْقَوْمُ الْأَوَّلُ	أَيْنَ أَرْبَابُ الْحِجَى أَهْلُ النُّهَى
وَسَيَجْزِي فاعِلًا مَا قَدْ فَعَلَ ^(٣)	سَيُعِيدُ اللَّهُ كَلًّا مِنْهُمْ

قول شعيب عليه السلام: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ ﴿٩٣﴾ يمزج بين الألم واليقين بعدل الله تعالى في الوقت ذاته، فهل هذا يدل على تعظيم العاطفة لدى النفس المؤمنة؟

الجواب: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ ﴿٩٣﴾ يظهر منها:
العاطفة الشَّعْبِيَّةُ الجياشة التي امتزجت بالألم واليقين بعدل الله تعالى في الوقت ذاته.
وذكرني هذا بالأسى العظيم على ما يحدث من خُلُفٍ واختلافٍ، وتناوبٍ بالألقاب في أوساط المسلمين بل في أوساط العلماء.
وبينما كنت أشعر بالألم على التفرق المؤسف والأثرة الهائلة التي تراها في أوساط الدعاة، وأذكر لبعض إخواني أن ذلك أهمني حتى ألفت كتابين:

(١) أي شيء يسير.

(٢) سير أعلام النبلاء (١١٧/٧) بتصرف في الكلام.

(٣) ديوان ابن الوردي (ص: ٢٧٨).

الأول: "لا إنكار في مسائل الخلاف".

والثاني: "فقه الاختلاف صراط المودة والائتلاف": إذ بفضل الشيخ الدكتور/ سعيد دحاج يتصل بي اتصال الصاحب البرّ بصاحبه؛ إذ أكرمني الله ﷻ بتدريسه في مرحلة البكالوريوس، ثم يرسل لي قصيدة في المعنى الذي يثير شجني أسماها: "عَتَبُ الْقَوَافِي"، وقال فيها:

امْلُؤُوا الْجَوَّ كُلَّهُ بِالْهَيْتَافِ	وخذوا الدِّينَ غُنُوًّا باعتسافِ
أَوْدِعُوا الْمُحْكَمَاتِ فِي قَعْرِ جُبِّ	وابحثوا عَنْ دَقَائِقِ الْإِخْتِلَافِ
وَلْيَقِفْ لِلنِّزَالِ كُلِّ فَرِيقِ	خَلْفَ شَيْخٍ مُعَمَّمٍ فِي اصْطِفَافِ
وَاتركُوا الْمُحْكَمَ الْجَلِيَّ وَرَاءَ	مِنْ سَبِيلِ الْإِخَاءِ أَوْ الْإِتِّلَافِ
واجعلوا مِنْ الْحُبُوبِ قِبَابًا	وَلْيَكُنْ حَوْلَهَا جَمِيعُ الطَّوَافِ
أَبْدِعُوا فِي اخْتِكَارِ جَنَآتِ عَدَنِ	لندويكم وَحُورِيَّاتِ لَطَافِ
بَشِّرُوا غَيْرَكُمْ بِنَارٍ تَلْظَى	إِنْ بَدَأَ مِنْهُ عَنْ هَوَاكُمُ تَجَافِ
أَشْعِلُوا الْحَرْبَ بَيْنَكُمْ لَا تَنَاهِي	لمداها بِحِنَكَةٍ وَاحْتِرَافِ
وَاتركُوا الْعُمُقَ نَحْنُ فِي الْعُمُقِ غَرْقِ	وَلْتَحْضُوا نِزَالَكُمْ فِي الضِّقَافِ
واحْشُدُوا تِلْكَ الْجُمُوعَ لِعَزْوِ	يَدْعُ الْخَصْمَ مُؤَدِّنًا بَانْصِرَافِ
وابعثوا حَرْبَ الْبَسُوسِ وَعَبْسِ	مَعَ ذُبْيَانٍ فِي السِّنِينَ الْعِجَافِ
أَسْرِجُوا لِلْخِلَافِ خَيْلًا كَثِيفًا	واملؤوا السَّاحَ بِالْخَيُْولِ الصَّوَافِ
أَطْفِئُوا شَمْعَةَ الْوِفَاقِ لَتَعْلُو	رَايَةُ الْخُلْفِ فِي الرُّبَى وَالْفِيَا فِي
بِأُسْكُمْ بَيْنَكُمْ شَدِيدٌ فَهَلَا	كَانَ ذَا الْبَاسِ مِيلَةً لَانْعِطَافِ

* * *

بِسُلَيْمَى وَبِالْجَفُونِ الرِّهَافِ

إِخْوَةَ الدِّينِ مَا تَغَزَلْتُ يَوْمًا

بَلْ تَغْنَيْتُ مُبَحَّرًا فِي هَوَاكُمُ
لَا تَرَوْعَنَّكُمْ خَشَوْنَاتُ قَوْلِي
هَالِنِي الْخُلْفُ بَيْنَكُمْ فَعَلَّتْنِي
سَنَّةُ الْمُصْطَفَى سَبِيلِي وَقَصْدِي
مِنْ هُدَى الْوَحْيِ وَالْكِتَابِ انْبِعَاثِي
عُصَبُ الظُّلَمِ وَالضَّلَالِ تَدَاعَتْ
فَهْلُمُوا إِلَى الْوِفَاقِ هَلُمُّوا
وَأَرَى الْبَغْيَ لَيْسَ عَنْكُمْ بِخَافِي
وَأَرْفَعُوا الْيَوْمَ رَايَةً لِلتَّصَافِي^(١)

وَصَلَّى اللَّهُ تَعَالَى وَسَلَّم عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ، وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

الْفَقِيرُ إِلَى رَبِّهِ الْغَنِيِّ جَلَّ ذِكْرُهُ:

عبد السلام مقبل المجيدي

أستاذ القراءات والتفسير والدراسات القرآنية

كلية الشريعة/ جامعة قطر

s143y@gmail.com

(١) القصيدة للدكتور سعيد بن دحاج في ديوانه: "عَتَبَ الْقَوَافِي" (ص: ٦، ٧).



فهرس الموضوعات

المحور الثالث: أهمُّ الدورات الحضارية العظمى والعهود التاريخية الفاصلة التي قادت الإنسانية قبل العهد الإسرَائيليِّ في التاريخ القديم [الأعراف: ٩٣-٥٩].....	٥
المناسبة والاتصال:.....	١٠
الفوائد الكبرى للقصص القرآنية المذكورة في سورة الأعراف.....	١٦
الفائدة الأولى: هذه القصص بتفاصيلها التاريخية تدل على صدق نبينا محمد ﷺ.....	١٧
الفائدة الثانية: إظهار تفاصيل دقيقة تكشف المعركة بين القيادات المصلحة وعدو الإنسانية.....	١٧
الفائدة الثالثة: ذهاب الحرج من صدر الداعية المصلح، وقيامه بوظيفتي الإنذار والتذكير.....	١٨
الفائدة الرابعة: السرد التاريخي المبتكر في هذا الجزء الكبير من السُورة يُظهر للنبي ﷺ والقيادات المصلحة سنن الله ﷻ في تداول الأيام، وتقلبات الدهر.....	١٩
الفائدة الخامسة: هذا القسم يقدم للطبيعة الإنسانية كيفية التعامل مع الآفاق والعوالم.....	١٩
الفائدة السادسة: تقديم التفسير الإسلامي للتاريخ الإنساني منذ آدم ﷺ إلى العصر الحديث.....	٢٠
الدورة الأولى: حضارة دولة قوم نوح.....	٣٤
وفيهما مثلُ نوح ﷺ القيادة الأولى للذرية الآدمية؛ إذ واجه فساد الفكر الذي تمثّل بالشرك في الأرض، وإفساد الحياة بالتميز العنصري [الأعراف: ٦٤-٥٩].....	٣٤
المشهد الأول: مشهد الإنقاذ الإلهي لقوم نوح ﷺ من فسادهم.....	٣٤
المشهد الثاني: مشهد الإفصاح عن اسم أول رسول بعثه الله ﷻ إلى الأرض.....	٣٧
المشهد الثالث: مشهد البلاغ التعليمي الإعلامي.....	٤٠
المشهد الرابع: مشهد الحكمة في الدعوة، فينبغي أن نجتمع بين التلطف والصراحة الكاملة.....	٤٢
المشهد الخامس: لخصّ نوح ﷺ دعوته في ثلاثة أركان.....	٤٤
الركن الأول: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾.....	٤٥
الركن الثاني: توحيد الله ﷻ في هذه العبادة ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾.....	٤٥
الركن الثالث: الإعداد للحياة الأخروية الغائبة القادمة.....	٥٤
المشهد السادس: مشهد الرد السلبي العنيف.....	٦١
المشهد السابع: وجه المأل للقيادات الخيرية أول التهم المعتادة: الاتهام بالوقوع في الضلال.....	٦٨
المشهد الثامن: جواب نوح ﷺ على الاتهام الباطل بأنه في ضلال.....	٧٧
الحقيقة الأولى: يجب أن نبادر إلى نفي التهمة، ولا نسكت عنها.....	٧٧
الحقيقة الثانية: التلطف والحكمة في الرد على المخالف، وترك الانفعال والغضب.....	٧٨

- الحقيقة الثالثة: الرد بما يفيد المقصود، ويحقق الهدف على طريقة ذكية في الدفاع: ٧٩.....
- الحقيقة الرابعة: إثبات المهمة المميزة لنوح عليه السلام: ٨١.....
- الحقيقة الخامسة: بيّن أنه يجب أن يبلغ رسالات ربه: ٨٥.....
- الحقيقة السادسة: القيام بالنصيحة التي لا تسمى كذلك إلا أن تنبع عن حب الخير للمنصوح: ٩٠.....
- الحقيقة السابعة: وجود شيء فضّل الله تعالى به الأنبياء على غيرهم، وهو العلم الذي لا يمكن للبشر أن يصلوا إليه، لأن الله تعالى هو الذي يعلمهم: ٩٥.....
- الحقيقة الثامنة: وجود رسالة إلهية يكلف رجلٌ بتبليغها قضية منطقية عقلانية: ٩٦.....
- الحقيقة التاسعة: يُقنع نوح عليه السلام قومه برسالته من خلال ذكر أعظم أهداف هذه الرسالة: ١٠٨.....
- المشهد التاسع: الإصرار على التكذيب ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ [الأعراف: ٦٤]: ١١١.....
- المشهد العاشر: ختام القصة، ونهاية مشاهد التدافع بين نوح عليه السلام والملا الكافرين: ١١٢.....
- النتيجة الأولى: نجا نوح عليه السلام ومن معه: ١١٢.....
- النتيجة الثانية: هلاك المكذبين: ١١٦.....
- الدورة الثانية: حضارة دولة عاد: ١٢٩.....
- وفيها مثل هود عليه السلام القيادة الثانية للذرية الأدمية في مواجهة الإفساد في الأرض [الأعراف: ٦٥-٧٢] ١٢٩.....
- المشهد الأول: أرسل الله تعالى القيادة الثانية لإصلاح الأرض، وتمثلت في هود عليه السلام: ١٢٩.....
- المشهد الثاني: أركان الإصلاح التي جاء بها هود عليه السلام ثلاثة أركان [الأعراف: ٦٥]: ١٣٧.....
- المشهد الثالث: مشهد هجوم قوى الملاّ المستكبرين [الأعراف: ٦٦]: ١٤٢.....
- المشهد الرابع: تقوم قوى الملاّ بتوجيه التهم الجاهزة المعتادة إلى النبي [الأعراف: ٦٦]: ١٤٥.....
- التهمة الأولى: الاتهام بالسفاهة ﴿إِنَّا لَنَرُكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾: ١٤٥.....
- التهمة الثانية: بأنهم يظنون أنه ينتمي إلى فئة الكاذبين: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ ٦٦﴾: ١٤٨.....
- المشهد الخامس: دفاع هود عليه السلام ضد اتهامات الملاّ: ١٥٣.....
- الحقيقة الأولى: محاولة الرد التبليغي الحكيم على الاتهامات الباطلة، وعدم السكوت: ١٥٣.....
- الحقيقة الثانية: الجمع بين التلطف والقوة في الرد [الأعراف: ٦٧]: ١٥٤.....
- الحقيقة الثالثة: سبب الدعوة الإصلاحية لهود أنه رسول من رب العالمين [الأعراف: ٦٧-٦٨]: ١٥٦.....
- الحقيقة الرابعة: عُرف بينهم بنصحه وأمانته، وهو مستمر في هذه الصفات [الأعراف: ٦٨]: ١٥٧.....
- الحقيقة الخامسة: وجود رسالة إلهية يكلف بها رجلٌ قضيةً حكيمةً منطقيةً عادلةً، فلماذا تستنكرونها؟ [الأعراف: ٦٩]: ١٦١.....
- الحقيقة السادسة: السيطرة على الإدارة في الأرض ابتلاء وليس مجرد عطاء: ١٦٩.....

- الحقيقة السابعة: ذكّرهم بنعمة أوتوها لم يؤتها من قبلهم [الأعراف: ٦٩]..... ١٧١
- الحقيقة الثامنة: ختم هود عليه السلام حوارَه الإقناعي بختامٍ مثيّرٍ [الأعراف: ٦٩]..... ١٧٢
- المشهد السادس: مشهد التعصب والخرافة والجهل..... ١٧٩
- الحملة المضادة الأولى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ [الأعراف: ٧٠]..... ١٧٩
- الحملة المضادة الثانية: ﴿وَنَذَرُ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾:..... ١٨١
- الحملة المضادة الثالثة: يصورها قول الله ﷻ واصفًا ما قالوه بعد ذلك..... ١٨٥
- المشهد السابع: الإدارة الحكيمة للمرحلة الباقية..... ١٩١
- الإنذار الأول: لغة، إذ انتقل من لغته الهادئة السابقة إلى لغة شديدة موقظة..... ١٩١
- الإنذار الثاني: إيقاظٌ للعقل..... ١٩٨
- الإنذار الثالث: حذرهم من الأخطار المستقبلية إن استمروا على هذا الضلال..... ٢٠٤
- المشهد الثامن: النهاية المحتومة للفريقين، فريق المؤمنين وفريق الكافرين..... ٢٠٦
- النتيجة الأولى: إنجاء الله تعالى لهود عليه السلام والذين معه..... ٢٠٦
- النتيجة الثانية: إهلاك المكذبين من قوم عاد..... ٢٠٧
- قصة عاد بين البيان القرآني المعجز والروايات التاريخية..... ٢١٠
- قصة هود عليه السلام من براهين هيمنة القرآن على الكتب السابقة..... ٢١٧
- الدورة الثالثة: حضارة دولة ثمود..... ٢٢١
- وفمّا تبرز القيادة الثالثة للذرية الأدمية في مواجهة الإفساد في الأرض، وهي قيادة صالح عليه السلام [الأعراف: ٧٣]..... ٢٢١
- [٧٩]..... ٢٢١
- المناسبة والاتصال:..... ٢٢١
- المشهد الأول: مشهد صالح عليه السلام، وقد أرسله الله ﷻ إلى أمة ثمود [الأعراف: ٧٣]..... ٢٢٢
- المشهد الثاني: الأسس التي جاء بها صالح عليه السلام ليصلح فساد البشرية..... ٢٢٧
- الأساس الأول: الدعوة إلى عبادة الله ﷻ، ولا يعبدون الله ﷻ إلا إذا آمنوا به..... ٢٢٧
- الأساس الثاني: أن تكون هذه العبادة خالصة لله ﷻ، فلا تشركوا معه غيره في العبادة..... ٢٢٨
- الأساس الثالث: الدليل على استحقاق الله ﷻ لأن يعبد وحده هو أنه لا يتصور أن يكون هناك إله سواه..... ٢٢٩
- الأساس الرابع: إظهار براهين الرسالة لإثبات أنها جاءت حقًا من ربهم وربنا وهو الله ﷻ..... ٢٣٠
- الأساس الخامس: من الآيات الخارقة للعادة في دعوة صالح عليه السلام: الناقة..... ٢٣٤
- الصفة الأولى: لا بد أن تكون آية خارقة للعادة، ولذا سمّاها ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾..... ٢٣٨



- الصفة الثانية: لأنها جاءت من عند الله مكوّنة مخلوقة من غير ذكر وأنثى (فحل وطروقة)..... ٢٣٩
- الصفة الثالثة: جاءت كاملة الخلقة من غير تدرّج في نموها..... ٢٣٩
- الصفة الرابعة: أن لها شرب يوم، ولجميع أمة ثمود شرب يوم آخر معلوم لهم..... ٢٣٩
- الصفة الخامسة: كانوا في يوم شربها يخلّبون منها القدر الذي يقوم لهم مقام الماء في يوم شربهم..... ٢٤٠
- الصفة السادسة: يوم مجيئها إلى الماء كان جميع الحيوانات يمتنعن عن الورد فيه على الماء..... ٢٤١
- الصفة السابعة: أن تركت أكل في أرض الله، ولا تهمل في أن تتفكر عقولهم في أنها آية من الله..... ٢٤٢
- الصفة الثامنة: كانت مسالمة..... ٢٤٣
- الأساس السادس: تذكيرهم بالتاريخ ليقوموا بمقتضيات الاستخلاف والتمكين في الأرض..... ٢٤٨
- الأساس السابع: تذكيرهم بالواقع الحاضر حيث حباهم الله بعمرانٍ متميز، وحضارة فريدة..... ٢٥١
- الأساس الثامن: تذكيرهم بعجائب صنع الله في النعم التي تحيط بهم، والنقم التي سمعوا بها..... ٢٥٤
- الأساس التاسع: تحذيرهم من صناعة الإفساد في الأرض..... ٢٥٥
- المشهد الثالث: الملأ المستكبر المفسد يتحركون لإيقاف تأثير دعوة صالح [الأعراف: ٧٥-٧٧]..... ٢٥٧
- المشهد الرابع: انتقال الملأ المستكبرين من مرحلة التشكيك إلى مرحلة الاعتداء، فارتكبوا الجرائم الثلاثية [الأعراف ٧٧]..... ٢٧٩
- الجريمة الأولى: عقر الناقة وهي الجريمة الكبرى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ [الأعراف ٧٧]..... ٢٧٩
- الجريمة الثالثة: إعلانهم السخرية بصالح عليه السلام، وبما أتى به [الأعراف: ٧٧]..... ٢٩٢
- المشهد الخامس: ختام القصة حيث ظهرت لها نتيجتان: دمار المستكبرين وأتباعهم، ونجاة صالح عليه السلام مع من معه من المؤمنين [الأعراف ٧٨-٧٩]..... ٢٩٦
- النتيجة الأولى: نزول العذاب في وقته المسعى عند الله عز وجل..... ٢٩٦
- النتيجة الثانية في ختام القصة: إظهار نقاء المصلحين، ومحبتهم لصالح البشرية..... ٣٠٥
- الدورة الرابعة: حضارة دولة قوم لوط..... ٣١٣
- وفما قام لوط عليه السلام في مواجهة نوع من أخطر أنواع الإفساد في الأرض، وهو الفساد الخلقي الذي يدمر البشرية بالشهوات الشاذة المحرمة: [الأعراف ٨٠-٨٤]..... ٣١٣
- المشهد الأول: التعرف إلى القيادة النبوية الجديدة، ويبيّن حرف الواو في قوله: ﴿وَلُوطًا﴾..... ٣١٣
- المشهد الثاني: الأدوية المتقنة التي قدمها لوط عليه السلام لعلاج الانحراف الشاذ لقومه..... ٣٢٠
- العلاج الأول: التركيز الشديد على الإفساد الخطير الذي اتصف به قومه..... ٣٢٠
- العلاج الثاني: الإنكار: فكلمة ﴿أَتَأْتُونَ﴾ سؤال إنكاري..... ٣٢٧
- العلاج الثالث: الاختيار: فكلمة: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ يصورهم وهم يتحركون بمحض اختيارهم..... ٣٢٨

- العلاج الرابع: تفضيع الجماعة في الفعل: وببصرنا بذلك واو الجماعة في قوله: ﴿أَتَأْتُونَ﴾..... ٣٣٠
- العلاج الخامس: تسمية ما يفعلونه باسمه الحقيقي: ﴿أَلْفَحِشَةً﴾..... ٣٣١
- العلاج السادس: اختراع هذه الفاحشة المنكرة لأول مرة في حياة البشر..... ٣٣٣
- العلاج السابع: التساؤل عن جريمتهم بصورة تستفز عقولهم: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾..... ٣٣٦
- العلاج الثامن: الإجابة عن السؤال الإنكاري بإخبارهم أنهم يفعلون الفعل الشنيعة بوضوح..... ٣٣٦
- العلاج التاسع: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ [الأعراف: ٨١]، ففجَّ لهم الأمر..... ٣٣٨
- العلاج العاشر: يصور لهم أنهم سيصلون إلى تدمير الإنسانية باستباحة هذه الجريمة..... ٣٤٣
- العلاج الحادي عشر: لفت نظرهم إلى أن فعلهم إسراف..... ٣٤٤
- البيان الإعجازي في تحريم الفاحشة: قراءة في الأسلوب القرآني الفريد في سورة الأعراف..... ٣٤٧
- الإعجاز التشريعي في معالجة الانحراف: قراءة في الخطاب القرآني لنبي الله لوط عليه السلام..... ٣٥٢
- المشهد الثالث: الفاحشيون يقررون تهجير المتطهرين خارج الأرض، وهنا نرى قرار الاعتداء على لوط عليه السلام وأهله: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ ۚ﴾..... ٣٦١
- المشهد الرابع: ختام القصة والنتيجة المتوقعة: نجا الأطهار الأخيار، وهلك الفجَّار..... ٣٧٤
- قصة لوط عليه السلام: قراءة مقارنة بين النص القرآني والتوراتي..... ٣٨٤
- الحكمة من عدم التعرض لقصة إبراهيم عليه السلام في سورة الأعراف..... ٣٨٧
- تنوع التسميات لجريمة قوم لوط عليه السلام: كشف لأبعادها وخطورتها..... ٣٨٨
- العقوبة الشرعية المقررة لمركبي هذه الفاحشة:..... ٣٨٨
- أهم أسباب شيوع هذه الفاحشة:..... ٣٩١
- الدورة الخامسة: حضارة دولة مدين..... ٣٩٥
- وفيما برز شعيب عليه السلام: ليمثل القيادة الخامسة للذرية الأدمية في مواجهة الإفساد الاقتصادي والأخلاقي [الأعراف: ٨٥-٩٣]..... ٣٩٥
- المشهد الأول: المناسبة والاتصال بين هذه الدورة الحضارية وما قبلها..... ٣٩٦
- المشهد الثاني: انتماء شعيب عليه السلام إلى قومه: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾..... ٣٩٩
- المشهد الثالث: أركان الإصلاح الإسلامي التي أرسل بها شعيب عليه السلام [الأعراف: ٨٥-٨٧]..... ٤٠٣
- الركن الأول: أول قضية تصلح بها الدنيا قضية الألوهية..... ٤٠٣
- الركن الثاني: وجود البيئة الدالة على صدق رسالته..... ٤٠٥
- الركن الثالث: الإصلاح الاقتصادي..... ٤٠٨
- الركن الرابع: الإصلاح الإداري والحقوق مما يؤدي إلى حفظ نظام الأمة..... ٤١٢

- الركن الخامس: المحافظة على صلاح البيئة وإصلاحها..... ٤١٨
- الركن السادس: تغذية الشعور بأن هذه التعاليم العظيمة لها أهميتها في حياتهم الفردية والجماعية، وهذا يحفزهم لتطبيق الأركان الخمسة السابقة، فهو خير لهم في الحياة الدنيا والآخرة..... ٤٢٢
- الركن السابع: حفظ العلاقات الدولية وحراسة الطرق المحلية والعالمية..... ٤٢٨
- الركن الثامن: حماية الناس ليختاروا القرار الصحيح بالاستماع لشعيب عليه السلام..... ٤٣٣
- الركن التاسع: حماية الناس والمؤمنين ليتخذوا قرارهم الصحيح باتباع شعيب عليه السلام..... ٤٣٣
- الركن العاشر: التحذير من إظهار سبيل الله مُعْجَزةً أمام العالم..... ٤٣٧
- الركن الحادي عشر: تذكر أن التمكين ليس إلا مَنَّة من رب العالمين ابتلاء واختبارًا..... ٤٤٢
- الركن الثاني عشر: الاعتبار بالتاريخ وسنن الله ﷻ في الكون..... ٤٤٥
- الركن الثالث عشر: التذكير بسنة الصبر، وهي سنة اجتماعية..... ٤٤٦
- المشهد الرابع: قوى الاستكبار تفتتح حملة الاضطهاد ضد القوى المصلحة أي: ضد شعيب عليه السلام وأتباعه المؤمنين [الأعراف: ٨٨]..... ٤٥٤
- المشهد الخامس: مشهد الرد الحكيم الصاعق أمام التهديدات المستكبرة [الأعراف ٨٨-٨٩]..... ٤٧٧
- المعلم الأول: المباشرة في الردِّ مع الحكمة في الكلمات والأسلوب..... ٤٧٨
- المعلم الثاني: إعلان تعظيم الله ﷻ أمام المستكبرين، وتعظيم دينه الذي ارتضاه..... ٤٨٣
- المعلم الثالث: العودة إلى الملة الوثنية يعني نفي وجود الحقيقة الإنسانية..... ٤٩٣
- المعلم الرابع: بيان سَعَةِ علم الله ﷻ وشموله..... ٥٠٢
- المعلم الخامس: الاعتزاز الكامل بالتوكل على الله ﷻ..... ٥٠٥
- المعلم السادس: طلب من الله ﷻ الفصل الذي يؤدي إلى النصر والفوز على المستكبرين..... ٥١٠
- المشهد السادس: تزايد تأثير شعيب عليه السلام، والكافرون يلجؤون إلى التهديد الشديد..... ٥٢١
- المشهد السابع: مجيء حكم الله ﷻ، ختام قصة عهد مدين، وعواقبها المتوقعة المحسومة:..... ٥٣٣
- العاقبة الأولى: نزل عليهم عذابٌ مخصوصٌ هو الرجفة..... ٥٣٣
- العاقبة الثانية: الخسارة الكاملة:..... ٥٣٧
- العاقبة الثالثة: إظهار نفسية الرسل العظيمة..... ٥٤٤
- فهرس الموضوعات..... ٥٥٤



للتعرف على مؤسسة بصائر المعرفة القرآنية

الأستاذ الدكتور عَجَبُ السَّالَامِ مُقْبِلُ الْحِجْدِي

امسح الرمز

- رئيس مؤسسة بصائر المعرفة القرآنية، ومؤسس مشروع تسوير السور القرآنية.
- أستاذ دكتور في قسم القرآن والسنة/ كلية الشريعة/ جامعة قطر حالياً، وجامعتي حضرموت وذمار سابقاً.
- شارك في تحكيم نحو 30 مسابقة دولية للقرآن الكريم في أنحاء متفرقة في العالم.
- أشرف وناقش العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه. في جامعات ذمار وحضرموت، وقطر وعمان.
- قدّم عدداً من البرامج الإعلامية، والدورات العلمية والتدريبية في التفسير وعلوم القرآن في عدة دول.

نَضَائِرُ الْمَعْرِفَةِ الْقُرْآنِيَّةِ نَسَبُ السُّورِ الْقُرْآنِيَّةِ مِنْصَلَقَتَيْنِ سُوْرَةُ الْاَعْرَافِ الْكِتَابُ الْاَلْفِ

هَآكْ لَبَنَةٌ جَدِيدَةٌ يَعْطُوْهَا الْبُنْيَانُ فِي هَآذَا الْإِصْدَارِ الرَّابِعِ، مُسْتَكْمِلًا مَسِيرَةَ الْأَجْزَاءِ الثَّلَاثَةِ السَّابِقَةِ وَمَوَاصِلًا الْغَوْصَ فِي بَصَائِرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ؛ لِيَقِفَ بِكَ عَلَى مَحَوْرٍ مَفْصَلِيٍّ هُوَ: "مَيْدَانِ التَّدَافُعِ التَّارِيخِيِّ بَيْنَ الْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَسُنَنِ الصِّرَاحِ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمَلَأِ الْمُسْتَكْبِرِينَ". وَعَبْرَ صَفَحَاتِ هَآذَا الْكِتَابِ سَيَسْتَقْرِئُ فُؤَادُكَ الْيَقِيْنَ، وَتَسْكُنُ نَفْسُكَ إِلَى الثَّبَاتِ وَأَنْتَ تَقْرَأُ سِيرَ الصَّفْوَةِ الْمُصْطَفَاةِ، قَادَةَ الْبَشَرِيَّةِ، وَحَمَلَةَ مَشَاعِلِ النُّورِ فِي دِيَاجِرِ الظُّلُمَاتِ، أُولَئِكَ الَّذِينَ وَاجَهُوا طُغْيَانَ الْقُوَّةِ بِسُلْطَانِ الْحَقِّ، فَالْبَشَرُ فِي حَاجَةٍ مَاسَّةٍ أَنْ يَعْرِفُوا سُنَنَ اللَّهِ فِي التَّغْيِيرِ، بَلْ تِلْكَ أَعْظَمُ الْمَعَارِفِ، فَإِذَا أَبْصَرُوا مَصَارِعَ الْغَابِرِينَ، وَمَنَارَاتِ النَّاجِينَ، لَرُمُوا غَرَزَ الْأَنْبِيَاءِ، وَسَارُوا عَلَى دَرَجِهِمْ.

سَتَقِفُ -أَيُّهَا الْمُتَدَبِّرُ- عَلَى جَوَاهِرِ نَفِيسَةٍ فِي قَوَانِينِ النَّصْرِ وَالتَّمَكُّينِ، وَسَتَنْظُرُ بِمِنْظَارٍ قَرَأْنِي كَاشِفٍ خَمْسَ دَوْرَاتٍ حَضَارِيَّةٍ كُبْرَى، ثُمَّ تَدْخُلُ إِلَى عَالَمِ الصِّرَاحِ فَتَشْعُرُ بِالْعِزَّةِ وَالْهِمَّةِ وَأَنْتَ تَقْرَأُ بَيْنَ السُّطُورِ كَيْفَ دَخَضَ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ شُهُبَاتِ الْمُبْطِلِينَ، فَتَخْبِي نَفْسُكَ بِهَآذَا الْبَيَانِ، وَتَسْتَقِيمُ حَيَاتُكَ عَلَى مَنَهِجِ الْإِيمَانِ.